القولُ الطَّيِّب

مِن كلمات ومُحاضرات الإمامِ الأكبر أحمد الطَّيب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القولُ الطَّيِّب

مِن كلمات ومُحاضرات الإمام الأكبر أحمد الطَّيب

شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ
رئيسِ مجلسِ حُكماء المسلمينَ

الجزء الثاني

الحكماء للنشر

أبو ظبي

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

الطبعة الأولى

ثَبتٌ إجماليٌّ بموضوعات الجزء الثاني

٩- في حوار الأديان ١١

الإسلامُ والأديانُ ١٣

ابن عربي والأخوة الإنسانية ٣٥

عقباتٌ في طريقِ الحِوار ٤١

على طريق الحوار ٤٩

الإسلام والمسيحيَّة ومحور التَّلاقي ٦٧

مصر ملتقى الأديان السماوية ٧٥

بيتُ العائلةِ المصريَّةِ ٨١

المواطنة والأديان السماوية رؤية في القيم المشتركة ٨٣

الإسلام والرسالات الإلهية السابقة ٨٩

دور الأديان في توحيد الأوطان ٩٥

سؤال القِيَم الدينية وأزمة المجتمعات المعاصرة ١٠٧

١٠- الشرق والغرب ١١٩

الغربُ والشَّرق في عصر العَولمَة ١٢١

الشَّرقُ والغَربُ والسَّلامُ المَنْشُود ١٢٧

دعوةٌ إلى التَّعارُفِ ١٣٧

رأيٌ في حِوارِ الشَّرقِ والغربِ ١٤٥
نَحوَ عالَمٍ مُتكامِلٍ ومُتفاهِمٍ ١٥٥
كلمةٌ إلى المجتمع المسلم في الغرب ١٦٣
كَلِمَةٌ في البَرلَمانِ الألمانيِّ ١٦٩
الشرق والغرب.. وامتلاك الحقيقة المطلقة ١٨٣
التَّعارُفُ قانون التَّلاقي بين الأمَم والشُّعوب ١٩٥
الإسلام والبرتغال من جذور الاتصال الفكري إلى تحقيق المواطنة ٢٠٥

١١- فقه الأزمة والوعي الغائب ٢١١

الخلافُ المذهبيُّ والصِّراعُ الموهوم ٢١٣
كلماتٌ في استردادِ الوَعي ٢٢٧
تَهافتُ الفِكرِ الفقهيِّ عندَ دُعاةِ الغُلُوِّ والتّشدُّدِ ٢٣٥
كلمةٌ في فِكر الأزمة ٢٤٥

١٢- عن المرأة والأسرة ٢٥١

الوراثةُ الهندسيَّةُ مِن منظورِ الإسلامِ ٢٥٣
الضَّوابطُ الأخلاقيةُ للهندسةِ الوراثيةِ «البيوتكنولوجي» ٢٥٧
الزّواجُ العُرفيُّ والعَبثُ بكِيانِ الأُسرةِ ٢٦١
المرأةُ بينَ تعاليمِ الدِّينِ وتَوجُّهاتِ الحَداثةِ ٢٦٧

١٣- كلمات في الشأن العام ٢٧٥

حديث في الثقافة ٢٧٧

عقبات في طريق الإصلاح ٢٩١
الهيئات الإغاثية والأوضاع الراهنة ٢٩٧
القوى السِّياسية المصرية في رِحاب الأزهر الشَّريف ٣٠٣
الهيئات الإغاثية والتَّحدِّيات المجتمعيَّة ٣٠٧
الطَّفرة الرَّقميَّة ومخاطر الكلِمة ٣١١
إغاثة الملهوف من أمارات الأخوَّة في الإسلام ٣٢١
الرِّياضة وأثرها في نشر السَّلام العالمي ٣٢٥
مصر والجندية في الإسلام ٣٢٧
الجيش المصري .. الجند الغربي ٣٣٣
نعمة المياه في الثقافة الإسلامية ٣٣٧
الأخوة الإنسانية.. وأزمة العالَم المعاصر ٣٤٥
رسالة الإمام الأكبر للعالم بشأن وباء كورونا ٣٥٥
بيان بمناسبة تنمُّر بعض الناس على المصاب بداء كورونا ٣٥٩

١٤- القضية الفلسطينية ٣٦١

القضية الفلسطينية... وواجبات الأمَّة المنسية ٣٦٣
مؤتمرُ الأزهرِ العالَميُّ لنُصرةِ القدسِ ٣٦٧

١٥- مع أعلام الإسلام ٣٧٥

أبو يزيد البِسطامي (١٨٨-٢٦١هـ/ ٨٠٤ - ٨٧٥م) ٣٧٧
الإمامُ محمَّد عبده .. متكلِّمًا ٣٨٣

الأُستاذُ الأكبر الشَّيخ محمود شَلتُوت «إِمامَةٌ في العِلْمِ، وعَبقَرِيَّةٌ في التَّجديدِ» ٤٠٧

١٦- عن الطفولة وحقوقها ٤١٥

الطفولة في الإسلام رعاية وكرامة ٤١٧

مستقبل أطفالنا في مرآة التكنولوجيا الحديثة ٤٢٣

١٧- طلائع الكتب ٤٣١

طليعةُ كتاب «التَّجلِّيات الرُّوحيَّة في الإسلام» ٤٣٣

طَليعةُ «التفسير الواضح» ٤٣٧

طليعة كتاب «التصوف والميستيسزم: دراسة اصطلاحية» ٤٥٣

العلَّامة محمد أبو زهرة وكتابه «نظرية الحرب في الإسلام» ٤٥٩

طليعةُ «إحياء عُلومِ الدِّينِ» للإمام الغَزالي ٤٦٣

طليعة كتاب «الأزهر في مواجهة الفكر الإرهابي» ٤٦٧

طَلِيعةُ كتاب «الأزهر في مواجهة المفاهيم المغلوطة» ٤٦٩

طليعةُ كتاب «دليل مَعلَمة المناهج الأزهريَّة» ٤٧٥

١٨- حوارات صحفية ٤٨٧

حوار فضيلة الإمام الأكبر مع مندوب صحيفة «الاتحاد» الإماراتية ٤٨٩

حوار فضيلة الإمام الأكبر مع مندوب صحيفة «الخليج» الإماراتية ٤٩٧

حوارٌ شامِلٌ مع فضيلةِ الإمام الأكبر شيخ الأزهر ٥٠٥

١٩- الباب الجامع ٥١٥

ازدواجية التعليم ٥١٧

كلمة في احتفال «جائزة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان للكتاب» ٥١٩

كلمة بمناسبة منح الأزهر الدكتوراه الفخرية للملك عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود ٥٢١

كلمة في زيارة الحديقة الأولمبيَّة ٥٢٧

كَلِمَةٌ إلى الشَّبابِ كلمةٌ إلى الشباب ٥٢٩

كَلِمةٌ إلى الشَّبابِ ٥٤١

الطِّبُّ والأطبّاء في التراث العربي الإسلامي ٥٤٥

كلمة شكر لجامعة بولونيا بإيطاليا ٥٤٩

كلمة شكر لجامعة أمير سونكلا بتايلاندا ٥٥٥

كلمة على مائدة الغداء بقصر لامبث ٥٥٧

في
حوار الأديان

الإســلامُ والأديـانُ(*)

بسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

الإسلامُ امتدادٌ طبيعيٌّ للرِّسالات السماوية السَّابقة، ويشكِّل في منظوماتها الحلقةَ الأخيرة.

وباعتباره الصِّيغةَ النهائية التي أرادَها اللّه للبشريَّة إلى نهاية الزمان، وبحُكم ترتيبه التَّاريخي، وكونه آخرَ الأديان السَّماوية ظهورًا على مسرحِ الواقع - فإنه يشتملُ على شيءٍ من التفصيل والتَّوضيح في أمور العقائدِ والأحكام الشَّرعية والأخلاقيَّة، قد لا نجده في الرِّسالات السَّماوية السابقة.

وها هنا حقيقتان، يجبُ أن نتنبَّه لهما جيِّدًا:

الأولى: أنَّه لا توجد أديانٌ مختلفة في منطقِ القرآن الكريم، وإن وجدت رسالاتٌ إلهيَّة تختلف من حيثُ التَّشريع فقط، لا من حيثُ العقيدة أو الأخلاقُ.

وترتيبًا على ذلك؛ فإنَّ الدِّين الإلهيَّ في منظورِ القرآن الكريم دينٌ واحد، وكلُّ الأنبياء والمرسلين -من لدُن آدم عليه السلام وإلى النبيِّ الخاتم محمَّد ﷺ- بشَّروا بدينٍ واحد، وحملوا رسالةً واحدة، واشترَكوا في دعوةٍ واحدة؛ هي دعوةُ الناس إلى توحيدِ اللّه تعالى، وإفراده وحدَه بالعبادة، والخضوع، والخوف، دون غيرِه من سائر الكائنات؛ أشخاصًا كانت هذه الكائناتُ أم أشياءً، ظاهرة أم خفيَّة، طبيعيَّةً أو صناعيَّةً.

(*) أصل هذه الكلمة؛ محاضرة ألقيت بالولايات المتحدة الأمريكية، في عام: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

وكما بشَّر الأنبياءُ بدين واحدٍ، وعقيدة واحدة؛ فإنَّهم أيضًا بشروا بمنهج أخلاقي واحد، وبمنظومة ثابتة من القيَمِ؛ لا تختلفُ بين رسالة ورسالةٍ، ولا بين نبيٍّ ونبي..

وعلى رأسِ هذه القيَم:

- قيمةُ العدل والمساواةِ.
- والإحسان إلى النَّاس.

وتأتي جريمة الظُّلمِ، أو البغيِ، أو الاعتداءِ على الآخرين على رأس قائمةِ الجرائم الأخلاقيَّة التي حرَّمها اللَّه على نفسِه، وحرمها على عباده، لا نعرفُ في بشاعة هذه الجريمة المنكرَة فرقًا بين رسالةٍ ورسالة أخرى، ولا بينَ تشريع وتشريع آخرَ من تشريعات السَّماء.

يقول اللَّه في القرآن الكَريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٠].

ويقولُ في الحديث القدسيِّ، الذي بلَّغه محمَّدٌ إلى النَّاس جميعًا:

«**يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا؛ فلا تَظالَموا**»(١).

ونحن المسلمين، نعتقدُ أنَّ الإسلامَ -كما جاء به محمَّد ﷺ- هو رسالةٌ مكمِّلة للرسالات السَّابقة، أو هو حَلْقَةٌ أخيرة اكتملَ بها الدِّين، وهو لا يُشكِّل نَشازًا في سياق الرسالات الإلهية المتقدمة عليه، ولا يَنقضُ منها أصلًا من أصولِها، ولا يهدم ثابتًا من ثوابتها.

وما دامَ المصدر الذي انبثقَ منه هذه الرِّسالات مصدرًا واحدًا -كما نؤمن نحن المسلمين- فمن المحتَّم أن تتَّحد هذه الرِّسالاتُ، وتتَّفقَ جميعُها

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه.

في أهدافِها وتوجُّهاتها، ومن المستحيل أن تتضارَب أو تتناقض أو تتعارض حولَ هذه الأصولِ والثَّوابتِ.

وقد نزلَ القرآن بهذه الحقيقة على نبيِّ الإسلام، وأعلنَها النَّبي ﷺ في لقائه الأخير بجماهير المسلمين في حجَّة الوداع، وتلا عليهم قولَ اللَّه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الحقيقةُ الثَّانية التي يجب أن نتنبَّه إليها؛ هي: أن كلمة الإسلامِ التي وردَت في القرآن لا يُقصد منها -في أغلب المواضع- الرِّسالةُ التي نزلت على النبيِّ محمَّدٍ ﷺ، بل يُقصد منها -كما أشرنا من قبل- الدِّينُ الإلهي الذي اختاره اللَّهُ لهدايةِ الإنسانيَّةِ كلِّها، منذ بدء الخَليقة وإلى انتهاء الزَّمان والمكان.

ومن هنا؛ وجدنا القرآنَ في أكثرَ من موضعٍ يسمِّي الأنبياء السَّابقين على محمَّدٍ بالمسلمين؛ انطلاقًا من أنَّ الإسلام ليس هو فقط ما أُنزل على محمَّد، بل هو الرِّسالة العامَّة المشترَكة، التي حملَها الأنبياءُ جميعًا.

ومن هنا؛ يؤكِّد القرآنُ على أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا، ولا نصرانيًّا، ولا مشركًا؛ وإنَّما كان حنيفًا مسلمًا.. ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقد نزلَت هذه الآية لتبيِّنَ زيفَ اعتقاد البعض من أتباع الدِّيانات والملل، وزعمِهم أنَّ إبراهيم كان ينتمي إلى اليهوديَّة، أو إلى المسيحيَّة، أو إلى الوثَنية، ولتؤكِّد أن إبراهيمَ كان مسلمًا.

ومن البدهيِّ أن نستنتجَ من هذا النَّص القرآني أنَّ وصف إبراهيم بأنَّه مسلم لا يعني بحال من الأحوال أنَّه من أتباع الإسلام، الذي هو الرِّسالة المحمَّدية، فهذا أمرٌ لا يعقل؛ لأنَّ رسالة الإسلام التي نزلَت على محمَّد هي حلقةٌ متأخِّرة كثيرًا عن زمن إبراهيمَ، فكيف ينتسب إليه؟! الأمرُ الذي يبرهنُ

على أنَّ الإسلام في القرآن هو عنوانٌ عام على كلِّ رسالات الأنبياء السَّابقين على محمَّد، ويَنطبق بنفس المعنى على الرِّسالة التي أُنزلت على محمَّد؛ وهي الرِّسالة الخاتمة، أو الإسلامُ بمعناه المعروف، والشَّائع الآن.

وقد احتجَّ القرآنُ على مَن يقول بانتسابِ إبراهيم أو غيرِه من الأنبياء السَّابقين إلى التَّوراة أو الإنجيل -بأنَّ هذا القول تُكذِّبه بدهيَّاتُ العقل والعلمِ والتَّاريخ؛ إذ من المستحيل عقلاً انتسابُ شخصٍ إلى مذهب أو كتاب مقدَّس يَظهرُ بعدَه بقرون متطاولة، وهذا ما نقرأه صريحًا في القرآن.. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥](١).

وإذًا؛ فحين يُقرِّر القرآنُ أن إبراهيم كان مسلمًا، وأنَّه مسلمٌ قبلَ نزول التَّوراة والإنجيل والقرآن بقرونٍ متطاولة -فليس أمامَنا إلَّا فهْم واحد، أو استِنتاج واحد؛ هو: أنَّ الإسلام في القرآن ليس عنوانًا على دينٍ خاصٍّ محدد، بل هو أشبَه أن يكون اسمًا أو عنوانًا على دينٍ مشترَك بين الأنبياء جميعًا، وأنَّ هذا الدِّين المشترَك ظهر وامتدَّ واكتمَل في صورةِ سلسلة من الحلقات، يَتلو بعضُها بعضًا، ويكمِّل اللَّاحق منها السَّابقَ، وأنَّ الحلقة الأخيرةَ في دين الإسلام هي الرِّسالة التي نزلَت على محمَّد خاتم الأنبياءِ والمرسلين.

هذا ما نفهمُه -نحن المسلمين- حين نقرأُ القرآن.

ونعلَم منه أنَّ إبراهيم كان مسلمًا.

وأنَّه دعا اللَّه هو وولده إسماعيل بأن يجعلَهما مسلمَينِ، وأن يجعلَ من

(١) انظر أيضًا نفس الموضوع في الآية ١٤٠ من سورة البقرة.

ذريَّتهما أمَّة مسلمةً. . ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وأنَّ كلًّا من إبراهيم ويعقوب وصَّى أبناءه بأن يكونوا من المسلمين. . ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وأنَّ أبناء يعقوب قالوا لأبيهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وأنَّ نوحًا أعلن لقومِه أنه من المسلمين. . ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢][(١)].

وأنَّ موسى قال لقومِه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأنَّ الحوارِيِّين قالوا لعيسى بنِ مريم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وإذَن؛ فالإسلام الذي يتَّبعه المسلمون في شرقِ البلاد وغربِها -هو رسالةٌ شديدة الارتباط بالأديان السَّماوية، ولا يخرجُ في حقيقته عمَّا جاء في هذه الرِّسالات الإلهيَّة، بل إنَّ شريعة الإسلام هي في كثيرٍ من وجوهها نفسُ الشَّرائع السابقة.

(١) مما يدلُّ على وَحدة الإسلام الإلهيَّة: أنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ سيُردِّد لاحقًا نفسَ عبارة نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

والقرآنُ يقرِّر هذه الحقيقةَ في قول اللَّه تعالى مخاطبًا المسلمين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ونحن -المتخصِّصين في العلوم الإسلاميَّة- نحفظُ من القواعد الفقهية القاعدةَ المشهورة: «شرعُ مَن قبلَنا شرعٌ لنا، ما لم يَرِد ناسخٌ».

* * *

وإذا عُدنا إلى الوَحدة العُضوية التي تربطُ الإسلام بالرِّسالات الإلهية السَّابقة -وجدنا أنَّها لا تقتصرُ على الإسلام؛ كمضمونٍ ومحتوًى، بل تمتدُّ لتشمَل:

- علاقةَ نبيِّ الإسلام بالأنبياء السَّابقين.
- وعلاقةَ القرآن بالكتب السماوية السابقة.

فنبيُّ الإسلام يُصدِّق إخوانه الأنبياء، ويؤمنُ بهم، ويُتمِّم ما بدأوه من دعوة النَّاس إلى اللَّه..

ويقرأُ المسلمون في هذا المعني قرآنًا يُتلى على مسامعِهم صباحَ مساء، يقول:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد صوَّر محمَّد ﷺ الوَحدة العضويَّة، التي تجمعُ بينه وبين إخوته من الأنبياء والمرسلين عبرَ التَّاريخ في صورة جميلة، يقولُ فيها: «أنا أولَى

النَّاسِ بعيسى ابنِ مريمَ في الدُّنيا والآخرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ»(١)

أي: أنَّ الأنبياء يُشبهون إخوةً من أبٍ واحد وأمَّهات شتَّى.. والأبُ الواحد هو الدِّين الذي يجمعهم جميعًا، والأمهاتُ التي تفرِّقهم هي الأزمنةُ والأمكنة التي يختلفُ بها نبيٌّ عن نبيٍّ، ورسولٌ عن رسول.

ونفسُ الشَّيء يقالُ على علاقة القرآن الكريم؛ بالكتب السَّماوية التي سبقته، فهو يُتَمِّمها ويكملها:

ونحن نتعلَّم من القرآن أنَّ الإنجيلَ مصدِّق ومؤيِّد للتَّوراة، وأنَّ القرآن مصدِّق ومؤيِّد للإنجيل، وللتَّوراة، ولكلِّ ما سبقَه من الكتب السَّماوية..

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

هكذا نستطيعُ أن نُقرِّر في ثقةٍ مطلقة، ويقين لا يهتزُّ:

- أنَّ الإسلام -كدين- هو امتدادٌ للأديان الإلهيَّة السابقة عليه.

- وأنَّ رسولَه مصدِّق بكلِّ الأنبياء والمرسلين السَّابقين عليه.

- وأنَّ القرآن نزلَ على محمَّد مُصَدِّقًا للإنجيل الذي أُنزل على عيسى،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال القاضي عياض في «إكمال المعلم بفوائد مسلم» ٧/ ٣٣٧: «معناه: أن الأنبياء يختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، وبين بعضهم وبعضٍ أنبياء أخر، وإن شملتهم النبوة وكأنهم أولاد علات، إذ لم يجمعهم زمن واحد، كما لم يجمع أولاد العَلَّات بَطنٌ واحدٌ. وعيسى لما كان قريب الزمن منه (أي من عيسى) ولم يكن بينهما نبي، فكأنهما في زمن واحد وابني أم واحدة، فكان بخلاف غيرهما، فلذلك قال: أنا أولى به».

والذي هو بدورِه مصدِّقٌ للتَّوراة التي تلقَّاها موسى وحيًا من اللَّه.

هذه هي الأصولُ القرآنيَّة التي حكمَت تصوُّرات المسلمين، وتركَت بصماتِها قويَّة وعميقة على علاقتِهم بغيرهم من أهل الأديان السَّماوية؛ منذ أيَّامهم الأولى..

فنحن نؤمنُ بموسى وعيسى كما نؤمن بمحمَّد؛ سواءً بسواء، ونعتقدُ أن التَّوراة كتابُ اللَّه، وأنَّ الإنجيل كتابُ اللَّه، وأنَّهما هدًى ونورٌ للنَّاس.

وقد تعجبون لو قلتُ: إنَّ كثيرًا من فقهاء الإسلام يُقرِّرون أنَّه إذا كان لا يجوزُ للمسلم الجنب، والمسلمة الحائض أن يمس أي منهما القرآن حتى يتطهر؛ فإنَّه لا يجوزُ لأيٍّ منهما -أيضًا- أن يمسَّ التوراة أو الإنجيل حتى يَغتسل.

❊ ❊ ❊

إذا انتقلنا إلى القرآن؛ وجدناه شديدَ الوضوح في تأصيل علاقةِ الإخاء بين المسلمين والمسيحيِّين، وابتناءِ هذه العلاقة على أصلِ المودَّة والمحبَّة، وهذا ما عبَّر عنه الوحي الإلهيُّ الذي نزلَ على قلب محمَّد ﷺ بقولِه تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٣].

ونجدُ في القرآن حديثًا عذبًا جميلًا عن سيِّدنا عيسى عليه السلام فهو مع أمِّه مريم -عليها السَّلام- آيةً من آيات اللَّه الكبرى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وفى القرآن حديثٌ رائعٌ، وتصوير شجيٌّ لآلام السَّيدة مريم ومعاناتها، وفيه سورةٌ كاملة تُسمَّى «سورة مريم»، بينما لا نجدُ فيه سورة سُمِّيَت باسم

زوجة من زوجات النَّبي محمَّد ﷺ، ولا ابنةٍ من بناته.

وفي القرآن سورةٌ -من أوائل ما نزلَ من السُّور المكيَّة- تُسمَّى سورةَ البروج (سورة رقم: ٨٥)؛ تضمَّنت مدحًا لنصارى نجران، وثناءً عليهم، وهم يُفضِّلون الموتَ حرقًا على ترك إيمانهم باللَّه العزيزِ الحميد؛ كما يقولُ القرآن.

وفي القرآن سورةٌ أخرى -مكيَّة أيضًا- تُسمَّى سورةَ الرُّوم؛ تصوِّر الآياتُ الأولى فيها تعاطفَ المسلمين مع المسيحيِّين الرُّوم في هزيمتهم أمامَ المجوس -الفُرْس-[(١)]، وقد هلَّل أهلُ مكَّة لانتصار الفرس الوثنيين على الروم المسيحيين، وعيَّروا المسلمين بهزيمة الرُّوم، وحين ضاقَ المسلمون بذلك طمأنهم النَّبي ﷺ، وقال لهم: «أمَا إنَّهم -الرُّومُ- سيَغلِبون»[(٢)]، ثم نزلَ القرآن ليؤكِّد أنَّ الرُّوم المؤمنين سيَغلِبون الفُرس الوثنيين في بضعِ سنوات، ويومَها سيفرحُ المؤمنون من الرُّوم والمسلمين بنصرِ اللَّه، وتحقُّقِ وعده بانتصار الرُّومِ على الفرس.

ولا يخفى هنا وصف القرآن للمسلمينَ والرُّوم بالمؤمنين، وكأنهم أقرباء تربطُ بينهم وشائجُ القربى والمودَّةِ.

ونودُّ أن نبيِّن أنَّ هذه العلاقة الحميمةَ التي يؤكِّد عليها الإسلامُ بين أتباعه وبين المسيحيِّين -ليست أمرًا مصطنعًا فرَضته العلاقاتُ السياسيَّة، أو الرَّغبة في إقرار حسن الجوار، وإنما هي أصلٌ من أصول هذا الدِّين، وثابتٌ من ثوابته التي لا تتبدَّلُ بتبدُّل الأحوالِ والظُّروف.

---

(١) كان ذلك سنة: ٦١٥ ميلادية، حين غزا ملك الفُرس «خسروا ابن هرمز» مملكة الروم في بلاد الشام وفلسطين، وكانت تحت سيطرة «هرقل» قيصر الروم، وكانت هزيمة الروم - المملكة الشرقية للرومان- في أطراف بلاد الشام، الملاصقة لبلاد العرب، بين «بُصرى» و«أذرعات».

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣١٩٣) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

والدَّليلُ على ذلك: هجرةُ المسلمين الأوائل إلى الحبشة المسيحيَّة، وملكها المسيحي، وطلب الأمان في ظلاله؛ فرارًا من أذى قريش واضطِّهادهم وتعذيبهم.

ولم يأتمن النبيُّ محمَّد ﷺ دولةً ولا ملكًا آخر على هؤلاء المؤمنين غيرَ هذا الملك المسيحيِّ؛ ولذلك لم يتردد في تشجيع هؤلاء المستضعفين على الاحتماء بالملك المسيحي: «إنَّ بأرضِ الحبَشةِ مَلِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه، فالْحَقوا ببلادِه، حتَّى يَجعَلَ اللَّهُ لكم فرَجًا ومخرجًا ممَّا أنتُم فيه»[(١)].

والغريبُ أنَّ المسلمين الأوائل هاجروا إلى هذا الملك المسيحيِّ مَرَّتين، وكان من بين المهاجرات ابنةُ النَّبي ﷺ وزوجُها.

إنَّ هذه الهجرةَ المتكرِّرة ليست في واقعِ الأمر إلَّا تطبيقًا عمليًّا للأصول القرآنيَّة التي عرضنا جانبًا منها، وهي تعكسُ مدى ثقة النَّبي ﷺ في أتباع سيِّدنا عيسى عليه السلام، وكيف أنَّه كان ينظرُ إليهم كما ينظر الشَّقيقُ إلى أشقَّائه وقت الشِّدَّة، كما تعكس مشاعرَ الوُدِّ والنُّبلِ التي كان يجيشُ بها صدرُ هذا الملك الكريم تجاه المسلمين، وبصورة عبَّرت عنها السَّيدةُ أمُّ سلمة -إحدى المهاجرات- بعبارةٍ تَفيضُ وفاءً وعرفانًا بالجميل، قالت فيها: «فخرجنا إليها -بلاد الحبشَة- حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخيرِ دارٍ، إلى خيرِ جارٍ، أَمِنًا على دينِنا، ولم نخشَ منه ظلمًا»[(٢)].

ومظهرٌ آخر، يَلتقي فيه الإسلام مع المسيحيَّة، جنبًا إلى جنبٍ، في قلب مسجد النَّبي ﷺ؛ وذلك حين جاءَه نصارى نجران من اليمن، في وَفدٍ ضمَّ

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/٣٠١، من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.
(٢) راجع تخريج الحديث السابق.

ستين رجلًا، ليُحاوروه في أمر الإسلامِ، فاستضافَهم النَّبي ﷺ في مسجدِه بالمدينة[(١)].

وقد تصادَف مرَّة أن تزامَن وقت صلاتهم مع صلاة العصر للمسلمين، فقالوا للنَّبي: يا محمَّد، إنَّ هذا وقتُ صلاتنا، وإنا نريدُ أن نؤدِّيها. فقال لهم: «دونكُم هذا الجانب من المسجدِ، صلُّوا فيه»[(٢)].

وهكذا، أُقِيمَت صلاةُ المسلمين خلفَ النَّبي في جانب من المسجد، وأقيمَت إلى جوارِهم صلاةُ المسيحيِّين في الجانب الآخرِ من المسجد نفسِه.

وتُشكِّلُ هذه الحادثةُ الأصلَ التشريعيَّ الذي يستند إليه الفقهاء الذين يُجيزون لغير المسلمين أن يُمارسوا عبادتَهم في مساجد المسلمين.

وعلينا أن نتذكَّر موقفَ نبي الإسلام محمَّد ﷺ من السيِّد المسيح وأمِّه مريم العذراء -عليهما السَّلام-، حين دخلَ مكَّة فاتحًا، ووجد صورَ الأنبياء، والملائكة، والشجر على حوائط الكعبةِ، ووجدَ من بينها صورةَ عيسى وأمَّه، فأمر أحدَ أصحابه أن يمحوَ كلَّ الصُّور إلَّا الصُّورة التي وضعَ يديه عليها، فلما رفع يدَه إذا هي صورةُ عيسى بن مريم وأمِّه[(٣)].

ولقد ظلَّت صورةُ مريم البتول مع ابنها المسيح -عليه السَّلام- مرسومةً على أحد أعمدة الكعبة الدَّاخلية، قبلَ أن يُزيلها تجديدُ الأعمدة.

وينقلُ الذَّهبي -من أكابر مؤرخي المسلمين- في كتابِه: «سير أعلام النبلاء»[(٤)] قولَ عطاء بن أبي رباح، حين سُئل: هل رأيتَ صورةَ مريم

---

(١) «سيرة ابن هشام»: ١/ ٥٧٣، وأورده البيهقي في «دلائل النبوة»: ٥/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه بنحوه ابن إسحاق في «السِّيرة»، ومن طريقه ابن هشام في «السِّيرة»: ١/ ٥٧٤، والطَّبريُّ في «تفسيره»: ٥/ ١٧٢، والبيهقيُّ في «دلائل النُّبوَّة»: ٥/ ٣٨٢، وغيرهم، عن محمَّد بن جعفر بن الزُّبير بن العوَّام.

(٣) أورده الأزرقي في «أخبار مكة»: ١ / ١٦٨.

(٤) ١/ ٦٨، ٦٩، ط مؤسسة الرسالة.

وعيسى؟ قال: نعم؛ أدركتُ تمثالَ مريمَ مُزوَّقًا، في حجرِها عيسى قاعدٌ، وكان في البيتِ -الكعبةِ- ستَّة أعمدة، وكان تمثالُ عيسى ومريم في العمودِ الذي يلي البابَ».

وملمَح آخر -وليس أخيرًا-، يَتَّضِحُ فيه انفتاحُ الإسلام على المسيحيَّة وعلى اليهوديَّة؛ يَتمثَّل هذه المرَّة في اكتساب المسلم حقًّا شرعيًّا في الاقتران بزوجة مسيحيَّة أو يهوديَّة، تبقى على دينها، وتكون شريكةَ حياته، وأمَّ أولاده، وسيِّدة منزله، وكلُّنا يعلمُ عاطفة الحنان والحبِّ والإيثار المتبادلةَ بين الزَّوجين، وأنَّ هذا الحُكم الشَّرعي يعطي للمسلم كامل الحق في أن يحتفظَ بما استطاع من هذه العواطفِ النَّبيلة ليبادلَ بها شريكة حياته المسيحيَّة أو اليهوديةَ.

وهناك وثيقةٌ أملاها النَّبي ﷺ لتكون ميثاقًا بين المسلمين والمسيحيِّين، وهي وثيقةُ نجران؛ وهذا نصُّها:

«ولنجران، وحاشيتِها، ولأهل ملَّتها، ولجميع من يَنتحل دعوةَ النَّصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبِها وبعيدها، فصيحِها وأعجمها -جوارُ اللَّه، وذمَّة محمَّد النَّبي رسولِ اللَّه؛ على أموالهم، وأنفسِهم، وملَّتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتِهم، وبِيَعِهم، وكلِّ ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير.

لا يُغيَّرُ أسقفٌ من أسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيَّته، ولا يُحشرون، أي: لا يكلَّفون بالقتالِ، ولا يُعشَرون، أي: لا يَدفعون العُشر الذي يَدفعه التُّجَّار الأجانبُ، ولا يَطَأُ أرضَهم جيشٌ.

ومَن سألَ منهم حقًّا فبينهم النَّصَفُ، غيرَ ظالمين ولا مظلومين.

وأن أحميَ جانبَهم، وأذبَّ عنهم، وعن كنائسهم، وبِيَعِهم، وبيوتِ صلواتهم، ومواضعِ الرُّهبان، ومواطن السُّياح حيثُ كانوا؛ من جبلٍ،

أو وادٍ، أو مغارٍ، أو عمران، أو سهل، أو رمل.

وأن أحرسَ دينَهم وملَّتهم أين كانوا؛ من بَرٍّ، أو بحرٍ، شرقًا، وغربًا، بما أحفظُ به نفسي وخاصَّتي وأهلَ الإسلامِ من ملَّتي . . . ، ولا يدخلُ شيءٌ من بنائِهم في شيءٍ من أبنيةِ المساجدِ، ولا منازل المسلمين.

ولا خراج، ولا جزية، إلَّا على مَن يكون في يدِه ميراثُ الأرضِ، ممَّن يجب عليه فيه للسُّلطان حقٌّ، فيؤدِّيَ ذلك على ما يؤدِّيه مثلُه، ولا يُجارُ عليه، ولا يحمل منه إلَّا قدر طاقته وقوَّته على عمل الأرض وعماراتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلَّفُ شططًا، ولا يتجاوز به حدَّ أصحاب الخراج من نُظرائه.

ولا يكلَّف أحد من أهل الذِّمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوِّهم لملاقاة الحروب ومكاشفَة الأقران؛ فإنَّه ليس على أهل الذِّمة مباشرة القتال، وإنَّما أعطوا الذِّمة على أن لا يُكلَّفوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذبابًا عنهم، وجوارًا من دونهم، ولا يُكرهوا على تجهيز أحدٍ من المسلمين إلى الحرب الذي يَلقون فيه عدوَّهم بقوَّة وسلاح أو خيل، إلَّا أن يتبرَّعوا تلقاء أنفسهم؛ فيكون من فعل ذلك منهم وتبرَّع به حُمِدَ عليه، وعُرِفَ له، وكوفِئَ به.

ولا يُجبَر أحدٌ ممن كان على ملَّة النصرانيَّة كرهًا على الإسلام. . ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويُخفَض لهم جناح الرَّحمة، ويكفُّ عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد.

ولا يُحملوا من النكاح -الزَّواج- شططًا لا يريدونَه، ولا يُكره أهل البيت على تزويج المسلمين، ولا يضارُّوا في ذلك إن مَنعوا خُطَّابًا وأبوا تزويجًا؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومساحة أهوائهم؛ إن أحبُّوه ورضوا به.

وإذا صارَت النَّصرانيَّةُ عند المسلم زوجةً؛ فعليه أن يَرضى بنصرانيَّتها، ويتبع هو هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها

ذلك، فمَن خالف ذلك وأكرَهها على شيءٍ من أمر دينها فقد خالف عهدَ اللَّه، وعصى ميثاقَ رسوله، وهو عند اللَّه من الكاذبين.

ولهم إن احتاجوا في مرمة بِيَعِهم وصوامعهم أو شيءٍ من مصالح أمورِهم ودينهم إلى رفدٍ -مساعدة- من المسلمين، وتقوية لهم على مرتها -أن يُرفدوا على ذلك ويُعانوا، ولا يكون ذلك دَيْنًا عليهم، بل تقويةً لهم على مصلحة دينهم، ووفاءً بعهد رسولِ اللَّه، وموهبةً لهم، ومنَّةُ اللَّه ورسوله عليهم؛ لأنِّي أعطيتُهم عهد اللَّه أنَّ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم بالعهدِ الذي استوجَبوا حقَّ الذِّمام، والذَّبِّ عن الحرمة، واستوجبوا أن يُذَّبَّ عنهم كلُّ مكروه؛ حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

* * *

والحديثُ عن سماحة الإسلام، وبرِّه بالأديان السَّماوية حديثٌ طويل؛ سواء على مستوى نصوص القرآن والسُّنة، أو على مستوى التَّطبيق العمليِّ في سيرة نبيِّ الإسلام نفسه، أو سيرة الحضارة الإسلاميَّة مع الحضارات الأخرى التي انفتحت عليها وأثرت فيها وتأثرت بها..

الحضارة الإسلاميَّة والأديان:

ولأنَّ حضارةَ الإسلام قد انبنت على أسسٍ ثلاثة: «الوحي، والعقل، والأخلاق»؛ فإنَّها استطاعت أن تطرحَ نفسها خارج حدودِها الجغرافيَّة كحضارةٍ مفتوحة متوازنة أمامَ مطالب الإنسان وأشواقه الرُّوحيَّة والجسديَّة.

ومن حُسن الحظِّ؛ أنَّ الباحث هنا لا يحتاجُ إلى تفصيل القول إذا ما أخذ في الحُسبان هذا العددَ الهائل من العلماء، والأدباء، والفلاسفة،

والمفكِّرين من غير العرب، والذين تأثَّروا بحضارة الإسلام، وأثَّروا فيها، وكتبوا ثمراتِ عقولهم وقرائحهم بلغتها العربيَّة، وأصبحوا أئمَّةً في المعقول والمنقول في ثقافة هذه الأمَّة.

وقد مثَّل هؤلاء الأعلامُ دوائرَ علميَّة وثقافيَّةً أَثْرَت الحضارةَ الإسلاميَّة، وشكَّلَت مساحةً واسعة من نسيجها الداخليِّ..

وإنَّ إطلالةً سريعة على مكتوباتِ أئمَّة المعقولِ والمنقولِ؛ من أمثال: الإمام البخاريِّ، والتِّرمذي، وأبي حنيفة، وسيبويه، والفارابيِّ، وابن سينا، والغزالي، والرَّازي، والشِّيرازي، وغيرهم.. لتُبرهن على أنَّ الحضارة الإسلاميَّة جمعَت في إهابها العديدَ من ثقافات الشَّرق والغرب، بعد ما تعاملَت معها، وطوَّعتها لدين الإسلام، وأثبتَت أنَّ الإسلام دينٌ عالميٌّ، يفتحُ أبوابه على مصاريعِها لكلِّ عناصر الحقِّ والخير والجمال، مهما اختلفَت مواطنُها وتعدَّدت مصادرُها، وأنَّ حضارته حضارةٌ مفتوحة على العالم، وأنَّها تعاملت مع الدِّيانات والثَّقافات الأخرى بقدرٍ غيرِ قليل من الاحترام والتَّفاعل والتَّواصل، وأنَّها كما تأثَّرت بهذه الحضارات أثَّرت فيها، وقدَّمت لها زادًا ثقافيًّا ما كانت لتحصُلَ عليه لولا هذه الحضارة.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أثرِ الحضارة الإسلاميَّة في الحضارة الغربيَّة، والذي أنكره كثيرٌ من الباحثين الغربيِّين، مِمَّن رجعوا بمصادر حضارَتهم إلى مصدرين اثنين، لا ثالث لهما: المصدرِ اليونانيُّ، والمصدرِ اليهوديِّ المسيحيِّ [1]. وإن كان المنصِفون منهم أثبتوا تأثير المسلمين وعلومِهم وفلسفاتهم وفنونهم في مَتن الثَّقافة الأوربيَّة وحضارتها وعلومها، ولكن نقصرُ الحديث على انفتاح حضارةِ الإسلام على حضارات العالَم،

(١) «الإسلام والغرب» لسمير سليمان: ٤٦، بيروت: ١٩٩٥م.

وأنَّ هذه الحضارة لم يحدُث أن صادرَت غيرها من الحضارات في أيَّة مرحلةٍ من مراحلها .

وقد يعجَب الباحث وهو يقرأُ لمؤرِّخين غربيِّين جحودَهم حضارة الإسلام، والحكم عليها بأنَّها حضارة منقولة، ومترجمةٌ من حضارات أخرى، وأنَّها لم تكن حضارةً مبتدعة على أيدي المسلمين . . . إلخ ما دعا إليه «دعاةُ العصبيَّة في تجريد الأمم التي لا تتوشَّج بينها وبين الأوروبيِّين واشجةُ قرابةٍ من مزايا الإبداع والتَّفكير»[1] .

ومع ذلك لا يجدون حرَجًا حين ينفون عن هذه الحضارة خاصَّةَ التَّفاعل والتَّعارف بالحضارات الأخرى، فالذي يُثْبِتُ تأثُّر حضارةٍ بأخرى يَلزمُه بالضَّرورةِ إثباتُ تلاقي الحضارتين، وانفتاح كلٍّ منهما على الأخرى، لكنَّهم لا يتحرَّجون في القول بأنَّ حضارة الإسلام ليست إلَّا أمشاجًا وأخلاطًا من حضاراتٍ مجاورة، وفي الوقت ذاتِه؛ يصفونَها -في أحدث ما نقرأ- بأنَّها حضارة إرهاب ورفضٍ للآخر وإلغاء له . .

ولعلَّ ما يدفع هؤلاء إلى التَّذبذب بين النَّقائض؛ هو أنَّهم يصطنعون منهجًا تلفيقيا، توضع فيه النتائج أولًا، ثم يلتمسون لها من المقدمات الزائفة ما يناسب أغراضهم المدخولة . .

فهم من ناحيةٍ حريصون على الحَطِّ من قَدْرِ حضارة الإسلام؛ بإخفاء معالم الإبداع فيها، وهذا ألجأهم إلى فِريةِ أنَّ الفلسفة الإسلامية مثلًا فلسفةٌ يونانيَّة مكتوبة باللُّغة العربيَّة، وأنَّ التَّصوف الإسلامي تصوُّف مسيحي أو بوذي، وأنَّ الفقه رومانيٌّ . . . إلخ . ومن ناحيةٍ أخرى حريصون على إلصاق

(١) انظر: «أثر العرب في الحضارة الأوربية» لعباس محمود العقاد: ٢٨ - ٢٩، دار الكتاب اللبناني: ١٩٧٨م.

تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين، وهذا ألجأَهم إلى افتراء القول بأنَّ الإسلام أصوليٌّ، ومنغلق، وإرهابي، وخطرٌ على الحضارات والثَّقافات... إلخ هذه التَّناقضات، التي تُمليها أغراضٌ لا تمتُّ إلى الحقيقة العلميَّة بأدنى سبب.

ولسنا ندري؛ هل نصدِّقُ ما قالَه شيوخ الاستشراق في القرن الماضي عن انفعالِ الحضارةِ الإسلاميَّة بالحضارات المجاورة حتى النُّخاع، ولدرجة التَّقليد، أو النَّقل الأعمى؟ أو نصدِّق المفتريات الجديدة، التي تعودُ بهذه الحضارة إلى أصوليَّةٍ مغلقة تجبُ مقاوَمتها؟ أو نكذِّب الاثنين معًا؛ لنعلَم من جديدٍ أيضًا أنَّ هذه وتلك دعواتٌ مستكتَبَة لأغراض خاصَّة، ليس من بينها غرضٌ واحد يتوخَّى العلم أو التَّاريخ أو الواقع؟!

ونحن نعتقدُ..

- أنَّ تراث الإسلام العلميّ والفلسفيّ والأدبيّ كانت له أَيادٍ بيضاءُ لا تُنكر على النَّهضةِ الأوروبيَّةِ في العصر الحديث؛ بعدما شكَّل هذا التُّراث العالمي، مع ما اختزنَه من ثقافات أخرى، وعبرَ اللُّغة العربيَّة، ثمَّ اللَّاتينية - تأسيسًا لا يمكن تجاهلُه في بناء هذه النَّهضةِ.

- وأنَّ هذه النَّهضة لم تكن لتبلغَ ما بلغته، لولا تواصلُها وتفاعلُها مع ثقافة المسلمين..

أوَّلًا: «عن طريق معايشَة الحضارة الإسلاميَّة في القارَّة الأوربيَّة في الأندلس، حوالي ثمانية قرون ثريَّةً بالعطاء الحضاريِّ، الذي أفادَت منه أوروبَّا فائدةً عظيمة في نهضتِها الحضاريَّة»(١).

(١) «العلاقة بين الإسلام والغرب حوار أم صراع؟» لمحمود حمدي زقزوق رحمه الله من المحاضرة الافتتاحية لمؤتمر كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عن: «الإسلام والغرب»: ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٢، ص: ٥.

وثانيًا: عن طريق ترجمة الفلسفة الإسلاميَّة من العربيَّة إلى اللَّاتينية.

وكمثالٍ على هذا التَّأثُّر نذكرُ اهتمام الأديب الألماني، جوته (٧٤٩هـ/ ١٨٣٢م) بالأدب الإسلاميِّ، واطِّلاعه على القرآن الكريم في بعض ترجماته، وما يُؤثَر عنه من أنَّه كان يقولُ: «من حماقة الإنسان في دنياه: أن يتعصَّب كلٌّ منَّا لما يراه. وإذا كان الإسلامُ معناه التَّسليم للَّه؛ فإنَّنا جميعًا نحيا ونموتُ مسلمين»(١).

ونحن إذ نقرِّر ذلك، لا يَغيبُ عن بالنا أنَّ عناصرَ كثيرةً ممَّا حملَته حضارةُ الإسلام لم يكن ممَّا أبدعَه المسلمون، لكنَّهم تلقَّوها من حضاراتٍ أخرى، وأَسلموها -إن صحَّ هذا التَّعبير-، ولم يأخذوها تقليدًا ووِراثة وتلفيقًا، بل أعادوا صياغتَها بما يَنسجمُ مع هويَّتهم وتصوُّرِهم للكون والعالَم.

«واللَّافتُ للنَّظر في كلِّ ذلك: أنَّ المسلمين ما أخذوا من غيرِهم أداةً، أو طريقةً، أو علمًا؛ إلَّا احتَفظوا لأصحابها بفضلِهم، واعترَفوا بما قبسوه، وردُّوه إلى ما استحقَّ من أصولِه ومخترعيه، أو مكتشفيه»(٢).

يشهدُ على ذلك ما نعلمه من أقوالِ علماء المسلمين وفلاسفتهم، التي تؤكد نزعتَهم الإنسانيَّة تجاه حضاراتِ الآخرين وثقافاتهم، واعترافَهم بما كان منها صحيحًا مستقيمًا، وشُكر أصحابها على إصابة الحقِّ في هذا الصَّحيح المستقيم، وعذرِهم فيما لم يكن كذلك..

يقولُ الفيلسوف المسلم ابن رشد: «فقد يجبُ علينا أن ننظرَ في الذي قالوه، وما أثبتوه في كتُبهم؛ فما كان منها موافقًا للحقِّ قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غيرَ موافقٍ للحقِّ نبَّهنا عليه، وحذَّرنا منه، وعذرناهم»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: ٦.

(٢) «الإسلام والغرب» لسمير سليمان: ٥٧.

(٣) «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»: ١٢، بتصرف، دار الآفاق =

وهكذا، لم تعرف الحضارةُ الإسلاميَّة أبدًا مبدأ اختلاسِ ثقافة الغير والإفادة منها ثمَّ التَّنكُّرِ لها، فهذا ممَّا تأباه أخلاقُ الإسلام التي دخلت جزءًا مكوِّنًا في بِنية حضارته، ولعل هذا التَّأسيس الخلقي هو الذي أكَّد.. «قدرةَ الشَّرق الإسلاميِّ على استيعاب التُّراثات الحضاريَّة السَّابقة، وإعادة تركيبها، ثمَّ مراجعة تصنفيها، وتمثُّل حقائقها، ودفعِها إلى الأمام أشواطًا؛ لخدمةِ عقيدة حضارة التَّوحيد، وتوحيد الحضارة»(١).

* * *

وأخيرًا..

الحضارةُ الإسلاميَّة حضارةُ سلامٍ لا صِراع:

وربَّما كان وصفُ السِّلم أو السَّلام أظهرَ الأوصاف وألصَقها بالحضارة الإسلاميَّة؛ لولا محاولاتُ التَّشويه لهذا الوجه المشرِق الوَضِيء في تاريخ هذه الحضارة.. فالقرآنُ الكريم أو الوحي الإلهيُّ حدَّد علاقة المسلمين بغير المسلمينَ في كلمةٍ واحدةٍ؛ هي: التَّعرُّف على الآخر.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ

= الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م، بعنوان: «فلسفة ابن رشد».

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمود زقزوق، في محاضرته هذه؛ أن الأديب الألماني الشهير: جوته (١٧٤٩-١٨٣٢م) كان له إلمامٌ واسع بالأدب الإسلامي في اللُّغتين: العربية والفارسية، وأنَّه اطَّلع على القرآن الكريم في بعض ترجماته، وقرأ المعلقات، وديوان حافظ شيرازي.

كما ذكر أنَّ شهادة الدكتوراه التي حصل عليها الفيلسوف الألماني الكبير: إيمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤م) مبدوءة في أعلاها بعبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم».

(١) «الإسلام والغرب» لسمير سليمان: ٥٩.

ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. والتَّعارف هو «الأخوَّة في الإنسانيَّة» والمعرفة المتبادلة.. وواضح من الآية الكريمة أن «التعارف» بين الأمم والشعوب يشبه أن يكون «الحكمة الإلهية» من خلق الناس، بعدما اقتضت المشيئة الإلهية اختلاف الناس: فكرًا وطبيعة وميولًا.

من هنا؛ تحتَّم أن يكون السِّلمُ هو القاعدة في علاقاتِ المسلمينَ الدَّوليَّةِ بغيرِهم من الشُّعوب.

وقد سجَّل التَّاريخ أنَّ الحضارة الإسلاميَّة تعاملَت بهذه الرُّوح في علاقتها بغيرها، وأنَّ رسولَ الإسلام ﷺ التزمَ هذه القاعدة التزامًا تامًّا في كلِّ تعاملاته مع الآخرين..

ولا يُعترض في هذا المقام بالحروب التي حدثَت في صدر الإسلام؛ لأنَّ المواجهات الحربيَّة التي خاضها النَّبي ﷺ وأصحابُه كانت كلُّها دفعًا لعدوانٍ فعليٍّ أو متوقَّع من الأعداء.

وصحيحٌ أنَّه ورد الأمرُ بقتال المعتَدين في القرآن، لكنَّ هذا ما تفرضه كلُّ شرائع الحقِّ والعدل، وما عليه أمر البشر إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

والإسلامُ لا يَجنح للحرب إذا أمكن تفاديها بأيَّة صورةٍ من الصُّور، بل يكون السَّلام هو الخيار الوحيد شرعًا أمام المسلمين لو جنح إليه أعداؤهم.. ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وإذا فُرضت الحربُ؛ فهناك مبدأُ الرَّحمةِ، ومبدأ الوَفاءِ بالمعاهدات، ومبدأ تحريم الخيانة، وكلُّها ثوابت وبيِّناتٌ في حضارةِ الإسلامِ.

وإذا كان السَّلام هو الأصل في علاقةِ المسلمينَ بغيرِهم من الأممِ

والشُّعوبِ؛ فإنَّ المبدأَ نفسَه كان يَحكم علاقةَ المسلمين بأهلِ الأديان والمِلل الأخرى في داخلِ الدَّولةِ الإسلاميَّة نفسِها، وبحيث يَصدق القول بأنَّ السَّماحة التي عرَفها هؤلاء في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة لم يعرفوا لها مثيلًا في ظلِّ الحضارات الأخرى.

وها هو الأستاذُ آدم ميتز، أستاذ اللُّغات الشَّرقيَّة بجامعة بازل، في سويسرا؛ يُقرِّر أنَّ تسامح المسلمينَ مع أهلِ الأديان سبق مبادئَ التَّسامحِ التي يَتنادى بها المصلحون المحدثون، وأنَّ سماحةَ الحضارةِ الإسلاميَّةِ لم تكن معروفةً في أوروبا في القرون الوسطى، وأنَّ هذا التَّسامحَ كان سببًا في نشوءِ علم مقارنة الأديان والإقبال على دراسته بشغَفٍ عظيم في الثَّقافة الإسلامية..

يقولُ هذا الأستاذ المنصف: إنَّه «لم يكن في التَّشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذِّمَّة أيَّ باب من أبواب الأعمال، وكان قدَمُهم راسخًا في الصَّنائع التي تُدِرُّ الأرباحَ الطائلة، وكان رئيس النَّصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود جهابذتَهم عنده... وحياةُ الذِّميِّ عند أبي حنيفة وابن حنبل تُكافِئُ حياة المسلم، ودِيَتُه دِيَةُ المسلم..، ولم تكن الحكومةُ الإسلاميَّةُ تتدخَّل في الشَّعائر الدِّينيَّة لأهل الذِّمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضرَ مواكبَهم وأعيادهم... ولم يكن يوجد في المُدن الإسلاميَّة أحياءٌ متخصِّصة لليهود والنَّصارى، بحيث لا يَتعدَّونها[1]... وكانت الأديرة المسيحيَّة منتشرةً في كلِّ أجزاء بغداد، حتى كادت لا تخلو منها ناحية»[2].

---

(١) يشير إلى «الجيتو» الذي كان يحشر فيه اليهود في أوروبا ويُنبذون داخله.

(٢) «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» لآدم ميتز: ١/ ٦٨ وما بعدها، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٥٧م.

ويقول ول ديورانت: «إنَّ المسلمين كانوا رجالًا أكمَل من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفَظ للعهد منهم، وأكثر منهم رحمةً بالمغلوبين، وقلَّما ارتكبوا في تاريخهم مِن الوحشيَّة ما ارتكبَه المسيحيُّون عندما استولَوا على بيت المقدس في عام: ١٠٩٩م، ولقد ظلَّ القانون المسيحيُّ يَستخدم طريقةَ التَّحكيم الإلهي بالقتال أو النَّار، في الوقت الذي كانت الشَّريعة الإسلاميَّة تَضعُ فيه طائفةً من المبادئ القانونيةِ الرَّاقيةِ يُنفِّذها قضاةٌ مستنيرون»[(١)].

هذا ما يُقرِّره عقلاءُ المؤرِّخين الغربيين عن تاريخِ الحضارة الإسلاميَّة مع أهل الأديان والمِلل، وذلك في وقتٍ بلغَت فيه هذه الحضارة ذروةَ مجدِها وسيادتِها على العالم.

وكان بإمكانها لو أنَّها لم تنطلق من دين كالإسلام أن تفرِضَ عقيدتَها على الآخرين، وأن تَلجأ للإبادة والتَّقتيل، وهدم دُوَرِ العبادات المخالفة، ومُصادَرة العقائد الأخرى، كما فعلت وتفعلُ بعضُ الحضارات في القديم والحديث أيضًا.

شكـــرًا لحُسن استماعكم

(١) «قصة الحضارة»، الجزء الثاني من المجلد الرابع: ٣٨٣، ترجمة: من بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٧٤م.

ابن عربي والأخوة الإنسانية(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، صلَّى اللَّه وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، وبعد:

فباسم جامعة الأزهر الشَّريف، أُرحِّب بحضرات السَّادة العُلماء، المُشاركين في هذا المؤتمر من داخل مصر وخارجها، وبخاصَّة السَّادة العُلماء الضُّيوف، الذين حرصوا على المشاركة في هذا المؤتمر العالَمي الكبير عن الشَّيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، سُلطان العارفين؛ مُحيي الدِّين ابن عربي.

وأُحيِّي الزُّملاء الأفاضل، من الفريق السَّاهر على إعداد المؤتَمر، وإخراجه بالصُّورة التي نُشاهد بدايتَها المُشرقة، وتُبشِّر بالتَّوفيق والنَّجاح فيما يُستقبلُ من الجَلسات العِلميَّة، واللِّقاءات الثَّقافية المُتبادلة في أعمال هذا المؤتمر.

أيُّها السَّادة العُلماء..

تعلَمون حضراتكم، بحُكم معرفتِكم الدَّقيقة بالشَّيخ الأكبر، وبعُلومه ومعارفه، وثَورَته الكُبرى في علوم العِرفان والأسرار -أنَّه لا يُمكن الحديثُ بحال عن أيِّ جانب من جوانب هذا الحكيم المُتألِّه حديثًا أَمينًا في افتتاحيَّة مؤتمرٍ، مهما صَغُر هذا الجانبُ، ومهما أوتِيَ المُتحدِّث من اقتدارٍ وبراعة في الاختصار والإيجاز.

(*) كلمة ألقيت في افتتاح المؤتمر الدَّولي «ابن عربي في مصر» ملتقى الشرق والغرب، بالقاهرة، في الفترة: ١٥-١٨ من شهر ذي الحجة: ١٤٢٩هـ/ ١٣-١٦ ديسمبر ٢٠٠٨م.

غير أنِّي أستطيعُ في هذه الدَّقائق المعدودات، أن أُشيدَ أوَّلًا باختيارِ عنوان المؤتَمر؛ فهو اختيارٌ غاية في التَّوفيق؛ إذ هو فيما أحسبُ موضوعُ السَّاعة، بل موضوعُ عالَمنا المعاصر الآن في جانبه التَّعيس البائس، وفي انتكاسَته الحضارية، والخُلقية، والاقتصادية، وباختصار: في ثمره المُرِّ، الَّذي أثمرَته هذه الشَّجرة الخبيثة؛ شجرةُ المادَّة، والجَسد، والرَّغبة، والاستهلاك، والفردانيَّة، وتأليه الإنسان، والإزراء بكلِّ ما هو إلهيٌّ وخُلقي وروحي... والتي دفعَت بإنسان العصر الحديث إلى ما يُشبه السُّقوط الحضاريَّ، أو المُنعَطف المظلم الخطير.

وحسُبنا مما نعلمه ونراه بأُمِّ أعيُننا؛ أن صار الموتُ، والدَّمار، والخراب سلْعةً من سلع الإنتاج والاستثمار، تُباع وتُشترى بدماء الفقراء، وأشلاء المحرومين والمعوزينَ، وتَقتاتُ على عوائدها وأثمانها دُوَلٌ وأنظمة شديدةُ البَذخ والتَّرفُّه، تزعمُ أنَّها حاميةُ حقوقِ النَّاسِ، وأنَّ حضارتَها التي تَغتذي على هذه الدِّماء والأشلاء هي الحضارةُ الأُنموذج، التي يَجبُ فرضُها على الشُّعوب المتخلفة، بالتَّرغيب وبالتَّرهيب.

إنَّ منطق المادَّة -أيها السادة!- والتَّبشير بمذاهب اللَّذة والمنفعة، وتقديسَ الحرية التي لا حد لها ولا سقف، وفلسفةَ الإخلاد إلى الأرض؛ تلكم التي سيطرت على كلِّ نشاطات العقل المعاصر، وحصرت مقياسَ ذكاءِ الإنسان فيما يَخترعه أو يُنتجه فحسب -كلُّ ذلك، وغيرُه كثير، جعلَ من الحضارة المعاصرة فيما يقول الفيلسوف الكبير «رينيه جينو» شذوذًا من بين سائر الحضارات؛ لأنَّها لم تَستكمل مقوماتِ الحضارة المتوازنة التي تُلبِّي حاجاتِ العقل الفيزيقيَّة والميتافيزيقية.

ومن هنا تنبَّأ «جينو» أن هذه الحضارة لا تَدوم طويلًا، وأنَّ شعلتها سوف

تَخبو سريعًا؛ إنْ من داخلها، أو بسبب سيادة حضارة أخرى أعقل وأبعد نظرًا.

وبعيدًا عن هذه الإسقاطات الفلسفية، رغم ما تَحمله من صدق ويقين؛ فإنَّ الدَّلائلَ على الأرضِ تُنذرُ بأنَّنا نسيرُ بالفعل في هذا الطريق المسدود، وليست مؤتمراتُ الحوارِ التي تُسابق الزمن الآن لرَأْب الصَّدع بين الغرب والشرق إلا دليلًا على هذا الواقع المخيف.

أيُّها السَّادة..

لعلَّكم تتَّفقون معي في أن للأديان السماوية دورًا يَجب أن يَتَّخِذ مكانة الصَّدارة في إنقاذ البشريَّة مما يَتربَّص بها الآن، وأن المؤمنين باللَّهِ من أبناء الغرب والشرق إذا ما اتَّحدوا فإنَّهم يُمثلون طوقَ نجاةٍ لشعوبهم وحضارتهم، وأنَّ زَمالة الإيمان التي تربطهم تُحتِّم عليهم العملَ الجماعي المشترك.

ونحن نعتقد أنَّ التَّصوف بما هو عنصر مشترَك بين الأديان، أو بما هو العُمق الطبيعي للدين الإلهي - مزوَّد بطاقاتٍ هائلة للإسهام في إذابة التوتُّر السائد الآن على السَّاحة، وأن الشيخ الأكبر مُحيي الدِّين ابن عربي يُجسِّد بأنظاره العرفانيَّة الرَّحبة التي تَتجاوز حدود الإنسان والزَّمان والمكان - أقربَ المسالك إلى هذا الهدف.

وكيف لا؟! وقد اجتَمع الغربُ والشَّرق في إهابِه، قبل أن يجتمعا في عقله وقلبه، فهو أوروبِّيُّ المولدِ والنَّشأةِ، ثمَّ هو شرقيُّ التَّوهُّجِ والاكتمالِ، وفلسفته الصُّوفيَّة متأثِّرةٌ حتى النُّخاع بحُب الإنسانِ والكون، وبالكَثرة المُعبرة عن الوَحدة، وبالأخوَّة العالَميَّة والزَّمالة الدِّينيَّة، فالكلُّ عنده مُغرِّد في سرب واحد، والكلُّ مُدندن حول هذا الذي لا تَناله العبارة ويَتعالى عن الإشارة:

عِباراتُهم شَتَّى وحُسْنُك واحدٌ وكُلٌّ إلى ذاك الجَمالِ يُشيرُ[(١)]

حتى هذه الاختلافات أو التَّحديدات أو المُتناقصات، ليست عند شيخنا إلا مظاهرَ ومجاليَ وانعكاساتٍ، لا مفرَّ منها ما دامت الأسماء الإلهيَّةُ مُختلفات، بل كلُّ الطُّرق في فلسفته مستقيمة، حتى ما كان منها معوجًّا، والاعوجاجُ في الشَّيء هو فيما يقول استقامتُه الخاصَّة به؛ لأنَّه بهذا الاعوجاج يُؤدِّى وظيفة معيَّنة.

والحقُّ تعالى فيما تَرمز إليه عبارات الشَّيخ أشبَه بنقطةِ دائرةِ العالَم، أو نقطة النُّون، والعالَم كلُّه خارج من محيط الدائرة، صائرٌ إلى نُقطتها ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، فاللَّه منتهى كل سبيل، وإليه يَرجع الأمرُ كلُّه.

وفي هذا المُستوى من مستوَيات الكشف الذَّوقي، يَترنَّم ابنُ عربي بقوله[(٢)]:

أَدِينُ بِدينِ الحُبِّ أَنَّى تَوَجَّهَت رَكائِبُه فالحُبُّ دِيني وإيماني
لقد صارَ قلبي قابلاً كُلَّ صورةٍ فَمَرعى لغزلانٍ ودَيرُ لرُهبانِ
وبَيتٌ لأصنامٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ تَوراة ومُصحفُ قُرآنِ[(٣)]

وابن عربي هو مكتشف رابطة الإيمان بين كلِّ المؤمنين باللَّه تعالى، مهما اختَلَفت عقائدُهم وأديانهم ومِلَلهم، وقد فهم قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

وفى سياق هذا المعنى الأوسَع، ومن مستوى أعمَّ وأشمَل، المؤمنون

---

(١) البيت من الطويل.
(٢) في «ترجمان الأشواق»: ٦٢ - ٦٣ (ط. دار المعرفة، بيروت: ٢٠٠٥م).
(٣) الأبيات من الطويل.

عنده أشبه بإخوة لأبٍ واحدٍ؛ هو الإيمانُ باللَّه تعالى، حتى لو كانوا من أمَّهاتٍ شتَّى.

وابنُ عربي في هذه السَّماحةِ المفتوحةِ على الآخرِ بلا حدودٍ؛ إنَّما يَستلهم روح القرآن الكريم، وروح الحكمةِ النَّبويَّةِ في الإسلام، ذلك أنَّ المُتصفِّح لآيات القرآن الكريم يَجد أنَّ عنوان الإسلام لا يَنطبق على الرِّسالة المحمَّدية فقط، في مقابل رسالة إبراهيم، أو رسالة موسى، أو رسالة عيسى عليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام، بل يَقرأ بوضوحٍ أنَّ الإسلام عنوانٌ على دين واحد فقط؛ هو الدِّين الإلهيُّ الَّذي بشَّر به أنبياء اللَّه ورُسله، بدءًا من آدم وانتهاءً بمحمَّد ﷺ.

فعُنوان الإسلام في القرآن الكريم يَصدق صدقًا مُتساويًا على كلِّ هذه الرِّسالات، ولا يَختص بالرِّسالة التي نزلَت على محمَّد ﷺ دون غيرها من رسالة موسى وعيسى عليهما السَّلام.

ومن هنا؛ كان جميع أبناء الرِّسالات الإلهية إخوةً، ما في ذلك ريبٌ، وقد عبَّر نبيُّ الإسلامِ محمَّد ﷺعن هذه الرابطة التي تربطه بإخوته من الأنبياء السَّابقين عليه، عبَّر عنها بعبارة رائعة، يقولُ فيها: «أنا أوْلَى النَّاس بعيسى ابنِ مريم في الدُّنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لعلَّات؛ أُمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ»(١).

غيرَ أنه يَنبغي أن نتنبَّه إلى أنَّ فهم ابن عربي لأخوَّةِ المؤمنين وأخوَّة الأديان لا يَعني أنَّه قائلٌ بوحدة الأديان؛ ما كان منها إلهيًّا وما كان وثنيًّا، أو أنَّه قائل بها ومعتقد بمعتقداتها، فهذا ما لم يَقصده الشيخ، وإن رماه به خصومُه، أخذًا من قوله:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عقَدَ الخلائقُ في الإله عقائدًا وأنا شَهِدتُ جميعَ ما اعتَقدوه[١]

فمقصوده في هذا المقام كما يقول: «العارفُ الكاملُ يَعرفُ اللَّهَ في كلِّ صورةٍ يَتجلَّى بها؛ وفى كلِّ صورةٍ يَنزل فيها، وغيرُ العارف لا يَعرف إلَّا صورةَ مُعتقده، ويُنكره إذا تجلَّى له في غيرها»؛ بدليل أنَّه في هذه القضيَّة ذاتها يقولُ:

قد أعذرَ الشَّرعُ الموحِّدَ وحده والمُشركون شَقوا وإن عَبَدوه

وما أردت أن أقصد إليه من هذه الكلمة الموجزة هو:

- أنَّ التَّصوُّف بعامَّةٍ يُمكن أن يَنشر الحبَّ والمحبَّة بين المؤمنينَ، ويُمكن أن يَصنعَ من الحُبِّ اللَّامحدودِ لغةً أو صيغةً تَلتقي تحت ظلالِها حضاراتُ الشَّرق والغرب، في شيءٍ من الاحترام المتبادَل، بعيدًا عن دعاوى الصِّراعِ والصِّدام التي أسفرَت عن وجهِها القبيح.
- وأنَّ أنظار سُلطانِ العارفينَ وإلهاماتِه العميقةَ والمُتعالية على فوارقِ الإنسان والزَّمان والمكان مُؤهَّلةٌ بكلِّ قوَّةٍ لأنْ تُسهم بالكثير في اتِّجاه «ملتقى الشَّرق والغرب».

شكرًا لحُسن استماعكم

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

---

(١) البيت من الكامل.

عقباتٌ في طريقِ الحِوار(*)

إن الإسلامَ الذي أنتمي إليه وأعتنقُه دِينًا، يهدِي إلى الحقِّ وإلى صِراطٍ مستقيمٍ - قد كُتِبَ عليه في الحِقْبَةِ الأخيرةِ أن يُوضَعَ في قفصِ اتهامٍ جائرٍ ظالمٍ، وأُرِيدَ لمعتنقِيه والمؤمنينَ بِهِ أن يظلُّوا في موقفِ الدفاعِ وردِّ الفعلِ وصدِّ الهجومِ، وأن يستنفذوا في هذا الاتهامِ الزائفِ جهدَهم وطاقاتِهم وأموالَهم.

والذي أعتقدُه، هو أنَّنا إذا كُنَّا جادِّينَ في إقامةِ حِوارٍ مُثمِرٍ، فإنَّ الإسلامَ ليس هو الدِّينَ الذي عليه أن يُثبِتَ أنَّه دِينُ حوارٍ، وأنه دينُ تكاملِ الحضاراتِ، وتلاقُحِ الثقافاتِ واحترامِ الآخرينَ، فهذه الحقائقُ وعشراتٌ أمثالُها يعرِفُها لهذا الدِّينِ مَن يؤمِنُ بِهِ والمنصفون ممَّن لا يؤمِنُ به على سواءٍ، وقد شَهِدَ التاريخُ لحضارةِ هذا الدِّينِ أنها كانتْ -ولا زالتْ- حضارةَ الأُخُوَّةِ الإنسانيَّةِ، والزمالَةِ الدِّينيَّةِ العالميَّةِ، وأنَّها لم تكن أبدًا مصدرَ شقاءٍ للإنسانيَّةِ، فلم تَضِقْ ذَرعًا بأُخُوَّةِ الأديانِ الأخرى، ولم يُعرَفْ عنها أنها وَقَفَتْ مِنها يومًا مَوقِفَ عداءٍ مُعلنٍ أو خفيٍّ، أو تجاوزت في نِزاعاتِها المسلَّحةِ مع غيرِ المسلمِين شريعةَ الحقِّ، أو شريعةَ الدِّفاعِ عن النفْسِ والوطنِ.

وما كانَ لحضارةِ الإسلامِ أن تتَّسِعَ لهذه الوَحدةِ البشريةِ لولا هذا القرآنُ الكريمُ الذي رَسَّخَ في عقولِ المسلمِين وأذهانِهم حقائقَ عِدَّةٍ يمكنُ أن نُشِيرَ إليها في إيجازٍ شديدٍ أرجو ألَّا يكونَ مُخِلًّا بالمطلوبِ.

(*) أُلقي هذا البحث في افتتاحية المؤتمر السادس لحوار الأديان المنعقد بالدوحة، بقطر: ٨ - ٩ جمادى الأولى: ١٤٢٩هـ، الموافق: ١٣ - ١٤ مايو: ٢٠٠٨م.

وأولُ هذه الحقائقِ القرآنيَّةِ التي يَترَبَّى عليها المسلمُ ويُنَشَّأُ في ظلالِها أنَّ مشيئةَ اللَّه تعالى في خَلْقِه قَضَتْ أن يكونوا مختلِفين في ألوانِهم ولُغاتِهم وأعرافِهم وعُقولِهم ومشاعرِهم، ويلزمُ ذلك بالضرورةِ أن يكونوا مختلِفين في أديانِهم وعقائدِهم؛ لأنَّ اختلافَ مداركِ العقولِ يتبعُها حتمًا اختلافُ العقائدِ والمذاهبِ، وكان في مقدورِ اللَّهِ- لو شاءَ وأرادَ- أن يَخْلُقَ الناسَ جميعًا على دينٍ واحدٍ وعقيدةٍ واحدةٍ، لكنه لم يشأْ ذلك، وشاءَ تَعَدُّدَ الأديانِ واختلافَ العقائدِ.

ويُقَرِّرُ القرآنُ أنَّ هذا «الاختلافَ» أو «التنوُّعَ» قانونٌ إلهيٌّ يحكمُ هذا الوجودَ ويسيطرُ على سلوكِ النَّاسِ إلى آخرِ لحظةٍ في عمرِ هذا الكونِ، هذه الحقيقةُ خاطبَ اللَّهُ بها محمدًا ﷺ في القرآنِ فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وفي موضعٍ آخرَ يقولُ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وهذا الأصلُ القرآنيُّ يستلزمُ منطقيًّا أن تكونَ العَلاقةُ بينَ البشرِ المختلِفين بأصلِ خِلقَتِهم وتكوينِهم هي التَّعارفُ الحضاريُّ مِن أجلِ أن تتكامَلَ ثقافاتُ العالم وحضاراتُه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما تَستلزِمُ حقيقةُ الاختلافِ بين الناسِ حقيقةً أُخرَى هي حرِّيَّةُ الاعتقادِ التي عبَّرَ عنها القرآنُ الكريمُ في وضوحٍ شديدٍ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

والحقيقةُ الثانيةُ أنَّ الإسلامَ- في مفهوم القرآنِ- ليس هو الرسالةَ التي أُنزِلَتْ على محمدٍ ﷺ فحَسْبُ، بل هو هذا الدِّينُ الإلهيُّ الواحِدُ، الذي تجلَّى عَبرَ التاريخِ في رسالاتٍ متتابعةٍ بَلَّغَها الأنبياءُ والمرسلون، بَدَأَتْ بآدمَ عليه السلام وخُتِمَتْ بنبيِّ الإسلامِ محمدٍ ﷺ، ومِن هذه الحقيقةِ جاء القرآنُ ليؤكِّدَ أن محمدًا ﷺ شقيقُ موسى وعيسى ومَن قَبْلَهما مِن الأنبياءِ والمرسلين، وأنَّ القرآنَ مصدِّقٌ للإنجيلِ، والإنجيلَ مصدقٌ للتوراةِ، وأنَّ دعواتِ الرُّسُلِ جميعًا اجتمعتْ كلمتُها على أصولٍ عامَّةٍ مشتركةٍ لا يختلفُ فيها نبيٌّ عن نبيٍّ ولا رسالةٌ عن رسالةٍ، وفي مقدِّمةِ هذه الأصولِ: الدعوةُ إلى توحيدِ اللَّهِ، وفضائلِ الأخلاقِ، وتحريمُ الشِّركِ والإثمِ والظُّلمِ والبغيِ، ومِن هذه الحقيقةِ -تحديدًا- كان انفتاحُ الإسلامِ على الأديانِ الكتابيَّةِ، واحترامُه الشديدُ لأهلِ هذه الأديانِ، والإحساسُ الحقيقيُّ بصِلةِ الرَّحِمِ الدينيَّةِ بينَه وبينَ اليهودِ والمسيحيِّينَ.

ويضيقُ المَقامُ هنا عن ذِكْرِ الاستشهاداتِ العديدَةِ التي تُقَدِّمُ الإسلامَ - على طُولِ التاريخِ- سَمْحًا حافظًا للوُدِّ في عَلاقتِه مع المسيحيَّةِ واليهوديَّةِ، ويكفي أن أُشِيرَ مِن بعيدٍ إلى الأيَّامِ الأُولَى في تاريخِ الإسلامِ، حينَ اشتدَّ اضطهادُ الوثنيِّينَ للمسلمِينَ الأوائلِ في مَكَّةَ، وما كان مِن أمر النبي -صلوات اللَّه وسلامه عليه- بعض أصحابه المضطهدين بالهجرةِ إلى بلادِ الحبشةِ وهي بلادٌ مسيحِيَّةٌ يحكُمُها مَلِكٌ مَسِيحِيٌّ، وقالَ لهم: «**إنَّ بأرضِ الحبشةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أحَدٌ عندَه، فالحقوا ببلادِه حتى يجعلَ اللَّهُ لكم فَرَجًا ومَخرَجًا مِمّا أنتم فيه**»(١)، وكان مِن بين هؤلاءِ المهاجرين ابنتُه رُقَيَّةُ وزَوجُها عثمانُ بنُ عفَّانَ، والتَّاريخُ يُثبِتُ هجرتَينِ للمسلمِينَ إلى هذا المَلِكِ المسيحِيِّ الكريمِ.

---

(١) (جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/ ٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/ ٣٠١، من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.

ولا ينبغي أن يَمُرَّ هذا المشهدُ في صَدرِ تاريخِ الإسلامِ دونَ أن نَعِيَ منه الدرسَ العميقَ وهو أنَّ نبيَّ الإسلامِ ما كان ليغامرَ بحياةِ هؤلاء المستضعَفِينَ الفارِّينَ بدِينِهِم إلى الحبَشَةِ لولا أنَّه كانَ على بَيِّنَةٍ مِن رَبِّه بأنَّ رسالَتَهُ ورسالةَ عيسى رَضِيعَا لبانٍ واحدٍ، وهو نفسُ المعنى الذي استشعَرَهُ النَّجَاشيُّ حين سَمِعَ شيئًا مِن القرآنِ مِن بعضِ المسلِمين فقال: «إنَّ هذا الذي أسمعُه والذي جاءَ به عيسى يخرجُ مِن مِشكاةٍ واحدةٍ»(١).

وقد ثَبَتَ في صحيحِ البخاري؛ أنَّه لما ماتَ النَّجاشيُّ بالحبَشَةِ نعاهُ النَّبيُّ ﷺ لأصحابِهِ بالمدينةِ في اليومِ الذي مَاتَ فِيه، ثُمَّ خرَجَ بهم إلى المُصَلَّى، فصفَّهُم وكَبَّرَ أربعًا وصَلَّى عليه صلاةَ الغائبِ(٢).

وحين قَدِمَ وفدٌ مِن نَصارَى نَجرانَ على النبيِّ ﷺ ليُحاوِرَوه في أمرِ هذا الدِّينِ الجديدِ استقبَلَهم واستضافَهم في مسجدِه بالمدينةِ، ولما حانَ وقتُ صلاتِهِم قالوا له: يا محمدُ، هذا وقتُ صلاتِنا، وإنَّا نُريدُ أن نؤدِّيَها، فقالَ لهم: «**دُونَكُم هذا الجانِبُ مِن المسجدِ فصلُّوا فيه**»(٣).

ورغمَ أنَّهم امتنعوا عن قَبولِ الإسلامِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قَبِلَ مِنهم هذا الموقِفَ ورَدَّهُم ردًّا كريمًا، وكتبَ لهم وثيقةً جاءَ فيها: «ولنَجْرانَ وحاشيتِها وما يتبعُها مِن القُرَى والنواحي ذِمَّةُ اللَّه ورسولِه، على دمائِهِم وأموالِهِم ومِلَّتِهِم وبِيَعِهِم ورهبانيَّتِهِم وأساقفتِهِم وشاهدِهِم وغائبِهِم وكلِّ ما تحتَ أيديهم مِن قليلٍ أو كثيرٍ».

ومِن هذه الأُخوَّةِ في الدِّينِ وَادَعَ النبيُّ ﷺ اليهودَ في المدينةِ في معاهدةٍ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بنحوه ابن إسحاق في «السِّيرة»، ومن طريقه ابن هشام في «السِّيرة»: ١/ ٥٧٤، والطَّبريُّ في «تفسيره»: ٥/ ١٧٢، والبيهقيُّ في «دلائل النُّبوَّة»: ٥/ ٣٨٢، وغيرهم، عن محمَّد بن جعفر بن الزُّبير بن العوَّام.

حفِظَها لنا التاريخُ، وتضمَّنَتها «وثيقةٌ» تاريخيَّةٌ مشهورةٌ تُعرَفُ بصحيفةِ المدينةِ، اشتملتْ على بنودٍ غايةٍ في السماحةِ والعدلِ والإنصافِ، وقد حَفِظَتْ لليهودِ استقلالَهم الماديَّ والاقتصاديَّ، وضَمِنَتْ لهم المحافظةَ على دينِهم، واعتبرتْهم جزءًا لا يتجزَّأُ مِن كِيانِ المسلِمين، رغم اختلافِ الدِّينِ، وقد جاء في هذه الوثيقَةِ: «وإنَّ يهودَ بَني عوفٍ أُمَّةٌ مع المؤمنينَ، وفي روايةٍ: أُمَّةٌ مِن المؤمنين، لليهودِ دينُهم وللمسلِمين دينُهم، وعلى اليهودِ نفقتُهم وعلى المسلمين نفقتُهم، وإنَّ بينهم النصرَ على مَن حاربَ أهلَ هذه الصحيفةِ، وأنَّ بينَهم النُّصحَ والنصيحةَ والبِرَّ دونَ الإثم».

إنَّ هذه الأصولَ القرآنيَّةَ والنَّبويَّةَ هي التي تحكمُ عَلاقةَ الإسلامِ وحضارتَه بالآخَرين في الماضي وفي الحاضِرِ، وانطلاقًا من حقيقةِ «الاختلافِ» بين النَّاسِ، كان أمرًا طبيعيًّا أن يَخلُوَ تاريخُ الحضارةِ الإسلاميَّةِ مِما انزلقتْ إليه حضاراتٌ قديمةٌ وحديثةٌ مِن مشاريعِ الاستعمارِ العالميِّ والسَّيطرةِ الأُمَميَّةِ، ولم نعلم لفيلسوفٍ مِن فلاسفةِ الإسلام ولا عالمٍ مِن علمائِه نظريةً مِن النَّظريَّاتِ التي تتنبَّأُ للنَّاسِ بسيادةِ ثقافةٍ واحدةٍ، مثلما قرأنا عن المجتمعِ ذي الطبقةِ الواحدةِ في الأيديولوجيةِ الماركسيَّةِ مَثَلًا، وعِشنا سنينَ طِوَالًا في خيالاتِها وتهويماتِها ووُعودِها الكاذِبةِ، قبلَ أن تنهارَ بِكُلِّ بناءاتِها الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ والأيديولوجيَّةِ.

هذه أمورٌ قد تكونُ واضحةً للجميعِ، غيرَ أنِّي أردتُ أن أقولَ: إنَّ الإسلامَ، الذي عرَضنَا شيئًا مِن قَسَماتِه وملامِحه ليس هو العَقَبَةَ في طريقِ الحوارِ إذا ما فُهِمَ على وجهِهِ الصَّحيحِ، وأنَّه بطبيعةِ بِنْيَتِه العَقَدِيَّةِ والفِكريَّةِ دِينُ حوارٍ وتثاقُفٍ وتلاقُحٍ بين الحضاراتِ، والشَّيءُ نفسُه يُقالُ على اليهودِيَّةِ وعلى المسيحيَّةِ كرسالتَين إلهيَّتَينِ في منظومةِ الدِّينِ الإلهيِّ الواحِدِ، ومَا تتطَلَّبُه مؤتمراتُ الحوارِ مِن الإسلامِ حاصلٌ بالفعلِ، ولذلكَ كثيرًا ما أشعرُ بأنَّنا حينَ نتحدَّثُ عن الأديانِ، أو على الأقلِّ حين أتحدَّثُ عن الإسلامِ فإنني

أُرَدِّدُ كلامًا مكرورًا مُعادًا قِيلَ عَشَراتِ المراتِ، وقد لا أكونُ مخطئًا لو قلتُ: إنَّه إذا كانت هناك عَقَبَاتٌ حقيقيَّةٌ على طريقِ الحوارِ؛ فإنَّها تتمثَّلُ- في رأيي الشخصيِّ- في العقباتِ التاليةِ:

العقبة الأُولَى:

أنَّ المسافةَ بين الغربيِّينَ والإسلامِ لا زالت شاسِعةً، وأنه حتى الآن لم تُبذَلْ محاولاتٌ جادَّةٌ مِن قِبَلِ عُقلاءِ المفكِّرينَ في الغربِ لفَهْمِ حضارةِ المسلمِين فهمًا صحيحًا، أو للتعرُّفِ -مِن جديدٍ- على الإسلامِ مِن خلالِ تراثِه وتطبيقاتِه التاريخيةِ والحضاريَّةِ.

ومِن اللافِتِ للنظرِ أنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ وهيَ تتعاملُ مع حضارةِ الإسلامِ والمسلمِين، لا تتعاملُ معها بالجدِّيَّةِ المطلوبةِ، أو لا تفعلُ الشيءَ نفسَه حينَ تتعاملُ مع الأديانِ والمللِ الأُخرَى، وهذا موقفٌ غريبٌ يبعثُ مِن الرِّيبةِ والشَّكِّ أضعافَ ما يبعثُ مِن الأملِ والتفاؤلِ، ونحنُ -دعاةَ الحوارِ- نأمُلُ بل ننتظرُ مِن هذه المؤتمراتِ ومِن مراكزِ الحوارِ في الشرقِ والغربِ أن تُسهِمَ بشكلٍ جادٍّ في أن تتفهَّمَ الحضارةُ الغربيةُ «الإسلامَ» في لُبِّهِ وجوهرِه، بعيدًا عن التَّهويلِ والدَّعاوَى التي لا تَستَنِدُ إلى واقعٍ صحيحٍ.

ولسنا ندرِي لماذا يُصِرُّ الإعلامُ الغربيُّ على تشويهِ صورةِ الإسلامِ، ويركِّزُ على اتِّهامِه وَحْدَه بالعُنفِ والإرهابِ، مع أنَّ عديدًا مِن عُقلاءِ الغربيِّين أنفُسِهم يعترفُون بأنَّ أعمالَ عُنفٍ مماثِلَةٍ وقعَتْ في العالَمِ على أيدِي يهودٍ ومسيحيِّين وهندوسَ وغيرِهم، فمثلًا هناكَ القِسُّ «مايكل براي - Michael Bray» واعتداءاتُه بالمتفجِّراتِ على مصحَّاتِ الإجهاضِ، و«تيموثي ماكفي - Timothy Mcveigh» وتفجيرُه للمبنَى الحكوميِّ بأوكلاهوما، و«دافيد كوريش - David Koresh» والأحداثُ التي حَصَلَتْ ببلدةِ «واكو - Waco» بولايةِ تكساسٍ، والصراعُ الدينيُّ السياسيُّ بين الكاثوليكِ والبروتستانتِ في

أيرلندا الشماليَّةِ، وتورُّط الكنيسةِ الصِّربيَّةِ الأرثوذوكسيَّةِ في إبادةِ واغتصابِ ما يزيدُ على ٢٥٠,٠٠٠ مِن مسلمِي ومسلِماتِ البُوسْنَةِ، وقتلُ ٣٨ مِن المصلِّين الفِلَسطينيِّين على يدِ الطَّبيبِ النفسانيِّ اليهوديِّ، «باروخ غولدستاين – Baruch Goldstein» الذي اقتحَمَ مسجدًا في مدينةِ الخليلِ سنةَ ١٩٩٤م، وشواهدُ أُخرى لا تحتاجُ إلى بيانٍ.

العقبةُ الثانيةُ:

تتمثَّلُ في كارثةِ الحادي عشرَ مِن سبتمبر، وما نَجَمَ عنها مِن مخاوفَ وهواجسَ وظنونٍ سيئةٍ في أذهانِ الغربيِّينَ، تُعِيدُ إلى الأذهانِ الهواجسَ ذاتَها التي خلَّفَتها الحروبُ الصليبيَّةُ في أذهانِ المسلمينَ، وتوشِكُ أن تكونَ هذه الحادثةُ بِتداعِياتِها المؤلمةِ والمحزِنةِ والمؤسفةِ بل الكارِثيَّةِ، أشبهَ بجدارٍ عازلٍ مِن الكراهيةِ بين الحضارتَينِ.

وهنا يُصبِحُ مِن الواجبِ المُحَتَّمِ على العُقلاءِ مِن كِلا الفريقَيْنِ، وعلى علماءِ المسلمِينَ بوجهٍ أخصَّ، أن يتحمَّلُوا مسؤولياتِهم كاملةً في العملِ مِن أَجْلِ تحطِيمِ هذا الجدارِ وإزالةِ رواسِبِهِ السيِّئةِ، وليس لذلك مِن طريقٍ سِوَى العَودةِ إلى فَهْمِ الأديانِ في لُبِّها وجَوهَرِها، والتَّعويلِ على المشترِكِ الدِّينيِّ في بَعثِ قِيَمِ الأُخُوَّةِ والتَّعارفِ والتواصُلِ، وبخاصةٍ إذا تَفَهَّمنا أنَّ «الإرهابَ» المنسوبَ إلى هذا الدِّينِ أو ذاك أمْرٌ مشترَكٌ بين المسلِمين وغيرِ المسلِمين كما أشرنا قَبلَ قليلٍ، وأنَّه يؤرِّقُ المسلِمين كما يؤرِّقُ غيرَهم سواءً بسواءٍ.

العقبةُ الثالثةُ:

نحنُ كمسلِمين نتفهَّمُ ما قد يتوجَّسُ منه البعضُ في الغربِ مِن جَرَّاءِ تكاثرِ الجالياتِ الإسلامِيَّةِ، والخشيةِ مِن غَلَبَةِ أنماطِها الثقافيَّةِ وسلوكيَّاتِها المُختَلِفَةِ على الشارعِ الأوروبيِّ والأمريكيِّ، وأرَى أنَّه مِن المُستطاعِ أن نتغلَّبَ على هذه العَقَبةِ إذا ما رَأى العُقلاءُ في الغربِ والشرقِ أنَّ الإسلامَ

بطبيعَتِه -وكما أسلفْنا- دِينٌ له تجاربُ تاريخيَّةٌ واقعيةٌ في تجاوُرِ الحضاراتِ، وتعدُّدِ الأديانِ والتَّشريعاتِ والطُّقوسِ والأنظمةِ الاجتماعيَّةِ تحت سَماءِ الدَّولةِ الواحدةِ، بل إنَّ زواجَ المسلمِ بكِتابيَّةٍ يهوديَّةٍ أو مسيحيَّةٍ تَبقَى على دِينِها ليس إلَّا أنموذجًا مُضيئًا لامتزاجِ الإسلامِ باليهوديَّةِ أو المسيحيَّةِ في مودةٍ ورحمةٍ تحتَ سقفٍ واحدٍ.

والإسلامُ في الأندلسِ يكفينِي مَئُونةَ إثباتِ هذه الحقيقةِ، فلم يحدُثْ أن طاردَ حضارةَ اليهودِ أو المسيحيِّين، أو تعامَلَ مع أيٍّ مِنهما برُوحِ العَداءِ.

وعلى المواطنينَ المسلِمِين الذين يَعِيشُونَ في الغربِ أن يعلمُوا أنَّهم في حضاراتٍ لها ثقافاتُها وفلسفاتُها وتاريخُها ومفاهيمُها الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ، ويجبُ أن تُحترَمَ وتُسَلَّمَ لأهلِها، حتى وإن لم يُلتزَمْ بها في السُّلوكِ الشخصيِّ والفرديِّ.

أمَّا العَقَبةُ الرابعةُ:

فإنَّ الحديثَ فيها ذو شجونٍ، وفي الفَمِ منها ماءٌ كثيرٌ، ويمنعني أدبُ الضِّيافةِ والاستضافةِ أن أذكرَها إلا بإيجازٍ أكتفِي مِنه بالإشارةِ عن العبارةِ.

هذه العَقَبَةُ هي عَقَبَةُ التَّبشيرِ المنظَّم بين فقراءِ المسلِمِين، والهجومِ على الإسلامِ مِن مؤسَّساتٍ دِينيَّةٍ كُبرَى، كُنَّا ننتظرُ منها أن تكونَ جِسرًا للتَّواصلِ بينَ الأديانِ، بَدَلًا مِن هذا الدَّورِ الذي نراه يُسهِمُ باطِّرَادٍ في تشويهِ العَلاقَةِ وتعكيرِ الصَّفوِ.

إنَّني لعَلَى يقينٍ مِن أنَّ مؤتمراتِ الحوارِ سوفَ تُؤتِي ثِمارَها المرجوَّةَ حين يتوقَّفُ الغربُ في حوارِه مع الشَّرقِ عن منطِقِ التَّعالي، والكَيلِ بأكثرَ مِن مِكيالٍ، ومحاولاتِ تنصيرِ المسلِمِينَ بخِطَطٍ مُعلَنَةٍ حينًا ومُستخفيةٍ حِينًا آخرَ، والتركيزِ على المسلِمِينَ في تحويلِهم عن دِينِهم دونَ غيرِهم مِن أهلِ الأديانِ والمذاهبِ والمِللِ في شتَّى بِقاعِ الأرضِ.

على طريق الحوار[(١)]

لقد غَمَرَتْ سُوقَ الأفكارِ في الآونةِ الأخيرةِ «اصطلاحاتٌ» صُكَّتْ فيما وراءَ البحارِ، ثمَّ صُدِّرَتْ إلينا كما تُصَدَّرُ البضائعُ والمنتَجاتُ والأغذيةُ وأدواتُ التجميلِ، وإذا كان مِن بين هذه المنتَجاتِ ما ثبتَ أنَّه ضارٌّ وخطَرٌ وملَوَّثٌ فإنَّ مِن هذه الاصطلاحاتِ أيضًا ما ثبتَ أنَّه مُحَمَّلٌ ومُشَبَّعٌ برموزٍ وإيحاءاتٍ ونوايا، بعضُها مريبٌ، وبعضُها حمَّالُ أَوجُهٍ، وبعضُها مُوَظَّفٌ -عن عَمْدٍ- لخَلْطِ الأوراقِ، وتعويمِ المفاهيمِ وتداخُلِها، حتى إنَّ أشهرَ هذه المصطلحَاتِ وأكثرَها دَوَرَانًا في الخطابِ الدوليِّ الآنَ وهو: مصطلحُ « الإرهابِ » يُفرَّغُ مِن معناهُ إذا استُعمِلَ في دولةٍ، وتُعَادُ تعبئتُه بمعنًى آخَرَ إذا استُعمِلَ في دولةٍ أخرى.

وخُذْ مثلًا: مصطلحًا آخر هو: «حقوق الإنسانِ» وحَاوِلْ تطبيقَه بمسطرةٍ واحدةٍ في الغربِ «الأنجلو أمريكيِّ» والشرقِ الإسلاميِّ، فسوفَ تَجِدُ مفهومَ هذا المصطلحِ يضطَرِبُ بينَ يدَيك اضطرابًا شديدًا حتى لَيُخَيَّلُ لك أنَّ الإنسانَ الذي تُطلَبُ له هذه الحقوقُ ليس هو الإنسانَ الذي خلقَه اللَّهُ في طولِ الدنيا وعرضِها، وإنَّما هو الإنسانُ الأبيضُ فقط مِن بين الآدميِّين في أوروبا وأمريكا تحديدًا.

وهكذا لم يَعُدْ مِعيارُ الصِّدقِ والكَذبِ في مِثلِ هذه المصطَلَحاتِ معيارًا موضوعيًّا ثابتًا، بل عادَ معيارًا شخصيًّا خالصًا، راقصًا على كلِّ المتناقضاتِ،

(١) بحث كتبه الإمام الأكبر أيام رئاسته للجامعة الأزهرية.

فما أراهُ حقًّا فهو حقٌّ حتى لو كان في نَفسِه باطِلًا وزُورًا، وما أراهُ باطِلًا فهو كذلك حتَّى لو كان حقًّا مشروعًا لك.

وهذه سَفسَطةٌ جديدةٌ وجريئةٌ، كُنَّا نَعتقدُ أنَّها وَلَّتْ إلى غيرِ رَجعةٍ منذُ عهدِ سُقراطَ، ذلكم الفيلسوفُ اليُونانيُّ الذي نَذَرَ حياتَه لمحارَبَةِ حالَةٍ مِن الفوضى الفكريَّةِ شديدةِ الشَّبَهِ بالحالَةِ التي تُطِلُّ علينا بوجهِها الآنَ، وأعني بها: حالَةَ السفسطائيِّينَ الذين حاولوا إفسادَ شبابِ «أثينا» بتعليمِهم أفانِينَ مِن تزييفِ المفاهيمِ وتحريكِها وتعويمِها مِن أجلِ الثروةِ والمالِ.

ولا يخفَى على حضراتِكم أنَّ سياسةَ «الكَيلِ بمِكيالَينِ» هي مِن وراءِ أزمةِ تزييفِ المفاهيمِ واضطرابِها، لأنَّ هذه السياسةَ لا بُدَّ لها مِن أكاذيبَ ومفترياتٍ تسعى مِن بين يديها ومِن خلفِها لتقومَ بدورِ المساحِيقِ التي تَسترُ وجهًا شديدَ القُبحِ لا يمكنُ سترُه، وعُدْنَا مِن جديدٍ لمناقشةِ البدهيَّاتِ وتوضيحِ الواضحاتِ، فالمقاومةُ إرهابٌ، والتدميرُ والإبادةُ دفاعٌ وحقٌّ مشروعٌ، وسحقُ الحضاراتِ تنويرٌ، والتمسُّكُ بالدِّينِ أصوليةٌ وظَلامِيَّةٌ ووَحشيَّةٌ، وتدميرُ الأخلاقِ والشُّذوذُ حُرِّيَّةٌ وحقٌّ مِن حقوقِ الإنسانِ، والبَذاءُ حُرِّيَّةٌ في الرَّأيِ، إلى آخِرِ هذه المتاهاتِ التي يُعاني منها أيُّ باحثٍ أَلِفَ تحديدَ المفاهيمِ، وضرورته المنطقية في تحريرِ محلِّ النِّزاعِ في هذه المسألةِ أو تلكَ.

وليستِ المسألةُ مسألةَ نِزاعٍ حولَ «اصطلاحٍ» فَقَدْ تعلَّمنا أنَّه لا مُشَاحَّةَ في الاصطلاحِ، ولكِنَّ المُشَاحَّةَ كُلَّ المُشَاحَّةِ في تزييفِ مفهومِ المصطلحِ، والعَبَثِ بمدلولاتِ الألفاظِ، وتحديد المصاديقِ التي ينطبقُ عليها مفهومُ اللَّفظِ أو لا ينطبقُ، فهنا المعركةُ الحقيقيَّةُ، لِأنَّ محاولاتِ التزييفِ كلَّها تَتِمُّ تحتَ لافتةٍ تُوضَعُ في غيرِ موضِعِها الصَّحيحِ. وهنا أيضًا يُصبحُ «الحوارُ» - بمعناه الدَّقيقِ- أوَّلَ «آلةٍ» يجبُ اللُّجوءُ إليها لِهَتْكِ هذه الأقنعةِ الزائفَةِ، لإحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ.

وهذا البحثُ المتواضعُ يُعنَى في الصَّفحاتِ القادِمةِ ببيانِ:

أ - أنَّ الحوارَ هو منهجُ الخطابِ في القرآنِ الكريمِ للمسلمِينَ وغيرِ المسلمِينَ.

ب - وأنَّ هذا المنهجَ لم يكنْ مُجَرَّدَ نظريَّةٍ تَهِيمُ في فراغٍ، بل نزلتْ إلى أرضِ الواقعِ وطبَّقَها النبيُّ ﷺ، ومَثَّلَتْ حَجَرَ الزاويةِ في بناءِ الحضارةِ الإسلامِيَّةِ.

ج - وأنَّ الحضاراتِ الأنجلوأمريكيَّةَ لم تَرُدَّ الجميلَ لحضارةِ الإسلامِ كما ينبغِي.

ولكن ماذا عن الحوارِ كآلةٍ أو منهجٍ في خطابِ الإسلامِ للمسلمِينَ وغيرِ المسلمِينَ؟

وما هي مظاهرُ هذا الحوارِ؟

وهل للحوارِ الإسلاميِّ قواعدُ وآدابٌ؟ وما هي؟

فيما يتعلَّقُ بالنقطةِ الأُولَى:

فإنَّ أيَّةَ قراءةٍ في القرآنِ الكريم تُغنِينَا عن مَؤونَةِ الجوابِ الصحيحِ في هذه المسألةِ؛ لأنَّ هذا الدِّينَ القيِّمَ هو في المقامِ الأوَّلِ دِينُ العقلِ، ويترتب على ذلك مَنطقيًّا، أن يكون دينَ حوارٍ؛ إذ لا سبيلَ إلى مخاطبةِ العقلِ إلا بما هو قابلٌ للحوارِ والنظرِ والدَّليلِ، وكونُ العقلِ أصلًا في الخطابِ القُرآنيِّ مما لا يَقبلُ نِزاعًا ولا خِلافًا.

وحسبُك أنْ تعلمَ أنَّ مادَّةَ «عَقَلَ»، و«عَلِمَ»، و«فَكَّرَ»، و«نَظَرَ»، و«فَقُهَ» بمُشتقَّاتها وَرَدَتْ في القرآنِ الكريم أكثرَ مِن مِئةٍ وعشرين مرةً.

وأنَّ القرآنَ لَفَتَ الأنظارَ في تكرارٍ عجيبٍ إلى كُلِّ وظائفِ قُوَى العقلِ بألفاظٍ شَتَّى مِثلِ: يعقلونَ، يتدبَّرُونَ، يُفَكِّرُونَ، يَنظُرُونَ، يتذكَّرُونَ، يَسمَعُونَ، يفقَهُونَ، يعلَمُونَ.

وإذا كان الإسلامُ قد عَوَّلَ في الخطابِ الإلهيِّ الذي يُبَلِّغُهُ الأنبياءُ إلى الناسِ على العقلِ، والعقلِ وحدَهُ، فإنَّه أَلْغَى أيَّةَ وسائطَ أخرى مِن كهنوتٍ أو مُمَثِّلٍ لحقٍّ إلهيٍّ يتوسَّطُ بينَ اللَّه والناسِ.

وجديرٌ بالذِّكْرِ أنَّ اعتمادَ الإسلامِ على العقلِ أوَّلًا، وعلى الحوارِ تَبَعًا، لم يكن على المستوَى النَّظَرِيِّ أو على مستوَى النُّصُوصِ القرآنيَّةِ فقط، بل كانَ على مستوى التَّطبيقِ العَمَليِّ الذي جسَّدَتْه سِيرَةُ هذا النّبيِّ الكريمِ ﷺ مع المسلمِينَ وغيرِ المسلمِينَ على السَّواءِ.

وهنا أنتَقِلُ إلى النقطةِ الثانيةِ، وهي مظاهرُ حِوارِ الآخَرِ والاعترافُ بِهِ، وفي هذا الصَّددِ يُطَالِعُنا أوَّلَ ما يُطالعُنا، هذه المعاهداتُ السياسِيَّةُ التي عقدَها النَّبيُّ ﷺ في المدينةِ المنوَّرَةِ بين المسلمِينَ واليهودِ، وقد صِيغَتْ في شكلِ وثيقةٍ سياسِيَّةٍ، تعكِسُ صُورةً فريدةً مِن صُوَرِ تسامُحِ الإسلامِ واعترافِه بالأديانِ الأخرى.

هذه الوثيقةُ[١] تَنُصُّ على مُوادَعةِ اليهودِ، ولِدَرَجَةِ أنَّها اعتبرَتهُم أمَّةً مع المسلمِينَ جَنْبًا إلى جَنْبٍ، ففي البَندِ الخامسِ والعِشرينَ مِن هذه الوثيقَةِ التاريخيَّةِ، يُعلِنُ النبيُّ ﷺ: «أنَّ يهودَ بني عوفٍ أمةٌ مع المؤمنينَ، لليهودِ دينُهم، وللمسلمِينَ دينُهم، إلا مَن ظَلَمَ نفسَهُ وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ[٢] إلا نَفْسَه وأهلَ بَيتِهِ»[٣].

بل قد تعجبُ وأنتَ تقرأُ هذا البَندَ في روايةٍ أُخرَى تقولُ: «وإنَّ يهودَ بني عَوفٍ أُمَّةٌ مع المؤمنين»[٤] بما قد يعني أنَّهم جزءٌ مِن الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ.

(١) انظر عن هذه الوثيقة: سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٠١ - ٥٠٤،
(٢) أي: لا يُهْلِكُ، انظر: «تاج العروس» (وتغ) ٢٢/ ٥٨٩.
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/ ٥٠٣.
(٤) «الأموال» لابن زنجويه: ٤٦٩.

ويَنُصُّ البندُ السابعُ والثلاثون على أنَّ: «على اليهودِ نفقتُهم، وعلى المسلِمين نفقتُهم، وإنَّ بينَهم النصرَ على مَن حاربَ أهلَ الصحيفةِ، وإنَّ بينهم النُّصحَ والنَّصيحةَ والبرَّ دونَ الإثم»[(١)].

وقد ذَكَرتِ الوثيقةُ يهودَ بني عوفٍ كأُنموذَجٍ أُلْحِقَتْ بِهِ كُلُّ قبائلِ اليهودِ الأخرَى وسمَّتْها قبيلةً قبيلةً، واستَقَلَّ بالنصِّ على كُلِّ قبيلةٍ بندٌ مِن بنودِ هذه الوثيقةِ النبويَّةِ الكريمةِ.

وتستطيعُ أن تقولَ الشيءَ نفسَه وأكثرَ منه بالنِّسبةِ لموقفِ الإسلامِ ونبيِّ الإسلامِ ﷺ مِن المسيحيَّةِ؛ ففي القرآنِ الكريمِ كلامٌ طيبٌ عن النصارى، وفيه سيرةٌ عطرةٌ وأوصافٌ نبويَّةٌ رائعةٌ تليقُ بمكانةِ سيدنا عيسى عليه السلام، عبد اللَّه ورسولِه.

وفي القرآنِ الكريمِ سورةٌ كاملةٌ اسمُها سورةُ الرُّوم، والآياتُ الأُولى مِنها تحمِلُ بِشارةً لنَصارَى الرُّومِ، وتَعِدُهم بالنَّصرِ على أعدائهم في بضعِ سنينَ، وكان المسلمونَ يُحِبُّونَ أن ينتصرَ الرُّومُ؛ لأنَّهم نَصارَى، وكانت عاطفةُ المشركِينَ مع الفرسِ الوثنِيِّينَ في ذلك الوقتِ، وجاءتْ فرحةُ المسلمِينَ غامرةٌ وكبيرةٌ بانتصارِ الرُّومِ.

ولما اشتدَّ أذى أهلِ مكَّةَ على المسلمِينَ، وفكَّرُوا في الهجرةِ خارجَ مكَّةَ قالَ لهم النبيُّ ﷺ: «**إنَّ بأرضِ الحبشةِ ملكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه، فالحقوا ببلادِهِ حتَّى يجعلَ اللَّهُ لكمْ فرجًا ومخرجًا ممَّا أنتمْ فيه**»[(٢)]. تقولُ السيدَةُ أمُّ

(١) انظر نصَّ الوثيقة في: عون الشريف، «دبلوماسية محمد»: ٢٤٢، ط. جامعة الخرطوم ب. ت. وأيضًا: أكرم ضياء العمري، «السيرة النبوية الصحيحة» ١: ٢٨٤ وما بعدها، مركز بحوث السيرة والسنة، قطر ١٤١١ - ١٩٩١.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/٣٠١، من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.

سلمةَ زوجُ النبيِّ ﷺ: «فخرجنا إليهِ- إلى النجَّاشِيِّ- أَرْسَالا حتَّى اجتمعْنا به، فنزَلْنَا بخيرِ دارٍ إلى خيرِ جارٍ آمَنَّا على ديننا ولم نخشَ مِنه ظلمًا»[١].

وهذا الملكَ الذي التجأَ إليه المسلمون، وأَمِنُوا في جِوارِه على دينهم وحياتِهم هو ملكٌ مسيحيٌّ يحكمُ شعبًا مسيحيًّا ودولةً مسيحيَّةً.

ملمحٌ آخرُ يتَّضِحُ فيه حوارُ الإسلامِ مع أديانِ أهلِ الكتابِ؛ يتمثَّلُ هذه المرَّةَ في اكتسابِ المسلمِ حقًّا شرعيًّا في الاقترانِ بزوجةٍ يهوديَّةٍ أو مسيحيَّةٍ، تَبْقى على دِينِها، وتكونُ شريكةَ حياتِه وأمَّ أولادِه وربَّةَ بيتِه، وكُلُّنَا يعلمُ عاطِفةَ المودَّةِ والحنانِ والإيثارِ التي تُثْمِرُها العلاقةُ الزَّوجيَّةُ والخُلْطَةُ بينَ الزوجَينِ، وأنَّه بمقتضَى هذا الحقِّ الشَّرعيِّ لا حَرَجَ على المسلمِ أن يحتفِظَ بما شاءَ وما استطاعَ مِن هذِه العواطفِ النَّبيلةِ، ليُبادِلَ بها شريكةَ حياتِه المسيحيَّةَ أو اليهودِيَّةَ.

وإذن فالإسلامُ يَعترِفُ بأهلِ الكِتابِ ويَقْبَلُهُم، ويُقِيمُ معهم علاقاتٍ تَرقَى إلى تَكوينِ أُسرةٍ مُسلِمةٍ تَعتَمِدُ على زوجةٍ يهوديَّةٍ أو مسيحيةٍ، ولا يجدُ الإسلامُ غَضاضةً في ذلك، وكُنَّا نتوقَّعُ أنْ يتوجَّسَ الإسلامُ مِن اليهودِ أو مِن غيرِهم، ويحذِّرُ المسلمَ مِن الاختلاطِ بهم والرُّكُونِ إليهم، خصوصًا بعدَ ما أظهَرُوا عداءَهم وبُغضَهم للإسلامِ والمسلِمِينَ، ولكن وجدنَا القرآنَ الكريمَ الذي نَبَّهَنا إلى هذا العَداءِ هو نَفْسُه القرآنُ العظيمُ الذي لا يُصَادِرُ على أتباعِه قَبُولَ أهلِ الكتابِ إلى درجَةِ المُصَاهَرةِ كما هو معلومٌ.

إنَّ هذا المستوى مِن العَدلِ والإنصافِ والاعترافِ بالآخَرِ، لا يُعرَفُ إلَّا لهذا الدِّين القيِّم، ولن تتَّسِعَ له شريعةٌ أُخرى كشريعةِ الإسلامِ.

ولكم أن تُقَارِنُوا بين هذه الصُّورةِ مِن الاعترافِ بالآخَرِ وبين شرائعِ المللِ

(١) المصدر نفسه: ٣٤٤.

الأخرى، ومنها ما يُصَادِرُ حقَّ التزاوُجِ بين اثنينِ إذا كان هذا مِن طائفةٍ وهذه مِن طائفةٍ أخرى، حتى لو كانا ينتميانِ إلى دِينٍ واحدٍ.

والحضارةُ الإسلاميَّةُ أيضًا حضارةُ حِوارٍ في المقامِ الأوَّلِ، ولن أَسترسِلَ في استعراضِ تاريخِ هذه الحضارةِ العظيمةِ التي سادَتِ العالَم في أقلَّ مِن مِئةِ عامٍ بعدَ نزولِ القرآنِ الكريمِ، والتي ما كانَ لها أن تنتَشِرَ بهذه الصُّورةِ التي أذهَلَتْ علماءَ التاريخِ والحضارةِ، لولا أنَّ هذه الحضارةَ كانت ترتَكِزُ على وسيلةِ الحوارِ والحُجَّةِ والإقناعِ.

ولكن تكفي نظرةٌ سريعةٌ على خارطةِ التُّراثِ في هذه الحضارةِ، لتتعَجَّبَ مِن قُدرةِ أهلِها على هضمِ ثقافاتِ الأُمَمِ الأخرى، وتَمَثُّلِها وتطويعِها وصِياغتِها مِن جديدٍ صياغاتٍ أفادتِ الإنسانيَّةَ في الشَّرقِ والغربِ على السَّواءِ.

وإنَّ نظرةً سريعةً أيضًا على تراثِ علمائِنا الأفذاذِ مِن الفقهاءِ، والفلاسفةِ، والمفسِّرينَ، والأصوليِّينَ، والمتكلِّمينَ، والأطباءِ، وعلماءِ الفلكِ، وغيرِهم، لَتُثْبِتَ أنَّ الحضارةَ الإسلاميَّةَ لم تكن أبدًا حضارةَ صراعٍ أو نَفيٍ للآخَرِ وسَحْقِه وإزالةِ ملامحه وقَسَماتِهِ، كيفَ والقاعدةُ التي أسَّسَها لها رسولُها الأعظمُ ﷺ تُقرِّرُ أنَّ: «**الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»(١).

وكان مِن المنتظَرِ أن يَمُدَّ الآخَرُ يَدَ الاعترافِ والتَّقديرِ للإسلامِ دِينًا وحضارةً، وأن يقابِلَهُ بحِوارٍ جميلٍ، ولكنَّنا نُؤكِّدُ- ونحن مطمئنُّونَ- أنَّ ردَّ فعلِ الآخَرِ في مُجمَلِه جاءَ مُخيِّبًا للآمالِ وباعثًا للآلامِ، ولن أحدِّثَكُم عن نَقضِ العُهودِ والخِياناتِ التي عانَى منها النَّبيُّ ﷺ والمسلمونَ الأوائلُ في التَّاريخِ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث غريب».

القديم، ولكن أكتفي بالإشارةِ إلى صُوَرٍ وإسقاطاتٍ أَجهدَ المستشرِقُونَ والمبشِّرُونَ أنفسَهُم في تنزِيلها على الإسلامِ دِينًا ورسولًا وقرآنًا.

وأنا هنا أشيرُ إلى رؤوسِ مسائلَ فقطْ تَرِدُ في كُتُبِ هؤلاء المُجترِئِينَ على العِلمِ، وعلى الحقيقةِ والتَّاريخِ، منها:

أنَّ الإسلامَ بِدعةٌ نصرانيَّةٌ، وأنَّه ليسَ دِينًا حقيقيًّا، بل هو مُقْتَبَسٌ مِنَ اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ.

وأنَّ طُفولةَ النَّبِيِّ ﷺ غامضةٌ.

وأنَّ القرآنَ مِن تأليفِ محمَّدٍ ﷺ.

وأنَّ القرآنَ متناقِضٌ.

وأنَّ الإسلامَ عدوُّ العِلمِ، وأنَّه يحاربُ الفلسفةَ، وأنَّ المسلِمِينَ أحرَقُوا الكُتبَ والمكتباتِ خلالَ فُتوحِهم.

وأنَّ الإسلامَ عَدُوُّ المرأةِ.

وأنَّه دِينٌ للعَرَبِ فقطْ.

وأنَّه انتشرَ بالسَّيفِ قهرًا للشُّعوبِ، ويُشَجِّعُ على العُبوديَّةِ والرِّقِّ، ويشجِّعُ نظامَ الطَّبقاتِ.

وأنَّ المسلِمِينَ متعصِّبُونَ، وأنهم يَظلِمُونَ الأقليَّاتِ في البلادِ الإسلامِيَّةِ.

وأخيرًا أنَّهم إرهابيُّونَ، ودِينُهم دينُ إرهابٍ.

وتحتَ كُلِّ مسألةٍ مِن هذه المسائلِ كُتُبٌ ومقالاتٌ وافتراءاتٌ لا تنتهي، ووراءَ كُلِّ ذلك مؤسَّساتٌ ومراكزُ أبحاثٍ، وأموالٌ وخُططٌ ودراساتٌ ومراجعاتٌ، لا تَعرفُ الكَسَلَ ولا المللَ.

وهنا سؤالٌ يَفرِضُ نَفْسَه، هل يُمكنُ مع هذا الوضعِ المقلوبِ رأسًا على عَقِبٍ أن ينشأَ حِوارٌ بينَ الإسلامِ وبينَ الأديانِ الأُخرى؟

وربَّما سبَقَتنا مؤسساتٌ دينيةٌ كُبرى في الغربِ إلى الإجابةِ على هذا السُّؤالِ بالإيجابِ، وذَهَبَتْ إلى مرحلةٍ أبعدَ مِن ذلك، وأعني بها مرحلةَ تشجيعِ «الحوار» وبيانِ فائدتِه وفَعاليَّتِه، ومردُودِه الإيجابيِّ على العلاقاتِ بين الإسلامِ والغربِ.

ولكنَّ إلحاحَ هذه المؤسَّساتِ الغربيةِ على «حوارِ الأديانِ» في السنواتِ الأخيرةِ، والدَّعوةِ إليه مِن خلالِ مجامعَ كَنَسِيَّةٍ في الغربِ، صدرت بشأنِها عِدَّةُ وثائقَ وبياناتٍ مختلفةٍ، وهذا الإصرارُ على عَقدِ المؤتمراتِ الخاصَّةِ بالحوارِ سَنَوِيًّا، كُلُّ ذلكَ يُحَتِّمُ علينا أن نكونَ على درجةٍ عاليةٍ مِن الحيطةِ واليَقَظةِ، وأن نتأكَّدَ أوَّلًا مِن أنَّ هذا الحوارَ حِوارٌ بين متكافِئَينِ، وليس حوارًا بين طَرَفٍ متغَطرِسٍ مُستَكبِرٍ، وطَرَفٍ مُستَضعَفٍ مُستَهدَفٍ، خصوصًا بعد أن أصبحَ الخطابُ السياسيُّ في بعضِ بلادِ الغربِ وفي أمريكا لا يجدُ أيَّ حَرَجٍ في وصفِ «دِينِ» المسلمِينَ بأنَّه دِينُ إرهابٍ وقتلٍ وتدمِيرٍ للحضاراتِ.

ولستُ أدري كيفَ يُمكِنُ للمؤسَّساتِ الدِّينِيَّةِ في الغربِ أن تُديرَ حِوارًا مع المسلمِينَ قبلَ أن تُحَدِّدَ موقِفَها تحديدًا حاسمًا مِن هذا الخطابِ العَدائيِّ المعلَنِ رسميًّا في مجتمعاتِهم؟! اللَّهُمَّ إلا إذا كان هذا الحوارُ أداةَ تبشيرٍ جديدٍ بهدَفِ المزيدِ مِن السَّيطرةِ على بلادِ المسلمِينَ واستغلالِ ثرواتِهم!!

ولا زلتُ أذكرُ خَبرًا منشورًا في الصفحةِ الأُولى مِن جريدةِ «الأهرام» عنوانُه: «غضبُ مسلِمِي أمريكا مِن إهاناتٍ وجَّهَها قِسٌّ للرسولِ الكريم ﷺ» وأنَّ مجلسَ العلاقاتِ الأمريكيَّةِ الإسلامِيَّةِ أعلنَ عن غَضَبِه، وكان القِسُّ يتحدَّثُ في «حوارٍ» مع محطةِ تليفزيون C.B.S الأمريكيَّةِ وقالَ: إنَّ نبيَّ الإسلامِ رجلُ حَرْبٍ وعُنْفٍ، وللعِلْمِ فإنَّ هذا القَدْرَ مِن الإساءةِ هو ما أمكنَ نشرُه في صُحُفِنَا هنا، و إلَّا فالمكتوبُ على صفحاتِ الشبكةِ العكنبوتيَّةِ

«Internet» يَحْمِلُنَا على أن نغسلَ أيدِينا حتى مِن مجرَّدِ الأملِ في التحاورِ مع أمثالِ هؤلاء.

وقد لَفَتَ نظري في الخبرِ، شَكوَى مجلسِ العلاقاتِ الأمريكية/الإسلاميةِ مِن أنَّ الجماهيرَ والرَّأيَ العامَّ والزُّعماءَ السياسيِّينَ صمتوا صمتَ القُبورِ ولم يَبدُرْ مِنهم أيُّ استنكارٍ لهذا التطاوُلِ الكَريهِ الذي يَمَسُّ نبيًّا كريمًا يَتْبَعُه أكثرُ مِن مليارٍ وثُلُثِ المليارِ مِن سكانِ هذا العالَمِ.

وسأفترضُ جَدَلًا أن هذا القِسَّ فقدَ ضميرَهُ، وأنَّه يُمَثِّلُ حالةَ شُذوذٍ لا تستحقُّ التعليقَ ولا التعقِيبَ، ولكن ألا يَستحِقُّ ما اقترفَهُ هذا الرجلُ أن تُبادِرَ المؤسَّساتُ الدِّينيَّةُ الكُبرَى بالاعتذارِ للمسلمِينَ ولو ببيانٍ قصيرٍ؟

وإذا كان المسلمُونَ لا يستحقُّونَ كَلِمةَ «اعتذارٍ» لا مِن الرَّأيِ العامِّ الأمريكيِّ، ولا مِن سَاسَتِه، ولا مِن كُبرى المؤسَّساتِ اللاهُوتيَّةِ في الغربِ، فَلِمَ الحوارُ؟ ولم الإصرارُ عليه مِن جانبِ كنائسِ الغربِ إذن؟

إنَّ هذه المفارقاتِ تُعِيدُ إلى الأذهانِ دائمًا مقارَنةً بين صُورتينِ مُتناقِضَتَينِ تمامَ التناقُضِ: صورة افتقارِ الغربِ للموضوعِيَّةِ والرُّؤيةِ الصحيحةِ كُلَّما دخلَ في مُشكلةٍ مع الإسلامِ والمسلِمِينَ، فما إن حدَثَ حادثُ ١١ سبتمبر حتى أُدِينَ المسلمُونَ جميعًا، بل أُدِينَ الإسلامُ كدِينٍ، ووُصِفَ بأَقسَى الأوصافِ، ولم يستطيعوا هناك أن يفرِّقُوا بين سلوكِ مجموعةِ أفرادٍ محدودةٍ وبين الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ كلِّها: دِينًا وعقيدةً وسلوكًا، وسرعانَ ما اختَلطتِ الأُمورُ والمفاهيمُ، وتبدَّدَتِ الموضوعيَّةُ والمنهجيَّةُ والواقعيَّةُ والمنطقيَّةُ، وما شِئتَ مِن هذه اللَّافتاتِ التي كان يزهو بها الغربُ على الشرقِ والشّرقيِّينَ.

قَارِن هذا بما حَدَثَ في أثناءِ غَزْوِ الفِرنْجَة «croisades» للشرقِ ولِبَيتِ المقدِسِ، وبالمآسي التاريخيَّةِ التي لَحِقَتْ بالمسلِمِينَ على أيدي الفِرنْجَة،

وحَسْبُكَ أن تَعلَمَ مِن تاريخِ هذه الحملةِ التي تَمَّتْ تحتَ شارةِ الصليبِ، أنَّه قدْ غُدِرَ بالأَسْرَى المسلمِينَ في مدينةِ عَكَّا، وكانوا ثلاثةَ آلافِ أسيرٍ مسلمٍ، قُتِلُوا جميعًا في يومٍ واحدٍ.

وهذا أُنموذَجٌ لحادثةٍ واحدةٍ في مدينةٍ واحدةٍ ويومٍ واحدٍ، ومع ذلك لم يجرُؤْ مؤرِّخٌ مسلمٌ واحدٌ ولا عالمٌ ولا مُفكِّرٌ أن يفتحَ فَمَهُ بكلمةٍ واحدةٍ تُسِيءُ إلى المسيحيَّةِ كدِينٍ، بل إنَّ مُصطَلَحَ «الحروبِ الصَّليبيَّةِ» هو مصطلحٌ أوروبيٌّ، أمَّا المؤرِّخُونَ المسلمُونَ فإنَّهم يُسَمُّونَ هذه الحربَ: «حربَ الفِرنْجةِ».

وقد ظلَّ المسلمُونَ على وَعيٍ وذكاءٍ بالفروقِ الهائلةِ بين الأديانِ وبين استغلالِها للمتاجَرةِ بها في أسواقِ الاستعمارِ والتسلُّطِ على البلادِ والعبادِ.

وأنا لا أدعو في بحثي هذا إلى رفضِ الحوارِ، أو القَفزِ عليه في مخاطبةِ الآخَرِ، بل أدعو إلى الحوارِ والتمسك به، ليس خُضوعًا لهذا الآخَرِ، ولكن لأنَّ الإسلامَ هو- في حقيقتِه وجَوهرِهِ- دينُ حِوارٍ، وليس دينَ تسلُّطٍ ولا صِراعٍ، ونحن بصِفَتِنا مسلمِينَ، نؤمنُ بأنَّ اللَّهَ لو شاءَ أن يجعلَ النَّاسَ أمَّةً واحدةً لفَعَلَ، ولكنَّه شاءهم مُختَلِفين ومُتبايِنِينَ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولو رَجَعْنا إلى تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ، وتَوقَّفنا عندِ أنظارِ المفسِّرِينَ في مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ فسوفَ نجدُ مِن بينهم مَن يعودُ به إلى الاختلافِ المفهومِ في قولِه تعالى في الآيةِ الأولى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يكونُ المعنى حينئذ: خَلَقَهُم لكي يكونُوا مختلِفين في الأديانِ والأخلاقِ والأفعالِ، هذه حقيقةٌ قرآنيَّةٌ كما يُقَرِّرُها كثيرٌ مِن المُفَسِّرِينَ، وإذا تقرَّرَتْ حقيقةُ الاختلافِ هذه فلا طريقَ إلا «الحوارُ» والتَّحاورُ.

غير أن هذا الحوار لا يجوز ولا يصح أن يقع في العقائد وقضاياها حتى لا ينقلبَ إلى أداةِ صراعٍ وصدامٍ، فالعقائدُ في الأديانِ ليست موضوعًا لحواراتٍ تثمر التقاربَ بين الحضاراتِ.

وقبل ذلك يجبُ أن تُوضعَ شروطٌ لا مُراوَغةَ فيها قبلَ الجلوسِ على موائدِ الحوارِ، من أهمها توقُّفُ الكتاباتِ العَدائيةِ عن الإسلامِ ونَبِيِّ الإسلامِ وقُرآنِ الإسلامِ، وإثباتُ حُسْنِ النوايا شَرطٌ لا مَفَرَّ منه حتى يكونَ الطَّرَفُ الآخَر على بيِّنَةٍ مِن أَمره.

كما أنَّ وُضُوحَ المفاهيمِ، وتحديدَ الأهدافِ والغاياتِ، والاطلاعَ على الوثائقِ وبياناتِ المجامعِ اللاهوتيَّةِ، والمصارحةَ والمكاشفةَ، كلُّها شروطٌ لا بُدَّ منها قبلَ الدُّخولِ في حوارِ الأديانِ.

بَقِيَ أن أُبيِّنَ -في إيجازٍ- أهميَّةَ «الحوار» بشكلٍ عامٍّ في تراثِنا الإسلاميِّ، وهنا أشيرُ سريعًا إلى أنَّ تراثَنا يَسْتَعْمِلُ كلمةَ «حوارٍ» وكلمةَ «جدلٍ» أيضًا، وإن كانت كلمةُ جَدَلٍ تُوحِي بالحوارِ في الخلافِ الفكريِّ والعَقَدِيِّ، بينما تَتَّسِعُ دلالةُ لفظِ «الحوارِ» لتشملَ هذا النوعَ وغيرَه مِن الخلافيَّاتِ.

وقد وَرَدَتْ كلمةُ يحاورُ «وتحاوُر» في القرآنِ الكريمِ في سورةِ الكهفِ، وفي قصَّةِ المرأةِ التي اشتكتْ زوجَها للنبيِّ ﷺ في سورةِ الممتحِنةِ، أمَّا كلمةُ «جدلٍ» فقد وَرَدَتْ في القرآنِ الكريمِ سبعًا وعشرين مرَّةً.

ومما يجبُ[1] أن نعلمَه هنا أنَّ اسمَ الجَدَلِ يُطْلَقُ في «منطقِ أرسطو» على طريقةٍ مِن طرقِ الاستدلالِ يُمكنُ أن نَصِفَها بأنَّها مِن الدَّرجةِ الثَّانيةِ أو الثَّالثةِ

(١) انظر بحثنا: أسس علم الجدل عند الأشعري، المنشور في مجلة مكتبة أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة العدد (٤) سنة ١٩٧٨م، ص ٢٤٤. وقد طبع أخيرًا كفصل من كتابنا: نظرات في فكر الإمام الأشعري، ط. دار القدس العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ص: ٨١-١٥٩.. وقد نقلت منه ما تبقى من صفحات هذه الكلمة، وبتصرف أحيانًا.

في اكتشافِ الحقيقةِ؛ لأنَّ المنطقَ الأَرِسطِيّ يجعلُ الحُجَّةَ أو البرهانَ في أعلى رُتَبِ الأدلةِ والأقيسهِ، بينما يضعُ «الجدلَ» في رتبةٍ أنزلَ كثيرًا مِن رُتبةِ البرهانِ، ويُفَرِّقُ بينَهما بأنَّ القياسَ البرهانيَّ مُركَّبٌ مِن مقدِّماتٍ يقينيَّةٍ مُبَرْهَنٍ على صِحَّتِها، أمَّا الجدلُ فيتركَّبَ مِن مقدِّماتٍ مَظنُونةٍ أو مشهورةٍ.

وبينَ البرهانِ والجدلِ فرقٌ دقيقٌ -في المنطقِ الأَرْسْطِيِّ- هو: أنَّ البرهانَ يُنْتِجُ اليقينَ، أمَّا «الجدلُ» فهو مَنهجٌ يُستَخْدَمُ في التَّغلُّبِ على الخصمِ وإفحامِهِ بأيِّ طريقةٍ، حتى بقضايا كاذبةٍ غيرِ صادقةٍ.

وقد استقرَّ الأمرُ على ذلك في الفكرِ الفلسفيِّ الإغريقيِّ، وتقبَّلَهُ بعضُ الفلاسفةِ المسلمِينَ مِن أمثالِ الشيخ الرئيس: أبي عليٍّ بن سِينَا (ت. ٤٢٨هـ) وفسَّرُوا قولَه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] بأنَّ الحِكمَةَ: هي البرهانُ، والموعظةَ الحسنةَ: هي الدَّلائلُ الإقناعِيَّةُ، والجدلَ الحسنَ: هو إلزامُ الخصومِ وإفحامُهم.

ولكنَّ المتكلِّمِينَ رفضوا هذا التفسيرَ، وانطلقوا مِن هذه الآيةِ الكريمةِ نفسِها يؤسِّسُونَ عِلْمًا جَدِيدًا مُستَقِلًّا لم تَعرِفْه البَشريَّةُ مِن قبلُ، ذلكم هو عِلمُ «الجَدَلِ والمناظرةِ» أو «أدبِ البحثِ والمناظرةِ» وهو عِلمٌ بالغُ العُمقِ والدقَّةِ.

وقد لاحظَ المتكلِّمونَ أنَّ الجدلَ في القرآنِ جَدَلَانِ:

- جَدَلٌ حَسَنٌ، الهدفُ منه الاسترشادُ وطَلَبُ معرفةِ الحقِّ، ويدخُلُ تحتَه الأمرُ بالمعروفِ.

- وجدلٌ مذمومٌ، وهو ما كانَ للغَلَبَةِ والانتصارِ والمِرَاءِ.

والجدلُ الحَسَنُ قد وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ مرَّتَينِ فقط، في الآيةِ السابقةِ وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومرةٌ أخرى نَلْمَحُ تقديرَ القرآنِ الكريمِ لأديانِ أهلِ الكتابِ، حيثُ أَمَرَ بالجدَلِ الحَسَنِ في مَوطِنَينِ اثنَينِ فقط، هما: الدعوةُ إلى اللَّه، ومحاورةُ أهلِ الكتابِ.

والجدلُ الحسنُ -فيما يقولُ العلماءُ- أَدَبٌ أَدَّبَ اللَّهُ بِه نبيَّه ﷺ في الآيتَينِ السابقتَينِ، ومِن هنا قرَّرُوا أنَّ «الجدلَ» منهجٌ قرآنيٌّ، وهو طريقٌ للوصولِ إلى الحقِّ والدِّفاعِ عنه، وقد قُعِّدَتْ له قواعدُ جديدةٌ تختلفُ جذريًّا عن قواعدِ الجدَلِ الأَرِسطِيِّ، وهذه القواعدُ مَبنِيَّةٌ على بابَينِ هما: السؤالُ والجوابُ، ومراتبُ السُّؤالِ في هذا العِلمِ أربعُ:

الأُولَى: السؤالُ عن المذهبِ، بأن يبدأَ السائلُ حوارَه مع الآخرِ بالاستعلامِ عن رأيِه في الموضوعِ، وهاهنا صيغةٌ مُحَدَّدةٌ هي: «ما تقولُ في كذا؟» أو «ما قولك في كذا؟».

الثانية: المطالبةُ بالدلالةِ على المذهبِ.

الثالثة: المطالبةُ بتصحيحِ الدَّلِيلِ.

الرابعة: مرحلةُ الطَّعنِ على الدَّلِيلِ، وتُسَمَّى مرحلةُ الإلزامِ.

ويطولُ بِنا المقامُ لو رُحنَا نَسْرُدُ قواعدَ هذا «العِلمِ» الفذِّ في ضبطِ الحوارِ سُؤَالًا وجوابًا، واعتراضًا وردًّا، ولكن نكتفِي بأن نَصُوغَ بعضًا مِن الآدابِ التي أوجَبَها علماؤنَا على المتحاوِرِينَ خاتمةً لبحثِنا هذا، وذلك لأهميَّتِها القُصوَى في القضاءِ على ظاهرةِ المنازعاتِ التي لا طائلَ مِن ورائها، والتي انتشرتْ بينَ شبابِنا مِن الطُّلَّابِ ومِن المتشدِّدينَ في أمورٍ خِلافيَّةٍ قابلةٍ للرأيِ والرأيِ الآخَرِ؛ لأنَّ مثلَ هذه الأمورِ لا يجوزُ فيها علميًّا فَرضُ رَأيٍ ومُصادرةُ رأيٍ آخَرَ، والأمرُ المعلومُ مِن الدِّينِ بالضرورةِ، أو الأمرُ المُجْمَعُ عليه هو وَحدَه فقط ما يجبُ قَبُولَهُ ولا يجوزُ فيه الخلافُ، ومِن حُسْنِ الحظِّ أنَّ هذا

النوعَ مِن الأحكامِ مُحَدَّدٌ، لا يختلفُ فيه مسلمٌ عن مسلمٍ، أمَّا بقيَّةُ الخلافيَّاتِ، فالأمورُ فيها أوسعُ مِن قاعدةِ: «إمَّا أن تكونَ معي وإمَّا تكونُ على خطأٍ». بل الصحيحُ: «إمَّا تكونُ معي وإمَّا تكونُ معذورًا فيما أنت عليه».

يقولُ علماءُ الجَدَلِ: يجبُ على المتجادِلَيْنِ أن يكونَ هدفُ المناظرةِ بينهما هو «التَّجرُّدَ للحَقِّ» والتَّقرُّبَ إلى اللَّه تعالى بهذا التَّجرُّدِ، وكأنَّ الجَدَلَ هنا عديلُ العِبادةِ أو معنًى مِن معانيها؛ لأنَّهم يُذَكِّرُونَ بضرورةِ تجنُّبِ الرِّياءِ والمباهاةِ واللَّجَاجِ، وكأنَّ هذه النَّصيحةَ في جانِبَيها: الإيجابيِّ والسَّلبيِّ، هي الوجهُ الآخَرُ لقاعدةِ «الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ»(١).

ومِن طريفِ ما يقولُه العلماءُ: أنَّ المجادِلَ لو تخطَّى في جَدَلِه هَدَفَ التجرُّدِ إلى هدفِ المغالبةِ؛ فإنَّه بذلك يهبطُ إلى مُستوًى حيوانيٍّ يشاركُه فيه فُحولُ الإبلِ والكِباشِ والدِّيَكَةِ؛ فإنَّها تتخاصمُ تنازُعًا وانتقامًا، لا معرفةً وتفاهُمًا.

قالوا: ويجبُ على المُناظِرِ ألا يُفْرِطَ في رفعِ صوتِه في أثناءِ المناظرةِ، وألَّا يَحتدَّ في حديثِه.

وعليه أن يكونَ ثابِتَ الجوارِحِ، ولا يرميَ بيَدَيه في اتِّجاهِ خَصْمِه أو وُجوهِ الحاضرِينَ، وليَحذَرِ المجادلُ مِن ملاحظةِ الجماهيرِ، سواءٌ كانوا مِن أنصارِه أو خصومِه.

وعليه أن يلتزِمَ وجهَ الحقِّ، تقرُّبًا إلى اللَّه تعالى؛ لأنَّه إذا لاحظَ أصدقاءَه فربما يقرأُ في وجوهِهم شيئًا مِما يُؤذِيهم مِن خَصمِه، فتختلَّ قواهُ، ويَنسَى كثيرًا مِما يحتاجُ إليه.

---

(١) انظر بحثنا بعنوان أسس علم الجدل عند الأشعري ص ١٤٩ وما بعدها.

ويجبُ على المحاورِ أن يلزَمَ الصَّمتَ إذا أحسَّ بأنَّ الجمهورَ المستمِعَ لا يُسَوِّي بينَه وبينَ خَصْمَه في الاحترامِ أو الاستماعِ، أو حتَّى في مجرَّدِ الإقبالِ عليهما.

«ومِن دُرَرِ هذه الآدابِ: تحذيرُ المحاورِ مِن أن يستخِفَّ بخَصمِه أو يهزأَ منه، كائنًا مَن كان هذا الخَصْمُ؛ لأنَّ الاستخفافَ بالخَصْمِ يُوقِعُ المُناظِرَ فيما يُشْبِهُ الاستنامَةَ وعَدَمَ اليَقَظةِ، وهنا مَكْمَنُ الخطَرِ؛ حيثُ لا يَأمَنُ المستَخِفُّ حالتَئِذٍ أن يُبادِرَه خَصمَهُ بما لم يكن له في حِسبانٍ.

وعلى المُنَاظِرِ أن يَعلمَ درجةَ خَصمِهِ أوَّلًا، وترتيبَه في طبقاتِ المناظِرينَ، وهل هو مِن المبتدئينَ المسترشِدِينَ أو الأكفاءِ المتمكِّنينَ[1].

وعليه أن يحتاطَ للخَصْمِ المتعنِّتِ، وأن يُضَيِّقَ عليه مسالكَ النَّظَرِ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا، وعلى المُجِيبِ أن يَصبِرَ على السَّائلِ وينتظرَه حتى ينتهيَ مِن طرحِ سؤالِه كاملًا، لا فَرقَ في ذلك بينَ أن يكونَ سؤالُه صحيحًا أو غيرَ صحيحٍ، وعلى السائلِ أيضًا أن يَصبِرَ على المُجِيبِ حتَّى يَفْرُغَ مِن جوابِه.

ومِن روائعِ أدبِ الحوارِ في الإسلامِ: أنَّ المُنَاظِرَ إذا اسْتُغْلِقَتْ عليه أبوابُ التفكيرِ، وعَجَزَ عن الطَّعنِ في مذهبِ صاحبِه، أن يكونَ مُنصِفًا لنَفْسِه وأصحابِه؛ يَقُولُ الإمامُ أبو الحسن الأشعريُّ (ت٣٢٤هـ): «... فإذا أعياكَ السُّؤالُ والطَّعنُ، فتَدَبَّرْ وتفكَّرْ، وانظُر إلى كلامِ الخصمِ، فإن كان صحيحًا، فليس إلا التسليمَ، فإنَّ الأَنَفَةَ مِن قَبُولِ الحقِّ إذا وَرَدَ جَهلٌ وباطلٌ، وإن كانَ «كلامُ الخصمِ» مِما يَقَعُ في مِثْلِهِ الاختلافُ، فالزَمِ المطالبةَ بالبُرهانِ، وانتَظِرِ وُرُودَ الخواطرِ في خلالِ ذلك، باتِّساعِ ما ضاقَ؛ فإنَّه لن يَعدِمَها مريدُ الحقِّ القاصدُ إلى الإنصافِ»[2].

(١) المصدر نفسه: ١٥٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٥٤-١٥٥.

ولا بُدَّ للمُنَاظِرِ مِن أن يُتقِنَ الفَرْقَ بينَ «اليقينِ» وبينَ «غالبِ الظنِّ» والفرقَ بين الاحتجاجِ والتّقريبِ، ولا يجوزُ له أن يقطعَ بشيءٍ إذا كان لا يزالُ في مقامِ غَلَبَةِ الظنِّ، وعليه أن يتفحَّصَ الأسبابَ التي انتهتْ بِهِ إلى الاعتقادِ في مذهبٍ مُعَيَّنٍ، فإن كانتْ مِن قَبِيلِ الحُجَّةِ، فعليهِ أن يُواصِلَ السَّيرَ للوصولِ إلى اليقينِ، وإن كانتْ مِن قَبِيلِ الإلفِ والعَادَةِ، فعليه أن يُسقِطَها مِن يدَيهِ، وأن يبدأَ البحثَ مِن جديدٍ.

وليَحذَرِ المُنَاظِرُ حلاوةَ اللَّفظِ وجمالَ التعبيرِ مِن أربابِ المذاهبِ الباطلةِ، ولا يضيقُ صَدرُه بالأسلوبِ الرَّديءِ لو وَجَدَهُ في مذهبٍ حقٍّ، ولا يُثنِيَهُ ذلك عن تفحُّصِهِ واتِّبَاعِهِ، ويُنصَحُ الشيخُ للتّخلُّصِ مِن هذا التأثيرِ الزائفِ، بأن يعرِضَ المناظرُ المعانيَ على قلبِهِ خاليةً مِن قوالبِ الألفاظِ، وهناك يُعْرَفُ مِنها الحقُّ مِن الباطلِ.

ولو اختلطَ مذهبُ المُحِقِّ بباطلٍ، فلا يَصِحُّ أن يكونَ ذلك دليلًا على فسادِ كُلِّ أقاويلِه الأُخرى.

وكذلك لوِ اختلطَ مذهبُ المُبطِلِ بِحَقٍّ، فلا يَصِحُّ أن يكونَ ذلك دليلًا على صِحَّةِ أقاويلِه واعتقاداتِه، بل عليه أن يُنْصِفَ كُلًّا منهما فيما أصابَ، وفيما أخطأَ، باعتبارٍ واعتبارٍ.

ولو فُرِضَ أنَّ واحدًا مِن أهل النظرِ أخطأَ في عشرِينَ مذهبًا وأصابَ في مذهبٍ واحدٍ، فليس مِن الإنصافِ أن نتركَ مذهبًا أصابَ فيه مِن أجلِ عشرِينَ مذهبًا أخطأَ فيها، بل الحقُّ في ذلك، أن نستقصِي ونتتبَّعَ لنَقُولَ: أخطأَ هنا وأصابَ هناك، أو أخطأَ في هذه المسألةِ وأصابَ في تلك.

* * *

الإسلام والمسيحيَّة ومحور التَّلاقي(*)

بسمِ اللّهِ الرَّحمن الرَّحيم

السَّيِّد رئيس الجلسة

السَّـادة العلماء

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فأتقدَّمُ بجزيل الشُّكر إلى الصَّديق العزيز، الأب: «فيتوريو ياناري» على تفضُّله بدعوتي إلى هذه النَّدوة، التي تهدِف إلى تلمُّس أقرب السُّبل للخروج من هذه الأزمةِ المعاصرة الخانقة، التي ضاقَت بها صدورُ المخلصين الصَّادقين من المؤمنين باللَّه ورسالاتِه في الغرب والشَّرق على السَّواء، وكرَّسوا حياتَهم للعمل على مواجهتِها، ومحاصرة آثارها المدمِّرة، التي تُنذر بكوارثَ قد تعود بالإنسانيَّةِ إلى عصورِ الجهل والظَّلام.

ولا شكَّ أنَّ القائمين على جمعيَّة: «سانت إيجيديو» من هؤلاء المخلِصين، الذين وضعوا قضيَّة السَّلام بين المؤمنين باللَّه نصبَ أعينِهم، ونذروا لها حياتَهم، وجاهدوا في سبيلِها بأموالهم وأنفسهم، فلهم الشُّكرُ، ولهم الدُّعاء، ولهم كلُّ التَّشجيع والتَّقدير.

أيها السَّـادة..

ما أظنُّ أنَّكم تختلفون معي في أنَّ الإنسانية لم تكن في يومٍ من الأيَّام

(*) كلمة ألقيت في ندوة بمقر جمعية «سانت إيجيديو» بعنوان: «أهمية الكنائس في الشرق الأوسط» روما - إيطاليا، في: ٢٨/ ٠٢/ ١٤٣٠هـ، الموافق: ٢٣/ ٠٢/ ٢٠٠٩م.

أحوجَ إلى روح الدِّين الإلهي وجوهره وفلسفتِه؛ مثل حاجتها في عصرنا هذا، الذي تجرى فيه مصائرُ النَّاس وأقدارُ الشُّعوب على قاعدة المصلحة والمنفعة الشَّخصية، ومنطق الأثَرَة والفرديَّة والأنانيَّة.

وقد كان الظَّنُّ بالقرنين الماضيين أنَّ يكون تَقدُّم العلم والفلسفة والثَّقافة فيهما قادرًا على تربيةِ الإنسان، وتهذيبِ أخلاقه ومشاعره، وكفيلًا بكفكفةِ نوازعِه نحو الغلَبة والتسلُّط والاستقواء على الغير..

إلَّا أنَّ الواقعَ يثبت أنَّ القرن التَّاسعَ عشر مثلًا؛ إذا كان هو قرنَ التَّقدُّم العلمي، والنظريَّات الفلسفيَّة، ومذاهبِ التَّطور في شتَّى مناحيه، والثَّورةِ على المظالم الاجتماعيَّة، وعوامل التخلُّف البشري -فإنَّه كان أيضًا قرنَ الاستعمار، وقرن الاستيلاء على مقدَّرات الآخرين، بل كان القرنَ الذي سُخِّر فيه العلمُ لخدمةِ المطامع الاستعماريَّة والنزاعات السيَّاسية[1]، وصُنِّف فيه النَّاس على أساسٍ من اللَّون والعنصر إلى جنسٍ أبيضَ متميِّز، له حقُّ الغلَبة والاستيلاء، وأجناسٍ أخرى مغلوبةٍ على أمرها، لا يَحقُّ لها إلَّا الخضوع والانقياد لما يراه الجنسُ الأبيضُ المتميِّز، وظهرَت نظريَّاتٌ باسم العِلم والبحث العلمي، بحثَت في نسَب الإنسان عن أصلٍ حيواني، أو جَدٍّ أعلى من فصائل الحيوان، صدرَ منه النَّوع البشري، وجعلوا منه فصائل متدرِّجة في الفضل والتَّميز، ثمَّ وضعوا أنفسَهم في الدَّرجة العليا من تلك الفصائل، بل بحثوا في الحضارات والأجناس الأخرى، فما كان منها عبقريًّا خلَّاقًا ألحَقوه بالجنس الآريِّ لأدنى ملابسةٍ، وقالوا: إنَّه آريٌّ هاجرَ أو أقامَ في هذا الموطن أو ذلك.

(١) راجع في هذا الموضوع: العقاد، «داعي السماء بلال»، ضمن: «مجموعة العقاد الإسلامية»: ١/ ١٥.

ولم يكن القرنُ العشرون بأسعدَ حالًا من سابقِهِ؛ فقد وقعَت فيه حَربان عالميَّتان، راحَ ضحيَّتها أكثرُ من خمسين مليونًا من القتلى، وظهر سلاحُ الرَّدعِ النَّوويِّ، كرعبٍ يتهدَّدُ البشريَّةَ حتى هذه اللحظة، واستَأثر الأغنياء وهم قِلَّة بثرَوات الأكثريَّة السَّاحقة الفقيرة.

ثمَّ أطلَّ القرنُ الواحد والعشرون باستعمارٍ جديد، تسبقُه وتمهِّد له نظريَّات فلسفيَّة جعلَت من الصِّراع والصِّدام ونهاية التاريخ قوانينَ تحكُم علاقاتِ الشُّعوب ومستقبلَ الحضارات.

وصفوةُ القول: أنَّ العلم ونظريَّات الفلسفة والأخلاق الحديثة عجزَت بصورة واضحة عن تربية البشريَّة تربيةً راقيةً، تقومُ على تحقيق الإخاء بين بنى الإنسان.

ولا مفرَّ أمام الباحثين في أزمة الإنسان المعاصر من التنقيب عن بديل يُنقذُ البشريَّة مما يَلوح في الأفق، من نُذُرِ صدامٍ وحروب قد تعود بها إلى ما قبل العصر الحجريِّ.

وفي يقيني كما في يقينكم؛ أنَّه لا مفرَّ من العودة إلى الدِّين، كتصحيحٍ للمسيرة المنحرفة، وككابح للسُّقوط والانفلات، وموجِّهٍ للعلم والفلسفة.

وأنا أعلمُ أنَّه أمرٌ بالغ الصُّعوبة، بل إنَّني أكاد أتيقَّن أن مجيئَ يوم تتصدَّر فيه المُثُل والأخلاق الدِّينية قيادةَ العالم -يَبدو كحُلم بعيدِ المنال؛ لفَرط ما يَسود السَّاحة الآن، من سيطرة الجُنون والفوضى والخرافة على عقول كثيرٍ ممن يُمارسون ضغوطًا مباشرة على مسيرة عصرنا الرَّاهن.

ولكنَّ هذا التَّشاؤمَ لا يَمنع من الانضمامِ إلى المخلصين من أبناء الدِّيانات المختلفة، الذين أخذوا على عاتِقهم مهمَّة البدءِ، ولو بخُطوة قصيرة في بداية طريقٍ طويل.

قد تعجبون أيُّها السادة لو قلت لكم: إنَّ هذا القلَق الذي نعيشه الآن عاشَته أوروبا، وعاشَه العالم، وعُقد من أجلِه مؤتمرٌ عالَميٌّ للأديان في لندن عام: ١٩٣٦م من القرن الماضي.. وكان الأزهرُ الشَّريف في مُقدِّمة المؤسَّسات الدينية التي أسهمَت بقوَّة في هذا المؤتمر، وأرسلَ شيخ الأزهر وقتَها -الأستاذ الإمام المراغي- كلمةً إلى هذا المؤتمر، حدَّد فيها علَّة هذا السُّقوط الحضاري في عصر التَّقدم العلمي، وحصرَها في الإلحاد، والاتِّجاهات العلمية والفلسفيَّة المادِّية، وهو تحليلٌ جريءٌ، سابقٌ لأحداث التَّاريخ وتجلِّياته؛ إذ كيف يَجرؤُ الشَّيخ على الهجوم على العلم والفلسفة في عصر ازدِهارهما وسَطوَتهما على العقول في الشَّرق والغرب، ولدرجةٍ حملَت كثيرًا من رجال الدِّين المسيحي، بل كثيرًا من علماء الإسلام أنفسهم على محاولات مضنية من التَّوفيقَ بين النصوص المقدَّسة في الدِّين والعلم الحديث، حتى ولو جاء ذلك على حساب هذه النُّصوص ودلالاتها الظَّاهرة الواضحة.

لكنَّ الشيخَ المراغي لا يرى لهذا السُّقوط الحضاري دواءً إلا في التَّديُّن، فغريزةُ التَّديُّن ليست بأهونَ ولا أقلَّ شأنًا في قيادة الإنسانية نحوَ الخير والتَّعارف من نزعات الإلحاد الدَّافعة إلى إفساد شأن الجماعة الإنسانيَّة (١).

ويَتوقَّع الشَّيخ بالطَّبع اعتراضًا من الملحدين، ربَّما يَبدو منطقيًّا في ظاهره، مؤدَّاه: أنَّ التَّاريخ حافلٌ بمآسٍ وكوارثَ إنسانيَّةٍ، كان الدِّين فيها قوَّة طائشة، أدَّت إلى عنفٍ وتدمير مروِّع، بل كان اختلافُ الأديان فيها من أهمِّ عوامل الفُرقة والاختلاف بين النَّاس، وأنَّ العلم والفلسفة المادِّية إذا كانا قد

(١) نشرت كلمة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر إلى المؤتمر العالمي للأديان في لندن في «مجلة الأزهر»، مجلد: ٧، ١٩٣٦م، ص: ٣٠١ - ٣١١، ولم يحضر الشيخ مؤتمر لندن، وأناب عنه شقيقه الشيخ عبد العزيز مصطفى المراغي في إلقاء كلمته.

عجزا عن تحقيق الأخوَّة الإنسانيَّة فقد عجز الدِّين -أيضًا- وبالقدر نفسِه عن تحقيق هذه الأخوَّة.

والشَّيخ يُقرُّ هذا الواقع المُحزِن، ولكن يُنبِّه إلى أن هذه الذِّكريات المروعة ليس سببُها الدِّين، ولا أنَّ في طبيعة الدِّين وحقيقته ما يُؤدِّى إلى هذه المآسي، وإنَّما السبب الحقيقي هو إخضاعُ الدِّين لواقع منحرفٍ، واستغلالُه في تحقيق هذا الواقع، وأنَّ أشخاصًا لا ضمائرَ لهم استغلُّوا الشعور الدِّيني عند الناس لتحقيق مآرِبهم التي لا يرضى عنها الدِّين..

وباختصارٍ؛ فإنَّ ما عانته الإنسانيَّة في العصور الوسيطة من شرورٍ وآلام وتَنكُّب عن طريق السَّلام الروحي ليس لعلَّةٍ في طبيعة التَّدين، وإنَّما لعلَّة الانحراف في تسخيرِ الشُّعور الدِّيني وتوظيفه لتحقيقِ أغراضٍ ومنافعَ عارضةٍ، لا تتفق مع طبيعة الدِّين[1].

ويَنطلق الشيخ المراغي -في كلمته التاريخية- مما يسمِّيه بالأخوَّةِ العالميَّة بين أفراد النَّوع الإنساني، مبيِّنًا أنها من أهمِّ المقاصد التي سعَت إليها الأديان، وعُني بها الإسلامُ الذي نبَّه إلى وَحدةِ الأصلِ الإنسانيِّ، وما تقتضيه هذه الوحدة من التَّعارُف والتَّآخي والمساواة بين النَّاس، فالنَّاس سواسيةٌ كأسنان المشط، والنَّاس بنو أبٍّ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، من غير اعتبارٍ لشرَف أصلٍ، أو ولادة، أو جنس.

غير أنَّ الشيخ يُنبِّه إلى أنَّ الأخوَّة بين رجالِ الدِّين يَجب أن تسبقَ الأخوَّةَ العالميَّةَ بين النَّاسِ، وأنَّ الطَّريق إليها مُعبَّدٌ وسهل، ولا يَتطلَّب إلا الالتفات لما بين الأديان من مساحاتٍ مشتركة، لو وُظِّفت في الاتِّجاه الصحيح لحقَّقت ما عجزَ عنه العلم والفلسفة ونظريَّات الاجتماع والأخلاق الحديثة من توجيه البشرية الوجهةَ المستقيمة..

(١) المصدر نفسه: ٣٠٤.

وهذا ما يَنبغي أن نعود إليه اليوم، ونحاول بعثَه من جديد، وأراه الحلَّ الذي لا حلَّ غيرَه.

ولقد طُلب مني أن أتحدَّث عن التَّصوف، باعتباره الثَّروة الرُّوحية التي تمثِّل قاسمًا مشتركًا بين الأديان السَّماوية، وهو بالفعل ثروةٌ إنسانيَّة مختَزنة في التصوُّف الإسلامي والتَّصوف المسيحي، بل والتَّصوف الشَّرقي بعامَّة، ويُشكِّل ما يُشبه الفضاء الأوسعَ الذي يلتقي في ظلالِه صفوةُ المؤمنين باللَّه من أتباع الأديان الإلهيَّة، ويَعيشون تحت هذه الظِّلال في تآخٍ وانسجام، برغم الفوارق والعوازل العقَديَّة والتَّشريعيَّة.

غيرَ أنِّي أجدُ من وجهةِ نظري صعوبةً تحولُ دون تحقيق الأمل في إخاءٍ يقومُ على هذا الأساس وحدَه؛ لأنَّ التَّجرِبةَ الرَّوحيَّة التي تذوبُ فيها الفوارق، ويَتلاشى معها الإحساسُ بالتَّميُّزِ والاختلاف -هي تجربةٌ شديدة الخصوصيَّة، ثم هي درجةٌ عليا من درجاتِ التَّجرُّد والارتقاء، لا يُمكن تعميمُها على جماهير المتديِّنين، فالكلُّ مغرِّدٌ في سِربٍ واحد، ولكلٍّ لغتُه وعبارتُه وإن كان المخاطَب واحدًا.

عبارَتُهم شتَّى وحسنُك واحدٌ وكلٌ إلى ذاك الجَمالِ يُشيرُ

ولا زالَ كبارُ الصُّوفية المسلمين الذين هتفوا في بعض أشواقِهم بما عبروا عنه بدينِ الحُبِّ، الذي لا يَتميَّز فيه المسجد عن الكنيسة، ولا عن الدَّير، ولا عن الأوثان -محلَّ نقدٍ شديد من جمهرة العلماء، فضلًا عن العامَّة..

وقد عبَّر الشيخ محيي الدِّين بنُ عربي عن هذه الحالة التي عاشَها في تجارِبه الرُّوحية العليا بقوله[١]:

لقد صارَ قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ فمرعًى لغِزلانٍ ودَيْرٌ لرُهبانِ

وبيتٌ لأصنامٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

---

(١) انظر فيما سبق ص ٧٠٢.

أدينُ بدينِ الحُبِّ أنَّى تَوجَّهَت ركائبُه فالحُبُّ دِيني وإيماني

غير أنَّ قوله هذا كان مثارَ نقدٍ لاذعٍ من كبار مفكِّري المسلمين، ولدرجة اتِّهامه بالقول بوَحدة الأديان . . . الخ ما هو معروفٌ في هذا الشَّأن.

بل إنَّ صديقَنا الأب الدكتور «جوزيبي سكاتولين» يَتبنَّى الآن الدَّعوة إلى التقاء المسيحية بالإسلام في فضاءاتِ المُطلَق، كمصدرٍ للأديان وغايةٍ؛ وهو اللَّه تعالى -فيما يقولُ-، وحيثُ تتلاقى الأضداد في هذا المستوى المفارِق أو المتعالي على كلِّ المقولات والتَّحديدات العقليَّة، وحيث يُصبح العجز عن الإدراك إدراكًا، وهو ما عبَّر عنه القِدِّيس «أوغسطين»: «إن فَهِمْتَه فهو ليس اللَّه»، وأيضًا ما عبَّر عنه أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه (ت. ١٢هـ/ ٦٣٤م) فيما يَرويه عنه الإمام القشيريُّ: «سبحان من لم يَجعل سبيلًا لخلقِه إلى معرفتِه إلَّا بالعجزِ عن معرفتِه»[(١)] . .

وأنَّ هذا الأفُق الرُّوحي الرَّحب يَجب أن يكون مفتوحًا للتَّبادل بين التَّقاليد الصُّوفية المختلفة[(٢)].

لكن الأب «جوزيف» الذي استطاع -بتحليله الدَّقيق لمقولات الصُّوفية المسيحيِّين والمسلمين- أن يُسلِّط الضَّوء على هذه النُّقطة، التي تتلاقى فيها الأديان وتتعانق، لم يَستطع القفزَ على ما بين الأديان من تباينات تَظلُّ ماثلة في نهاية المطاف، وقد صرَّح هو نفسه بأنَّ قصده من لقاء القِمم -إن صح هذا التَّعبير- ليس هو «إلغاءَ الاختلافات الموجودة بين كِلا التَّقليدين الدِّينيين، وتَبسيط عقيدتِهما في وَسَطٍ قد تُسفر في آخرِ الأمر عن أنَّها خيانةٌ لكِلا التَّقليدين»[(٣)].

(١) «الرسالة القشيرية»، باب التوحيد، رقم: ١٨.

(٢) مقال للأب الدكتور جوزيف استكاتولين بعنوان: «روحانيات في حوار أو حوار بين الروحانيات»: ٤٧-٤٨. تفضل بإهدائي النسخة مطبوعة على الكمبيوتر. بدون تاريخ أو بيانات نشر.

(٣) السابق: ٤٩.

وإذن؛ فلا مفرَّ من الوقوف على ثَغرة التَّعددية والغيرية، بل مواجهة التَّضاد والاختلاف.

وفيما أرى؛ فإنَّ التَّصوف، أو الرُّوحانية الخصبة الثَّرية إذا كانت تَصلحُ جامعًا مشترَكًا لخاصَّة الخاصَّة، القادرين على التَّحليق عاليًا فوق عوالِم المتضادَّات -فإنَّه لا يَصلح أن يكون بمثابة أرضيَّةٍ مشتركة، تذوبُ فيها حساسيةُ الفوارق وتداعياتها، ويُصبح الأمر في حاجة إلى البحث عن صيغةٍ أخرى، تَنحلُّ فيها كلُّ التعارضات منذُ بداية الطَّريق، وهذه الصِّيغةُ مذكورةٌ في القرآن الكريم في أكثرَ من موضعٍ، وهى تقوم على حقائق محدَّدة، بنصوص صريحةٍ قاطعة، ولا مجال فيها لرُؤى أو مشاهدات قلبيَّة تختلفُ فيها الأذواقُ والمشاعر والتَّجارب..

هذه الصيغةُ تنطلق من المُسلَّمة الآتية: هي أنَّ كلًّا من الإسلام والمسيحيَّة حلقةٌ في دين واحد، هو الدِّين الإلهي؛ فالدِّينان شقيقان، مصدرُهما واحد، وغايتُهما واحدة، والإنجيل أخٌ للقرآن، وهو هدًى ونور، مثلُه مثَلُ التوراة ومثلُ القرآن، وثلاثتها كتُب اللَّه ووحيه المُنزَّلُ على أنبيائه، ونبيُّ الإسلام أخٌ لعيسى وموسى وسائرِ الأنبياء -عليهم السَّلام-.

أضِف إلى ذلك: ترحيبَ شريعة الإسلام بالزَّواج من كتابية -يهودية أو مسيحية-، تبقى على دينِها، ويَتعايَش الدِّينان في حبٍّ وموَدَّة تحت سقفٍ واحد، وفى بيت واحد، تكون الكتابيَّة -اليهودية أو المسيحيَّة- شريكةَ زوجها المسلم، وأمَّ أولاده، وموضعَ عطفِه وحنانه ومحبَّته.

هذه هي الصِّيغة التي يَنبغي أن تُشكِّل الأساسَ الاجتماعي والرُّوحي بين الكَنيسة والمسجد، وبين المسيحي والمسلم، بل بين الغرب والشَّرق.

وشـكرًا لحُسن استماعِكم

مصر ملتقى الأديان السماوية(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

كلُّ عام وحضراتكم جميعًا في خير وصحَّة وعافية، وأهنِّئ نفسي وأهنِّئكم بهذه الأيام واللَّيالي المباركات، وبهذه الأمسية الجميلة المُتألقة، التي جمعَت أبناء مصر المُخلصين الأوفياء، وعلى هذه الموائد الكريمة العامرة بالنِّعمة والخير، والتي يُقيمها قداسة البابا شنودة، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية؛ تكريمًا لإخوته المسلمين والأقباط والمسيحيِّين.

وإنَّها لَسُنَّة حميدة طيبة؛ أن يلتقي المسيحيون والمسلمون على مائدةٍ واحدة، في وزارة الأوقاف، وفى الكاتدرائية بالقاهرة، في شهر رمضان من كلِّ عام، هذا اللِّقاءَ الذي يُعبِّر عن لقاءٍ وارتباطٍ آخرَ أقوى وأعمق وأشدَّ؛ وأعني به: ارتباطَ الإسلام بالمسيحية ارتباطًا عضويًّا، لا يَنفكُّ ولا يُنقض؛ إذ هما في حقيقتِهما مَظْهرانِ لدينٍ واحدٍ، هو الدِّين الإلهي، الذي تَجلَّت رسالاته وشرائعه على مدى التاريخ، بدءًا من آدم، ومرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وانتهاءً بمحمد؛ عليهم جميعًا أفضل الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليم.

ووَحْدَةُ المصدر هذه تُنْشِئُ من علاقات المودة ما يُشْبِه صلةَ الرَّحم، التي تَربطُ بين المؤمنين جميعًا؛ حيثما كانوا، وكيفما كانت شرائعهم ورسالاتهم.

(*) كلمة ألقيت في حفل إفطار الوحدة الوطنية، بالكاتدرائية الأرثوذكسية بالعباسية، في: ٢١ من رمضان سنة ١٤٣١هـ، الموافق: ٣١ من أغسطس سنة ٢٠١٠م.

ولا تَقف صلةُ الرَّحم بين الإسلام والمسيحية عند هذه الحدود فقط، بل تتخطَّاها وتُضيف إليها صلةَ رحم أخرى، بين نبي الإسلام والأنبياء السَّابقين عليه، وخصوصًا؛ سيِّدنا عيسى بن مريم -عليه السَّلام-.

وقد صَوَّرَ نبيُّ الإسلام -صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه- هذه الوَحْدَة العُضْويَّة التي تجمع بينه وبين إخوته من الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ، في مَثَلٍ يقطرُ روعةً وجمالًا يقولُ فيه: «أنا أولَى النَّاسِ بعيسى بنِ مريمَ، في الدُّنيا والآخرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّاتٍ؛ أُمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ»[(١)]؛ أي: أنَّ الأنبياء يُشبهون إخوةً من أبٍ واحد وأمَّهات شتَّى، والأبُ الواحد هو الدِّين الذي يَجمعهم جميعًا، والأمَّهات التي تُفرِّقهم هي الأزمنةُ والأمكنة والرِّسالات التي يَختلف بها نبيٌّ عن نبيٍّ، ورسولٌ عن رسول.

وثمَّة صلة رحم ثالثة بين المسلمين والمسيحيين؛ هي أنَّهم يُؤمنون بموسى وعيسى كما نؤمن بمحمَّد؛ سواءً بسواء، ويُؤمنون أنَّ التوراة كتابُ اللَّه، وأنَّ الإنجيل كتاب اللَّه، وأنَّهما هدًى ونورٌ للناس.. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

ومن هنا؛ قَرَّرَ بعضُ الفقهاء أنَّه إذا كان لا يَجوز للمسلم والمسلمة أن يَمسَّا القرآن وهما في حالة جَنابة؛ فإنَّه لا يجوزُ لهما أن يَمَسَّا التوراة أو الإنجيل حتى يَغتسلا.

والقرآنُ فيه حديث جميل عن سيدنا عيسى -عليه السَّلام-، وعن أمِّه مريم العذراء -عليها السَّلام-، وفيه سورةُ مريم، وفيه سورة أخرى تسمَّي

(١) تقدم تخريجه ص: ٥١٠.

سورة الرُّوم، وهم المسيحيون الشَّرقيون، الذين كانوا يُتاخمون حدودَ الدولة الإسلامية، ويُشكِّلون الجار الأقرب للمسلمين.

والذي يَتأمَّلُ سيرةَ النَّبي ﷺ طوالَ فترة الرِّسالة في مكَّة والمدينة لا يَصعب عليه أن يَرصد المودَّة الخاصة في كلِّ تصرُّفاته وتعاملاته مع المسيحيين آنذاك..

وقد تمثَّلت أوَّلَ ما تمثَّلت نصيحتُه ﷺ للمسلمين المستضعفين في مكة بالهجرة إلى الحبشة المسيحية ومَلِكها المسيحي، وقد تكرَّرت هذه الهجرةُ مرتين في العهد المكي، وكان من بين المهاجرين: عثمان بن عفان، وزوجه رقية، ابنة النبي ﷺ قال لهم: «إنَّ بأرضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه، فالْحَقوا ببلادِهِ حتى يَجعَلَ اللَّهُ لكم فرَجًا ومَخرَجًا ممَّا أنتُم فيه»(١).

ويُحدِّثنا التَّاريخ أنَّ مَلِكَ الحبشة استقبلَ المسلمين استقبالًا حسنًا، وحماهم وأمَّنهم، ولم يُسلمهم إلى وَفْدِ قريش الذي جاء إلى الملك ليَطلُب منه عودةَ هؤلاء المستضعفين إلى ساداتهم في مكَّة.

وقصَّة نصارى نجران -وهي قصَّةٌ مُوَثَّقَةٌ في المصادر الإسلاميَّة- تُنبئنا أنَّ وفدًا، مكوَّنًا من: ٦٠ رجلًا، من أشراف نجران من المسيحيين، يَتقدَّمُهم الأسقف: أبو حارثة ابن علقمة، ذهبوا ليحاوروا نبيَّ الإسلام في دينه الجديد، فاستقبلَهم النَّبي في مسجده بالمدينة، واستضافَهم فيه، وجرى الحوارُ بينه وبين الوَفد المسيحي في رحاب المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ولما حان وقتُ صلاتهم قالوا للنَّبي: يا محمَّد، إنَّ هذا وقتُ صلاتنا، وإنا نريد أن نؤدِّيها. فقال لهم: «دُونَكم هذا الجانبَ مِن المسجدِ، صَلُّوا فيه»(٢)،

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/ ٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/ ٣٠١، من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه بنحوه ابن إسحاق في «السِّيرة»، ومن طريقه ابن هشام في «السِّيرة»: ١/ ٥٧٤، =

وصلَّى المسيحيُّون صلاتهم الكَنَسية في مسجد النبي بالمدينة، ولم يَجد النبي ولا المسلمون أدنى حرج في أن يَستخدمَ المسيحيون مسجد النَّبي -وهو أوَّل مسجد في تاريخ الإسلام- ليؤدُّوا فيه صلاتهم.

وأذكرُ أنَّ هذا التاريخ شجَّعَني حين كنت مَدْعُوًّا للغداء في إحدى كنائس مدينة فريبورج على أن أطلب من كبير الأساقفة أن يَأذن لي بالصَّلاة، فأذِن لي مشكورًا، وهيَّأ لي غرفة صغيرة، وأحضروا فيها نسخةً من القرآن الكريم، وصلَّيت في هذا المكان بمذاق خاص من الروحانية الأخاذة، لا أنسى سحرَها حتى هذه اللحظة، وعلمت وقتَها كيف أنَّ الأديان حين تَخلو من التَّوظيفات الرديئة، فإنَّها تشيع المحبَّة والسماحة في نفوس المصلين، أينما كانوا، ومهما اختلفت بهم العقائدُ والملل والمذاهب.

وكثيرًا ما توقَّفت عند حادثة هذا الوفد المسيحي، الذي قطَع آلاف الأميال على ظهور المطايا، ليحاورَ نبيَّ الإسلام، وكيف أن هذا الحوار حدث في أقدس مكان في عاصمة الإسلام الأولى، وتمَّ في جَوٍّ من المودة الخالصة، رغم الحساسية الشَّديدة، والحرَج البالغ على طرَفي مائدة الحوار، وكيف انتهت المهمَّة في حرية تامة مكفولةٍ للطرفين، وتساءلتُ: هل يُمكن أن نتصوَّر حدوثَ حوار من هذا النوع في مساجدنا وكنائسنا الآن؟ وهل يَنتهي بنفس الحرية والسَّماحة التي انتهى بها حوارُ أسلافنا القدامى؟ أو يَنتهي بنا إلى ما لا تُحْمَد عُقْباه؟ وأكبر الظَّنّ أن ما نراه الآن من المضاربة بالأديان في سُوق السِّياسات والصراعات الدَّولية يُرشِّح الاحتمالَ الثاني بكلِّ قوة.

= والطَّبريُّ في «تفسيره»: ٥/ ١٧٢، والبيهقيُّ في «دلائل النُّبوَّة»: ٥/ ٣٨٢، وغيرهم، عن محمَّد بن جعفر بن الزُّبير بن العوَّام.

أيُّها السَّادة . .

إنَّ مصرَنا العظيمة هذه هي موطنُ الأديان الإلهية السَّماوية، وهي ملتقى الأنبياء -عليهم السَّلام-؛ إبراهيم، وموسى، ويعقوب، ويوسف، وإخوته، وسيدنا عيسى -عليه السَّلام- الذي جاء مع والدته الطَّاهرة مريم التي فضلَّها اللَّه على نساء العالمين في القرآن الكريم، وقال في حقها: ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وسوفَ تَظلُّ مصر ساحة الإخاء الدِّيني، وإلى الأبد إن شاء اللَّه.

وليس صدفةً أن تَتجاوَب في سمائها الطَّاهرة مآذنُ المساجد، ومنارات الكنائس، ومعابد القدماء المصريين، بل هو الدَّليل على أنَّ هذه الأرض مؤهَّلَةٌ منذ القِدَم لأن تكون رائدة في تعانُق الأديان، وتعانق المؤمنين المخلِصين، وعصيَّةً على كلِّ المؤامرات والتّحرُّشات التي تَهدف إلى النَّيل من هذه الوَحْدَة التَّاريخية، أو العبث بحُرمتها وقُدسيَّتها الضَّاربة بجذورها في ضَمير الآبادِ والأزمانِ.

حمى اللَّهُ مصرَنا الغالية، وحفظ السَّيِّد الرَّئيس/ محمَّد حسني مبارك - رئيس الجمهورية-، ورعاه، ووَفَّقَهُ إلى تحقيق ما يَصبوه لهذا الشَّعب الكريم.

وشكرًا لقداسة البابا شنودة الثَّالث على هذه الحفاوة والمودة والكرم الأصيل، وشكرًا لرِفاق قداسته من رجال الكَنيسة القبطية، ولكل من أسهم في إعداد هذا الحفل الكريم، وكلَّ عام وأنتُم بخير.

بيتُ العائلةِ المصريَّةِ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسل اللَّه، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد؛

فيسعدني أن نعقِدَ هذه الجلسةَ في مقرِّ الكاتدرائيَّة المرقصيَّة، ويزيد سعادتي أن تأتي هذه الجلسة في عهد قداسة البابا تواضروس الثاني.

والحقيقة أنَّنا قد تأخَّرنا في عقد هذه الجلسة، حيث كانت الجلسة الأخيرة للمجلس يوم ١١ أبريل ٢٠١٣م، أي: منذ ما يقرب من عشرة أشهر، لكن من حُسن الحظِّ أنَّ المجلس التنفيذيَّ كان خلال هذه المدة، بل منذ إنشاء بيت العائلة المصرية، في حالة عمل دائب لم يتوقَّف، رغم الظُّروف الصَّعبة والقاسية، وقد اجتهَدت لجانُه الثَّمانية في العمل على أرضِ الواقِع حتى قبل صُدور قرار رئيس الوزراء بالموافقةِ عليه.

هذا وقد أنجَز بيتُ العائلةِ الكثيرَ من الأعمالِ الجادَّة، من خلالِ لجانِ المجلس التَّنفيذيِّ الثَّمانية، وأخصُّ بالذِّكر والثَّناء لجنةَ الخطاب الديني ولجنةَ التَّعليم اللَّتين حقَّقتا نجاحًا واضحًا، ولا زالتا تنسقان مع سائر اللجان في عمل دؤوب، وقد وصل صدى هذه الجهود إلى كثير من بلاد العالم العربي والغربي ولفتت أنظار العرب والغربيِّين على السَّواء، ودعوا لعقد مؤتمرات لبيت العائلة في لبنان والبوسنة وإيطاليا وفرنسا وانجلترا

(*) كلمة ألقيت في اجتماع بيت العائلة المصرية، المنعقد في مقر الكاتدرائية المرقصية، في: ١٣ من ربيع آخر سنة ١٤٣٥هـ الموافق: ١٣ من فبراير سنة ٢٠١٤م.

والمغرب؛ لإبراز هذا النموذج الطيب للتَّعايش بين أهل الأديان.

أمَّا في الداخل فقد تواصل بيت العائلة مع فروع أسيوط وملوي والأقصر والإسكندرية من أجل التَّكامل والتَّعاون، ولازالت جهودُه متواصلةً مع بقيَّة المحافظات لإنشاء فروع جديدة تكمل مسيرة هذا العمل المتفرِّد.

ومع أنَّ بيت العائلة قد صار معروفًا لجماهير الأمَّة داخل الوطن وخارجه، فإنَّنا نؤكِّد دائمًا على هدفه الأعلى وهو الحفاظ على وَحدة مصر وشخصيَّتها وصيانة هويتها واستعادة قيمها الدينية والأخلاقية، والتركيز على المشترك للعمل على تفعيله، والاحترام المتبادل للتنوع والتَّكامل الوطني واستنهاض التَّقاليد الحضاريَّة التي تدعو إليها الأديان السَّماويَّة.

ومن أفضل ما نعتزُّ به أن بيتَ العائلة يضطلع في المقام الأول بنزع القِناع الدِّيني عن زيف المشاكل التي لا علاقةَ لها بالدِّين، والتي أثبت الواقع أنها غالبًا ما تكون مشاكل اجتماعيَّة واقتصاديَّة تُلبَّس قِناع الدِّين زورًا وبهتانًا.

أيُّها السَّادة!

إنَّنا نشكركم على تعاونِكم المخلصِ والبنَّاء لدعم هذه الهيئة الوطنية ونرجو لها ولكم من اللَّه التوفيق.

كما ندعوه جميعًا أن يشمل مصر برعايته وعونِه، وأن يُعين أهلها جميعًا على العمل والبَذل من أجل رِفعة الوطنِ والمواطنين.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

المواطنة والأديان السماوية
رؤية في القيم المشتركة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه.

الحضور الكريم!

السَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

أهلاً بحضراتكم في رحاب الأزهر الشريف، وبدعوة من مجلس حكماء المسلمين، ومرحبًا بضيوفنا الأعِزَّاء من مجلس الكنائس العالمي، وبوَفده الكريم الذي يُمثِّل جميع الطَّوائف المسيحيَّة في العالَم، وفي مقدمته السيِّد الدكتور/ أولاف فيكس تافيت؛ الأمين العام لمجلس الكنائس العالمي، والرجل الذي لَمس فيه مجلس حكماء المسلمين -منذ أوَّل دقيقة رأيناه فيها في جنيف- قلبًا مملوءًا بالخَير للجميعِ، ومُفعَمًا بالصِّدق في أُمنيته أن يَنعمَ الناسُ بالسَّلام وبالسَّعادة في أنبَل معانيهما، وأسمى تجلياتهما، ممَّا يتمثَّلُ في هدوءِ النَّفس وراحةِ الضَّمير، وهذه هي رسالةُ الأديان الإلهيَّة، وجذرها المشتَرَك الذي تتفرَّعُ منه شرائع هذه الأديان، بكل ما تدورُ عليه من عقائدَ وعباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاق..

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في اللقاء الثاني لمجلس حكماء المسلمين ومجلس الكنائس العالمي «دور القادة الدينيين في تفعيل مبادرات المواطنة والعيش المشترك» في: ٣٠ من رجب سنة ١٤٣٨هـ، الموافق: ٢٦ من أبريل سنة ٢٠١٧م.

وأستسمِح حضراتكم في أن أبدأ كلمتي أمامكم بالتذكير بما انتهى إليه لقاؤنا الأول في العام الماضي في جنيف أكتوبر ٢٠١٦م، وهو: تكثيفُ الجهودِ من أجل مواجهة العقبات التي تقف في طريق نشر السَّلام والعدل والمحبَّة بين الناس في الشرق والغرب، وانعقاد لقائنا القادم -وهو لقاء اليوم- في الأزهر بالقاهرة، وما انتهت إليه المراسلات البينيَّة من أن يكون موضوع اليوم هو: «دور القادة الدِّينيين في تفعيل مبادرات المواطنة والعَيش المشترك».

وهذا الموضوع -فيما أظنُّ- هو الموضوع المُرشَّح لأن يكون موضع اهتمام القادة الدِّينين في شرقنا العربي والإسلامي، إذ هو التَّحدِّي الأكبر الآن في ظل دعوات الإرهاب وتنظيراته التي تحاول أن تُضلِّل عقولَ الشَّباب شرقًا وغربًا وتُرسِّخ في أذهانِهم تصورات منحرفة عن: «الدَّولة الإسلاميَّة»، وبعث مفاهيم ومصطلحات تجاوزها الفقه الإسلامي والشَّريعة الإسلاميَّة منذ سقوط «الخلافة العثمانيَّة» ١٩٢٤م، مثل مصطلح: أهل الذِّمة والجِزية والسَّبي... إلخ.

وإذا كان نظامُ الخِلافة الإسلاميَّة في الأزمنةِ الماضية كان يقضي بأحكام تشريعية معينة -اقتضاها منطق العصر آنذاك- فيما يتعلَّق بحقوق غير المسلمين في دولة الخلافة، فمِن المنطق، بل مِن فقهِ الإسلام نَفْسِه، أنَّ هذا النِّظام السِّياسيَّ حين يتغيَّرُ فبالضَّرورةِ تتغيَّر معه أحكامٌ كثيرة، -أو قليلة- ارتبطت بهذا النِّظام وقامت على أساسِها علاقة غير المسلمين بالدولة الإسلاميَّة.

في وسط هذه التَّحديات التي تُحاول العودة بأنظمة الحُكم المعاصر في الدول الإسلامية إلى أنظمة متخيَّلَة في أذهانهم ليس بينها وبين الشريعة وفقهها سببٌ ولا نسبٌ، بل أبعد ما تكون صلة بشريعة الإسلام ونصوصها الخالدة -

وندرك عظمَ المخاطر التي تترتب على مثل هذه الفُهوم السقيمة والتديُّن المغشوش الذي يخلط بين قيم الدِّين المعصومة في القرآن الكريم وصحيح السُّنة النَّبوية الشَّريفة، وبين اجتهادات العُلماء التي أوجبتها ظروف العصور السَّابقة، ومع هذا الاختلاف والظُّروف والملابسات ومقتضيات التطور تصبح قضيَّة: «المواطنة» هي القضيَّة الأولى التي يجِب أن يَتحدَّث فيها قادةُ الأديان، لأنَّها الردُّ العمليُّ على هذه «الأوهام» التي تجِد من الدَّعم الماديِّ والأدبيِّ ما خَيَّل لهؤلاء المتوهِّمين، أنَّ العملَ على تحقيق هذه الأوهام جهادٌ في سبيل اللَّه وعَوْد بالإسلام إلى عصور المجد والعزة، وليس عندي من شك في أنَّ «المواطنة» هي الضَّامن الأكبر لتطبيقِ القاعدة الفقهِيَّة في علاقة المسلمين بغير المسلمين، وأعني بها قاعدة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وترجمتها بلغتِنا المعاصرة: المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات.

ويُسعدني أن أقول: إنَّ الأزهر الشَّريف ومجلس حكماء المسلمين عَقَدا معًا مؤتمرًا في فبراير الماضي عن هذا الموضوع، تحت عنوان: «الحُرية والمواطنة.. التنوع والتكامل» وأُعلِن فيه لأوَّل مرة في تاريخنا الحديث: أنَّ نظام المواطنة هو نظام إسلامي خالص، طبَّقه النَّبي ﷺ في أوَّل دولة إسلامية وهي دولة المدينة المنورة.

ولكن -وأرجو ألَّا أكون مخطئًا- مثل هذه الدعوة قد تفقِد كثيرًا من بريقها في الغرب، لأنَّ المواطنة هناك قد لا تُشكِّل تحدِّيًا في مجتمعات هي قائمةٌ بالفِعل على نظام المواطنةِ وتَساوي الحُقوقِ والواجِباتِ.

وربَّما كان التَّحدي الأكثر حُضورًا هناك هو «التَّصدِّي» لظاهرة الإسلاموفوبيا. وهي ظاهرةٌ شديدةُ الخطَر لو تُركت تتدحرجُ مثل كُرة الثلج ولم تواجَهْ ببيانِ حقيقةِ الأديانِ وفلسفاتِها ومقاصِدِها في إسعادِ الإنسانِ والارتقاءِ به في مَدارجِ الكمال الرُّوحي والعَقلي والخُلُقيِّ.

وأخشى ما أخشاه أن تتطوَّر ظاهرةُ «الإسلاموفوبيا» اليوم إلى ظاهرة «الدينوفوبيا» في الغد القريب، فالأفق مُلبَّدٌ بالغُيوم السوداء التي تتنكَّر للأديان، وبخاصَّة: الدِّينين العالميين الكبيرين: المسيحية والإسلام، ذلكم أن المسيحيَّة -فيما يقول دعاةُ الإلحاد- هي التي ولَّدت الحروبَ الصَّليبية في الشَّرق، والحروبَ الدِّينية في الغَرب؛ والإسلام هو ما يَنشُرُ الإرهاب والدَّمار، والتَّفجير في الآمنين، ويحوِّلُ حياةَ النَّاس إلى جَحيم من الرُّعب والخَوفِ، ولا حلَّ -فيما يزعم الملحدون- إلَّا في إزالة الدِّينين نهائيًّا من حياة الناس إن أرادو سِلْمًا وأمنًا وعيشًا هانئًا.. وهؤلاء لا يقولون لنا: ما هي حصيلة الحروب التي لم يكن للدين فيها شأنٌ من قريب أو بعيد؟ والتي أشعلها الملحدون والرافضون للأديان، ولم يَكُن للأديان فيها ناقة ولا جمل. إنَّ من يستعرض قتلى المذاهب الاجتماعيَّة الحديثة، في عصرنا هذا يتبيَّن له بأرقام الحساب: أنَّ التَّاريخ لم يحصر من ضحايا الأديان منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر عُشْر معشار الضَّحايا الذين ضاعوا بالملايين قَتلاً ونَفيًا وتَعذيبًا في سبيل نُبوءاتٍ كاذِبة لم تثبُت منها نبوءةٌ واحدةٌ، وإنَّ الذي ثبت بعد هذا الثمن الفادح أن هذه النبوءات ظلَّت حتى -هذه اللَّحظة- حبرًا على ورق، بل بقيت مستحيلة على التطبيق(١).

واعذروني إن أطلت قليلاً في تصوير قلقي الذي يساورني فيما يَتعلَّق بمستقبل الدِّين، وتحقيق رسالته التي أُؤتُمِنَ عليها رجالُه وعلماؤه المبشِّرون بهديه، وكلنا نعلم التَّجهيزات اللَّاأخلاقية التي تمِّهد لتدمير الدِّين وتفرِّغُه من مضمونه، والتي تترسَّخُ مع بالغ الأسف في سلوك الشباب، ويحميها القانون. ويبرِّرُها المجتمع وتروِّجُها العَولمة، وكلُّها تمهيدات ستُسْلِمُ عاجلًا أو آجلًا إلى معركة شرسة بين المؤمنين والملحدين.

(١) «الشُّيوعية والإنسانية»: ١٥ (بتصرف).

إن مشكلة الأديان السماوية اليوم لا يُمكِن أن تُحلَّ بالانشغال بالصراع فيما بينها، وإنما الخطوة الأولى للحل -في نظري- هي إزالة ما بينها من توترات، ومن مواريث تاريخية لا يصح أن نصطحب آثارها السلبية، أو نبعثها من مراقدها في الوقت الذي نواجه فيه نُذر معركة طويلة مع أعداء الأديان.. وأمام وحش يُعِدَّ نفسه جيدًا لالتهام الجميع.

ومن أجل هذه الغاية التي نضعها نصب أعيننا، وأعني بها: التعارف والتفاهم بين المؤسسات الدينية، سعى الأزهر بنفسه للقاء قادة المؤسَّسات الدِّينيَّة الكبرى في أوروبا في الفاتيكان ولندن وجنيف وفلورنسا وباريس وبرلين. وأوفد قوافل «سلام» طافت كثيرًا من عواصم العالم في آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا..

أيها السادة! نحن هنا في الأزهر نعمل ليل نهار من أجل إخوتنا ومواطنينا المسيحيين في مصر، ولكم أن تتأملوا جيدًا «بيت العائلة المصرية» هنا في قلب مشيخة الأزهر، ولكم أيضًا أن تقرؤوا إعلان الأزهر الأخير عن المواطنة والعيش المشترك، والذي يطرح المواطنة بديلًا عن مصطلح الأقلية والأقليات الذي هجره الأزهر هجرًا بائنًا لا رجعة فيه، وأظن أنهما خطوتان عمليتان على الأرض، ستتلوهما خطوات أخرى على الطريق إن شاء اللَّه..

وأرجو أيها الإخوة الأعزاء ألَّا تصدقوا أكاذيب الإعلام التي تربط الإرهاب بالإسلام، وتتهم المسلمين باضطهاد مواطنيهم من إخوتهم المسيحيين، وأن الإسلام -أو الأزهر في أحدث مسرحياتهم المفضوحة- وراء التفجيرين الإرهابيين الآخرين، فمثل هذه الأكاذيب لم تعد تَنطَلي على عاقل يقرأ الأحداث وما وراءها قراءة صحيحة، ولا أريد أن أهدر وقتكم الثَّمين في الدَّليل على هذا الكذب الذي جاوز كل الحدود، ولكن أَلفِت نظر

حضراتكم إلى حقيقة واحدة فقط يثبتها الواقع ثبوت أرقام الحساب، وأعني بها أن الإرهاب يقتل المسلمين بأضعاف أضعاف ما يقتل المسيحيين، بل بمئات الأضعاف، وإن شئتم البرهان الذي لا يقبل سفسطة ولا جدلًا، فاذهبوا إلى مراكز الإحصاء والرصد، وقارنوا بين أعداد الضحايا من المسلمين ومن المسيحيين في العراق وسوريا وفي مصر تحديدًا، وستعلمون بعد ذلك أن الإرهاب لا دين له ولا وطن، وأنه لن يبالي في تعطشه للدماء أدم مسلم هذا الذي يسفكه أم دم مسيحي أم دم ملحد، فالغاية عنده ضرب استقرار الأوطان، ولتأت الوسيلة -بعد ذلك- مسجدًا أو كنيسةً أو سُوقًا أو أي تجمع للبسطاء الآمنين.

هذا وإن الأزهر ليتطلع إلى أن يتبنى مجلس الكنائس العالمي في جنيف «دعوة» للتصدي لظاهرة الإسلاموفوبيا، يواصل بها خطواته المشكورة على طريق الحوار المسيحي الإسلامي الذي بدأه هذا المجلس بالحوار الرسمي الأول في عام **١٩٨٢**م بين مجلس الكنائس والمؤتمر الإسلامي العالمي في كولومبو عاصمة سيريلانكا.

أرحب بحضراتكم مرة أخرى وأرجو لكم إقامة طيبة في مصر وأشكركم على تكرمكم بهذه الزيارة العزيزة على قلب كل مصري ومصرية.

شكرًا لحسن استماعكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمـــة اللَّه وبركاته؛

***

الإسلام
والرسالات الإلهية السابقة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

يَسرُّني في بداية كلمتي هذه؛ أن أتقدَّم بخالص الشُّكر والتقدير إلى البروفيسور Marco Impegliazzo على تفضُّله بدعوتي للمُشاركة في هذه الندوة، التي تجمع أهل الإيمان من الشرق والغرب.

وتَحيَّاتي المفعَمة بالمودَّة، والإخاء، ومَحبَّة السَّلام لجمعية «سانت ايجيديو»، ممثلة في الأصدقاء الأعزَّاء: الأب فيتوريو، والدكتورة باولا، والسيد أندريا.

ومن دواعي سروري: أن أزور بولندا للمرَّة الثانية، وقد كانت المرَّة الأولى بمناسبة المؤتمر الدَّولي الأول حول «الحوار بين الأديان»، تحت رعاية البرفيسور: كروبلو فيسكي، عميد كلية اللَّاهوت، بجامعة شتاتين، في نهاية شهر مايو، من العام الماضي: ٢٦-٢٨ مايو ٢٠٠٨.

أيها السادة..

أوَدُّ أن أُلخِّصَ في كلماتٍ قليلةٍ أهمَّ مَلامِحِ العَلاقةِ بينَ رسالةِ الإسلامِ وبين الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ التي سبقَته، وكانت بمثابةِ النورِ الذي أضاءَ به الطريقَ ومهَّدَ السبيلَ، وسوف أَصيغُ ورقتي هذه في مقدِّمتيْنِ ونتيجةٍ.

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر لحوار الأديان بمدينة كاراكوفيا ببولندا في يوم الإثنين: ١٧ رمضان: ١٤٣٠هـ، الموافق: ٧ سبتمبر: ٢٠٠٩م.

أمَّا المقدِّمةُ الأولى:

إنَّ مَن يقرأُ القرآنَ مِن المسلِمين يُدرِكُ في يقينٍ أنَّ القرآنَ لم يتحدثْ عن أديانٍ سماويَّةٍ متعدِّدةٍ، وأنَّ لغةَ القرآنِ ومفرداتِه لا تسمَحُ بمثلِ هذا التصورِ، وإنَّما تُثبتُ تصوُّرًا آخرَ هو أنَّ الدِّينَ الإلهيَّ هو دينٌ واحدٌ، اسمه الإسلامُ. وأن هذا الدِّينَ ظهرَ في صورةِ رسالاتٍ وتجلِّياتٍ متعاقبةٍ، حملَ لواءَها الأنبياءُ والمرسلون مِن آدمَ إلى محمدٍ مرورًا بنوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى وغيرِهم، صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم أجمعينَ.

ومِن هنا لم يكن مستغرَبًا أن يصفَ القرآنُ في مواضعَ عديدةٍ نوحًا بأنه مسلمٌ، وإبراهيمَ وابنَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ بأنهم مسلمون، كما وصَف يعقوبَ وبنِيه بالوصفِ ذاتِه، بل وصفَ موسى وعيسى بالإسلامِ أيضًا.

وهذا يدُلُّنا على أنَّ القرآنَ لا يَعُدُّ الإسلامَ رسالةً مبتدعةً أو خارجةً عن سياقِ الرسالاتِ الإلهيَّةِ، بل ينظرُ القرآنُ للإسلامِ على أنه رسالةٌ مُصدِّقةٌ لما بينَ يديها مِن الرسالاتِ، ومِن هنا كانَ القرآنُ مُصَدِّقًا للإنجيلِ، وكان الإنجيلُ مصدِّقًا للتوراةِ، وقد وَصَفَ القرآنُ كُلًّا مِن هذين الكتابينِ السماويينِ بأنه هدًى ونورٌ، شأنُهما في ذلك شأنُ القرآنِ الكريمِ تمامًا بتمامٍ ومِثلًا بمِثلٍ.

أمَّا المقدِّمةُ الثانيةُ فهي:

إذا كانتْ هذه هي فلسفةَ القرآنِ في علاقةِ رسالةِ الإسلامِ بالرسالاتِ السابقةِ، فمِن المنطقيِّ إذن أن تكونَ رسالةُ الإسلامِ مُكَمِّلةً لرسالةِ موسى ورسالةِ عيسى عليهما السلامُ، وأن يكونَ القرآنُ مُكمِّلًا للتوراةِ والإنجيلِ، وأن يكون محمدٌ أخًا وشقيقًا لموسى وعيسى عليهما السلام، وهذا ما تَنُصُّ عليه آياتُ القرآنِ التي تجعلُ مِن الإيمانِ بكلِّ أنبياءِ اللَّه ورسلِه، ومِن الإيمانِ

بالتوراةِ والإنجيلِ وصُحفِ إبراهيمَ وموسى وزبورِ داودَ، مُكوِّنًا أساسيًّا في بناءِ عقيدةِ المسلمِ، بحيثُ لا يستقيمُ إيمانُ المسلم بحالٍ إلا إذا استقامَ إيمانُه أوَّلًا بالرسالاتِ السابِقةِ، وبالأنبياءِ الذين حَمَلُوا هذه الرِّسَالاتِ وبالكتبِ التي كانت في أيدِيهم هدًى ونورًا وبيانًا لطريقِ الحقِّ والخيرِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ.

وهنا نضعُ أيدينا على عَلاقةٍ وُثْقَى بينَ الإسلامِ والمسيحيَّةِ واليهوديَّةِ، تتجلَّى في هذا الالتحامِ العُضويِّ بين هذه الرسالاتِ، سواءٌ على مستوَى الدِّينِ أو مستوَى النبيِّ أو الكتابِ الإلهيِّ، ومِن هنا أكَّدَ نبيُّ الإسلامِ أن الدِّينَ واحدٌ، وأنَّ الأنبياءَ يشبهونَ إخوةً مِن أبٍ واحدٍ وإن كانوا مِن أمهاتٍ شتَّى، وأن الأبَ الذي يجمعُهم هو الدِّينُ الإلهيُّ الواحدُ، والأمهاتُ اللاتي يُفرِّقنَ بينهم هي الرسالاتُ المختلِفةُ التي تتساوَى تحتَ مِظلَّةِ هذا الدِّينِ الواحدِ.

ومِن هاتين المقدِّمَتَينِ تَثبُتُ نتيجةٌ لا تقبلُ الجَدَلَ ولا النقاشَ، وهي أنَّ الإسلامَ دِينُ حوارٍ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لأنَّه دينٌ منفتحٌ على الأديانِ وعلى حضاراتِها بكلِّ المقاييسِ، وأنه لا يمكنُ أن يُوصَفَ بأنَّه دينٌ منغلقٌ، أو دينٌ ينفي الرِّسالاتِ الإلهيَّةَ السابِقَةَ عليه أو يُلغِيها، أو أنَّه دينُ سيفٍ وإرهابٍ يُشَكِّلُ خطرًا على الأديانِ الأُخرَى وحضاراتِها، وكيف تَستَقيمُ مثلُ هذه الدَّعاوَى والأديانُ التي أنزلَها اللَّهُ مِن قبلُ تُشَكِّلُ أُصولًا ثابتةً في عقيدةِ المسلمِ لا يمكنُه القفزُ عليها بحالٍ مِن الأحوالِ.

إنَّ المشكلةَ الآنَ في قضيَّةِ الحوارِ ليسَت في الإسلامِ، ولكنها- تحديدًا- في الموقفِ المريبِ الذي يَقِفُهُ الغربُ مِن الإسلامِ ومِن المسلِمين، وأنا أعلمُ أنَّ التَّعميمَ هنا قد يُفرِغُ حَديثي هذا مِن قِيمَةِ العدلِ في الحُكمِ أو الصِّدقِ في القَولِ، غيرَ أنِّي لا أرتابُ لحظةً في حقيقةِ أنَّ الغربَ لم يحسِنْ ردَّ الجميلِ

للإسلامِ والمسلمينَ كما يجبُ أو كما ينبغي، وأنَّ الغربَ لا زال يتعاملُ مع المسلِمين بمنطقِ الاستعلاءِ والأغراضِ والمطامعِ والمصالحِ، حيثُ يجبُ التعاملُ بمنطِقِ القِيَمِ والأخلاقِ واحترامِ الإنسانِ.

وهذا المنطقُ الغريبُ الذي حَكَمَ تصوُّراتِ الغربِ في نظرتِه إلى المسلِمين شَكَّلَ ولا يزالُ يُشَكِّلُ عوائقَ كبرَى في سبيلِ التَّواصلِ بين العالَمَيْنِ الإسلاميِّ والأوروبيِّ الأمريكيِّ.

إنَّ مبادِئَ الحرِّيَّةِ والعدالةِ الإنسانيَّةِ التي رسَّخَها الغربُ بعدَ عصرِ التنويرِ، ومِن خلالِ ثَورَاتٍ اجتماعِيَّةٍ وسياسِيَّةٍ عديدةٍ، يَنْعَمُ الغربيُّونَ بثمراتها فيما بينَهم، هذه المبادئُ نفسُها يُضربُ بها عُرْضَ الحائطِ حينَ يكونُ التعاملُ مع بقيَّةِ أنحاءِ العالمِ، وبخاصَّةٍ حين يَكُونُ التعاملُ مع الإسلامِ والمسلِمين:

هل ينظرُ الغربُ أو المؤسساتُ الدينيَّةُ الغربيَّةُ إلى الإسلامِ نفسَ نظرتِه لليهوديَّةِ والبوذيَّةِ وسائرِ المِلَلِ والأديانِ والمذاهبِ الأُخرَى؟!

وهل تُحترمُ ثقافةُ المسلِمينَ في الغربِ مِثلَما تُحتَرَمُ ثقافَةُ الشواذِّ والمِثْلِيِّينَ والمُلحدِين فضلًا عن ثقافَةِ المسيحيِّينَ أو اليهودِ؟!

إنَّ المسلمين في الغربِ لا يَزالون يُعامَلُونَ على أنَّهم مواطِنُون مِن الدَّرجةِ الثَّانيةِ أو الثَّالثةِ، حتى لو كانوا مِن أَصلٍ أوروبيٍّ أو أمريكيٍّ.

ولا يَزالُ المنهجُ المُزدَوجُ الذي يَتعاملُ به الغربُ، والذي يَكيلُ للمسلمين بمكيالٍ، ولغيرِهم بمكْيالٍ آخرَ، يَعملُ عملَه في تَفريغِ الخِطابِ الغربيِّ مِن أنْ يؤخَذَ مأْخذَ الجدِّ والقَبولِ عندَ الشَّرقيِّينَ.

بل إنَّ الخِطابَ الذي تَتبنَّاه المؤسَّساتُ الدِّينيةُ في الغربِ تجاهَ المسلمينَ في الآونةِ الأخيرةِ أصبحَ هو الآخَرُ عَقَبَةً على طريقِ الالتقاءِ والتَّقارُبِ بينَ

الشَّرقِ والغربِ، فقد خرَج هذا الخِطابُ عن جادَّةِ الحِوارِ بينَ أطرافٍ مُتكافئَةٍ تُحترَمُ فيها عقائدُ الطَّرفينِ، إلى نوعٍ مِن المُزايَدةِ على مُعتقَداتِ النَّاسِ، والتَّدخُلِ المكشوفِ بالمطالبةِ بتَغييرِ الثَّوابتِ في عقائدِهم، الأمرُ الذي يَخرُجُ بالحِوارِ إلى وضْعٍ شاذٍّ يَهدِفُ إلى الإملاءِ والتَّسلُّطِ من طَرَفٍ، والخُضوعِ والقَبولِ من طرَفٍ آخرَ.

إنَّ هذه الآلامَ التي أحملُها في صدري، ويَحمِلُها معي كلُّ مَهْمومٍ بأمرِ العَلاقةِ بينَ الغربِ والشَّرقِ، تَتداعَى معها آلامٌ أُخرى، وبمرارةٍ مِن نوعٍ آخرَ، هي أقربُ إلى مرارةِ الحسرةِ التي يَبعثُها افتِقادُ الأصواتِ المنصفة اليوم، مثل صوت الفقيد الراحل «البابا يوحنا بولس الثاني»، حَبْر الكنيسةِ الكاثوليكيَّةِ في الغربِ، وبطلِ قَضايا الحِوارِ مع الأديانِ غيرِ الكاثوليكيَّةِ في العصرِ الحَديثِ بلا مُنازعٍ، فقد حملَ على عاتقِه عِبْءَ هذا العَملِ النَّبيلِ، وتَجلَّى في مقالاتِه العَديدةِ وخُطَبِه وعِظاتِه المُتَنوِّعةِ في هذا الموضوعِ، وكان اهتمامُه بالحِوارِ المُحْترمِ بين الأدْيانِ لا يَقِلُّ أهميَّةً في أجندتِه عن الاهتمامِ بالقضايا الإنْسانيَّةِ الكُبرَى. وفى مُقدِّمَتِها: السَّلامُ العالميُّ.

ويَذْكرُ التَّاريخُ لهذا الحَبرِ وأمثاله- في الغرب والشرق على السواء- أنَّهم ساهموا في بَعثِ قضايا التَّفاهُمِ بينَ الأديانِ، وخدمتها بحِرصٍ جادٍّ ونِيَّةٍ حَسَنة، وكانتْ للبابا يوحنا بولس الثاني مُبادراتٌ وإيماءاتٌ رمزيَّةٌ مُؤَثِّرةٌ، مثل تَقبيله «المصحف الكريم» الذي أهداهُ إليه وفْدٌ مسلمٌ وهو يَزورُه في حاضرة الفاتيكان في ٢٨ محرم: ١٤٢٠هـ/ ١٤مايو ١٩٩٩م، وإنْ كان هذا الأدبُ العالي في مُعاملةِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ قد عرَّضَ سيادته لنقدٍ لاذعٍ مِن المتطرِّفِينَ، تَحمَّلَه بصبرٍ وعفوٍ، ولَمْ يَتردَّدْ سيادتُه في زِيارةِ المسجدِ الأُمويِّ حينَ كان بدمشقَ في: ١٣ صفر: ١٤٢٢هـ/ ٦ مايو ٢٠٠١م، وإلْقاء كلمةٍ

مُؤثِّرةٍ، أشارَ فيها إلى تاريخِ التَّعايُشِ السِّلميِّ بينَ المسيحيينَ والمسلمِين والذي استمرَّ قُرونًا عديدةً مُتطاولةً وحتى يومِ الناسِ هذا.

ولن يَنْسَى المسلِمون المُستضعَفون في الشَّرقِ نِداءاتِ البابا «يوحنا بولس الثاني» الحازمةَ بوقفِ الحروبِ الدَّائرةِ في بلادِ المسلمِين في الخليجِ ولبنانَ والعراقِ، ورَفْعِ الظُّلمِ والقهرِ والاستبدادِ عن أهلِ فلسطينَ المظلومِين.

إنَّ هذا الحَبْرَ الجليل كان حريصًا على احتِرام الأديانِ غيرِ المسيحيةِ، وكان على وعيٍ وعِلْمٍ بمَوْروثاتِها الرُّوحيةِ الأخلاقيَّةِ، وكثيرًا ما كان يتجاوزُ عن نِقاطِ الاختلافِ اللَّاهُوتيِّ مِن أجلِ حَشْدِ قِيَمِ الأديانِ الرُّوحيَّةِ والخُلُقيَّةِ والإنسانيَّةِ، ومِن أجلِ السَّلامِ ومحاربةِ الظُّلمِ.

واليوم يفتقد المسلمون هذه الرُّوحَ النَّبيلَةَ، ويذكرون -بكل إكبار وإجلال- شَراكتَها المُلتزِمةَ برُوحِ الحِوارِ الجَادِّ والخِطابِ السَّليمِ، وهم يتضرَّعُون إلى اللَّه أن يُلهِمَ القادةَ الدينيِّين في العالَم الفهمَ الواعيَ المتفتِّحَ لاستعادة معالمِ تلك الرُّوحِ مِن جديدٍ، حتى لا تَضيعَ الطَّريقُ مِن تحتِ أقدامِ المُتحاورِينَ، ويَنقلِبَ الحوارُ إلى صِراعٍ وفوضى ورِدَّةٍ بالشُّعوب إلى عُصورِ الظَّلامِ.

❊ ❊ ❊

دور الأديان في توحيد الأوطان(*)

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

الحمدُ للّٰه والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّدنا رسولِ اللّٰه وعلى آله وصحبه.

الجمعُ الكريمُ!

السَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ اللّٰهِ وبَرَكَاتُه.. وبعد؛

فيطيبُ لي أن أبدأ حديثي إليكُم بتقديم خالصِ الشُّكرِ والتَّقديرِ لدوْلَةِ «سنغافورة» رئيسةً وحكومةً وشعبًا على الدعوة الكريمة، وعلى حُسنِ الاستقبالِ وكَرَم الضِّيافةِ والحفاوةِ بي وبوَفدِ الأزهرِ المرافِقِ.

وأوَدُّ أن أُوضِّحَ في بداية محاضرتي أيضًا أن زيارتي لسنغافورة ليس المقصودُ بها زيارة المسلمين فقط؛ بل هي زيارةٌ لشعبِ سنغافورة «مسلمين وغير مسلمين»، من أجلِ تدعيم وَحدَتِهم العظيمة، وعَيشِهم المشتَرَكِ، وتقديمهم نموذَجًا رائعًا للأخوَّة في الوَطَن وفي الإنسانيَّةِ، والعملِ يدًا واحدةً من أجلِ مُجتمَعٍ راقٍ مُتقدِّمٍ وقويٍّ.

جئتُ لأحيِّي هذا النَّموذَج الذي ضرَب أحسنَ الأمثلةِ في تحقيقِ السَّلامِ المجتمعي بين أفرادِ الشَّعب، وبينه وبين الشُّعوبِ المجاوِرَة، وأسألُ اللّٰه تعالى أن يُديم على هذا البلد أَمنَها وسلامتَها، وأن يَمُنَّ على البلادِ أجمع نِعمةَ الأمن والسَّلام.

(*) كلمة ألقيت بدولة سنغافورة، خلال زيارة فضيلة الإمام لها في: ١٨ من شعبان سنة ١٤٣٩هـ، المـوافق: ٤ من مايو سنة ٢٠١٨م.

أيُّهَا الحَفْلُ الكَريم!

الحديثُ عن قتلِ النَّاس باسمِ الأديانِ، والذي عُرِف مؤخَّرًا بظاهرة الإرهابِ، حديثٌ طويلٌ مُحزِنٌ، لا تتَّسِعُ لبيانِه محاضَرةٌ ولا محاضراتٍ، وأظنني لو استطعتُ أن أوضِّحَ براءةَ الدِّينِ، أيِّ دينٍ، من هذه الجرائم المنكَرَة التي تُرتَكَبُ باسمِه وتحت لافِتَتِه - فإنِّي أكون قد وُفِّقْتُ في تحقيق الهدفِ من هذه الزِّيارة.

وما أقولُه هنا عن الدِّين الذي أعتنِقُه، يَنطبِقُ في معناه على الأديان الإلهيَّة الأخرى السَّابقةِ على الإسلامِ، وهي أديان أُومِنُ بها وبأنبيائها ورُسُلِها وكُتُبِها السَّماويَّة المُنزَلَةِ، إيمانًا مساويًا لإيماني بديني.

وسوفَ أُلخِّصُ محاضرتي فيما يُشبِهُ نقاطًا أو فقراتٍ ينبَنِي بعضُها على بعضٍ، مؤيَّدة بشواهدَ من القرآن الكريم في آيات واضحةِ المعنى وضوحَ الشَّمس في رابعةِ النَّهار.

وأوَّلُ حقيقةٍ قرآنيَّةٍ تُطالعُنا في هذا الموضوع هو بيان موقِعِ الإسلام من الأديانِ السَّابقةِ عليه، وأقربُها زمنًا منه: المسيحيَّةُ، ومِن قَبلها اليهوديَّة..

في هذا الموقف تُقرِّرُ آياتُ القرآن الكريمِ أنَّه لا توجد - في منطق القرآن الكريم - أديانٌ مختلفةٌ، ولكن توجد رسالاتٌ إلهيَّةٌ، تُعبِّرُ عن دِينٍ إلهيٍّ واحدٍ، كان الإسلامُ هو الحلقةَ الأخيرةَ فيه، وممَّا يجب التَّنبُّه له هنا أن كلمةَ «الإسلام» التي ورَدَت في القرآنِ خمس مرَّاتٍ فقط، وكذلك كلمة «مسلمين» لا يُقصَدُ بها -غالبًا- الرِّسالةَ التي نزَلَت على نبيِّ الإسلامِ تحديدًا، وإنَّما يُقصَدُ بها الدِّين الإلهي الذي اختارَه اللَّه لهدايةِ الإنسانيَّةِ كلِّها منذُ بدءِ الخليقةِ وإلى انتهاءِ الزَّمان والمكان..

ومن هنا أطلقَ القرآنُ لفظَ «مُسلم» على نُوح، وعلى إبراهيم، وعلى يعقوب وأبنائه، وعلى مُوسى وعيسى ومحمَّد عليهم جميعًا أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وحين يُقرِّرُ الإسلام ذلك؛ فليس أمامنا في فهم معنى هذه الآيات إلَّا فَهْمٌ واحدٌ، هو: أن الإسلام في القرآن يطلق على دين واحد مشترك بين الأنبياء جميعًا، وأنَّ الحلقة الأخيرة من هذا الدِّين هي رسالة الإسلام التي نزلت على محمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين (١). بل إنَّ شريعةَ الإسلام هي - في أكثر مناحيها - متطابقةٌ مع الشرائع السابقة (٢).

ولا شك أن هاهنا وَحدةً عُضويَّةً بين الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ السَّابقةِ ورسالةِ الإسلامِ الأخيرةِ.

ثم هناك وحدَةٌ عضويَّةٌ أخرى تربط نبيَّ الإسلام بإخوته السابقين عليه من الأنبياء والمرسلين (٣)، وهي علاقة الأخوة التي عَبَّرَ عنها نبيُّ الإسلام ﷺ بقوله: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، والأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» (٤).

والإخوة لِعَلَّاتٍ هم: الإخوةُ من أبٍ واحد وأمهات شتى، والأب الواحد في هذه الصورة الجميلةِ هو هذا الدِّين الإلهي الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا بِنَسَبٍ واحد لا اختلاف فيه، والأمهات التي تُفرِّقُهم هي الأزمنة والأمكنة.

---

(١) راجع في القرآن الكريم: سورة البقرة: الآيات: ٢٨، ١٣٢، ١٣٣. وسورة يونس: الآيات: ٧١،٧٢، ٨٤، وسورة النمل: الآية: ٩١، وسورة آل عمران: الآية: ٥٢.

(٢) الآية: ١٣ من سورة الشورى.

(٣) الآية: ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٤) تقدم تخريجه ص: ٥١٠.

والشيء نفسه يقال على صلة القرآن بالكتبِ الإلهيَّةِ السابقة، بحيث نقرأ في القرآن ما يدلنا على أن الإنجيل مصدق للتوراة ومؤيد لها، وأن القرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة[(١)].

وقد وصف القرآن كلًّا من توراة موسى وإنجيل عيسى عليها السلام بأنَّه هدى ونور، ومن أجل هذه الوحدة العضوية قرر بعض فقهاء المسلمين[(٢)] من الأحناف أنه إذا كان لا يجوز للمسلم أو المسلمة أن تمسَّ القرآن إذا كانا على غير طهارة، فكذلك لا يجوز لأيٍّ منهما أن يمسَّ التَّوراة أو الإنجيل حتى يتطهَّر.

النقطة الثانية:

ما هي علاقة المسلمين بغير المسلمين؟ هل هي علاقة أخوَّة إنسانية، أو عداوة متبادلة؟

لو بحثنا عن الإجابة لهذا السؤال من نصوصِ القرآن الكريم فسوف نجد الإجابة في هذا الكتاب المنزل تنبني على أصول ثلاثة، أو حقائق ثلاث تشكِّل جوهرَ نظريَّة الإسلام في القرآن الكريم:

الحقيقة الأولى: هي ما يمكن أن نسميها «حقيقة الاختلاف الكوني»، وتعني باختصار شديد: أن اللَّه تعالى لو أراد أن يخلق الناس على دين واحد، وعِرقٍ واحد، ولغة واحدة، لفعل ولتحقَّقَت إرادته ومشيئته، لكنه لم يشأ ذلك، وشاء عَكسَه وهو خَلق الناس مختلفين في الأديان والأعراق واللغات: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] ويتبع اختلاف الناس في العقيدة

---

(١) الآية: ٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: ٤٤، ٤٦ من سورة المائدة.

والعرقِ واللغةِ اختلافهم بالضرورة في العقول والتصورات والأحاسيس والمشاعر.

وخلاصة هذا الأصل: أنَّ القرآنَ يقرِّرُ اختلاف الناس في الاعتقادات وفي الأفكار والمشاعر والسلوك، وأن هذا الاختلاف سُنَّة إلهيَّة، وأنه باقٍ فيهم إلى يوم القيامة..

الحقيقة الثانية التي تترتَّب منطقيًّا على الحقيقة الأولى: هي «حقيقة حرية الاعتقاد» التي كفلها القرآن للإنسان أيًّا كان نوع هذه العقيدة، وأيًّا كان قُربها أو بعدها من الدِّين الإلهي الصحيح؛ فحُريَّةُ الاعتقاد هي الوجه الآخر لحقيقة الاختلاف، ولا يُعقَل في الحكمة الإلهيَّة أن يُخبرنا اللَّهُ بأنَّه خلق عبادَه مختلفين ثمَّ يطلب منَّا أن نحشرَهم في دينٍ واحدٍ، نقاتلهم عليه، ونُصادِر من أجله حريَّاتهم في اعتناق ما يشاؤون، فهذا عبَثٌ لا يَليق بحكمةِ اللَّه تعالى.. أَضِف إلى ذلك أنَّ هذا التَّعارض بين تأصيل حقيقة الاختلاف في موضع من القرآن، ومصادرته في موضعٍ آخر يؤدِّي إلى القول بتناقض القرآن الكريم وهو مما لا يتصوره العقل في جناب الحكمة والعدالة الإلهية.. والقرآن مملوء بالآيات التي تقرر حرية الاعتقاد.. في مقدمتها، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، [الكهف: ٢٩]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وحديث النبي ﷺ من كتابه لأهل اليمن: «**وأنه من كره الإسلام من يهودي ولا نصراني فلا يحول عن دينه**».

الحقيقة الثالثة هي ما يُسمَّى بـ«حقيقة التعارف والتكامل»، وتعني أنَّ العلاقة بين المختَلِفينَ الذين يملكون حريَّاتهم لا يصحُّ أن تكون علاقة صِراع ومغالبة؛ لأنَّ علاقةَ الصِّراع إنما تعني القضاء على الآخر المختلف، ولا تنتهي هذه العلاقة إلَّا بإبادة أحدِ الطَّرفين المتصارعين، وفرض الرؤية الواحدة أو الثَّقافة الواحدة التي يُختلف عليها.. وهنا يُقرِّر القرآن الكريم أنَّ

علاقة النَّاس في إطار حقِّ الاختلاف ومشروعيته - هي علاقة التعارف وهي: علاقة السلم والتعاون والتكامل.

وإذًا فمن الجهل الفاضح بالإسلام والقرآن؛ أن يُقال: إن علاقة المسلم بغير المسلم أو بالكافر هي علاقة الدم، أو يُقال: إن الإسلام دين سيف وذبح ومطاردة الآخرين وإكراه الناس على الإسلام وإلَّا طارت رقابهم.

وقد تعلَّمنا في الأزهر الشريف في أبواب الفقه أنَّ عِلَّةَ القِتال في الإسلام ليست هي الكُفر وإنما هي العدوان على المسلمين، ومن قال غير ذلك من العلماء مردود عليه من كبار الأئمة المحققين، الذين نقضوا هذا الرأي المخالف، بأدلة من المعقول والمنقول، وقالوا: إن الحالة الوحيدة التي يجب على المسلم أن يحمل فيها سلاحه ويُقاتل غيره هي حالة اعتداء الغير على المسلمين، سواء كان الاعتداء على العقيدة أو الأرض أو المال أو العِرض، فهاهنا يجب الدِّفاع عن هذه الحرمات، وهذا ما تفرضه كلُّ شرائع الحقِّ والعَدل، ولأنَّ الحربَ في الإسلام استثناءٌ واضطِّرار فقد نهى اللَّه المسلمين -إذا كُتِب عليهم القتال- أن يجاوزوا الحق في الدفاع عن أنفسهم، وسمَّى هذا التجاوز بالاعتداء فقال في القرآن الكريم: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فالقتالُ في سبيل اللَّه له ضوابط وقيم لو تجاوزها المسلم في دفاعه كان معتديًا، واللَّه يكره المعتدين ويمقتهم..

والمتأمِّلُ في أوَّل آيةٍ تأذن للمسلمين في قتال أعدائهم وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج ٣٩-٤٠] يجد أن هذه الآية تُثبتُ

بجلاء أنَّ أوَّل أسباب مشروعية القتال في الإسلام هو: نصرة المظلومين وتمكينهم من حقِّهم في حياة آمنةٍ مثل غيرهم، وأنَّ الإسلام يوجب الحرب للدِّفاع عن الأديان السَّماوية، وليس عن دين الإسلام وحدَه ضدَّ عدوان أعداء هذه الأديان.

وهذا يُفهَمُ من ذِكْر دُور عبادة اليهود والمسيحيين مع المسجد الذي هو دار عبادة المسلمين.

والدليلُ على أن الحرب في شريعة الإسلام إنما هي لدفع العدوان وليس لإكراه الناس على اعتناق الإسلام؛ أمران:

١- **الأول**: أنَّ البلاد التي فتحها الإسلام كان المسلمون يخيِّرون أهلَها بين الدخول في الإسلام إذا أرادوا ذلك، أو البقاءِ على أديانهم وشعائرهم ومعابدهم وعاداتهم وتقاليدهم، مع تَعَهُّد المسلمين تَعهُّدًا شرعيًّا بضمان حريَّتهم كاملة في اعتقاداتهم، وحراسة كنائسهم، ومعاملتهم بالقاعدة التي نحفظها وهي: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»..

ولم يُسَجِّل التاريخ حالةً واحدة دخل فيها المسلمون بلدًا وخيَّروا أهلها بين الدخول في الإسلام أو القتل أو التهجير القسري من البلاد.

٢- **الأمر الثاني**: أن الإسلام يحرم على المسلم أن يقتل في جيش الأعداء الطفل والمرأة والرَّجُل الضَّعيف والأعْمَى والمُقْعَد والعُمَّال والزُّرَّاع والرُّهبان، وعِلَّة تحريم قتلهم؛ أنهم وأمثالهم لا يحملون السِّلاح ولا يُمثِّلُون عُدوانًا مُباشرًا على المسلمين، لذلك حَرُم قتلهم، لأن «العدوان» غير متحقق فيهم، بل نقرأ في وصايا قادة جيوش المسلمين: حرمة قتل الحيوان في جيش الأعداء، اللَّهُمَّ إلَّا لضرورة الأكل، وكذلك يحرُم حرق الأشجار وتفريق النحل وهدم المباني والبيوت..

الحَفْلُ الكَريم!

إذا أردنا أن نلخِّص كلماتنا عن الإسلام في هذه الأمسية؛ فإني أقول: الإسلام دين السلام ليس بين المسلمين فقط، بل بين المسلمين وغير المسلمين، ونبي الإسلام ﷺ بعثه اللَّه رحمة للعالمين، ولم يقل القرآن: رحمة للعالم، بل قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، و«العالمين» جمع «عالم»، والعوالم أربعة كما نعرف: عالَم الإنسان، وعالَم الحيوان، وعالَم النَّبات، وعالَم الجماد.

وعلى المسلم الذي يقتدي بنبيِّه أن يكون مصدر رحمة لنفسِه وللمسلمين وللنَّاس أجمعين.

وإذا كان الإسلام دينَ رحمةٍ لكلِّ العوالم؛ فمِن المنطقيِّ أن يحرم إراقة الدماء، ولا يبيحها إلا حين تكون حقًّا للآخر، والذين يَقتلون باسم الإسلام مجرمون مفسدون في الأرض، وعقوبتُهم معلومة من القرآن الكريم.

والإسلام دين يُسرٍ في عقيدته وشريعته وأحكامه، وقد أكَّد القرآن هذا اليُسر في موضِعَين، وبكلمات متماثلة، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وفي موضع آخر: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

والإسلام دين الأخوة الإنسانية، وهذا هو الإمام علي كرم اللَّه وجهه، يقول ناصحًا المسلمَ: «النَّاس إما أخ لك في الدِّين، أو نظير لك في الإنسانية»، وإذا كانت الأخوة الدينية ترتِّب على المؤمنين حقوقًا وواجبات؛ فإنَّ الأخوة الإنسانية ترتب على النَّاس حقوقًا وواجبات أيضًا.

والإسلام دين ينهى عن الغلوِّ والتشدُّد، ويُحذِّر من التطرُّف في الفَهم، لما يترتَّب على ذلك من تضييقٍ على النَّاس في دين اللَّه، ودينُ اللَّه يُسر لا عُسر.

والإسلام يُكرِمُ أهل الكتاب، وبخاصة أتباع عيسى عليه السلام، الذين

وصفهم بأنهم أقربُ أهل الكتاب مودة للمسلمين، وقد ذكر القرآن الكريم أن اللَّه وضع في قلوبهم رأفة ورحمة فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وأنصف الصالحين من أهل الكتاب فقال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقد نهى النَّبي ﷺ عن إيذاءِ أهل الكتاب أو ظُلمهم فقال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، (أي: كتابيًّا من اليَهُود أو المسيحيِّين)، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].. وقال في حديث آخر: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[(٢)].

وأنا أعجب من هؤلاء الذين لا يأكلون طعام أهل الكتاب، وهم يقرأون صباح مساء: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٥].

وأعجب كذلك من الذين يحرمون تهنئة المسيحيين في أعيادهم وهم يقرأون صباح مساء قوله تعالى في نفس الآية السابقة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، أي: أحلَّ اللَّه للمسلمين الزَّواج من المحصنَات من أهل الكتاب، فهل يعقل أن يحل اللَّه للمسلم أن يتخذ زوجة مسيحية يبادلها المودة والرحمة، ثم يحرم اللَّه عليه أن يهنئها بأعيادها؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) عن جماعة من الصَّحابة رضي الله عنهم.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩١٤) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

وقد تقولون: هذا الذي تقوله يتعلق بمعاملة أهل الكتاب، فماذا عن معاملة المسلم لغير أهل الكتاب؟

والجواب هو قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وإذن فمطلوب من المسلم شرعًا أن يتعامل مع الناس جميعًا بالبرِّ وبالقسط الذي هو العدل؛ لأن اللَّه يحب الذين يتعاملون مع غيرهم بهذه الأخلاق.

السَّيِّدات والسَّادَة:

من المهمِّ جدًّا في هذا العَصر أن نفهم القرآن والحديث النبوي فهمًا صحيحًا أوَّلًا قبل أن ننزل به إلى واقع الناس، ومن المهم جدًّا للمسلمين الذين يعيشون في مجتمعات غير إسلامية، أو مجتمعات تتعدَّد فيها الأديان والأعراق، أن يندمجوا في مجتمعاتهم اندماجًا إيجابيًّا، وأعني بالاندماج الإيجابي الانخراط في المجتمع، مع التمسُّك بما يحفظ عقيدتهم وشريعتهم، والمحافظة على هُويتهم وأيضًا بما يجعلهم أعضاء فاعلين في مجتمعاتهم، يسهمون في تنميتها واحترام أديانها، وقوانين أهلها وعقائدهم وتقاليدهم، واعلموا أن احترام عقيدة الآخر شيء، والإيمان بها شيء آخر مختلف تمامًا.

وليس المطلوب للمسلم مع غيره إلَّا الحوار الإيجابي البنَّاء الذي عبَّر عنه القرآن ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وعلينا أن نعْلَم أنَّه: لا حوارَ في العقائد؛ لأنَّ الحوارَ في العقائد صراع منهي عنه، وأن نبحث عن المشتركات الإنسانية بين المؤمنين وغير المؤمنين، فقد خلقنا اللَّه لنتعارف كما مر في أوَّل الكلام، لا لنتصارع أو ليقتُل بعضُنا بعضًا.. ويُعجبني قولُ أبي عَمرٍو ابن الصلاح (ت. ٦٤٣هـ) -رحمه اللَّه- وهو يستدل على أن المسلم يحرم عليه قتل الكافر المسالم: «ما خلقهم اللَّه ليأمر بقتلهم»، فهذا عبث لا يليق بالحكمة

الإلهيَّة، وكلامه هذا إشارة إلى قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، [التغابن: ٢].

وقد قدَّم اللَّه الكافر على المؤمن في الآية، والحكمة في ذلك -كما يقول المفسرون- لأن الكفار أكثر عددًا من المؤمنين.

هذا ما أردتُ أنْ أدورَ حوله في كلمتي هذه، وأعلَم أني قد أطلت عليكم. . . ولكن يشفع لي صبركم على سماعي، وأجر الصَّابرين -كما هو معلوم- عظيم وبغير حساب.

شُكْرًا لَكُمْ.

والسَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَـةُ اللّهِ وبَرَكَاتُه

***

سؤال القِيَم الدينية
وأزمة المجتمعات المعاصرة(*)

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

بناتي وأبنائي الطلاب

السيدات والسادة

السلام عليكم جميعًا.. وبعدُ:

فإنَّ كلمتي التي أسعد -اليوم- بإلقائها بين أيديكم تأتي ضِمن رسالة الأزهر الشريف ومجلس حُكماء المسلمين ومسؤوليتهما في سَعيهما الحثيث لتأصيلِ مَبدأ «الحوار بين الشَّرقِ والغَرب»، ومحاولة تطبيقه على الأرضِ في شَتَّى عَواصِم أوروبا وأفريقيا وآسيا.

والهدف من هذا النشاط هو مدُّ جسور التعارف الحضاري بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما اتَّسعت بينهما فوارقُ الأجناس واختلاف اللُّغات والعقائد والأديان، وخصوصياتُ الثقافات والعادات والتقاليد، استنادًا إلى المشتَرَكات الدِّينيَّة -وما أكثرها!- بين المؤمنين بالأديانِ السماويَّة، والمشتركات الإنسانية بينهم وبين غير المؤمنين مِمَّن يحترمون الأديان ويَعرفون لها خطرها في ضبط حياة الإنسان، وإعادته إلى صوابه، كلما فقد «الاتجاه الصحيح» وضاعت الطريق من تحت قدميه، وأوشك أن يشرف على ما يُشْبِه «الانتحار الحضاري»، والغرق في فوضى عامة رُبَّما لم يَعرفها تاريخ الإنسانيَّة من قَبل.

(*) ألقيت هذه الكلمة في الجامعة الكاثوليكية، بالعاصمة البرتغالية لشبونة، بتاريخ: ٢٧ من جمادى الآخرة ١٤٣٩هـ، الموافق: ١٥من مارس سنة ٢٠١٨م.

أيُّهَا السَّادة!

لقد بات من المسلَّم به عند العقلاء -شرقيِّين وغربيِّين- أنَّ عالمَنا المعاصر -اليوم- يَمُرُّ بأزَماتٍ مُتعدِّدة خانقة، في مقدمتها: الأزمة الاقتصادية التي نشرت الفقر والجوع وبطالة الشباب ورَهَق الديون، واتِّساع الهُوَّة بين الأغنياء والفُقَراء، وكذلك أزمة البيئة، وأزمة السياسات الدولية المعاصرة، وما تُثمره من ثَمَراتٍ مُرَّةٍ في إذكاء النِّزاعات والاستقطابات الدوليَّة والصِّراع على النفوذ، «ونشر الفوضى وانهيار الأُسرة وتهميش المرأة»(١)، وغير ذلك من الأزمات والعِلَل والأمراض الخلقية والاجتماعية والإنسانية التي تُصيب إنسان القرن الواحد والعشرين باليأس والإحباط، وتُفسِد عليه مُتعةَ الحياة، وتنغص عليه راحة البال وهدوء الضمير.

وقد دفعتْ هذه الأزمات حُكماء الغَرب من المفكرين ورجال الدِّين إلى التوقُّف وتأمُّل هذه النُّذُر التي تتجمَّع اليوم في سماءِ العالَم كما تتجمَّع الغيوم السَّوداء المُنذرة بالدَّمَارِ والغَرَق، وقد أعادوا النَّظَر، وعقدوا المؤتمرات الدوليَّة، وكان أبرزُها المؤتمرَ الثَّانيَ لأديان العالَم، الذي دعا فيه مُمَثِّلو الأديان المختلفة إلى ما سُمِّيَ بضَرُورةِ «أخلاق عالميَّة» لبناءِ نظامٍ عالَميٍّ جديد يُخرجنا من هذه الأزمة، ويَقُومُ على إرشاداتٍ ثابتة؛ هي: «الالتزامُ بثقافةٍ خاليةٍ مِن العُنف، وباحترامِ الكائنات الحيَّة كافَّة، وبثقافة التضامُن،

(١) «الأخلاق العالمية» مداها وحدودها، طه عبد الرحمن: ١٢. سلسلة ورقات طابة، العدد الأول يونيو ٢٠٠٨م، وفي هذه الورقة يتعقب أ.د/ طه عبد الرحمن «إعلان الأخلاق العالمية» الذي أصدره برلمان أديان العالم عام ١٩٩٣م في «شيكاغو»، لينتقد انفصام الإعلان عن مرجعية الدِّين في المنظومة الأخلاقية التي دعا إليها الإعلان، ويقترح مرجعية «الإسلام» لثرائها الأخلاقي باعتباره دينًا متمِّمًا لمكارم الأخلاق في الأديان السابقة.

وبنظامٍ اقتصاديٍّ عادل، والالتِزام بثقافةِ التَّسَامُح، وثقافَة المُسَاواة في الحقُوقِ والشَّراكةِ بين الرَّجُل والمرأة»[(١)].

ويُحمد لهذا البيَان أنَّه نبَّه إلى الدَّور الهام الذي يُمْكِن أنْ يُؤدِّيَه المُتديِّنون في بناءِ النِّظام العالَميِّ الجديد من خلالِ الدَّعوة إلى إقامة سلام دائم أوَّلًا، بين المتديِّنين أنفسهم، قبل أنْ يُبَشِّرُوا به بين النَّاس، وذلك حتَّى لا تنطبق عليهم الحِكْمَة القائِلة: «فاقدُ الشَّيءِ لا يُعطيه»، وانتهى البيان إلى أنه لا سلام للعالَم بدونِ سلام بين أديان يحترم بعضُها بعضًا، ولا سلام بين الأدْيَان بدون حوار بينها، ولا بقاء للإنسانيَّة بدون أخلاق عالميَّة.

ونحنُ نتفقُ تمام الاتفاق مع هذه القضايا، إنْ كان المقصود منها استدعاء الأديان للنزول إلى واقع النَّاس بما تحمله رسالاتها الإلهية من رصيد أخلاقي هائل قادر على إقرار العدل والمساواة، وتأصيل مبدأ «السلام»، وضرورته للنَّاس ضرورةَ الطَّعام والشَّراب.

أمَّا إنْ كان المقصود من ضرورة صنع السلام أوَّلًا بين الأديان، هو الإشارة إلى المعنى السلبي لهذه العبارة؛ أعني: ضرورة وَقْفِ الحُرُوب التي تُتَّهم الأديانُ بإشعالها وبإراقة دماء الناس بسببها، وبما يؤكد المقولة الشائعة التي تقول: «إنَّ سبب الحروب هو الدِّين» - فإنِّي أعتقد أنَّ المتديِّنين على اختلاف أديانهم لا يُسلِّمون بذلك ولا يعتقدونه.. بل يعتقدون عكسه، وهو: أنَّ غياب حقيقة «الدِّين الإلهيِّ» ونَبْذَه وتهميشه وتوظيفه في أغراض هابطة، والسُّخْرية من الإيمانِ باللَّه والكُفرَ به - هو أصل جرثومة الحروب، واشتعالها في القرن السابق، بل في مطلع القرن الواحد والعشرين؛ قرن

(١) هانز كينج: «لماذا مقاييس عالمية للأخلاق؟» «الدِّين والأخلاق في عصر العولمة»، ترجمة: ثابت عيد، تقديم: محمد عمارة، ص (٢٦٢-٢٧٢)، دار عيد، زيورخ ٢٠١٠م.

العِلْم والتقدُّم، وقرن حُقُوق الإنسان، ومواثيق السَّلام الدوليَّة. .

ونحنُ لا نُنْكِر أنَّ حروبًا بَشِعة ظَلَّت مُشْتعِلةً عقودًا استُدعي فيها الدِّين لإضفاء الشرعيَّة على نِيرانِها، غير أن «الدين» كان -في حقيقة الأمر- هو أوَّل ضحايا هذه الحروب، وأكبر الخاسرين في أسواقها. .

واسْمَحُوا لي أيُّها السَّادة العُلماء أنْ أُبديَ دهشتي مِن أنْ تَستقرَّ مَقُولَةُ: «الدِّينُ هو سَبَب الحُرُوب» في أذهانِ شباب اليوم، وفي أذهان كثير من الكهول والشيوخ، وتَحمِلُهم على الاعتقاد بأنَّ الإنسانيَّةَ لا سبيل أمامها لكي تنعمَ بالسلام وبالعيش المشترك إلَّا استبعاد الدِّين من مراكز التوجيه في المجتمع، وتحويله إلى شأنٍ فرديٍّ خاصٍّ لا يتجاوز قلب المؤمن به إلى حيث التأثير في سلوك المجتمعات، صَغُرَ هذا التَّأثير أو كَبُرَ، وقد شجَّع هذا الاعتقاد على فتح أبواب الإلحاد -أمام شبابنا- على مصاريعها، وفقدَ معه إنسان هذا العصر أعزَّ ما يمتلكه باعتباره كائنًا «أخلاقيًّا» في أصل فطرته وطبيعته.

إن الحقيقة العلمية تقرِّر -أيها السيدات والسادة- أنَّ الظاهرة التي لها أكثر من سبب، مِن الخطأ تفسيرُها بسببٍ واحدٍ من أسبابها.

إنَّ بدهيَّات البَحْث التَّاريخي الماضي والمعاصِر تقول: إنَّ «الدِّين» بمُفردِه لا يَكفي في تفسيرِ اندِلاع الحروب، وإنَّ أسبابها مُتعَدِّدة ومُتشابِكة، تتوزَّع ما بين أسباب نفسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة؛ فهناك من الأسباب الأخرى غير الصِّراع الديني، الصِّراع على: حُبِّ السُّلطة وإرادة القُوَّة، وهُناك الحرب التي يفرضها واجبُ دَفْعِ المُعتَدِين على الأوطانِ، وعلى الثقافاتِ والخصُوصيَّاتِ، وهُناك الحرب التي تدفع إليها الرَّغبات الجارِفة في الاستيلاءِ على مَوارِد الآخرين، وحُبُّ السيطَرَة وإرادة الهيْمَنَة. وتجارةُ السِّلاح التي يفوق عائدها الاقتصادي عائد أيِّ استثمار آخر، ودع

عنك ما يتطلَّبه تسويق هذه التجارة من سياساتٍ موازية تَعمل على خَلْق بُؤَرِ التَّوَتُّر بين الآمنين[١].

وقد يَظُنُّ البَعْض أنَّ هذا الذي أتلوه على مسامِعكُم هو -في أفضلِ أحواله- ضَرْبٌ من التَّغنِّي بالأديانِ سَمِعناه كثيرًا، لا حاجة لنا اليوم بسماعه، بعد ما أصبحتْ حياتنا الحديثة والمعاصرة تجري كما نُحِب ونَشتهي دون حاجةٍ إلى ضوابطَ خُلُقيَّةٍ، وعقائد إيمانية، وما إليهما من الماورائيَّات والغَيبيَّات. .

غير أن هذا الظَّنَّ وأشباهه ليس في أفضل أحواله إلَّا تجاهُلًا لحقيقةِ الإنسانيَّة، وقُصُورًا في فَهْمها، وعَجْزًا صارخًا عن تحمُّل تَبِعاتِها ومسؤوليَّاتها، وأوَّلها: الشُّعور بالآخَر والدفاع عن حقوقه كاملة، وفي مقدِّمتها: حقُّ الحياة والعيش المشترك في سلام وعدل ومساواة، وهذا القُصُور هو -نفسه- بُرهان أهمية «الدِّين» وحاجة الإنسانية إليه، فهو القوة الوحيدة التي تحمي المؤمن من أنْ يَقعَ فريسة سهلة للنوازع الفرديَّة وطُغيانها، أو يتمحور على منفعة ذاته حتى لو جاءت على حساب أشلاء الآخَرين، وأزعُم أنَّ تحمُّل التبعة والاضطلاع بالمسؤولية تجاه الآخر هو ميزان التفاضل ومعيار التقدُّم الإنساني للأفراد، كما للدول والشُّعوب سواء بسواء. ولا نتجاوز الحقيقة لو رحنا ندعي أن معيار تحمل المسؤولية هو معيار التقدم الإنساني الأوحد وأن غيره من المعايير الأخرى لا ينهض معيارًا بين التقدم الصحيح والتقدم الزائف «فإذا قِسْنا التقدم بالسعادة فقد تُتاح السعادة للحقير، ويُحرَمُها العظيم، وإذا قسناه بالغِنى، فقد يَغْنى الجاهل ويفتقِرُ العالِم، وإذا قِسْناه بالعلم فقد تعلم الأمم المُضْمَحِلَّة، وتَجهلُ الأمم الوثيقة الفتية. إلَّا مقياسًا واحدًا لا يقع الاختلاف ولا الاختلال، وهو مقياس المسؤولية واحتمال التبعة»[٢].

(١) المصدر السابق: ٢٠، هامش: ١ (بتصرف).

(٢) العقاد: الفلسفة القرآنية (ضمن موسوعة العقاد الإسلامية: ٣١، المكتبة العصرية، =

وأضرب لذلك مثلًا واحدًا من نداءات الإسلام، وهي نفسها نداءات كل الأديان الإلهية السابقة عليه، وهو أن القرآن يُسوِّي في ندائه بين الجهاد في سبيل اللَّه والجهاد من أجل إنقاذ المُستضعفين من الرِّجَالِ والنِّساءِ والأطفال[(١)]: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [النساء: ٧٥]، ومثال آخر يتبين منه واجب تحمُّل التَّبعية من أجْل الآخَر المختلف في الدِّين؛ وهو أنَّ اللَّهَ تعالى أَذِنَ للمسلمين بالقِتالِ -أوَّل ما أَذِنَ- لأمرين:

أولًا: لدفعِ الظُّلْم الواقِع عليهم من غَطْرسَة الوثنيَّة الطَّاغية.

وثانيًا: لتأمين حقِّ حُرِّيَّة الاعتِقاد والتَّديُّن لأبناء الأديان الإلهية الأخرى؛ يهودًا كانوا أو مسيحيين أو مسلمين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فمشروعية القتال -في هذا النص الكريم- هي من أجل نصرة المظلومين، وتمكينهم من حقهم في حياة آمنة مثل غيرهم، وهو مطلب لا يعرض للعقل السليم أن يرتاب في مشروعيته لحظةً.. كما يتضح أن الحرب في الإسلام مشروعة للدفاع عن الأديان السماوية ضد عدوان الشرك والمشركين، ومن

= بيروت ٢٠١٥م).

(١) راجع كلامًا للأستاذ/ العقَّاد، غاية في العمق والنفاسة في: «الفلسفة القُرآنية». (موسوعة العقَّاد الإسلامية، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠١٥م).

العجيب في هذا المقام أن القتال المشروع في الإسلام ليس قاصرًا على وجوب الدفاع عن حُرية العبادة في هذا الدِّين فقط، بل هو واجب -بالمشروعية نفسها- لتأمين الدفاع عن حق حُرية العبادة في الأديان السماوية الأخرى.

استمع إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول في تفسير هذه الآية: «يدفع بدِين الإسلام وبأهله عن أهل الذِّمَّة»[(١)]، وقد تساءل المفسرون عن دخول الصوامع والبيع والصلوات في خطة الدفاع الإسلامي، وكان من إجابتهم أن هذه المواضع أجمع مواضعُ المؤمنين، وإن اختلفت العبارات عنها.

وها هو الإمام الرازي ينفي أن يكون معنى الآية وصفًا لِما كان عليه الآخر زمن موسى وعيسى عليهما السلام، ويؤكِّد أن الغرض من الدفاع الإسلامي عنها مسؤولية المسلمين عن حمايتها والدفاع عنها بأرواحهم ودمائهم؛ كيلا تهدم في أيام الرسول ﷺ؛ لأن المعابد والكنائس المواضع -فيما يقول- «يجري فيها ذكر اللَّه تعالى، فليست بمنزلة عبادة الأوثان»[(٢)].

وهذا التفسير الذي نقلته لحضراتكم ليس من باب أحاديث المجاملة، بل هو التفسير الذي ظهر في حياة نبي الإسلام ﷺ نفسه، في القرن السابع الميلادي، وتناقله المسلمون عبر العصور والأجيال مُتمسِّكين بتفسير ابن عباس، وهو ابن عم محمد ﷺ وتلميذه المقرَّب، ثم هو تفسير الطبري من بعده في القرن الرابع الهجري والإمام الرازي في القرن السابع الهجري، وهو ما تعلَّمته أنا أيام أن كنت طالبًا في الأزهر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وهو ما نعلِّمه اليوم لطلابنا وبخاصة في قسم التفسير بكلية أصول الدِّين بجامعة الأزهر..

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

وما أريد أن أنتهي إليه من هذا السَّرد هو أن الأخلاق التي تتخذ من الأديان مرجعية لها وضابطًا لأصولها وفروعها أخلاق «المسؤولية» عن الآخر التي تضاهي المسؤولية عن النفس، وهي الأخلاق المرشَّحة لمقاومة الأخلاق المادية التي تغلَّبت على الدِّين وتحكَّمت فيه وعبثت به، وأن مقاييس التقدم بالحرية والحداثة والاستهلاك عادت بالإنسان إلى ما يشبه عصر الغاب، وقد مضى على هذه الأخلاق الآن أكثر من قرنين من الزمان بعثت فيها -ولا تزال تبعث- سلسلة من الحروب التي ضاع فيها آلاف الآلاف من الأرواح، وأنا لا أتحدث هنا عن الحربين العالميتين أو غيرهما من حروب القرن الماضي في أوروبا وغيرها، ولكني أتحدث عن الحروب العبثية التي اندلعت حديثًا في بلادنا، بل أتحدث عن دولة عندنا دُمِّرت بأكملها في ساعات معدودة ثم تركت خرابًا إلى يوم الناس هذا.

أتحدث عن حرب العراق، وما خلَّفَته وراءها من مآسٍ وآلام وأحزان لا تنتهي.

أتحدث عن سوريا التي انكشف الأمر فيها عن صراع مذهبين عالميَّين من مذاهب السياسة، وَجَدَا في هذا الأرض سوقًا لتصدير السلاح وسفك الدماء.

أتحدث عن مقدساتي ومقدساتكم في فلسطين وما تواجهه اليوم من غطرسة القوة، وصوت المستبِدِّ، وسياسات الإبادة والتهجير.

أتحدث عن مأساة اليمن وليبيا وغيرهما.

أتحدث عن التنظيمات الإرهابية المسلحة التي وُلدت فجأة، دون مقدمات ولا إرهاصات طبيعيَّة أو منطقية، وُلِدَت كطفل له أنيابٌ ولِحًى وشواربُ، ولا زلنا نبحث له عن أبٍ أو أمٍّ أنجبته بهذه القوة الخارقة، ولا يزال البحث جاريًا حتى الآن..

أتحدث عن هذا الإرهاب الذي اختطف المنطقة على مرأى ومسمع من عقلاء الشرق والغرب، وأحالَها إلى بِركة دماء، ومَرتَع للفقر والمرض، وساحة تجارِب لتطورات الأسلحة الفتَّاكة.

إن كل هذه المآسي البشعة التي تتعذب بها شعوب المنطقة وراءها سبب أساس رئيس؛ هو تطور الإنسان الغربي، وامتلاكه للقوة، في ظلِّ حداثة انطلقت من القطيعة مع الدِّين قطيعةً حادَّةً، ثم أدارت ظهرها لتراث إنساني يختزن الكثير من كنوز المعرفة الصحيحة، وأخلاق الإحساس بالغير والشعور بمآسيه..

وفي هجير هذه الحداثة الجديدة فقد الإنسان هُوِيَّته الحقيقيةَ وتبدَّلت ماهيَّتُه، بل مُسخت من كونه «كائنًا عاقلًا» إلى كونه «كائنًا ماديًّا اقتصاديًّا»، ليس له قلب يخفق بالألم لشقاء الآخَر وتعاسته، بقدر ما له قلب يعلو ويهبط في سوق الصناعة والتجارة على رقصات العرض والطلب، وصَفْقِ الرواج والكساد[(١)].

أيها السادة!

لا أريد أن أُثقل على حضراتكم أكثر من ذلك، ولكن أريد أن أؤكد لكم أنني ما جئت لكي أُسمِعَكم ثناء وإطراءً لدين الإسلام، بقَدْر ما جئت لأدعو إلى إطفاء نار الحروب والبحث عن سلام عالمي، مؤسَّس على أخلاق الدِّين وتعاليمه، يوقف شلالات الدماء في هذا المشهد العبثي الذي اختلط فيه الموت بالخراب، واليتم والترمل، وفقد العائل، والنزوح من الأوطان.

ونحن أبناء الأديان الإلهية لنا الحق -كلَّ الحقِّ- في دعوة الناس بالحسنى وبالقدوة الصالحة، وبالتي هي أحسن إلى طريق الحق والرحمة

(١) بعض هذه الألفاظ مقتبس من كلمات العقاد، المصدر السابق ١٣ سطر ١٠، ١١ من أسفل.

والمساواة بين الناس، والدعوة إلى ملتقى عالمي متخصص لقادة الأديان على غرار «برلمان أديان العالم» الذي عُقد عام: **١٩٩٣**م في شيكاغو، وأن نبني على ما سبقنا إليه من توصيات.

وأتمنى أن تتضح من هذا الملتقى حقيقتان مهمتان نراهما من أهم ضوابط حوار الأديان بين الشرق والغرب.

الحقيقة الأولى: إعلان أنه لا حوار في العقائد؛ لأن حوار العقائد يُفضي إلى صراع بغيض، هذا فضلًا عما يُثيره حوار من هذا النوع من ثقافة الكراهية والأحقاد ونسف أُخُوَّة الإيمان باللَّه من الجذور.

الحقيقة الثانية: ليس من الحكمة في شيء أن نفَسِّر قابليَّة الأديان لإشعال الحروب، بأن المؤمنين بكلِّ دِين يزعمون أن دينهم يمتلك الحقيقة المطلقة، وأن غيرهم على خطأ مطلق، وقد حمل هذا التفسير الخاطئ كثيرًا من اللَّاهوتيين أنفسهم على البحث عن حلٍّ لما أسموه: «معضلة الأديان»، وكان الحل -في نظرهم- هو اعتقاد نِسبيَّة الحقيقة بين الأديان، بمعنى أن كل دين لا يملك -وحده- الحقيقة المطلقة، وعلى كل دين أن يفسح مكانًا لفهم عقائد الدين الآخر وتفهُّمه وأرى أن هذا الحل يضع مسألة الإيمان الديني في مهب الريح؛ لأن الإيمان الديني الصحيح هو اعتقادٌ يجب أن يرقى إلى رُتبة العلم التي هي أعلى مراتب اليقين، وإلَّا كان هذا الإيمان قابلًا للشك، فلا يكون إيمانًا حقيقيًّا، ولو فُتِحَ باب النِّسبيَّة في الدِّين، ومشروعيةِ ورودِ الشَّكِّ في أصول هذا الدِّين أو ذاك، وأن دِينا آخر يمتلك الحقيقةَ المطلقةَ أيضًا، رغم تنافي العقيدتين - أقول: لو فُتِح هذا الباب أمام المؤمنين بالأديان؛ فإن عليهم أن يختاروا بين أمرين:

١- إما الشك في دينهم، وحينئذ لا ينطبق عليهم وصفُ الإيمان بهذا الدِّين.

٢- أو يقبلوا ورودَ الخطأ والصواب على حقيقة واحدة بحيث تكون مطلقة ونسبية في آن واحد، وهذا من المستحيلات التي لا يمكن تصوُّرُها. فلابد، والأمر كذلك، من أن يعتقد كل متدين حقيقي بأن دينه هو الحقيقة المطلقة التي لا حقيقة سواها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- الحل الصحيح لما يسمى بمعضلة الأديان، يكمن في ضرورة التفرقة بين معنى الاعتراف ومعنى الاحترام، فليس معنى أن أحترم دين الآخر أن أعترف به وأعتقده، بل أؤمن بحق الآخر في أن يعتقد دينًا مخالفًا ومناقضًا لديني، وأن أسلم له إيمانه بدينه، لكن لا يَلْزمني الاعتراف بما يعتقد، وهنا نفهم آيات القرآن الكريم التي تقول ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ والتي تقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ بل وإن آيات الكتب المقدسة في هذا الأمر لتتفق اتفاقًا واضحًا وما ورد في القرآن في هذا الشأن، فالأمر -إذًا- يعود إلى ضرورة التسامح والاحترام المتبادل بين العقائد وبين الأديان، والإسلام يفرض على الدولة المسلمة أن تمكن الآخر المختلف في الدِّين من ممارسة شعائر دينه، وأن توفر له دارًا يتعبد فيها بشعائر دينه ومعتقده، والدولة ملزمة بكل الضمانات التي تمكنه من ممارسته هذا الحق الذي لا يرى حقًّا سواه.

شكرًا لحسن استماعكم وأعتذر عن الإطالة.

والسَّلامُ عَلَـيْكُم ورَحْمَـةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

الشرق والغرب

الغـربُ والشَّـرق في عـصر العَولمَـة(*)

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

الأساتذةُ العُلماء والمفكِّرون.. أوَدُّ في بداية ورقتي المتواضعةِ أن أزجي الشُّكر إلى القائمين على مؤسَّسة «سانت إيجيديو»، على هذا الجهد الدَّؤوب، الذي لا يَتوقَّف، من أجل ترسيخ مبادئ التَّعارف بين الشَّرق والغرب، وتَضييق مساحات التَّوتُّر والصِّراع بين أهل هاتين الحضَارَتين.

وقد كان لي شرفُ المُشاركة في هذا النَّشاط المقدَّس، وأُتيح لي أن أحضُر في أقلَّ من عامين ثلاثةَ مؤتمرات، من أجل هذا الهدَف النَّبيل، وفي كلِّ مرَّة أشعُر بالقيمة الكبرى، والدَّور العِلمي الذي تقومُ به هذه المؤسَّسة، من أجل تصحيح العَلاقة بين الحضَارتين، والعودة بها إلى علاقة التَّكامل والتَّعاون، بدلًا من علاقات المواجهة والصِّدام.

وفي هذه المرَّة، كما في المرَّتين السَّابقتين؛ تَنطلق ورَقتي من مُنطلَق الدِّفاع عن حضارة الإسلام، التي لا تزالُ حبيسةً في قفَص الاتِّهام الظَّالم.

وأقول: إنَّ حضارةَ الإسلام بوجهٍ خاصٍّ؛ هي حضارةُ تعارُف، وليست حضارةَ نفي واستبعاد، وإنَّ النُّصوص المقدَّسة التي صاغَت هذه الحضارة، وشكَّلت مُنطلَقاتها، وحكمَت تصرُّفاتها -نصوصٌ تكرِّس وحدَة الأصل بين الإنسانيَّة جمعاء، فالنَّاس جميعًا في فلسفة هذه الحضارة أبناءُ أبٍ واحد وأُمٍّ

(*) أصل هذه الكلمة محاضرة ألقيت في الملتقى الدَّولي التَّاسع عشر من أجل السَّلام، بعنوان: «الغربُ والشَّرق في عصر العَولمَة»، في ليون، فرنسا، في الفترة من: ٦ - ١٠ شعبان: ١٤٢٦هـ/ ١٠-١٤ سبتمبر ٢٠٠٥م.

واحدة، والنَّاس جميعًا أيضًا إخوةٌ مُتساوون، ومعيارُ التَّفاضل بينهم معيارٌ واحد وحيد، هو العمَل الصَّالح، المُنضبط بضوابط التَّقوى ومُراقبة اللَّه تعالى في كلِّ التَّصرفات.

وإذا كان مفهومُ المُساواة بين النَّاس قد ترسَّخ في كثيرٍ من الحضارات القديمة والحديثة، نتيجةً لكفاحٍ فكريٍّ وعسكري ضدَّ عنصريَّة اللَّون والجنس والعِرق؛ فإنَّ هذا المفهوم يُمثِّل في حضارة الإسلام مبدأً ثابتًا في أصل الخَلق والوجود، ومرجعيَّةً أصلية تَنبني عليها فلسفةُ القرآن في وحدة الأصل الإنساني، تلك التي تُقرِّر أنَّ النَّاس مَخلوقون من نفسٍ واحدة، وأنَّهم مهما تعدَّدت ألوانُهم وأجناسُهم فإنَّهم يَعودون إلى أب واحد، ومن ثَمَّ فلا مكان في فلسفةِ القرآن لأيَّة تصوُّرات أو نظريَّات تُكثِّفُ قليلًا أو كثيرًا من ظلال الفوارق والتَّمييز بين عُنصر وعُنصر، أو لونٍ ولون، أو جنس وآخر.

إنَّ القرآنَ يَبتدئ سورةَ النِّساء بآية تَقتلعُ من الجذور كلَّ دعاوى التَّمييز النَّوعيِّ الذي كانت تُعاني منه المرأةُ والعَبيد والمُستضعَفون والمَنبوذون في مجتمعات ما قبل الإسلام، سواءٌ في ذلك المجتَمعات التي كانت تَحكمُها عاداتٌ وتقاليدُ كالعربِ، أو تَحكمُها نظريَّاتٌ فلسفيَّة أو لاهوتيَّةٌ كالإغريق والفُرس والهنود واليهود والرومان.

وفي هذه البيئة المُضطَّربة، التي اختلَّت فيها قِيَمُ العدل، ومَوازين المُساواة، سَمعَ النَّاس ولأوَّل مرَّة النِّداء الإلهيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١]، وسَمع المُجتمع العربيُّ النِّداء الحاسم لنبيِّ الإسلام: «النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»(١)،

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٦) والتِّرمذيُّ (١١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وله شاهد من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٧١١٨) وغيره.

وتَعلَّموا من القرآن أيضًا أنَّ اللَّه في أصل الخليقة؛ كلَّف آدم كما كلَّف حوَّاء سواءً بسواء، وأنَّه خاطَبهما خطابًا واحدًا مُتساويًا، وأمرَهما معًا بأمرٍ واحد، وأنَّ الشَّيطان أغواهما معًا، ولم يكن أحدُهما ضحيَّةً لغِواية الآخر، ومن ثَمَّ؛ توزَّعت العقوبةُ عليهما جميعًا.

ثمَّ انطلَق المسلمون بعد ذلك يَسمعون الوحي الإلهي والبيان النَّبوي يُذكِّرُهم صباحَ مساء بهذا المبدأ، حتى أصبحَت حرِّية الإنسان ومساواتُه لغيره؛ دينًا وعقيدةً في حضارة المسلمين..

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

- «النَّاسُ سَوَاسِية كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ»(١).

- «فَالنَّاس رَجُلَانِ؛ رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّه تَعَالَى، وَرَجُل فَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّه، والنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ»(٢).

- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَبيَضْ فضلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَد، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُم الْغَائِبَ!»(٣).

❊ ❊ ❊

إنَّ هذه الحضارة التي تأسَّست على قِيَم العدل والمُساواة واحترام

---

(١) تقدم تخريجه ص: ٢٠٦.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٢٧٠) من حديث عبد الله بن عمر، وقال: «حديث غريب»، وصحَّحه ابن حبَّان.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النَّبي ﷺ. وقد رُوي أيضًا من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما وغيره.

الآخر، قد انفتحَت على الحضارات الأخرى، وتأثَّرت بها، وأثَّرت فيها، واستوعبَت بشهادة المؤرِّخين الغربيِّين المُنصِفين حضاراتِ الفُرس، والإغريق، والهند، والرُّومان، والفراعنة، والأقباط، وشكَّلَت عُنصرًا تنويريًّا في الحضارة الأوروبيَّة ذاتها، وكان منطلقها في التعامل مع هذه الحضارات من الأصل الإسلاميِّ الذي لا تَعرف أصلًا غيرَه؛ وهو أنَّ الاختلاف في العقائد، والأديان، والألوان، والثَّقافات بين الشُّعوب لا يَعني أبدًا صدامَ الحضارات، ولا صِراعها، ولا إفناء إحداها للأُخرى، بل يَعني التَّعارف الذي نصَّ عليه القرآنُ قبل أربعة عشر قرنًا من الزَّمان، والتَّعارف كلمةٌ تَتضمَّن كلَّ آفاق التَّكامل، والتَّلاقي، والتَّعاون، والتَّحاور البنَّاء.

إنَّ اللَّه -فيما يُقرِّر القرآنُ الذي يَتلوه المسلمون صباحَ مساء- لو شاء أن يَخلق النَّاس على دين واحدٍ، أو ثقافة واحدة، أو لون واحد لفَعَل، ولكن شاء أن يَخلُقهم مُختلفين في كلِّ ذلك؛

فالاختلافُ بين الأُمم والشُّعوب قَدَرٌ محتوم، ومَشيئة إلهيَّة لا تتبدل.

ونحن المسلمين نؤمنُ بأنَّه ليس في مقدور أمَّة من الأُمم، ولا حضارة من الحضارات؛ كائنًا ما كان بطشُها وجَبروتُها وكبرياؤها -أن تَردَّ النَّاس جميعًا إلى حضارةٍ واحدة، أو تَصيغهم في ثقافة معيَّنة، وإنَّ الحضارة التي تُحاول ذلك إنَّما تُحاول تَغيير مشيئة اللَّه في خلقه، واللَّه -كما جاء في القرآن الكريم- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

من هنا -أيُّها السَّادة العلماء-؛ لا نَرى نحن المسلمين بأسًا في أن تَختلف حضاراتُ الشَّرق مع حضارة الغرب في كثير من الرُّؤى الثَّقافيَّة، والأنماط الاجتماعيَّة، وأنَّ ما نعدُّه في حضارتنا قيمةً خُلقيَّة مثالية -ربَّما تراه الحضارةُ الغربيَّة أدخلَ في باب الرَّذائل والقبائح، والعكسُ صحيح ووارد،

وهو أمرٌ مشروع، وواقعٌ لا محالة ما بقيت الإنسانيَّة على وجه الأرض.

ولكن من غير المشروع، ومن غير المقبول؛ تلكم التَّصرُّفات والسُّلوكيَّات التي تَعكس تَسلُّط حضارةٍ ذات إمكانات مادِّية هائلة على أُخرى مَحدودة القدرات الماديَّة والعسكرية.

ولو أنَّ العلاقة بين الحضارات، أو بين الغرب والشَّرق درَجت في هذا الاتِّجاه البائس المشؤوم؛ فإنَّ النَّتيجة لن تكون أبدًا سيطرةَ حضارةٍ على حضارة، أو سيادةَ ثقافة واختفاءَ ثقافة أخرى، وإنَّما القدَر المحتوم حينئذ؛ هو إمَّا انهيارُ الحضارات المُتغطرِسَة، أو عودةُ البشريَّة كلِّها إلى حالة من الهمجيَّة والفوضى، ربَّما لا يَعرف التَّاريخ لها مثيلًا من قبلُ.

***

الشَّرقُ والغَربُ والسَّلامُ المَنْشُود(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

إنَّه لشَرَفٌ كبيرٌ أن أُشارِكَ في لِقاءِ حُكماءِ الشرقِ والغَرب «بمدينةِ فْلورنسا»، في هذا اللقاءِ الذي لا أشُكُّ في أنه سيَكونُ لقاءً تاريخيًّا مَشهودًا، رُبَّما يَتوقَّفُ عنده تاريخُ الإنسانيَّةِ يومًا ما؛ ليكتُبَه بأحرُفٍ مِن نُورٍ، ويُسجِّلَه في أنْصَعِ الصَّفَحاتِ، وما ذلكَ على اللَّهِ ببعيدٍ.

إنَّ هذا العملَ الذي نَشهَدُ اليومَ أولى حَلَقاتِه، ولا نَدري شيئًا عن بقيَّةِ مَراحِلِه، كان فكرةً مُجرَّدةً في عالمِ الأحلامِ والأمانيِّ، حِينَ زارني في مَنزلي، بحيِّ مِصرَ الجديدةِ بالقاهرةِ، أصدقاؤنا القُدامَى: الأبُ فيتوريو يناري، والأستاذةُ باولا بيتزو، والسيدُ أندريا ترنتيني، مُنذُ عامٍ أو أكثرَ، ودارَ الحديثُ حولَ موضوعِ «حِوارِ الأديانِ والحضاراتِ»، ومَدَى تأثيرِه في العَلاقةِ بينَ الشرقِ والغرب، وهل آتى ثِمارَه المرجُوَّةَ في التقريبِ بينَ الحضاراتِ، أو تخفيفِ التوتُّرِ والاحتقانِ في عَلاقةِ كلٍّ منهما بالآخَرِ، بعد أن آلَتْ هذه العَلاقةُ في الآوِنةِ الأخيرةِ -وبكلِّ أَسَفٍ- إلى عَلاقةِ صِراعٍ مُخيفٍ؟!

وقد كان رأيي الذي كوَّنْتُه عبرَ إسهاماتٍ عِدَّةٍ، في حِواراتِ الأديانِ والحَضاراتِ في آسيا وأوروبا وأمريكا، أنَّ هذه المُحاوَراتِ لم تستطِعْ -حتى الآن- تحديدَ قضايا النِّزاعِ المُعلَنِ -والصامِتِ أيضًا- بينَ العالَمينِ: العربيِّ

(*) أصلُ الكلمةِ محاضرةٌ أُلقِيَتْ في افتتاحِ مؤتمرِ لُقاء حُكماءِ الشرقِ والغربِ: نحوَ حِوارٍ للحَضارات، في فلورنسا بإيطاليا، بالصالة المشهورة باسم: «الخمس مئة» Csalone dei cinquecento بقصر فيكيو palazzo vecchio وفيها أجمل لوحات ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو. يوم: ٢١ شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٨ من يونيو ٢٠١٥م.

والإسلاميِّ وبينَ الغربِ، ومِن ثَمَّ لَمْ تُفلِحْ في صِياغةِ رؤيةٍ مُستقبَليَّةٍ للخُروجِ مِن هذه الأزمةِ العالميَّةِ، التي إن تُرِكَتْ تتدحرَجُ مِثلَ كُرةِ الثلجِ؛ فإنَّ البشريَّةَ كلَّها سوف تَدفعُ ثَمَنَها: خَرابًا ودَمارًا وتخلُّفًا وسَفْكًا للدِّماءِ؛ ورُبَّما بأكثرَ مما دفعَتْه في الحربَيْنِ العالميَّتينِ في النصفِ الأولِ مِن القَرْنِ الماضي، ضَرُورةَ التطوُّرِ الذي لا يَتوقَّفُ في تِقنياتِ الأسلحةِ المدمِّرةِ، وتغوُّلِ السياساتِ العسكريَّةِ وتسارُعِها، والجهودِ الغربيَّةِ التي لا تَكِلُّ ولا تَملُّ في أن يَكونَ لها تواجُدٌ عسكريٌّ مُسلَّحٌ في مُعظَمِ بُلدانِ الشرقِ.

وهكذا، ومِن بينِ رُكامِ الإحباطِ، وضَبابِ الأَسَى على عالَمِنا الذي يَقِفُ على حافَةِ الانهيارِ الحضاريِّ، لمَعَتْ فِكرةُ لِقاءٍ يَجمَعُ بينَ نُخبةٍ محدودةٍ مِن الغربِ، ومِثلِها مِن الشرقِ، يَتدارَسُونَ أمرًا بالِغَ الصُّعوبةِ، شديدَ التعقيدِ، لعلَّهم يَجِدُون له مَخرَجًا، أو -على أقلِّ تقديرٍ- لعلَّهم يَغرِسُون -في طريقِ حَلِّه- «نَواةً» لشَجَرةِ سَلامٍ، قد تُثمِرُ يومًا ما مِن الأيام.

ثم شَجَّعَني على مُواصَلةِ التفكيرِ الجادِّ في هذا الأمرِ ما لَمَسْتُه مِن مجلسِ حُكماءِ المسلمينَ، الذي أنتمي إليه[١]، مِن حِرصٍ وتصميمٍ على إطفاءِ نارِ الحُروبِ، أينما اشتَعَلَ أُوارُها، ومِن خِلالِ قوافِلَ لنَشرِ السلامِ، تَجُوبُ العالَمَ مِن أجلِ هذا الهَدَفِ المُقدَّسِ.

وكنتُ أظنُّ أنَّ مِن السَّهْلِ أن يُدرِكَ أيُّ باحِثٍ ماذا يَعني الشرقُ، وماذا

---

(١) ومِن قَبْلُ شَجَّعَني أصدقائي مِن جمعيَّةِ «سانت إيجيديو» وأظهَروا استعدادًا مَشكُورًا لرعايةِ هذا المُقترَحِ، وإخراجِه مِن عالَمِ الأحلامِ إلى دُنيا الحقيقةِ والواقعِ. وإذا كانَتْ تعاليمُ نبيِّ الإسلامِ ﷺ تُعلِّمُنا أنه: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» فإنَّه لا يَسَعُني إلَّا أن أتقدَّمَ بالشكرِ الجزيلِ للقائمينَ عَلَى هذِه الجمعيَّةِ، التي تَعمَلُ مُنذُ زمنٍ طويلٍ مِن أجلِ الأُخوَّةِ الإنسانيَّةِ، والسلامِ العالَميِّ، والمحبَّةِ والرحمةِ، التي بُعِثَ بهما إلى الناسِ سيِّدُنا عيسى وسيِّدُنا محمدٌ -عليهما الصلاةُ والسلامُ-.

يَعني الغربُ، وأن يُحدِّدَ ما بينهما مِن فُروقٍ تُميِّزُ بينَ المفهومَيْنِ تمييزًا تامًّا، وتُزيلُ ما بينَهما مِن إبهامٍ وغُمُوضٍ، ولكن خابَ الظَّنُّ مَعَ أوَّلِ مُحاوَلةٍ للاهتداءِ إلى معنًى مُحَدَّدٍ كهذا، أو إلى تعريفٍ جامعٍ مانعٍ -كما يقولُ علماءُ المنطقِ- لهذَيْنِ الكِيانَيْنِ المتباعدَيْنِ جُغرافيًّا، والمتداخِلَيْن تاريخيًّا وحَضاريًّا.

إنا إذا بدَأْنا بتعريفِ «الغربِ» فإنَّه سُرعانَ ما تَقْفِزُ أمامَ الذِّهنِ سِلسلةٌ مِن تجاذُباتٍ وتناقُضاتٍ، لا يَخْلُصُ معها «الغربُ» كِيانًا أوروبيًّا خالِصًا في مُقابِلِ «الشرقِ»، فلا يَكفي -مثلًا- أنْ نُعرِّفَ «الغربَ» بخصائصَ دينيةٍ وعِرْقيةٍ، كأن نَقولَ: «الغربُ هو هذه الشعوبُ الأوروبيَّةُ التي تَدِينُ بالمسيحيَّةِ»؛ لأنَّ هذا التعريفَ سُرعانَ ما يَضطرِبُ ويَفسَدُ، حِينَ نتنَبَّهُ إلى أنَّ الملايينَ مِنَ المُسلمينَ الذين هاجَروا إلى أوروبا وأمريكا - أصبَحوا خُيُوطًا بارزةً في النسيجِ الاجتماعيِّ للغربِ، وأنَّ هذه المَلايينَ تركَتْ بَصَماتِها قويةً في شتَّى مَجالاتِ الحياةِ الغربيَّةِ، مِن عاداتٍ وتقاليدَ وفُنونٍ وسُلوكٍ أيضًا.

أضِفْ إلى ذلكَ أنَّ هذا التأثُّرَ والتأثيرَ ليس وليدَ عَصْرِنا الحاضرِ هذا؛ بل هو تأثيرٌ وتأثُّرٌ قديمانِ، نعلَمُهُما مِن تاريخِ الحضارتَيْنِ: الشرقيَّةِ والغربيَّةِ، ومِن تاريخِ المراكزِ الحضاريَّةِ في أوروبا، التي سَطَعَتْ عليها شمسُ العَرَبِ قديمًا واستضاءَتْ بها، ونَقَلَتْها إلى كلِّ الشعوبِ الأوروبيَّةِ، ولعَلَّ مَدينةَ «فلورنسا» ذاتَ التاريخِ العريقِ في الحضارةِ والدِّينِ والثقافةِ والفنِّ، والتي تستضيفُنا اليومَ، ونتطارَحُ في ظِلالِها وعلى أرضِها هذه الذِّكريَاتِ، كانت مِن أهمِّ مراكزِ التواصُلِ في ذلكُم الحينِ.

وهكذا لا نَدْري ماذا يَعني الغربُ بالنسبةِ للشرقِ؟ هل هو المسيحيَّةُ؟ أو العَلمانيَّةُ؟ أو الإلحادُ؟ هل هو القوةُ العَسكريَّةُ والاقتصاديَّةُ؟ هل هو التنويرُ وحُقوقُ الإنسانِ؟ أو هو الفاشِيةُ والعُنصريَّةُ؟!

هل هو الفنُّ والثقافةُ؟ وأحدَثُ المُوضاتِ وبُيوتُ الأزياءِ؟ أو هو الإنتاجُ والاستهلاكُ؟ أو هو العِلْمُ والتكنولوجيا ومَصانعُ أسلحةِ الدَّمارِ؟!

ومَهما دَقَّقْنا النظرَ وواصَلْنا البحثَ والتحليلَ في خصائصِ «الغربِ» الذاتيَّةِ؛ فإنَّنا لن نَظفَرَ إلا بمُرَكَّبٍ مُعَقَّدٍ، شديدِ التناقُضِ والتضارُبِ[١].

وشيءٌ غيرُ قليلٍ مما قيلَ في تحديدِ مفهومِ «الغَرْبِ» يُقالُ مِثلُه في تعريفِ «الشرْقِ» وتحديدِ مفهومِهِ تحديدًا دقيقًا واضحَ الملامحِ بَيِّنَ القَسَمَاتِ، ذلكم أنَّ تأثيرَ الحضارةِ الغربيَّةِ في الحضارةِ الشَّرقيَّةِ أو الإسلاميَّةِ مِن الوضوحِ بحيثُ لا تُخطِئُه عينُ باحثٍ أو مُتبصِّرٍ، وقد وَصَلَتْ قوَّةُ التأثيرِ الغربيِّ إلى درجةِ «الغَزْوِ» والاكتساحِ لأكثرِ شعوبِ الدُّولِ الإسلاميَّةِ، ثُمَّ إنَّ العَالَمَ الإسلاميَّ لا يُمثِّلُ امتدادًا جُغرافيًّا مُوَحَّدًا، كما أنَّ الرَّابطةَ «القوميَّةَ» بينَ دُوَلِه كثيرًا ما أصبحَت أقوى مِن رابطةِ «الدِّينِ»؛ فالعِراقُ وإيرانُ بَلَدانِ مُسْلِمانِ، لَكِنَّهما تَقاتَلا سنواتٍ عِدَّةً على أساسٍ مِن اختلافِ القوميَّاتِ والمصالِحِ، ولَمْ تَنهَضْ رابطةُ الدِّينِ أن تُكَفكِفَ شيئًا -ولو قليلًا- مِن شَراسةِ الحربِ بينهما.

كما لَمْ تأتِ الدَّعَواتُ التي تُنادي بتكوينِ «أُمَّةٍ إسلاميَّةٍ» مُوحَّدةٍ بجديدٍ يُضافُ إلى رصيدِ وَحدةِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ وتَضامُنِها، ممَّا حَدَا بالبعضِ إلى القولِ بأنَّه لا يُوجَدُ كِيانٌ اسمُه العَالَمُ الإسلاميُّ «يُمكِنُ اعتبارُه خَطَرًا يُهدِّدُ الغَرْبَ الذي يَمتلِكُ قُوةً أكبرَ وأشرَسَ وأعنف»[٢].

وَمِن وِجهَةِ نَظَري المُغْرِقةِ في التجريدِ، والتفاؤلِ أيضًا، أنَّ هذه العناصرَ المُتداخِلةَ بينَ الشَّرقِ والغَرْبِ، والتي تتمثَّلُ في التبادُلِ العِلميِّ والثقافيِّ والفَنِّيِّ بينَ الحضارتَيْنِ، رُبَّما تُشَكِّلُ أرضيَّةً مُشترَكةً تُساعِدُ في بِناءِ تَقارُبٍ

---

(١) انظر: الغرب والعالم الإسلامي، نظرة إسلامية، معهد العلاقات الخارجية في شتوتجارت (ifa) الفصل الأول ص ١٣-١٤.

(٢) الغرب والعالم الإسلامي، نظرة إسلامية: ١٤.

حَضاريٍّ يَقومُ على التكامُلِ وتبادُلِ المَنافعِ، وترسِيخِ مَبادِئِ الديمقراطيَّةِ والحريَّةِ وحَقِّ الإنسانِ الشرقيِّ -مِثلَ أخيه الغربيِّ- في حياةٍ آمِنةٍ كريمةٍ، مع أمَلٍ كبيرٍ في أن تتوقَّفَ الدولُ القادرةُ الغنيَّةُ عن الاستبدادِ والتحيُّزِ والكَيْلِ بمِكيالَيْنِ: مِكيالٍ للغربِ وآخَرَ للشَّرقِ، وأن تتوقَّفَ سياساتُها التسلُّطيَّةُ على الضعفاءِ والمستضعَفينَ، هذه السِّياساتُ التي يَبدُو أنها أجمعَتْ أمرَها على تقسيمِ العالَمِ إلى فُسطاطَيْنِ: فُسطاطٌ للغِنَى والأمنِ والرَّفاهِيَةِ والتقدُّمِ العِلميِّ والثقافيِّ والفنِّيِّ والحضاريِّ، وفُسطاطٌ للحروبِ والدماءِ والإرهابِ والخرابِ والفقرِ والجهلِ والمرضِ.

وأَعتقدُ أنَّه لا خلافَ على أنَّ وَضْعَ العالَمِ الآنَ هو وَضْعٌ بالغُ السُّوءِ، وأنَّ نَظرةَ جماهيرِ المسلمينَ في الشرقِ إلى نِظامِ سِيادةِ القُوَّةِ واستخدامِها المُفرِطِ لهَدْمِ إرادةِ الشعوبِ - ليسَتْ نَظرةَ احترامٍ بكلِّ تأكيدٍ. فأنت قد تُعجَبُ بالقَويِّ وبقُوَّتِه، لكن لا مفر لك من ازدرائه لضياع العنصر الخُلُقيِّ وافتقاده الشعورَ بالآصِرَةِ الإنسانيَّةِ والأُخوَّةِ البشريَّةِ، والذي هو الفارقُ بين القوَّةِ الغاشِمةِ وقُوَّةِ العَدلِ والسَّلامِ.

بل أذهَبُ إلى أبعَدَ مِن ذلكَ، وأزعُمُ أنَّ شُعورَ الكراهِيَةِ الكاسِحَ للنظامِ العالميِّ الباطِشِ ليس وَقْفًا على المسلمينَ في الشرْقِ؛ بل هو شُعورٌ مُشْتَرَكٌ بينهم وبينَ تيارٍ عَريضٍ مِن حُكماءِ الغربِ المُحِبِّين للعَدالَةِ والسلامِ؛ لأنَّ نَوازِعَ الأخلاقِ الإنسانيةِ في تفكيرِ أصحابِ هذا التيارِ، وفي أعماقِ شُعورِهم، لا تَزالُ على فِطرتِها ومَبدئِها الإنسانيِّ الخالِصِ، لم تتشَوَّهْ بعدُ بأخلاقِ القوَّةِ والمصلَحةِ والغَرَضِ، وفَلسفاتِ الغايةِ التي تُبرِّرُ الوسيلةَ، أيًّا كان قُبْحُ هذه الوسيلةِ وسُقوطُها في حِسابِ الفضيلةِ ومَوازينِ الأخلاقِ.

وأرجو ألَّا أجاوزَ الحقيقةَ لو قلتُ: إننا -نحنُ المسلمينَ والمسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ- لم نَعُدْ ننظرُ إلى حَضارةِ القوةِ والتسلُّطِ هذه، مِن مَنظورِ أنَّها

حضارةُ الأُنموذَجِ الأمثلِ، الذي يتطلَّعُ إليه الناسُ الآنَ، رَغْمَ صَيْحاتِ التبشيرِ التي تنطلِقُ بها حناجِرُ دُعاةِ التغريب في كلِّ بُلدانِ العالم، فهُناكَ تحفُّظاتٌ كُبرى على هذا النَّمَطِ الحضاريِّ الذي نعترفُ بأنه إنْ سَعِدَ به كثيرونَ؛ فقد شَقِيَ به الأكثرونَ مِن أصحابِ الضمائرِ السليمةِ هُنا وهُناكَ.

ومِنَ الإنصافِ أن نقولَ: إنَّ جُهودًا كبيرةً تقعُ على عاتِقِ الشرقيِّين -مُسلمينَ ومَسيحيِّين- يَجِبُ أن يضطلِعوا بها لتعديلِ نَظرتِهم إلى الغربِ والغربيِّين؛ فهُناكَ شُعورٌ -عند الشرقيين- بالخوفِ مِنَ الغربِ، وبعَدَمِ الأمانِ، وتوقُّعِ الشَّرِّ، وقد يَكونُ لدى الشرقيِّينَ بعضُ ما يُسوِّغُ هذا الخوفَ، لكنَّه -بكلِّ تأكيدٍ- خوفٌ مُبالَغٌ فيه، وكثيرًا ما تختلِطُ حُدودُه بحُدودِ الكراهيةِ وحُبِّ الانتقامِ، وهُنا الكارثةُ التي لو تُرِكَتْ تمضي في هذا الطريقِ البائسِ؛ فإنَّها ستنتهي بالضَّرورةِ لا إلى زَوالِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ فقط -كما تُراهِنُ عليه نظريَّةُ صِراعِ الحضاراتِ- بل إلى زوالِ الحضارتَيْنِ الإسلاميَّةِ والغربيَّةِ معًا.

نعم! يَجِبُ على الشَّرقيِّينَ أن يَشعُروا بروابِطَ أكثرَ تقارُبًا وتآلُفًا، يتواصلون بها مع الغَرْبِ، وأن يَتوقَّفوا عن اعتبارِ الحضارةِ الغربيَّةِ حَضارةً كلُّها شَرٌّ وخُروجٌ على قِيَمِ الأديانِ والفضائلِ، وأن نَستبدِلَ بهذه النظرةِ المُفرِطةِ في السَّوادِ نَظرةً أُخرى أكثرَ تفاؤلًا، تبدو فيها الحضارةُ الغربيَّةُ حَضارةً إنسانيَّةً، إن كان فيها بعضُ المَثالِبِ والنقائصِ فهي لا شَكَّ حضارةٌ أَنقذَتِ الإنسانيَّةَ، ونقلَتْها إلى آفاقٍ عِلميَّةٍ وتِقنيَّةٍ لم تكن لتَصِلَ إليها طَوالَ تاريخِها السحيقِ، لولا عُكوفُ عُلماءِ الغَرْبِ على مَصادِرِ المعرفةِ الأدبيَّةِ والتجريبيَّةِ والفنيَّةِ، على أن الشرقَ لدَيْه ما يَسُدُّ به الغربُ ثُقوبَه الروحيَّةَ والدينيَّةَ، ويَدفَعُ به عن حَضارتِه عوامِلَ التحلُّلِ والاندثارِ، والغربُ -أيضًا- لدَيْه الكثيرُ ممَّا يُقدِّمُه للشرقِ لانتشالِه مِنَ التخلُّفِ العِلميِّ والتِّقنيِّ والصِّناعيِّ وغيرِ ذلكَ.

فهَلْ مِنْ أمَلٍ في أن يُخفِّفَ الغَرْبُ مِن غُلَوائِه وكِبريائِه، ويَتخفَّفَ الشرقُ مِن هواجِسِه وسُوءِ ظُنونِه، ليلْتقيَ كلٌّ منهما بالآخَرِ في مُنتصَفِ الطريقِ لقاءَ تعارُفٍ ومَودَّةٍ، وتبادُلِ خِبراتٍ ومَنافِعَ، وتعاونٍ حقيقيٍّ من أجلِ سلامٍ دائمٍ وحضارةٍ آمنةٍ؟!

وهنا أُريدُ أن أَلفِتَ النظرَ إلى أمرَيْنِ لا يُمكِنُ إغفالهما في أيِّ تلاقٍ بينَ الشرقِ والغَربِ، وعلى أيِّ مُستوًى جادٍّ مِن مُستوَياتِ هذا التلاقي:

الأمرُ الأولُ: الآيةُ القرآنيَّةُ التي يُردِّدُها المسلمونَ رِجالًا ونِساءً وأطفالًا، صَباحَ مَساءَ، كما يُرَدِّدُها كثيرٌ مِنَ المُثقَّفينَ والمُفكِّرينَ الغربيِّينَ: يَحفَظونَ فَحْوَاها عن ظَهْرِ قَلْبٍ مِن كثرةِ ما تُليتْ على مَسامِعِهم في مَحافِلِ الحِوارِ ومُنتدَيَاتِه، هذه الآيةُ هي قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. والمسلمونَ جميعًا -لا يَشُذُّ منهم أحَدٌ- يَفهَمونَ مِنَ الآيةِ أنَّ التعارُفَ يعني التعاوُنَ وتبادُلَ المنافعِ، وليس الصِّراعَ أو الإقصاءَ أو التسلُّطَ، وإذا كان لقاءُ التعارُفِ البَشَريِّ هو القانونَ الذي وضعَه اللَّهُ للعَلاقاتِ الدوليَّةِ بينَ الناسِ، أفَلَا يعني هذا أنَّ السَّلامَ بينَ الشعوبِ أمرٌ يُمكِنُ تحقيقُه إذا ما خَلَصَت النَّوايا وصَحَّتِ العزائمُ؟!

وقد نعجبُ من أنَّ شُيوخَ الأزهرِ في أربعينيَّاتِ القَرْنِ الماضي سَبَقُوا عَصرَنا في التنبيهِ إلى هذا الحَلِّ الذي لا حَلَّ غيرُه، فقد تنادَى الشيخُ مُحمَّد مُصطفَى المراغي (ت. ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) شيخُ الأزهرِ في ذلكُمُ الوقتِ، بالزَّمالةِ العالَميَّةِ بين الأُمَمِ كافَّةً؛ لاحتواءِ صِراعاتِ الأُمَمِ والشُّعُوبِ. وكان ذلكَ في كلمتِه أمامَ مؤتمرٍ عالميٍّ للأديانِ عُقِدَ بلندن سنة: ١٩٣٦م.

ثم جاء بَعدَه -بعَشْرِ سِنينَ- الشيخُ مُحمَّد عَرَفة (ت. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م) الذي كَتَبَ في «مجلَّةِ الأزهرِ» في عامِها الثامِن عَشَرَ سنةَ: ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م

مَقالًا نادَى فيه بضَرورةِ التفاهُمِ بينَ الإسلامِ والغَرْبِ، وقد دَفَعَه لكِتابةِ هذا النداءِ ما انتهَتْ إليه الحَرْبُ العالميَّةُ الثانيةُ آنَذاكَ مِن اختراعِ القُنبلةِ الذَّرِّيَّةِ والأسلحةِ الفتَّاكةِ، وقد حَذَّرَ الشيخُ مِن فَناءِ العالَمِ كلِّه، إذا استعمَلَ المُحارِبونَ هذه المُختَرَعاتِ، وانتهى إلى ضرورة التقريب بينَ الشعوبِ، وأنَّه لا مفر مِن إزالةِ أسبابِ الخِلافِ والبغضاءِ بينَها، بل لا بُدَّ مِن أن تُصبحَ الأرضُ كلُّها مدينةً واحدةً، وأن يَكونَ سُكَّانُها جميعًا كأهلِ مدينةٍ واحدةٍ.

وقد عوَّل الشيخُ كثيرًا، في دعوتِه لهذا التقارُبِ العالَميِّ، على وُجُوبِ أن يَفهَمَ الغربُ الإسلامَ، وأن يَفهَمَ المسلمونَ مَدَنيَّةَ الغَرْبِ، وأنهم إذا تَفاهَموا زالَ ما بينهم مِن سُوءِ ظَنٍّ، وأَمكَنَ أن يَعيشوا معًا مُتعَاوِنينَ، يُؤدِّي كلٌّ منهم نصيبَه مِن خِدمةِ الإنسانيَّةِ، ودعا الشيخُ عُلماءَ المُسلمينَ إلى ضَرورةِ أن يُبيِّنوا مَدَنيَّةَ الغَرْبِ على حقيقتِها، ليَحُلَّ التعارُفُ مَحلَّ التناكُرِ، ويَحُلَّ السلامُ محلَّ الخِصامِ(١).

أمَّا الأمرُ الثاني فهو هذا الخَطَرُ الداهِمُ الذي يَتهدَّدُنا جميعًا، وأعني به الإرهابَ والعُنفَ اللذَيْنِ يُهدِّدانِ العالَمَ، وأيضًا كلَّ ما تناسَلَ منهما مِن تنظيماتٍ وجماعاتٍ وحَركاتٍ مُسلَّحةٍ ترتدي -في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ- رِداءَ الأديانِ، وتُوظِّفُ كُتبَها المقدَّسةَ في قتل الآخَرِينَ وسَلْبِ أموالِهم وتشريدِهم مِن بلادِهم.

ولا مَفَرَّ مِن التكاتُفِ لوَقفِ هذا الوَباءِ، وأنتم - حُكماءَ الشَّرقِ والغَرْبِ- أعلَمُ الناسِ بأسبابِ هذا الوَباءِ، وكيف انطلَقَ مِن قراءاتٍ مَغلوطةٍ للكُتُبِ المُقدَّسَةِ، وبدَعمٍ مِن سِياساتٍ عالميَّةٍ عَمياءَ تقِفُ وراءَه، بأموالٍ هائلةٍ -

(١) مجلة الأزهر، السنة: ١٨، عدد صفر من عام: ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، صفحة: ١٤٧ - ١٤٩.

محليَّةٍ ودوليَّةٍ- لا يُنفَقُ عُشْرُ مِعشارِها لمُحارَبةِ الفَقْرِ والجَهلِ والمَرَضِ والتخلُّفِ في بُلدانِ العالَمِ الثالثِ.

أيُّهَا الحُكَمَاءُ الغَربِيُّون: لقد جئناكُم بآمالٍ عريضةٍ، وبثِقةٍ -لا حُدودَ لها- في هِمَّتِكم وإخلاصِكم، وتَصمِيمكم على السِّباحةِ ضِدَّ تيارٍ عنيفٍ يحركه الذين يحرصون على أن يَظَلَّ الغَرْبُ غَرْبًا والشَّرْقُ شَرْقًا، وألَّا يَلتقِيا مُنذُ ناحَ «كيبلنج» على أطلالِ الأمَلِ في التقاءِ الشرقِ والغربِ.

فهل تَشاءُ الأقدارُ أن يُغرِّدَ طائرُ السَّلامِ بينَ الشرقِ والغربِ لِيتلاقَيا مِن جديدٍ في مدينة «فلورنسا» تلكم التي تُطِلُّ على بحرٍ مُتوسِّطيٍّ تتلاقى على ضِفافِه شُعوبُ الشَّرقِ والغَرْبِ؟!

وهل آنَ لحِكمةِ الحُكماءِ أن تُغرِّدَ اليومَ في الشرقِ والغربِ، وتتغنَّى بسَلامٍ يَسُودُ عالَمًا أنهكَتْه الحروبُ والنِّزاعاتُ، أملًا في إسعادِ البشريَّةِ وإنقاذِها مِن دَمارٍ يَلُوحُ شُؤْمُه في الأُفُقِ البعيدِ؟

***

دعوةٌ إلى التَّعارُفِ(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّـادةُ الحضـورُ . .

السَّلامُ عليكم جميعًا

اسمَحوا لي أيُّها السَّادةُ الفُضَلاءُ أنْ أُعرِبَ لكم عن سَعادتي الغامرةِ؛ لوجودي بينَ هذه النُّخبةِ القديرةِ مِن أحفادِ صُنَّاعِ الحضارةِ والتَّقدُّمِ، وحُرَّاسِ العدالةِ الاجتماعيَّةِ وحقوقِ الإنسانِ، ودُعاةِ حرِّيَّةِ العقيدةِ والرَّأيِ والإبداعِ: أتحدَّثُ إليكم وأستمعُ منكم؛ أَمَلًا في أن تَتلاقَحَ الأفكارُ، وتَتلاقى وِجهاتُ النَّظرِ، وتستقرَّ على ما يَنفَعُ النَّاسَ -كلَّ النَّاسِ- في الغربِ والشَّرقِ.

واسمَحوا لي أيضًا أن أُحدِّثَكم -في إيجازٍ- عنِ الأزهرِ الذي أَشرُفُ بتمثيلِه أمامَكم لتكُونوا على إلمامٍ بشَيءٍ مِن تاريخِه المَهيبِ ورِسالَتِه الخالِدَةِ.

الأزهرُ مؤسَّسةٌ علميَّةٌ وتعليميَّةٌ، جذورُها ضاربةٌ في أعماقِ الماضي البعيدِ، إذ يعودُ تاريخُ تأسيسِه وافتتاحِه إلى عام (٩٧٢م)، وقد بُنِيَ ليكونَ مسجدًا للعبادةِ، ومدرسة للعلم والتعليم في الوقت ذاته، وقد استمرَّ الأزهرُ منذُ ذلكمُ التَّاريخِ يَحمِلُ أمانةَ التَّعريفِ بهذا الدِّينِ، وتبليغِ رسالتِه العلميَّةِ والرُّوحيَّةِ، نقيَّةً خالصةً إلى يومِ النَّاسِ هذا.

وقد تطوَّرَ الأزهرُ في العصرِ الحديثِ، وأصبحَ مؤسَّسةً كُبرى، بها أقدمُ جامِعةٍ في العالَمِ؛ تَضُمُّ ثمانينَ كلِّيَّةً تنتشِرُ في أقاليمِ مِصرَ مِن أسوانَ جنوبًا

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقيت في مجلس اللوردات البريطاني في ٢٤ من شعبان سنة: ١٤٣٦هـ/ ١١ من يونيو سنة: ٢٠١٥م.

إلى الإسكندريَّةِ ودمياط على ساحلِ المتوسِّطِ شمالًا، ويَدرُسُ بها (٣٤٦٩٧٦) طالبٍ وطالبةٍ علومَ الدِّينِ في كلِّيَّاتٍ إسلاميَّةٍ مُتخصِّصةٍ، وعلومَ الدُّنيا في كلِّيَّاتٍ أخرى، مثلَ كُلِّيَّةِ الطِّبِّ والصَّيدلةِ والهندسةِ والزِّراعةِ وغيرِها، ومِن بينِ الدَّارسِينَ بهذه الجامعةِ الأزهريَّةِ (٤٠٨٣٠) طالبٍ وطالبةٍ وافدِينَ من (١٢٨) دولةٍ[١].

وهناك (٩٠٨٣) معهدًا للتَّعليم قبلَ الجامعيِّ في مراحلِه الثَّلاثِ، يَدرُسُ بها حَوالَي مليونين مِنَ الطُّلَّابِ والطَّالِباتِ، بينهم عددٌ كبيرٌ من الطَّلبةِ والطَّالباتِ الوافدِينَ مِن مُختلِفِ بُلدانِ العالَمِ أيضًا، إضافةً إلى أكاديميَّةٍ للبحوثِ الإسلاميَّةِ والتُّراثيَّةِ.

ويُهِمُّني أن أُشيرَ -إشارةً سريعةً- إلى أنَّ منهجَ التَّعليمِ الَّذي يتلقَّاهُ الطُّلَّابُ في الأزهرِ -منذُ الطُّفولةِ وحتَّى التَّخرُّجِ مِن الجامعةِ- منهجٌ يقومُ على تعدُّدِ الآراءِ واختلافِ وِجهاتِ النَّظرِ، ودراسةِ المذاهبِ المختلِفةِ داخلَ الشَّريعةِ والفقهِ الإسلاميِّ، وكلُّها قائمٌ على الرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ الَّذي قد يَصِلُ إلى درجةِ التَّعارُضِ.

وبهذا المنهجِ يَتعلَّمُ التِّلميذُ -منذُ سنِّ العاشرةِ- أنَّ هذه الآراءَ المُختلِفةَ كلُّها آراءٌ مقبولةٌ، وتُعبِّرُ عنِ الإسلامِ تعبيرًا صحيحًا؛ ممَّا يُرسِّخُ في التَّكوينِ العقليِّ المُبكِّرِ لطلَّابِ الأزهرِ قَبولَ الرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ، وتُكسِبُهم مَلَكَةَ التَّحرُّرِ مِنَ الانغلاقِ في رأيٍ واحدٍ أو مذهبٍ واحدٍ يراهُ صحيحًا ويرى غيرَه باطلًا.

إن هذا المنهجَ التَّعدُّديَّ حين يلازمُ الطَّالبَ الأزهريَّ منذ طفولته الباكرة حتى تَخرُّجه من الجامعة - يُكسبه مناعةً عقليَّةً وذهنيَّةً، وطبيعةً انفتاحيَّةً،

(١) هذه الإحصائيات بحسب عام ٢٠١٥/٢٠١٦م.

يَصعُبُ معَها -بل يستحيلُ- أن يُستدرَجَ إلى فِكرِ التَّشدُّدِ ومناهِجِ العُنفِ والتَّكفيرِ.

وانظُروا -أيُّها السَّادةُ- إلى قادةِ الإرهابِ والتَّطرُّفِ، هل تجدون مِن بينِهم عالِمًا أزهريًّا؟ وأُؤكِّدُ لكم أنَّه سوف يُعيِيكُمُ البحثُ، ثم لن تَظفَرُوا بشيءٍ مِنْ ذلك، وهذا إذا ما استَثنَينا أزهريًّا واحدًا فقط أمرُه معروفٌ.

هذه المقدِّمةُ الَّتي أعتذرُ عنِ الإطالةِ فيها قليلًا، أَطرَحُها أمامَكم لعلَّها تكونُ كافيةً في إنصافِ الإسلامِ الَّذي يُمثِّلُه الأزهرُ تمثيلاً أمينًا، وأنَّه ليس صحيحًا ما يَتردَّدُ على أسماعِكم مِن أنَّ الحركاتِ الإرهابيَّةَ المسلَّحةَ حرَكاتٌ وُلِدَت مِن رَحِمِ الإسلامِ، وأنَّ تعاليمَ هذا الدِّينِ هي الَّتي صَنَعَت «داعش» وغيرَها مِن الحرَكاتِ والتَّنظيماتِ الإرهابيَّةِ المسلَّحةِ.

وليس صحيحًا كذلك أنَّ الإسلامَ هو المسؤولُ عن هذا الإرهابِ الأسودِ، وممَّا يُؤسَفُ له أشدَّ الأسفِ أنَّ هذه السُّمعةَ الرَّديئةَ انتشرتِ انتشارًا سريعًا، ووَجَدَتْ مِن التَّرحيبِ ما لا نُريدُ أن نتوقَّفَ كثيرًا في بيانِه، ويكفي ما انتهَت إليه هذه السُّمعَةُ، ممَّا يُعرَفُ بظاهرةِ «الإسلاموفوبيا» التي لَعِبَت -ولا تزالُ تلعبُ- دَورًا بالغَ السُّوءِ والخطرِ في تغذيةِ الصِّراعِ الحضاريِّ بينَ الغربِ والشَّرقِ.

ودَعُونا نتَّفِقُ أيُّها الأصدقاءُ على مبدأٍ ثابتٍ نَتحاكَمُ إليه جميعًا؛ وهو أنَّه ليسَ مِنَ الإنصافِ ولا مِنَ المقبولِ أنْ نُحاكِمَ الأديانَ بإرهابِ بعضِ المجرمين المُنتسِبين لهذه الأديانِ، لسببٍ منطقيٍّ في غايةِ البساطةِ؛ وهو أنَّ تعاليمَ الأديانِ هي أوَّلُ مَن يَتبرَّأُ مِن هؤلاء المجرمين ومِن جرائمِهم البَشِعةِ اللَّاإنسانيَّةِ.

وإذا كنَّا -نحن المسلمين- لا نَجرُؤُ على إدانةِ اليهوديَّةِ أو المسيحيَّةِ بسببِ ما ارتكبَه بعضُ أتباعِهما ضدَّ المسلمين؛ مِن قتلٍ وتشريدٍ وعدوانٍ -

قديمًا وحديثًا- فلماذا يَتحمَّلُ الإسلامُ وحدَه مسؤوليَّةَ هذه القلَّةِ الخارجةِ على تعاليمِه؟!

نقولُ هذا برغمِ استنكارِ المسلمين وإدانتِهم الصَّريحةِ المُعلَنةِ لجرائمِ هذه التَّنظيماتِ المسلَّحةِ التي تَرفَعُ لافِتةَ الإسلامِ في أمريكا وأوروبَّا، والعالَمِ العربيِّ، وما تقترفه مِن ذبحٍ للرِّقابِ، وتحريقٍ للأحياءِ باسمِ اللَّهِ، وباسمِ الإسلامِ.

والَّذي يَمنَعُنا -أيُّها السَّادةُ- مِنَ الاجتراءِ على محاكمةِ اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ بما فعَلَه بعضُ أتباعِهما بالمسلمين هو أن إيمانَنا بالإسلامِ لا يَكتمِلُ إلَّا بالإيمانِ بهاتين الشَّريعتَينِ، وبجميع الرِّسالات السَّماويَّة السَّابقة، وبالأنبياءِ والرُّسُلِ جميعِهم، وآخرُهم موسى وعيسى ومحمَّدٌ عليهمُ السَّلامُ.

وقد لاحظتُ مِن قراءتي في تاريخِ الحروبِ الصَّليبيَّةِ أنَّ المؤرِّخِينَ المسلمين تَحاشَوا تَسمِيَتَها بالصَّليبيَّةِ، وكانوا يُسمُّونَها حروبَ «الفِرنجةِ» -أي: حروبَ الغُرباءِ- كما لاحظتُ أنَّ كلمةَ «الصَّليبيَّة» لم تَدخُل في الأدبيَّاتِ العربيَّةِ الحديثةِ إلَّا مُترجمةً عن المصطلحِ الأوربِّيِّ (crusade).

إنَّ الرِّسالاتِ السَّماويَّةَ -أيُّها السَّادةُ- هي أولًا وأخيرًا ليست إلَّا رسالةَ سلامٍ إلى البشرِ، بل أَزعُمُ أنَّها رسالةُ سلامٍ إلى الحيوانِ والنَّباتِ والطَّبيعةِ بأَسرِها، وعلينا أنْ نَعلَمَ أنَّ الإسلامَ -كدِينٍ- لا يُبيحُ للمسلمين أن يُشهِرُوا السِّلاحَ إلَّا في حالةٍ واحدةٍ؛ هي دَفعُ العُدوانِ عنِ النَّفسِ والأرضِ والوطنِ، ولم يَحدُث قطُّ أن قاتَلَ المسلمون غيرَهم لإجبارِهم على الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ، لأنَّ الإسلامَ لا يَنظُرُ لغيرِ المسلمين مِنَ المسيحيِّين واليهودِ مِن منظورِ العَداءِ والتوجُّسِ والصِّراعِ، بل مِن منظورِ المودَّةِ والأخوَّةِ الإنسانيَّةِ، وهناك آياتٌ صريحةٌ في القرآنِ -لا يَتَّسِعُ المَقامُ لسَرْدِها- تَنُصُّ على أنَّ عَلاقةَ

المسلمين بغيرِهم مِن المسالِمين لهم -أيًّا كانت أديانُهم أو مذاهبُهم- هي عَلاقةُ المودَّةِ والبِرِّ والإنصافِ.

ويكفي أن نُذكِّرَ هنا بأنَّ الإسلامَ الَّذي أُوحِيَ إلى محمَّدٍ ﷺ لا يُقدِّمُ نفسَه في نصوصِ القرآنِ بحِسبانِه دِينًا نافيًا للمسيحيَّةِ أو اليهوديَّةِ، بل يُقدِّمُ نفسَه بحِسبانِه الحَلقةَ الأخيرةَ في سلسلةِ دِينٍ إلهيٍّ واحدٍ اسمُه «الإسلامُ»، بَدءًا مِن آدَمَ، ومرورًا بإبراهيمَ وموسى وعيسى، وانتهاءً بمحمَّدٍ عليهم جميعًا أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

فكُلُّ هؤلاءِ الرُّسُلِ -في مَنطِقِ القُرآنِ- مسلمون ويُبَشِّرون بدِينٍ إلهيٍّ واحِدٍ اسمُه: الإسلامُ.

ثمَّ إنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ أنَّ أصلَ الدِّينِ واحدٌ في جميعِ هذه الرِّسالاتِ، ومِن هنا يَذكُرُ القرآنُ التَّوراةَ والإنجيلَ بعباراتٍ في غايةِ الاحترامِ والاعترافِ بأثرِهما القويِّ في هدايةِ البشريَّةِ مِن التِّيهِ والضَّلالِ، ولذلك لا نستغرِبُ أن يَصِفَ اللَّهُ تعالى في القرآنِ الكريم كلًّا مِنَ التوراةِ والإنجيلِ بأنَّهما «هدى ونور»، كما يصفُ القرآنَ بأنَّه الكتابُ المُصدِّقُ لِما سَبَقَه مِن الكتابَينِ المقدَّسَين: التَّوراةِ والإنجيلِ:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والإسلامُ وإن كانت تَربِطُه بالرِّسالاتِ السَّماويَّةِ كلِّها عَلاقةٌ عُضويَّةٌ إلَّا أنَّه يَختَصُّ المسيحيِّين بمنزلةٍ شديدةِ الخصوصيَّةِ، فهم -فيما يُقرِّرُ القرآنُ- أقربُ النَّاسِ قاطبةً للمسلمين، والعَلاقةُ بين المسلمينَ والمسيحيِّينَ -فيما

يقرِّرُ القرآنُ الكريمُ- عَلاقةُ مودَّةٍ وإخاءٍ وتَراحُمٍ، والمسيحيُّون -فيما يَصِفُهم القرآنُ أيضًا- أهلُ تواضُعٍ لا يَعرِفون الكِبرَ، ولا يَتكبَّرُون على النَّاسِ ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وأتباعُ عيسى عليه السلام جَعَلَ اللَّهُ في قلوبِهمُ الرَّأفةَ والرَّحمةَ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

وكثيرٌ مِن رجالِ الدِّينِ المسيحيِّ وعلمائِه يُعلِنون سعادتَهم بما يَقرءُونه في القرآنِ وفي الحديثِ النَّبويِّ عنِ المسيحيَّةِ والمسيحيِّين بصورةٍ عامَّةٍ، وبعيسى ومريمَ عليهما السلام بشكلٍ خاصٍّ[(١)].

وفي اعتقادي أنَّ ما في الإسلامِ والمسيحيَّةِ مِن رسائلِ الأخوَّةِ الدِّينيَّةِ كفيلٌ بأن يُقيمَ جسورَ تفاهُمٍ دائمٍ، وتَقارُبٍ مُتواصِلٍ بين المسلمين والمسيحيِّين في الشَّرقِ والغربِ، لو أنَّهم نظروا إلى الإسلامِ والمسيحيَّةِ نظرةً علميَّةً موضوعيَّةً بعيدةً عن طُغيانِ المادَّةِ، وأطماعِ السِّياساتِ، واختطافِ الأديانِ، والمتاجرةِ بقُدسيَّتِها في سُوقِ المصالحِ والأغراضِ، حتَّى لو جاءَ ذلك على حِسابِ المبادئِ الخُلُقيَّةِ والإنسانيَّةِ.

أيُّها السَّادةُ أعضاءَ مجلسِ اللوردات!!

إنَّ ممَّا يُؤسَفُ له أنْ يسودَ العالَمَ كُلَّه ذُعرٌ شَديدٌ مِن الإرهابِ الذي يَتمدَّدُ -اليوم- في كثيرٍ من المناطقِ، فـ: «داعش» إن كانت تتمدَّدُ اليومَ في الشَّرقِ الأوسطِ فإنَّها سوف تُطِلُّ برأسِها غدًا في أيِّ مكانٍ في العالَمِ، ما لم تكُن هناك إرادةٌ عالميَّةٌ جادَّةٌ للتَّصدِّي لهذا الوباءِ المدمِّرِ، وما لم تكن هناك مصارحة في

(١) عبد الرحمن عُطبة: «المسلمون والنصارى»: ٣٤، حلب، سورية، (٢٠٠٧م).

تحليلِ الأسبابِ الَّتي أدَّت إلى ظهورِه وتَمدُّدِه السَّريعِ، وذلك حتى يمكن التَّصدِّي العالَميُّ الجادُّ لهذا الخطرِ الدَّاهِم، وتجفيفُ منابعِه ومصادرِ قوَّته.

وقد ترون معي -أيُّها السَّادةُ!- أنَّه آن الأوان، اليوم قبل غد، أن تأخذَ العَلاقةُ بينَ الشَّرقِ والغربِ في التَّحوُّلِ إلى عَلاقةِ سلامٍ وتعارفٍ يقومُ على الاحترامِ المتبادَلِ للخصوصيَّاتِ والعقائدِ والهُوِيَّاتِ والثَّقافاتِ المُختلِفةِ، والشُّعورِ العميق بالأُخُوَّةِ العالَميَّةِ والإنسانيَّةِ.

وقد تَعجَبُون لو قلتُ لكم: إنَّ رجالَ الأزهرِ تَنبَّهوا قديمًا إلى ضرورةِ هذه الأُخُوَّةِ، حينَ بَعَثَ شيخُ الأزهرِ الشَّيخُ المراغي برسالةٍ إلى مؤتمرٍ عالَميٍّ عُقِدَ في عاصمتِكم هذه «لندن» في ٣ يوليو من عام (١٩٣٦م) وَصَلَ فيها إلى نتيجةٍ حتميَّةٍ؛ هي أنَّه لا سبيلَ للبشريَّةِ في تطويقِ صراعاتِها الدَّوليَّةِ إلَّا بتحقيقِ زَمالةٍ عالَميَّةٍ بين الأُمَمِ كافَّةً، وذلك في برنامجٍ تفصيليٍّ لا تتَّسِعُ له هذه الكلمةُ.

وأؤكِّدُ لحضراتِكم أنَّ الأزهرَ الشَّريفَ يَضَعُ -اليوم- على رأسِ أولويَّاتِه كشفَ القِناعِ عن زَيفِ فِكرِ العُنفِ وسَفكِ الدَّمِ، وانحرافِه الشَّديدِ عن شريعةِ الإسلامِ، وقد عَقَدَ الأزهرُ مؤتمرًا عالميًّا في ديسمبر الماضي، دعا إليه كلَّ مُمثِّلي الكنائسِ الشَّرقيَّةِ ومُختلِفَ الطَّوائفِ الدِّينيَّةَ والعِرقيَّةَ، وعلماءَ السُّنَّةِ والشِّيعةِ والإباضيَّةِ، وغيرَهم، وأَصدَرُوا بيانًا(١) واضحًا لا لَبسَ فيه؛ في تجريمِ العنفِ والتَّطرُّفِ وحرمةِ الدِّماءِ، وبراءةِ الأديانِ السَّماويَّةِ كلِّها مِن قتلِ النَّاسِ والاعتداءِ على حقوقِهم، وقد رَفَضَ البيانُ عمليَّاتِ التَّهجيرِ القَسريِّ التي تُرتَكبُ ضدَّ غيرِ المسلمين في العراقِ، وطالبَ المسيحينَ بالتَّجذُّرِ في

(١) راجع البيان في الملحق ص: ١٩ - ٢٩. وقد طبع في الجزء الأول من أعمال مؤتمر الأزهر العالمي لمواجهة التطرف والإرهاب (القاهرة: ١١-١٢ صفر ١٤٣٦هـ/ ٣-٤ ديسمبر ٢٠١٤م)، ص: ٤٣٧. وطبع الجزء الثاني منه بعنوان: الأزهر في مواجهة المفاهيم المغلوطة.

أوطانِهم، والتَّكاتُفِ معَ المُسلمينَ مِن أَجْلِ مكافَحَةِ هذه العمليَّاتِ التي يدفَعُ المسلمون ثمنَها أضعافَ أضعافَ ما يدفَعُه غيرُ المسلمينَ.

أيُّها السَّادةُ الأعضاءُ..

لقد جئنا إليكم بدعوةٍ مشكورةٍ ومُقدَّرةٍ مِن كبيرِ أساقفةِ كنتربري «البيثوب جاستن ويل بي» وفي نفوسِنا رغبةٌ صادقةٌ لتحقيقِ فَهمٍ مُتبادَلٍ، وتعاونٍ وثيقٍ، واحترامٍ كاملٍ للخصوصيَّاتِ الدِّينيَّةِ والحضاريَّةِ والثَّقافيَّةِ، مِن أجلِ دعمِ سلامٍ عالَميٍّ نَحلُمُ بأن يَنعَمَ به الفقراءُ والأغنياءُ على السَّواءِ.

وما أظنكم -أيها السادة- تستكثرون هذا الحُلمَ على ضيف جاء يقرع أبوابكم، وينشدكم التعاون والتعارف والإخاء، ويذكركم بنداء الإسلام الخالد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

شُكرًا لحسنِ استماعِكم.

* * *

رأيٌ
في حِوارِ الشَّرقِ والغربِ(*)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أيُّها السَّادةُ..

السَّــــلامُ عليكـــم ورحمة اللّه وبركاته

يَسُرُّني باسمي وباسم مجلسِ الحكماءِ أن أُرحِّبَ بكم هنا على أرضِ فرنسا، وفي عاصمتِها العريقةِ، عاصمةِ الأدبِ العالَميِّ والفكرِ الحرِّ، ومهدِ الثَّورةِ الكبرى الَّتي انطلَقَت مِن أرضِها الثَّائرةِ على الظُّلم والقهرِ منذُ أكثرَ مِن قرنَين، وبإرادةِ شعبِها الَّذي حرَّرَ أوروبَّا كُلَّها مِن أغلالٍ وقيودٍ كبَّلَتها قرونًا طِوالًا، واستعبدَتها مرَّةً باسم السُّلطانِ، وأُخرى باسم الدِّينِ، وثالثةً باسمِ الإقطاعِ، ورابعة باسم القوميات والنزعات العرقية والعنصرية، حتَّى باتتِ الثَّورةُ الفرَنسيَّةُ مَعْلمًا مِن أهمِّ معالِمِ التَّاريخ، ومصدرًا لتيَّاراتِ الحرِّيَّةِ والتَّحرُّرِ، وشُعْلةً باقيةً في تَنويرِ العَقلِ الأُوروبِّيِّ وانتشالِه مِن طَورِ الرُّكودِ والجمودِ إلى التَّحليقِ عاليًا في آفاقِ الإبداعِ والعِلم والثَّقافةِ والفنونِ، حتَّى باتت أوروبَّا المعاصرةُ -بكلِّ ما تَزخَرُ به مِن تقدُّم مُذهلٍ في العِلم والمعرفةِ والرُّقيِّ الإنسانيِّ والدِّيمقراطيةِ وحقوقِ الإنسانِ- مدينةً للثَّورةِ الفرَنسيَّةِ ولفرَنسا والفرَنسيِّين؛ فتَحيَّةً لهذا البلدِ، وتحيَّةً لأهلِه، ولكلِّ محبِّي السَّلامِ والعدلِ والمساواةِ بينَ النَّاسِ.

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقيت في المؤتمر الثَّاني لِلقاء الشَّرق والغرب في باريس، في ١٨ من شعبان سنة: ١٤٣٧هـ/ الموافق: ٢٥ من مايو سنة: ٢٠١٦م.

أيُّها السَّـادةُ . .

هذا هو اللِّقاءُ الثَّاني بين حكماءِ الشَّرقِ وحكماءِ الغربِ، بعد اللِّقاءِ الأوَّلِ الَّذي عُقِدَ في مدينةِ فلورنسا -مدينةِ الحوارِ والفنِّ والثَّقافةِ- في الثَّامنِ مِن يونيو من العام الماضي (٢٠١٥م)، والذي أظلَّه -حينذاك- أملٌ قويٌّ في ضرورةِ أن يَبحَثَ حكماءُ الغربِ وحكماءُ الشَّرقِ عن مَخرَجٍ مِنَ الأزمةِ العالَميَّةِ التي وصفْتُها في كلمتي في فلورنسا بأنَّها: «إن تُرِكَت تتدَحرَجُ مِثلَ كُرةِ الثَّلجِ فإنَّ البشريَّةَ كلَّها سوف تَدفَعُ ثمَنَها خرابًا ودمارًا وتخلُّفًا وسَفْكًا للدِّماءِ؛ وربَّما بأكثرَ ممَّا دَفعَتهُ في الحربَينِ العالَميَّتَينِ في النِّصفِ الأوَّلِ مِنَ القرنِ الماضي»[(١)].

ولم تمضِ شهورٌ ستَّةٌ على هذا التخوّفِ الَّذي شابَتهُ مَسحةٌ مِنَ التَّشاؤُم، ومِن مَخاوِفَ ومحاذِيرَ شَتَّى- حتَّى شَهِدَت باريسُ الجميلةُ المتألِّقةُ ليلةً سوداءَ، فَقَدَت فيها مِن أبنائِها قُرابةَ مِئةٍ وأربعين ضحيَّةً، زُهِقَت أرواحُهم في غَمْضةِ عَينٍ، وأُصِيبَ فيها ثلاثُ مئةٍ وثمانٍ وستُّونَ آخَرونَ، في حادثةِ إرهابٍ أسوَدَ، لا يَتمارَى اثنانِ في الشَّرقِ ولا في الغربِ في هَمَجيَّةِ مُرتكبيه وبَرْبَرِيَّتِهم وتَوَحُّشِهم، وتنكُّبِهم للفِطرةِ الإنسانيَّةِ والطَّبيعةِ البشريَّةِ، وكلِّ تعاليمِ الأديانِ والأعرافِ والقوانينِ.

ولعلَّكم تَتَّفقون معي في أنَّ هذا الحادثَ الأليمَ يحدثُ مثله -بل أشد منه دمويَّةً، وأقسى وحشية- كلَّ يوم تقريبًا في الشَّرقِ الأَدْنَى الَّذي غَرِقَ إلى أُذُنَيهِ في مُستنقعاتِ الدَّمِ والثُّكْلِ واليُتْمِ والتَّهجيرِ والهروبِ إلى غيرِ وِجْهةٍ في الفَيَافِي والقِفَارِ، بلا مأوى ولا غِذاءٍ ولا غِطاءٍ . .

ولا رَيْبَ في أنَّ هذه الحَوادِثَ باتَت تَفرِضُ على أصحابِ القرارِ النَّافذِ

---

(١) انظر: كِتاب «الشَّرق والغَرب: نحوَ حِوارٍ حضاريٍّ إنسانيٍّ»: ٣٠.

والمُؤثِّرِ في مُجرياتِ الأحداثِ، أنْ يَتَحَمَّلُوا مَسؤوليَّاتِهم كاملةً أمامَ الضَّمِيرِ العالميِّ والإنسانيِّ، وأمامَ التَّاريخِ، بل أمامَ اللَّهِ يومَ يَقُومُ النَّاسُ لربِّ العالَمين - هذه المسؤوليَّاتُ التي تَفرِضُ عليهم فرضًا أنْ يَتَدَخَّلُوا اليومَ -قبلَ الغَدِ- لِصَدِّ هذا الإرهابِ العالميِّ، وَوَقْفِ حمَّاماتِ الدِّماءِ المسفوكةِ وأكوامِ الأَشلَاءِ المُتناثرةِ من أجسادِ الفقراءِ والمساكين، وأطفالِهم ونسائِهم، والَّتي يُقَدِّمونها كلَّ يومٍ قَرَابِينَ على مذابحِ العَابِثِين بمَصَائِرِ الشُّعوبِ، والغافلينَ عن قِصاصِ السَّماءِ والعدلِ الإلهيِّ، الَّذي قد يُمهِلُ قليلًا، لكنَّه بُكُلِّ تأكيدٍ لا يُهمِلُ ولا يَنسَى..

وفي هذا السِّياقِ تَلزمُ مُطالبةُ العالَمِ أيضًا بالتَّصدِّي لمُحاولاتِ تهويدِ أولى القبلتَينِ وثالثِ الحَرَمَينِ الشَّريفَينِ؛ المسجدِ الأقصَى المُباركِ، وبالتَّمَسُّكِ بسياسَةِ حَلِّ القضيَّةِ الفلسطينيَّةِ حَلًّا عادلًا شاملًا؛ لأنَّ حلَّ هذه القضيَّةِ -فيما يُقِرُّه كُلُّ منصفٍ وعاقلٍ- هو مِفتاحُ المشكلاتِ الكبرى الَّتي تَحُولُ دُونَ التِقَاءِ الشَّرقِ بالغربِ، وتُسمِّمُ العلاقاتِ بين حضارتَيهِما.

أيُّها الحكماءُ الأجِلَّاءُ..

لم يَعُدْ أيٌّ من الشَّرق والغرب اليوم بمَعْزِلٍ عنِ الآخَرِ، كما كان الحالُ في القرن الماضي، ولم يَعُدِ الشَّرقُ هو هذا المجهولُ المُخيفُ، الَّذي تَتَرَامَى أطرافُه فيما وراءَ البِحارِ كما كان يَتَصَوَّرُه الغربيُّون من قبلُ، كما لم يَعُدِ الغربُ هو النَّموذجُ الغريبُ المُنعزلُ الَّذي يستطيعُ الشَّرقيُّون من مسلمين ومسيحيِّين أنْ يَتَجَنَّبُوه، ويُغلِقُوا أبوابَهم دونَهُ، ليستريحوا من خَيرِه وشرِّه..

لم يعُدِ الأمرُ كذلك بعدما تَقَارَبَ ما بينَهُمَا، وانطَوَتِ المَسافاتُ بينَ ضِفَّتَي المتوسطِ، وتَلَاشَتِ الحواجزُ، وهاجر المسلمون واستوطنوا الغربَ، ولم يَعُدْ لهم من وطنٍ غيرُه، كما هاجَرَت فلسفاتُ الغربِ السِّياسيَّةُ

والاجتماعيَّةُ وأنماطُ حياتِه اليوميَّةُ واستوطَنَت عقولَ المُسلمين، فأثَّرَت في رؤاهُم وأنظارِهم، وسَيطَرَت على مساحةٍ -لا يُستهانُ بها- في مناهجِ تفكيرِهم وطرائقِ معاملاتهم وتَصَرُّفاتِهم، ولا تَزَالُ المذاهبُ الاجتماعيَّةُ الغربيَّةُ كاللِّيبراليَّةِ، والقوميَّةِ، واليساريَّةِ تَعملُ عَمَلَها في أذهانِ كثيرٍ منَ المُفكِّرين والسِّياسيِّين الشَّرقيِّين، ورُبَّما بأقوى ممَّا تَعملُ في أذهانِ أهلِها منَ الغربيِّين، بعدَ أن بدَأَت هذه المذاهبُ تَتَراجعُ في الذِّهنيَّةِ الغربيَّة بتأثيرِ العولمةِ، الَّتي تُبشِّرُ العالَمَ بنظريَّةِ النَّواةِ والمركزِ والأطرافِ الَّتي لا تَسمحُ بتقسيمِ العالمِ إلى شرقٍ وغربٍ، يتميَّزُ كلٌّ منهما عنِ الآخَرِ بثقافتِه، وحضارتِهِ، وأكادُ أقولُ: بِدينِه وِلغتِه.

وفيما أعتقدُ؛ فإنَّ هذه العولمةَ لا يُمكنُ أن تكونَ حَلًّا لعلاقاتِ التَّوتُّرِ والتَّربُّص المتبادلة بين الشرق والغرب، أو تُشكِّلُ خطوة على طريق التقائهما وتعاونهما من أجل تحقيق السلام العالَمي، وتوفير السعادة للإنسانية جمعاء.. بل هي بكلِّ تأكيدٍ مرحلةٌ جديدةٌ على طريقِ الصِّراع العالميِّ، بما تُخَبِّئُه في جِرابِها من تدميرٍ لهُويَّاتِ الشُّعوبِ وخصائصِها الَّتي خَلَقَها اللَّهُ عليها، والَّتي لا يُمكنُ لأيِّ شعبٍ منها أن يُفَرِّطَ فيها قبلَ أنْ يُفرِّطَ في حياتِهِ وكلِّ مُمتلكاتِهِ.

ولا مَفَرَّ -أيُّها الحكماءُ الكبارُ- مِنَ التَّفكيرِ في «العالَمِيَّة» بدلًا من «العَوْلَمة»، هذه العالميَّةُ الَّتي عَبَّرَ عنها شيوخُ الأزهرِ -في القرنِ الماضي بعد الحربَينِ العالميَّتين- بالزَّمالةِ العالميَّةِ أو التَّعارُفِ، كَحَلٍّ لانقسامِ العالمِ وتَكْريسِ الثُّنائيَّاتِ الحادَّةِ الَّتي تنهجُ الصِّراعَ وتُشعِلُ الحروبَ.

ويطولُ الحديثُ في بيانِ «عالَمِيَّة الإسلام» ونظرِته للعالمِ كلِّه على أنَّه مجتمعٌ واحدٌ، تتوزَّعُ فيه مسؤوليةُ الأمنِ والسَّلامِ فيه على جميعِ أفرادِه، وقد يُلخِّصُ ذلك ما يَحضرُني في هذا المقامِ من حديثٍ لنبيِّ الإسلامِ ﷺ يقولُ

فيه: «مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللَّهِ والْوَاقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الَّذين في أَسفلِها إذا استَقَوْا منَ الماءِ مَرُّوا على مَنْ فَوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإنْ تَرَكُوهُمْ وما أَرَادُوا هَلَكُوا وهلكُوا جميعًا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعًا»[(١)].

ولا ينبغي أن يَقتصِرَ فَهْمُنا لكَلِمةِ «حُدودِ اللَّهِ» في الحديثِ عَلَى المَعنَى اللُّغويِّ الضَّيِّقِ الَّذي يَروجُ في تُراثِنا الإسلاميِّ، وأعني به الأحكامَ الشَّرعيَّةَ والفقهيَّةَ، بل ينبغي فَهْمُ هذه الحدودِ بالمعنى الأعمِّ الأوسعِ، الَّذي يؤكِّد مبدأَ «العالميَّة» في الإسلامِ، فكما للَّهِ حدودٌ شرعيَّةٌ جزئيَّةٌ، فله أيضًا حدُودٌ كُلِّيَّةٌ كونيَّةٌ على هذه الأرضِ، في مقدِّمتِها: العدلُ والمساواةُ بين البَشَرِ، وتقريرُ الأُخُوَّةِ بينهم؛ لأنَّهم جميعًا يلتقون في أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، وما بينَهم من فروقٍ واختلافاتٍ فَطَرَهم اللَّهُ عليها ليس إلَّا اختلافًا في التَّنوُّعِ والتَّعارفِ والتَّآخي، ومَن يخرجُ منهم على حُدودِ اللَّهِ الكونيَّةِ فيعبثُ بقيمِ العَدالَةِ والسَّلامِ والمساواةِ، فعلى الباقينَ أنْ يأخذوا على يدَيْهِ، وإلا فسوف تَغرقُ سفينةُ الإنسانيَّةِ بمَن عليها مِنَ البَشَرِ ويكونُ مصيرُها الهلاكَ والدَّمارَ، وهذا ما يخشاهُ ويحاذِرُه عُقلاءُ السِّياسةِ وأربابُ العلمِ والفكرِ -الآنَ- شرقًا وغربًا.

على أنَّ العالَميَّةَ الَّتي نتطلَّعُ إليها بديلًا عن «العولمة» لإنقاذِ العالمِ منَ المآسي الَّتي يتردَّى فيها شَطرُه الشَّرقيُّ: الأوسطُ والأقصى - تفرضُ علينا نحن الشَّرقيين إعادةَ النَّظرِ في فَهْمِنا للغربِ وتقييمِ حضارتِهِ، واكتشافِ ما يَسْكنُ هذه الحضارةَ من قيمٍ إنسانيَّةٍ مشتركةٍ، لا يتفاضلُ فيها شرقٌ ولا غربٌ، وكذلك توظيفُ المشتركِ الإنسانيِّ في علاقاتٍ دوليَّةٍ تقومُ على

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٩٣) من حديث النُّعمان بن بَشير ﵄.

التَّعاونِ وتَجنُّبِ الحروبِ، كما تفرض علينا هذه العالمية التي نسعى إليها أن تكونَ نظرتُنا الحديثةُ للغربِ نظرةً موضوعيَّةً تَتَأَسَّسُ على مبدأِ التَّأثيرِ والتَّأثُّرِ، وفلسفةِ التَّعارُفِ والتَّكامُلِ، وتطبيقِ القاعدةِ الذَّهبيَّةِ في أمرِ العلاقةِ بين المسلمين وغيرِهم في الوطنِ الواحدِ، والَّتي يحفظُها التَّلاميذُ في المدارسِ، وهي قاعدةُ: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

فذلِكم هو السَّبيلُ الوحيدُ لأنْ يُكَفْكِفَ الشَّرقيُّونَ مِن غُلَواءِ الرَّفضِ أو -إن شِئتَ- الكَراهيةِ تجاهَ الغَربِ وحَضارَتِه، والتي دَفَعَتِ الكَثيرَ مِن أصحابِ الرَّأيِ والقَرارِ في الشَّرقِ إلى أن يَتعامَلُوا معَ الغَربيِّينَ إمَّا بمَنطِقِ القَبولِ الكامِلِ، وإمَّا بمَنطِقِ الرَّفضِ الكامِلِ، وغير خافٍ أنَّ هذا المَنطِقُ سيُؤدِّي بنا -لا محالة- إمَّا إلى الانتحارِ الحَضاريِّ والانسحابِ مِنَ الحَياةِ، وإمَّا إلى الذَّوَبانِ الكامِلِ في الآخَرِ، وهو أيضًا نَوعٌ مِنَ الانتِحارِ البَطيءِ والتَّلاشِيّ المُتَدَرِّجِ.

أيُّها الإخوةُ..

يَضِيقُ الوقتُ المُحَدَّدُ لكلمتي هذه عن بيانِ القضيَّة الَّتي أراها مدخلًا مناسبًا لالتقاءِ الشَّرقِ بالغربِ، وأعني بها قضيَّةَ «اندماج المسلمين» في أوطانِهم الأوروبيَّةِ، وانفتاحِهم على مجتمعاتِهم، الَّتي وُلِدُوا فيها وصارُوا جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ من نسيجِها الوطنيِّ بكلِّ أبعادِه الاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ والسِّياسيَّةِ، لكنَّها أصبحَت تُشَكِّلُ عَقبةً على طريقِ المَواطنةِ الكاملةِ الَّتي تُمثِّلُ عُنصرَ ثراءٍ وقوَّةٍ للمجتمعِ الأوروبيِّ.

وقد خضعَت ظاهرةُ «الاندماجِ» الإيجابيِّ هذه لدراساتٍ عدَّةٍ، وعُقِدَ من أجلِها أكثرُ من مؤتمرٍ، وكُتِبَ فيها الكثيرُ منَ المقالاتِ والكتبِ، وكلُّها ترصدُ تردُّدَ كثيرٍ من المسلمين في الاندماجِ في مجتمعاتِهم الجديدةِ، خوفًا على هُويَّتِهم الدِّينيَّةِ منَ الذَّوبانِ، كما رَصَدَتْ تَوَجُّسَ المجتمعِ الأوروبيِّ من تَفَكُّكِ مكتسباتِه الحضاريَّةِ إذا ما فَتَحَ الأبوابَ للمُختَلِفِينَ عنه دينًا وثقافةً،

وقد رصَدَ المُحَلِّلون بعضَ العقباتِ على الجانبين: الإسلاميِّ والأوروبيِّ، ممَّا كان له أثرٌ قويٌّ في إقامةِ الحواجزِ والفواصلِ، والتَّهميشِ الَّذي كان أحدَ الأسبابِ في انضمامِ كثيرٍ من الشَّبابِ الأوروبيِّ المسلمِ إلى حركاتِ العنفِ والإرهابِ المُسَلَّح.

وتأتي في مقدِّمةِ مُعوِّقاتِ الاندِمَاج من جانبِ المسلمين-الانتماءاتُ الإقليميَّةُ والولاءاتُ العِرقيَّةُ والاختلافاتُ الطَّائفيَّةُ والمذهبيَّةُ، الَّتي لازَمَتهم في أوروبا ملازمةَ الظِّلِّ، وجعَلَت مِنَ الصَّعبِ عليهم الانخِراطَ في مُجتمعاتِهم، حتَّى نَفَّرَتهم مِن الاختلاطِ بغيرِهم مِنَ الأوروبيِّين، بل مِنَ المسلِمينَ الَّذين يعيشون معهم ويؤمنون بدينِهم، لكنَّهم لا ينتمون إلى إقليمِهم، ولا ينتسبون إلى هُويَّتِهم المذهبيَّةِ والعِرقيَّةِ والطَّائفيَّةِ، .. وقد حمَلَتهم هذه العُزلَةُ إلى الدَّعوةِ لمُفاصَلةِ المجتمعِ الأوروبيِّ نفسِيًّا، والاقتصارِ في مخالطتِهِ على الضَّرُوراتِ.

أمَّا على الجانبِ الأُوروبيِّ فإنَّ الموادَّ الإعلاميَّةَ السَّلبيَّةَ الَّتي تُسِيءُ للمسلمينَ، وتُصوِّرُهم للشَّارعِ الأوروبيِّ على غيرِ حقيقتِهم، تأتي في مقدِّمَةِ العَقباتِ التي تُشَجِّعُ المسلِمينَ على المُفاصَلةِ والتَّقَوقُعِ وعَدمِ الاندماجِ وبخاصَّةٍ تِلكُمُ الرُّسومَ المُسيئةَ لنبيِّهم ﷺ، ونشرُها في الإعلامِ عن عمدٍ وقصدٍ، وجهلٍ تامٍّ بمكانةِ الدِّين ومنزلةِ الأنبياءِ في قلوبِ المسلمينَ شرقًا وغربًا، وكذلكم الخَلْطُ بين الصُّورةِ الحقيقيَّةِ للمجتمعاتِ الإسلاميَّةِ الشَّرقيَّةِ، وبين ما يحدثُ في مناطقِ الصِّراعِ والتَّوتُّرِ من صُوَرِ الدِّماءِ والأشلاءِ..

وممَّا يَرصُدُه الباحثون مِن عوائقَ على طَريقِ الاندماجِ الإيجابيِّ تَسْييسُ الكِيانِ الإسلاميِّ في أوروبا، والمضاربةُ به في بورصةِ الانتخاباتِ لجذبِ مَزيدٍ منَ الأصواتِ ممَّا ينعكسُ سلبًا على علاقاتِ الأوربيِّين بمواطنيهم(١).

(١) يراجع في موضوع الاندماج: بحث د. أحمد جاب اللَّه، بعُنوان: الوسطية بين مقتضيات =

لذلك أقترحُ أن تكونَ قضيَّةُ «الاندماجِ الإيجابيِّ» هذه هي موضوعُ اللِّقاءِ التَّالي، وهو اللِّقاءُ الثَّالثُ بين حكماءِ الشَّرقِ والغربِ، في المكانِ والزَّمانِ اللَّذَينِ يُعلَنُ عنهما فيما بعدُ إن شاءَ اللَّهُ.

وإلى أن نلتقيَ -بإذنِ اللَّهِ تعالى- حولَ هذا الموضوعِ أدعو المواطنين المسلمينَ في أوروبا إلى أن يَعُوا جيِّدًا أنهم مواطنون أصلاءُ في مجتمعاتِهم، وأنَّ المُواطَنةَ الكاملةَ لا تتعارضُ أبدًا مع الاندماجِ الَّذي يُحافِظُ على الهُويَّةِ الدِّينيَّةِ، ولكم -أيُّها المسلمون الأوروبيُّون- في أنموذجِ المدينةِ المُنوَّرةِ بقيادةِ رسولِ اللَّه ﷺ الأُسوةُ الحَسَنةُ، حيثُ أُسِّسَت وثيقةُ المدينةِ، وهي أوَّلُ دُستورٍ عَرَفتهُ الإنسانيَّةُ، على مبدأ المواطنةِ والمُساواةِ في الحقوقِ والواجباتِ بين المواطنين المُختلِفين دِينًا وعِرقًا.

هذا، ولا ينبغي أن تُشَكِّلَ بعضُ القوانينِ الأوروبيَّةِ الَّتي تتعارضُ مع شريعةِ الإسلامِ - حاجزًا يؤدِّي إلى الانعزالِ السَّلبيِّ، والانسحابِ منَ المجتمعِ، فهذه القوانينُ لا تَفرِضُها الدَّولةُ على المسلمين، ولكن إذا أَلزَمَتِ الدولةُ المسلمينَ بما يُخالِفُ شريعتَهم فعليهم حينئذٍ الالتزامُ التَّامُّ باللُّجوءِ إلى القوانينِ الَّتي تَكفُلُ لهم حقَّ التَّضَرُّرِ من هذه القوانينِ، والمطالبةَ بتعديلِها. وما أَظُنُّ الديموقراطيةَ الغربيةَ تضيقُ صدرًا بتمكينِ المسلمينَ -أو غيرِ المسلمينَ- مِن حَقِّ الالتزامِ بشَريعَتِهم، والوقوفِ عندَ حُدودِ اللَّهِ كما تَلَقَّوْها وتَعَلَّمُوها مِن قُرآنِهم وسُنَّةِ نَبِيِّهم.. وهذا حَقٌّ تَتَفَهَّمُه ديموقراطيَّةُ الغَربِ وتستوعِبُه وتَضمَنُه للمؤمِنِ كما تَضمَنُه لغيرِ المؤمِنِ سواءً بسَواءٍ.

وكلمةٌ أخيرةٌ أُوَجِّهُها إلى الدُّعاةِ الأئمَّةِ وإلى كُلِّ مَن يُشارِكُ في خِطابِ

= المواطنة في أوروبا والحفاظ على الهوية الإسلامية، المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث عدد ١٢، ١٣ ص: ٢٥٧ - ٢٧٢.

المسلمينَ وإرشادِهم هنا في أوروبا: أنَّه قد آنَ الأوانُ لأنْ نَنتَقِلَ من فقهِ الأقلِّيَّاتِ إلى فقـهِ الاندماج والتَّعايُشِ الإيجابيَّين، وأن نكون على تذكر دائم لأصول شريعتنا السمحة الَّتي تُقَرِّرُ أنَّ الفتوى تَتَغَيَّرُ بتغيُّرِ الزَّمانِ والمكانِ والأحوالِ والأشخاصِ، وأنَّ التَّكليفَ بحَسَبِ الوُسْعِ، وأنَّ دينَ اللَّهِ يُسْرٌ، وأنَّ المَشَقَّةَ تَجلِبُ التَّيسيرَ، وأنَّ الأمرَ إذا ضاقَ اتَّسَعَ، وأنَّه لا تحريمَ مع الاضطرارِ، ولا وجوبَ مع العجزِ، والمؤمِنُ مُلْتَزِمٌ أمامَ اللَّهِ تعالى بوفاءِ العُهودِ والعُقودِ.. ولا دِينَ لمَن لا أمانةَ له..

واعلم أيُّها المسلِمُ في كلِّ مكانٍ أنَّ النَّاسَ إمَّا أخٌ لك في الدِّينِ أو نظيرٌ لك في الإنسانيَّةِ. ولكُلٍّ حقوقٌ وواجِباتٌ عليك، أقَلُّها: التَّراحُمُ والتَّعارُفُ والبِرُّ والوَفاءُ والقِسط(١).

شُكرًا لحُسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

* * *

(١) لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]..
والقِسطُ: العَدلُ. يقولُ الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ في «المفردات»: ٨٦٨: «إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال».

نَحوَ عالَمٍ مُتكامِلٍ ومُتفاهِمٍ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِنا رَسولِ اللَّهِ.

وبعد:

السَّادةُ الحُكماءُ مِنَ الغَربِ والشَّرق..

الحضور الكريم..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

ولعلَّ اجتماعَنا اليومَ هو أوَّلُ اجتماعٍ مِن نَوعِهِ ينعَقِدُ في الشَّرقِ العربيِّ، وتحديدًا في دولةِ الإماراتِ، تِلكُم الدَّولةُ التي صارَت بفضلِ قيادتِها الرَّشيدَةِ، وحِكمةِ القائمينَ على أمورِها، أُنموذَجًا يُقتدَى به في الانفتاحِ المُتوازنِ والتطوُّرِ المَحسوبِ، ومراعاة الجمعِ بينَ القديمِ والجديدِ، والأصالةِ والمعاصرةِ، والتُّراثِ والحَداثةِ، في انسجامٍ دقيقٍ، وتناغُمٍ يَقِلُّ نظيرُه في نماذجِ الدُّوَلِ الَّتي تحاوِلُ أنْ تأخُذَ طَريقَها نحوَ الرُّقِيِّ والنُّهوضِ.

وما أَظُنُّ أنَّ تاريخَنا العربيَّ المُعاصِر سبَق أن سجَّل لقاءً بينَ حُكَمَاءِ المسلمينَ وحكماءِ المسيحيِّين مِن أتباعِ الكَنيسةِ الإنجيليَّةِ، وفي ظِلٍّ اجتماعٍ مُحَدَّدِ الأهدافِ والغاياتِ، كاجتماعِ اليوم الذي نعوِّلُ عليه كثيرًا -بعدَ اللَّهِ

(*) كلمة افتتاحية ألقيت في المؤتمر الخامس للحوار بين الشرق والغرب المنعقد في أبو ظبي بتاريخ ٢٨ من محرم سنة: ١٤٣٨هـ/ ٣٠ من أكتوبر سنة: ٢٠١٦م.

تعالى- في اتخاذِ خُطوةٍ جديدةٍ على طريقِ بناءِ عالَمٍ متكامِلٍ ومُتفاهِمٍ؛ للعملِ مِن أجلِ تخفيفِ ما يُعانيه النَّاسُ -اليومَ- مِن رُعبٍ وأَلَمٍ ودِماءٍ وحُروبٍ.

وأظنُّكم أيُّها السادةُ الحكماءُ، تتَّفِقُونَ معي في أنَّ أكثرَ المآسي التي باتَت تُعاني منها البشريَّةُ اليومَ إنَّما مرَدُّها إلى شيوعِ الفكرِ الماديِّ، وفَلسفاتِ الإلحادِ، والسياساتِ الجائرَةِ، التي أدارَت ظَهرَها للأديانِ، وسَخِرَت منها ومِن تعاليمِها، ثم أخْفقَت إخفاقًا كبيرًا في توفيرِ بدائلَ أُخرَى غيرَ الدِّينِ، تُحقِّقُ للإنسانِ قَدْرًا مِنَ السَّعادَةِ، أو أَملًا في حياةٍ ذاتِ مغزًى وهدَفٍ، أو تضمَنُ له حُقوقًا كالتي تضْمنُها له الأديانُ الإلهيَّةُ، وفي مُقَدِّمَتِها: حقُّ العَدلِ والمُساواةِ، وحقُّ الحُريَّةِ، وحقُّ الاختلافِ والإحسانِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإنِّي لا أَرتابُ -أيُّها السَّيِّداتُ والسَّادَةُ!- في أنَّ البشريَّةَ باتَت تتطلَّعُ اليومَ -وبشَغَفٍ شديدٍ- إلى العودةِ لجَوهرِ الأديانِ الإلهيَّةِ، وتعاليمِهَا الإنسانيَّةِ والخُلُقيَّة، بعدَ أن جرَّبَتِ الكثيرَ والكثيرَ مِمَّا كادَ يُشْرِفُ بها عَلى هلاكٍ مُحقَّقٍ ودَمارٍ شاملٍ، وبعد أن استبدَّت هذه التجارِبُ بمصائرِ الشُّعوبِ والفُقَرَاءِ وحقوقِهم ومُقدَّرَاتِهم، ورهنتْها بسياسةِ القُوَّةِ والغطرسةِ وفلسفةِ التَّوسُّع، وشهوةِ التَّسلُّطِ، وجُموحِ الفَرْدِيَّةِ والأنانيَّةِ.

وقد اعتقدَ الناسُ في القرنين الماضيينِ أنَّ التقدُّمَ العلميَّ، والتطوُّرَ التِّقْنِيَّ والفلسفيَّ، قد أنهى دورَ الأديان في الحياة، وأحالَها إلى مُتحَف التاريخ، وأنَّ التطوُّرَ الماديَّ أصبح هو الأجدر بقيادةِ الإنسانيَّة، وتولَّى مسؤوليَّة تهذيبِها وترقيةِ شعورِها، وكَبْحِ نوازعِ الشَّرِّ في أبنائها.

غيرَ أنَّ الواقعَ كذَّب هذا الحُلُمَ الجديدَ أوَّلًا بأوَّل، وأحبط ما تعلَّق به من أوهامٍ، وَهْمًا تِلْوَ الآخَرِ، حتى قرأنا في كُتبِ كثيرٍ من الحكماء أن «القرن

التاسع عشر -مثلًا- إذا كان قرنَ المباحثِ العِلميَّة وفلسفاتِ التطوُّرِ، فقد كان أيضًا قرَنَ التوسُّعِ في الاستِعْمَارِ، وتوظيفِ العِلْم والالتواءِ به؛ لتحقيقِ مصَالِح المُستَعْمِرينَ وأطماعِهِم السياسيَّةِ، حتَّى زعَم عُلَمَاءُ هذا القَرنِ ومُفَكِّرُوه أنَّ الأجناسَ البشريَّةَ لا ترجِعُ إلى أصلٍ إنسانيٍّ واحدٍ كما تُقرِّرُ الأديانُ المُقدَّسَةُ، بل إلى أُصُولٍ عِدَّةٍ مختلِفةٍ، راحُوا يلتمِسُونَها في القِرَدةِ العُليا وغيرِها مِنَ الحيواناتِ.. ثُمَّ بنَوْا على هذه المَزاعِمِ نظريَّاتٍ أُخرَى تُفرِّقُ بينَ النَّاسِ، وتُصَنِّفُهُم على أساسٍ مِنَ اللَّونِ والعُنصرِ، وظهَرَت نظريَّةُ الجِنْسِ الآري التي تؤكِّدُ على امتِيَازِه على سائرِ الأجناسِ الأُخرَى، وأنَّه وَحْدَهُ صاحِبُ الفَضلِ في كُلِّ الفُتوحاتِ العلميَّةِ والثقافيَّةِ والحضاريَّةِ»[(١)].. إلى آخِرِ ما هو معلوم من هذه النَّظريَّاتِ المَنْسُوبةِ إلى العِلمِ، والتي كانت تُصْنَعُ صُنْعًا، ثُمَّ تُطرحُ لتبريرِ سياساتِ الاستِعمارِ والتَّسَلُّطِ والاسْتِقواءِ على الآخرِينَ، ضارِبةً عُرْضَ الحائِطِ بما اتَّفقَت عليه الأديانُ الإلهيَّةُ في قَضيَّةِ خَلْقِ الإنسانِ خَلْقًا مُسْتَقِلًّا، وبما تُقرِّرُه في نُصوصِها المُقدَّسَةِ مِن أنَّ قَضيَّةَ بَدْءِ الخَلْقِ ستظَلُّ -مهما تقدَّمَ العِلْمُ وتطوَّرَ- قَضيَّةً (ميتافيزيقيَّةً) لا ينالُها العِلْمُ ولا التَّجرِبةُ ولا المَعامِلُ ولا المُختبراتُ، وصدَق اللَّهُ العظيمُ في قولِه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

ولَمْ يَكُنِ القَرنُ العِشرون بأسعَدَ حالًا مِن سابقِه، فقَد وقَعَت فيه حَربانِ عالميَّتانِ راحَ ضحيَّتَهُما أكثرُ مِن سبعين مليونًا مِنَ القَتلَى، ولم يَكُنْ للدِّينِ بهما صِلَةٌ ولا سَبَبٌ، بل كانَت نَزَعاتُ العِرقِ والتَّفَوُّقِ العُنصريِّ في أُوروبا

(١) انظر في ذلك: «بِلالُ بنُ رباحٍ: داعي السَّماءِ ومُؤذِّنُ الرَّسُول» للعقاد: ٣/ ٤٢٨، «ضمن موسوعة العقاد الإسلاميَّة» دار الكتاب العربي، بيروت» (بتصرف).

مِن أَهمِّ أَسبابِهما . . وبعدَ هاتَينِ الحربَينِ سُرعانَ ما ظَهَرَ سِلاحُ الرَّدعِ النَّوويِّ كرُعبٍ عالميٍّ يتهدَّدُ البَشريَّةَ صباحَ مساءَ[(١)].

ثُمَّ أطَلَّ القَرنُ الواحِدُ والعشرون بسياسةٍ استعماريَّةٍ جديدةٍ، شديدةِ العُنفِ والقَسْوةِ، أصابَكُم منها في الغَربِ ما أصابَكم، غيرَ أنَّا -نَحْنُ العَربَ والمسلمِينَ- نعيشُها هنا في الشَّرقِ واقِعًا حيًّا مَمْزُوجًا -كُلَّ لحظةٍ- بالتُّرابِ والدَّمِ والدُّموعِ والخَرابِ، ولَمْ يَعْدِمْ هذا الاستعمارُ الجديدُ مَن يُفلْسِفُ له النَّظَريَّاتِ الَّتي تُبرِّرُ سياساتِه، كنظريَّةِ صِراعِ الحضاراتِ ونهايةِ التاريخِ والفَوضَى الخَلَّاقةِ ونظريَّةِ المركزِ والأطرافِ.

وما أُريدُ أن أخْلُصَ إليه باختصارٍ -خوفَ الإطالةِ والإملالِ- هو أنَّ التَّقدُّمَ العِلميَّ المُذهِلَ -ولسُوءِ الحَظِّ- لَمْ يُواكِبْه تقدُّمٌ موازٍ في الأَخلاقِ، وأنَّ التَّطوُّرَ التِّقنيَّ -وبخاصَّةٍ في مجالِ صِناعةِ الأَسلِحَةِ الفتَّاكةِ- جاءَ خَالِيَ الوِفَاضِ مِن كُلِّ القِيمِ التي تَضبِطُ خُطواتِه في الاتِّجاهِ الإنسانيِّ الصَّحيحِ، ولُوحِظَ أنَّ الحُروبَ يَزدادُ سَعيرُها وتَشتَدُّ وَطأتُهَا كُلَّمَا تَرَقَّى العِلْمُ في سُلَّمِ التَّطوُّرِ، حتَّى صارَ التقدُّمُ العِلميُّ واندلاعُ الحروبِ كأنَّهما حَلْقَتان مُترابطتانِ، يَدعمُ كُلٌّ مِنهما الآخَرَ ويُقَوِّيه . . وقُلْ مِثلَ ذلك فيما يتعَلَّقُ بالتَّقَدُّمِ والتَّطوُّرِ الذي حَدَثَ في مَيادينِ الفَلسَفةِ والأَدَبِ والاجتماعِ والفُنونِ، فقد تطوَّرَت هي الأُخرَى بعيدًا عَن فَلسَفَةِ الدِّينِ، وفي غَيْبَةٍ مِن قَواعِدِ الأَخلاقِ، وفي استخفافٍ ساخِرٍ مِنَ الأنظارِ العقليَّةِ المُجرَّدَةِ، ومِن الميتافيزيقيا وفي تقاطُعٍ مُتعَمَّدٍ معَ التُّراثِ الإنسانيِّ وكنوزِه الدِّينيَّةِ والفلسفيَّةِ، فجاءَت هذه النَّظريَّاتُ الحديثةُ وإثْمُها أكبرُ مِن نَفْعِها.

---

(١) من كلمة ألقيتها في مؤتمر سانت اجيديو في روما عن أهمية الكنائس المسيحية في الشرق الأوسط ٢٦/ ٢/ ١٤٣٠هـ - ٢١/ ٢/ ٢٠٠٩م.

أيُّها الإخوةُ الأعزَّاء..

ما أَشبهَ اللَّيلةَ بالبارحَةِ! وما أشبهَ مؤتمرَنا هذا بمؤتمرٍ عالميٍّ للأَديانِ عُقِدَ في لندنَ عام ١٩٣٦م، وأَسهَمَ فيه شيخُ الأزهرِ حينذاك «الشيخ/ محمد مصطفى المراغي» برِسالَةٍ بعَثَ بها إلى المؤتمرِ بعُنوانِ: «الإخاءُ الإنسانيُّ والزَّمالَةُ العالميَّةُ»(١).

وقد هالني هذا التَّشابُه -أوَّلًا- بينَ القَلَقِ الذي كانت تعيشُه أُوروبا في ذلِكم الوَقتِ، والقَلَقِ الذي يعيشُه عالمُنا الآن، وثانيًا: هذا التَّشابُه في عناوينِ الرَّسائلِ بينَ الأمسِ البعيدِ واليومِ الحاضِرِ، فرسالةُ الشَّيخِ كانت تبحثُ عَنِ الإخاءِ الإنسانيِّ والسَّلام العالَميِّ، وهو المضمونُ نَفْسُه الذي تبحَثُ عنه رِسالتُنا اليومَ، وهي تتطلَّعُ إلى عالَمٍ مُتكامِلٍ متفاهِمٍ.. وأكبرُ الظَّنِّ عندي أنَّ ما انتهَت إليه رِسالةُ الأَزهَرِ في مؤتمرِ لندنَ سوف يُضِيءُ لنا الطَّريقَ فيما سينتهي إليه لقاءُ أبو ظبي اليومَ.

ويُحْسَبُ لهذه الرِّسالةِ أنَّها -في الوقتِ الذي كان فيه النَّاسُ في الغربِ يتشاءمون إذا بدَأَ صباحُهم برؤيةِ رَجُلِ الدِّينِ- أَعْلَنَت هذه الرِّسالةُ في قَلبِ أُوروبا كُلِّها أَلَّا مَخرَجَ للعالَمِ مِمَّا هو فيه إلَّا بالتَّديُّنِ والاعتصام بالدِّينِ.. وأنَّ عِلَّةَ السُّقوطِ الحضاريِّ في عصرِ ازدهارِ العِلمِ ليس هو الدِّينَ كما استقرَّ في أذهانِ النَّاسِ، وإنَّما هو الإلحادُ والاتجاهاتُ الفلسفيَّةُ الماديَّةُ، وهذا النَّظَرُ النَّقديُّ لم يكن أمرًا يَجْرُؤُ على التَّفَوُّهِ به كثيرون مِن قادةِ الفِكْرِ والإصلاحِ، بل كان مِن أصعَبِ الصَّعبِ -في ذلكُمُ الوقتِ- توجيهُ نقدٍ عَميقٍ لأخلاقيَّةِ العِلمِ إبَّانَ ازدهارِه وقِمَّةِ توهُّجِه، كما لم يكن مِنَ السَّهلِ أن تُنتَقَدَ الفَلسفاتُ الوضعيَّةُ، ويُحذَّرَ مِن افتتانِ العُقولِ بها، ومن سيطرتِها على

(١) رسالة الإخاء الإنساني للأستاذ الإمام المراغي شيخ الأزهر، التي بعث بها إلى المؤتمر العالمي للأديان في لندن، مجلة الأزهر ٧، ١٩٣٦م، ص ٣٠١-٣١١.

النظريَّاتِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ، بل على التفكير الدينيِّ نفسِه؛ حتى اضْطُرَّ بعضٌ مِن رِجالِ الدِّينِ المسيحيِّ، والعُلَماءِ المسلمين، إلى اللُّجوءِ لمحاولاتِ التَّوفيقِ أو التَّلفيقِ بينَ النُّصوصِ الدِّينيَّةِ المُقدَّسةِ، وبينَ ما يُعارِضُها مِن أَنظارِ العُلماءِ والفَلاسِفةِ، حتَّى لو كانت هذه الأنظارُ مُجرَّدَ احتمالاتٍ لم تَصِلْ -بَعْدُ- لمرتبةِ القانونِ العِلميِّ وتتمتَّعُ بما يتمَتَّعُ به مِن يقينٍ وثُبوتٍ. وكثيرًا ما جاءَت هذه الفَلسَفةُ التَّلفيقيَّةُ على حِسابِ النُّصوصِ المُقَدَّسةِ ودِلالَتِها الواضِحةِ، وبَدا لكثيرين آنذاك أَنَّ الدِّينَ يَلفِظُ أَنفاسَه الأَخيرةَ أو يكادُ. .

ولم يَتردَّدِ الشَّيخُ في أن يُعْلِنَ في رِسالَتِه أنَّه لا دَواءَ لهذا السُّقوطِ إلَّا في «التَّديُّنِ والشُّعورِ الدِّينيِّ»، الذي يصِفُه بأنَّه غَريزَةٌ ثابتةٌ في فِطْرةِ الإنسانِ، وأنَّه أقوَى تأثيرًا في قِيادةِ الإنسانيَّةِ نَحْوَ السَّلامِ والعَدْلِ والمُسَاواةِ، مِن كلِّ نَوازعِ الإلحادِ الدَّافِعةِ إلى فَسادِ المجتمعِ الإنسانيِّ. . ويتوقَّعُ الشيخُ اعتراضًا مِنَ الملحدِينَ ومَن عَلَى شاكِلَتِهم مِنَ السَّاخرينَ بالأديانِ مؤدَّاهُ: أنَّ التاريخَ حافِلٌ بمآسٍ وكوارثَ إنسانيَّةٍ «كان فيه الشُّعورُ الدِّينيُّ قُوَّةً طائشةً دفعَت إلى عُنفٍ، وتدميرٍ مُرَوِّعٍ»، وهذا الواقِعُ المحزِنُ صحيحٌ -فيما يرَى الشَّيخُ- لكنَّه يبيِّنُ أنَّ هذه الذِّكرياتِ المُرَوِّعةَ ليس سَبَبُها الدِّينَ، فليس في طبيعَةِ أيِّ دِينٍ مِنَ الأديانِ الإلهيَّةِ ما يؤدِّي إلى أيَّةِ مأساةٍ مِن هذه المآسي التي تُحْسَبُ عليه، وأنَّ السَّبَبَ الحقيقيَّ مِن وَراءِ هذه المآسي هو استغلالُ الشُّعورِ الدِّينيِّ، وتوظيفُه في واقعٍ منحرفٍ، وتحقيقُ أغراضٍ يرفُضُها الدِّينُ نفسُه، بل يُنكِرُها أَشَدَّ الإنكارِ. .

مِن هُنا -أيُّها الإخوةُ والأخوات!- يَبْرُزُ الدَّورُ الخطيرُ المُلقَى على عاتقِنا نَحْنُ -عُلَمَاءَ الدِّينِ ورجالَه- قبلَ غيرِنا، لتَدارُكِ هذه الأَزمةِ التي يَختَنِقُ بها العالَمُ اليومَ، وطريقُ ذلك: أنَّ الأُخوَّةَ العالميَّةَ التي راودَت أحلامَ

الأزهرِ في ثلاثينيَّاتِ القرنِ الماضي -ولا زالت تُراوِدُه حتَّى هذه اللَّحظةِ- تبدأُ مِنَ الأُخُوَّةِ العالَميَّةِ بينَ رِجالِ الدِّينِ أوَّلًا، أو كما يقولُ اللاهوتي الكبير/ هانز كينج: «لا سَلامَ للعالَمِ بدونِ سَلامٍ دينيٍّ»(١).

وعليه؛ فإنَّ عُلماءَ الأديانِ -اليومَ- إذا كانوا ينتوون القيامَ بدَوْرِهم في التَّبشيرِ بالسَّلامِ العالَميِّ، وإحلالِ التَّفاهُمِ محَلَّ الصِّراعِ، وتحقيقِ آمالِ النَّاسِ في عالَمٍ مُتكامِلٍ متفاهِمٍ - فعليهم أن يُحقِّقُوا السَّلامَ والتَّفاهُم بينَهم أوَّلًا، حتَّى يُمكِّنَهم دَعوةُ النَّاسِ إليه.. وهذا ما حَرَصَ الأزهرُ أن يتحرَّكَ في إطارِه، حين بدَأ أُولَى الخُطواتِ العمليَّةِ على هذا الطَّريقِ الطَّويلِ بزيارةٍ رسميَّةٍ لكنيستِكُمُ الموقَّرَةِ: كنيسةِ كنتربري، وسَعِدنا كثيرًا -غبطة الآرش بيشوب!- باستضافتِكم الكريمَةِ لوفدِ الأزهرِ في قصرِ لامبث العامِرِ خِلالَ الفترةِ من ٩-١٢يونيو ٢٠١٥م. ثُمَّ جاءت خُطوةُ الأزهرِ الثانيةِ باتِّجاهِ حاضِرةِ الفاتيكان وزيارةِ البابا فرنسيس، في ٢٣ مايو ٢٠١٦م، ثم كانت الرِّحلَةُ الأزهريَّةُ الثالثةُ باتجاهِ مجلِسِ الكنائسِ العالميِّ بجنيف، خلالَ الفترةِ من ٣٠ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر ٢٠١٦م، وأتوقَّعُ -بمشيئةِ اللَّهِ تعالى- أن تُسْهِمَ هذه الزِّياراتُ كثيرًا في تخفيفِ آلامِ الفُقراءِ والبائسينَ والمحترِقِينَ بنيرانِ الحُروبِ العَبثيَّةِ، والسياساتِ المنحرِفَةِ عن جادَّةِ الدِّينِ والخُلُقِ والضَّميرِ.

وها نحن نجتمِعُ اليومَ في مدينَةِ أبو ظبي اجتماعَ الحِكمةِ والأُخُوَّةِ والمَودَّةِ، نستلْهِمُ العونَ مِنَ اللَّهِ تعالَى، ونتأسَّى بالأنبياءِ والمرسلينَ في اعتمادِهم على اللَّهِ، وتَحَمُّلِهم ما لا تَحْتَمِلُه الجِبالُ الرَّاسياتُ مِن أجلِ إنقاذِ المجتمعِ الإنسانيِّ مِنَ الضَّلالِ، ووَضعِه على طريقِ السَّعادَةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(١) في كتابه: مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي، الترجمة العربية ص ١٤، المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩٨م.

أيُّهَا الضيوفُ الأَعِزَّاء . .

إذا كان لي مِن أملٍ في لقائِنا هذا فهو الرَّجاءُ في أن ننسَى الماضي، وما يبعثُهُ هذا الماضي مِن كراهيةٍ وضغائنَ، وأن ننظرَ إلى الأَمامِ، وأن نتيَقَّنَ أنَّنا لسنا مسؤولينَ أمامَ اللَّهِ تَعالَى عمَّا مضَى من أعمال غيرنا، بل -وبكُلِّ تأكيدٍ- سوفَ يسألُنا عن زمَنِنا هذا الذي نعيشُ فيه وعن واجِبنا تُجاهَه، وعن أمانَتِنا التي اؤتُمِنَّا عليها نحوَ خَلْقِ اللَّهِ وعِيَالِه. وكُلِّي يقينٌ في أنَّ كُلًّا مِنَّا يحمِلُ بينَ جَنباتِهِ عزيمةً صُلبةً ويقينًا ثابتًا، وأملًا لامحدودًا في أنَّ جُهودَنا المشتركَةَ سوفَ تؤتي ثِمارَها يانِعةً في المستقبلِ القريبِ بإذنِ اللَّهِ وهي تتصدى للتَّطرُّفِ الذي يبعَثُ الإرهابَ ويُطيلُ أَمَدَه.

وأَختِمُ كلمتِي إليكم بأنَّ الإسلامَ الذي أَعْتَنِقُه دِينًا -أيُّهَا السَّادَةُ- يُرَحِّبُ أوسَعَ التَّرحيبِ بأيِّ جَهْدٍ يُبذَلُ مِن أجلِ إسعادِ إنسانٍ، أو رحمةٍ بحيوانٍ، أو حمايةٍ لنباتٍ أو جمادٍ.

شُكْرًا لحسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمـــةُ اللَّهِ وبركاته

❊ ❊ ❊

كلمةٌ
إلى المجتمع المسلم في الغرب(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

السَّادة الحضور!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.. وبعد؛

فأبدأُ كلمتي بِحَمدِ اللَّهِ وشُكرِه والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه، وأتوجَّهُ بخالصِ شُكري وعظيم امتناني على هذه الدعوةِ الكريمةِ لحضور هذا اللقاءِ المباركِ، والذي أدعو اللَّه لكم فيه بالتوفيقِ، وتحقيق ما تَتطلَّعون إليه من نتائجَ.

واسمَحُوا لي أن أُعبِّر لكم عن خالِصِ شُكري وعَظِيم تقديري على عَقْدِ هذا اللِّقاء الطيِّبِ، لأنَّنا اليوم في أَمَسِّ الحاجةِ إلى مِثلِ هذه اللِّقاءاتِ التي تَجمَعُ جُهُودَ المسلمين وتُوحِّدُ كلمتَهم وتجعلُهم بُنيانًا واحدًا مَرصُوصًا مُتماسِكًا إذا اشتَكَى منه عُضوٌ تَداعَى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى، وهذا ما يقتَضِي من المسلم ألا يَتعصَّب لرأيٍ أو مَذهبٍ، وألَّا يجعل ذلك سببًا في إثارةِ النعَراتِ الطائفيَّة والمذهبيَّة التي تُؤدِّي بهم إلى الفُرقة والتَّشَرْذُم، وتَبعثُ فيهم الأحقادَ بَدَلاً من أن يكونوا عِبادَ اللَّه إخوانًا، وأن يَتعاوَنُوا على البرِّ والتَّقوى كما أمَرَهم ربُّهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

والإسلام يَأمُر المُسْلِمين بأن يمدُّوا جُسورَ التعاوُنِ بينهم وبين إخوانهم

(*) محاضرة ألقاها فضيلة الإمام الأكبر في أحد المراكز الإسلامية بواشنطن بأمريكا.

في الإنسانيَّة من أتباع الدِّياناتِ الأخرى، وأن يَعمَلُوا على تقوية أواصر الحُبِّ والمودَّة، وأن يُبادِروا لتَحويلِ العَداءِ إلى مَودَّةٍ، والكراهية إلى حُبٍّ وصَداقةٍ، وأن يَبَرُّوهُم ويُقسِطوا إليهم، قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٧، ٨].

وتأتي أهميَّةُ هذا اللقاءِ في أنَّه يُعقَدُ في وَقتٍ عَصِيبٍ تُعانِي فيها المجتمعاتُ الإسلاميَّة في الشرق من أَزماتٍ سياسيَّةٍ واقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ كبيرةٍ تَعصِفُ بأَمنِها وتُهدِّدُ استِقرارَها، ولعلَّ أسوَأَ هذه الأزماتِ أزمةُ الأمنِ على النفس والعِرضِ والمال، والأرضِ والوطنِ، وافتِقادِ السَّلامِ وشُيُوعِ الفَوْضَى والاضطرابِ، وسَيْطرةِ القُوَّةِ، واستِباحةِ حُرماتِ المُستضعَفين، والأقسى من كُلِّ ذلك والأَمَرُّ أنْ تُرتَكبَ الجرائمُ الوَحشِيَّةُ الآن، من قتلٍ وإراقةٍ للدِّماءِ باسمِ الدِّينِ الذي أنزَلَه اللَّه هُدًى ونُورًا ورحمةً العالمين.

ولعلَّ ما يُواجِهُه المسلمون في الغرب من دعواتٍ بالطرد والتَّهميش هو انعكاسٌ لهذه الأزمات الضاريةِ التي تعصف بعالمنا اليوم، وعلى المخلصين من البشَر أن يَعمَلُوا على مُكافحة هذه الأفكار ومُجابَهة مثلِ هذه السُّلوكيات حِفظًا لكَرامة الإنسان الذي فضَّلَه اللَّه على سائر خَلقِه تفضيلًا وأنعَمَ عليه بنِعمةِ العقل والتفكير كي يَقِيَ نفسَه من الوُقوعِ في بَراثِنِ الكُرهِ والحِقدِ وإقصاءِ الآخَر وتهميشِه وهَضْم حُقوقِه بالنَّظَرِ إلى أصلِ الإنسانيَّةِ الواحدِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١].

وبالمِثل فلستُ في حاجةٍ إلى أنْ أُذكِّرَ بأنَّه لَيْسَ من الإسلام في قليل أو كثير ما تقومُ به هذه الجمَاعاتُ الإرهابيَّةُ من قتلٍ وتخريبٍ، تُعاني منه الأُمَّةُ

الإسلاميَّةُ وتَدفَعُ ثمنَه غاليًا من آلافِ اللاجِئين الذين ترَكُوا دِيارَهم قَسْرًا بعد أن خُرِّبَت أوطانُهم، وفقَدُوا زوجاتِهم وأطفالهم هَرَبًا من جَحِيمِ تلك الحروب المُستَعِرة في بلادهم، وقد بدأت المجتمعاتُ الغربيَّةُ تُعَاني أيضًا من هذا الإرهاب الغادر من خِلال تلك الأحداث المأسويَّة التي يَسقُط فيها عشراتُ الأبرياء والضَّحايا الذين لا ذنبَ لهم، الأمر الذي يَستوجِبُ تَضامُنَ الجميع وتَعاوُنَهم لدَحضِ هذا الخطَرِ الذي يُهدِّدُنا جميعًا، ويجعَلُنا نُصِرُّ على المُضِيِّ قُدُمًا نحوَ التَّعاوُنِ والتَّآلُفِ والمودَّة لحِماية أوطاننا جميعًا.

ودائمًا ما يُؤكِّدُ الأزهرُ على مَوقِفِه من القَضايا المختلِفة التي تَشغَلُ الرأيَ العامَّ العالميَّ في اللِّقاءاتِ والمحافلِ الدوليَّة، وبخاصَّة حُرمة الدِّماءِ ومُكافحة الإرهاب والتطرُّفِ، والدَّعوة الدائِمة إلى التسامُحِ الدِّينيِّ والوسطيَّةِ والتَّعارُفِ بين الشُّعُوبِ والعَيْش المشترَك البَنَّاء لخِدمة الإنسانيَّة، ومُواجَهة مَشاكِلِ الفَقر والبيئة والأمراض التي تُهدِّدُ الإنسانيَّةَ، انطِلاقًا من قَوْلِ اللَّه -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله -سُبحَانه جَلَّ شأنه-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

الجَمْعُ الكَريم!

إنَّ اللَّهَ -سبحانه وتعالى -لم يُنزِلِ الأديانَ من لَدُنْهُ لشَقاءِ النَّاسِ، ولا لتَعرِيضِهم للضَّرَرِ والرهبةِ والخوفِ والرُّعب، وإنَّما أنزَلَها نُورًا وهُدًى ورحمةً، والمسلمون على وجهِ الخصوص أبعَدُ الخلقِ قاطبةً عن الإرهابِ، وما يَتولَّدُ عنه من عُنْفٍ، وقتلٍ، وسفكٍ للدَّمِ، وإزهاقٍ للرُّوح.. وأنا شَخصِيًّا لا أعلَمُ دِينًا ولا كِتابًا سماويًّا تَوَعَّدَ سَفْكَ الدِّماءِ بالعُقوبةِ المُغلَّظةِ في الدُّنيا والآخِرة مثل الإسلامِ ومثل القُرآنِ الكريم، فقد أَوْجَبَ القُرآنُ

القِصاصَ في القتلِ العَمْدِ في الدُّنيا، وتَوَعَّدَ قاتِلَ العَمْدِ بجزاءٍ شديدٍ في الدارِ الآخِرة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وكيف يُوصَفُ الإسلامُ بالإرهَابِ وهو الدِّين الذي أعلَنَ رسولُه ﷺ أن المسلم هو «مَنْ سَلِمَ النَّاس مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(١)] وقال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[(٢)].

ولم يَقتَصِرِ الإسلامُ على تحريمِ القَتْلِ وتحريم إسالةِ الدَّم فحَسْب، بل حَرَّمَ تَرْوِيعَ الناسِ وتخويفَهم حتى لو كان التَّرويعُ والتَّخويفُ على سَبيلِ المزاحِ فقال ﷺ: «مَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدةٍ فإنَّ الملائكةَ تلعنُهُ حتَّى يَدَعَهُ، وإنْ كَانَ أخاه لأبيهِ وأُمِّهِ»[(٣)]، وقال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»[(٤)].

وكيف يُتَّهَمُ هذا الدِّينُ بالإرهابِ والعُنفِ والقتلِ والهمجيَّةِ وقد وَصَفَ اللَّهُ النبيَّ الذي حمَلَ هذا الدِّينَ وبَلَّغه للنَّاسِ بأنَّه: «رَحْمَةٌ لِّلْعَالَمِينَ»، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو ﷺ الذي وَصَفَ نفسَه بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[(٥)]، أي: أنا رحمةُ اللَّه المهداةُ للعَالَمين.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٢٧) والنَّسائيُّ (٤٩٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا لفظ النَّسائيِّ، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٠٤) من طريق عبد الرَّحمن بن أبي ليلى، قال: حدَّثنا أصحاب محمَّد ﷺ، به.

(٥) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».

ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

وأُناشِدُ إخوانَنا وأبناءَنا الذين يَعِيشون في أمريكا وفي سائرِ المجتمعات الغربيَّة، أن يُحافظوا على هُويَّتِهم وتعاليمِ دِينِهم، وأن يُقدِّمُوا نموذَجًا صالحًا حيًّا يُجسِّدُ تعاليمَ هذا الدِّينِ الحنيفِ السَّمحِ الذي يَدعُوهم إلى أن يَكُونُوا قُوَّةً فاعِلةً في البِناء الحضَاريِّ الإنسانيِّ أينَما كانوا مثلَما كان أسلافُهم، وأن يُسهِموا في نهضةِ المجتمعاتِ التي يعيشون فيها ويحرصون على رُقيِّها وتقدُّمها، وأن يَحفَظُوا أمنَها واستقرارَها، وألا يَنجَرِفوا وراءَ تلك الدعواتِ المضلِّلةِ التي تُلقِي بهم إلى التَّهلكة وتُعرِّضهم لغَضَبِ اللَّهِ في الدُّنيا والآخِرة.

اسمَحُوا لي أن أتوَجَّه بالنداءِ لقادةِ الغَربِ وساسَتِه بأن يَتَجَنَّبوا التَّعميمَ في الأحكامِ والخلطَ بين تعاليمِ الإسلامِ التي تَدعُوا للرحمة، والإخاءِ والصَّفْحِ، والتسامُحِ والعَفْوِ، وتقومُ على العَدْلِ والإنصافِ والإحسانِ، وما يقومُ به القَتَلَةُ من الإرهابيِّينَ والمُرتَزَقة باسمِ الدِّين، فالإرهابُ لا يَعرِفُ دِينًا ولا يَنتَمِي إلى وطنٍ، وأُذكِّرُكم بأنَّ عُلَماءَ المسلمين ومُؤرِّخيهم كانوا في قِمَّةِ الإنصافِ والموضوعيَّةِ في التفريقِ بين الأديانِ ومبادئها ورُموزها وبينَ انحِرافات المنتسِبين لهذه الأديان.

وخيرُ شاهدٍ على ذلك أنَّ الذي يُراجِعُ كُتُبَ التراثِ الإسلامي يجدُ أنهم كانوا يُسمُّون الحُروبَ الإرهابيَّةَ الصليبيَّةَ بحروبِ الفرنجةِ، ولم يَنسبوها للأديانِ التي نشَبتْ هذه الحروبُ باسمها، بل ما نسَبُوها حتى للصليبِ؛ وعيًا منهم بالفرقِ الشاسعِ بين الدِّين كهدي إلهيٍّ، وبين المتاجِرين به في أسواقِ الأغراضِ والمصالحِ وسِياساتِ التوسُّعِ والهَيْمنةِ، واحترامًا لمعتقداتِ الآخَرين وما يَدِينون به، وهذا ما أكَّد عليه الأزهرُ في المؤتمرِ الذي خصَّصَه لمواجهة الإرهابِ بأشكالِه كافَّة وصُوَرِه في حُضور لفيفٍ من كِبار علماءِ العالمِ الإسلاميِّ بالإضافة إلى الزُّعَماءِ الدِّينيِّين بمختلف الكنائس الشَّرقيَّة، ومُمثِّلي بعض الكنائس الغربيَّة وغيرهم من مُمثِّلي الفِرَقِ العِرقيَّة والدِّينيَّة.

وإنَّ الأزهرَ الشَّريف لمُستَعِدٌّ دائمًا لمدِّ يَدِ العونِ لَكُم، ودَعمِكم بالأئمَّةِ والعُلماء لنشر صحيح الدِّين وتصحيح المفاهيم، وتقديمِ المِنَحِ الدراسيَّة لتعليم أبنائِكم بالأزهر الشريف.

وفي خِتَام كَلِمَتي أَتَوَجَّهُ لَكُم بخالصِ شُكري، وأدعو اللَّه لكُم بدَوامِ التوفيقِ، وأن يَحفَظَكم جميعًا من كُلِّ مكروهٍ، وأن يُبارك جُهودَكم، وأن يُوحِّدَ كلمتَنا جميعًا لما فيه خيرُ الإنسانيَّةِ وسَعادتُها واستقرارُها.

❊ ❊ ❊

كَلِمَةٌ في البَرلَمانِ الألمانيِّ(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحُضورُ الكَرِيمُ..

السَّلامُ عَليكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبرَكَاتُه

اسْمَحُوا لِي في بِدايَةِ حَديثي أن أتقدَّمَ لَكُم بِخَالِصِ الشُّكرِ، لإتاحةِ الفُرصَةِ لِأَن أكُونَ بَينكَم، أتحَدَّثُ إلَيكم وإلى الشَّعبِ الألمَانيِّ العَرِيقِ مِنْ خِلَالِكم، أيُّهَا السَّادَةُ البَرلَمانيُّون، والسَّادَةُ الحُضورُ..

وَكَمْ أنَا سَعِيدٌ بِوجُودِي في مَبْنَى «البُوندستاج» «Deutscher Bundestag» التَّاريخيِّ، الَّذِي تَخْتَزِنُ جُدرانُه ذِكْرَيَاتِ أحْدَاثٍ عَالَميَّةٍ كَانَت نُقْطَةَ تَحوُّلٍ في مَسَارِ التَّارِيخ الأُوروبِّيِّ.

وكيف أنَّ هذا البَرلمانَ الذي استطاعَ أن يَعْبُرَ بالشَّعْبِ الألمَانيِّ مِن مجتمعٍ يتعثَّرُ في أذيالِ الأزماتِ السِّياسيَّةِ والاقتِصَادِيَّةِ والاجتِمَاعيَّةِ، إلَى دَولَةٍ مَرمُوقَةٍ يُشَارُ إليها بِالبَنَانِ كَأُنمُوذجٍ يُحتذَى به في التِّنمِيَةِ المُسْتَنِدَةِ إلى قِيَمِ الحُريَّةِ والعَدْلِ والمُسَاوَاةِ.

وَبِهَذِهِ المُنَاسَبةِ أُحَيِّي السيدةَ المستشارةَ: «أنجيلا ميركل» «Angela Merkel»، وأقدِّرُ لها -باسمِ الأزهرِ الشَّرِيفِ- موقِفَها الإنسانيَّ النَّبيلَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ الفارِّينَ مِن جحيمِ الحُروبِ وويلاتِها في الشَّرقِ،

(*) أصل الكلمة: محاضرةٌ أُلقيت أمام البرلمان الألماني في: ٥ من جمادى الآخرة: سنة ١٤٣٧هـ/ ١٥ من مارس: ٢٠١٦م.

رغمَ ما تعرضت -وتتعرض له- هذه السَّيِّدةُ القويَّةُ المُتميِّزةُ مِن ظروفٍ ضاغطةٍ لم تَستطِع أن تُثنِيَها عن هذا الموقفِ الشُّجاعِ الَّذي سيَكتُبُه لها التَّاريخُ بحروفٍ من نُورٍ، وقد أَصدَرَ الأزهرُ بيانًا شَكَرَ فيه المستشارةَ «ميركل»(١) على أَريَحيِّتِها الكريمةِ تُجاهَ الإسلامِ والمسلمين حين شاركَت في مُظاهراتِ «برلين» المندِّدةِ بـ: «الإسلاموفوبيا»(٢)، وثبَّتَ -في شجاعةِ الأبطالِ- مقولةَ الرَّئيسِ الألمانيِّ الأسبقِ «كرستيان فولف» «Christian Wulff»(٣): «إنَّ الإسلامَ جُزءٌ من ألمانيا»(٤).

وأَستَسمِحُكم -أيُّهَا السَّادةُ البرلَمَانيون!- أن أُقَدِّمَ نفسِي لحضراتِكم بحِسْبَاني رَجُلًا مُسْلِمًا تخصَّصَ في دِراسَةِ الإسلامِ، وفَهِمه كما أرادهُ اللَّهُ

(١) صدَر البيانُ بتاريخ ١٤/١/٢٠١٥، ونصُّه: «يشكرُ الأزهرُ الشَّريفُ الموقِفَ الكريمَ للمستشارةِ الألمانيةِ أنجيلا ميركل ومشاركتها في مظاهراتِ برلين مساءَ أمسٍ، والتي دعَت لها منظماتٌ إسلاميَّةٌ للتنديدِ بالإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام)، ويؤكِّدُ الأزهرُ أنَّ خطوةَ المستشارةِ ميركل جاءت تأكيدًا على ضرورةِ التعايشِ السِّلميِّ بينَ الجميعِ مِن أجلِ تعزيزِ السَّلامِ، وأهميَّةِ عدمِ استغلالِ أي أحداثٍ إرهابيَّةٍ مِن أجلِ إقصاءِ المختلفِ دينيًّا، كما يقدِّرُ الأزهرُ الشَّريفُ باعتزازٍ تصريحاتِ المستشارةِ الألمانيَّةِ بأنَّ الإسلامَ جُزءٌ مِن ألمانيا؛ وذلك في إشارةٍ واضحةٍ منها لدَورِ أربعةِ ملايينَ مسلِمٍ يعيشون ضِمنَ قُرابةَ ٨٠ مليون مواطن ألماني».

(٢) وهي مظاهراتٌ نَظَّمَتها الهيئاتُ الإسلاميَّةُ في ألمانيا يوم الثلاثاء ١٣ من يناير ٢٠١٥م، وذلك بعدَ يومٍ واحدٍ مِن مظاهراتٍ شَهِدَتها عِدَّةُ مُدُنٍ ألمانيَّةٍ لمعارِضِي وأنصارِ حركَةِ «بيغيدا» المعاديَّةِ للإسلامِ.

(٣) هو: «كرستيان فولف» «Christian Wulff»، من مواليد ١٩٥٩م، وهو الرئيسُ الرابعَ عَشرَ لألمانيا، ينتمي لحزبِ الاتِّحادِ الديموقراطيِّ المسيحيِّ، انتُخِبَ رئيسًا لألمانيا في ٣٠ يونيو ٢٠١٠م، واستقالَ في يوم ١٧ فبراير ٢٠١٦م.

(٤) نص تصريحه كما نقلَه عنه موقعُ «دويتش فيلا» «W.D»: «أعلَنَ الرئيسُ الألمانيُّ كريستيان فولف في خطابه يوم ١٣ أكتوبر ٢٠١٠ بمناسبة مرور عشرين عامًا على توحيد ألمانيا: أن الإسلام صار جزءًا من ألمانيا وطالَبَ بكُلِّ وضوحٍ بمزيدٍ مِنَ الاحترامِ له».

للنَّاسِ، وكما بلَّغه لهُم رَسُولُه مُحَمَّدٌ ﷺ، وأنِّي لا انتِمَاءَ لي إلى أيِّ تيَّارٍ سياسيٍّ أو توجُّهٍ حِزبيٍّ، ولا أتبنَّى أيَّةَ أيديولوجيَّةٍ مِن أيديولوجيَّاتِ اليمينِ أو اليسَارِ، أو غيرَها مِن أيديُولوجيَّاتِ العصرِ، ولا أَسعى إلى ذلك، لا اعتقادًا ولا ترويجًا، وإنَّمَا أنَا مُسْلِمٌ مُحِبٌّ للبَشريَّةِ جمعَاءَ، مهمومٌ بقضايا «السَّلامِ» بكلِّ أبعادِه الدِّينيَّةِ والاجتماعيَّةِ والعَالَميَّةِ، أبحثُ عن هذا السَّلامِ، وأتمَنَّاهُ للنَّاسِ -كلِّ النَّاسِ- مَهْمَا اختلفَت أوطانُهم وأجناسُهم وقوميَّاتُهم، وكيفما كانت أديانُهم وعقائدُهم ومذاهبُهم.

إني ما جئتُكم واعِظًا ولا مُتغنِّيًا بمحاسِنِ الإسلامِ بينكم، ولكن جئتُ أُخاطِبُ عَدالتَكُم لإنصافِ هذا الدِّينِ الذي يستحقُّ منكم أن تَدفعُوا عنه ما لَحِقَ به مِن ظلمٍ، ومِن تُهَمٍ يَبرَأُ منها ويُنكِرُها أشدَّ الإنكارِ؛ أُلصقت به بسببِ مِن تصرُّفاتِ قلَّةٍ منحرِفةٍ مِن المُنتسِبينَ إليه، فَهِمَتهُ فَهمًا قبيحًا، وقدَّمتهُ للنَّاسِ في صورةِ دِينٍ دَمَويٍّ يُعادي الإنسانيةَ، ويُدمِّرُ الحضاراتِ.

هذا الدِّينُ -كما تعلمون- دِينٌ مُرتبطٌ بالأديانِ السَّماويَّةِ بِرباطٍ عُضويٍّ لا يَنفصِمُ..

فنحن المسلمين نُؤمِنُ بأنَّ كلًّا مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ هُدًى ونورٌ للنَّاسِ، وأنَّ اللَّاحقَ منها مُصدِّقٌ للسَّابقِ، ولا يَتِمُّ إيمانُنا بالقرآنِ ولا بمحمَّدٍ إلا إذا آمنَّا بهذه الكتبِ السَّماويَّةِ وآمنَّا بمُوسى وعيسى، وبمَن قَبْلَهم مِن الأنبياءِ والمُرسَلين صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم، ونَقرَأُ في القرآنِ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وليس صحيحًا ما يُقالُ عنِ الإسلامِ مِن أنَّه دِينُ قتالٍ أو دِينُ سَيفٍ، فلفظةُ «السَّيف» هذه ليسَت مِن ألفاظِ القرآنِ، ولم تَرِد فيه ولا مرَّةً واحدةً، ويُؤمنُ

المسلمون بأنَّ اللَّهَ أَرسَلَ محمَّدًا رحمةً للعالَمينَ، وليسَ رحمةً للمسلمين فَحسْبُ؛ بل أَرسَلَه اللَّهُ رحمةً للإنسانِ والحيوانِ والجمادِ والنَّباتِ، جاء في القرآنِ الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ عن نفسِه: **«أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ»**[(١)].

ومَن يَفهمْ تعاليمَ هذا النَّبيِّ خارجَ إطارِ الرَّحمةِ العامَّةِ والسَّلامِ العالَميِّ فهو جاهلٌ به وبتعاليمِه، ومُسيءٌ إليه.

والإسلامُ لا يُبيحُ قتالَ غيرِ المسلم بسببِ رفضِه للإسلامِ أو لأيِّ دِينٍ آخَرَ؛ فاللَّهُ كما خلقَ المؤمنين خلقَ الكافرين أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، وعقيدَتُنا أنَّ مِنَ العبثِ الذي تُنَزَّهُ عنه الحِكمةُ الإلهيَّةُ أنْ يخلُقَ اللَّهُ الكافرين ثُمَّ يأمُرُ بقتلِهم واستئصالِهم، فهذا عبثٌ لا يَليقُ بحكمةِ البشرِ، فضلًا عن الحكمةِ الإلهيَّةِ.

وحريَّةُ العقيدةُ مكفولةٌ في القرآنِ بنصٍّ صريحٍ؛ وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقولِه أيضًا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وجاء في الدُّستورِ الَّذي بَعَثَ به النَّبيُّ ﷺ إلى أهلِ اليمنِ: **«مَنْ كَرِهَ الْإِسْلَامَ مِنْ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ لَا يُحَوَّلُ عَنْ دِينِهِ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».
ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المُصنَّف» (١٠١٠٠) عن ابن جُرَيج، قال: «كان في كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى أهل اليمن...».

ولم يُسجِّلِ التَّاريخُ عنِ المسلمين في البلادِ الَّتي حَكَمُوها حالةً واحدةً خَيَّرُوا فيها أهلَ البلادِ بين اعتناقِ الإسلامِ أوِ الموت بالسَّيفِ، بل كانوا يُقِرُّون أهلَ هذه البلادِ على أديانِهم وعاداتِهم وتقاليدِهم، ولا يَرَون بأسًا من العيشِ بجوارِهم والاختلاطِ بهم والتَّزاوُجِ معَهم.

والجهادُ في الإسلامِ ليس مُنحصِرًا في القتالِ الذي هو ردُّ العدوانِ، بدليلِ أنَّ الجهادَ الأكبرَ في الإسلامِ هو جهادُ النَّفسِ والشَّيطانِ ونَوازعِ الشَّرِّ، ويدخُلُ في مفهومِ الجهادِ الشَّرعيِّ كلُّ جُهدٍ يُبذَلُ مِن أجلِ تحقيقِ مصالحِ النَّاسِ، وفي مُقدِّمتِها المجهودُ الذي يُبذَلُ مِن أَجلِ مقاومةِ الفقرِ والجهلِ والمرضِ، وإغاثةِ المحتاجِ، وخدمةِ الفقراءِ والبؤساءِ ومساعدتِهم.

والإسلامُ لا يأمُرُ المسلمين بالجهادِ المُسلَّحِ، ولا يَحُضُّهم عليه إلَّا في حالةِ ردِّ العدوانِ، والتصدِّي للحروبِ التي يَشُنُّها عليهم أعداؤُهم، فهنا يجبُ القتالُ للدِّفاعِ، وهذا النوعُ مِنَ الجهادِ تُقِرُّه كلُّ الأديانِ والأعرافِ والحضاراتِ.

وليس صحيحًا -بل خطأٌ فادِحٌ- ما يُقالُ مِن أنَّ الجهادَ في الإسلامِ هو حملُ السلاحِ لقتالِ غيرِ المسلمين، وتعقُّبُهم والقضاءُ عليهم، وممَّا يُؤسَفُ له أشدَّ الأسفِ أن يُروَّجَ هذا الفهمُ الخاطئُ والتفسيرُ المُغرِضُ لنصوصِ القرآنِ والحديثِ للإساءةِ إلى الإسلامِ والمسلمين.

وشريعةُ الإسلامِ شريعةٌ مؤسَّسةٌ على مبادئِ العدلِ والمساواةِ والحريةِ وحفظِ كرامةِ الإنسانِ، وقد أعلنَ نبيُّ الإسلامِ مبدأَ المساواةِ بين الناسِ في زمنٍ لم يكن فيه العقلُ البشريُّ بالنُّضجِ الذي يؤهِّلُه لاستيعابِ فَحوَى هذا المبدأِ أو التَّنبُّهِ لمحوريَّتِه في حياةِ النَّاسِ؛ لأنَّه لم يكن يعرفُ مجتمعًا غيرَ مجتمعِ الطبقيَّةِ والعبيدِ والسَّادةِ، ومِن قَلبِ هذا الفراغِ أَطلَقَ محمَّدٌ ﷺ

صَرختَهُ الخالدةَ: «**النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ**»[(١)]، ولم تمضِ على وفاةِ النَّبيِّ عشرُ سَنَواتٍ حتى جاءَ الخليفةُ الثَّاني عمرُ بنُ الخطَّابِ ليَصرُخَ في وجهِ أحدِ الولاةِ المسلمين وهو يُعنِّفُه: متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمهاتُهم أحرارًا؟!

وأعتقدُ أنَّ لديكم هنا في أوروبا مِن القوانينِ والتشريعاتِ كثيرًا ممَّا يتطابقُ وتشريعاتِ الإسلامِ -في هذا المجالِ- رُوحًا ونصًّا، وبخاصَّةٍ تلكُم التَّشريعاتِ التي تحفظُ للإنسانِ كرامتَه وتؤمِّنُ له حريتَه، وتحقِّقُ له العدالةَ والمساواةَ مع غيرِه، بغضِّ النظرِ عن انتماءاتِه الدينيةِ أو العرقيةِ.

وهنا أقولُ لأبناءِ دِيني من المسلمين الذين يعيشون في أوروبَّا وأَصبحوا جزءًا لا يتجزَّأُ من النَّسيجِ الأوروبيِّ الاجتماعيِّ المتماسكِ: عليكم أن تُراعوا القِيَمَ العُليَا لمجتمعاتِكم التي تعيشون على أرضِها، وأن تُفيدوا منها في تقديمِ صورةٍ مماثِلةٍ عن الإسلامِ وتعاليمِه السَّمحةِ الجميلةِ التي تحترمُ الآخَرَ، بغضِّ النظرِ عن دينِه أو مِلَّتِه أو جنسِه، وأن تكونوا على ذِكرٍ دائمٍ لقولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]..

فكيف بالذين فتَحوا لكم أبوابَ بِلادِهم ووَفَّروا لكم وسائلَ العيشِ الكريمِ، والتَّعايُشِ المُشترَكِ، وضَمِنُوا لكم حُرِّيَّةَ العَقيدةِ وحُرِّيَّةَ الرَّأيِ والتَّعبيرِ.. إنَّهم لأَحَقُّ وأجدَرُ بأنْ تَبَرُّوهم وتُقسِطُوا إليهم وتَمُدُّوا إليهم يَدَ العَونِ والمَودَّةِ والعِرفانِ بالجَميلِ.

وكم وَدِدتُ لو أنَّ كلَّ مسلمٍ يعيشُ في أوروبَّا كتَبَ هذه الآيةَ في لَوحةٍ جميلةٍ ووضَعَها على مكتبِه أو مَتجَرِه، أو على شاشةِ هاتفِه النَّقَّالِ، ليتذكَّرَ وصيَّةَ القُرآنِ في أنَّ البرَّ الَّذي هو قِمَّةُ الأدبِ والإحسانِ مع الوالدَينِ مطلوبٌ

---

(١) تقديم تخريجه ص: ٢٠٦.

مع مَن يُسالِمُنا ولا يُقاتِلُنا، وأنَّ القِسطَ والعدلَ والوفاءَ هو خُلُقُ المسلمِ مع أخيه في الإسلامِ وأخيهِ في الإنسانيَّةِ سواءً بسواءٍ.

أمَّا المرأةُ فهي في شريعةِ الإسلامِ شريكةُ الرَّجُلِ في الحقوقِ والواجباتِ، وبتعبيرِ نبيِّ الإسلامِ محمَّدٍ ﷺ: «**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»(١).

ولا تظُنُّوا -أيُّها السَّادَةُ: أنَّ ما عانَته المرأةُ الشرقيَّةُ -ولا زالَت تُعانيه- سَبَبُه تعاليمُ الإسلامِ. فهذا زعمٌ باطلٌ، والصَّحيحُ أنَّ هذه المعاناةَ إنَّما لَحِقَتها بسببِ مخالفةِ تعاليمِ الإسلامِ الخاصَّةِ بالمرأةِ، وإيثارِ تقاليدَ عتيقةٍ وأعرافٍ باليةٍ، وتقديمِ كُلِّ ذلك على أحكامِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ فيما يتعلَّقُ بحقُوقِ المرأةِ وشؤونِها بوجهٍ خاصٍّ.

وأنا ممَّن يؤمنون أعمقَ الإيمانِ بأنَّ المجتمعَ المسلِمَ فقَدَ كثيرًا مِن طاقاتِه الخلَّاقةِ والإنتاجيةِ حين سَمَحْنا -نحن المسلمين- بتهميشِ دَورِ المرأةِ، وإقصائها عن مواقعِ التأثيرِ في مجتمعاتِنا الشرقيةِ.

السَّادةُ والسَّيِّداتُ..

إنَّ التعَدُّديَّةَ بينَ النَّاسِ واختلافَهم دِينًا ولُغةً ولَونًا وعِرقًا طبيعةٌ قرَّرَها القُرآنُ الكريمُ، ورتَّبَ عليها قَانُونَ العَلاقةِ الدَّوليَّةِ في الإسلام، وهو قانونُ «التَّعَارُفِ» الذي يَسْتَلزمُ بالضَّرورةِ مبدأَ الحوارِ مع مَن نتفقُ ومَن نختلفُ معه، وهذا ما يَحتاجُه عالَمُنا المُعاصِرُ الآنَ؛ للخروجِ من أَزَماتِه الخانقةِ، ومِن هنا كان مِن الصَّعبِ على المسلم أن يتصوَّرَ صَبَّ النَّاسِ والأُمَمِ والشعوبِ في دِينٍ واحدٍ أو ثقافةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ مشيئةَ اللَّه قَضَت أن يَخلُقَ الناسَ مُختلِفينَ حتى في بَصَماتِ أصابعِهم، يقولُ القرآنُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۙ﴾ [هود: ١١٨].

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٦) والتِّرمذيُّ (١١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وله شاهد من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٧١١٨) وغيره.

والمؤمنُ بالقرآنِ لا يرتابُ في أنَّه ليس في إمكانِ قوَّةٍ على وَجهِ الأرضِ ولا حَضارةٍ مِنَ الحضاراتِ أن تُبدِّلَ مَشِيئةَ اللَّهِ في اختلافِ النَّاسِ، وأنَّ هذه النَّظَرِيَّاتِ الَّتي تُبَشِّرُنا بجمعِ الناسِ على دِينٍ واحدٍ أو ثقافةٍ مركزيَّةٍ واحدةٍ إنْ هي إلَّا أحلامُ يقظةٍ، أو خيالٌ يُداعِبُ أحلامًا تشبه أحلامَ الطُّفولةِ.

وَمِنْ هُنَا؛ كان مِن الطبيعيِّ والمنطقيِّ أن يَنفتِحَ الإسلامُ على المسيحيِّين واليَهُودِ انفتاحًا لافتًا للنظرِ، ويَمُدَّ معهم مِن جسورِ العيشِ المُشْتَرَكِ والسَّلامِ المُتبادَلِ ما يَصِلُ إلى إقرارِ زواجِ المُسْلِمِ من مَسِيحيَّةٍ أو يَهُوديَّةٍ تبقى على دينِها معَ زوجِها المُسْلِمِ، ولا يجوزُ لزوجِها المسلمِ أن يَحُولَ بينها وبين الذَّهابِ إلى كنيستِها أو مَعْبَدِها، أو يَمنَعَها من مُمَارسةِ شعائرِها في بيتِ زوجِها المسلم.

ولَعَلَّ بعضَكم الآنَ يَتهامَسُ مُعترِضًا على ما أقولُ، أو مُتسائلًا مُستنكِرًا لِما سَمِعَ: إذا كان الإسلامُ والمسلمون بهذه الصُّورةِ المُشرِقَةِ المُضيئةِ، فكيف زعمت الحركاتُ الدِّينيَّةُ المُسَلَّحَةُ أنَّها تخرج مِن عباءَةِ الإسلامِ والمسلمين -مِثلَ «داعِش» وأَخواتِها- تَقْتُلُ وتُدَمِّرُ وتقطَعُ الرِّقَابَ بِاسمِ اللَّهِ وبِاسمِ الإسلامِ وشريعتِه؟ ألا تَهدِمُ هذه المَشاهِدُ اللاإنسانيَّةُ المُرعبةُ كلَّ ما قُلتَه عنِ الإسلامِ مِن أنَّه دِينُ السَّلامِ والأُخُوَّةِ الإنسانيَّةِ والتَّراحُمِ بينَ النَّاسِ؟

وإجابتي على هذا السُّؤالِ -باختصارٍ- هي: لو أنَّ كلَّ دِينٍ مِنَ الأديانِ السَّمَاويَّةِ حُوكِمَ بما يَقترِفُه بعضُ أتباعِه مِن جرائمِ القَتلِ والإبادةِ لَمَا سَلِمَ دِينٌ مِنَ الأديانِ مِن تُهَمةِ العُنفِ والإرهابِ؛ لأنَّ الإرهابيِّين الَّذين يُمارِسونَ جرائمَهم باسمِ الأديانِ موجودون في كل دين وملة ومعتقد، وإن كانوا لا يمثلون أديانهم وعقائدهم، بل هم -في حقيقةِ الأمرِ- خائنون لأماناتِ الأديانِ التي يَزعُمون أنَّهم يُقاتلون مِن أجلِها.

إنَّ الأديانَ إنَّما تُفهَمُ مِن تعاليمِها الإلهيَّةِ، ومِن تطبيقاتِ الأنبياءِ الَّذين

حَمَلُوا هذه التَّعاليمَ وبلَّغوهَا للنَّاسِ ودَعَوهُم إليها، هكذا كانت رسالةُ سيِّدِنا محمَّدٍ، وهكذا كانت رسالةُ سيِّدِنا عيسى وسيِّدِنا موسى، وكلُّ رسالاتِ السَّمَاءِ إلى البَشرِ.

ثُمَّ إنَّ هذا الإرهابَ الَّذي نُعانيه جميعًا الآنَ أدَانَه العَالَمُ الإسلاميُّ كلُّه؛ شعوبًا وحكوماتٍ وأزهرَ وكنَائِسَ وجامعاتٍ ومفكِّرين ومثقَّفين وغيرَهم، وتكررت هذه الإدانات مع كل حادثٍ إرهابيٍّ في الشرق أو الغرب، ولَكَمْ تَنادَيْنا بأنْ نَقِفَ جميعًا -مسلمِينَ وغيرَ مسلمِينَ- صَفًّا واحِدًا لمجابهةِ التطرفِ والإرهابِ والظلمِ بجميعِ أشكالِه، وأن نَبذُلَ أقصى ما يُمكِنُ بَذلُه مِن أَوجُهِ التعاونِ مِن أجلِ القضاءِ على هذا الوباءِ القاتلِ.

ثمُّ إنَّ الإرهابَ لا يُفَرِّقُ بين ضَحايَاه ما داموا لا يَعتنقون أيديولوجيَّتَه وأفكارَه المُتطرِّفةَ، وإذا كان البعضُ لا يزالُ يعتقدُ أنَّ الإسلامَ يُسوِّغُ جرائمَ الإرهابِ، فعلى هذا البعضِ أن يتذكَّرَ أنَّ المُسلِمين هم مَن يدفعون ثمنَ هذا الإرهابِ مِن دمائِهم وأَشلاءِ أجسادِهم ونسائِهم وأطفالِهم أضعافَ أضعافِ ما يَدفعُه غيرُ المسلمين مِن ضحايا هذا الوباءِ، فكيف يَصِحُّ في الأذهانِ أن يُنسَبَ الإسلامُ إلى هؤلاءِ القَتَلةِ الذين يَبرَأُ منهم الإسلامُ والمسلمون أَنفُسُهم؟!

ولعلَّكم تتفقون معي في أنَّه لا مفرَّ للشرقِ والغربِ، حيالَ هذا الإرهابِ العابرِ للقارَّاتِ، مِن انفتاحٍ حقيقيٍّ مُتبادَلٍ بين الأديانِ والمؤمنين بها، كما لا مفرَّ مِن عَقدِ «معاهَدَةِ سَلامٍ» أوَّلًا بين رجالِ الأديانِ وعلمائها قَبلَ الدَّعوةِ إليه بينَ النَّاسِ، وأنا مِمَّن يؤمنون بالشِّعارِ الذي أطلقَه منذُ وقتٍ قريبٍ اللاهوتيُّ المعاصِر «هانس كينغ» «Hans Kung» وأعلن فيه أنَّه: «لا يُمكِنُ أن يكونَ ثَمَّ سلامٌ بين الشعوبِ مادام لا يكونُ ثَمَّ سلامٌ بين الأديانِ»(١).

(١) «مشروعٌ أخلاقيٌّ عالَميٌّ: دَورُ الدِّياناتِ في السَّلامِ العالَميِّ»: ٢٦٧.

وهو الشِّعارُ نفسُه الذي أطلقَه شيخُ الأزهرِ محمد مصطفى المراغي في لندن عام (١٩٣٦م) عندما نادى بالزَّمالةِ العالَميَّةِ بينَ رِجالِ الأَديانِ، وبالفَهمِ الصحيحِ المتبادَلِ بين حضارةِ الغربِ وحضارةِ المسلمين.

واسمحوا لي -أيها السادة:- أن أقولَ: إنَّني حين أتحدَّثُ عن مجتمعاتِكم بشيءٍ مِن الإعجابِ بِما تتخِذُونَه مِن سياساتٍ تقومُ على المُسَاواةِ والدِّيمُوقراطيَّةِ ورعايةِ حُقُوقِ الإنسانِ، يَسألُني البعضُ مُستنكِرًا: إذا صحَّ ما تقولُ مِن استقرارِ هذه القِيَمِ النَّبيلَةِ بينَ الشُّعوبِ الأوروبيَّةِ، فإنَّنَا لا نَرى شيئًا من ذلك في كثيرٍ من مواقفِ الغَربِ حِيالَ البلادِ الإسلاميَّةِ، فالكثيرون في الشَّرقِ العَربيِّ والإسلاميِّ لا يعرفون مِن الغربِ إلا سياسةَ الكيلِ بمِكيالَينِ، وسياسةَ المصالحِ الخاصَّةِ التي لا تُراعي مصالحَ الشعوبِ، ويضربون مِن الأمثلةِ على ذلك ما حدَثَ في «العراق» و«ليبيا» وغيرِهما.

ورسالتي إلى حُكماءِ الغَربِ وسِياسِيِّيهم أنْ يعملوا على تغييرِ هذه النَّظرةِ التي تُعَكِّرُ كثيرًا مِن صَفاءِ العَلاقاتِ الإنسانيَّةِ بينَ الشَّرقِ والغَربِ، وقد آنَ لنا أنْ نبدأَ معًا صفحةً جديدةً نعملُ فيها على ترسيخِ السَّلامِ العَالميِّ، وإخمادِ نِيرانِ الحروبِ، ووقفِ شلَّالاتِ الدماءِ والفِرارِ من الأوطانِ، ونتصَدَّى لحَلِّ القضيةِ الفلسطينيَّةِ حلًّا عادلًا يضمنُ السلامَ العادِلَ والاستقرارَ في المنطقةِ؛ وهذه يدي ممدودةً إليكم للعملِ سويًّا مِن أجلِ هذه الأهدفِ الإنسانيةِ النبيلةِ، فهل من مُجيبٍ؟!

أيها السادة..

إنَّ الديموقراطيَّةَ الَّتي نتطلَّعُ لأن تُرفرِفَ أعلامُها عاليةً خفَّاقةً في بلادِنا العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، لا يُمكِنُ أن تتحقَّقَ بالحروبِ وصراعِ الحضاراتِ والفوضَى الخلَّاقةِ وأنهارِ الدِّماءِ وتجارةِ السِّلاحِ، وإنَّما بالتبادلِ الحضاريِّ

بيننا وبينكم، والحوارِ المتكافئِ غيرِ المُستبدِّ، وتَبادُلِ برامجِ التعليمِ والصناعةِ والتكنولوجيا.

وَمَعَ أنَّ الأزهرَ دائمُ الاهتِمامِ بتجديدِ خطابِه ومناهِجِه التعليميَّةِ، إلَّا أنَّه ضَاعَفَ مِن هذه المَهَمَّةِ في السَّنَواتِ الأخيرةِ، ويَضيقُ الوقتُ عن سَردِ الخُطَّةِ الشَّاملةِ للتجديدِ والتطويرِ، ويكفي أنْ تَعْلَمُوا أنَّ عُلَمَاءَ الأزهرِ يَتصَدَّون الآنَ في كلِّ مكانٍ للأفكارِ المَغلُوطةِ، التي تُحرِّفُ الدِّينَ، وتَستغِلُّه في الدعوةِ إلى الفِتنةِ العَمْيَاءِ الَّتي تَسْتَحِلُّ الدِّمَاءَ وتُدَمِّرُ الأوطَانَ، وذلك مِن خلالِ وسائلَ عدَّةٍ؛ منها القوافلُ التي تَجُوبُ العالَمَ للدعوةِ إلى السَّلامِ العالميِّ، وتُحصِّنُ عقولَ الشبابِ من التَّردِّي في بُؤرةِ الإرهابِ، وكذلك من خلالِ مَرصَدِ الأزهرِ الإلكترونيِّ الذي يَعمَلُ بلغاتٍ عدَّةٍ، ونتوقَّعُ له انتشارًا عالميًّا في المستقبلِ القريبِ.

وقد عقدَ الأزهرُ مؤتمرًا في شهر صفر: ١٤٣٦هـ/ ديسمبر: ٢٠١٤م، دعا إليه علماءَ المسلمين من الشِّيعةِ والسُّنَّةِ والدُّروزِ ورُؤساءَ الكنائسِ الشرقيَّةِ وبعضَ الكنائسِ الغربيةِ وممثِّلَ الإيزيديِّين من العراقِ، وانتهى المؤتمرُ في بيانِه الجماعيِّ إلى إدانةِ الجماعاتِ المسلَّحةِ، والمليشياتِ التي تنتهجُ العنفَ والإرهابَ وتُروِّعُ الآمِنين، كما انتهَى إلى إعلانِ أنَّ المسيحيِّينَ والمسلمينَ في الشرقِ إخوةٌ، عاشوا معًا على مدى قرونٍ عديدةٍ، وأنهم عازِمُون على مواصلةِ العيشِ في دولةٍ وطنيةٍ تُحقِّقُ المساواةَ وتحترمُ الحرِّيَّاتِ، وأنَّ التعرُّضَ للمسيحيِّين وغيرِهم بِاسمِ الدِّينِ هو خروجٌ عن تعاليمِ الإسلامِ، وأنَّ التهجيرَ القَسْريَّ جريمةٌ مُستنكَرةٌ، نُجمِعُ على إدانتِها، وقد ناشدَ الأزهرُ المسيحيِّين أن يتجذَّروا في أوطانِهم حتى تَزُولَ موجةُ الإرهابِ الذي نُعاني منه جميعًا.

واليومَ يُدِينُ الأزهرُ جميعَ الأعمالِ الوحشيَّةِ التي يَقترِفُها دُعاةُ الإرهابِ، والتي كانت «ساحل العاج»[١] آخِرَ مَسارِحِها الكريهةِ، ولا يَفُوتُنا هنا أن نُعزِّيَ أُسَرَ الضَّحايا، والشعبَ الألمانيَّ في ضحيَّتِه في هذا الحادثِ العَبَثيِّ المؤسفِ.

ونحن نَعلَمُ أنَّه يعيشُ في أوروبا اليومَ ما يَقْرُبُ مِن عشرين مليون مُسْلِمٍ، معظمُهم وُلِدَ في أوروبا وأصبحَ أوروبيًّا، وأقولُ: إنَّه يجِبُ أنْ يتمتَّعَ هؤلاء جميعًا بالمُسَاواةِ بينهم وبين المُواطِنين مِن أصولٍ أوروبيةٍ، وألَّا تتركوهم يشعرون بأنَّهُم مُهَاجِرون يَعيشُون على هامِشِ مُجتَمَعاتِهم، ويفتقدون ولاءَهم لمجتمعِهم الذي ينتمون إليه، فالولاءُ للأوطانِ هو «المَناعَةُ» القَويَّةُ الَّتي تَقِفُ ضِدَّ الانزلاقِ إلى التَّطَرُّفِ والعُنفِ.

هذا، وإنَّ شُعوبَ الشَّرقِ العَربيِّ والإسلاميِّ لَتَنظُرُ إلى أوروبا باعتبارِها الشَّريكَ الأقربَ في حضارةِ البحرِ المُتوسطِ، ومِن ثَمَّ فإنَّ هذه الشعوبَ تُعوِّلُ عليكم كثيرًا في نهضتِها التنمويَّةِ والعلميَّةِ، ولا يكونُ ذلك إلا بالتعاونِ المثمرِ، وباحترامِ إرادةِ هذه الشُّعوبِ في اختيارِ مصائرِها، ورسمِ مستقبلِها.

ومرَّةً أُخرى أُكَرِّرُ ما قُلتُه آنفًا؛ مِن أنَّ الأزهرَ إنَّما جاءَ لِيَمُدَّ يدَه إليكم، وإلى الاتِّحادِ الأوروبيِّ من خلالِكم، مِن أجلِ ترسيخِ عَلاقاتِ الإخاءِ الإنسانيِّ، والسَّلامِ العالَميِّ بين الشَّرقِ والغَربِ بصفةٍ عامَّةٍ، وبينَ الأزهرِ والمواطنين المُسْلِمين في أوروبا خاصَّةً، والَّذين أتوجَّهُ إليهم في ختامِ كَلِمَتِي أمامَ هذا البَرلَمَانِ العَريقِ بأنْ يُمثِّلوا النموذجَ الإنسانيَّ الرَّاقيَ

(١) قام عددٌ مِن المُسلَّحِين بإطلاقِ النَّارِ مِن زَوْرَقٍ في البحرِ على شاطئِ إحدَى المُدُنِ السِّياحيَّةِ فيه؛ ممَّا أدَّى إلى سُقوطِ عَدَدٍ مِنَ القَتلَى والجَرحَى مِن جَرَّاءِ هذا العَملِ الإرهابيِّ في يوم ١٣/٣/٢٠١٦م، وذلك قبل إلقاءِ هذا الخطاب بيومَين اثنين.

لتطبيقاتِ الدِّينِ الإسلاميِّ، ولتَعاليمِ نبيِّهم الَّذي بُعِثَ رَحْمَةً للعالَمينَ جميعًا، وليس للمُسْلِمين وَحدَهم.

والأزهرُ مستعدٌّ لتقديمِ المناهجِ التعليميَّةِ التي تحمِي أبناءَ المسلمين -في أوروبا- مِنَ الاستقطاباتِ المنحرفةِ، وتُعينُهم على تمثيلِ دِينِهم الإسلاميِّ بحِسبانِه دِينًا مُؤَهَّلًا للتعايشِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وليَتَذَكَّرِ المسلمون هنا أنَّ دِينَهم هذا كانت له في قلبِ أوروبا إضاءاتٌ إنسانيةٌ وحضاريةٌ، لا يزالُ صَداها يتردَّدُ في أَروِقةِ الجامعاتِ الأوروبيةِ حتى يومِ الناسِ هذا، وحسْبُنا ما شَهِدَ به الأديبُ الألمانيُّ «جوته» «Goethe» ومِن قبلِه الأديبُ والناقدُ المسرحيُّ «ليسنج» «Lessing» للإسلامِ وحضارةِ المسلمين.

لقد أطلتُ عليكم، وعُذري أَنَّني جئتُ إليكم وفي قلبي أملٌ، بل آمالٌ تتردَّدُ في قلوبِ مليار وسبعمائةِ مليون مسلمٍ، وكُلُّها تَتَطَلَّعُ إلى تعايشٍ سِلميٍّ وحوارٍ حضاريٍّ بينَ الشَّرقِ والغربِ، وليسَ أقدرَ على تحقيقِ هذه الأمنيَّةِ مِن هذا البرلمانِ العريقِ، الَّذي يُمثِّلُ شعبًا عرَفَ الحرِّيَّةَ والدِّيموقراطيَّةَ وقَدَّرَهما حق قدرهما، ويَسْتَحِقُّ أن نُعوِّلَ عليه في عَلاقاتٍ مُتميِّزةٍ في المستقبلِ إن شاءَ اللَّهُ.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

***

الشرق والغرب..
وامتلاك الحقيقة المطلقة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السَّادة أعلام المنصَّة.. الحضورُ الكريم..

أُحييكم بتحيَّة الإسلام، بل بتحيَّة الأديان الإلهيَّة، وهي:

السَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

أنا عائدٌ لتوِّي من جلسةٍ مطوَّلة مع أخي العزيز، حضرة البابا فرنسيس، بابا الفاتيكان، استعرَضنا فيها كثيرًا مما يُقلق ضميرَ الإنسانية، ويَحمل لها الألَم والشَّقاء، واستشرَفنا معًا آفاقَ المستقبل من أجل العمَلِ المشترَك لرفع المعاناة عن الفقراء، والبؤساء، والمستضعفين في العالم.

والحقيقةُ أنَّني مُستبشر كلَّ الاستبشار بهذا الرجل الرَّمز والنَّادر في أيامنا هذه.. فهو الرَّجلُ الذي يَحمل بين جنبيه قلبًا مفعمًا بالمحبَّة، والخير، والرغبة الصَّادقة في أن يَنعم النَّاس -كلُّ الناس- بالسَّلام والتعايش المشترك، وتكامل الحضارات، وتبادل الحضارات.

هذا؛ وإنِّي لأهدفُ من كلِمتي أمامَ حضراتكم إلى غايةٍ مُحدَّدة؛ هي: الاقتناعُ بضرورةِ الحوار بين الشَّرق والغَرب، وحَتميَّةِ استمراره بين حُكماء الفريقين وعُقلائهما، لانتشالِ حضارتنا المعاصِرة مِمَّا أوشك أن يعودَ بها

(*) أصل هذه الكلمة ألقيت في الملتقى العالمي الثالث، بعنوان: الشرق والغرب.. نحو حوار حضاري، المنعقد بمقر المستشارية الرسولية، بمدينة روما الإيطالية، بتاريخ: ١٧ من صفر سنة: ١٤٣٩هـ، ٧ من نوفمبر سنة ٢٠١٧م.

إلى عصورِ الجَهْل والظَّلام، على سبيلِ الحقيقة وليس على سبيلِ المجاز.

لقد أصبح العُنف المتبادل بين الشَّرق والغَرب اليوم هو السِّمَةَ البائسة التي تعزل حضارتَنا المعاصرة عن باقي الحضارات الإنسانيَّة، التي عَبرَت على صفحات الأزمان والآباد، وأرجو ألَّا أذهب بعيدًا لو تصوَّرتُ أن حضارة إنسان القرن الواحد والعشرين لا تُمثِّل إلَّا تراجُعًا حضاريًّا مُخيِّبًا للآمال، إذا ما قُورِنت بحضارة القرن العشرين، وأنَّ القرن الماضي إذا كان قد حفَلَ في مُنتَصَفِه الأوَّل بحربَيْنِ عالَميتين راحَ بسببهما أكثر من: ٧٠ مليون ضحيَّة، إلَّا أن صُنَّاع الحروب والنَّافخين على نيرانها سُرعان ما أدركوا فداحة الثمن، وتفاهةَ البواعث، التي لم تكن تستحق قطرة واحدة مما أُهْدِر من دماء في هذه الحروب.

ورغم أن بُلدان العالم قد انقسَمت في ذلكم القرن إلى معسكرين متنافرين أشدَّ التنافر؛ فكرًا، وفلسفة، واقتصادًا، إلَّا أنَّ الحرب الباردة التي كانت تَضبطُ ميزان التَّعادل بين المعسكرين المتعاديين؛ كانت حربًا بلا دماء ولا أشلاء، وربما توفَّر للأمم والشُّعوب في ظلال هذه الحرب، المتوترة حيًنا والمتراخية حينًا آخر، كثيرٌ من الشُّعور بالأمن والاستقرار، والإحساس بأن زمنًا جديدًا أظلَّ الناس، لا حرب فيه، ولا موتَ، ولا دمار، وإنْ سيطَر عليه قَدْرٌ من الخوف من المجهول، يَشتدُّ أحيانًا، ويَفْتُر في أكثر الأحايين.

ثمَّ جاءَ سقوط المعسكر الشيوعي في نهاية القرن الماضي، وتلاه انهيارُ الأنظمة السياسيَّة الحاضنة للفلسفة الشيوعيَّة، نظامًا وراء آخر، وتَوَهَّمْنا يوم ذاك أنَّ أسبابَ الصِّراع بين الشَّرق والغَرب قد آذنت بالغروب؛ لأنَّ العَدو الذي كان يَتحدَّى المعسكر الغربي، ويُنازعه التوسُّع والانتشار، والهَيْمَنَةَ على العالَم، ويتهدَّده بالتدمير والرُّعب النووي. . قد سقطَ إلى الأبد.

وكان من المنتظر، بل من المأمول إنسانيًّا وأخلاقيًّا، أن يَبدأ عهدٌ جديد، تَسودُ فيه علاقات التَّعاون والتكامل، وتبادُل المنافع والمصالح بين الدُّول الثَّرية والدول الفقيرة، فضلًا عن تلاقح الثقافات والحضارات بين الغرب والشرق.

عهدٌ يتحمل فيه كلٌّ من الغرب والولايات المتحدة مسؤوليَّتهما الحضارية، ويَدفعون ضريبة التَّفوق الحضاري والتقني، بل وضريبة التفوق العرقي أو العنصري الذي آمن به الغربُ طوال عهود الاستعمار، واتَّكأ عليه في تبرير مهمَّته الاستعمارية في بلاد الشرق، رغم ما لقيَته هذه النظريَّة العُنصرية من تهافت وسقوط على أيدي علماء الأجناس الغربيين أنفسهم.

على أنَّ إيمان الدُّول الأوروبية بهذه المقولة يُحتِّم عليها -وهي تُصغي لصوت الضمير المتحضر- أن تقودَ الأُمم والشُّعوب المحتاجةَ إلى شيء مما أفاءه اللَّه على هذه الدُّول من نعمة الغنى والثراء، والتقدُّم التقني، والعلمي، والفنِّي، والإنساني، وغيرها مما يَستوجب مساعدةَ الشعوب المحرومة؛ وهي شعوبٌ كانت لها أَياد حضاريَّة بيضاء على نهضة الغرب وتقدُّمه في شتَّى مجالات حضارة اليوم.

وهذه العاصمةُ الأوروبية التَّليدة الخالدة التي نلتقي فيها اليوم تَشهدُ على أنَّ المسلمين كانوا في يومٍ ما روَّادًا للحضارة والعلم والفن، ورُسُلًا للتنوير والتعليم والتثقيف، ولدرجة أنه لولا تراث المسلمين؛ ما كان لحضارة الغرب أن تستوي على سوقها كما تستوي عليها اليوم.

نعم؛ كان الظَّنُّ أن تسير أمورُ العالَم بعد الحرب الباردة في اتِّجاه السِّلم والتَّعاون والتعايش المشترَك، غيرَ أنَّ الأمر سرعان ما عاد إلى سيرته الأولى، حين شاءت السياسة العالَمية المندفعةُ بمنطق المال وغطرسة القوَّة والسلاح أن تَستبدل بالحرب الباردة حربًا جديدة، ومعسكرًا جديدًا أيضًا،

هو معسكرُ بلاد المسلمين وبلاد غير المسلمين، وليتَها كانت حربًا باردة كسابِقَتها، إذن لهان الأمر وأمكن احتمالُه، لكنها كانت حربًا من جيل جديد من الحروب، فيه يَقتلُ الضَّحية نفسَه بنفسه، وبمالِه وعلى أرضه، وكالةً عن أنظمة قابعةٍ وراء البحار من سماسرة الحروب وتُجَّار الأسلحة، وكان لابد -والأمر كذلك- من تسويق صورةٍ مشوَّهة عن الإسلام، كدِين يَحتضن الإرهاب، ويَنشر دعوته بالقتل وسفك الدِّماء وقطع الرؤوس باسم اللَّه.

وليس من هَمِّنا الآن أن نبحث في هذه الكلمة الموجزة عن ظاهرة الإرهاب، وأسبابها، ومَن المسؤولُ الأوَّل عنها، ومَن الذي يُموِّلها، ومن أين لتنظيمها بهذه القوَّة المُرعبة، والقدرة على التَّنقُّل بجيشٍ وعتادٍ وأسلحة من أقصى الشَّرق إلى أقصى الغرب، في قارَّتي: آسيا وأفريقيا، دون أن تقف في وجهه حدودُ الدُّول وحواجزُها.

غيرَ أنَّ أمانة الكلمة تقتضي التذكيرَ ببعض الحقائق التي لابدَّ من ذِكرها في هذا المقام؛ وهي:

أنَّ المسلمين هم ضحايا هذا الإرهاب، وهم الذين يَدفعون ثمَنه من دمائهم، أضعافَ ما يَدفَعُه غيرُهم مئات المرَّات، وهم المستهدَفون من أسلحته ونيرانه، وأنَّ ضَرْبَ اقتصادهم، وتدميرَ طاقاتهم، وإبقاءهم في حالةِ اللاحياةِ واللاموتِ؛ كلُّها أهداف مُبيَّتة ومَدروسة بعناية فائقةٍ.

واسمحوا لي -أيُّها الحكماء والعلماء- إن كنت قد أسهَبت في عرض أمرٍ معلوم ومعروف لديكم، ولدى كثيرين في الشرق والغرب، فقد قصدتُ من وراء ذلك التأكيدَ على أن اجتماعَنا اليوم، ومن قبلِه اجتماعات أخرى شبيهة، ليست تَرفًا؛ بل ضرورةٌ يُمليها البحثُ عن حلٍّ لهذه الأزمة، التي بدأت تتمدَّدُ كالسَّرطان الخبيث في كل مكان، والتي تَبحثُ عن حلٍّ منذ أمَدٍ بعيدٍ دون جدوى.

ويَسرُّني أن أؤكِّد أمامَكم استعدادَ الأزهر الشَّريف لتقديم كلِّ ما يَملك من خبرة، من أجلِ تعاونٍ غيرِ حدود، من أجل نشر فكرة السَّلام العالَمي، وترسيخ قِيَم التَّعايش المشترَك، وثقافة حوار الحضارات والمذاهب والأديان.

وفي اعتقادي؛ أنَّ المشكلة تكمُن في أنَّ العلاقة بين التَّقدُّم العِلمي، الذي هو: عنوان الحضارة الغربية الحديثة وبين الحروب، بعد ما بدَت علاقةً عكسيَّةً في عصر التَّنوير، انقلبت رأسًا على عقب إلى علاقة «طَرْديَّة» في عصرنا الحاضر؛ فقد بشَّرَنا فلاسفةُ التَّنوير بأنَّ تقدُّم الحضارة واتِّساعَها كفيلٌ بالقضاء على الحروب قضاءً مبرمًا.. وبمعنًى آخر: إن السَّلام العالَمي سوف يَسيرُ في ركاب التَّحضُّر رأسًا برأس، وقدمًا بقدم، حتى قال الفيلسوفُ الفرنسي «كوندورسيه» أشهر دعاة الإصلاح التربوي عام: ١٧٨٧م جملتَه الشَّهيرة، التي تقولُ: «بقَدْر ما تتَّسِع رُقعةُ الحضارة على الأرض سوف نشهدُ زَوال الحرب، وكذلك زوالَ العبوديةِ والبُؤس»(١).

ولم يَكد يَمرُّ على هذا الحُلم الجميل قرنٌ واحد، حتى استيقظَ النَّاس على واقع مَريرٍ، انقلَبت فيه العلاقةُ بين العِلم والحرب إلى علاقة سباق ورهان، تؤكِّدُ أنَّه كلَّما تقدم العلم ازدادت الحروب فتكًا وشراسةً..

وقد تقرَّرت هذه الحقيقة في الثقافة المصرية منذ ثلاثينيَّات القرن الماضي، سواء في كتابات علماء الأزهر، أو عقلاء الكُتَّاب والأدباء والمفكرين، وهو ما نجدُه اليوم في كتابات كثير من المفكرين الغربيين، وأحدثُها ما يقوله الفيلسوف البلغاري الفرنسي، الذي رحل عن دنيانا هذا العام: «تزفيتان تودوروف» Todorov Tzvetan: «أنَّ الثَّقافات بكلِّ مكوِّناتها التَّقنية والفنية تَنتشرُ بسرعة متزايدة في أرجاء الأرض، وتعرفُها شرائحُ كبيرة من سكَّان العالَم، ومع ذلك

(١) «الخوف من البرابرة» تزفيتان تودوروف، ترجمة: د. جان ماجد جبور: ٤٤ بتصرف، ط. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث: ٢٠٠٩م.

فإنَّ الحروب لم تتوقَّف، والبؤسَ لم يَتراجع، وحتى العبوديَّة لم تُلغَ إلَّا من القوانين، أمَّا على مستوى الممارسة فإنَّها لازالت باقيةً»[(١)].

وهذه العباراتُ التي انتهى إليها هذا الفيلسوف، والتي تعكس واقعَ عالَمنا اليوم -تَحملني على القول: إنَّه لا أمَل في التَّعويل على التَّقدم الحضاري في ترويض الوحش الهائج المستكنِّ في ضمير الإنسان المعاصر، وبخاصَّة بعد ما حطَّم هذا التقدمُ الحضاري كلَّ مواريث القِيَم والأخلاق وتأديب الإنسان وتهذيبه، وقَتَلَ فيه غريزة التديُّن، التي هي نفسُها غريزة الأخلاق والفضائل، وهي عدة الإنسانِ التي يقاوم بها رغبته الجارفة في اقترافَ الجرائم في حقِّ نفسه وحق غيره، وكذلك بعد ما أزال الحدودَ بين الحرية كفضيلة، والعبث والفوضى كرذائل مستنكَرة، وصِرنا لا نعرفُ فرقًا بين سلوك تُمليه حقوق الإنسان في التعبير الحُرِّ الملتزم، وسلوك آخرَ فوضوي عبَثي يُحسب على الإنسان ككائن أخلاقي ملتزم، وأيضًا بعد ما أدار هذا التقدُّم ظهرَه للدِّين وتعاليمِه، واستبدلَ به حُريَّاتٍ مُطلقةً بلا سقف ولا حدود، حتى رأينا من سلوكيات الإنسان المعاصر وتصرُّفاته ما كان مستحيلًا على ذوي الفطرة السَّويَّة أن يتخيَّلُوه منذ عقود قليلة مضت.

والرَّأي عندي: هو أن يُركِّزَ حوارُنا على طرح قضية الدِّين كطوقٍ للنَّجاة، وأن تكون لهذه أولويةٌ على قضايا أخرى يُتوقع طرحها؛ مثلَ العلمانية، والعولمة، وغيرهما.

وأنا أعلَمُ سلَفًا أنَّ موقع الدِّين ومكانَتَه بين الشَّرق والغرب ليس متطابقًا، إن لم يكن شديد الاختلاف، وأن الفلسَفاتِ المادِّية والإلحاديةَ قد تَسْخَرُ من هذا الطَّرح، وتهزَأُ به، وتراه تخلُّفًا وعودة إلى عصور الجهل والظَّلام.

(١) المصدر نفسه: ٤٤ بتصرف.

ولكن من حقِّ الشعوب التي تُعاني من سياسات التسلُّط والهَيمنة والتهَجير القصري، ومن سَفْكِ دماء الملايين من الضُّعفاء والفُقَرَاء والأرامل والأيتام، من حقِّ هؤلاء جميعًا أن يقولوا بملء أفواههم: لا، وأنا معهم هنا في قلب أوروبَّا أقولُ: لا، وألفُ لا، بل من حقِّنا أن نطالب بتصحيح المسار، وبنصيبنا وحقِّنا في السَّلام الذي حُرمنا منه، بينما تتمتَّع به الكلاب والقطط والحيوانات هنا وهناك.

وسوف يقال: إنَّ العودة إلى الدِّين وتعاليمه تزيدُ الأمر سوءًا؛ لأنَّ اختلاف الأديان في العقائد والشَّرائع من أقوى بواعث الحروب بين المؤمنين بها، وهل يُمكن أن نتجاهل كمَّ الدِّماء التي سُفِكَت في الحروب بسبب صراع الأديان، واقتِتال المؤمنين بها؟ وهل يمكن أن نَتجاهل أنَّ أوروبا لم تقض على حروبها الداخليَّة إلَّا بعد أن عزلَت الدِّين جانبًا عن حياة النَّاس، فيما سُمِّيَ بالعلمانيَّة؟

وهذه الاعتراضات التي يَقتنع بها كثيرٌ من الشَّباب الآن، غربًا وشرقًا أيضًا -تبدو وَجيهة بادي الرَّأي، لكنها لا تكون كذلك -بكل تأكيد- إذا ما نُوقشت في ضوء قراءة صحيحة متعمِّقة للدِّين، تَهدف لاكتشاف محوريَّته وأهمِّيته القُصوى من أجل حياة سعيدة في الدُّنيا والآخرة.

وجوابُنا على هذا الاعتراض: أنَّ الأديان الإلهيَّة الموحى بها من اللَّه تعالى على أنبيائه ورُسله لا يُمكن أن تكون سببًا في شقاء الإنسان، وكيف يُقال ذلك؛ وهي ما نزلت إلَّا لهداية البشر إلى الخير والحقِّ والصواب؟!

أمَّا الحروب التي اشتعلَت باسم الأديان؛ فليس لها في القديم والحديث إلَّا سبب واحد، هو تَسييسُ الدِّين، وتوظيفه، واستغلال رجاله لتحقيقِ المطامع والأغراض.

إنَّ الأديانَ كلَّها قد اتَّفَقَت على تحريمِ دَمِ الإنسان، وصِيانة حياته، ويُمكن أن تختلف الأديانُ في بعض التَّعاليم حسب ظروف الزَّمان والمكان، لكنَّها لم تَختلف -أبدًا- في تحريم قتل الإنسان تحريمًا باتًّا، بعد أن ربطت مصدرَ التحريم بمرجعيتين: مرجعيَّةِ النَّص المُقدَّس.. «لا تَقْتُل»، ومرجعيَّةِ الضَّمير الأخلاقي ومركزيَّته في التَّمييز بين الخير والشر.

وقُل نفسَ الشيءِ فيما يتعلَّق بمبدأ الواجب العام والمتعارَف عليه بين الناس جميعًا، وقد جعلت الأديان من الحُكماء والقديسين خُبَراء وعارفين وحُرَّاسًا على هذه الأجهزة الإلهيَّة المغروزة في فِطرة الإنسان، وأهليَّتِها للتوجيه في كُلِّ زمانٍ ومكان.

وهنا يرتبط القُرآن ارتباطًا جذريًّا بالإنجيل والتوراة؛ فيدعو نبيُّ الإسلام إلى نفس ما دعا إليه عيسى وموسى ومَن سبقهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعا من اللَّه أفضل الصلاة والسلام.

وعلى مَن يُريد أن يقرأ قانونًا أخلاقيًّا واحدًا مكتوبًا بمعنًى واحد ولُغتين مختلفتين، وفي أزمان متباعدة، فعليه أن يقرأ هذا القانون في الكتاب المقدَّس وفي القُرآن الكريم، وكلُّ ما سيَجده القارئ من فَرْقٍ هو أنَّه بينما يَرِدُ في الكتاب المُقدَّس مجموعًا في موضعٍ واحدٍ يَجده في القُرآن مُفرَّقًا في مواضع عِدَّة..

وأدقُّ مَثَلٍ على ذلك: الوصايا العشر في التوراة، مقارنة بهذا الكنز الأخلاقي النَّفيس، والمَنجم الإنساني السَّامي القَدْر، والعالي الرِّفعة، المُسَمَّى بموعظة الجبل، أو ميقات جبل الطور بسيناء في الإنجيل، وما ورد في ذلك من آياتٍ متفرِّقةٍ في القرآنِ في عهدَيه؛ المكيِّ والمدَنيِّ[(١)].

(١) انظر مزيدًا من التفصيل في: مدخل القرآن الكريم، للدكتور/ محمد عبد اللَّه دراز، ص: ٩٢.

وقد درَستُ هذا الموضوع دراسة هادئة، وخرجت منه بعقيدة غيرِ قابلة للاهتزاز، وهي أنَّ هذه الكتب الثلاثة لا يُمكن أن يكون مصدرُها إلَّا واحدًا، وأنَّ بينها ما يشبه الأخوَّة العضوية في هداية الإنسان وحفظ حياته.

وإذن؛ فليس في متون الأديان، ولا نصوصها المُقدَّسَة ما يَدعو إلى سفك دماء النَّاس، وليس في سلوك الرُّسُل والأنبياء ما يُفهَم منه من قريبٍ أو بعيد أنَّ سفكَ دم الآدمي حلال، بل أزعم أنَّ دماءَ الحيوانات في الشَّرائع الإلهيَّة مُحرَّمةٌ، وأنَّها مَحوطة بقوانينَ وأحكامٍ شرعيَّة كلها رحمةٌ ورِفق بالحيوان.

ويَضيقُ المقام -أيها السَّادة- لو رُحنا نوضِّح الفَرْق الشَّاسِعَ البُعدِ بين حروب بعثتها الأديان، وحروب وُظِّفت في اندلاعها الأديان، ولو كان الدِّين مسؤولًا عن عبَث العابثين به، لكانت حضارَتُنا اليوم مسؤولةً عن حربين عالَميتين، راحَ ضحيّتهما كما قُلنا: ٧٥ مليونًا، ومسؤولةً عن كلِّ أنهار الدِّماء التي تَسيل اليوم في سوريا والعراق واليمن وليبيا والصومال وأفغانستان وغيرها، فهذه الدماء لا تسفِكُها الأديان وإنَّما يَسفكها ظُلم الإنسان لأخيهِ الإنسان، ومَوتُ ضميره، وتبلُّدُ إحساسه بآلامِ الآخرين وأحزانهم ومآسيهم.

وليس صحيحًا أن أوروبا تخلَّصت من الحروب حين أقصَت الأديان من مراكز التَّوجيه في المجتمع، والصحيحُ أنَّها تخلَّصت من الحروب حين قررت ذلك بعدما ذاقت وَيلات الحرب ومآسيها في القرن الماضي.

وقد حملت تُهْمَة قابليَّة الأديان لإشعال الحروب بسبب أنَّ المؤمنين بكلِّ دين يَزعمون أنَّ دينَهم يمتلك الحقيقة المطلقة، وأنَّ غيرهم على خطأ، وعلى أصحاب الحقيقة المطلَقة أن يرجعوهم إليها؛ إمَّا بالإقناع أو السَّيف..

أقول: هذه التُّهمة حملَت كثيرًا من كبار اللَّاهوتيِّين على البحث عن حلٍّ لما يَبدو أنه معضلة الأديان في عالَم اليوم، وطرحت أسئلة عدَّة في هذه

القضية، تراوَحت بين ضرورة ادِّعاء امتلاك الحقيقة، مع ضرورة إدخال الآخَرِ فيها، وبين تجاهل التَّناقضات بين الأديان بسبب صعوبة التَّمييز بين الحقيقة والضَّلال، وبسبب خضوع الأديان لقانون التَّطور والتقلُّبات التاريخية، وكأنَّ حقيقة الدين -في نظر هذا الفريق- هي حقيقةٌ نسبيَّة، وليست مطلقة.

ورأيي الذي أستمِدُّه من فلسفة الإسلام في هذه القضيَّة؛ هو أنَّ الإيمان الدِّينيَّ اعتقادٌ يَجب أن يَرقى إلى درجة العلم الذي لا يَحتمل النَّقيض بحالٍ من الأحوال، أي لا يَقبل الشَّك، ولا الظَّن، والوهم، وهذا يَتطلَّب بالضَّرورة أن تكون العقيدةُ حقيقة مطلقة، وأنَّ ما يُناقضها لا يَنطبق عليه هذا الوصف.

وفي تصوُّري أنَّ الاعتقاد -بهذا الشرط- هو الأساسُ المَتين لبُنيان أيِّ دين من الأديان، وإلَّا لو فتح باب النِّسبية في الدِّين، وقَبول الشك في معتقداته، أو التَّسليم بأن دِينًا غيره هو أيضًا يَمتلك الحقيقة، رغمَ تناقض الدِّينين في أساس الاعتقاد، لو فتح هذا الباب أمام المؤمنين بالأديان لكان عليهم أن يَختاروا بين أمرين: إما الشَّك في دينهم؛ وحينئذ لا يَنطبق عليهم وصف المؤمنين بهذا الدِّين، أو يَقبلوا اجتماع الخطأ والصَّواب على فكرة واحدة؛ وهذا من المُستحيلات التي لا يُمكن تصوُّرها، فلا بُدَّ -والأمر كذلك- من أن يَعتقد كلُّ مؤمن بدين بأنه يُؤمن بالحقيقة المطلقة التي لا حقيقة سواها.

وهذا يَستلزم الاعترافَ بأنَّ الإيمان بنسبيَّة العقيدة الدينية في أيِّ دين من الأديان هو هَدْمٌ للدِّين، أو وضعه بكلِّ تعاليمه في مهبِّ الريح.

أما النِّزاع المفترض في هذه الحالة بين المؤمنين المتصارعين حول الحقيقة الواحدة؛ فإنَّه اعتراضٌ غيرُ واردٍ؛ لأمرين:

الأوَّل: أنَّ النُّصُوص الإلهيَّة قاطعةٌ في مَنعِ إكراه الآخر على قبول دين لا يريده، ويراه جريمة تعادل جريمة قتل النفس، بل تزيد عليها؛ لأنَّ محاولة نزع الاعتقاد عن المؤمن أقسى عليه من نزع روحه التي بين جنبيه، بل المؤمن باللَّه يَجودُ بروحه وبنفسه رخيصةً من أجل الاستمساك بدينه وعقيدته.

والقُرآنُ مليءٌ بالآيات التي تُبيِّنُ عبَثيَّة الإكراه على العقائد؛ لأنَّ العقائد- ببساطة- عملٌ قلبي، ولا سُلطان على القلوب كما هو معلوم، وآياتُ الإنجيل في هذا الأمر واضحةٌ وضوحَ الشَّمس في وسَط النَّهار.

الثَّاني: إذا كان إكراهُ الآخر على اتِّباع دينٍ من الأديان هو ضربٌ من العبث واللَّامعقول؛ فيَجبُ -والأمر كذلك- احترامُ عقيدته، والتَّسليم له بدينه، بل يَجبُ شرعًا على الدَّولة الذي يَعيش فيها هذا الآخر المختلف دِينًا أن تُمكِّنَه الدَّولةُ، بل تحميه وهو يؤدي شعائر دينه، وأن توفِّر له دارَ العبادة التي يتعبَّد فيها، وأن تلتزمَ بكلِّ الضمانات التي تُمكِّنُه من ممارسة هذا الحقِّ الذي لا يرى حقًّا سواه.

وخلاصةُ القول: أنَّه لا يَتمُّ إيمانٌ بدين إلَّا بالاعتقاد الجازم بأنَّه الحقيقةُ التي لا حقيقة غيرها، وأنَّ واجب المؤمن تجاه الأديان الأخرى، التي يَعتقد أنَّها لا تحظى بما حظي به دينُه من تفرُّدٍ بالحقيقة؛ واجبُه هو احترام الأديان الأخرى، واحترامُ المؤمنين بها احترامًا لا يَقلُّ عن احترامه هو نفسُه لدينه.

وفرْقٌ هائل بين الاحترام الكامل لدين الآخر، وبين الاعتراف والإيمان بدين الآخر، وفي هذه النُّقطةِ تحديدًا زلَّت أقدامُ المُتشدِّدين والمتطرفين، ونبعَت دعواتُ تكفير الآخر، وإرهابه، وقتله.

أعتذر عن الإطالة، ونشكرُ لكم صبرَكم على كلماتي.

والسَّلام علـيكم ورحمـة اللَّه وبركاتُه

❊ ❊ ❊

التَّعارُفُ
قانون التَّلاقي بين الأمَم والشُّعوب(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدنا رسولِ اللَّه، وعلى آله وصحبِه ومن اهتدى بهداه.

الحفل الكـريم!

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه؛

ومَرْحَبًا بِكُم في مصرَ المحروسةِ؛ مُلتَقى الحضارات، وحاضِنَةِ العلوم والثَّقافات، ووادي النِّيلِ، وأرضِ الأهرامات، وبلد الأزهر الشريفِ أقدم المعاهدِ العلميَّةِ وشيخ الجامعات. . حَلَلْتُم أهلًا، ونزلتُم سَهْلًا. . طبتُم وطابَت رحلَتكم وطاب مُقامكم.

وشُكْرًا من الأزهر الشَّريف ومؤسَّساتِه، ومن مجلس حكماء المسلمين، لاستجابَتِكُم الكريمة للمُشاركةِ في هذه النَّدوةِ الدوليَّة من ندواتِ الحوار بين الشَّرقِ والغرب، والتي أرجو أنْ تأتيَ ندوةً مُثمرةً مُتميِّزة في مناقشةِ أمر العلاقةِ بين الإسلامِ والغرب، مناقشةً تتأسَّسُ على المُصارحةِ والمكاشفة، وتأخذُ في الحسبان الظروفَ القاسيةَ التي تُعاني منها شعوبُنا هنا في الشَّرقِ، وتحتاجُ إلى تفكيرِ الحُكماءِ وتدبير العُقلاءِ من أمثالكُم.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في النَّدوة الدَّولية «الإسلام والغرب. . تنوع وتكامل» بقاعة مؤتمرات الأزهر الشريف، بمدينة نصر، في: ١٣ من صفر سنة ١٤٤٠هـ، الموافق: ٢٢-٢٤ من أكتوبر سنة ٢٠١٨م.

السَّيِّداتُ والسَّادَةُ!

فكَّرتُ طويلًا في الكلمةِ التي ينبغي أنْ أُسهمَ بها في ندوتنا هذه، ووجدتُني في حالةٍ تُشبهُ حالَة المُضطر للحديثِ في موضوعٍ مكرورٍ، فقد قيل فيه كلامٌ كثير، وصَدَرَتْ بياناتٌ وتوصياتٌ لا يُستهانُ بقَدْرِها في الدَّعوةِ إلى الحوارِ بين الحضارات، وضرورةِ الالتِقاءِ على أمرٍ جامعٍ بينها من أجلِ إنقاذ عالَمنا المعاصر من مخاطر الصِّراعِ والسَّلامِ المتوتِّر، وحروب الأمس الباردة، وحروب اليوم الملتهبة.

ورُغم هذه الجهودِ المشكورة من حكماء الغرب والشَّرق، إلَّا أنَّ الطريقَ لايزالُ وَعْرًا، وأنَّ جهدًا أكبرَ يجب أن يُبذلَ، وقد تأمَّلتُ هذه المفارقة اللامنطقيَّة بين الواقع والمأمول، وبدا لي أنَّ السببَ قد يعودُ إلى وجودِ عقباتٍ على طريقِ الحوار، وأنَّ الاشتغالَ بالتركيزِ على هذه العقبات: تشخيصًا وعلاجًا رُبَّما كان أجدى وأكثر اختصارًا لهذا المشوار الطَّويل. . ومن هذا المنظور تأتي كلمتي التي أُسهمُ بها في هذه النَّدوة، والتي سأوجزها فيما يشبه الخواطر والتأمُّلاتِ وأحلامَ اليقظةِ أيضًا.

وأوَّلُ ما أوَدُّ تأكيدَهُ -أمام حضراتكم-في هذا الشأن هو اقتناعي بأنَّ الشرق: أديانًا وحضاراتٍ ليست لهُ أيَّةُ مُشكلةٍ مع الغرب، سواءٌ أخذنا الغربَ بمفهومِه المسيحيِّ المتمثِّلِ في مؤسَّساتِه الدينيَّة الكبرى، أو بمفهومِه كحضارةٍ علميَّةٍ عَلمانيَّةٍ ماديَّة، وذلك من منطلقِ تاريخ الحضارات الشَّرقيَّة ومواقفها الثَّابتة في احتِرام الدِّين والعِلم أيًّا كان موطنهما وكائنًا مَن كان هذا العالِم أو هذا المؤمن.

وما أظنُّ أنَّ هذه القضيَّةَ بحاجةٍ إلى البرهنةِ والاستدلال، فحضارةُ الأندلُس في قلبِ أوروبا قديمًا، وانفِتاحُ الأزهر الشريف على كل

المؤسَّسات الدينيَّة الكبرى في أوروبا حديثًا، والتجاوبُ الجاد المسؤول من قِبلِ هذه المؤسَّسات الغربية -أقوى دليلٍ على إمكانيَّة التقارُب بين المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ في الشرق والمجتمعاتِ المسيحيَّة والعلمانيَّة في الغرب، وأنَّ هذا التقارُب حَدَثَ ويُمكِن أنْ يحدُثَ مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً؛ وليس أمره كما قال الشاعر «كيبلنج»: «الشرقُ شرقٌ والغربُ غربٌ، وأبدًا لن يَلتقيا».

وهنا أتذكَّر بحوثًا حديثة لبعضِ الغربيِّينَ المختصِّين بقضية الحوار الإسلامي المسيحي، يستدعون فيها تاريخ النَّمط الأندلسي بثقافاته الثَّلاث: اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ والإسلاميَّة، للاهتداءِ بهذا الأنموذج في رسمِ خارطةٍ لمسار الحوار الجاري حاليًا، وتصميم «إطارٍ نظريٍّ وتطبيقيٍّ لقواعدِ هذا الحوارِ وأغراضه الأساسية»، وبخاصةٍ بعد ما بُذلت جهودٌ غربيَّة مُعاصِرَة جاوبتها جهودٌ شرقيَّةٌ أيضًا لدفعِ مَسيرة الحوار بين الإسلامِ والغرب، في مقدمتها: قرارات مَجْمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥)، وزيارة البابا بولس السادس لبعض الدول العربيَّة وعلى رأسِها دولة فلسطين، وإعلانُ الأمم المتحدة تَبَنِّي مشروعَ تحالُفِ الحضارات عام ٢٠٠٤م، والذي شجَّعَ على عَقْدِ مُؤتمرات حوار عالميَّة في الغرب والشرق، وكذلك زيارة البابا فرنسيس لمصرَ (في أبريل الماضي)، ومشاركتهُ في افتِتَاح مُؤتمر الأزهر العالَمي للسَّلام، وتبادل الزيارات بين الأزهر وأسقفية كانتربري، ومجلس الكنائس العالمي في جنيف، والكنيسة البروتِسْتَانتيَّة بألمانيا، وقد شَعَر هؤلاء المختصُّون بما يَشْعُر به كل مهمومٍ بقضيَّةِ «السَّلام الضَّائع»، من المصاعب والمتاعِب التي تقف حجر عثرة في طريقِ الجهود المبذولة محليًّا ودوليًّا، وتُباعدُ بينها وبين النتائج المحدودة التي تتمخَّضُ عنها هذه اللِّقاءات..

ومِمَّا يؤكِّد اقتناعي بأنه لا مشكلةَ للشَّرق أو الإسلام مع الغرب؛ واقعُنا الذي نعيشه بحلوهِ ومُرِّهِ، وخيرهِ وشَرِّهِ، مُنْذُ انفتحت أبواب المسلمين على الغرب في القرنيين الماضيين وحتى اليوم؛ فمنذُ ذلك الحين والمسلمون يعتمدون شيئًا غير قليلٍ من حضارة الغرب في حياتهم نظريًّا وعمليًّا، وهذه مدارسُنا وجامعاتُنا، بل مدارس أطفالنا الأجنبيَّة التي يتحدَّثون فيها -بكلِّ أسف- الإنجليزيَّةَ والفرنسيَّةَ والألمانيَّة بأفضلَ مِمَّا يتحدَّثون العربيَّةَ، التي هي لُغة أمهاتهم وآبائِهم وأوطانِهم.

أقول: هذه المؤسَّسات التَّعليميَّة تُلَقِّن أبناءَنا من الموادِّ العلميَّةِ والأدبيَّة كثيرًا مِمَّا يتلقَّنه الطُّلاب الأوروبيون في جامعاتهم الغربية.. وهذه جامعةُ الأزهر، الجامعةُ الوحيدة التي تعتزُّ بدراسةِ التُّراث الإسلامي جنبًا إلى جنبِ المناهج التعليميَّةِ الغربيَّةِ الحديثة في كُليَّات الطِّب والهندسة والصيدلة والعلوم والزراعة وغيرها - هذه الجامعة بها كُليةٌ لتعليم اللُّغات الأجنبيَّة، وتدريسِ آدابِها في أقسامٍ علميَّةٍ مختلفة، ويتردَّدُ في ردهاتِها أسماء روَّاد الأدب الغربي بمدارسِه المتنوعة، بل أذهب بعيدًا لأقول «إن أقسامَ الأدب العربي في جامعاتنا تُدرِّس لطلابِها العرب: مسلمين وغيرِ مُسلمين، كلَّ المذاهب النَّقديَّة المعروفة في الغرب، وكذلك أقسام الفلسفة تدرِّس طلابها كل مذاهب الفلسفةِ الغربية.. بل أذهب إلى أبعد من ذلك حين أقول إنَّني شخصيًّا دَرَستُ الفلسفة في كليةِ أصول الدِّين في ستينيات القرن الماضي على شيوخٍ أجِلَّاء.. درسوا في جامعات أوروبا ونالوا شهاداتِهم العُليا على أيدي أساتذة أوروبيِّين، وقد غرسوا في نفوسنا احترام هؤلاء الأساتذة، وتوقيرَهم والاعترافَ بفضلِهم حتى وإن اختَلفنا معهم.

وهذه السماحة التي حرص شيوخنا على تأديبنا بها، لم تكن انعكاسًا لما تعلَّموه في أروقةِ جامعات الغرب بقَدْرِ ما هي انعكاسٌ لفلسفةِ الإسلام في

تواصلِه مع الآخر: تأثرًا وتأثيرًا.. فهذا هو الفيلسوف المسلم «ابن رُشد» الذي تعرفه جامعاتُ الغرب وتعرفُ فضلَه على أوروبا في القرون الوسطى، هذا الفيلسوف يؤصِّلُ في نصٍّ بديعٍ، لا أمَلَّ من التذكير به، في ضرورة النَّظَر العقلي ومشروعيةِ انفِتاح المسلمين على ثقافات الآخرين، وضرورةِ الاستفادة من جهود السابقين عليهم، في كل العلوم، بما فيها علومُ الفلسفة، التي هي أخطرُ العلوم مساسًا بالعقائدِ والأديان.. يقول ابن رشد في هذا السياق[(١)]: «يجب علينا إن أَلْفَيْنا لمن تقدَّمنا من الأُمَم السَّالفة نَظرًا في الموجودات... يجب علينا أن ننظُرَ في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقًا للحقِّ قبلناه منهم، وسُرِرنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحقِّ نبَّهنا عليه، وحذَّرنا منه، وعذرناهم».

والذي يقوله «ابن رشد» في هذا النَّص لا يقوله تجمُّلًا للذاتِ ولا مجاملةً للآخر، وإنَّما يكشفُ فيه عن أصلٍ ثابت من أصولِ الإسلام في الحثِّ على البحثِ عن الحقيقة، وشُكرِ مَن يكتشفُها وعُذْرِ مَن يُخفق في اكتشافِها، وهذا ما نحفظه عن ظهر قلب عن نبي الإسلام ﷺ من أنَّ المجتهد الذي يصيب الحق له أجران من اللَّه تعالى: أجرُ مشقَّةِ البحث وأجرُ اكتشاف الحق. والمجتهدُ الذي لا يصيب الحق في اجتهادِه له أجرٌ واحدٌ هو أجر عناء البحثِ ومكابدتهِ، فالباحثُ عن الحقيقة، والمؤهَّلُ لاكتشافها هو دائمًا في فلسفة الإسلام: إمَّا مشكورٌ وإمَّا معذور، ولا أظنُّ أنَّ معادلة أخرى تبلغ من السَّماحةِ مع الغير ما تبلغه هذه المعادلة.

ومَنْ يُشَرِّفُنا منكم -أيُّها السَّادة الضيوف الفُضلاء- بزيارةٍ لكلياتنا الأزهريَّة العريقة في حَيِّ الأزهر القديم، وعلى بُعدِ دقائق من هذا المكان،

(١) في: «فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»: ٩٣، بمقدمة د/ محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٧م.

يَرى معهدًا لتعليم طلابِنا الذين هم شيوخُ المستقبل، يعلِّمهم اللُّغاتِ الأوربيَّةَ، وإعدادِ المتفوقين منهم للدراسات العُليا في جامعات أوروبا، وهذا المعهد يشترك في إدارته والإشراف عليه المركزُ الثقافي البريطاني، والمركزُ الثقافي الفرنسي، ومعهدُ جوته الألماني، تحت مظلَّة مشيخة الأزهر الشريف..

هذه هي مناهجُ الأزهر بأصالتها وانفتاحها الواعي على الحكمة أنَّى وُجِدَت، هي التي (تصنع العقل) الأزهري المعتدل في تفكيره وسلوكه، والقادر دائمًا على التكيُّف مع العصر وإشكالاتِه ومعطياته.

وأمرٌ آخرُ قد يخفى على كثيرين في أمر العلاقةِ بين الشرق والغرب؛ هو أنَّ كثيرًا من المظاهر الثقافيَّة والحضارة الأوروبية متغلغلٌ اليوم في عُمْقِ ثقافتِنا الشرقيَّة، في شتَّى ميادينها السياسيَّة والتعليميَّة والاجتماعيَّة والفنيَّة، وأنَّ الاختلافَ بين الثقافتين يكادُ يكون محصورًا في مجال الدِّين والعقيدة وما يرتبطُ بهما من قِيَم وتقاليدَ تاريخيَّةٍ وثقافيَّة، لا مفرَّ منها لأيِّ شعبٍ من الشعوب، أو أُمَّةٍ من الأمم تحرصُ على ثقافتِها وتحميها من العُدوانِ والذَّوبانِ والاندثار.

السَّيِّداتُ والسَّادَة!

لعلَّكم تتَّفقون معي، بعد هذا السَّرد، في أنَّ سؤالًا مشروعًا يَفْرِضُ نَفْسَه هنا وهو: أين هذا الإسلام المنغلق على نفسِه، والمحبوسُ في ماضيه، والذي يُشكِّل أتباعه خطرًا ماحقًا على حضارة الغرب ومنجزاتِها الكبرى في علوم الكون والإنسان؟! وأيُّ شعبٍ من شعوب المسلمين يَملكُ مصنعًا واحِدًا من مصانعِ أسلحة الدَّمار الشامل، أو مَصْدَرًا واحِدًا من مصادر القُوَّة العنيفة الرَّادِعة، يُمْكِن أن يُقال عنه إنَّه يُرعِبُ القُوى الدوليَّة، التي تتمتَّع -بكل

أسف- بحريَّةٍ لا سقفَ لها، في أن تقول ما تشاء، وتفعلَ ما تُريد، وتلوِّحَ بعصًا غليظة لكل من يُعارضها، أو يجرؤ على التفكيرِ في مُراجعتها!!

إنَّ المشكلةَ -فيما أعتقد- وقد أكون مصيبًا وقد لا أكون - تَكمُن في هذه القُوَّة العالميَّة التي يملؤها الشعورُ بالغَطْرَسةِ وبحَقِّ السيطرةِ على الآخرين وتسخيرِهِم لتحقيقِ مصالحها ومنافعها الخاصَّة، انطلاقًا من الشعور بأنَّها الحضارةُ الأرقى والأنقى، وصاحبةُ الحقِّ المطلق في سيادةِ الشعوبِ وقيادتها.

وهذه هي عينُ الذَّرائعِ التي تَذرَّع بها الاستعمارُ القَديم وبرَّر بها انقِضاضَهُ على مقدَّرات الشُّعوبِ وثرواتها.

وأنا -أيُّها السَّادَة الفُضَلاء!- مِمَّن يؤمنون بتعارُف الثَّقافات، وتكامُلِها وتعاونِها، تعلَّمتُ ذلك من القرآن الكريم الذي حفظتُ منه منذ الطفولة أنَّ «التعارفَ» هو قانونُ العلاقات بين الأمم والشعوب، وذلك في الآيةِ التي يعرفها المسلمون وغيرُ المسلمين في الشَّرقِ والغرب، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، كما تَعلَّمتُه في دراستي للتُّراثِ العقلي عند المسلمين وتلاقُحِهِ مع ثقافات اليونان والهند والفلسفات الدِّينيَّةِ في العصرِ الوسيط.

ولم يكن يخطرُ بالبالِ يومًا أنَّ القرنَ العشرين قرنَ التقدُّم الحضاري، والرُّقيِّ الإنساني، وقرنَ حقوق الإنسان، ومواثيقِ السَّلام الدوليَّة؛ سوف ينتهي هذا القرن بظهور نظريَّاتٍ ومذاهبَ تمهِّدُ للحروبِ بين الشعوب وتبرِّرُ الصِّراع بين الحضارات، وقد قرعَتْ أسماعَنا طويلًا نظريَّة الصراع الطَّبَقي التي ما لبثت أن تهاوتَ وذهبت أدراج الرياح، و «نظريَّةُ نهاية التاريخ»، ونظريَّةُ «هنتنجتون» في صِراع الحضارات، وهي نظريَّاتٌ ترتدُ أصولُها إلى

أُطروحاتٍ عُنصريَّةٍ خالصة، في مُقدِّمتها: أطروحة «ماكس فيبر» العالِم السِّسيولوجي والاقتصادي الألماني (١٨٦٤-١٩٢٠م) الذي مضى على رحيله اليوم قرابة قرن كامل من الزَّمان.. هذا العالِم أسَّسَ لنظريته بدعوى تقول: إن «مقارنة الحضارة الغربيَّة بغيرِها من الحضارات البشريَّة، تُثبِتُ تفرُّدَ الحضارة الغربيَّة بخصائصَ فريدةٍ في نوعِها، لا يوجدُ لها نظيرٌ بين سائر الحضارات الأخرى، وأنَّ خصائصَ الحضارةِ الغربيَّة لم تعرفها أيَّةُ ثقافةٍ إنسانيَّةٍ أخرى خارج ثقافة الغرب»(١).

ثمَّ جاء المُستشرق الإنجليزيُّ الأصل: «برنارد لويس» ليؤكِّدَ في كتابه: «الإسلام»، أنه أوَّلُ مَن أطلَق فِكْرَة: [صِدَام الحضارات] عام ١٩٥٧م، غَداةَ تأميم مصرَ لقناة السويس بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتعرُّضِ الشعب المصري لحرب العُدوان الثُّلاثي عام ١٩٥٦م.. وقد أعاد لويس هذه الفكرة مرَّة أخرى عام ١٩٩٠م، وهو بِصَدَدِ الحديث عن العالَم العربيِّ والإسلاميِّ لِيُؤكِّد من جديدٍ أنَّ أمْرَ الغرب حيال الإسلام هو أمرُ صِدَامِ حضاراتٍ حقيقيٍّ وتاريخي، وأنَّ صِدَامَ الغرب لهذا الدِّين بالذَّات ولحضارته من بين سائر الحضارات الأخرى هو -فيما يقول-: «ردُّ فعلٍ على خَصْمٍ قديم لتراثنا اليهودي والمسيحي»، ثم يقول: «إنَّ صِدامَ الحضارات هو مَظهرٌ مهمٌّ للعلاقاتِ الدوليَّة الحديثة».

السَّيِّداتُ والسَّادةُ!

أرجو ألَّا يُفهم من كلامي أني أُنحي باللائمة كلِّها على الغربِ وحضارته، ففي الشَّرقِ أيضًا عيوبٌ وسَلبيَّات، أسهَمَت في تأكيدِ ظاهِرةِ الخوف من

---

(١) «في الثقافة والخطاب عن حرب ثقافات» عبد الرزاق الدوَّاي: ٥٨-٥٩، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ٢٠١٣م.

الإسلام التي انتَشَرَت مؤخَّرًا بين جماهير الغرب، ومن أخطَرِ هذه العيوب هو هذا الصَّمت المُريب عن الإرهابِ الذي مَكَّنَ للحركات السياسيَّةِ المسلَّحَة من الرَّبطِ بين الإسلام وبين جرائمِها الإرهابيَّة، وإطلاقِ أسماءٍ دينيَّةٍ على مُنظَّماتِها، استقطبت بها كثيرًا من الشَّباب والشَّابات الذين غرَّهُم هذا المظهرُ الدينيُّ الخادِع.. حتى استَقرَّ في أذهانِ الغالبيَّة من الأوروبيِّينَ والأمريكيِّين أنَّ العُنْفَ والإسلام توأمان ورضيعا لِبانٍ لا يُفارِقُ أحدهما الآخَر إلَّا ريثما يَلتصِقُ به من جديد.

حتى باتَ من الصَّعب توضيحُ الحقيقة للغربِ والغربيِّين، حقيقةُ أنَّ هذا الدِّين مختطفٌ بالإكراهِ لارتكابِ جرائمَ إرهابيَّةٍ بَشِعة على مرأى ومسمعٍ من أهلِه وذويهِ والمؤمنين به، وأنَّ المسلمينَ الذين يوصفونَ بالعُنفِ والوحشية هم -دون غيرهم- ضحايا هذا «الإرهاب الأسْوَد» وأنَّ تعقُّبَ أسباب الإرهاب، والبحثَ عن عِلَلِه القُصوى ليس محلُّه الإسلامَ ولا الأديانَ السَّماويَّة، أمَّا محلُّه الصَّحيح فهو الأنظمةُ العالميَّة التي تُتاجِرُ بالأديانِ والأخلاقِ، وتبيعُ الضَّمائرَ والنفوس في أسواقِ السِّلاح والتسليح وسياسات العُنصريَّة البَغيضَة والاستِعمار الجديد.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم.

والسَّلامُ عَليْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.

***

الإسلام والبرتغال
من جذور الاتصال الفكري إلى تحقيق المواطنة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السادة الحضور!

السلام عليكم جميعا ورحمة اللَّه وبركاته.. وبعد؛

فيسرُّني -باسمي وباسم الأزهر الشريف ومجلس حكماء المسلمين- أن أرحِّب بكم على أرض البرتغال، وفي عاصمتِها العريقة لشبونة، هذه العاصمة التي كان لها شأنٌ، وأيُّ شأنٍ، في تاريخ المسلمين العلمي والأدبي والتَّشريعي والثَّقافي، والَّذي ما أظن أنَّه قد أخذ حظَّه الواجب من البحث والتَّنقيب، والكشف عن وشائج القُربى الفكريَّة بين الغرب والشَّرق عن طريق هذه العاصمة وأخواتِها من مُدن دولة البرتغال ومراكزِها الحضاريَّة والثقافيَّة.

وأنا شخصيًّا باعتباري خرِّيج أقدم جامعة في العالَم وهي جامعة الأزهر، أشعُر بدَيْنٍ كبيرٍ لهذا البلد، لسبقها المبكِّر في بناء تاريخ المسلمين وثقافتهم، لقد درستُ فيما دَرستُ وبخاصَّة في مرحلة الدِّراسات العُليا، مراجعَ أصيلةً في علوم العقيدة والفلسفة الإسلامية -التي هي تخصُّصي الدَّقيق- في مقدِّمتها كُتب القاضي أبي الوليد الباجي في عِلم الجدَل وعلوم الشريعة، وهو من أكبر شُرَّاح «موطَّأ» الإمام مالك في الحديث النبوي الشَّريف، ولم

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في: الجمعية الإسلامية بالبرتغال، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الـ(٥٠) لتأسيس الجمعية الإسلامية في لشبونة، في: ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤٣٩هـ، الموافق: ١٦ من مارس سنة ٢٠١٨م.

نكن نعلم آنذاك أن البَلدة التي وُلِد ونشأ بها ونَشرَ علومَه فيها هي مدينة باجَة التي تعدُّ مركزًا علميًّا وحضاريًّا أنجب الكثيرين من علماء الأمة وأدبائها ومؤرخِّيها، ثم علمنا فيما بعد أن هذه المدينة هي إحدى مدن دولة البرتغال، وأنَّ سَيلًا جرَّارًا من علماء الإسلام المؤسِّسينَ لحقولٍ معرفيَّةٍ جديدةٍ في الفكر الإسلامي كانوا بُرتغاليِّينَ مَولدًا ونشأةً وعطاءً، وقد توزَّعوا على فُنونٍ عديدةٍ من العلوم الإسلاميَّة، كالأصلين: أصول الدِّين وأصول الفقه، والتَّاريخ، والأدب، والحكمة والفلسفة.

ومن المعلوم اليوم أنَّ أيَّ باحثٍ لا يستطيع أن يرصد تاريخ عالِمٍ أديبٍ من علماء الغرب الإسلامي إلَّا بعد الرُّجوع إلى موسوعة «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لأبي الحسن علي بن بسام الشَّنترِيني، أو بعبارة اليوم ابن بسَّام البرتغالي، هذا العالِم المبدِع الذي وُلد في شَنْتَرِيَّة «سانترام» وتثقَّف هنا بلشبونة، حتى أصبح من أعلم الناس بفنون اللغة والأدب والنقد... إلى قائمة طويلة زاخرة بأئمة تراث المسلمين فيما يعرف حديثًا بالغرب الإسلامي.

فما من مدينة من مدن البرتغال إلا وقد تركت بصمة واضحة يدين لها تاريخ المسلمين الثقافي بالفضل والسبق، فسلام على مدينة «فارو» أو «شنتمرية الغرب» ومدينة شلب «silves» وباجة «beja» ويابُرة «Evora» وشَنْتَرَة «Cintara».

سلام على كل مدينة في هذا البلد العريق؛ ساهمت في إثراء الحضارة الإنسانيَّة بالحكمة التي أنتجتها عقولهم وصنفتها أقلامهم.

سلام على أبنائها الذين لا يزالون يعكسون هذه الروح حتى يومنا هذا.

وممَّا يجب أن أعترف به أمامكم أنَّ هذه الزيارة أيقظت عندي عزمًا قويًّا على أن أعمل مع زملائي في الوفد المرافق على إعادة التواصل مرة

أخرى، وذلك من خلال افتتاح قسمٍ للُّغة البرتغالية وآدابها، بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر الشريف، كما نأمل أن نبدأ بحصر التراث الإسلامي المتعلِّق بالبرتغال وما أنجبته من مشاهير العلماء في العلوم الإنسانيَّة والتَّجريبيَّة على السَّواء.

يقع بعض هذا العبء على كواهل شباب الباحثين هنا المتخصِّصين والمعنيِّين بتاريخ هذا البلد، وكذلك المتخصِّصين بأقسام اللُّغة العربية وآدابها وتاريخ العلوم وفلسفتها، ويُسعد الأزهر أن يتعاون معهم بما ييسِّر لهم هذه المهمَّات العلميَّة التي آن الأوان لأن تأخذ حقَّها من النَّظر العلميِّ، ومكانها من المعارف الحديثة.

وأمر آخر أعتزُّ بتسجيله هنا، هو ذلكم الانطباع الذي خرجتُ به شخصيًّا، والذي يعكس لمسَةَ الإنصاف التي لا يعييك إدراكها وأنت تستمع إلى المسؤولين والمثقفين في هذا البلد، وهذه الأريحيَّة الراقية المتمثِّلة في التَّذكير بما للمسلمين من فضل مسيرة حضارة البرتغال، بل حضارة المنطقة بأسرِها، وهذا أمرٌ لا نسمعُه في بلدانٍ مُشابِهة، كان لحضارة الإسلام فيها دورٌ مشابه، فشُكرًا على هذه اللَّمسة التي تفيض وفاءً وعرفانًا وإنصافًا وعدلًا.

أيُّها السَّادة والسَّيدات!

لا ريب أن تجربة التَّعايش المنسجمِ -في البرتغال- بين مختلف الأطياف تجربةٌ رائدةٌ، بل هي تطبيق عملي لمفهوم «المواطنة» الذي لا نملُّ من التَّذكير به وتأكيده وتَكراره على المسامِع في مختَلف المحافِل التي نشهدُها في الغرب والشَّرق على السواء.

ومصطلح «المواطنة» هذا مصطلحٌ أصيل في ثقافتنا الإسلامية، وقد شعَّت أنواره الأولى في دستور المدينة المنورة، وفيما تلاه من كتب وعهود لنبيِّ اللَّه ﷺ حدَّد فيها بكل دقة علاقة المسلمين بغير المسلمين، على أُسس واضحةِ المعالم، بيِّنة القَسَمات، تؤكِّد على أن «المواطنة» لم تكن حلًّا مستوردًا، بقدر ما كانت ممارسة إسلاميَّة حقيقية لنظام الحكم الذي طبقَّه النَّبي ﷺ في أوَّل مجتمعٍ إسلاميٍّ أسَّسه وهو دولةُ المدينة.

وهذه الممارسة لا تتضمَّنُ أيَّ قدرٍ من التَّفرقة أو الإقصاءِ لأيِّ فئةٍ من فئات المجتمع آنذاك، وإنَّما تضمَّنت سياساتٍ تقومُ على التَّعدُّدية الدِّينيَّة والعِرقيَّة والاجتماعيَّة، وهي تعدُّديَّة لا يُمكن أن تعملَ إلا في إطارِ المواطنةِ الكاملة والمساواة التامة.

وإنَّني إذ أدعو إلى تبنِّي مفاهيم «المواطنة الكاملة» أتمنَّى من السِّياسيين ورجال الدِّين وعلمائه والمثقَّفين والمفكِّرين أن ينتبهوا لخطورة المضيِّ في استخدام مصطلح «الأقليات» الذي يحملُ في طيَّاته معانيَ التَّمييز والانفصال، وبذورَ الإحساس بالعُزلة والدونيَّة، ويمهِّد الأرض للفتنِ والانشقاق، بل يصادرُ هذا المصطلح ابتداءً على أيَّة أقليَّة كثيرًا من استحقاقاتها الدِّينيَّة والمدنيَّة، فالمسيحيُّ المصريُّ هو مواطن مِصري مواطنة كاملة في الحقوق والواجبات، والمواطنُ المسلم في البرتغال هو مواطن برتغاليٌّ كامل الحقوق والواجبات، ولا محلَّ مع هذه المواطنة الكاملة لأن يوصف أيٌّ منهما بـ «بالأقليَّة» الموحية بالتَّمييز والاختلاف في معنى «المواطنة».

وفي اعتقادي أن ترسيخ «فقه المواطنة» بين المسلمين هنا في أوروبا وغيرها من المجتمعات المتعددة الهويات والثقافات، خطوةٌ ضروريَّةٌ على

طريق «الاندماج الإيجابي» الذي دعوت المسلمين إليه في أكثر من عاصمة أوروبِّية، فهو الذي يحفظ الأوطان وتماسكها، ويرسِّخ تأصيل الانتماء الذي هو أساس الوحدة في المجتمع، كما يدعَم قبولَ التَّنوع الثَّقافي والتعايش السِّلمي، ويقضي على مَشاعر الاغتراب والتوجس من الاختلاط بالمختلِفين عنهم في الدِّين.

ومن نِعم اللَّه على المواطنين المسلمين في البرتغال أنَّهم لا يواجهون تصرُّفاتٍ تسيئُ إلى دينِهم ونبيِّهم مثل ما يواجهه بعض المسلمين في دول أخرى، ممَّا يشجِّعهم ويَدفعهم دفعًا إلى «الاندماج الإيجابي» في مجتمعاتِهم التي ولِدوا فيها وصاروا جزءًا لا يتجزَّأ من نَسيجها الوطنيِّ بكل أبعاده الاجتماعية والثقافيَّة والسياسيَّة، وأنَّ مجتمعهم البرتغالي لا يتوجَّس من فتح الأبواب أمامهم وأمام غيرهم من البرتغاليين المختلفين دينًا وعرقًا.

ومما يؤسف له أن هذه الحواجز لاتزال تعمل سلبًا في تهميش كثيرٍ من الشَّباب الأوروبي في بعض الدُّول الأخرى، وتحملُه حملًا إلى الانضمام إلى حركاتِ العنف والإرهاب المسلَّح.

وأخيرًا أتقدَّم باسمي وباسم الأزهر الشريف ومجلس حكماء المسلمين بخالص الشُّكر والتقدير والعرفان للشعب البرتغالي ممثلا في البرفسور مارشيلو دي سوزا رئيس الجمهورية، الذي نقدِّر لسيادتِه هذه الروح الحضاريَّة المتسامحة التي يتميَّز بها، وكذلك الجمعيَّة الإسلامية التي نتقدَّم لها بخالص التَّهنئة بمرور نصف قرن على إنشائها، مُعربًا عن سعادتي وسعادة الوفد المرافق بمشاركتنا في هذه المناسبة السَّعيدة، التي فتحت لنا أبواب الأمل في نشرِ مثل هذا الأُنموذج الطَّيب في العيش المشترك بين المواطنين،

في سائِر أقطارِ أوروبا، فهو الدِّرع الواقي للأوطانِ من تربُّصات جماعات العنف والإرهاب المسلَّح، ومن مخطَّطات «الإسلاموفوبيا».

شكرًا لحسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

فقه الأزمة
والوعي الغائب

الخلافُ المذهبيُّ
والصِّراعُ الموهوم(*)

لعلَّ النَّظر المتأنِّي في بحث الخَلْفيات الكافية وراء الصِّراعات المذهبيَّة بين المسلمين يُثبتُ أنَّ لها أسبابًا خارجيَّة وداخلية، وأنَّ الأسباب الخارجية أهونُ شأنًا من تلك التي يَصنعها المسلمون فيما بينَهم عن وعي، أو عن غيبة وعي.

ورغمَ أنني لستُ من أنصار نظريَّة المؤامرة، التي تُستدعى كثيرًا لتبرير الأخطاء والتماس المعاذير؛ فإنِّي لا أستطيعُ أن أتجاهلَ ما يَجري على السَّاحة من أساليب المكر والتَّربُّص، التي تُبرهن على أنَّ ثَمَّة قوَّة خارجية تعمل باقتدار على استبقاءِ الأمَّة الإسلامية في حالةِ مَوات مستمر، وأن الرَّابضين هناك وراء البحار نجَحوا في تحقيق ما نذَروا له أنفسَهم، من خدمةِ عقائدهم وشعوبهم، يُساعدُهم على ذلك وضوحٌ في الرُّؤية، ومسؤوليَّة جادَّةٌ في الالتفاف حولَ الهدف المشتَرك، وبينهم من الخلاف والتَّباعد في العقائد واللُّغات والأعراق والمصالح ما لا يوجدُ عشر معشاره بين المسلمين المُتَشرذمين دومًا، رغم الدِّين الواحد، واللُّغة الواحدة، والأخوَّة الدِّينية التي صهرَت في بوتقتِها كلَّ تعارضات الأجناس والطَّوائف والمذهبيَّات على مدى تاريخٍ طويل، كانت فيه الحضارةُ الإسلامية هي الحضارة الأمثَل من بين سائر الحضارات.

(*) كلمة ألقيت في الجلسة الافتتاحية لـ «مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية، دور التقريب في الوحدة العملية للأمة»، في الفترة من: ١- ٣ محرم: ١٤٢٨هـ/ الموافق: ٢٠-٢٢ يناير/ ٢٠٠٧م.

ولقد أدرك الغربُ منذُ زمن بعيد أنَّه لن يَلتقي مع الشَّرق، وقال الشَّاعر البريطاني «روديارد كبلنج Rudyard Kipling» في أنشودته الشَّهيرة: «الشَّرق شرقٌ، والغربُ غربٌ، ومُحال أن يَلتقيا»[(١)].

ورغمَ أنَّنا -نحن المسلمين- لا نؤمنُ بهذه المقولة، ولا بتداعياتها الاستعماريَّة، ونراها دعوة عدائيَّة خالصةً؛ إلَّا أنَّها على بساطَتها وتلقائيَّتها تُلخِّص فلسفةَ الصِّراع التي آمَن بها فلاسفةُ الغرب في القرنين الماضيين، ثمَّ تطوَّرت لاحقًا في الفلسفة الأمريكيَّة إلى صيغة تبريرية لصراع الحضارات ونهاية التَّاريخ.

وكما غزَت أوروبا بلدانَ الشَّرق الإسلامي في القرن الماضي، تحت دعاوى رسالة «الرجل الأبيض، وتفوّق الجنس الآري، وامتياز أجناس الشَّمال على باقي أجناس البشر» -فإنَّ النِّظام الأمريكي بالتَّواطؤ مع أوروبا يَتزعَّم الآن غزوَ بلاد الشَّرق تحت دعاوَى مشابهة؛ مثل: «نشر القِيَم الأمريكية، وتعليم الدِّيموقراطيَّة، وحقوق الإنسان، والحريات الفردية... إلخ»، وبقوَّة السِّلاح إن اقتضى الأمر ذلك.

وقد صرَّحَ رئيسُ الأغلبيَّة الجمهوري في الكونجرس منذُ أكثر من عشرة سنوات بأنَّ القوَّات العسكريَّة الأمريكيَّة موجودةٌ وجاهزة على كوكب الأرض، «وتُلبِّي طلباتِ الحرِّية الدِّيموقراطية للحكومات ولشُعوبها... وبدون القيم الأمريكيَّة؛ فإنَّ العالَم سيَعيش في بربريَّة وعُنف وديكتاتوريَّة»[(٢)].

---

(١) نشرت القصيدة في «مجلة ماكميلان»، عدد: ديسمبر: ١٨٨٩م، «مختارات من قصائد العصر الفيكتوري (١٨٣٧-١٨٩٥م)»، كمبريدج، ريفر سايد بريس، ١٨٩٥م، بالإنجليزية.

(٢) سعيد اللاوندي، «أمريكا - أوربا، سايكس بيكو جديد في الشرق الأوسط»: ١٢٤، نهضة مصر، ٢٠٠٦م.

ويُخطئ مَن يظنُّ أنَّ شعوب الشَّرق سوف تنعم بالدِّيمقراطية والحرية وحقوق الإنسان في ظلِّ هيمنة الحضارة الغربية بجناحَيها -الأوروبي والأمريكي[(١)]-؛ فتاريخُ هذه الحضارة يَنطقُ بأنَّها حضارةٌ لا تؤمن إلَّا بمنطِق القوَّة والغلَبة، ولا تَفهم القِيَم الإنسانية إلَّا بمعيار المصلحة والمنفعة، وإذا احترَمت الآخر فإنَّما تحترمه بمقدارِ ما تُفيد منه وتَستغلُّه لمصلحتها، ولا عليها إن تركته بعد ذلك فقيرًا ومريضًا وجاهلًا، وعلى مَن يرتاب في هذه الحقيقة أن يتأمَّل بلادنا التي استعمرَتها أوروبَّا عقودًا عدَّة، واستولَت على ثرَواتها وخيراتها، ثمَّ راحَت وتركتها تتعثَّر وتكبو على طريق النَّماء والتقدُّم، ولازالت حتى هذه اللَّحظة تزرع من العقَبات والعراقيل ما يعوقُ مسيرة هذه البلاد، ويُبقيها رهن الفاقة والتَّبعية في العلم والاقتصاد والفكر والسِّياسة.

---

(١) ليس صحيحًا ما يظنُّه البعض من أن النِّظام الأمريكي ينفرد بالتسلُّط على الشرق الأوسط في غيبة عن الأوروبيين أو الآباء المؤسسين لأمريكا، والذين «لولاهم لما ظهرت أمريكا إلى الوجود، ولاندثرت كل القيم التي تمثلها» -حسب تعبير الرئيس جورج دبليو بوش. والواقعُ أن الآباء والأبناء والأحفاد يتربَّصون بالشرق الأوسط، وهم أصحاب مطامعَ معلَنة، وكلُّ ما هنالك أن الاستعمار الأمريكي الجديد يَستخدم الصَّراحة والبطش، بينما يَستخدم الاستعمار الأوروبي دبلوماسيَّة المكر والخداع والنَّفَس الطويل.

وينبغي ألَّا يغيب عن الأذهان أن الكيان الصهيوني الذي يُمثِّل خنجرًا داميًا في خاصرة الأمَّة العربية إنما هو مؤامرةٌ أوروبية نُفِّذَت بمباركة أمريكية، وما يجري الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها هو مؤامرة أمريكية بمباركة أوروبية، يَدلُّنا على ذلك: أن فرنسا مثلاً، رغمَ معارضتها المعلَنة للغزو الأمريكي للعراق، إلَّا أن الرَّئيس شيراك سرعان ما تراجعَ وأعلن أن انتصار القوَّات الأمريكية في تدميرِ العراق، وسَحْق نظام صدَّام انتصارٌ لِقيَم الحرِّية والديمقراطية بالمفهوم الغربي.

وقد مارست أوروبا أسلوب التَّذبذب والتراجع في معظم قضايا الشرق الأوسط، وبما يَصُبُّ في النهاية في اتِّجاه المؤامرة الأمريكية الجديدة علي دوله وشعوبه. راجع في تفصيل ذلك المصدر السابق: ٧ - ١٢.

وأمرٌ آخر، يَحملنا على أن نرتاب في هذه الدَّعوات التي تتقوَّى بالتَّدخل الغربي في أمور المسلمين، ولدرجةِ تمزيقهم، وتقطيع أوصالهم - هو ما في حضارة الغرب المُعاصر من فلسفة التَّقاطع مع الأديان الإلهية، والنَّظر إليها باستعلاء إن لم يكن بازدراء.

وأحدثُ الدَّلائل على ذلك: محاضرةُ بابا الفاتيكان التي ألقاها منذُ شهور في جامعة «ريجنسبرج»، وكشفَت عن قصور شديد في معلوماته المتواضعة عن الإسلام، والتي أعلَن فيها أنَّ أعضاء هيئة التَّدريس يَستنكرون عقلانيَّة هذه الجامعة؛ لأنَّها لا زالت تحتفظُ بكُلِّيَّتين للَّاهوت، تتناولان بالبحث أمرًا لا وجود له وهو اللَّه -على حَدِّ تعبيرهم-.

ومن قَبْل هؤلاء العقلانيِّين الجُدد، أعلَن بعضُ فلاسفة الغرب أنَّ اللَّه قد مات، وشبَّه آخرون مَن يَبحثُ في الغيبيَّات بالأعمى الذي يَبحثُ عن قُبَّعةٍ سوداء في حجرة مظلمة...

وقد نعى كثيرٌ من عقلاء الغرب على حضارتهم هذا الانحرافَ، وأعلَنوا أنَّها ليست الأُنموذجَ الأمثل من بين حضارات العالم، وقالوا إنَّها في أفضل حالاتها حضارةٌ ضيِّقة، خاصَّة بأهلها، لا تُمثِّل المدنيَّة بمعناها الحقيقي، وما يُقال من أنَّها الارتقاء الأعلى الذي وصلَت إليه الإنسانيَّة افتراءٌ محْض، وادِّعاء كاذب، وربَّما كان الوصفُ الصَّحيح -فيما يقول- أنَّها مرحلة من مراحل الحراك التَّاريخي لشعوبٍ معيَّنة، وليس من الضَّروري، ولا من اللَّازم أن يكون حراكًا إلى الأمام، أو إلى الأعلى، بل هو بالأحرى حراكٌ إلى الأسفل، أو إلى الأسوأ، إذا ما قيس هذا التَّاريخ بتاريخ الشُّعوب الشَّرقية مثلًا[1].

(١) «شرق وغرب» لرينيه جينو (عبد الواحد يحيى): ٦، ٧. تعريب: سعد الموجي، نسخة =

ويقول جينو: «إن الحضارةَ الغربيَّة الحديثة تُمثل شذوذًا حقيقيًّا من بين سائر الحضارات التي عرفناها معرفةً تامَّة أو ناقصة؛ فقد اتَّجه نشاطُها ونماؤها في اتِّجاهٍ ماديٍّ بحْت، وفي الوقت نفسِه تراجعت في اتِّجاه التَّأمل العقلي، وبسبب هذا التَّراجع نظر الغربيُّون إلى الحضارات الشَّرقية نظرةَ ازدراء، واحتقروا حضارتَهم في عصرها الوسيط للسَّبب ذاتِه، وهم الآن لا يفقهون شيئًا عن العصر الأوروبي الوَسيط، فضلًا عن أن يَتأثَّروا بفلسفاته في تكوين معارفهم وأخلاقهم وتصرفاتهم».

وكيف يُمكن أن تتجلَّى قيمة المعارف التَّأملية الخالصة لأُناس لا يَعني الذَّكاء عندهم شيئًا إلَّا أن يكون مجرَّد التَّأثير في المادة والتحكُّم فيها من أجل أغراضٍ عمليَّة، ولا يُقدِّرون العلم بالمعنى الضَّيِّق الذي حصروه فيه إلَّا بمقدار ما يكون قادرًا على الوصول إلى تطبيقاتٍ صناعيَّة(١)؟!

وهذا الخلَلُ الذي يَرصده «جينو» في أطواءِ الحضارة الغربيَّة وتركيبها الذِّهني والنَّفسي يَكشف لنا عن منطقِ المصالحِ والأغراض، المُتغلغل في متن هذه الحضارةِ، وكيف أنَّ المصلحة تُمثِّل المعيارَ الخُلقي الأوحد، الذي

= مُعَدَّة للطَّبع، تكرَّم بإهدائها إليّ نجلُ المؤلف.

ونودُّ أن نلفت النظر إلى أن الفيلسوف «جينو» لا ينظر إلى الحضارة الغربية في نطاقها المادي التجريبي؛ لأن هذا النطاق الذي أبدع فيه الغربيون إبداعًا غيرَ مسبوق حبسَ نشاط الذهن الإنساني في حدود التفكير في المادة فقط، وقد جاء هذا الإبداع على حساب إبداعات التأمل العقلي والميتافيزيقي، الذي ميَّز حضارة الشرق والشرقيين.

ويرى «جينو» أن الحضارة الغربية وقفَت في منتصف الطريق، أو هي تعرج على ساق واحدة، ومن ثَمَّ عجزَت عن استيعاب النشاط الإنساني المؤهل بطبيعته للنظر في المادة وفي ما وراء المادة على حد سواء، ولذا؛ فإنَّ هذه الحضارة ناقصة، ولا تستحق أن تكون حضارة رائدة تُحتذى.

(١) المصدر نفسه.

يَحكم خيار الغربيين كلّما اصطدمت مصالحهم بالقِيَم الإنسانيَّة التي تعارَف عليها بنو آدم منذ القدم.

وهو أيضًا ما يُفسر ظواهرَ الصِّراع والتسلُّط على الآخر واستعباده، والتي تبدو وكأنَّها تصرُّفات عادية ومبرَّرة في أخلاق القوم، وبخاصة؛ في تاريخهم الحديثِ المعاصر(١).

وإذا كان تاريخ الحضارة الأوروبيَّة قد عرَف استعباد الآخرين، وبيعَهم وشراءهم في أسواق النخاسة؛ فإنَّ تاريخ الحضارة الأمريكيَّة تفوَّق على نظيرِه الأوروبي في القَسوة واللَّاإنسانية، وبدأَ مسيرتَه السَّوداء في اتِّجاه جرائم القتل، والتَّطهير، ومعاملةِ أصحاب البلاد الأصليِّين معاملة الحشرات الضَّارة، وتوَّج انتصاراته بإبادةٍ جماعية تُعَدُّ الأكبر والأطولَ في تاريخ الإنسان، بعد ما «أفرغَت العالَم الجديد من سكَّانه، وقضَت على أكثر

(١) يذكر «روجيه جارودي» في كتابه: «حوار الحضارات» ترجمة الدكتور: عادل العوا: ٥٣ وما بعدها، منشورات عويدات ١٩٧٨م». . أنَّ أوروبا مارست تجارة العبيد من أفريقيا على مدى ثلاثة قرون، وكانت تغري تجّار النخاسة من الأفارقة بالأموال الطَّائلة للاستيلاء على الأسرى الأفريقيين وبيعهم على الشَّواطئ للتُّجَّار الأوروبيين.

وقد عادت هذه التجارة غير النَّظيفة على الاقتصاد الأفريقي بالكَساد والدَّمار؛ لأن الأموال التي أغدقتها أوروبا على تجارة العبيد شجَّعت الأفارقة على مزاولة هذا النَّشاط الإجرامي، وصرفتهم عن العمل في الزراعة والصناعة إلى المنافسة والاقتتال على اصطياد الأسرى وتصديرهم لأوروبا، فهذه هي البضاعة الوحيدة التي يقبلها البيض، وهي أربح من النضال في سبيل السيطرة أو العمل في الأرض والمناجم.

ويقول «جارودي»: «إنني أذكر كيف شعرت بعارِ الإنسان الأبيض وكأنَّه حملٌ ثقيل مُذِلٌّ على كتفي -عندما زرت، في جزيرة «كورة» المقابلة لـ«داكار»، الحجيرات التي كان الأسرى يكدَّسون فيها قبيل الإقلاع، وما تزال آثار حلقات الدهان الأسود مرسومة على الجدار، وهي تشير حتى الآن إلى المكان الذي كان النخاسون يحددونه لكل إنسان في ذاك الجحيم. «حوار الحضارات»: ٥٤-٥٥.

من أربعمائة شعب وأمَّة وقبيلة، كانت تَنتشرُ في الشَّمال الأمريكي فوقَ مساحة أكبر من أوروبا بنصف مليون ميل مربَّع، ما يُؤكِّد أن المستعمرين الأوروبيين تمكَّنوا من إبادة سكَّان قارَّة كاملة، كان عددُهم يَزيدُ على (١١٢) مليون إنسان، لم يَبق منهم في إحصاء أوَّل القرن العشرين، سوى ربع مليون»[(١)].

(١) منير العكش، «حق التضحية بالآخر: أمريكا والإبادات الجماعية»: ١١، ١٤، بيروت ٢٠٠٢.
وفي هذا الكتاب صور شديدة الرُّعب والتوحُّش مارسَها المستعمرون الأوربيون ضد الهنود -سكان البلاد الأصليين-؛ مثل: الإبادة المباشرة، ونشر الأوبئة، والسخرة، وتكديس الناس في حظائر تشبه حظائر الكلاب، والأعمال الشاقة في الحقول والطواحين، والأعمال القذرة غير المحتملة، والتي كانت تسبب الموت الجماعي للهنود بسبب المرض والإجهاد وسوء التغذية.

«وقد كانت كمية الطعام التي تقدم للعبد الأسود تعادل ثمانية أضعاف الطعام الذي يقدم للهندي، ولم يكن ذلك حبًّا في أفريقيا، أو غراماً بالسود، أو تمييزاً عنصريًّا، بل كان سببه الأول والأخير أن الهنود أرخص من السمك، فهم في متناول اليد، وكلفة استبدالهم أرخص من إطعامهم، أما استيراد العبد الأفريقي فدونه خرط المحيط» السابق: ٢٨ - ٢٩.

وما يقوله منير العكش، يذكرنا بما كتبه المفكر العملاق: عباس العقاد، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، منذ أكثر من نصف قرن -عن الزعم القائل بأن أمم الشمال الأوروبية تنزهت عن نظام الرق وهو -فيما يقول العقاد- زعم خاطئ، وقصور في البحث عن حقائق الأسباب، فأمم الشمال الأوروبية لم تمارس نظام الاسترقاق فيما بينها، لكن باعثها علي ذلك لم يكن سموًّا في الأخلاق ولا تفرداً بصفات إنسانية يزعمونها، وإنما السبب في لُبِّه سبب اقتصادي بحت؛ يرجع إلى أن اقتناء الأرقاء في تلك البلاد البارده يكلفها أكثر مما يحطُّ عنها، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق.

ويقول العقاد: إن الباحثين الاجتماعيين من الأوروبيين أنفسهم قد علَّلوا حركة تحرير الأرقاء بعلل كثيرة من ضرورات الاقتصاد؛ مثل: الاحتيال على الكسب، ومنع المنافسة التجارية التي تيسر لأصحاب العبيد من الأرباح ما لا يتيسر مثله لمن يستأجرون العمال الأحرار ويبذلون لهم ما يرتضونه من الأجور. انظر: «داعي السماء بلال»: ٣٧٧، «الفلسفة القرآنية»: ٩٠، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، بيروت: ١٩٧٤م.

ولعلَّنا لا نبالغ لو استنبطنا في ضوء الواقع الذي نعيش فيه اليوم أنَّ الغرب يُمارس على الإسلام والمسلمين نوعًا من التَّسلُّط، يَخدم أهدافَه ومطامعه في المنطقة، وما مشروعُ «**الشَّرق الأوسط الجديد**» بخافٍ، ولا ملتبس على مَن يَحمل هموم هذه الأمَّة وآلامها وآمالها. فمن المعلوم أنَّه مشروعُ تجزئةٍ وتفتيت وتقطيع أوصال، وأنَّ رأس الحربة فيه هو إذكاء الفتنة كلَّما أمكن، وبعثُها حيثما وُجدت، وكيفما كانت؛ طائفيَّة، أو مذهبية، أو عرقية، أو دينية، بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من أبناء الأديان الأخرى.

وإذا كان الاستعمار الغربي قد نجح في القرنين الماضيين في ضرب وَحدة الأمَّة، واستطاع أن يُقسِّمها إلى أقطار ودول؛ فإنَّه اليوم يُعيدُ نفس السِّياسة، ولا زال مبدؤه الاستعماري: «**فرِّق تَسُد**» هو خُطَّتَه الجهنمية التي تعمَل عملَها الآن في بلاد العرب والمسلمين تحت مسمَّيات عدَّة، ولا زالت الأمَّة للأسف الشَّديد تبتلعُ الطَّعْم ذاته.

وما أظنُّني بحاجة إلى تقديم الحجج والبراهين؛ فالعراق الجريح، وأضرابه، لا يَتمارى اثنان في أنَّه طعمٌ ابتلعَته الأمَّة بعُلمائها ومسؤوليها، وإذن؛ فهنا فتنةٌ تبعث الحروب المذهبيَّة التي تطلُّ برأسها القبيح في هذه الآونة، وتشعل العُنف بين الشِّيعة والسُّنة، والصُّوفية، والسَّلفية وغيرها، وهي حروبٌ يُذكِيها صراع موهوم لا مبرِّر له.

ولو أنَّنا استعرَضنا مثلًا أصولَ الشِّيعة الإمامية في ضوء قواعد الإسلام والإيمان؛ فهل نجدُ على مستوى العقل أو النَّقل مبرِّرًا واحدًا لهذه الدِّماء البريئة، التي سالت أنهارًا بين الفريقين؟ هل القولُ بالنَّصِّ على إمامة عليٍّ -كرَّم اللَّه وجهه-، أو القول بعِصمة الإمام، أو انحصار الأئمَّة في عدد معيَّن

من آل البيت يُخرج من الإسلام، أو يَرقى إلى أن يكون فيصلًا للتَّفرقة يُخرج أو يُدخل في الإسلام؟ وهل المذهبُ الذي يَرى أنَّ الخلافة شورى بين المسلمين، وأنَّ الأنبياء والمرسلين هم وحدَهم المعصومون من الخطأ يُبرِّر محاربةَ القائلين بهذا المذهب؟ هل ذهاب السُّنِّي أو الشِّيعي لزيارة آل البيت والأولياء والصَّالحين، والتوسُّل بهم يَجعل دَمَهما حلالًا وقِتالهما واجبًا على من ينكر التوسُّل وزيارةَ القبور؟ وهَب أنَّ الذي يَفعلُه الصُّوفي أمرٌ يُشوش على العقيدة؛ أليس الواجبُ دينًا وشرعًا على مَن يُنكر ذلك أن يَبذل الجهد في تعليمهم ونصحهم وإرشادهم؟ ولماذا تُنفَق الملايين في حملات التَّكفير، والتَّفسيق، والتَّبديع، وتقسيم الأمة، وزَرْع السَّخائم والأحقاد في القلوب، ولا يُنفق درهمٌ واحد في سبيل توعيتِها ووَحدتها، ولَمِّ شملِها في إطار الأخوَّة الإسلامية التي حثَّ عليها القرآن الكريم؟!

وفي اعتقادي أنَّ هذا الحوار العنيف الذي نشهدُه الآن بين أكبر طائفتين من طوائف الأُمَّة الإسلامية، وأعني بهما: الشِّيعة والسنة، والذي سُرعان ما تحوَّل إلى مواجهة دامية مُحزنة، هذا الحوار العنيف المسلح مبعَثُه في المقام الأول تضخيمُ الخلافات المذهبيَّة، وتصويرُها على أنَّها الحقُّ الذي لا مردَّ له، وأن ما يُخالفها فسوقٌ وابتداع، إن لم يكن كفرًا وخروجًا من الملَّة، ولو أنَّ هذه الخلافيَّات درَّسها الشُّيوخ أو المَعنيُّون بها لتلاميذهم دراسةً علمية فقهيَّة صحيحة لكان خيرًا لهم وللمسلمين، وتجنَّبَت الأمة كل هذه الويلات.

وإنَّني لا أزالُ أذكر كيف كانت دراستُنا في الأزهر منذ نعومةِ أظفارنا دراسةً تقومُ على التَّعددية والاختلاف والرَّأي والآراء الأخرى، وبخاصَّة في الفقه وفي علم الكلام؛ حيث الاختلافات الحادَّة بين الأشاعرة، والمعتزلة، والماتريدية، والشِّيعة، والسَّلف، والخلف، والصوفية، ولم

يَحدُث أن تحوَّلت هذه الخلافيَّات يومًا إلى مواجهات عنيفةٍ بين الطُّلاب، وما أذكرُ معركة مذهبيَّة واحدة نشبَت بين الأساتذة الذين كانوا يُدرِّسون لنا عقائد الأشاعرة والمعتزلة، رغمَ انتصارهم الشَّديد لهذه الفرقة أو تلك.

وممَّا يُؤسَف له؛ أنَّ الحدود الفاصلة بين الكُفر والإيمان قد تداخَلت كثيرًا في أمر هذه الخلافيات، وأصبحَ من المألوف لدى أبناء هذا المذهب أو ذاك أن يَنفيَ غيرَه، ولدرجة ألَّا يُسلِّم عليه إذا لقيه في الطريق، وزاد من تفاقُم الخطَر أنَّ هذه الخلافيَّات لم تَعُد مقصورة على قاعات العلم والدَّرس كما كانت قبل ذلك، وإنَّما نزلَ بها دُعاتها والمروِّجون لها إلى الشَّوارع، والمساجد، والمحاضرات في المُدن الجامعيَّة وفي البيوت، ولحضراتكم أن تتصوَّروا مدى خطرِ الحديث عن هذه الأمور بين الدَّهماء والبُسطاء والشَّباب المندفع بطبيعته.

وقد صاحبَ ذلك أشرطةٌ ونشرات وكتيِّبات، وفي السَّنوات القليلة الأخيرة انتقلَت هذه المعاركُ إلى القنوات الفضائيَّة، وشاهدنا على شاشاتها الحروب الكلاميَّة الطَّاحنة بين السُّنَّة والشِّيعة مرَّة، وبين السَّلفية والصُّوفية مرة أخرى، وبين السلفية وغيرها مرَّة ثالثة.

واستنكرَ النَّاس ما سمعوا، ولم يُصدِّقوا أعينَهم وهم يرون العلماء من الفريقين يَتقاذَفون بينهم القولَ بتحريف القرآن الكريم، وتكفيرِ من أسموهم القُبوريِّين، وغير ذلك من الدَّعوات التي ما أشكُّ لحظةً في أنَّها تُبعث بين الحين والحين، بفعل أيْد آثمة لا تجني الأمَّة من ورائها نفعًا ولا فائدة، غيرَ المزيد من الانقسام والتَّشرذم.

لقد قارنتُ وأنا أكتب هذه الورقةَ المتواضعة بين علاقة السُّنة المصريِّين بإخوانهم الشِّيعة أيَّام الإمام شرف الدِّين الموسوي صاحب المراجعات، والشَّيخ سليم البشري والشَّيخ شلتوت، وبين هذه الأيام التي نعيشُها الآن،

وانتهيتُ من المقارنة إلى أنَّ دعوةَ التَّقريب رغمَ أنَّها بدأت في مصر وبمباركة الأزهرِ وشيوخه، وانطلاقًا من وسطيَّة الأزهر واعتداله واحترامِه البالغ للمذاهب الأخرى، إلَّا أنَّ هذه الدَّعوة كانت تصُبُّ دائمًا في مصلحة إخواننا الشِّيعة، ولا يفيدُ منها الأزهر ولا أهل السُّنة في مصر شيئًا في مجال التَّقريب، على أقلِّ تقدير..

وأكتفي في التَّدليل على هذه الدَّعوى بالرُّجوع إلى المراجعة الرَّابعة من مراجعات [١] الإمام عبد الحُسين الموسوي، والتي يُخاطب فيها شيخَ الأزهر آنذاك؛ الشَّيخ سليم البشري بقوله: «نعم؛ يُلَمُّ الشَّعث، ويُنتظم عقدُ الاجتماع بتحريركم مذهبَ أهل البيت، واعتبارِكم إيَّاه كأحدِ مذاهبكم، حتى يكون نظرُ كلٍّ من الشَّافعيَّةِ والحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والحنبليَّةِ إلى شيعةِ آل محمَّد -صلَّي اللَّهُ عليه وآله وسلَّم- كنظرِ بعضِهم إلى بعضٍ، وبهذا يَجتمعُ شملُ المسلمينَ، ويَنتظمُ عِقْدُ اجتماعِهم.

والاختلافُ بين مذاهبِ أهلِ السُّنَّةِ لا يَقلُّ عن الاختلافِ بينها وبين مذهبِ الشِّيعة، تشهدُ بذلك الألوفُ المؤلَّفةُ في فروع الطَّائفتين وأصولهما، فلماذا ندَّدَ المندِّدون منكم بالشِّيعةِ في مخالفَتهم لأهلِ السُّنةِ، ولم يُندِّدوا بأهل السُّنة في مخالفتهم للشِّيعة؟ بل في مخالفة بعضهم لبعض؛ فإذا جاز أن تكون المذاهبُ أربعة، فلماذا لا يَجوز أن تكون خمسة؟ وكيف يُمكن أن تكون الأربعةُ موافقةً لاجتماع المسلمين، فإذا زادت مذهبًا خامسًا تمزَّق الاجتماع، وتفرَّق المسلمون طرائق قِددًا»[٢].

(١) نقول هذا بالرَّغم ممَّا أثير حول صحَّة هذه المراجعات والتشكيك في نسبتها إلى الشَّيخ سليم البشرى.

(٢) كتاب «المراجعات» بقلم الإمام: عبد الحسين شرف الدِّين الموسوي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

وهذا النَّص يَعكس نوعًا من الأدبِ الرَّفيع في حوار العلماء، والاحترام المُتبادَل بين الفريقين، ويُصوِّر أن منتهى آمال الشِّيعة في ذلك الوقت أن يُعَدَّ المذهبُ الإمامي مذهبًا خامسًا على قَدَمِ المساواةِ مع المذاهب السُّنِّية الأربعةِ في مصر وفي الأزهر الشَّريف..

وقد تمَّ ذلك بالفعل؛ على يَدِ الشَّيخ شلتوت شيخ الأزهر في فتواه الشَّهيرة!، كما طبَعت وزارةُ الأوقاف المصرية كتاب: «**المختصر النافع في الفقه الإمامي**»، ولا زالَ المذهبُ الإمامي يُدرَّس ضمن مادَّة الفقه المقارن في كليَّة الشَّريعة في جامعة الأزهر إلى يومنا هذا.

ولو رُحنا نبحثُ عمَّا أفادَه السُّنة في مصر من دعوة التَّقريب؛ فإنَّنا لا نجدُ شيئًا يُذكر، بل وجدنا في الأعوام الأخيرة ما يُشبه اختراق الثَّقافة الشِّيعية للسَّاحة في مصر بلد الأزهر، وبالأسلوب ذاتِه الذي ألْمَعنا إليه؛ حيثُ انتشرت الكُتيِّبات التي تحمل الدَّعوات السَّافرة إلى التمذهُب بمذهب الشِّيعة، بأقلامٍ مِصريَّة وغير مِصرية، وبعضُ هذه الأقلام يَبدأُ أحدَ الكراريس العقدية بعد البسملة بقوله: «والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ونبيِّنا محمَّدٍ وآله الطَّيِّبين الطَّاهرين، ولعنةُ اللَّه على أعدائهم أجمعين، من الأولين والآخرين».

ويَرى أنَّ محور وَحدة الأمَّة هو حديثُ الثَّقلين، وأنَّ الطَّريق لهذه الوَحدة هو القولُ بعقيدة الإمامة، ولكم أن تُقارِنوا بين ما كتبَه الإمامُ شرف الدِّين وما يُكتب الآن من كبارِ الشُّيوخ، ويُروَّجُ بجوار الأزهر الشريف في طباعةٍ أنيقة، تُوزَّعُ مجّانًا، أو بسعرٍ رمزيٍّ.

وأمرٌ آخر..

إنَّ ما بين أيدينا من وثائق وكتابات يُروِّج لها المتشيِّعون الجُدد، لم يَعُد دعوةً لتقاربٍ بين المذاهب، ولا تقريبًا بين المتمذهبين، **بل هو إقصاءٌ**

للمذهب السُّنِّي، وقذفٌ لأئمَّة الحديث عندهم، وهو في عبارة موجزة طرحُ المذهب الشِّيعي الإمامي باعتبارِه مذهبَ الأمَّة الوحيد، وكلُّ ما عداه هو خروجٌ وابتعاد.

يقولُ أحدهم في كتابٍ له: «مِن هُنا كانت رؤيتي لأهميَّة طرح مدرسة أهل البيت في السَّاحة، لا على أنَّها مجرَّد مذهبٍ خامس، يَنبغي الاعترافُ به؛ فالبعضُ من خصوم مدرسة أهلِ البيت لا يُمانع في تقديم هذا التَّنازل كحلٍّ وسَطٍ، يَهدفُ في النهاية إلى حصر أُطروحة آل البيتِ في إطار لجنة تشريعيَّة، وإنَّما كانت رؤيتي لأهل البيت ومدرستِهم باعتبارهم قادةَ الأمَّة، وطليعة التَّضحية والتَّغيير المستمر».

ويُفصِح الكاتب بوضوحٍ عن هدفِه النهائي قائلًا: «كيف يُمكن لأمَّة تحلم بإقامة دولة إسلامية وهي لا تمتلك مشروعًا فقهيًّا أو فقهاء مجتهدين؟ الجميعُ يعلَمون أنَّ المسلمين الشِّيعة وحدَهم الذين يَمتلكون هذا البناء الفقهيَّ، وهذه المدرسة المتكاملة».

إنَّه حديثُ الإقصاء، لا حديث اللقاء، حديثُ نفي الآخر وإنكارِه، وليس التَّحاور معه، وهل يُقبل في منظور الدِّين ومنطق العقل أن يقول قائلٌ -منكرًا تراثَ الحديث السُّنِّي كلِّه- يقول: «لقد دُوِّنت كتبُ الصِّحاح التي يَتحدَّثون عنها -أي أهل السُّنة- بعد قرنين من رحيل النَّبي الأكرم، ولذا؛ جاءت مدوَّنات هذه الكتُب خليطًا من النُّصوص المبتورة عن مواضعها، والظُّروف المحيطة بها، بالرَّغم من صحَّتها، وتلك النُّصوص المكذوبة على رسول اللَّه -صلَّى اللَّهُ عليه وآله-، وتلك النُّصوص المُنتقاةُ التي لا ترقي إلى مرتبة النَّص الشَّرعي؛ مثل: مقولة عبد اللَّه بن عمر الشَّهيرة، التي تتمشَّى مع المصالح الأُمويَّة ومع رغَبات كلِّ النُّظُم الحاكمة...»..

أقولُ: هذا حديثٌ يَلتقي فيه التَّشيُّع مع الاستشراق، فما يُردِّده «جولد زيهر» و«لامانس» وغيرهما هو ما تُذيعُه هذه الأقلامُ التي تضربُ فلسفةَ

التَّقريب في مَقتل، فلم يَعُد التَّقريب الآن بسبب هذه الأقلام المسكوت عنها من المراجع الشِّيعية الكبرى هو طريقَ وَحدة الأمَّة الإسلامية، ولم يَعُد الصِّيغةَ العلميَّة النَّزيهة التي من أجلها رُفعَت راياته، التي انطوى تحتَها الجهابذةُ المخلصون من فقهاء الفريقين، بل انقلَب التَّقريب مؤخرًا من حركةٍ علميَّة إلى أداة سياسيَّة لتحقيق مآربَ أخرى خفيَّة.

هل تسمحون لنا أيُّها السَّادةُ العلماء، أن نطرحَ في هذا اللِّقاء الهامِّ، ومن موقع المُعاناة التي نعيشُها -مسائلَ نراها هامَّة وضروريَّة:

١-العودةَ بالخلافيَّات إلى أروقة الدَّرس ومجالس العلماء المغلقة، صيانةً لهذه الأفكار الدَّقيقة من أن تصبح في متناوَل من لا يَملكون أدوات الفَصْل فيها، ولا يُحسِنون قواعدَ أدب البحث والمناظرة، وحتى لا تتشوَّه تلك الأصولُ والخلافيَّات، وتتحوَّل إلى مادَّة خبيثة، تُشعِل نارَ الفتنة بين المسلمين.

٢-تصدِّي علماءِ الأمَّة من جميع المذاهب، وحسب خُطَّة دقيقةٍ للعابثين بتُراث الأمَّة ومُقدَّساتها، والتَّبرُّؤ المُعلَن والصَّريح من كلِّ ما يُعكِّر صفوَ العلاقة، ولحسابات سياسيَّة حينًا، وحسابات خارجيَّة حينًا آخر.

٣-لا زالَ الأزهرُ حتى هذه اللَّحظة يَترفَّعُ عن الخوض في هذه المتاهات، ولا يريدُ أن يَصبَّ مزيدًا من الزَّيت على النَّار، برغم ما يتعرَّض له مذهبُ أهل السُّنة من لَمْزٍ وهَمْزٍ، بل ومن إساءة صريحة..

وأخشى ما أخشاه؛ أن تؤدِّيَ الاستفزازات المستمرَّة إلى أن يَعدِل بعضُ علماء الأزهر عن هذا النَّهج، فحبَّذا لو اشتملَت توصيات المؤتمر على الكفِّ تحديدًا عن الإساءة إلى الصَّحابة -رضوانُ اللَّه عليهم-، وإلى الإمام البخاريِّ ﷺ، وأيضًا الكفِّ عن الهجوم على أصولِ المذهب الشِّيعي، ولَمْزِ التَّشيُّع وغَمزه، واتِّهامه بما هو براءٌ منه.

وشكــــرًا لحُسـن استماعِكـم

كلماتٌ
في استردادِ الوَعيِ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحضور الكريم..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فأظنُّكم تتَّفقون معي في أنَّه لا وقتَ لدَينا لتَرَفِ المُقدِّمات ومُحسِّنات الألفاظ والكلام المنمَّق وما إلى ذلك مِمَّا تُقيَّم به الكلماتُ والخُطَب في مثل هذه المحافِل التي ترصُد الواقِعَ وأزماتِه.

وقد أحسَنَت مُؤسَّسَة «مِسْك الخيرية» حين أمسَكَت برأسِ الدَّاء ووضعته على طاولةِ البحث، وأخضعته للتفكيك وسَبرِ الأغوار وطرح وجهات النَّظَر، من مختلِف الزَّوايا وتبايُن الآراء والأنظار.

أمَّا وجهة نظري التي أسعدُ بالمشاركةِ بها في هذه النَّدوةِ الهامَّة فقد تَسْمَحُون لي أنْ أعرضها مُلخَّصةً في إيجاز أرجو ألَّا يَكونَ مُخِلًّا، وأن يُعبِّر عن الواقع البئيس الذي يُعاني منه الشَّرق والغَرب الآن، أكثرَ مِمَّا تُعبِّر عن الأماني والآمال التي لا تنزل إلى أرض الواقع، ولا تواجه ما يجري عليه من مصائِبَ وآلامٍ.

(*) ألقيت هذه الكلمة في النسخة الاستثنائية من ملتقى «مغردون» بمؤسسة مسك الخيرية، بالرياض، بالمملكة العربية السعودية، في يوم: ٢٤ شعبان: ١٤٣٨هـ، الموافق: ٢١ مايو: ٢٠١٧م.

ولَعَلَّه لا يتمارى أحد -الآن- في أنَّ عِلَّة العِلَلِ وأصلَ الدَّاء في أُمَّتنا العربيَّة والإسلاميَّة، هو نسيانُها الدَّائِم المُتكرِّر-عن قصدٍ أو غير قصد- لكتابهم الإلهي الكريم، الذي صَنع منهم أُمَّةً واحدة قادَت العالَم وأنارته وعلَّمَته قِيَم العدل والأخوَّة والمُساواة، وكيف يمتلكُ عناصر القُوَّة الماديَّة والمعنويَّة. .

في هذا الكتاب المبينِ؛ الذي هو حُجَّةُ اللَّه على المسلمين في الدنيا والآخرة، آيةٌ مُحكَمةٌ صريحةٌ تَنهَى المسلمين والقائمين على أمورهم، ومن بينهم: العُلَماءُ الذين هم ورَثةُ الأنبياءِ، تنهاهم جميعًا عن التنازُع والتفرُّق والاختلاف، وتُحذِّرهم من الفشلِ والوَهْن والهوان الذي ينتظرهم كنتيجةٍ حتميَّةٍ مؤكَّدة، إنْ هم خرجوا على هذا «القانون الإلهي» الذي عَرفت قِيمتَه أممٌ أخرى استعصمت به وتوحَّدت مصالحها الكُبرى من حولِه رُغمَ تباينهم: لُغةً وعِرقًا وثقافةً ومذهبًا، هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

لننظُر أيُّهَا السَّادَة من حولنا، هل نجد لهذه الحُروب التي تأكلُ الأخضر واليابسَ من سببٍ غيرَ التَّنازعِ وما أدَّى إليه من فشلٍ وذهابِ رِيحٍ حذَّرنا منهما القُرآن الكريم!

ولننظرْ كيف أنَّ الحربَ العالميَّةَ الأولى لم يَزِد عُمرها على سنواتٍ أربع، والحَربَ العالميَّة الثانية بدأت وانتهت في غضونِ سنواتٍ سِتٍّ؛ فكم من سَنَةٍ مضت الآن على الحَرب التي اندلعت في منطقتِنا ولم يَخْبُ لها أُوَارٌ حتى الآن، وكلما أَوشَكَت أن تكون وميضًا بُعثت من جديدٍ لتكونَ أذكَى ضِرامًا مِمَّا كانت عليه.

وإنَّه وإن كانت الفُرقةُ هي أصلَ الدَّاء وعِلَّتَه؛ فإنَّ أمانةَ الكَلِمَة تستوجِب أنْ أضمَّ لهذا السَّببِ سببًا آخَرَ يَستغلُّ جَوَّ الاختلافِ أسوأَ استغلالٍ، وهو:

الأطماع العالميَّة والإقليميَّة التي لاتزال تُفكِّر بعقلية المُستَعْمِرين، أو عقلية الحالمين باستعادةِ ماضٍ قام على نزعة التغلّب العِرقي والتَّمدُّد الطائفي، وإن كانت هذه الأطماع المريضة مِمَّا لا يُقرُّها الدِّينُ ولا الخُلُق الإنسانيُّ، وتأباها المواثيق الدوليَّةُ، ويرفُضُها شُرفاءُ العالَم المتحضِّر وحكماؤه.

إنَّ هذا الدَّاءَ الذي أُصيبت به الأُمَّة أخيرًا، وأَطْمَعَ فيها أعداءَها والمتربِّصينَ بها، لم يُؤتِ ثمارَه المُرَّةَ فقط فيما تركه من تقهقُرٍ وتخلُّف على الأصعدة كافة، بل كان له تأثيرُه البالِغُ السُّوء في فهم شريعة الإسلام واضطراب هذا الفهم في أذهان الناس، وبخاصةٍ الشبابَ منهم، هذا الأثرُ الذي تبلورَ أخيرًا في ظاهرةِ الغلوِّ والتَّشدُّد والتطرُّف، ثم الإرهاب -الذي استطاع بكلِّ مَرارةٍ وألمٍ- أن يُقدِّم هذا الدينَ الحنيف للعالَم في صُورةِ الدِّين المتعطِّش للقتل والذبح والدماء، وبصُورةٍ همجيَّةٍ وحشيَّةٍ لم يَعرفها مِن قَبلُ تاريخُ المسلمين الذي بلغ عُمرُه الآنَ ما يَقرُبُ مِن خمسةَ عَشَرَ قرنًا من الزمان، ولو أنَّ أعدَى أعداءِ المسلمين أراد أنْ يَكِيدَ للإسلام ويُنفِّرَ منه ويصدَّ الناس عنه لَمَا استطاع أن يَبلُغَ عُشْر مِعشارِ تأثيرِ صورةٍ واحدةٍ من صوَر الذبح والقتل والتفجير التي تبثُّها بعضُ وسائلِ الإعلام والتواصل الاجتماعي -عن قصد- وهي تصور «الإسلام» للناس في هذه الصورة البشعة المُنفِّرة، وتقدمها بحسبانها الصورة التي يَجبُ على العالَم الآن أن يتصوَّر الإسلامَ من خلالها، ووراءَ ذلك من خيانة التاريخ والافتراء على الحقِّ والإنصافِ ما يكون وراءَ الأَكَمَةِ عادةً مِن أيادٍ خفيَّةٍ تَعبثُ بمَصائرِ الشُّعوب ومُقَدَّرات الأوطانِ.

وإذا كُنَّا بصدد البحث عن أهم أسباب هذه الظَّواهر الغريبةِ على الإسلام والمسلمين وحضارتهم: شكلًا وموضوعًا وتاريخًا؛ فإنِّي لا أرتابُ في أنَّ موجةً عاتيةً مِن ثقافة الكراهية غَزَت عقولَ بعضٍ من شبابنا المُغَرَّرِ بهم،

وهيَّأتهم لتنفيذِ خطَّةٍ خبيثةٍ أُحكِم نَسجُها فيما وراءَ البحار، بعد ما وَجَدَت في سياسات التَّعليم ومُخرجاتِه في بلادنا منافذَ أو نقاطَ ضعفٍ نَفَذوا منها إلى تجنيدِ هؤلاءِ في يُسْرٍ وسهولةٍ.

ولا أريد أن أتوقَّف طويلًا عند أزمة التعليم في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ، وإنَّما أكتفي بالقول بأنَّه تعليمٌ سَمحت بعضُ مناهجه بالتوقُّف عند التراكُمات التاريخيَّة لنزعاتِ الغلوِّ والتَّشدُّد في تراثنا، والتي نشأت من تأويلاتٍ وتفسيراتٍ منحرفة لبعض نُصُوص القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة وأقوال الأئمة، استُغِلَّت في فَرزِ عقائدِ النَّاس وتصنيفهم لأدنى سببٍ أو ملابسةٍ إلى مسلمين وكفار، ودَفعت أصحابَ الفُهومِ المُعوَجَّة إلى استدعاء أقوالٍ فقهيَّة وعقدية قيلت في نوازلَ ارتبطت بفترةٍ زمنيَّة معيَّنة، وسرعان ما حولوها إلى نصوص محكمة وثوابتَ قطعيّةٍ تُحاكي قواطع الكتاب والسُّنَّة، وجعلوا منها معيارًا للتبديع والتفسيق ثم التكفير.

وقد رأينا جماعاتِهم يَجترئون في اندفاعٍ أهوجَ، وجهالةٍ عمياء على تكفير الحُكَّام وتكفير المحكومين لأنهم رَضُوا بحُكَّامهم، وكذلك يُكفِّرون العلماء لأنهم لا يُكفِّرون الحكام، وهم يُكفّرون كلَّ من يرفضُ دعوتَهم، ولا يُبايع إمامَهم، وكذلك الجماعات التي لا تنضم إليهم «وقد اعتبروا كلَّ العصور الإسلامية بعد القرن الرابع عصورَ كُفرٍ لتقديسها لصَنَم التقليد المعبود من دون اللَّه»[(١)].

ولست في حاجة إلى تسليط الضَّوء على العلاقة الوُثقى بين مذاهب التكفير وبين ثقافة الكراهية ورفض الآخر وازدرائه.

---

(١) «ثقافة الإرهاب: قراءة شرعية» لمصطفى بن حمزة، ضمن كتاب: «الأزهر في مواجهة الفكر الإرهابي»: ٢٠١٥، بتصرف، الطبعة الثانية ٢٠١٦م.

وقد زاد مِن نَشْرِ هذه الثقافة الكريهة استغلالُ هذه الفئة الضالة التقدَّمَ التقنيَّ الهائل في ترويج أفكارهم المسمومة بين الشباب، وبأساليبَ مدروسةٍ تُغري ضحاياها بالارتباط العقلي والعاطفي ثم بالانخراط السلوكي والعملي.

أيها الحفل الكريم..

أرجو ألَّا أكونَ قد كرَّرتُ على مسامِعِكُم كلامًا تعلمونه من قبلُ، وعُذري أن هذا الكلام -على إيجازه- توطئةٌ -لا مَفَرَّ منها- للبحث عن مَخرجٍ غيرِ تقليديٍّ لهذه الأزمة التي ألصقت أشنعَ الجرائم وأبشعَها بالإسلام والمسلمين.

وأزعمُ أنَّ القراءاتِ الخاطئةَ لهذا الفكر التكفيري، والتباطؤَ في إدانته إدانةً حاسمةً، كلُّ ذلك ساعد على استفحال هذا الوَباء وانتشاره بين الشباب.

ومع كلِّ ذلك، فلا أزعمُ أن النَّفَقَ كلَّه مُظلمٌ مِن أوَّله إلى آخِرِه، فهناك العديدُ من نقاط الضوء والأمل، إن صحَّ العزم وخلصت النوايا واتحدت الكلمة وتوحَّدت المصلحة.

وإذا كنا قد اتفقنا على أن هذا الشَّباب إنَّما اختُطِفَ مِن بين أيدينا للأسباب التي ذكرناها، فعلينا أن نعترفَ في جِدِّيَّةٍ وشجاعةٍ بوجوب إعادة النظر في التعليم ومناهجه بمختلِف مراحله، وهذا يَتطلَّب تنسيقًا جادًّا بين مسؤولي مؤسساتِ التعليم الديني ومسؤولي التَّربيةِ والتعليم والجامعات، والثقافة والشباب والرياضة، لوضعِ استراتيجيَّةٍ تعليميَّةٍ مُتكاملةٍ يُقدَّمُ فيها الدِّينُ في الصورة التي أرادها اللَّه له؛ هُدًى ورحمةً وتيسيرًا للناس ورفعًا للحرج عنهم، وإرساءً لمبدأ حُرمةِ الدِّماء، وعِصمةِ الأموال والأعراض، وترسيخًا لقِيَمِ الأخوَّة والتسامح.

وإذا كُنَّا قد اتفقنا أيضًا على خطر الاستغلال السيئ لوسائل التواصُل الاجتماعي في هذه الأزمة، فقد آن الأوان لنُفكِّر جميعًا للبحث عن وسيلةٍ توقِفُ هذا الانفلات في تكفير الناس بلا ضابطٍ ولا رابطٍ، وتَردَعُ التسابُقَ المَحمومَ في إفساد الشباب، وتَمنعُ المَدَّ التخريبيَّ الذي يُمَهِّدُ لسياسات الاستعمار الجديد ومشاريعِ التقسيم والتجزئة وإذلالِ الشعوب.

هذا وقد تنبَّه الأزهرُ الشريف لهذا الخطرِ المُحدِقِ بشبابِ الأمَّة؛ فأنشأَ مرصدًا إلكترونيًّا لمكافحةِ الفِكرِ المتطرِّفِ، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وتحصين الشباب من ثقافة العنف والكراهية، ويَعملُ به -الآن- أكثرُ من مئةِ باحثٍ من شباب الأزهر، يَبُثُّونَ رسائلَهم بإحدى عشرةَ لغةً، وذلك في إطارِ استراتيجيّةٍ جديدةٍ تَستهدِفُ توظيفَ وسائل الاتصال الحديثة كافَّة في التصدِّي للفكرِ الإرهابيِّ.

رسالتي اليوم لبناتي وأبنائي من شبابِ الأُمَّة هي: أن يَستمسكوا بإسلامهم الذي يحترم إنسانية الإنسان، ويُحَرِّمُ القتلَ ويصون العِرضَ، وأن يَعتَزّوا بنبيهم الذي أرسله اللَّه رحمةً للعالَمينَ، وأخبر عن نفسه ﷺ فقال: «أيها الناس إنَّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ»(١).

واعلموا أيُها الشَّبابُ أنَّ الناس يَنبِذون الأديانَ ويَكفُرون بها حين يَشيعُ فيها الغلوّ والتطرّف، وحين يكونُ القتلُ أداةَ التعريف بها، وأسلوبَ الدعوة إليها، واعلموا أن المتطرِّف والإرهابيّ هما أسرع الناس مُروقًا من الدِّين،

(١) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».
ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

وأن الساعين في هَدْم الأوطان سيلعَنُهم التاريخُ، وسوف يذهبون، وتَبقى الأوطانُ شاهدةً على انحرافهم.

واعلموا أن سُبُل نشر الإسلام حدَّدها القرآنُ الكريم في الحكمة والموعظة الحسنة، والحوار بالتي هي أحسن، وليس بالأحزمة الناسفة والمتفجرات.

أيُّهَا الشَّبَاب..

كن سيِّدَ نَفسِكَ ولا تَكُن عبدًا لِمَا تَتلقَّاه مِن وسائل التواصل الاجتماعي مِن أباطيلَ وأضاليلَ.. واعلَمْ أنك مسؤولٌ يومَ القيامةِ عن «عقلك»: هل ميَّزتَ به بين الحق والباطل، أو رَهنتَهُ لآخَرينَ يَعبثون به كما يريدون ووقتما يشاؤون..

وفي ختام كلمتي: أُذَكِّرُ قادةَ «القمة العربية الإسلامية الأمريكية» وزعماءَها بأن شعوب المنطقة التي مزَّقتها الحروبُ، وشَرَّدت أهلَها في الفيافي والقِفار، وبدَّلت أمنَهم رُعبًا وفزَعًا، وأذاقتهم مرارةَ اليُتم والثُّكْلِ والترمُّل وأورثتْهم فقرًا ومرضًا وجوعًا وتشريدًا، هذه الشعوب تنتظرُ من هذه القمة التاريخيَّة قراراتٍ حاسمةً، تقضي على الإرهاب وتُجفِّف مصادرَه ومنابعه، وتوقِفُ العبثَ بدماء الناس وبأمن أوطانهم ومُقَدَّراتهم، وأن تَضمن لهم حقَّهم في حياةٍ آمنةٍ وعَيشٍ كريمٍ.

كما أُذَكِّرُ أنَّ القضيَّةَ الفلسطينيَّة التي هي قضية العربِ والمسلمين الأولى تأتي في مُقدِّمة القضايا التي تنتظرُ من هذه القِمَّةِ العالميَّة وَقْفةً عادِلةً تُحَقِّقُ الأمْنَ والسَّلَام والاستقرار لشعبِ فلسطين ولشعوب العالَمين العربيِّ والإسلاميِّ.

شُكرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم.

والسَّلام عَليكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

تَهافتُ الفِكرِ الفقهيِّ
عندَ دُعاةِ الغُلُوِّ والتّشدُّدِ(*)

أيها السادة:

في مناقشة الدعاوى التي تروج لها هذه الفئة المتشددة الغالية التي تقتلنا باسم الإسلام، وباسم شريعة الإسلام؛ ينحصر حديثي، تلك الفئة التي تلصق جرائمها بهذا الدين الذي جاء ليعصم دم الإنسان ويحيطه بضمانات لم توجد في أي دين آخر، ولا في أي نظام اجتماعي لا من قبله ولا من بعده.

ويُمكنُنا أن نَنظُرَ في فلسفةِ القِتالِ في الإسلامِ التي يَنطلِقُ منها فقهُ دُعاةِ الغُلُوِّ والتّشَدُّدِ، ويَزعُمونَ أنَّه قَواعدُ شرعيَّةٌ، يُجمَعُ عليها من فقهاءِ المسلمينَ، ويُروِّجونَ لها بين قِطاعٍ عَريضٍ من الشَّبابِ؛ لِيَكسَبوا تَعاطُفَهم مِن قواعدِ الفقهِ الإسلاميِّ ومِن أحكامِه في تَنظيمِ أمورِ القِتالِ والجِهادِ. وقد وَجدنا -كثيرًا من الشَّبابِ- يَقرؤون هذه الآياتِ المغلوطةَ ويَتعصَّبونَ لها ويُجادِلونَ بها دونَ علمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنِيرٍ.

الأصلُ الأولُ:

عندَ دُعاةِ الغُلُوِّ والتّشدُّدِ هو: (أنَّ اللَّهَ تعالى أمرَ المسلمينَ برمي الكُفّارِ وقِتالِهم بكلِّ وسيلةٍ وبأيّةِ أداةٍ تُبيدُهم وتُطهِّرُ الأرضَ مِن رِجسِهم كائنةً ما كانَت هذه الوسيلةُ أو هذه الأداةُ).

الأصلُ الثَّاني:

يَجوزُ شرعًا مِن أجلِ تَحقيقِ هذا الهدفِ أن نَقتُلَ المقصودِينَ بالقِتالِ وهم

(*) محاضرة ألقيت بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة.

الكُفَّارُ، وبالتَّبعيَّةِ يَجوزُ قَتلُ غيرِ المَقصودِينَ مِن النِّساءِ والصِّبيانِ، ومَن في حُكمِهم مِن الكُفَّارِ ممَّن لا يَجوزُ قصدُهم بالقتلِ . .

بعبارةٍ أوضحٍ : إذا كانتِ الوسيلةُ الَّتي يُقتَلُ بها الكفَّارُ مِن شَأنِها أن تَقتلَ غيرَهم ممَن لا يَجوزُ قتلُهم : كالنِّساءِ، والصِّبيانِ، والأعمَى، والمقعَدِ، والرَّاهبِ . . . إلخ ففي هذه الحالةِ لا مانعَ من قَتلِ هؤلاءِ الذين لا يُقتَلون .

الأصلُ الثَّالثُ :

إذا تَترَّسَ الكفَّارُ بالمسلِمين، أَي اتَّخذُوهم دُروعًا يَتَّقونَ بها أسلحةَ المسلمينَ فإنَّه يَجوزُ قَتلُ المسلمِين المُتترَّسِ بهم . . ويَقولُ هؤلاء الدُّعاةُ : إنَّ هذا الأصلَ هو ما يُسَمى في الفقهِ بمسألةِ «التَّترسِ» .

ويَقفِزُ هؤلاءِ الدُّعاةُ من هذه الأُصولِ إلى القولِ «بأنَّ قِتالَ الكُفَّارِ- أينما كانوا -أمرٌ مشروعٌ، حتَّى ولو أَفضَى إلى قَتلِ عددٍ من المسلمِين ممَّن يُقدَّرُ وجُودُهم حَالةَ القِتالِ -لسببٍ أو لآخَرٍ- ضرورةَ عدمِ إمكانِ تَجنُّبِهم والتَّمييزِ بينهم وبين الكفَّارِ الحربيِّينَ . . ويقولُ هؤلاء : إنَّه مع التَّسليم بأنَّ قَتلَ عددٍ من المسلمينَ مَعصومِي الدَّمِ مَفسدةٌ كبيرةٌ بلا شكٍّ، إلّا أنَّ الواقعَ في هذه المفسدةِ جائزٌ، بل مُتعيِّنٌ دفعًا لمفسدةٍ أعظمَ وهي : مَفسدةُ تَعطيلِ الجهادِ .

ونحن لو رُحنا نُقارِنُ بين هذه الفتاوِي العَجيبةِ وبين المذاهبِ والآراءِ المُعتبَرةِ الَّتي اتَّفقَ عليها جمهورُ فقهاءِ المسلمِينَ، فسوف تُطالِعُنا مُفارقاتٌ هائلةٌ، وتعميماتٌ خاطئةٌ تَنسِفُ هذه الفَتاوِي مِن الجُذورِ، وتُحِيلُها إلى ضربٍ من العبثِ في الفَهمِ والتَّهافُتِ في التَّفكيرِ، والخطأِ في التَّنظيرِ .

فليس صَحيحًا أنَّ المسلمِين مأمورونَ بقتالِ الكفَّارِ وتَتبُّعِهم في كلِّ مكانٍ ومَحوِهم مِن على وجهِ الأرضِ، وقد أَشرنا إلى أنَّ هذه المقولةَ تُحيلُ الإسلامَ برُمَّتِه إلى مغالطةٍ مُضحكةٍ، بل تَقدحُ قَدحًا مُباشرًا في مَنطِقيَّةِ القرآنِ الكريمِ ومصداقِيَّتِه، وهو كِتابُ العقلِ وكِتابُ الحُجَّةِ والبرهانِ . .

إنّ العقلَ -أيُّها السَّادةُ- هو قُطبُ الرَّحَى في كلِّ خطاباتِ القرآنِ الكريم للنَّاسِ، وهو المِحورُ الأساسيُّ الَّذي تدورُ عليه كلُّ تكاليفِ الشَّرعِ، أو ما يُسمَّى «خِطابَ اللَّهِ المُتعلِّقَ بأفعالِ المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا».. ومَنزلةُ العقلِ في القرآنِ الكريم من المسلَّماتِ الّتي لا تَقبلُ نِزاعًا ولا جِدالًا، وتلاوةُ القرآنِ تُثبتُ ذلك بثُبوتِ أرقامِ الحسابِ، وبصورةٍ يَنفرِدُ بها هذا الكِتابُ عن سائرِ الكُتبِ السَّماويّةِ، فصحيحٌ أنَّنا نَجِدُ في كتبِ الأديانِ السَّابقةِ ما يُشيرُ إلى شأنِ العقلِ صراحةً أو ضِمنيًّا، لكن صحيحٌ أيضًا أنَّ هذه الإشاراتِ ما كانت تَرِدُ في سِياقاتٍ مَقصورةٍ لبيانِ حُجِّيَّةِ العقلِ في البلاغِ الإلهيِّ للنَّاسِ.

بل ربَّما يَلمَحُ النَّاظِرُ في هذه الكتُبِ -وكما يَقولُ الأستاذُ العقَّادُ- «شيئًا مِنَ الزِّرايةِ بالعقلِ، أو التَّحذيرِ منها، لأنَّه مَذلَّةُ العقائدِ، وبابٌ من أبوابِ الدَّعوَى والإنكارِ»[(١)] ويَكفِي القَولُ بأنَّ مادةَ: «عقل»، و«فكر»، و«نظر»، و«فقه» بمشتقَّاتِها وَردت بهذا الكتابِ الكريم أكثرَ من مئةٍ وعشرين مرةً.

وإذًا فليس صحيحًا أبدًا أن يُخبِرَ القرآنُ الكريمُ ببقاءِ الكفَّارِ إلى يوم القيامةِ، ثُمَّ يَأمرُ المسلمينَ بقتالِهم، واستئصالِ شَأفَتِهم لتطهيرِ الأرضِ مِن أرجاسِهم. إنَّ هذا الأمرَ لابدَّ وأن يَؤُولَ في النِّهايةِ إلى تَكذيبِ خَبرِ اللَّهِ تعالى في كتابِهِ المُحكَمِ.. فبقاءُ الكفَّارِ كحقيقةٍ قَرّرَها القرآنُ وصدَّقها الواقعُ- والأمرُ الإلهيُّ بإبادةِ الكُفرِ ضدَّانِ لا يَستقيمُ اجتماعُهما في عقلٍ سَوِيٍّ أبدًا..

وهنا نَتساءلُ: هل يُشكِّلُ الكفّارُ مَصدرَ عَداءٍ ثابتٍ للإسلامِ والمسلمينَ، بحيث يَتوجَّبُ على المسلمينَ مُبادرتُهم بالقتالِ كلَّما وَجدوا إلى ذلك سبيلًا؟.

إنَّ جمهورَ الفُقهاءِ منَ المالكيَّةِ والحنفيَّةِ والحنابلةِ يُقرّرون أنَّ «السِّلْمَ» هو الأصلُ في عَلاقةِ المسلمِين بغيرِ المسلمِينَ.. ويَلزَمُ هذا الأصلَ أنَّ غيرَ

(١) «موسوعة العقاد الإسلامية» ٥: ٨٢٩.

المسلمِينَ إذا لم يُعلِنوا الحربَ على المسلمينَ أو يَعتدوا عليهم فلا يَجوزُ للمسلمِينَ قِتالُهم. . والقرآنُ صريحٌ في ذلك صَراحةَ الشَّمسِ في رابعة النهار: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

من هنا، وانطلاقًا من هذا النص الإلهي المُحكم، قرَّر جمهورُ علماءِ المسلمينَ أنّ عِلّةَ القِتالِ هو «العدوان»، وأنَّ «الكفرَ» لا يمكنُ أن يكونَ عِلّةً مُبيحةً للقتالِ فَضلًا عن الأمرِ به. . وهؤلاءِ يقولون: إنَّ دارَ الإسلامِ هي البلادُ الّتي ارتضتِ الإسلامَ دِينًا. . أمَّا دارُ الحربِ فهي البلادُ الّتي تُعلِنُ العَداءَ لدارِ الإسلامِ وتَعتدِي عليها بأيِّ لونٍ مِن ألوانِ الاعتداءِ. .

وهاهنا سؤالٌ: إذا كان هذا هو مَوقِفُ المذهبِ المالكيِّ والحنفيِّ والحنبليِّ، فما هو مَوقِفُ المذهبِ الشَّافعيِّ؟

الحقيقةُ أنَّنا نَجِدُ في هذا المذهبِ رأيَين: رأيٌ يقولُ بأنَّ سببَ القِتالِ هو الكفرُ، ورأيٌ يتَّفِقُ مع المذاهبِ الثَّلاثةِ.

والمتَّبعُ لهذه القضيةِ في بطونِ كتبِ التُّراثِ الفقهيِّ، يَدهَشُ من حوارِ الكَثرةِ -الّتي لا تَرى الكُفرَ عِلّةً مُوجِبةً للقِتالِ- ونقدها لأنصارِ هذا الرّأيِ والاستدلال عليهم بأنَّ جمهورَ الفقهاءِ يَحتجُّونَ بالأحاديثِ الّتي تُحرِّمُ قَتلَ الكفَّار من النِّساءِ والصِّبيانِ والأعمَى والمُقعَدِ والزَّمِنِ، والمَقطوعِ والرَّاهبِ والعَسِيفِ(١) في مُعسكرِ العَدُوِّ، وأن هذه الأحاديثُ مَحلُّ اتفاقٍ عند

(١) العسيف: الأجير أو المستهان به.

الجَميعِ، وهي تَدُلُّ على أنَّ هؤلاء رغمَ كُفرِهم لا يُقتَلون؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ من أمثالِهم اعتداءٌ، فلو كان الكفرُ عِلَّةً توجِبُ القِتالَ، لَوجبَ قِتالُ هؤلاءِ، ولكان استثناؤهم مِن القاعدَةِ عَبثًا وتَحَكُّمًا لا مُبرِّرَ له، أمَا وقد حَرُمَ قتلُهم، فإنَّ في ذلك دلالةً على أنَّ العُدوانَ -لا الكفرَ- هو عِلَّةُ مشروعيَّةِ القِتالِ في الإسلامِ، ولمّا كان العُدوانُ لا يُتصوَّرُ من أمثالِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ فإنَّ العِلَّةَ المُوجِبةَ للقتالِ مُنتفِيةٌ في حَقِّهم، ومن هنا حَرُمَ قَتلُهم.

ويَدلُّ على أنَّ الرأيَ القائلَ بعِلَّةِ الكُفرِ رأيٌ شَاذٌّ أنَّ أبا عمرو بن الصَّلاح (ت. ٦٤٣هـ) وهو من أئمةِ الشَّافعيةِ، يَذهبُ إلى رأيِ الجمهورِ، ويُقرِّرُ أنَّ الأصلَ إبقاءُ الكُفَّارِ وتَقريرُهم، لأنَّ اللَّهَ ما أرادَ إفناءَ الخَلقِ، ولا خَلقَهم ليُقتَلوا، وإنّما يُباحُ قَتلُهم لعارضِ الضَّررِ والاعتداءِ، ونَقرأُ لفيلسوفِ المذهبِ الحنفيِّ كمال الدِّين ابن الهُمام (ت. ٨٦١هـ) قولَه: «والشَّافعيُّ رَحِمَه اللَّهُ يُخالِفُنا في الشَّيخِ الفاني والمُقعدِ والأعمَى؛ لأنَّ المُبيحَ عندَه الكفرُ، والحُجّةُ عليه ما بيَّنا، وقد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ نَهى عن قَتلِ الصِّبيانِ والذَّرارِي، وأنّه لما رأى امرأةً مَقتولةً قالَ: ما كانت هذه تُقاتِلُ، فلِمَ قُتِلت؟».

وحتّى تقيُّ الدِّين بنِ تيميّةَ - الَّذي يَستنِدُ إليه هؤلاءِ في تَأصيلِ دَعوتِهم هذه- يقولُ في رسالتِه الموسومةِ برسالةِ القتالِ: «وكانت سيرتُه ﷺ أنّ كلَّ مَن هادنَه من الكفّارِ لم يُقاتِله، وهذه كُتُبُ السِّيَرِ والحديثِ والتَّفسيرِ والفقهِ والمغازي تَنطِقُ بهذا، وهذا مُتواتِرٌ من سُنَّتِه، فهو لم يَبدَأ أحَدًا من الكفّارِ بقتالٍ، ولو كان اللَّهُ أَمَرَه أن يُقاتِلَ كلَّ كافرٍ لكان يَبتدئُهم بالقَتلِ والقِتالِ»(١).

وإذًا فما قيمةُ هذا الأصلِ الَّذي أصَّلوه، وزَعموا أنَّه قاعدةٌ من قواعدِ الفقهِ الإسلاميِّ في قضيّةِ القتالِ والجهادِ؟.

---

(١) «رسالة القتال»: ١٢٥.

وليس صحيحًا أيضًا ما يَقولُه هؤلاءِ مِن أنّ الكفار إذا اتخذوا المسلمين ساترًا في الحرب جاز قتل المسلمين من أجل الوصول إلى قتل الكفار، وشُبهتهم في ذلك أن قتل المسلمين وإن كان مفسدة منهيًّا عنها إلا أنَّه مفسدة أقل من مفسدة أخرى أكبر هي ترك الجهاد والقتال في سبيل اللَّه، ونحن لا ندري أيّةَ مَفسدةٍ عُظمَى تمَّ دَفعُها بدماءِ هؤلاءِ الأبرياءِ وجُثثِهم وأَشلائِهم؟!

ونتساءل: ما الَّذي حقّقَته هذه التَّفجيراتُ مِن جَلبِ منفعةٍ للمسلِمين، أو دَفعِ مَضرّةٍ عنهم؟!

هل انسحبت أمريكا أو بريطانيا ووَلّتا هاربتَين من العراقِ؟!

هل جَلا الأمريكانُ عن أفغانستانَ، ألم تُبتَلع أفغانستانُ بكاملِها وهي الدَّولةُ الّتي استعصت على الاحتلالِ السُّوفيتي؟!

هل بَقيت العراقُ في قَبضةِ المسلمين؟! أو أنّها أَصبحت أثرًا بعدَ عَينٍ؟!

ألم تُدمَّر حضارةُ المسلمين ويُحرَق تُراثُ الإسلام وكُتبُه في متحفِ العراقِ؟!

كم عددُ القتلى من المسلِمين الذين سقطوا في العراقِ وعلى مدَى سنواتٍ ثلاثٍ؟

هل تَراجعَت أمريكا عن سِياسةِ الكَيلِ بمكيالَينِ؟!

ألم تَرُدَّ الصَّاعَ للمسلِمين وللعربِ بأكثرَ من صاعينِ؟

ألم تُصمِّمُ القُوَى الكُبرَى على التَّدخُّلِ السَّافِرِ لتَهذيبِ المسلِمين وتَأديبِهم؟

هل هذه هي المفسدةُ الّتي تمَّ دَفعُها بفلسفةِ قَتلِ المسلِمين ممَّن قُدِّرَ وجودُهم مع الكفّارِ؟

لقد رأيت السيدةَ الأمريكيّةَ الّتي تعتصم بأبوابِ البيتِ الأبيضِ، وتطالب بوشَ أن يُرسِلَ ببناتِه إلى العراقِ إذا كان يُؤمِنُ بضرورةِ التَّواجُدِ الأمريكيِّ هناك، وكان ردُّ بوش «إنَّ سحبَ القواتِ الأمريكيّةِ يوصِّلُ رسالةً خاطئةً

للإرهابيِّينَ»، ولنا أن نتأمَّلَ في هذا العِندِ والعِندِ المُتبادلِ، وما يُسبِّبُه من مصائبَ تَحُلُّ ببلادِنا وأَهلِينا.

إنَّ الجهادَ في فلسفةِ الإسلامِ وسيلةٌ وليست غايةً في ذاتِها، وهو كأيِّ حُكمٍ شَرعِيٍّ إذا لم يُحقِّقِ الغايةَ المرجوَّةَ منه، وكانت المفسدةُ الّتي تَترتَّبُ عليه أكبرَ أو مُساوِيةً للمفسدةِ الّتي تُدفَعُ بهذا الجهادِ، فإنَّ الجهادَ يكونُ ممنوعًا ومَحظورًا ومُحرَّمًا، والقاعدةُ الأصوليّةُ الّتي تُبتَنَى عليها الأحكامُ الشّرعيَّةُ هي أنَّه «لا يجوزُ دَفعُ ضررٍ بضَررٍ أكبرَ أو ضَرَرٍ مساوٍ»، وهذا ما يَحفظُه ويَعلمُه أَصغرُ طالبٍ في كلّيّاتِ الأزهرِ، وهو ما تَواترت عليه أقوالُ الأئمةِ.

ويَهُمُّني أن أستشهِدَ هنا بقولِ ابنِ تيميّةَ: «إذا تعارضَتِ المصالحُ والمفاسدُ والحسناتُ والسيئاتُ أو تَزاحمت، فإنّه يَجِبُ تَرجيحُ الرّاجحِ منها.. فإنّ الأمرَ والنّهيَ وإن كان مُتضمِّنًا لتحصيلِ مَصلحةٍ ودَفعِ مَفسدةٍ فيُنظَرُ في المُعارِضِ له، فإن كان الَّذي يَفوتُ من المصالحِ أو يَحصلُ من المفاسدِ أكثرَ، لم يكن مأمورًا به، بل يكونُ مُحرَّمًا إذا كانت مفسدتُه أكثرَ مِن مَصلحتِه»(١).

وأن أَستشهِدَ أيضًا بما قَرَّره الذين ثابوا إلى رُشدِهم، واهتدوا إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ من قياداتِ الجماعاتِ ومُنَظِّريهم، يقولُ هؤلاء بالحرفِ الواحدِ: «إنّ الإصرارَ على القتالِ سَواءٌ كان في مِصرَ أم غيرِها من البُلدانِ طالما أنّه قد جَلَبَ من المفاسدِ العظيمةِ على الدِّينِ والدُّنيا، ولم يُحقِّق أيّةَ مصلحةٍ تُذكَرُ، لا في دِينٍ ولا في دُنيا، كان هذا القتالُ مُحرَّمًا وممنوعًا شرعًا وعَقلًا»(٢).

---

(١) «الفتاوى الكبرى» ٢٨/ ١٢٩.

(٢) تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء.

وأمّا قِصَّةُ «التَّترُّسِ» فإنّ من المُحزِنِ جِدًّا أن تُحرَّفَ فيها الأحكامُ عن مواضِعِها، ولقد رَجعتُ إلى هذه المسألةِ في الفقهِ المالكيِّ الّذي استندوا إليه، فوَجدتُ الفقهاءَ يُقرِّرون حرمةَ قتلِ المرأةِ والصَّبيِّ في مُعسكرِ العَدُوِّ، وكذلك الزَّمِنِ والأعمَى والمعتُوهِ والشَّيخِ الكبيرِ والرَّاهِبِ المُنعَزِلِ وكذلك الرَّاهبةِ.

ثمّ يُفرِّعونَ على حُرمَةِ قتلِ الذُّريَّةِ والنِّساءِ مسألةً يَفترضون فيها أنّ الكفّارَ لو تُترِّسَ بنسائِهم وصِبيانِهم فهل يَجوزُ قَتلُهم؟! وكان جوابُ الفقهاءِ أنّه يَجِبُ تركُهم ولا يُقاتَلون.

وقَرأتُ في بعضِ المصادرِ أيضًا أنّهم لو كانوا مُختلِطين مع النِّساءِ والذَّراري في سفينةٍ لم يَجُز رَميُها بالسِّهامِ أو النِّبالِ، اللَّهمَّ إلّا إذا كان تَركُهم سيؤدِّي إلى إهلاكِ جيشِ المسلمِين.

ثمَّ قالوا بعدَ ذلك: إنّ الكفارَ لو تَترَّسوا بمسلمٍ فإنَّهم يُقاتَلون، ولكن لا يَجوزُ رميُ المسلِمِ، حتّى لو خِيفَ على بعضِ المسلِمينَ، فإن خِيفَ على أكثرِ المسلمينَ ففي هذه الحالةِ فقط يَجوزُ رميُ المسلمِ.. وهاكُم نصُّ «الشَّرحِ الصَّغيرِ» في هذه المسألةِ:

«فإن تَترَّسُوا بالذُّرِّيةِ والنِّساءِ، تُركوا بلا قِتالٍ، إلَّا لشدَّةِ خَوفٍ على المسلِمِينَ فيُقاتَلون، وإن تَترَّسُوا بمُسلمٍ قُوتِلوا، وقُصِدَ غيرُ التَّرسِ المسلِمِ بالرَّمي، ولا يَجوزُ رميُ التَّرسِ ولو خِفنا على بعضِ المُغازِين، إلّا لخوفٍ على أكثرِ المسلمِين، فتَسقطُ حرمةُ التَّرسِ ويُرمَى على الجميعِ»[(١)].

ولكم أن تُدركوا الفرقَ الهائلَ بين هذه الأحكامِ الموزونةِ بقواعدِ الشَّريعةِ وعدلِها ورحمتِها، وبثرثرة هؤلاءِ الذين يَأخذون كلمةً مِن هنا وكلمةً مِن

(١) «الشرح الصغير»: ٢ / ٢٧٥.

هُناك، ثمَّ يَنطلِقون فيَقتُلون أنفسَهم ويَقتُلون النَّاسَ بغيرِ حقٍّ.

لقد نسي هؤلاءِ، وهم يَضعون الجِهادَ في الموضعِ الخطأ، أنّ الظُّلمَ سيزدادُ، وقد حَدثَ ذلك، وأنّ المُعتقَلِين سيزدادون وقد حدَثَ، والدَّعوةَ ستُمنَعُ وقد حَدثَ، وأنّ النَّاسَ ستُصرَفُ عن الدَّعوةِ الإسلاميّةِ وقد حَدثَ. وأنّ اليهودَ سينتهِزون هذا للنّيلِ مِن الفريقَين وقد حاولوا.

أمّا سُمعَةُ المسلمينَ فقد تَدهوَرت في بلادِ الدُّنيا كلِّها، وتَكتَّلَ العالمُ كلُّه في جهةٍ واحدةٍ لمحاربَةِ الإسلامِ نفسِه، بغضِّ النَّظرِ عن المسلِمين. وحُوصِرَ المسلمون حِصارًا شديدًا في كلِّ دُولِ العالَمِ، وحَدثَ لأوّلِ مرةٍ تَكتُّلٌ غربيٌّ وشرقيٌّ في مُواجهةِ الإسلامِ والمسلِمين. وأصبحَ الإسلامُ في نظرِ الغربِ هو العدوُّ الأوَّلُ أو العدوُّ البديلُ للشيوعيّةِ، ولقد حقَّقَ أعداءُ الإسلامِ أعظمَ المكاسِبِ على خَلفيَّةِ هذا البلاءِ، فماذا جنى المسلمُون مِن مكاسِبَ؟!.

* * *

كلمةٌ
في فِكر الأزمة(*)

فقد أطَلْتُ الفِكْرَ في حِكمةٍ أبدأُ بها كلِمَتي المختصرةَ، فما وجدتُ حِكمَةً أصدقَ في تصويرِ واقعِ هذه الأُمَّةِ مِن حِكْمَةِ نبيِّها ﷺ في قولِه الشريفِ: «يُوشِكُ الأُممُ أنْ تَداعَى كما تَداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتِها، فقال قائلٌ: ومِن قِلَّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكُم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولَينزِعَنَّ اللَّهُ مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ مِنكم، ولَيقذِفنَّ في قلوبِكم الوَهْنَ، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، وما الوهْنُ؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ»[1].

لَمَ صِرْنا غُثاءً كغُثاءِ السَّيلِ؟ سؤالٌ مُشكِلٌ، وإجابتُه أحفلُ منه بالإشكالِ؛ لأنَّها تَرتبِطُ بمُفارقةٍ شديدةِ التناقضِ، وهي: مفارقةُ تخلُّفِ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ وتراجُعِها المستمرِّ، وانكسارِها المتواصلِ، رَغمَ امتلاكِها كلَّ الشروطِ اللَّازمةِ التي تُؤهِّلُها لبناءِ نهضةٍ تقِفُ بها على قَدمِ المساواةِ مع نهضاتِ الأُممِ القويّةِ في عالمِنا المعاصرِ.

وقد شَغَلَتني الإجابةُ عن هذا السؤالِ زمنًا طويلًا كما شغَلَتْ غيري مِن أبناءِ جيلي الذين دَرَجوا في مراحلِهم العُمريَّةِ؛ وهم يُلاحِظون أُمَّتَهم تسيرُ من سيءٍ إلى الأسوأِ، ثُمَّ إلى الأشدِّ سُوءًا، وتساءلوا طويلًا عن هذا الدَّاءِ العُضالِ الذي بَرَّحَ بهذه الأمةِ رغمَ أنَّ دواءَها موجودٌ عند أصابعِها.

ولا أزعُمُ أنَّني في هذه الخواطرِ سأُحَدِّدُ الدّاءَ بشَكلٍ مُفصَّلٍ، فضلًا عن

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر الفلسفة بكلية دار العلوم، بالقاهرة.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٧) وأبو داود (٤٢٩٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وَصفِ الدّواءِ، ومِن ثَمَّ: فإنَّ ما أُقِرُّه لا يَعدُو أن يكون شُعورًا قلِقًا ومُتوتِّرًا، وقد يَعكِسُ مِن الحزنِ واليأسِ أضعافَ ما يعكِسُ مِن التصدِّي والأملِ، وعُذرِي أنَّ الواقعَ شديدُ القَسوةِ، والمسرحَ عبَثيٌّ وكَريهٌ وشديدُ الفَوضَى، واللّاعبونَ طُغاةٌ مَرَدَةٌ، وأشرارٌ مِن فَصيلةِ الشيطانِ، ولأنَّ يقِيني بالحِكمةِ الّتي تقولُ: «إنَّما بقاءُ الباطلِ في غفلةِ الحقِّ عنه» يقينٌ لا يَهتزُّ، فإنَّ الأملَ لا يزال مَعقودًا على حُكماءِ هذه الأمّةِ وعُلمائِها ومُفكِّريها، وإنَّ الخُطوةَ الأُولى في تصحيحِ الاتّجاهِ إنَّما تقَعُ على عاتِقِهم هم قبلَ غيرِهم مِن أُولي الأمرِ وأصحابِ القرارِ.

لو سُئلتُ عن رُؤيتي المتواضعةِ لهذا الوضعِ المقلوبِ رأسًا على عَقِبٍ؛ والَّذي تعيشُ فيه أُمّتُنا الإسلاميّةُ، فإنِّي أُلخِّصُها فيما يلي:

أوّلًا: برغمِ أنَّ كثيرًا مِن المفكِّرينَ يَضيقونَ ذَرعًا بنظريّةِ المؤامرةِ في تفسيرِ الانكسارِ المتواصِلِ في هذه الأُمَّةِ، فإنَّني أؤمِنُ بنظريّةِ المؤامرةِ هذه ضدَّ الإسلامِ والمسلمينَ، وأتيقن أنَّ الغربَ -بخاصّةٍ الأنجلو أمريكي- مارَسَها -ولا يزالُ- ضِدَّ حضاراتِ الآخَرينَ، رغم أنَّها حضاراتٌ أعقلُ وأبعدُ نَظَرًا، وأكثرُ احترامًا وتقديرًا لقِيَمِ الإنسانِ مِن حضارتِه، ولأنَّ الغربَ بَنَى حضارتَه الحديثةَ في غَيبةٍ مِن تعاليمِ الوَحيِ وتوجيهاتِ السّماءِ، فقد تشكَّلتْ هذه الحضارةُ في رَحِمٍ مُظلِمٍ، مُترَعٍ بمآسي الآخَرينَ وآلامِهم ومظالِمِهم.

وقد كَفانا مُنظِّرو هذه الحضارةِ مِن الغربيِّين أنفسِهم- وبخاصةٍ مُعاصريهم - مُؤنةَ البَرهنةِ على هذه الدَّعوَى، بدءًا مِن إبادةِ الهنودِ الحُمْرِ إبادةً جماعيّةً، وفي وحشيّةٍ لم يعرِفْها تاريخُ الإنسانيّةِ مِن قبلُ، والنِّخاسةِ وتجارةِ الرقيقِ في أفريقيا، ومرورًا باستعمارِ الشرقِ وتجزئتِه وتقطيعِ أوصالِه ونهبِ ثرواتِه، ثُمَّ انتهاءً بالانقضاضِ عليه مِن جديدٍ.

ومنذ سنواتٍ توقَّفتُ طويلًا أمام ما بثَّته شاشاتُ التِّلْفازِ مِن صُورِ حريقِ مكتبةِ بغدادَ وتدميرِ تُراثِها ومخطوطاتِها، وسألتُ نفسي: لماذا حرَصَتِ الأصابعُ الخفيَّةُ على تسليطِ الدَّهْماءِ لحرقِ الكُتبِ والمخطوطاتِ؟ مع أنَّ حرقَ المخطوطاتِ لا يُضيفُ أيَّ مكسبٍ لهؤلاءِ، لا على المستوَى الاقتصاديِّ ولا الماديِّ ولا العسكريِّ؟ لكنَّه -وبكلِّ التأكيدِ- يُضيفُ الكثيرَ في باب تدميرِ حضارةِ الآخَرِ، وتجريدِه مِن بُعْدٍ أصيلٍ في بناءِ ذاتِه ومكوناتِ شخصيَّتِه. وهنا يمكن أن ينسجِمَ الفرعُ مع الأصلِ وتطَّرِدُ قاعدةُ المؤامرةِ والتآمُرِ.

ولعلِّي لا أُجاوِزُ الحقيقةَ لو قلتُ: إنَّ هذه النظريَّةَ لم تعُد - الآنَ - مُؤامرةً ولا تآمُرًا بعد ما أصبحَ اللَّعِبُ على المكشوفِ -كما يُقالُ- وبعد ما رأينا بأُمِّ أعيُنِنا جيوشَ الغربِ الأنجلو - أمريكي المدجَّجة بآلاتِ القتلِ والدَّمارِ، تقطَعُ آلافَ الأميالِ لتغزوَ دولةً شرقيَّةً، وبحُجَجٍ واهيةٍ ذكَّرتْنا بالحُجَجِ ذاتِها التي قدَّمَها الغربُ في القرنِ الماضي بين يَدَيْ حَمَلاتِه التي جرَّدَها لغزوِ بلادِ المسلمِينَ، وكنَّا نظنُّ أنَّ الصورةَ الكريهةَ للحملاتِ العسكريّةِ التي تُجرَّدُ لغزوِ دولةٍ ضعيفةٍ قد ولَّتْ لغيرِ رجْعةٍ مِن قرنٍ مضى، وأصبحَتْ أسلوبًا بربريًّا همجيًّا تترفَّعُ عنه الدُّولُ المتحضِّرةُ، تلك التي تملأُ الدنيا صِياحًا ونُواحًا على غِيابِ الديمقراطيةِ وحقوقِ الإنسانِ.

ثانيًا: مع إيماني بنظريّةِ المؤامرةِ هذه، فإنَّني لا أتَّخِذُ منها مِشجبًا أُعَلِّقُ عليه مسؤوليةَ تخلُّفِ الأُمَّةِ وهوانِها على الأُمَمِ، بل أرَى أنَّ تصرُّفَ الغربِ يتَّسِقُ منطقيًّا مع الفلسفةِ البنائيّةِ التي اختارَها لتشكيلِ حضارتِه. وإذًا فموردُ البحثِ يجبُ أن ينحصِرَ في ذِهنيّةِ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ والسلوكِ الذي يُترجَمُ عن هذه الذهنيةِ، وكما قلتُ مِن قبلُ: ليس لديَّ جديدٌ يُمكنُ أنْ يُضافَ إلى ما تَعلَمونه، ومَردُّ ذلك إلى أنَّ كلَّ الاحتمالاتِ العقليّةِ وغيرِ العقليّةِ قُتلت بحثًا

ونِقاشًا في مُؤتمراتٍ وندواتٍ ولقاءاتٍ وكتبٍ ودورياتٍ ، وإن كان منهجُ البحثِ عنها كثيرًا ما كان يأخُذُ طابَعَ الصِّراعِ بين الباحثِينَ، وفي قضايا إن تكُن خِلافيّةً فإنَّها -وبطبيعتِها أيضًا- تتَّسِعُ للاختلافِ، ولكن ضِمنَ إطارٍ كليٍّ يُمكنُ الاتفاقُ عليه.

ثالثًا: وممَّا يلفِتُ النظرَ ويُثيرُ الأسَى في الوقتِ نفسِه؛ أنَّ موضوعَ مؤتمرِنا هذا قد طُرِحَ بنظرٍ دقيقٍ مُستقصٍ منذ ما يزيدُ على: **١٣٠**عامًا خَلَت، طَرحَه الكواكبيُّ -بعد ما نظرَ فيه ثلاثينَ عامًا- في كتابِه «طبائعِ الاستبدادِ ومَصارعِ الاستعبادِ» الذي طبعَه سنةَ **١٩٠٢**م.. ومِن المُدهِشِ أنَّ عُنوانَ مؤتمرِ اليومِ هو هو -وبعَينِه- كان قضيةَ الكواكبيِّ وسمَّاها: «المسألةَ الكُبرَى» وعبَّر عنها بعُنوانِ «سببِ الانحطاطِ وما هو الدواءُ».

واسمحوا لي -أيُّها السادةُ العُلماءُ- أنْ أنقُلَ لكم بعضًا مِن نصوصِ هذا الفيلسوفِ البصيرِ بعِلَلِ أُمّتِه؛ لنُدركَ أنَّنا -فِعلًا- أمةٌ بلا ذاكرةٍ كما يَنْعَتُنا أعداؤنا: «أقولُ وأنا مسلِمٌ عربيٌّ مُضطرٌّ للاكتتامِ: أنَّني هجرتُ دياري في الشرقِ، فزُرتُ مِصرَ، فوجدتُ أفكارَ سُراةِ القومِ في مِصرَ، كما هي في سائرِ الشرقِ، خائضةً عُبابَ البحثِ في المسألةِ الكُبرَى، أعني: المسألةَ الاجتماعيّةَ في الشرقِ عمومًا وفي المسلمينَ خصوصًا، إنَّما هم كسائرِ الباحثينَ- كلٌّ يذهبُ مذهبًا في سببِ الانحطاطِ وفي ما هو الدواءُ، وقد تمحَّصَ عندي أنَّ أصلَ هذا الدّاءِ هو الاستبدادُ السياسيُّ، ودواؤُه دفعُه بالشُّورَى الدستوريّةِ، وقد استقرَّ فِكْري على ذلك (كما أنَّ لكُلِّ نبأٍ مستقرًّا) بعد بحثِ ثلاثينَ عامًا بحثًا أظنُّه كادَ يشمَلُ كلَّ ما يخطُرُ على البالِ؛ مِن سببٍ يَتوهَّمُ فيه الباحِثُ عند النظرةِ الأُولَى أنَّه ظَفرَ بأصلِ الداءِ أو بأهمِّ أصولِه، ولكن لا يلبَثُ أنْ يكشِفَ له التدقيقُ أنَّه لم يظفَرْ بشيءٍ، أو أنَّ ذلك الأصلَ هو نتيجةٌ لا وسيلةٌ»[(١)].

(١) «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»: ٥، ٦ (بتصرف).

والواقعُ والتاريخُ كلاهما يُصدِّقُ الكواكبيَّ فيما يقولُ، فالاستبدادُ أو الطغيانُ يحوِّلُ الدِّينَ إلى نفاقٍ، ويهدِمُ العِلمَ، ويضرِبُ التنميةَ والترقِّيَ في مَقتلٍ، ويُفرِّغُ التعليمَ مِن مضمونِه.

ولعلِّي لا أُجاوِزُ الحقيقةَ لو قُلتُ: إنَّ أحدًا لا يُمكِنُ أنْ يَتمارَى الآنَ وبعدَ مائةٍ وثلاثينَ عامًا في أنَّ الجرثومةَ التي لفت الكواكبيُّ أنظارَنا لخطرِها القاتلِ هي ذاتُ الجرثومةِ التي كلَّفَتِ الأُمَّةَ كلَّها ثمنًا غاليًا، دفَعَته مِن كرامتِها وقُوَّتِها واقتصادِها وأجسادِ أبنائِها وأطرافِهم في أيامِنا هذه.

رابعًا -وأخيرًا-: إذا كانت دِراسةُ الكواكبيِّ قدِ انتهتْ إلى مرضِ الاستبدادِ، فإنَّ دراساتٍ حديثةً عديدةً تنبَّهت إلى خطرِ التجزئةِ القُطرِيَّةِ، ورأَتْ فيها كارثةً أكبرَ مِن كارثةِ الاستبدادِ، وتُقرِّرُ هذه الدراساتُ -وبحقٍّ- أنَّ قُوَّةَ الدَّولةِ العِبريّةِ رَهْنٌ باستمرارِ هذه التّجزئةِ، وأنَّ هذه الدّولةَ بملايينِها الأربعةِ أو الخمسةِ ما هَزمَت مِئَتَي مليون عربيٍّ، ومِن ورائِهم ألفُ مليونِ مسلم، فهذه مُغالطةٌ تكمُنُ في أنَّ التجزئةَ القُطرِيّةَ والتشظِّي العربيِّ لم يسمَحْ أيًّا منهما بوَحدةِ المليونِ عربيٍّ قطُّ، بل شلَّ كلٌّ منهما حركةَ الدَّولةِ العربيَّةِ، بل حركةَ القُطرِ العربيِّ الواحدِ في المواجهة[1].

إنَّ مخطَّطَ التجزئةِ وتفتيتِ العالَمِ الإسلاميِّ مِن باكستانَ إلى المغربِ؛ إلى كِياناتٍ عرقيةٍ ومذهبيَّةٍ وطائفيَّةٍ ودينيَّةٍ، كلٌّ منها يُصارِعُ الآخَرَ، هذا المخطَّطُ موجودٌ في أجندةِ الصهيونيةِ العالميَّةِ منذُ أربعينيَّاتِ القرنِ الماضي، وقد كَتبَ عنه المستشرقُ الصهيونيُّ برنارد لويس Brnard Lewis وتحدَّثَ عن كلِّ بلدٍ مِن البلادِ الإسلاميةِ، فاقترحَ تفتيتًا سياسيًّا يُضيفُ إلى ما صنعته اتفاقيةُ سايكس - بيكو **٣٢** كِيانًا سياسيًّا جديدًا، وقال عن هذا المخططِ:

(١) انظر: التجزئة والدولة القطرية: قراءة استطلاعية، لمنيرشفيق: ٤٣، ٤٤.

«إنَّه الضَّمانُ لأمنِ إسرائيلَ، وإنَّه أكثرُ جَدوَى مِن أيَّةِ حدودٍ، بل ومِن القنابلِ الذريَّةِ؛ لأنَّه يُحوِّلُ العالَمَ الإسلاميَّ إلى كِياناتٍ ورقيَّةٍ هشَّةٍ تجعلُ إسرائيلَ هي الأقوَى وسطَ هذه الكِياناتِ»[(١)].

لعلَّكم تتَّفِقون معي في أنَّ أحاديثَ المجاملاتِ لم يعُدْ لها معنًى، وأنَّه لا بدَّ مِن المصارحةِ.

- ولا مفرَّ لنا مِن التَّقريبِ بين علماءِ الأُمَّةِ وحُكمائِها، وبين مراكزِ صُنعِ القرارِ فيها.

- ولا مفرَّ لنا مِن مشروعٍ ثقافيٍّ حضاريٍّ نختلِفُ في داخلِه، ولكن نلتقِي جميعًا عند حدودِه الخارجيّةِ.

- ولا مفرَّ لنا مِن التفاهُم بين السُّنَّةِ والشيعةِ.

- ولا مفرَّ مِن الالتقاءِ بإخوانِنا مِن أهلِ الأديانِ الأُخرَى.

وتَبقَى قائمةٌ طويلةٌ بهذه اللامفرَّات، لو رُحتُ أُكرِّرُها لكنتُ كمَن يبيعُ الماءَ في حارةِ السقَّائين.

❊ ❊ ❊

---

(١) حديث للأستاذ محمد عمارة، جريدة الأهرام [الجمعة ١٨ إبريل ٢٠٠٣م] صفحة: ١٢.

عن
المرأة والأسرة

الوراثةُ الهندسيَّةُ مِن منظورِ الإسلامِ(*)

يُمكنُ القولُ بأنَّ المقاصدَ العُليا مِن الأفعالِ المطلوبةِ شرعًا مِن الإنسانِ أخلاقيةٌ في المقامِ الأولِ، وأنَّه على أساسِ هذا المقصدِ الخُلْقِيِّ يتكيَّفُ الحكمُ الشَّرعيُّ على هذا الفعلِ أو ذاك، ويدورُ معه وجودًا وعدمًا.

فالأفعالُ التي تشتملُ على منفعةٍ ومصلحةٍ محترمة شرعًا يبيحها الإسلامُ أو يأمرُ بها، أمَّا الأفعالُ التي تنشأُ عنها أضرارٌ ومفاسدُ فإنَّ الإسلامَ يَنهى عنها ويُنفِّرُ الناسَ منها.

والمصلحةُ المُعتبرةُ في شريعةِ الإسلامِ هي مصلحةُ المجتمعِ أولًا قبل مصلحةِ الفردِ، وإذا تعارضتِ المصلحتانِ فالمصلحةُ المُعتبرةُ هي مصلحةُ المجتمعِ، لما يترتب عليها من نفع جماعيٍّ عامٍّ، حتى وإن ترتَّبَ عليها ضررٌ بالنسبةِ للفردِ.

مِن هنا؛ كانتِ العقوباتُ -مثلًا- مصلحةً نافعةً ومفيدةً، رغم أنها ضارةٌ ومؤلمةٌ للفردِ المعاقَبِ؛ لأنها تعودُ بالنفعِ على المجتمعِ، والعكسُ صحيحٌ أيضًا؛ فشُربُ الخَمرِ والزِّنا والرِّبا والغصبِ، كلُّ أولئك لا يُعَدُّ مصلحةً مُعتبرةً في مَنظورِ الإسلامِ، لأنَّها وإن كانتْ تُحَقِّقُ نفعًا ولذةً وفائدةً على مستوى الفردِ، إلَّا أنها تترتَّبُ عليها أضرارٌ على مستوى المجتمعِ.

وتأسيسًا على ذلك؛ وجدْنا في الفقهِ الإسلاميِّ هذا التقسيمَ المشهورَ الذي يُقَسِّمُ المصالحَ إلى مصالحَ مُعتبرةٍ شرعًا ومصالحَ مُلغاةٍ شرعًا، ويجبُ أن ننتبه إلى أنَّ الإسلامَ حين يُلغِي بعضَ المصالحِ فإنَّه لا يُلغيها باعتبارِها مصالحَ، بل لِمَا يُخالِطُها مِن مَفسدةٍ تربو وتَزيدُ على المصلحةِ في هذا الفعلِ أو ذاك.

(*) كتبه الإمام أيام توليه رئاسة جامعة الأزهر الشريف.

وقبلَ أن نفرُغَ مِن هذه اللمحةِ عن المصلحةِ في فلسفةِ الإسلامِ؛ يجبُ أنْ نُشيرَ إشارةً سريعةً إلى أنَّ الإسلامَ ينظُرُ إلى الإنسانِ -أيِّ إنسانٍ- نظرةً مُقدَّسةً؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ في منظورِ القرآنِ إنَّما هو خليفةُ اللَّهِ في الأرضِ، وهو الكائنُ الوحيدُ الذي يتَّحدُ جسدُه بهذا السرِّ الإلهيِّ الذي هو الرُّوحُ، والرُّوحُ -كما يقولُ القرآنُ- مِن أمرِ اللَّهِ، ويتعالى إدراكُها وفهمُ حقيقتِها على كلِّ إمكاناتِ العِلمِ والعقلِ والفلسفةِ، وأيضًا تُذكِّرُنا بعضُ الأحاديثِ النبويةِ أنَّ اللَّهَ خلقَ آدمَ على صورتِه، وأنه كرَّم بني آدمَ. . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد نظرَ النبيُّ محمدٌ ﷺ إلى بيتِ اللَّهِ الكعبةِ، وشعرَ بهيبتِها وجلالِها، لكن استدركَ ذلك سريعًا، وقال: «ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرْمَتَكِ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، لَحُرمةُ المؤمنِ أعظمُ عند اللَّهِ حُرمةً منكِ»(١).

وفي هذَيْنِ الإطارَيْنِ -إطارِ المصلحةِ المعتبرةِ شرعًا، وإطارِ حُرمةِ الإنسانِ في منظورِ الإسلامِ- نستطيعُ أن نُقوِّمَ الخُطوةَ الجبَّارةَ التي انتهى إليها العِلمُ مؤخرًا في مَيدانِ الهندسةِ الوراثيةِ، وتبلورتْ فيما يُسمَّى بالاستنساخِ؛ «. . . وذلك مِن خلالِ الموازنةِ بين المصلحةِ والمفسدةِ التي تترتَّبُ على هذا الفعلِ؛ سواءٌ على مستوى الإنسانِ كفردٍ، أو على مستوى الإنسانِ كأفرادٍ ومجتمعاتٍ.

وقد تبيَّنَ بما لا يدَعُ مجالًا للشكِّ أنَّ الأضرارَ والكوارثَ التي يجرُّها هذا الاستكشافُ على النوعِ البشريِّ تربو على المنافعِ التي يُحقِّقُها للإنسانِ، فهو لا شكَّ سيُؤدِّي إلى خللٍ في الطبيعةِ، وسيفتحُ الأبوابَ على مصاريعِها

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ.

لاستنساخِ الأعضاءِ والاتِّجَارِ بها، ثم إنه يُخِلُّ بتوازنِ الجِنسيْنِ، ويَقضي على السُّنَّةِ الإلهيةِ في الإنجابِ والتناسلِ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ لُعبةً خطيرةً تهدِفُ إلى التخلصِ مِن أجناسِ الشعوبِ»[١].

ورغمَ أنَّ هذا الموضوعَ قد طُرِحَ من قبلُ على بِساطِ البحثِ حين كنتُ في دارِ الإفتاءِ، وصَدَرَتْ فيه الفتوى المُدرَجةُ بدار الإفتاء المصرية، إلَّا أنَّني وبعد مزيدٍ مِن الاطلاعِ على ما كَتبَه المتخصِّصونَ في عِلمِ الهندسةِ الوراثيةِ، أرى -في كثيرٍ مِن الاطمئنانِ- أنَّه يجِبُ على عقلاءِ العالَمِ ومُفكِّريهِ وعُلمائِه وأصحابِ القراراتِ الكُبرى أن يُسارِعوا إلى استصدارِ قرارٍ دوليٍّ بوقفِ البحثِ في مَجالِ الأجِنَّةِ، وأن تُصرَفَ الجهودُ والأموالُ المُهدرةُ في هذا العَبَثِ واللَّعِبِ الخطيرِ إلى معالجةِ الأمراضِ التي تُصابُ بها هذه الأجِنَّةُ، وتُوجَّهُ في ممارساتٍ طبيةٍ أو علاجيَّةٍ صحيحةٍ.

***

(١) عنوان مقال للدكتورة مؤمنة كامل ضمن: «الاستنساخ بين العلم والدين»، سلسلة دراسات إسلامية، القاهرة: ٢٠٠٣، عدد ٨٩.

الضَّوابطُ الأخــــلاقيةُ
للهندسةِ الوراثيةِ «البيوتكنولوجي»(*)

تُسهِمُ هذه الورقةُ المتواضعةُ بِوجهةِ نظرٍ قد لا تكونُ جديدةً ولا فريدةً في مسألةِ الضوابطِ الأخلاقيةِ الدقيقةِ؛ التي يجبُ أنْ تَحكُمَ الانفلاتَ الذي حدثَ في مجالِ «الهندسةِ الوراثيةِ» بسببٍ مِن التقدُّمِ التِّقَنِيِّ، والذي تطوَّرَ بصورةٍ ميكانيكيَّةٍ بحتةٍ بعيدًا عن ضوابطِ الأخلاقِ الدِّينيةِ ومقاصدِها العُليا.

ومُنطلَقُ البحثِ في هذا الموضوعِ هو -في المقامِ الأولِ-: بيانُ أنَّ الإسلامَ بما هو دِينٌ سماويٌّ إلهيٌّ فلا مفرَّ مِن أنْ يُنظَرَ إليه داخلَ إطارٍ أخلاقيٍّ قِيميٍّ؛ إذ مِنَ المُسَلَّمِ به -عند علماءِ مقارنةِ الأديانِ المسلمينَ- أنَّ الأديانَ الإلهيَّةَ الكُبرى؛ اليهوديةَ، والنصرانيةَ، والإسلامَ وإنِ اختلفتْ فيما بينها؛ مِن حيثُ اشتمالُها على التشريعاتِ الاجتماعيةِ؛ الفرديَّةِ، والأُسْريةِ، والمجتمعيَّةِ؛ إلَّا أنَّها تتَّفقُ جميعًا في اشتمالِها على نظامٍ خُلقيٍّ دقيقٍ مُلزِمٍ لأتباعِ هذه الأديانِ.

ويُثبتُ البحثُ في هذا المجالِ حقائقَ ثلاثًا:

الحقيقةُ الأولى: تَشَابُهُ هذا النظامِ الخُلُقيِّ بين الأديانِ الثلاثةِ، وتطابقُه في أغلبِ جُزئيَّاتِه ومَناحيه.

الحقيقةُ الثانيةُ: أنَّ مصدرَ الإلزامِ في القانونِ الأخلاقيِّ في هذه الأديانِ، ليس هو سلطةَ المجتمعِ، ولا المصالحَ المتغيِّرةَ، ولا منطقَ التطوُّرِ الذي

(*) مُلخَّصُ الورقةِ التي ألقيت في أحد المؤتمرات العلمية في برلين بألمانيا، أثناء تولي الإمام الأكبر رئاسة الجامعة الأزهرية.

لا يكُفُّ عنِ التبدلِ، وإنَّما هو الوَحْيُ الإلهيُّ المقدَّسُ، والذي يتلقَّاه العقلُ فيتقبلُه ولا يَنفِرُ منه.

الحقيقةُ الثالثةُ: أنَّ النظامَ الأخلاقيَّ إذا كان مُرتبطًا بالوَحْيِ الإلهيِّ؛ فمن البدهيِّ إذًا أنْ يتَّسِمَ هذا النظامُ بالثباتِ والاطِّرادِ؛ بحيثُ تصبحُ عَلاقاتُه بالواقعِ المتغيِّرِ المتبدِّلِ عَلاقةً فوقيَّةً تُصوِّبُ وتخطِّئُ، وتحكُمُ على بعضِ الأفعالِ بالحُسنِ أو الخيرِ، وعلى البعضِ الآخرِ بالقُبحِ أو الشرِّ.

وفيما يتعلَّقُ بالإسلامِ؛ فإنَّ حقيقةَ ثباتِ القِيمِ واطِّرادِها شديدةُ الوضوحِ في تشريعاتِه وأحكامِه، فميزانُ الأخلاقِ في الإسلامِ ميزانٌ ثابتٌ ومُطَّردٌ على وتيرةٍ واحدةٍ، لا يتأرجحُ مع منطقِ القوةِ أو المصلحةِ والمنفعةِ، بل يثبت صامدًا في إطارِ بيانِ أنَّ هذا العملَ أو ذاك هو خيرٌ أو شرٌّ؛ فيكونُ حسنًا أو قبيحًا في كلِّ الأحوالِ والظروفِ.

وتهتمُ الورقةُ ببيانِ أنَّ المصلحةَ أو المنفعةَ ليست خيرًا دائمًا..

ومِن هنا، وجدنا في التشريعِ الإسلاميِّ ما يُسمَّى بالمصلحةِ المحترمةِ والمصلحةِ غيرِ المحترمةِ، وأنَّ المصالحَ غيرَ المحترمةِ شرعًا مصالحُ مُحرَّمةٌ وممنوعةٌ مهما ترتَّبَ عليها مِن نفعٍ أو فائدةٍ؛ ولذلك فإنَّ فلسفةَ الأخلاقِ في الإسلامِ لا تَعرِفُ نسبيَّةَ القِيمِ، ولا تُؤمنُ بالمبدأِ الميكافيليِّ الذي يُبرِّرُ الوسيلةَ بالغايةِ.

مِن هذا المنطلقِ تُصبحُ الأخلاقُ -في الإسلامِ- حاكمةً على العِلمِ وعلى التقدُّمِ العلميِّ أو التطورِ التقنيِّ.

وفلسفةُ الإسلامِ في هذا الموضوعِ واضحةٌ لا لَبْسَ فيها؛ وفحواها: أنَّ العِلمَ كما يَعْمَلُ لسعادةِ الإنسانِ يَعملُ لشقائِه وتعاستِه، وبنفسِ القَدْرِ، وأنَّ العالِمَ قد يَضِلُّ بعلمِه ويُضِلُّ غيرَه أيضًا.

والقرآنُ الكريمُ يُبيِّنُ ذلك فيقولُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

كما أنَّ نبيَّ الإسلامِ كثيرًا ما كان يسألُ اللَّهَ أنْ يُبعِدَه عن العلومِ التي لا تنفعُ.

إنَّ مُسلَّمةَ الإسلامِ الأولى هي الأخلاقُ والقِيمُ الإنسانيةُ، فإذا تطوَّرَ العِلمُ في مسارِ الأخلاقِ وإطارِها، باركَه الإسلامُ وشجَّعَه وأوجبَه على المسلمين، وإذا تنكَّبَ هذا المسارُ، فهو شرٌّ ومفسدةٌ وضررٌ يجبُ القضاءُ عليه.

وتَنتهي الورقةُ بعرضِ الفتوى الشَّرعيَّةِ التي استقرَّ عليها الأمرُ في دارِ الإفتاءِ المصريَّةِ في مسألةِ الهندسةِ الوراثيةِ، أو ما يُسمَّى «البيوتكنولوجي»، تأسيسًا على فلسفةِ الإسلامِ في ثباتِ القِيمِ الأخلاقيةِ واطِّرادِها، وفي اعتبارِ المصلحةِ المشروعةِ مِن وِجهةِ نظرِ الأخلاقِ، وفي ارتباطِ القِيمةِ العلميةِ بالحُكمِ الخُلُقيِّ حُسنًا أو قُبحًا.

* * *

الزّواجُ العُرفيُّ
والعَبثُ بكِيانِ الأُسرةِ(*)

إنَّ موضوعَ الزواجِ العُرفِيِّ يُمثِّلُ أهميَّةً بالغةَ الخطورةِ، وهو في هذا الإطارِ يجبُ أنْ يُوضَعَ على بِساطِ المناقشةِ والتحليلِ؛ للبحثِ عن مخرجٍ نتفادَى بِهِ هذه الظاهرةَ التي تُقلقُ بالَ الجميعِ، وتَقَضُّ مضاجعَ الآباءِ والأمّهاتِ، وتُشكِّلُ رُعبًا يوميًّا لدَى الأسرةِ المصريّةِ، وربّما الأسرةِ العربيةِ بشكلٍ عامٍّ.

وأكبرُ دليلٍ على أن هذه الظاهرةَ السيئةَ بدأتْ تنتشرُ بين عددٍ غيرِ قليلٍ مِن أبنائِنا وبناتِنا، وبخاصَّةٍ طلابِ وطالباتِ الجامعاتِ، أنني أيامَ فترةِ الإفتاءِ لا يكادُ يمرُّ أسبوعٌ دون أن أتلقَّى سؤالًا يطلبُ بيانَ الحكمِ الشَّرعيِّ وحكمِ الإسلامِ في مسألةِ الزواجِ العرفيِّ، ولم تنقطعْ هذه الأسئلةُ بعدَ أن تركتُ دارَ الإفتاءِ إلى جامعةِ الأزهرِ.

وظلَّتْ هذه الأسئلةُ تُلاحقُني في بَرنامجي الأسبوعيِّ الذي كانت تُذيعُه الفضائيةُ المصريةُ، وفي تلك الأيّامِ سألَتْني فتاةٌ عن شابٍ جادٍّ وطيِّبٍ تقدَّمَ لأختِها الصُّغرى، وخوفًا مِن أن يرفُضَ والدُها، اتَّفقَ معها على أنْ تقولَ له في التليفون: زوجتُكَ نفسي، وقالت له ذلك، وأجابَها الشابُّ بأنّه قَبِلَ ذلك.

وتسألُ الأختُ: هل صارتْ أختُها زوجةً لهذا الشابِّ بالفِعْلِ؟ وما الحكمُ إذا لم يرضَ والدُها؟ هل مِن حقِّ الشابِّ أنْ يتمسَّكَ بها، أو لا بدَّ مِن طلاقِها قبلَ أنْ يتقدَّمَ لها شابٌّ آخرُ؟

(*) كلمة ألقيت في مكتبة مصر الجديدة، تحت رعاية جمعية تنمية خدمات مصر، أثناء تولي الإمام الأكبر رئاسة الجامعة.

إلى آخرَ هذه الأسئلةِ المفزعةِ التي تشيرُ إلى أُميَّةٍ مُحزنةٍ في أبجدياتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، كما تشيرُ إلى هذا التصدعِ الفجائيِّ الذي حدثَ في بُنيانِ قِيَمِنا، وفي أعزِّ ما يعتزُّ به الشعبُ المصريُّ بكلِّ طوائفِه؛ وأعني به: الأسرةَ، وهي مؤسسةٌ مُقدَّسةٌ اهتمتْ بها كلُّ الأديانِ السماويَّةِ، وأفردتْ لها أحكامًا وقوانينَ ونظمًا شرعيةً واضحةً وضوحَ الشمسِ في رابعةِ النهارِ.

عنوانُ مشكلتِنا: «الزواجُ العرفيُّ في الجامعاتِ وآثارُه الضارَّةُ»..

وهذا هو عُنوانُ الندوةِ التي نشاركُ فيها، ولكنَّني أرى أن العُنوانَ الأكبرَ دقَّةً هو: «الزواجُ اللَّاشرعيُّ في الجامعاتِ وآثارُه الضارَّةُ».. للأسبابِ التاليةِ:

أولًا: لأنَّ الذي يحدثُ في الجامعاتِ كما تَنُمُّ عنه الأسئلةُ ليس زواجًا أصلًا.

وثانيًا: لأنَّ الزَّواجَ العُرفيَّ قد لا يكونُ ممنوعًا أو حرامًا على طولِ الخطِّ، وقد حدثَ خلْطٌ كبيرٌ بين مفهومِ الزواجِ العرفيِ، وزواجِ السرِّ.

ومِن المنطقيِّ أن يترتَّبَ على الخلطِ في تصويرِ القضيَّةِ خلطٌ فيما يتعلَّقُ بها مِن فتاوى وأحكامٍ.

ولعلي لا أصادرُ على المطلوبِ لو بدأتُ خُطواتي هنا ببيانِ شروطِ الزواجِ الصحيحِ في الإسلامِ، فهذه الخُطوةُ سوف تُوفِّرُ علينا كثيرًا من الشرحِ والتحليلِ..

- فإذا تحدَّدتْ أركانُ الزواجِ الصحيحِ وشروطُه، فهو «زواجٌ شرعيٌّ»، تترتَّبُ عليه كلُّ آثارِ الزواجِ الصحيحِ؛ من حِلِّ الاستمتاعِ، والنَّفقةِ، والتوارثِ، وحُرمةِ المصاهرةِ، وثبوتِ نسبِ الأولادِ مِن الزوجِ.

- وإذا انهدمَ ركنٌ مِن أركانِ الزواجِ الصَّحيحِ أو تخلَّفَ شرطٌ مِن

شروطِه، فهو زواجٌ باطلٌ تجبُ فيه الفُرقةُ فورًا أيًّا كانتْ تسميةُ هذا النوعِ مِن الزواجِ، وكائنةً ما كانتِ اللافتةُ التي يرفعُها الغارقونَ في هذه الخطيئةِ وهذا الإثمِ الكبيرِ.

ما هي شروطُ الزواجِ الصَّحيحِ؟

أولُ شرطٍ ينعقدُ به الزواجُ: هو الإيجابُ والقَبولُ، أو لنقلْ: الصيغةُ أو الألفاظُ الدالةُ على الإيجابِ والقَبولِ.

ولأنَّ قضيَّةَ الزواجِ قضيَّةٌ شديدةُ الحساسيَّةِ في شريعةِ الإسلامِ، فقد أُحيطتْ الصِّيغةُ الدالةُ على انعقادِ الزواجِ بضماناتٍ عِدَّةٍ؛ أهمُّها أن تكونَ مِن صِيغِ التأبيدِ، فإذا اشتملتْ على ما يدُلُّ على الزواجِ المؤقتِ بزمنٍ معينٍ، فإنَّ الفقهاءَ يحكُمونَ ببطلانِ هذا العقدِ؛ لأنه يتنافى وطبيعةَ الزواجِ.

والشرطُ الثاني: هو الشرطُ الذي لا يصِحُّ العقدُ إلا بِه، وهو حضورُ شاهدَيْن.

وقد اتفقَ فقهاءُ المسلمين في كلِّ العصورِ على أنَّ الغايةَ مِن الإشهادِ هو إشهارُ الزواجِ وإعلانُه بين الناسِ، وأنَّ فَرقَ ما بين الحلالِ والحرامِ هو الإعلانُ.

وقد نبَّهَ النبيُّ ﷺ لذلك في قولِه الشريفِ: «أَعلِنُوا النِّكاحَ، ولو بالدُّفِّ»[(١)] وقالَ أبو بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه: «لا يجوزُ نكاحُ السِّرِّ حتى يُعلنَ ويُشهدَ عليه»[(٢)] (أبو زهرة).

---

(١) رُوي بمعناه من عدَّة طُرُق، منها ما أخرجه التِّرمذيُّ (١٠٨٩) -واللَّفظ له-، وابن ماجه (١٨٩٥) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها، بلفظ: «أَعلِنُوا هذا النِّكاحَ، واجعلوه في المساجدِ، واضرِبُوا عليه بالدُّفُوفِ»، وقال التِّرمذيُّ: «هذا حديث غريب، حسن في هذا الباب».

(٢) راجع: «المدونة»: ٢/ ١٢٩.

الشرطُ الثالثُ في صحةِ النكاحِ: هو الوليُّ.

وجمهورُ فقهاءِ المسلمينَ ينصُّون على أنَّ الوليَّ شرطٌ في صحةِ الزواجِ، وأن عَقدَ الزواجِ لا يصِحُّ بعبارةِ النساءِ أصلًا، سواءٌ كانت أصيلةً عن نفسِها، أم كانت وكيلةً عن الزوجةِ، فلا بدَّ مِن الوليِّ، ولا بُدَّ مِن أن يتولَّى الوليُّ عقدَ زواجِ مُولِّيتِه أو مُوكِّلتِه؛ وذلك للأحاديثِ الصريحةِ الواردةِ في هذا الموضوعِ، كقولِه ﷺ: «لا نكاحَ إلا بوليٍّ وشاهِدَيْ عدلٍ»[(١)]، «أيمَّا امرأةٍ نُكِحِتْ -زوَّجَتْ نفسَها- بغيرِ إذنِ وليِّها، فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ»[(٢)]، «لا تزوِّجُ المرأةُ المرأةَ، ولا تزوِّجُ المرأةُ نفسَها، والزانيةُ هي التي تزوِّجُ نفسَها»[(٣)]، «ألا لا يزوِّجُ النساءَ إلا الأولياءُ»[(٤)].

ويُعلِّلُ الفقهاءُ سرَّ تشديدِ النبيِّ ﷺ على ضرورةِ الوليِّ في عقدِ الزواجِ؛ بأن النساءَ مفطوراتٌ على الحياءِ وعلى الخجلِ، فالحياءُ فطرةٌ وطبعٌ وجِبِلَّةٌ في المرأةِ، وأنَّ الإسلامَ قد حَرَصَ أشدَّ الحرصِ على أن يحفظَ عليها هذا الخلقَ الكريمَ؛ فأمرَ الأولياءَ بأن يتوَلَّوْا عنهن عَقدَ الزواجِ.

ثُمَّ إنَّ قوةَ العواطفِ عند الفتاةِ قد تدفعُها إلى القَبولِ عند أوَّلِ نظرةٍ، ويلذُّ لها بعد ذلك أن تَعمى أو تَعامى عن عيوبِ هذا الخاطبِ ونقائصِه، وربَّما رَضِيَتْ غيرَ كفءٍ أو ناقصَ الأهليةِ، ثم ما لبِثَتْ أن دفعتِ الثَّمنَ غاليًا، ولكنْ بعد فواتِ الأوانِ؛ لذلك كان لا بُدَّ مِن استئذانِ الوليِّ وإشراكِه في الأمرِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٨٥) والتِّرمذيُّ (١١٠١) وابن ماجه (١٨٨١) وغيرهم، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٨٣) والتِّرمذيُّ (١١٠٢) وابن ماجه (١٨٧٩) وغيرهم، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن».

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه بهذا اللَّفظ البيهقيُّ: ٧/ ١٣٣، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

وهذه هي الوِلايةُ التي يُسمِّيها الفقهاءُ ولايةَ الاشتراكِ، بمعنى أن الوليَ شريكُ مُولِّيَتِه في هذا الأمرِ، فلا هي تستطيعُ أن تنفردَ بعَقدِ زواجِها دون إذنِ وليِّها ورضاه، ولا وليُّها بمستطيعٍ أن ينفِّذَ هذا العقدَ إذا هي رفَضَتْه ولم تُوافِقْ عليه.

هذه هي -في إيجازٍ شديدٍ- مواصفاتُ الزواجِ الشرعيِّ في الإسلامِ، إذا تمَّ في إطارِ إذنِ الوليِّ وحضورِه وحضورِ الشاهِدَيْنَ والإعلانِ والصيغةِ والصَّداقِ، فهو زواجٌ صحيحٌ وتُرتَّبُ عليه آثارُه الشرعيةُ، وإلَّا فلا.

مسألةٌ أخيرةٌ:

هناك فرقٌ بين الزواجِ العرفيِّ والزواجِ السريِّ.

الزواجُ العرفيُّ هو: الذي يَستوفي شروطَ الصحةِ السابقةِ مِن وليٍّ وشهادةٍ وصداقٍ وصيغةٍ، ولكن لا يُوثَّقُ.

هذا الزواجُ صحيحٌ دِيانةً وإن كان باطلًا قانونًا؛ لأن المادةَ: (١٧) مِن القانون رقم: (١) لسنة: (٢٠٠٠) تنصُّ على أنه: «لا تُقبَلُ دعوى الزوجيةِ عند الإنكارِ -إنكارِ الزواجِ- إلَّا إذا كانت ثابتةً بوثيقةٍ رسميةٍ.. (المأذونِ بالنسبةِ للمِصريِّين داخلَ الوطنِ - الشَّهرِ العقاريِّ المختصِّ بالنسبةِ للأفراد ذوي العنصرِ الأجنبيِّ - المكاتبِ المختصةِ في قنصلياتِنا وسفاراتِنا بالخارجِ).

لكنْ تُسمعُ دعوى التطليقِ -طلبُ الطلاقِ- إذا كان الزواجُ ثابتًا بأيَّةِ كتابةٍ، ويُطلِّقُ القاضي دونَ ترتُّبِ أيِّ أثرٍ للطلاقِ مِن نفقةٍ ولا ميراثٍ؛ فالقانونُ لا يعترفُ بالزواجِ العرفيِّ إلا إذا أقرَّ الزوجانِ معًا.

وهذا كلُّه شيءٌ، وزواجُ السرِّ بين الطالبةِ والطالبِ دونَ عِلمِ الوليِّ ومِن وراءِ ظهرِه شيءٌ آخرُ، إنَّ زواجَ السرِّ هو الزنا بعينِه.

* * *

المرأةُ
بينَ تعاليمِ الدِّينِ وتَوجُّهاتِ الحَداثةِ(*)

الحَفْلُ الكَريمُ..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعدُ:

فيُسعِدُني في بدايةِ كلمتي أن أتقدَّمَ بخالصِ الشُّكرِ الجزيلِ للدكتورة/ أمل عبد اللَّه القبيسي -رئيسِ المجلسِ الوطنيِّ الاتِّحاديِّ بدولةِ الامارات العربيَّةِ المُتَّحِدَةِ، أوَّلِ رئيسِ برلمانٍ عربيٍّ مِن السَّيِّداتِ، وأوَّلِ رائدةٍ مِن بناتِ العربِ تُزاحِمُ الرِّجالَ في هذا المنصبِ التَّشريعيِّ البالغ الأهمِّيَّةِ.. أشكرُ هذه الرَّائدةَ على نجاحِها في استضافةِ القِمَّةِ الحاديةَ عشْرةَ لرئيساتِ برلماناتِ العالَمِ، بدولةِ الإماراتِ، هذه الدَّولةُ الفتيَّةُ الواعدةُ، الَّتي لا تَدَّخِرُ وُسعًا في بذلِ كلِّ ما يُسعِدُ الآخَرينَ، وينشُرُ السَّلامَ بينَهم، ويُرسِّخُ فيهم قِيَمَ حُسْنِ الجِوارِ والاستقرارِ والعيشِ المشتركِ.

ولا أُبالِغُ -أيُّها السَّيِّداتُ والسَّادَةُ- لو قُلْتُ: إنَّ قِمَّتَكم هذه قِمَّةٌ ذاتُ شأنٍ كبيرٍ، ومردودٍ بالِغِ التَّأثيرِ على مَنطِقَتِنا الشَّرقِ أوسَطِيَّةِ، بل رُبَّمَا على العالَمِ كلِّه، لَيْسَ فقط لأنَّها تختصرُ على أرضِ الإماراتِ العربيَّةِ مُعظَمَ ثقافاتِ العالَمِ، وخُلاصةَ خِبراتِ عقولٍ عالميَّةٍ مُتنوِّعَةٍ لها وزنُها في استشرافِ مُستقبلِ الشُّعوبِ، ولكِن لأنَّ هذه القِمَّةَ تتصدَّى بالتَّحليلِ العِلميِّ

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت أمامَ القمَّةِ العالميَّةِ لرئيساتِ البرلماناتِ في «أبو ظبي»، بتاريخ: ١١ من ربيع الأول سنة: ١٤٣٨هـ/ ١١ من ديسمبر سنة: ٢٠١٦م.

لتحدِّيَاتٍ كُبرى موجودةٍ على أرضِ الواقِعِ العربيِّ والإسلاميِّ.

في مُقدِّمتِها: وباءُ الإرهابِ الَّذي استَشرى خطرُهُ في شرقِ الأرضِ وغربِها، بعدما ظَنَّ كثيرون -مِمَّن صَمَتُوا عن ولادتِه وأسبابِ نشأتِه- أنَّه لَنْ يَبرَحَ مَوطِنَه الَّذي نشَأ فيه، فإذا به ينشُرُ الرُّعْبَ والفزَعَ بين النَّاسِ في كلِّ مكانٍ.

كما تتصدَّى القِمَّةُ لتحَدٍّ آخَرَ، لا يقلُّ خطرًا عنِ الإرهابِ؛ وهو تحدِّي السِّياسَاتِ الحديثةِ في إصرارِها على العبَثِ بوَحْدَةِ الأُمَمِ والشُّعُوبِ، وتصميمِها على تفتيتِ الدُّوَلِ المستقرَّةِ وتفكيكِها وتجزِئَتِها، وتحويلِها إلى خرائطَ مُهيَّأةٍ للصِّراعِ الدِّينيِّ والطَّائفيِّ والعِرقيِّ، وساحاتِ الحروبِ المُدَمِّرةِ، وكأنَّه كُتِبَ على مَنطِقَتِنا هذه أن تكونَ سُوقًا رائجةً لمنتجاتِ مصانعِ الأسلحةِ الفتَّاكةِ، بعد أن تُهَيِّئَ لها السِّياساتُ الاستعماريَّةُ الجديدةُ مسارحَ الصِّراعِ وبُؤَرَ التَّوتُّرِ وتُجَّارَ الحُروبِ.

ولَيْسَ مِن همِّنا في هذه الكلمةِ المحدودةِ أن نَعرِضَ لأسبابِ هذه الحروبِ العبثيَّةِ واللَّاأخلاقيَّةِ، ولكن مِن هَمِّي الأكبرِ أن أُعَوِّلَ على قِمَّةٍ تَجمَعُ خمسينَ قائدةً من قائداتِ برلماناتِ العالَمِ أن تُسهِمَ في هذه القمَّةِ -وما يَتلُوها من قِمَمٍ قادمةٍ- في إطفاءِ هذا الحريقِ الَّذي لا أتردَّدُ في وَصْفِه بأنَّه عارٌ على جَبينِ الإنسانيَّةِ، في عصرِ الدِّيموقراطيَّةِ والحرِّيَّةِ وحقوقِ الإنسانِ ومنظَّماتِ السَّلامِ العالَميِّ ومحاكِمِ العَدلِ الدوليَّةِ.

وقد سَمِعتُم بكلِّ تأكيدٍ عن جريمةِ الأمسِ الغادرةِ الَّتي راحَ ضحيَّتَها بُرآءُ مسالمون كانوا يُؤدُّون صَلَواتِهم في الكَنيسةِ البُطرسيَّةِ بالقاهرة، وخلَّفَت في قلوبِ المسلمينَ -قَبلَ المسيحيِّين- آلامًا وأحزانًا ليس من السَّهلِ تجاوُزُها ولا نسيانُها..

هذه الجريمةُ الوحشيَّةُ ليست إيذاءً للمسيحيِّين في مِصرَ، بل هي - باليقين- إيذاءٌ للمسلمين في شتَّى بقاعِ العالَمِ، ولنبيِّ الإسلامِ ﷺ في ذكرى مولدِه الشَّريفِ.

وتحدٍّ آخَرُ -يَبدُو وكأنَّه خاصٌّ بعالَمِنا العَربيِّ والإسلاميِّ-، إلَّا أنَّهُ في ضَوءِ التَّأمُّلِ الهادِئِ يتَّضِحُ لنا في مآلاتِه القريبةِ أو البعيدةِ أنَّه هَمٌّ كبيرٌ من همومِ الإنسانيَّةِ جَمْعَاءَ، وأَعني به وَضعَ المرأةِ الإنسانيَّ والحضاريَّ في هذا العصرِ.

وأنا أشْكُرُ للقائمينَ على هذه القِمَّةِ تَنبُّهَهُم لخطرِ هذا الموضوعِ، فهو موضوعُ السَّاعَةِ، ومِن أجلِه أُنشِئت مراكزُ للأبحاثِ، ومجالِسُ قوميَّةٌ، تُعنَى بحقُوقِ المَرأةِ، بعدَ أن ضاعَ كثيرٌ مِنها، أو أُهمِلَ، أو صُودِرَ على المرأةِ بسَبَبِ مِن طُغيانِ عاداتٍ وتَقاليدَ كان مِنَ المتوقَّعِ أن تتخطَّاها مجتمعاتُنا المُعاصِرةُ وتَترُكَها وَراءَ ظَهرِها، وتبدأ لتنظر للمرأة مِن مَنظورِ شَريعَةِ الإسلامِ لا مِن مَنظورِ مَوارِيثَ أُخرَى قَديمةٍ وحديثةٍ ضاعَت معَها كرامةُ المرأةِ إفراطًا أو تفريطًا.

ومِن جانبي -كباحثٍ في الإسلامِ- لا أَعرِفُ موضوعًا آخَرَ استَنزَفَ من عُقولِ العُلَمَاءِ والمُفكِّرين والباحِثِين والباحثاتِ، منذُ مَطْلَعِ القَرنِ الماضي وحتَّى يومِنا هذا، ما استَنزَفَه موضوعُ المرأةِ.

وفي مَكتبتِنا العربيَّةِ والإسلاميَّةِ المعاصرةِ آلافُ الكُتُبِ والأبحاثِ والمؤتمراتِ والنَّدَواتِ الَّتي تَناوَلَت موضوعَ المرأةِ، وقَتلَته بحثًا ودراسةً ومقترحًا، ورغمَ ذلك يَظَلُّ هذا الموضوعُ وكأنَّه لم يَمْسَسْه فِكْرٌ ولا خَطَّه قَلَمٌ من قبلُ، والَّذي يَبدُو لي -بعدَ طُولِ نَظَرٍ-في هذه القضيَّةِ أنَّه يُمكِنُ النَّظرُ إليها مِن زوايا ثلاثٍ:

الزَّاويةُ الأُولى: زاويةُ الإسلامِ الَّذي أَنصَفَ المرأةَ المسلمةَ وحرَّرَها مِنَ الأغلالِ والقيودِ الَّتي كبَّلَتها بها حضاراتٌ مُعاصِرةٌ لظهورِ الإسلامِ، وفي مُقدِّمتِها حضارةُ اليونانِ مُمثَّلَةً في قُطبَيها الكبيرَينِ: أفلاطون وأرسطو، وشريعةِ الرُّومانِ وأديانِ الهندِ، وكُتُبٍ مقدَّسةٍ حمَّلَتِ المرأةَ وحدَها مسؤوليَّةَ الخطيئةِ الأُولى، والجاهليَّةِ العربيَّةِ الَّتي صادَرَت على المرأةِ حقَّ الحياةِ، وحقَّ التَّعلُّمِ، وحقَّ التَّملُّكِ، وحقَّ الميراثِ، إلى آخِرِ ما تعلمونه -حضراتِكم- ويضيقُ الوقتُ عن تذكيرِكم به.

ولكن أقولُ: في هذا الجوِّ الخانِقِ للمَرأةِ ظَهَرَ الإسلامُ وكانت له كلمتُه الحاسمةُ، ولو أنَّه صَمَتَ في ذلكمُ الوقتِ عن مَظالِمِ المرأةِ أو استِذلالِها ما توجَّهَ إليه عَتْبٌ ولا لَوْمٌ، فقد كانتِ الدُّنيا بأسرِها ضِدَّ المَرأةِ وَضِدَّ حقوقِها وضِدَّ كرامتِها كإنسانٍ، لكنَّ نبيَّ الإسلامِ لم يلبَث أن صَدَعَ في النَّاسِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨]، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٢٣١]، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وكان مِن أواخرِ كَلِماتِه ﷺ: «... **اللَّهَ اللَّهَ في النِّساءِ**»(١).

ونادَى في أَصْقاعِ العَربِ: «**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»(٢).

وأوقَفَ -وإلى الأبدِ- وَأْدَ البناتِ، وملَّك المرأةَ حقوقًا سَبَقَت بها نظيراتِها في العالَمِ بأربعةَ عشَرَ قرنًا مِنَ الزَّمانِ؛ ملَّكها حقَّ الإرثِ، وحقَّ التَّعليمِ، وحقَّ اختيارِ الزَّوجِ، وجعَلَ لها ذمَّةً ماليَّةً مُستقِلَّةً عن زوجِها،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نُعيم في «**معرفة الصَّحابة**»: ٥/٢٨٠٨، من حديثِ يسار بن سُويد رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، بلفظ: «اتَّقُوا اللَّهَ في النِّساءِ».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٦) والتِّرمذيُّ (١١٣) وابن الجارود في «المنتقى» (٩٠) من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقال ابن حجر في: «**موافقة الخُبر الخَبر**»: ٢/٢٦: «حديث حسن».

تَتصرَّفُ فيها تَصرُّفَ المالكِ في مِلكِه الخالصِ، معَ الاحتفاظِ باسم عائلتِها حتَّى لا تَذُوبَ شخصيَّتُها في شخصيَّةِ شريكِها، وسَاوى بينها وبين الرَّجُلِ في التَّكاليفِ وتحمُّلِ المسؤوليَّةِ.

ومعلومٌ أنَّ هذه الحقوقَ لابدَّ أن تَصنَعَ مِن المرأةِ عنصرًا خلَّاقًا في المجتمعِ لا يَقِلُّ شأنًا عنِ الرَّجُلِ إن لم تَزِد عليه، وقد صَحَّ أنَّهُ ﷺ قالَ: «... **فَلَوْ كُنْتُ مُفَضِّلًا أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ**»(١).

وهذا التَّفضيلُ ليس مِن بابِ جبرِ الخاطرِ لضعيفٍ مهضومِ الحقِّ، وإنَّما هو إنصافٌ مستَحَقٌّ لميزاتٍ وخصائصَ تَتفوَّقُ فيها النِّساءُ، وقد يَفضُلنَ بها الرِّجالَ.

أمَّا الزَّاويةُ الثَّانيةُ: فهي الزَّاويةُ الَّتي تأثَّرَت بالعاداتِ والتَّقاليدِ أكثرَ مِمَّا تأثَّرَت بأحكامِ القُرآنِ والسُّنَّةِ والنُّصوصِ الصَّريحةِ الَّتي تَرفَعُ مِن شأنِ المرأةِ، ومِن قَدرِها العِلميِّ والاجتماعيِّ والإنسانيِّ، وهذه الزَّاويةُ أو هذا المذهبُ كادَ يعودُ بالمرأةِ في كثيرٍ مِن مَظاهرِ حياتِها إلى ما كانت عليه قبلَ نزولِ القرآنِ، فصادَرَ عليها كثيرًا مِن حقوقِها الَّتي كَفَلَها لها الإسلامُ، واستَدعى في نظرتِه للمرأةِ فِقهًا غريبًا مُنكرًا ضرَبَ عليها حِصارًا مِن العُزلةِ والغُربةِ، حتَّى كادَت تَألَفُ غُربتَها وعُزلتَها، وترضَى بهذا الرُّكنِ القَصِيِّ بعدَ انسحابِها مِن مجتمعِها ونَفْضِ يَدَيْها مِن تَحَمُّلِ مسؤولياتِها في بِنائِه ونَمائِه.

أمَّا الزَّاويةُ الثَّالثةُ: فهي زاويةُ الحَداثةِ الغربيَّةِ، المرتبطةِ بمفاهيمَ خاصَّةٍ وفَلسفاتٍ جديدةٍ تَنكَّرَت لكثيرٍ مِنَ القِيَمِ الثَّابتةِ في تاريخِ هذه المجتمعاتِ وعقائدِها.

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «المسند» -كما في «بغية الباحث» (٤٥٤)-، والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١١٩٩٧) والبيهقيُّ: ١٦/ ١٧٧، وغيرهم، من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما. وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: ٥/ ٢١٤.

وأُبادِرُ بالقولِ في عبارةٍ مُوجَزةٍ: إنَّني أُفرِّقُ تَفرقةً حاسمةً بين الحَداثةِ بكلِّ محاذيرِها، والتَّحديثِ الَّذي هو تَفاعُلٌ واجتهادٌ وتجديدٌ للتُّراثِ الدِّينيِّ والأخلاقيِّ، والإفادةِ مِن كنوزِه؛ وأنَّ الحَداثةَ بمفهومِها الغربيِّ ليست هي الأُنموذَجَ الأَمثَلَ الَّذي يَستحِقُّ تعميمَه وتسويقَه عالَميًّا.

ومع ذلك لا أُريدُ أن أَغمِطَ الاتِّجاهَ الحَداثيَّ حقَّه؛ فله إيجابيَّاتُه في مَجالِ التَّقدُّمِ العِلميِّ والإنسانيِّ والتِّقْنيِّ، ونقدِ العاداتِ والتَّقاليدِ الَّتي جاءتِ الأديانُ السَّماويَّةُ لإصلاحِها وتقويمِها، ولكنِّي أُريدُ أن أضَعَ بين أَيدِيكُنَّ - وأنتنَّ مِن أهلِ التَّشريعِ وقادةِ الرَّأيِ- محاذيرَ ثلاثةٍ:

الأوَّلُ: القولُ بنسبيَّةِ الأخلاقِ، واستبعادِ المُقدَّسِ الدِّينيِّ مِن منظومةِ الأخلاقِ الحاكمةِ، وإسنادِ الأمرِ فيها إلى الفردِ بكلِّ ما يحكُمُه مِن رَغَباتٍ وأهواءٍ، والرَّأيُ عندي أنَّ إقصاءَ الدِّينِ عنِ المجتمعِ يَعني أنَّ الإنسانَ يعيشُ على هامشِ الحياةِ، وأنَّه لا يستطيعُ أن يَرى الحياة على حقيقتِها.

الثَّاني: أنَّ تهميشَ دَورِ الأُسرةِ في التَّنشئةِ الاجتماعيَّةِ، وإحالةَ هذا الدَّورِ إلى وظائفَ تقومُ بها مؤسَّساتٌ وشَرِكاتٌ بَديلةٌ عنِ الأسرةِ - يُفضي إلى مجتمعٍ بلا عواطفَ ولا عَلاقاتٍ اجتماعيَّةٍ، ولا انتماءاتٍ إنسانيَّةٍ، بل يُفضِي به - عاجلًا أو آجِلًا- إلى مجتمعٍ فاقدٍ للتَّوازُنِ النَّفسيِّ والتَّراحُمِ الاجتماعيِّ الَّذي لا تكفُلُه إلَّا الأُسرةُ، وكلُّ ذلك يؤثِّرُ -لا محالةَ- سَلْبًا على كُلِّ النُّظُمِ السِّياسِيَّة والاجتماعيَّةِ والتَّربويَّةِ، إن لم أَقُل: إنَّه يُهَدِّدُ مصيرَ النَّوعِ الإنسانيِّ نَفْسِه.

أمَّا المحذورُ الثَّالثُ: فهو أنَّ التَّطوُّرَ الَّذي يَجري على قَدَمٍ وساقٍ في مجالِ الجِيناتِ والهندسةِ الوِراثيَّةِ وما إليهما، وما يترتَّبُ عليه مِن مخاطرَ، يجعَلُنا نتساءلُ: هلِ الحَداثةُ هي البديلُ الأمثلُ لمُجتمَعاتِنا الحاليةِ التي تحفظُ قيمَ الأُمومَةِ والأُسرةِ، رغمَ كُلِّ ما أصابَها مِن تَشويهاتٍ وتَجاوزاتٍ

باسم فِقهِ العاداتِ والتَّقاليدِ، أو مِنَ الأفضلِ أنْ نتقبَّلَ واقِعَ مجتمعاتِنا كما هو بسلبيَّاتِه، ثُمَّ نبدأُ في تغييرِهِ وتجديدِه انطلاقًا مِن هُوِيَّاتِنا المُختلِفةِ، وثقافاتِنا المتعدِّدةِ؟

ولا شَكَّ عندي في أنَّ بديلَ الحَداثَةِ في مجالِ المرأةِ، والخَلطَ بينَ ما هو حَقٌّ، وما هو عَبَثٌ بإنسانيَّتِها هو الدَّمارُ المُحَقَّقُ[(١)].

وأرجو أن يكونَ هذا التَّساؤُلُ، الَّذي يَبدُو لي مِحوريًّا، مَحَلَّ اهتمامِكُنَّ وأنتنَّ تتَطَلَّعْنَ إلى استراتيجيَّةٍ جديدةٍ لتمكينِ المرأةِ في مجالاتِ الحَياةِ كافَّةً.

شُكْرًا لحُسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتِه

***

---

(١) راجع: هبة رءوف في كتاب: «المرأة والدين والأخلاق»: ١٦٢-١٧٨.

كلمات
في الشأن العام

حديث في الثقافة[(١)]

تذكِّرنا الظروف العصيبةُ التي تحيط بالأمة العربية والإسلاميَّة اليوم بالظروف ذاتِها التي أحدقَت بها قبل قرنين مضيًا من تاريخها الطويلِ، وهي الظروفُ التي شكَّلت فيما مضى أسبابَ النهضة العربيةِ الأولى، وتعود اُليوم من جديدٍ لتشكِّلَ الأسبابَ الجديدةَ للنهوضِ من الكبوةِ التي تردَّتْ فيها النهضةُ الأولى وعقَمت قبلَ أن تؤتيَ ثمارَها ونتاجَها الطبيعيَّ الذي تؤتيه أيةُ نهضةٍ مناظرةٍ لها في الشرقِ أو الغرب.

ويبدو أنَّ ظواهر الانكسار والتَّراجع وفوضى الاضطرابِ هي المقدماتُ الضروريةُ أو الشروطُ الموضوعيَّةُ لانتكاسات الأمم المتخلفةِ، أو تلك التي حاولَت النهوضَ ولكن لأنَّها تحرَّكت في غير الاتجاه الصحيحِ فإنَّها سرعانَ ما ضلَّت الطريقَ، وعادت إلى نقطة الصفر.

وشيءٌ من هذا يمكن أن يَصدُقَ على نهضتنا التي مضى عليها قرابةُ قرنيْنِ من الزمانِ: فمن المسلَّم به أن رفاعة الطهطاويَّ الذي تُؤرَّخُ به بدايات النهضة العربية وُلدَ وعاش في الفترة ما بين ١٨٠١ م - ١٨٧٣م، ومن المؤكد أنه في غضونِ هذه الفترة سلَّط الأضواءَ على كلِّ الشروطِ اللازمة لقيام نهضةٍ قابلةٍ للتَّرقِّي والنماءِ، مثل الديموقراطيَّةِ والدستور والمؤسسات النيابيَّةِ، ومراقبة تصرفات الحكومة وتقييدِها بقيودِ القوانينَ ومثل الاستبداد والمرأة... إلى آخر هذه القضايا التي عادت جذعةً -من جديدٍ- في أيامنا هذه، وكأنها لم تُقتل- من قبلُ- بحثًا ودراسةً وتقعيدًا وتنظيرًا.. ولم يكن صوتُ رفاعةَ الطهطاويِّ صوتًا صارخًا في البريَّةِ، بل جاوبَته أصداءُ

(١) مقال كتبه الإمام الأكبر في عام: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

أصوات أخرى أكَّدت هذه القضايا ، وحملت همومَها ودفعتْ بمسألة النهضةِ إلى الأمامِ.

وهنا نذكر أسماء شوامخ الروادِ من أمثال الأفغانيِّ ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا والحجوي وابن باديس. . ولم تكن هذه الأسماءُ اللوامع إلا أمثلةً ونماذج جاوبَتْها قائمةٌ طويلةٌ من الأعلام ممن جاؤوا بعدهم.

ويتحدَّث المؤرخون -في مشروع النَّهضة العربيَّة- عن نهضتَيْنِ أو مرحلتيْنِ:

أولاهما: مرحلةُ التأسيس التي بدأت على يد محمد علي وابنِه إبراهيمَ باشا في مصر، في الثُّلُث الأول من القرنِ التاسع عشرَ، وكان من آمالها بناءُ دولةٍ قويَّةٍ تعتمدُ على جيشٍ حديثٍ، وصناعةٍ متطورةٍ وتعليمٍ عصريٍّ، بيد أنها سرعانَ ما أخْفقَت بسبب تحدياتِ الاستعمار الغربيِّ الذي كان ينتظرُ لحظة الانقضاضِ على مصرَ والمشرقِ العربي. . ولا يغفلُ المؤرخونَ في هذا السياق نهضاتٍ عدةً واكبتِ النهضةَ المصريَّةَ في أقطارٍ عربيَّةٍ أخرى، مثل تونس والمغرب، لكنها لاقَت نفسَ المصير، حين انتهى بها أمرُ الاستعمارِ إلى فرضِ الوصايةِ والحماية ثم الاحتلالِ.

أما المرحلةُ الثانية من مراحل النهضة العربيَّة فكانت مع ثورة يوليو في بدايةِ النِّصف الثاني من القرن العشرينَ، وكان برنامجُ الثورة هو الصيغةَ التي بشَّرتنا بالآمالِ العريضةِ من مطامحِ التَّنميةِ، وتحديثِ الجيش والتصنيعِ الثقيلِ ومجانية التعليم وبناء القوَّةِ الاقتصاديَّة والعسكريَّة ومساندة حركات التحررِ الوطنيِّ داخلَ الوطن العربيِّ وخارجَه.

وقد واكبتِ النهضةُ المصرية الثانيةُ نهضاتٍ مماثلةً في ستينياتِ القرنِ العشرينَ في سوريا والعراقِ والجزائرِ، ولم تكن ظروفُ النَّهضةِ العربيَّةِ الثانيةِ بأحسنَ حالًا من ظروف النهضة العربيةِ الأولى فلم تَلبَثْ أنِ انتكسَتِ النهضةُ

في مصرَ عَقِبَ هزيمةِ **١٩٦٧** وانتكسَت معها النهضاتُ المجاورةُ.

ولا يهمُّنا في هذه الورقةِ المتواضعة أن نتابعَ مع مؤرِّخي حركة النهضةِ العربيَّةِ في طوريها السابقَيْنِ أسباب وعلل الانتكاسِ والانكسارِ والتراجع والعودةِ إلى نقطةٍ قريبةٍ من نقطة الصفرِ، ولماذا جاءَتِ النتائجُ في التَّجربتيْنِ شديدةَ التواضعِ على المستوَى الاقتصاديِّ والسياسيِّ إذا ما قُورنت مثلًا بتجاربَ مماثلةٍ في بلدان أخرى بدأَت معنا -بل بعدنا- واستطاعَت أن تَقفِزَ بشعوبِها إلى مستوى الصدارةِ، أو على الأقلِّ مستوى الأمم المانحة لا المُستجديةِ.

وما يهمُّنا هنا هو حالةُ «الثقافة» التي بدأَت بخطواتٍ ثابتةٍ وواعدةٍ ومتوهِّجةٍ، ثم ما لَبِثَت أن بدأت في العد التنازليِّ شيئًا فشيئًا حتى صارَ الأمر الآنَ إلى ما يُشبه «الخواء»، وذلك بالمقارنةِ إلى ما كانَ عليه حالُ الثَّقافةِ في بداياتِ القرنِ الماضي، وحتَّى ما بعد منتصفِه بقليلٍ.

ولا أدَّعي هنا أنني سأضع يد القارئ على مكمَنِ الداء الذي أدَّى إلى اضطرابِ الرؤيةِ واختلاطِها فيما يتعلَّقُ بأمر الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، فهذا موضوعٌ دقيقٌ وشديدُ التَّعقيدِ، ولكن لعلي لا أصادِرُ على المطلوبِ لو ذهبتُ رأسًا إلى ادِّعاء أن اضطرابَ الرؤية في الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ فرعٌ عن اضطرابِ الرؤيةِ في الثقافة العامَّةِ ككلٍّ، وهذه خاصَّةُ الثقافةِ الإسلاميَّةِ اليوم، التي ربما تَنفردُ بها من بين سائرِ الثقافاتِ الدِّينيَّةِ الأخرى، حيث يُمكن لأية ثقافة دينيَّةٍ -غير إسلامية- أن تعملَ وتزدهرَ في معزلٍ عن المنظومةِ الثقافيَّة العامةِ؛ لأن خطابَ هذه الثقافات يتوقَّف بطبيعته عند الفردِ ولا يتخطَّاه إلى حيث مخاطبةُ النظم الحياتيَّةِ من سياسيةٍ واجتماعيَّةٍ وثقافيَّةٍ وفنية وغيرها من النُّظُمِ التي يعيشُ الفردُ في ظلالِها.

وهذا الفرقُ بين طبيعةِ الثقافةِ الإسلاميةِ في تغلغُلها في كل ظواهرِ الاجتماعِ والتمدن من جانبٍ، وانحصار الثقافاتِ الدينية الأخرى في نطاق الفردِ من جانبٍ آخر، هو فرقٌ ما بين طبيعة الدينِ الإسلاميِّ وطبيعة الأديان السماويةِ السابقةِ في علاقتِها بالفردِ والمجتمعِ والتاريخِ، وهو أيضًا فرقٌ ما بين حضارة الشرقِ وحضارة الغربِ في موقفِهما من الوحي والنبوةِ والدينِ، فالوحي في حضارةِ الشرق مقدَّسٌ ومطلقٌ ومتعالٍ، وهو فوق الإنسان والمجتمع، بل فوق التاريخ؛ ثم هو قوَّة هادية وموجِّهة ومصحِّحة وكاشفة عن المعنى الحقيقيِّ لقِيم الحقِّ والخير والجمالِ، سواءٌ على الخط القصيرِ لهذه الحياةِ أو الخط الطويلِ اللانهائيِّ الذي تمثِّله الحياةُ الأبديةُ.

والأمر مختلفٌ بالنسبة لموقف الحضارة الغربيَّةِ من هذه الينابيعِ المقدسةِ؛ إذ الإنسانُ بجسده ومُتعه- لا برُوحه- هو المقدَّس في الغرب، وهو مركز الكونِ ومحوره، وعلى الدِّين أن يعملَ في الحضارة الغربيَّة في هذا الإطار الضيِّق المحدود، وهو إطار خانقٌ، عاد معه الدينُ شأنًا خاصًّا بالحريَّةِ الفرديَّةِ، إن استحسنَته حريةُ الفرد فهو حَسنٌ، وإن استقبحَته فهو قبيحٌ.

وهكذا انزوى الدِّين إلى ركنٍ بائس قَصيٍّ، وانسحبَ من منظومة القيمِ الفاعلةِ والموجِّهةِ لحضارة المجتمعِ وثقافتِه وأنماطِ سلوكِه... وقد ساعدَ على هذا الانفصامِ النَّكد بين الدنيا والدين في ثقافة الغربِ طبيعة الفصل المشروعِ في «المسيحية» بين ما للَّه وما لقيصر، الأمرُ الذي انتهى بتكريسِ العلمانية أو فَصلِ الدِّين عن الدولةِ وإقصائه كليًّا عن مراكز التَّوجيه في المجتمع.

وقد دفعَت هذه المأساة بعضَ المخلصينَ من علماء المسيحيَّةِ إلى محاولةِ القيامِ بإحداثِ تغييراتٍ في تفسيرِ الكتاب المقدَّسِ وفي طبيعة

الكنيسةِ ووظيفتها، أملًا في أن تتعاصرَ قيم الإنجيلِ وقيمُ المجتمع الجديد في أنموذجِ الإنسانِ الغربيِّ المعاصرِ، لكنَّ الأمرَ انتهى- من جديد- إلى اكتساحِ قِيمِ المنفعةِ والمصلحةِ والمتعةِ ووفرةِ الإنتاجِ، وقال ماسكال في كتابه: «علمنة المسيحية» قولتَه الشهيرة: «إنَّنا بدلًا من أن نُدخلَ العالم في المسيحيَّة نريد أن نُدخل المسيحية في العالمِ»(١).

وهذا الذي حدثَ في الغرب من إقصاءٍ تامٍّ للثقافةِ الدينيَّةِ لا يُمكن أن يحدثَ مثلُه في الشرقِ الإسلاميِّ؛ لأن الثقافةَ الإسلاميَّةَ تأخذ اتساعَها من اتساعِ الإسلام نفسِه، وتستمدُّ حيويتَها وتجددَها من تجدد شريعة الإسلامِ، وهنا لا يمكنُ بحالٍ فصلَ الدنيا عن الدِّين؛ لأنهما- في حالة الإسلام- وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ، ومن المعلوم أن حضارةَ الإسلامِ تكاد تكونُ الحضارة الوحيدةَ التي تصالحَتْ في منظورها ثنائيَّات كبرى لم يُقَدَّر لها أن تلتقيَ قطُّ في سائر الحضارات الأخرى، وذلك مثل ثنائيات: الدنيا والآخرةُ، والدينُ والدولةُ، والفرد والمجتمعُ، والجسم والروح... إلخ. الأمرُ الذي يعني بالضَّرورة أن النظامَ الإسلاميَّ والنظام العلمانيَّ أشبه بنقيضين لا يجتمعانِ؛ لأنَّ أحد النظامينِ أُحاديُّ النظرةِ وانتقائيُّ الاتجاه، والآخر ثنائي تكاملي، وأحدُهما يعمل بمنطقٍ: «إما هذا وإما ذاك»، والآخرُ يعمَلُ بمنطق: «هذا مع ذاك». ومن ثمَّ فإن كلَّ المحاولاتِ التي تمَّت في اتجاهِ مصادرة الثقافةِ الإسلاميَّةِ لصالح تأسيسِ نظامٍ علمانيٍّ يسوس مجتمع المسلمينَ باءت بالفشلِ، وسوف تلقى المحاولاتُ القادمة المصيرَ نفسَه، اللَّهمَّ إلا إذا أمكن اجتثاثُ الإسلام من الجذورِ، أو- على الأقل- تحويله إلى منظومةٍ أخلاقيَّة

(١) نقلًا عن «مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية» لسيد محمد نقيب العطاس، : ٣١، ترجمة محمد طاهر الميساوي، المعهد العالمي للفكر والحضارة الإنسانية، ماليزيا: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

مجرَّدة من الأحكام تجريدًا تامًّا، فهنا فقط يمكن تصوُّرُ نظام علماني بديلٍ للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

وإذن فليس الحل كما يقال: العلمانيةُ أو الكارثة؛ إذ من غير المعقولِ تصوُّرُ مجتمعٍ إسلامي وعلماني في الوقت نفسِه؛ لأنَّ العلمانية نظامٌ بديل للدين ينفيه ولا يتكامَل معه.. وهي -في أفضل أحوالها- إقصاءٌ للدينِ والشريعةِ، من مراكز التأثير في المجتمعِ: سواءٌ على مستوى الأسرة أو الاقتصادِ أو السياسةِ أو التَّربيةِ أو الفن أو الثقافة أو الإعلام أو غيرِ ذلك من ظواهر الاجتماعِ، والنُّظمُ العلمانيَّةُ لا تعوِّلُ في شيء من ذلك على الأديانِ ولا على مقاصدِها ولا توجيهاتِها العامَّةِ، فالأسرةُ في الغربِ العلمانيِّ مثلًا لا تتأسَّس بالضرورةِ على أحكام الشرائعِ الإلهيَّةِ التي تُقيمُ الأسرة على أصولِ الحلال والحرام، ومن المقبول بل من المبرَّرِ أن تتم العلاقة بين الرجل والمرأة كيفما اتَّفقَ، وربما تخلو كليًّا من أيِّ بُعدٍ أخلاقيٍّ أو قيميٍّ بالمعنى الديني، وقد تتمُّ في إطارٍ قانونيٍّ يقيم هذه العلاقة الخطيرةَ كما يقيم أيةَ علاقةٍ أخرى من منظورٍ جافٍّ، هو منظورُ الحقوق والواجباتِ، وخذ مثلًا آخر: ظاهرة المثليِّين، أو ظاهرة زواجِ الرجلِ برجلٍ مثلِه، أو امرأة بامرأةٍ مثلها؛ إنها في المجتمعِ العلمانيِّ حقٌّ من حقوقِ الإنسانِ، وحريَّة شخصية يكفلها القانونُ وينظم لها الحقوق والواجبات من ميراثٍ ومن حضانة أطفال (بالتَّبني) وغيرها، والمجتمعُ يَحميها ويحرُسُها بكل أجهزتِه القضائيَّةِ والتنفيذيَّةِ.

ومنذ أيامٍ قلائل حملت إلينا الصحفُ، من بين ما حملت من غرائبِ الأنباء أنَّ «هذا الشذوذ» اكتسبَ- وياللكارثة!!- نوعًا من القداسةِ حين استطاعَ أحدُ المثليين أن يتسلَّلَ وينجح (بالانتخاب!!) في ترسيمه «أُسقفًا» بإحدى الكنائسِ في الولاياتِ المتحدة، ومسؤولًا عن حراسة الأخلاق

المسيحيَّةِ، وأمانة تبليغها للشعبِ، وليس من حق أحدٍ أن يمنعَه من الوعظِ والتَّبشير «بالمثلية والمثليين»، وهذه بعينِها الكارثةُ التي حذَّرنا منها «ماسكال» حين قالَ: إنه مع العلمانية تدخلُ المسيحيَّةُ في العالم ولا يدخل العالم في المسيحيَّةِ. وصدق «ماسكال»؛ لأن معيارَ القيم في النظام العلمانيِّ هو: المنفعة والمصلحة والمتعة، سواء كانتِ المنفعةُ أو المصلحةُ أو المتعةُ مشروعة أو غير مشروعةٍ، منضبطة بأصول الأخلاقِ وثوابتِها أو منفلتة منها، والعلمانيةُ لا تؤمنُ بثباتِ القِيم ولا مطلقية الأحكامِ، وكل شيءٍ في منظورِها متحرِّك أو قابلٌ لأن يتحرَّكَ حسب تطوُّرِ التاريخِ، وما كان بالأمسِ حسنًا يمكن أن يكون اليوم قبيحًا والعكس صحيحٌ.

وما دامتِ المُسلَّمة الأولى في الفلسفة العلمانية هي «فصلَ الدِّين عن الدولة» فكل النتائجِ التي تترتبُ بعد ذلك هي نتائجُ صحيحةٌ، ومتَّسقةٌ ومقبولةٌ في منطق هذا المذهب، وباستبعادِ الدِّين من أن يكونَ ميزانًا أو معيارًا للحكمِ بالحُسنِ أو القُبحِ، يهتز- لا محالةَ- ميزانُ القيم الإنسانية ويضطرب ويختلُّ.

ونحن لا ننكر أبدًا أن حضارةَ الغرب فيها الكثيرُ والكثير جدًّا مما يشادُ به، ويستحق الإعجابَ، ويبعث على الانبهار، وأنها أفادت الإنسانَ والإنسانية على المستوى التقني والفنيِّ والعلمي، بل والإنساني أيضًا. ولكنَّ من الصعب تجاهل خطر «الكارثة» التي تردَّت فيها هذه الحضارةُ الكبرى حين حرَمت نفسَها من هدي السماءِ، وعندي أنَّ هذه الحضارةَ أعطَت باليمينِ، وسلبت باليسارِ كلَّ ما أعطَتْه، بل وأكثر مما أعطَته.

وقد كانت هذه الفلسفةُ، أعني فلسفةَ إقصاءِ الدِّين كليًّا عن مشاريعِ النهضةِ في عالمنا العربي أوَّل مسمار يدقُّ في نعشِ ثقافة الأمةِ بشكلٍ عامٍّ والثقافة الإسلاميَّة على وجه الخصوصِ، ولنا أن نتأمَّلَ قليلًا: لماذا نجحَت تجربةُ الإمام محمد عبده إلى حين ثمَّ انتكست بعد ذلكَ؟ ولماذا يتغنَّى المثقفونَ

جميعًا- بمن فيهم دعاة محاصرة الثَّقافة الإسلاميَّة الآن- بتجربةٍ الإمام وتلاميذه من بعده، ويعدُّونها الأنموذجَ الرائد الذي يجب أن تقتفيَ آثاره؟

وأغلبُ الظنِّ أن السببَ في ذلك هو أن تجربةَ الإمام درجَت في اتجاهٍ صحيحٍ، فلم تقدم على إلغاء التراثِ وشطبه بجرةِ قلمٍ، ولم تتعامَلْ مع حضارةِ الغربِ من فراغٍ، بل بدأ الإمامُ من التراثِ أولًا وأسند ظهرَه إليه وهو يُقلِّبُ عقلَه وبصرَه في منجزاتِ الغربِ العلميَّةِ والسياسيَّةِ، وكان برنامجُه أشبهَ بتركيبةٍ جمعَت بين المفاهيمِ الحضاريَّةِ الغربية ذات المنزع الإنساني والأخلاقيِّ والمفاهيم السياسيَّة الشرعيَّة المرنةِ في تراثِ الإسلام: نصوصًا وقواطع وفهومًا أيضًا.

وفي هذه التَّركيبةِ تمت المواءمةُ بين يسر الإسلام وسماحتِه ووسطيةِ حضارتِه وبين حضارةِ الغرب في جانبها الإنسانيِّ والأخلاقيِّ، وقد انطلق الإمامُ محمد عبده وتلاميذُه المخلصون من مسلَّمةٍ بسيطةٍ؛ هي: شرعيَّة أن يأخذَ الإسلام من الغرب ما ليسَ عنده ما دام لا يصطدمُ مع أصولِه ومبادئه وقواطع نصوصِه، فمثلًا: يستندُ الإمامُ في جوازِ تطبيقِ صورِ الحكم العادلةِ عند أهل الكتابِ على قاعدة تراثيَّةٍ؛ عبَّر عنها ابن قيم الجوزية بقوله: «إنَّ أمارات العدلِ إذا ظهرَت بأيِّ طريق كان، فذاكَ شرعُ اللَّه ودينُه»[(١)]، كما استند إلى تراثِ الإسلام وهو ينفي أن تكونَ الدولةُ في الإسلام دولةً دينيَّةً؛ لأن الأمةَ هي صاحبةُ الحق في تنصيب الحاكمِ، وهي صاحبةُ الحق في عزلِه «فهو حاكم مدني من جميع الوجوه» حسب عبارة الإمام[(٢)].

وما نريد أن نصلَ إليه هو أنَّ تجربة الإمام لم تكن أبدًا مصالحةٌ بين عناصر دنسِه لا أخلاقية في حضارة الغرب وبين دين الأمةِ، كيف وهما نقيضانِ لا

(١) «الطرق الحكمية»: ١/ ٣١. دار عالم الفوائد- الطبعة الأولى- ١٤٢٨هـ.

(٢) «الإسلام وقضايا العصر»: ٢/ ٤٥. د. محمد عمارة- روابط للنشر- ٢٠٠٨م.

يجتمعانِ بحالٍ!، وأنَّ هذه التجربةَ الناجحةَ سرعانَ ما دخلت على يد المتغربين في مأزقِ التنكر للدين والقطيعة مع التراثِ، والتَّماهي مع الغرب شكلًا وموضوعًا، والمناداة بالعلمانية بجناحيها: اليساريِّ والليبراليِّ والقوميَّةِ، بديلًا عن تراثِ الأمة وتاريخِها ودينها، ولم يجد دعاةُ التغريب حرجًا في الهجوم على التراثِ والإزراء من قيمته، وتصويره في صورة معوقة للنهضةِ والتنمية، وأنه والحداثة نقيضان، وما لم نغسِل أيدينا منه فلن يُمكنَ لمشروعِنا النَّهضوي أن يستويَ على سُوقِه.

وهنا تدخُل الثقافةُ الإسلامية التي كانَت مصدرَ قوَّة في تجربةِ الإمام في أزمةٍ لا تزالُ تعاني منه حتى يومِنا هذا، ومع أنَّ أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتِها المرعبةَ والمريبةَ أيقظَتْ كثيرين من دُعاة التَّغريب وراجعوا موقفَهم وتحمَّلوا مسؤولياتهم، فإن الساحةَ لا زالت مملوءةً بالعداء للتراثِ والسخريةِ منه، ولدرجة أنَّ أحد دعاة التغريبِ لم يتحرَّجْ أن يقترح إعادة النظرِ في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. لأنَّها في منطق سيادته تُشعر بتعالي المسلمين، ولستُ أدري لِمَ صمت الأستاذُ المثقَّف صمت القبورِ عن آيةٍ أخرى خاطبت بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

ولا تزال ثقافتُنا الإسلامية تُوصفُ في أدبيات المتغرِّبين بأنها: ثقافة ببغاواتٍ يردِّدها الطلاب دون فَهم، وأنَّها لا تتفق مع تصورات الفيلسوف الفرنسيِّ condorcet، وهي ثقافةُ تلقينٍ، وفيها يقينٌ أعمى، وتعليمها تعليم ظلاميٌّ يُورِثُ الخوف والهستيريا، ثم هي تحاربُ الفلسفة وتكفِّر الفلاسفة، وتحاربُ العقلَ لصالح النقلِ، وترسخ العداءَ للمرأة، وتحضُّ على عداءِ غير المسلمِ، وأنَّ الثبات- لا التطور- هو سنَّةُ اللَّه في الخلق والكون، والحل

عند هذا المجدد (للثَّقافة الإسلامية!!) إحلالُ التعليم التنويري- وربما الفرنسي تحديدًا- محلَّ التعليم الإسلاميِّ الظلاميِّ.

والذي يقرأ هذا الكلام يأسَى كثيرًا على المستوى الذي تردَّت فيه هذه الأقلامُ، وعلى الجرأةِ التي تتناولُ موضوعاتٍ علميةً خطيرةً دون توثيقٍ للمعلوماتِ أو إلقاء نظرة فاحصة على مصادرِ الموضوع الذي تتحدَّثُ فيه، وكدليلٍ على أن هذا الكلام قد أُلقي على عواهِنه إلقاء، وأنه أشبهَ بحديث المقاهي منه بحديثِ العالم المسؤولِ أسوقُ للقارئِ المنصف بعضَ ملامحَ سريعةٍ من تراثنا المظلوم، تؤكِّد أن هؤلاء الساخرينَ من التراثِ هم غرباءُ عليه بكل المقاييسِ، حتى وإن صدَّعوا رؤوسَنا بدعاوى التحديثِ والتجديدِ:

- فليس صحيحًا أن ثقافتَنا تحاربُ العقلَ، بل العكس هو الصحيحُ، والقاعدةُ الذَّهبية التي يحفظُها صغارُ الطلابِ المطلعينَ على هذا التراثِ تقولُ: «إذا تعارَضَ العقلُ والنَّقلُ قُدِّم العقل وأُوِّل النقلُ» أي: حين يتعارضُ النقلُ- من قرآنٍ أو سنةٍ- مع أحكام العقلِ، فالقاعدةُ أن أُقدِّمَ أحكام العقل وأجريَها كما هي، ثم أفسرَ النقلَ وأؤولَه بما ينسجمُ مع العقلِ، والعقلُ في ثقافتنا الإسلاميَّةِ مناظِرٌ للشرع، وقد سمَّاه الإمام الغزالي شرعًا باطنًا، وسمَّى الشرع عقلًا ظاهرًا.

وحسب القارئِ المنصفِ في الاستدلال على تغلغل العقلِ والعقلانيَّة في قلب الثقافةِ الإسلاميَّة أن الخطوةَ الأولى التي تبدأ بها رحلةُ الإيمان باللَّه تعالى خطوةٌ عقليةٌ، وأنَّ الدليل على صدقِ النبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم دليل عقليٌّ، ولا يجدي فيه دليلُ النقل، ودلالةُ المعجزة- كما هو معلوم للمثقفِ المطلع على التراث- دلالةٌ عقلية وليست دلالةً نقليةً، وإثباتُ الوجود الإلهيِّ قائم على دليلِ العقل، ولا يمكنُ أن يقومَ على دليلِ النقل؛ لاعتباراتٍ منطقيَّةٍ، يصعُبُ فهمها في هذا المقام، ومنها أنَّ إثبات الوجود الإلهيِّ انطلاقًا من دليلِ القرآنِ والسنةِ يستلزِمُ الدَّورَ المُحالَ.

وللسَّاخرينَ من ثقافتِنا أن يُصدِّقُوا- أو لا يُصدِّقوا- أن مادَّةَ «عقل» و«فكر» و«نظر» ومشتقاتَها وردَت في القرآن الكريم أكثر من **١٢٠** مرةً، وأنَّ القرآن الكريمَ يَفرِقُ تفرقةً حاسمة بين رتبةِ العلم واليقينِ من جانبٍ ورتبة الشك والظن من جانبٍ آخر، وأن كلمة «حُجة» وكلمة «برهان» وردتَا في القرآنِ الكريمِ كطريق وحيدٍ للاستدلال، وفي القرآن نعيٌ صريحٌ وواضحٌ على هؤلاء الذين لا يستخدمونَ عقولهم ويركنون لتقليدِ الأباءِ والأجدادِ أو الكبراءِ أو أصحابِ العاهات الفكريَّةِ، فهل هذه الأصول تنتج ثقافة تحارب العقلَ؟!

وليس صحيحًا أن ثقافتَنا تحاربُ الفلسفةَ والفلاسفةَ، ويكفينا أن نُحيلَ الأستاذَ الساخرَ إلى كتاب تراثيٍّ، هو كتاب «فَصْلُ المقال فيما بين الحكمةِ والتشريع من الاتصالِ» لابن رشد، وهذا الكتابُ يدور على كشفِ الصِّلةِ الحميمة بين الفلسفة (الحكمةِ) وشريعةِ الإسلام، وفي هذا الكتاب يقول ابن رشد: «فإنَّنا معشرَ المسلمين نعلمُ على القطع أنه لا يؤدِّي النظر البرهانيُّ إلى مخالفة ما وردَ به الشرع، فإن الحقَّ لا يضادُّ الحقَّ، بل يوافقُه ويشهد له (. . .) وأنَّ الحكمةَ (الفلسفة) هي صاحبةُ الشريعة والأخت الرضيعة. . . وهما المصطحبتانِ بالطبع، والمتحابتان بالجوهر والغريزةِ»(١).

وإذا كانت ثقافتُنا تحاربُ الفلسفة والفلاسفة ففيمَ إذًا عشرات أقسام الفلسفة في الكليات الإسلاميَّة وغير الإسلامية في عالمنا العربي والإسلاميِّ، بل فِيمَ تخصصات الفلسفة الإسلامية في جامعات الغرب وأمريكا واليابان؟!

- وليس صحيحًا أن ثقافتنا ظلاميةٌ، والصحيح أنَّ الثقافة الوحيدة التي أبرزت فلسفة «النور» -في العالم- هي ثقافتنا، وفي القرآن سورةٌ تسمى سورة «النور»، و «النور» اسمٌ من أسماء اللَّه تعالى، وقد تكرَّرت كلمة النور

---

(١) «فصل المقال»: ٣١، تحقيق: د. محمد عمارة- دار المعارف.

في القرآن ٤٩ مرةً، وجاءت كلمة النور والأنوار جزءًا من عناوين مئات الكتب والمصنفات في التراثِ، وإذا كانت مصادرُ المعرفة في الفلسفات الغربيَّة ظلَّت حتى الآن حبيسةَ مصدر «الحس» أو «العقل» فإنَّ «النور» في الفلسفة الإسلامية مصدرٌ من مصادر المعرفة، ربما يفوقُ في يقينيته مصدرَ العقل ومصدر الحواسِّ.

ومفهوم النور في الثقافة الإسلامية غاية في الثراء والخصوبة والتنوع: فاللَّه نور، والقرآن نور، والتوراة نور، والإنجيل نور، والنبي صلَّى اللَّه عليه وسلم نورٌ، والأنبياء نورٌ، والعلم نورٌ، والجهلُ ظلامٌ، والبصيرة نورٌ، وعمى القلب ظلامٌ، والإيمان باللَّه نور والكفر به ظلمة.

- وليس صحيحًا أن ثقافتَنا تكرِّسُ الثباتَ والسكونَ وتنفي التطور والتجديدَ، بل التجديدُ أصلٌ في متن هذا الدينِ الذي نشأتْ حوله هذه الثقافةُ:

- فالتغير مبدأٌ قرآني، وهو شرط التطور للأفضلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

- والتَّجديدُ في الدِّين، واستمرارُه وتواصلُه حقيقةٌ قرَّرها النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلَّم في ألفاظٍ صريحة واستعمل فيها كلمة «التجديد» نصًّا، وذلك في الحديث الشريف: «إنَّ اللَّه يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كل مائةِ عامٍ من يُجدِّدُ لها دينَها»(١).

- وتراثنا الكلامي يتكئُ في تصوره للكونِ وفي مباحثه الطبيعيَّةِ على مبدأ التجددِ اللحظيِّ، ونظريَّةُ الخلق المتجدِّدِ عند الأشاعرة تغنيني عن الجدلِ في هذا الموضوعِ، فعندهم: أن العَرَضَ لا يبقى زمانيْن متتاليَيْنِ، بل ينعدِمُ ويوجدُ لحظةً بعد أخرى، والمعتزلةُ - كالنَّظَّامِ والكعبيِّ - يخطونَ خطوة أبعد

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

حين يقرِّرونَ أنَّ «الأجسام الماديَّة كلها تتجدَّد حالًا فحال»[(١)] . مما يعني أن الكون متجدد وصائر من حال إلى حال في كل لحظة.

والفيلسوف المسلم «صدر الدِّين الشيرازي» (ت ١٦٤٠م) يتفرَّد في تاريخ التفلسفِ العقليِّ بالقول بالحركةِ في الجوهرِ، وكان الفلاسفةُ قبله يجترون نظريَّة أرسطو في ثبات الطبيعة في عالميها: العلويِّ والسفليِّ، وله مقولةٌ سَبقَ بها فلاسفة الصيرورةِ والديمومة في الغرب، من أمثال برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) يقول فيها: «إنَّ حالَ الشمسِ والقمر كحالِ زيدٍ وعمرو في تبدلهما وانقضائهما ودثورهما وفنائهما (. . .) وأنَّ الحمَل والثور والسنبلة في عالم السماءِ كالحَمل والثور والسنبلة في عالم الأرضِ من حيث إن أشخاص الكل متجدد في كل حين»[(٢)] .

وحتى علماء التصوف المسلمينَ لم يَغِبْ عن وَعيهم هذا المبدأ، وها هُو ابن عربي يقول: «إنَّ الموجودَ كله متحرك على الدوام دنيا وآخرة»[(٣)] . بل إنَّ أصغرَ طالبٍ في كلية أصول الدِّين يتعلَّم أن الاستدلالَ على وجود اللَّه تعالى- في تراثنا- يرتكزُ على مسلَّمةٍ أولى، هي تغيُّر العالم وتبدلُه، ويحفظ عن وعيٍ وفهمٍ نظمَ الدليل هكذا: «العالمُ متغيِّر، وكل متغير حادثٌ، وكل حادثٍ لا بد له من محدثٍ».

وإذا كانت الثقافة الإسلامية عانتْ- وتعاني- الكثير من معسكر التغريبِ المتربص بها، فإنَّها- في الطرف المقابل- تعاني- وبالقَدْرِ نفسِه- من معسكرِ التَّشددِ والمتشددين والذي ظهر مؤخَّرًا على الساحة وزعم لنا أنَّه

---

(١) «المواقف»: ١/ ٨٩. وفيه: «كما يقول النَّظَّام في الأجسام من أنها غير باقية بل متجددة آنا فآنا».

(٢) مفاتيح الغيب: ٣٩٨.

(٣) الفتوحات المكية ٥/ ٤٩٩.

المتحدِّث الرسمي- الوحيد- باسم الإسلام، وحوَّل لنا هذا الدينَ في رحمتِه وعدله وإنسانيتِه وعالميته إلى قائمةٍ تعيسةٍ من الممنوعات والمحظوراتِ، اختلط فيها المكروهُ بالمحرَّمِ وزالت الحدودُ والحواجز بين ما هو مندوبٌ وما هو واجبٌ، واستبيحت فيها حُرُماتٌ ما كان لها أن تُستباحَ لولا سوءُ التفسيرِ والتأويلِ.

وإذا كانتْ أزمة التغريبِ قد أربكَتِ الثقافة الإسلاميةُ وشلَّتْ فاعليتها في مشروعِ النهضة فإنَّ أزمة التطرفِ لا تقلُّ خطرًا عن أزمة التغريبِ في إرباك هذه الثقافة وشلِّ فاعليتها، وبيانُ ذلك يحتاج إلى حديث آخرَ.

* * *

عـقبات في طريـق الإصــلاح(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه، وبعد:

فيُسعِدُني في بداية كلمتي هذه أن أتقدَّمَ بخالص الشُّكر والتَّقدير إلى أ.د/ نادية مصطفى -على تكرُّمِها بدعوتي للمُشاركة في افتتاحِ هذا المُؤتَمر الهام، والذي يَتَّخذ من موضوع: «مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي» محورًا لمناقشة الرؤى والأفكار التي تُقدَّمُ بين يدي هذا الموضوع، وبأقلام نخبةٍ مُتميِّزة من العلماء والمفكرين، من داخل مصر وخارجها.

وأُبادرُ إلى القول بأنَّ هذه الورقة المتواضعة قد لا تُضيف جديدًا يُفيد في قضية إصلاح العالَم الإسلامي، أو قضيَّة نهضة الأمَّة العربيَّة والإسلامية، تلكم القضيَّة التي أَرى أنَّه أصابَها قدرٌ غيرُ قليلٍ من الغُموضِ والاضطِّرابِ والالتِباس، صاحبَها في نَشأَتِها، وفي كَبواتِها المُتَلاحِقَة، ولازالَ حتى الآنَ يَتربَّصُ بها الدَّوائرَ ليَعدل بها عن سواء السَّبيل.

واسمَحوا لي -أيُّها السَّادة العُلماء- في أن تَجيء كلمتي هذه عامَّة وكلِّية، حتى وإن وقعَت في عيبِ الخَلط بين التَّصوُّرات والمفاهيم، وأوَّلُها هذا الخَلط الذي لا مَفرَّ منه بين مشاريع الإصلاح الجُزئيَّة التي حقَّقتها للأُمَّةِ

(*) أصل هذه المحاضرة، كلمة ألقيت في المؤتمر الدولي لمركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بجامعة القاهرة، «مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي» المنعقد بمبنى جامعة الدول العربية بالقاهرة، في: ٣٠من شوال ١٤٣٠هـ، الموافق: ١٩أكتوبر ٢٠٠٩م.

نخبةٌ من روَّاد العُلماء المسلمين، وبين مشروع نهضة الأمَّة نهضة شاملة.

لعلَّكم تتَّفقون معي في أنَّ نجاح أي مشروع إصلاحي لأَزَماتنا المتعدِّدة الأبعاد باتَ مشروطًا بوَحدةٍ مرجعيَّةٍ عُليا، يَنمو في ظلالها هذا المشروع أو ذاك، ويُؤتي ثماره طيِّبة على صعيد الإصلاح والتَّجديد ويتصدَّى للتَّحديات التي تواجه مشروعات النهضة وتعوق مسيرتها.

ولقد مرَّ على هذه الأمَّة مُذ حاوَلَت النُّهوض والإصلاح قرنان من عُمر الزَّمان، عُرِفَت فيها حركاتٌ إصلاحيَّةٌ فكرية وثقافية كبرى، لا نَشكُّ لحظةً في أنَّها نجحَت في التَّصدي لعواصف الاستِلابِ والاقتلاع من الجذور، وأهَّلَت الحضارةَ الإسلامية وقتَها لتَخطِّي أزَمات شديدة الخطَر، كانت كفيلة بالقضاء على هذه الحضارةِ آنذاك قضاء مُبرمًا..

ومع ذلك، وبرغم استمراريَّة هذه الحرَكات الإصلاحيَّة حتى وَقتنا هذا؛ فإنَّ الظُّروفَ العَصيبة التي تُحيطُ الآن بالأمَّة العربية والإسلامية تُعيد إلى الأذهان الظُّروفَ نفسها، التي أَحدَقت بهذه الأمَّة منذ قرنين مَضَيا من الزَّمان، وتُشكِّلُ -مثلَما شكَّلَت من قبل- الأسبابَ الجديدة المُلِحَّة لصَحوة جديدة، ونَهضة مَحسوبة، في شتَّى المجالات، وبخاصَّةٍ مَجال الفكر والثَّقافة، والمحافظة على هُويَّة الأُمَّة وكَيانها الحضاريِّ.

بل إنَّ ما يُثارُ اليوم من أسئلة حضارية وثقافية يُشبه كثيرًا أسئلةَ الأمس البَعيد، ولسنا في حاجةٍ إلى تقديم الدَّلائل والشَّواهد على هذه المُفارَقة المُحزِنة، وكيف والإعلامُ، والصُّحُفُ، والمجلَّات، والفضائيات العربيَّة والإسلامية، ونوعية الهُموم التي تَشغل عقول شباب الأمة ورجالها ونسائها -يُنبئنا كلُّ ذلك بأنَّه ليس في الإمكان أسوأَ ولا أضيعَ ولا أهونَ مما كان.

وهذا ما يدعونا إلى البَحث من جديد عن العلل والآفات التي شكَّلَت

أزمةً مُزمنة في قلب نهضتِنا الإسلاميَّة ومشاريعها الإصلاحية، والتي لم تتوقَّف موجاتُها حتى هذه اللَّحظة.

وفي رأيي المُتواضع -تواضعًا حقيقيًّا- أنَّ علَّة العِلل هي -كما قلت من قبل- فُقدانُ وَحدة المرجعيَّة العُليا، والتَّقلُّبُ بين مرجعيات عديدة مُتناقضة، إضافةً إلى مرجعيات تَغريبية تَمَّ استدعاؤها من الشَّرق تارة، ومن الغرب تارة أخرى، وأُريد لمُجتمعاتنا أن تَعمل على هَديٍ من فلسفاتها وعقائدِها.

هذا؛ ومِن تكرار القول: التَّأكيدُ على أنَّ المرجعيَّةَ العامَّةَ ضرورةٌ لا مَفرَّ منها في مشاريع النَّهضة والإصلاح.

وليس صحيحًا ما يقالُ؛ من أنَّ المرجعيَّة الواحدة تُشكِّلُ تَنميطًا للمجتمع أو قيدًا على تعدُّديَّته، أو عائقاً لحرَكته التَّطورية، بل العكس هو الصَّحيحُ؛ إذ أثبَت الواقعُ أنَّ غياب المرجعية الكلية في نهضات الأُمم هي مبعثُ كلِّ العِلل والأمراض التي تَفتكُ بشَخصيَّتها وتُحيلها إلى مَسْخٍ شائه، وكيان مريض، لا هو حيٌّ، ولا هو ميِّتٌ.

ولنعتبر بالغرب، الذي نَجعل منه معيارًا وأنموذجًا للخَلاص والتَّنوير وتَبديد الظَّلام، إنَّه شديدُ الاختلاف والتَّنوع في مذاهبه، وأذواقه، وأنظاره السِّياسية، والثَّقافية، والدينية، ومع ذلك؛ فإن هذه التَّباينات لم تَقض على نهضته مثلما قضَت على نهضات الأمَّة العربية والإسلامية..

ذلك أنَّ تباينات الذِّهن الغربي استطاعت أن تَتماسك وتَتناغم بسببٍ من وَحدة المرجعيَّة الغربيَّة المركزية، والتي فجَّرت طاقات المُصلحين والمبدعين والمثقَّفين، وحشَدتها في اتِّجاه الخطِّ الحضاري الذي ارتأته ورضيته لنفسها.

هذا في الوقت الذي آلَت فيه تباينات الذِّهن العربي والإسلامي إلى مُتواليات من التَّجزِئة، والفشل، والتَّبعية، والاستلاب.

لقد شكَّل الاختلافُ في التَّجرِبة الغربية جسرًا مَتينًا، عبر بالغرب إلى ضفاف القوَّة والتَّقدم والرَّفاهية، بينما شكَّل في تَجرِبتنا مِعوَلَ هدمٍ وتدمير.

والفارقُ الحاسِمُ بين التَّجرِبتين؛ هو أنَّ الاختلافَ الذي يُشبِهُ أن يكون فطرةً فطرَ اللَّهُ النَّاس عليها كان يَعمل في الغرب ضمنَ إطارٍ جامعٍ، وفي اتِّجاه محدَّد، أو لِنَقُل: كان له مَقصدٌ أعلى يَتحرَّك نحوه المجتمعُ بكلِّ تَنوعاته وتناقضاته، أما مجتمعُنا الشَّرقي فقد تَمزَّق بين مقاصد شتَّى، متعارضة ومتصارعة إلى درجة الإقصاء والاستبعاد.

إنَّ هذا التَّذبذُب بين مرجعيَّاتٍ مُتصارعة أدَّى في الحالة الإسلاميَّة إلى ما يُشبه الحديث عن مشاريعَ للنَّهضة -وليس مشروعًا واحدًا- مثَّلَت تيَّارات وفصائل سياسية ومذهبية لا تُعبر عن هموم الأمَّة وآلامها وآمالها، بقدر ما تُعبِّر عن انتماءاتها للدَّاخل والخارج.

ومن هُنا؛ لم يكن عجبًا أن نجد مثقَّفي النَّهضة المُحدثين[(١)] يُقسِّمون النهضة إلى نهضات أولى، وثانية، وثالثة، ورابعة وخامسة، حسبَ التَّقسيمات المعروفة للتَّاريخ العربي المعاصر في نهاية القرنين الماضيين.

وأمرٌ طبيعي ألَّا يَستقيم لنا في هذه الفوضى مشروعٌ واحد للإصلاح أو النَّهضة، تتحدَّدُ مَلامحه وقسَماته، ويُشارك في صياغته السِّياسيون، وعلماء الأديان، والمثقَّفون، والأدباء، والكُتَّاب، وعلماءُ القانون، والتَّربية، والاجتماع، والفنَّانون، وتُهيَّأ له أذهانُ الشَّباب وعقولُ الجماهير.

وأمرٌ طبيعيٌّ أيضًا أن تَتلاشى هُويَّة الأمَّة العربية، وأن تَتخطَّفها المذاهبُ

(١) انظر: «الأيديولوجيا المستعادة» لرضوان جودت زيادة، في مجلة عالم الفكر، الكويت: ص ١٦، العدد: ٣٣، أبريل - يونيو: ٢٠٠٥م، وأيضًا: مقدمة: «نحو مشروع حضاري نهضوي عربي» عبد الإله بلقزيز: ٤٠، مركز دراسات الوحدة العربية: ٢٠٠١م.

والتوجُّهات؛ ما بين توجُّه رأسمالي، وآخر اشتراكي وحدوي، وثالث قومي، ورابع بعثي، وخامس ليبرالي، مع انفتاحاتٍ شديدة الحياء والخجل تتبادلُ بين الحين والآخر بين الفكر الإسلامي والقومي والاشتراكي.

وهذا الأمر يكاد ينفرد به عالَمُنا العربي، إذا ما قورن مثلًا بأوروبا، أو أمريكا، أو روسيا، أو الصِّين، أو دول شرق آسيا، أو غيرها من الدُّول التي يَجمعها هدفٌ مشترَك، أو اتِّحاد يُمكِّنها من تحقيق أهدافها الكبرى، وذلك على الرَّغم من توافر كلِّ مقوِّمات التكامل بين العالَم العربي، الذي يَتكلَّم لغة واحدة، ويَدين بأديان سماوية متآخية، ويَنتمي إلى جنس واحد مشترك، ومن غياب كل هذه المقوِّمات في كثير من دول الاتِّحادات الكبرى؛ كالاتِّحاد الأوروبي مثلًا.

وإذا كان غيابُ المرجعيَّة الواحدة هو المسؤول عن تبديد جهود الرُّوَّاد الأوائل للنَّهضة العربية والإسلامية؛ فإنَّ السَّبب نفسَه هو المسؤول أيضًا عن الانتكاسات التي تَردَّت فيها مشاريع إحياء الثقافة الإسلامية، والتي بدأت بخطوات ثابتة في أوَّل الأمر، ثم ما لبثت أن بدأت في العَدِّ التنازلي، حتى صار أمرُها الآن إلى ما يشبه الخَواء العلمي والفكري.

أيُّها السَّادة العُلماء..

لا يَنبغي أن أُطيل عليكم في أمورٍ تَعلمونها، غيرَ أنِّي قصدتُ إلى القول بأن تَجارِبنا الإصلاحيَّة لن يُكتب لها النَّجاح إلَّا إذا انطلَقت من منظور مرجعيَّة مُتَّفق على خطوطها العَريضة العامة، يُشكِّل الوحي، أو الدِّين، أو التُّراث الإسلامي، أو ما شئتم من هذه العناوين - عنصرًا أساسًا في صياغة هذه المرجعيَّة، ويَحظى بشيءٍ كثير أو قليل من القَبول والرِّضى من الجميع، وأن يكون محلَّ تقدير من قِبَل المُعتدلين من غير الإسلاميين.

وأنا لا أدعو أنصار التغريب إلى صنع نهضة تقوم على أسس لا يؤمنون

بها أو بجدواها. ولا أدعو غيرهم إلى الانغلاق الكامل في تراثنا العقلي والنقلي، وأن تُوصَد النَّوافذ المطلة على ثقافة الغرب وعلومه، فهذا أقربُ إلى الانتحار الحضاري لعالَمنا العربيِّ والإسلامي، بل هو أمرٌ غيرُ ممكن، وغيرُ قابل للتَّطبيق في واقعنا المعاصر.

غيرَ أنَّه إذا اتَّفقنا على أنَّه لا إصلاح ولا نهضة لا تأخذُ ثقافة الغرب وعلومه في الحُسبان؛ فلنَتَّفق وبالقَدْر نفسِه على أنَّه لا إصلاح ولا نهضةَ أيضًا تُسقط من حسبانها هويَّةَ الأمَّة وثقافتها ومكوِّنات بقائها وصمودها.

والتُّراثُ بهذا المعنى، وفي هذا الإطارِ المُنصِف شرطٌ لا مَفرَّ منه لأيِّ إصلاحٍ حقيقيٍّ، تَبقى معه الأمَّةُ موجودةً على قيد الحياةِ.

* * *

الهيئات الإغاثية والأوضاع الراهنة(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبِه أجمعين.

أيُّها السَّادة، أصحابَ السَّعادة والمعالي.. أيُّها الإخوةُ الفُضلاء، رؤساء ومُمثِّلي الهيئات والمنظمات والمؤسسات، وأعضاءَ الهيئة التَّأسيسية للمجلس الإسلامي العالَمي للدَّعوة والإغاثة..

السَّلام عليكُم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

وبعدُ:

فإنَّه يُسعِدُني أن أُرحِّب بكم جميعًا على أرض مصر، وفي ضِيافة الأزهر الشَّريف، وأرجو لكم جميعًا إقامةً طَيِّبة هانئة، وأعمالًا مُكلَّلة بالنَّجاح والتَّوفيق.

تَعلمون حضراتكم أنَّ فكرةَ إنشاء هذا المجلس المُوقَّر قد تَبلورت؛ استجابةً للإحساس بالمسؤوليَّة من قِبل المَهمومين بقضايا الإسلام والمسلمين، وتلبيةً لحاجة المُسلمين المُلحَّة في أنحاء العالَم إلى نشاطات الدَّعوة والإغاثة.

وإنَّا إذا نظَرنا في عُجالةٍ إلى خريطة العالَم الإسلاميِّ؛ اتَّضَح لنا مدى جَسامة هذه المسؤوليَّة؛ فعلى سبيل المثال: ٤٨٪ من سُكان أفريقيا من

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر الدعوة والإغاثة في الفترة من ٥/ ١/ ٢٠١١ حتى ٧/ ١/ ٢٠١١م.

المسلمين، وبها: ٢٤ دولةً ذاتُ أغلبيةٍ إسلامية، يَجيءُ معظَمُها في ذيل القائمة العالَمية؛ من حيثُ الدخلُ، والتَّعليم، والصِّحة.

أمَّا في آسيا؛ فيوجد: ٢٦ دولةً ذاتُ أغلبيَّةٍ إسلاميَّة، مُعظَمها يَحتلُّ مواقع متوسِّطة في القائمة العالَمية، بينما تُعاني ثلاث دول من تدنِّي الدَّخل وخدَمات الصِّحة وفُرَص التَّعليم، بجانب ثلاث دولٍ شقيقة، تُعاني من وَيلات الحروب منذُ زمَن طويل، في مقدِّمتها فلسطين، ثم أفغانستان، والعراق.

وقد كان طموحُ أصحابِ الفَضل في هذه الفكرة مُتفائلًا إلى حدٍّ بعيدٍ، وكانت الآمالُ كبارًا في أن يُصبح هذا المجلسُ أداةً لتَنسيق الجهودِ التي تَبذلها المنظَّمات الإسلاميَّة، والتي أُقدِّر لها أنشطَتها ودورَها الذي لا يُنكر، إلَّا أنَّني أَصدُقكم القولَ بأنَّه ما زال أمامَنا طريقٌ طويل، وتحدِّيات جِسام، تتطلَّبُ جهودَ الجميع من أجلِ الاقتراب من الوَفاء بالرِّسالة العَظيمة لمجلِسكم الموقَّر، وتَحقيق أهدافه كما ورَدت بالنِّظام الأساسي الذي يُنظِّم أعمالَه وأنشطَته.

والأمرُ يَتطلَّب مِنَّا أوَّلًا أن نُجيب على سؤالٍ مِحوَريٍّ، لا مفرَّ من مواجهَته؛ وهو: هل استطاعَ المجلسُ أن يُؤدِّيَ رسالتَه؟ وهل حقَّق أهدافَه بالصُّورة التي تَرضى عنها ضمائرُنا ومسؤوليَّاتنا أمامَ اللَّه تعالى؟

ولا أوَدُّ في هذا المقام أن أتطرَّقَ إلى تفصيلات أنتُم أعلَم بها منِّي، ولكنَّني أحيلُكم إلى مَحاضر وقائع الجلَسات السَّابقة لمجلِسكم الموقَّر، أو إلى هيئة الرِّئاسة التي تَتضمَّن كثيرًا من المُطالَبات، والمقترَحات، والنِّداءات؛ لتَفعيل دورِ المجلِس، بما يَشِي بعدَم الرِّضا بالأداء.

وعلى قدرِ ما أُتيحَ لي من معلومات؛ فإنَّني أشيدُ بالجهود التي بُذلت من

المنظَّمات أعضاءِ المجلِس في مشروعات الإغاثة لضحايا الكارثةِ التي وقعَت بدولة باكستان الشَّقيقة، إلَّا أنَّه ما زالَت آثارُ الكارثة وتَبعاتها قائمةً تَحتاج إلى مَزيد من الجهود في مشروعات الإعمار.

وقد تَتَّفقون معي في أنَّ من الضَّروري تَصميمَ أداة فعَّالة للتَّنسيق، تَبدَأُ بالمعلومات عن أنشطةِ أعضاء المجلِس الجارية فيما بينهم، وتُنسِّق أيضًا مع أمانةِ المجلِس بمَقرِّه الدَّائم بالقاهرة، وذلك حتى تَتوفَّر المعلوماتُ لدى المنظَّمات والأعضاءِ، من خلال قيام الأمانة العامَّة؛ بجَمْعِها، وتَنسيقها، وتَداولها.

وفي هذا المقام سوف تُعرَض على حضراتكم بعضُ المقترَحات التي تَستهدف دَعمَ التَّواصل، والتَّنسيق، وترابُط لجان المجلِس وهيئاته، في ظلِّ ما يَتعرَّض له الإسلام من حمَلات التَّشويه والجَهل بحقيقتِه السَّمحة الرَّاقية، وأيضًا في جَوِّ جماعات العُنف المُنتَسبة إلى الإسلام، والظُّروف الرَّاهنة في عالَم اليوم، والتي تَضعنا أمامَ مسؤوليَّة جَسيمة، وتَحدِّياتٍ بالغة التَّعقيد، الأمرُ الذي يَفرِض علينا فرضًا تَكثيف العمَل في مجالات الدَّعوة، والتَّعليم، والتَّدريب، وبما يُمثِّلُ أولويَّةً هامَّةً أمامَ المنظَّمات والأعضاء.

كما لا يَخفى على حضراتكم أنَّ تَطويرَ الدَّعوة وتَنمِيةَ قدرات الدُّعاة المَعرفيَّة والمَهارية، تَتطلَّبُ خططًا طويلةَ الأجل، يَتعاوَنُ فيها كلُّ الأطراف، وبأعلى درجةٍ من التَّنسيق من أجل تَطوير الخطاب الدَّعَوي، وتوصيل الرِّسالة في أصولها القطعيَّة، دون غُلُوٍّ أو تَفريط.

وقد بدأَ الأزهرُ الشَّريف بعِدَّة خطوات عِلميَّة في هذا المجال؛ منها: تَعليمُ اللُّغة العربيَّة لغير النَّاطقين بها، وتَعليمُ اللُّغات الحيَّة -الإنجليزية- لطُلَّاب كلِّيَّات العُلوم الإسلاميَّة، وبرامجُ تَدريبيَّة لشباب الدُّعاة من الغَرب،

وزيادة الدَّعم المُقدَّم للطُّلاب الوافدين، وإتاحةُ مِنَح دراسيَّة للطُّلَّاب المسلمين من الدُّول الفقيرة للكُلِّيات العِلمية في جامعة الأزهر؛ مثل الطِّب، والصَّيدلة، والهندسة، والزِّراعة، وغيرها، ولا نَزالُ نتطلَّع لمَزيد من التَّعاون والتَّنسيق مع المُنظَّمات والأعضاء والجمعيَّات في هذا الشَّأن.

أيُّها السَّادة الفُضلاء..

في هذا المقام، لا يَنبغي أبدًا أن ننسى أوجاع الأمَّة الإسلامية الرَّاهنة، والتي تَتمثَّلُ في:

أوَّلًا: فيما يُعانيه أشقَّاؤنا في فلسطين؛ من ظُلم، وعُدوان من سُلُطات الاحتلال الصُّهيوني، ومشروعاته، ومُخطَّطاته التَّوسعية، والاستيطانيَّة، والتي تُهدِّد القدسَ الشريف، وبيتَ المَقدس، أُولَى القِبلتين، وثالثَ الحَرمين..

ولا يَسعُنا هنا إلَّا أن نُبادر بدَعم سكَّان القُدس العربيَّة، ونُقدِّم العونَ المعنويَّ والمادِّي لهم، ولعل مَجلسَكم الموقَّر يُطلق نداءاتِه التي لا تَتوقَّف، من أجل وَحْدِة الصَّفِّ الفلسطيني، ووَأْدِ الفتنة، ونَبْذ خلافاتهم، من أجل تَحقيق الأهداف الوَطنية، بإقامة دولةٍ فلسطينيَّة مستقلَّة، عاصمتُها القُدس الشَّريف.

ثانيًا: ما يَتعرَّض له السُّودان الشَّقيق من ضغوط أجنبيَّة، تَستهدف سيادَته وكرامَته، وتُهدِّد وَحدَته وأَمْنَه واستقراره، يَتطلَّبُ جهدًا آخرَ موازيًا من هذا المجلِس.

ثالثًا: العراقُ وما يَتعرَّض له؛ من تَشرذُم عِرقيٍّ ومَذهبيٍّ يُهدِّد وَحدة أراضيه ومُستقبَل شعبه الشَّقيق -يُحتِّم على المجلِس أن يَستصرخ كلَّ الأطراف لتَقديم المصلَحة الوَطنيَّة على ما عداها، من أجل عراقٍ مُستقلٍّ يُضافُ لحساب الأمَّة العربية والإسلاميَّة، ويحقق أحلامَها في استعادة قوَّتها وكرامَتها.

رابعًا: الصُّومال الذي يَرنو إليكم من بعيدٍ، ويَنتظر دعمَكم في العمَل على وَحدة شعبه، حتى يَنهض من عَثرَته التي تَردَّى فيها.

خامسًا: ما يُعانيه الشَّعب الأفغاني من آثار الحُروب التي امتَدَّت أكثرَ من عَقدٍ من الزَّمان وتَدنَّت بالحالة الاجتماعيَّة والاقتصادية للشَّعب الأفغاني، مما يَتطلَّبُ من المُنظَّمات والأعضاء تَكثيف مشروعات الإغاثة، والمشروعات التَّنمويَّة، ودَعْم البِنيةَ التَّحتيَّة.

وفي الختام أرجو ألَّا أكون قد أطلتُ عليكم بهذه الآلام والهُموم البائسة، التي تُعانيها أُمَّتُنا، غيرَ أنِّي أحببتُ أن أُذكِّر نفسي، وأُذكِّرَكم بجَسامة المسؤوليَّة المُلقاة على عاتِقنا جميعًا.

وفَّقنا اللَّهُ وإيَّاكم، لما فيه خير المُسلمين، وخير الإنسانيَّة جَمعاء.

وقبلَ أن أُفارق مكاني هذا، أرى من واجبِ الوَفاء أن أذكُر شيخَنا الرَّاحل الجليل، الأستاذ الإمام: د. محمَّد سيِّد طنطاوي، شيخ الأزهر الشَّريف، وأُذكِّر بعِلمهِ، وتقواه، وأدبه العالي، وزُهده، ووَرَعِه، ونشاطاته التي لم تَتوقَّف لحظةً من أجل خدمة الإسلام والمسلمين، سواء في الأزهرِ الشَّريف، أو المجلِس الإسلامي العالَمي للدَّعوة والإغاثة.

لقد عشتُ معه، وإلى جواره، وتَعلَّمت منه الكثير؛ في مجال العِلم، والخُلُق، والاضطِّلاع بالمسؤوليَّة جهد الطَّاقة، وقدرَ المُستطاع.

أسأَلُ اللَّهَ تعالى أن يَجزيَه عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء، وأن يُلحِقَنا به على خيرٍ، مع الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

أشكُرُكم مرَّة أخرى، وأتمنَّى لكم التَّوفيقَ في عمَل الخير.

والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

القوى السِّياسية المصرية في رِحاب الأزهر الشَّريف(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيمِ

أيُّها الإخوة الكرام..

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

ومرحبًا بكم في رحاب الأزهر الشريف؛ بيتِ المصريين جميعًا، ولقد دعوتُكم اليوم للقاءٍ عاجل؛ لأنَّ مصر، ومُستقبل أجيالِها، وطموحات شعبها -أمانةٌ في عُنق كلِّ فردٍ منَّا؛ نحن المُجتمعين هُنا في هذه القاعة.

الإخوة الأعزاء! إنَّ اللَّحظة الحاسمة التي تعيشُها مصر اليوم، تجعلُ من أمنها واستقرارِها، والحفاظ على مكاسب ثورتها سقفًا تَقفُ عنده كلُّ منازع الفُرقة والشتاتِ، وتَتوحَّد تحتَه كلُّ اختلافات التَّنوع والتَّكامل الذي نَنْشُده لوَطننا، ولمصر في هذا المُنعطَف التَّاريخي الحاد.

وأُصارحكم وأصدُقكم القولَ؛ بأن تَنوُّعَ الاجتهادات حولَ استراتيجيَّة المُستقبل إذا تحوَّل إلى تقاطع وتَنابذ فكري، فلن يكون حصادُه إلَّا ثمرًا مُرًّا، للوَطن ولمصر، في حاضرها، ومُستقبلها.

إنَّ الدَّساتير في حقيقتِها إنَّما هي تعبيرٌ صادقٌ عن هُويَّة أُمَّة، وضمير شعب، ومصالحِ مجتمع، كما أنَّ تَنوُّعَ الاجتهادات حولَ البناء السِّياسي

(*) كلمة ألقيت خلال لقاء الأزهر الشريف بالقوى السياسية المصرية، في: ١٧ من رمضان سنة ١٤٣٢هـ، الموافق: ١٧ من أغسطس سنة ٢٠١١ م.

والدُّستوري القادم لن يكون تَنوُّعًا محمودًا إلَّا إذا ظلَّ في إطار وَحدة الوَطن وأهدافِه العُليا.

وإذا كانت الدَّعوة إلى مبادئ فوق الدُّستورية تُمثِّل عند بعضِنا حائلًا يَحولُ دون هيمنة الاتِّجاه الواحد واستبداده بصياغة البناء الدُّستوري والسياسي؛ فإنَّ البعض الآخر يراها التِفافًا على إرادة الجماهير التي أعلَنتها في الاستفتاء الأخير، وخروجًا على ما استقرَّ عليه الفقه الدُّستوري؛ من أنَّ الدُّستور هو الوثيقةُ النهائية، وقمةُ الهرم القانوني في الدَّولة الحديثة.

وقد أُثير جدالٌ طويل حولَ مدَنيَّة الدَّولة، غير أنَّ العبرة ليست بالألفاظ ولا الاصطلاحات، بل العبرة بالمعنى والمضمون، والتَّشريع الذي يَحكم المجتمع ويُوجِّهُه.

والأزهرُ الشريف الذي أعلَن أكثَر من مرَّة أنَّه يَقفُ على مسافة واحدة من جميع الفُرقاء، وأنَّه يُتابع بكلِّ دقَّةٍ واهتمام أطروحات الجميع حول مستقبل الوطن؛ يُعلن في صراحة ووضوح أنَّه لا يَخوض غمار العمل السياسي، ولا الحزبي، ولا السِّياسة بمفهومها المعتاد؛ فإن هذا ليس من شأنه، ولا من اهتماماته، لكنَّه يَحمل على كاهلِه دورًا وطنيًّا تجذَّر في التاريخ، وحمَّلَتهُ إياه الأمةُ؛ للحفاظِ على حضارتِها المُمتدَّة، وثقافتها الراسخة، وهُويَّتها التي تأبى الاختراق والذوبان.

ومن منطلَق هذا الدَّور الوطني للأزهر، وهذه المسؤولية التي يحسُّ الأزهر بثقَلها، ويُدرك أمانتَها أمام اللَّه والتَّاريخ دعوتُكم -أيُّها السَّادة والسَّيدات من أبناء وطني- إلى النَّظر في التَّوافق حولَ وثيقة الأزهر، كحَلٍّ يَخرج به النَّاس من ضيق الاختلاف وخطَره، إلى سعة الآفاق الرَّحبة، والتَّعاون الجادِّ، من أجل بلدنا جميعًا، وتقديرًا لدماء شُهدائنا، وتضحيات جماهيرنا.

ووثيقةُ الأزهر-كما تعلمون حضراتكم- هي مجرَّدُ إطارٍ قيمي، يَصون أساسيات شعبنا وثوابتَه، ويَعتبر الدَّولة الوَطنيَّة الدُّستورية الدِّيمقراطية الحديثة من ثوابت المطالب الوَطنية، بكلِّ ما تَستوجِبُه من مواطنة كاملة، وتَداول حقيقي للسُّلطة، يَمنع احتكارَها من فريق، أو الوثوب عليها من فريق آخر.

هذا، وقد حظِيَت وثيقةُ الأزهر- بفضلِ اللَّه تعالى- بترحيبٍ واسع من كلِّ ألوان الطَّيْفِ السِّياسي في مصر، واعتَبرَتها قوًى فكريَّةٌ وسياسيَّةٌ عديدة، في داخلِ مصر وخارجِها -نُقلةً نوعيةً، تَناغم فيها الدِّينيُّ والسِّياسيُّ في شؤون الأمَّة.

ولعلَّ التَّوافق على هذه الوثيقة بات يُمثِّل جسرًا يَعْبُر بنا من حالة الخِلاف الراهن بكلِّ مَخاطره على الوطن، إلى أُفُق الأمَل المنشود.

وهذا التَّوافق يُؤهِّلُها لأن تكون وثيقةً يُسترشَد بها عند وضع الدُّستور، وميثاقَ شرَف يَلتزم به الجميع طواعية واختيارًا، لا يُفرَض على أحد، وإنَّما يُترك الأمرُ فيه للإرادة الشَّعبيَّة، التي يُعبِّر عنها الدُّستور المُنتظَر.

والأزهرُ لا يُخامره شَكٌّ في أنَّ الدُّستور القادم سيكون -بإذن اللَّه تعالى- ميزانَ عدلٍ بين الشَّعب المصري بكلِّ أطيافه؛ يَضمَنُ حقوق الجميع من غير تفرِقةٍ ولا تمييز، وبحيثُ يَقضي على كلِّ دواعي القَلق، والتَّوجُّس لدى أيِّ فصيلٍ من فصائل الجماعة الوطنيَّة.

ولعلَّ هذه اللَّحظة التاريخية التي نعيشُها الآن تُمثِّل إرهاصًا من الجميع بتوافقٍ يَتمسَّك بثوابت مصر، ويَصون ثَورَتَها، ويَحمي استقلالَها، ومصالحَ شعبها، في عالَمٍ مُتغطرس، لا يَرحم الضُّعفاء ولا المُتناحرين، ولا يُسعدهُ تماسكُ شعب مصر والتِفافُه حول مصلحته، ووَحدة مصيره.

أكرِّرُ التَّرحيب بكم، وأشعرُ بتفاؤل كبير؛ وقد لبَّيتُم الدَّعوة، وأعلَم أنَّكم بحِسِّكم الوَطني ماضون بكلِّ صدقٍ وإخلاص لما فيه الخيرُ لمُستقبل مصرَ، ومصلحَة الوَطن.

وأخيرًا.

أدعُو اللَّهَ أن يَرعاكُم، ويُسدِّد خُطاكم؛ إنَّه نعمَ المولى، ونعم النَّصيرُ.

❊ ❊ ❊

الهيئات الإغاثية
والتَّحدِّيات المجتمعيَّة(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصَحبِه ومن اهتدى بهُداه.

الحفل الكَريم..

السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبرَكاتُه

وبعدُ:

فلقد مضى عامٌ على لقائنا السَّابق بكلِّ ما فيه من أحداث، كان أهمُّها: الانتخابات الرئاسية، واستقرارُ الأوضاع في البلاد، وانتشار الأمن في ربوعها، مما يُمَكِّن المجلسَ الإسلامي للدعوة والإغاثة، والهيئات التي تعمَل تحت لوائه من الانطلاق في أداء رسالتِها في ثقةٍ، وأَمْنٍ، وأمان، ويُتيح لهم الفرصةَ لتَنفيذ خِطَّتهم الطَّموحِ في الدَّعوة إلى اللَّهِ، وإغاثةِ المَلهوفين في شتَّى بقاع العالَم، حتى تتحقَّقَ العالَمية لهذا المجلس في دعوتِه وإغاثَته.

ولا زلنا نلاحظ -أيُّها الإخوة الفُضلاء- أنَّ عمل المجلسِ، ونشاطَه، وهيئاتِه -لا يَزالُ مَحصورًا داخلَ العالَم العربي، لا يَتخطَّاه إلى العالَم الإسلامي وهمومِه ومشاكلِه.

(*) كلمة ألقيت في «مؤتمر الدعوة والإغاثة ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م» في: ٢٤ من شوال سنة ١٤٣٣هـ، الموافق: ١٢ من سبتمبر سنة ٢٠١٢م.

ومن هُنا؛ فإنَّ الأزهرَ يَتطلَّعُ إلى أن يَعمل المجلسُ على تَحقيق العالَميَّة الإسلاميَّة؛ وذلك بانضمام الهَيئات الدَّعوية والإغاثيَّة الإسلاميَّة في الدُّول غير العربيَّة؛ كتُركيا، وماليزيا، وإندونيسيا، وباكستان، وبنجلاديش، وغيرها للعمَل بالتَّنسيق والتَّعاون مع المجلس.

وحبَّذا لو درَس المجلسُ في اجتماعه هذا إمكانَ تَخفيض قيمة الاشتراك السَّنويِّ، الذي بلَغ خمسة آلاف دولار، وذلك لتشجيع الهَيئات الإسلامية الفقيرة في أفريقيا وآسيا للانضمام للمجلس، ولتَنسيق العمَل الدعوي والإغاثي الإسلامي ونشره دوليًّا وعالميًّا.

ونحن من جانبنا نضعُ إمكانات الأزهر الشَّريف وهيئاته لخدمة الأهداف النَّبيلة للمجلس ولنَشاطاته حولَ العالَم، ولتَمكينه قدر الاستطاعةِ من رعاية الفُقراء، والمظلومين، والضُّعفاء، والتَّعرُّف عليهم، وعلى هُمومهم بشتَّى الوَسائل.

هذا، وإنَّ التَّحديات والصُّعوبات لا تَزال كبيرةً أمام الهيئات الدَّعوية والإغاثية؛ لأنَّ ميادين العَمل تَزدادُ انتشارًا واتِّساعًا، وتَتضاعف وتَتزايَدُ في مجال إغاثة المُضطهَدين، والمَقهورين، وتَخليصهم من الانتهاكات التي يَتعرَّضون لها في مناطق كثيرةٍ من أرجاء هذا العالَم.

وها هم أهلُ «ميانمار» يَستصرخون إخوتهم المسلمين في جميع أنحاء الدنيا، ويَستغيثون بهم، بعد أن أعمَل فيهم البوذيُّون القتلَ، والحَرْقَ، والتَّعذيبَ، والتَّدمير، والتَّهميش، والإبعاد، بمرأى ومسمَع من دول العالم، الذي يَصِفُ نفسَه بالتَّحضُّر والالتزام بمبادئِ حقوقِ الانسانِ.

وممَّا يُؤسفُ له؛ أنَّ الهَيئات الإغاثيةَ العالَميةَ لم يَتحرَّك لها ساكنٌ، واكتفَت فقط بالشَّجْبِ وكتابة التَّقارير، وقد كتبَت منظَّمةُ حقوقِ الإنسان الدولية

«هيومن رايست ووتش» تقريرًا، وصفَت فيه الأحداثَ هناك بأنَّها مروعة، وأضافَ تقريرٌ أنَّ قوَّات الأمن البورمية ارتكبَت أعمالَ قتلٍ، واغتصاب، واعتقالات جماعية في حقِّ المسلمين بعد أن أخفَقت في حمايَتهم.

وفي سوريا تحوَّلَ عددٌ كبير من الشَّعب السُّوري إلى لاجئين في مُخيَّمات الإيواء في تركيا، والأردن، ولبنان، والعراق، جراء ما حاق بهم من إعمال آلةِ الحرب والقَتل والدَّمار واضطرار الآلاف للفرار في كل اتجاه طلبًا للنجاة.

وممَّا لا رَيبَ فيه أنَّ للسُّوريِّين على المسلمين حقَّ الحماية والرِّعاية والإغاثة، وأنَّ هذا الحقَّ من أوجَب الواجبات على هيئات الإغاثةِ وهَيئات الدَّعوة، بل كلُّ دولةٍ عربيَّةٍ وإسلاميَّة قادرةٌ على الوصول إليهم.

وفي إقليم تركستان الشَّرقية بالصِّين، تلك التي كانت في الماضي دولةً إسلاميَّة مُستقلة، تابعةً للخلافة العثمانية، يَعيشُ أهلُها الآن مضطهَدين أشدَّ أنواع الاضطهاد، ولا يُسمح لهم حتى بمجرَّد الشَّكوى مما يُلاقون؛ فلقد فرَضت الصِّين عليهم طوقًا من الصَّمت والكتمان والسِّرِّيَّة حتى لا تُسمع صرَخاتُهم في الخارج أو الدَّاخل، وهم يواجِهون الآن خططًا جهنَّميَّةً لتَغيير هُويَّتهم، ومَسخِ تاريخِهم، وقد نَسِيَهم المسلمون، ونَسِيَهم العالَمُ، أو كاد، فهل تَتحرَّكُ هيئات الدَّعوة والإغاثة، وبقَدر ما تَستطيعُ، ولو بكَلِمةٍ، أو نداءٍ -لتَمدَّ لهم يَدُ العَون والمُساعَدةِ.

كما أنَّ المناطق التي هدَّدَتها الفَيضاناتُ والمجاعات في الدُّول الأفريقيَّة والأسيوية في حاجة ماسَّةٍ لجهودِكم المخلِصة، لإنقاذِهم، وإغاثَتهم، ومَدِّهم بأسبابِ الحياة؛ من غذاء، ودواء.

وغيرُ ذلك كثيرٌ من المناطق التي يُضطرُّ المسلمون فيها لتغيير دينِهم، حتى يَحصلوا على لُقيمات تَحميهم من الموت، بينما إخوانُهم المسلمون غارقون إلى آذانهم في نعيم وفي رفاهية تَبلغُ حَدَّ السَّفَه أحيانًا.

وكلُّ هذا يُشيرُ إشارةً واضحة وفي قوَّةٍ ووضوح إلى خطَر عملِكم، ومهمَّتكم، وواجبكم، ويُؤكِّدُ أهمِّيَّةَ هذا المجلس وهيئاتِه، وضرورةَ معاوَنته للقيام بدورِه، والوقوفِ بجانبه، ومَدِّه بكلِّ ما يَحتاجُ إليه ويُسهِم في إنجاح رسالتِه للعالَم.

وفَّقكم اللَّهُ للوصول إلى نفع العباد والبلاد، وأمَدَّكُم بعونٍ من عنده؛ إنَّه سميع مُجيب، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للَّه ربِّ العالَمين، وصلَّى اللَّهُ على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه وسلم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

* * *

الطَّفرة الرَّقميَّة ومخاطر الكلِمة (*)

بســـم اللَّه الرحمـــن الرحيـــم

الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللَّه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

السـلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، وبعد:

فإنني أُقِرُّ بأنَّ حَيرةً كبرى أخذت بمجامع فِكري وأنا أقلِّبُ الرأي في إعداد هذه الكلمة، وأُحاولُ تحديدَ محاورها وقوادِمها وخوافيها، ذلكم أن العنوان الذي وضع لتكون هذه الكلمة مَدخلًا إليه وهو: «الإعلام العربي في المراحل الانتقالية» عنوانٌ متشعِّبٌ متعدِّد النواحي، ثم هو عنوانٌ واسعٌ ينطبق على مرحلتِنا الانتقاليَّة الحالية، وبخاصَّةٍ إذا اقترب الحديثُ فيها من حدود السياسة، ودَخل في تعاريجها والتواءاتها التي تَدِقُّ على الأكاديميين، وتستغلق على مَن يعتمدون الحجة ويعتزون بالمنطق والبرهان فيما يقولون أو يكتبون.. وقبل ذلك وهم يفكرون، وإذا كان واقعنا يضج بالكثير من الأوجاع والعِلل والآفات فهل يستقيم لقائلٍ -مهما أوتي من حكمةٍ وإبداعٍ- أن يقول ما يسعد الأسماع ويبهج القلوب!! وهل يجيء كلامه إلَّا ضربًا من شكوى الغريب في قومه وبين أهله!! أو نوعًا من التغريد خارج السِّرْب كما يقولون.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في منتدى الإعلام العربي ٢٠١٣م، بدولة الإمارات العربية، في: ٤ من رجب سنة ١٤٣٤هـ، الموافق: ١٤من مايو سنة ٢٠١٣م.

وعلى الرغم من كل ذلك توكَّلتُ على اللَّه وأجبتُ الدعوةَ شاكرًا ومُقدِّرًا، وها أنذا أقف الآن بين أيديكم، وأمري وأمركم إلى المولى سبحانه. .

أيها الإخوة والأخوات!

تعلمون حضراتكم أن البيان في أيَّة لغة من اللُّغات هو نعمةٌ عظمى من نعم اللَّه على الإنسان، كيف لا وقد امتنَّ اللَّه عليه بهذه المنَّة في سورة الرحمن حيث قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤].

وتعلمون أيضًا أنَّ الكلمة هي أداة هذا البيان، وأنَّها هي الأخرى معجزةٌ إلهيَّةٌ في حدِّ ذاتها، إذ تُصوِّر لذهن الإنسان -في أقلِّ من لمح البصر- عوالم وأشياء ورؤًى وأخيلة وأوهامًا ومعاني وأحاسيس لا نهائية. . لو راح الإنسان يستثبتها حسًّا قبل أن يستثبتها تصوُّرًا لاحتاج إلى ملايين الأعمار التي تضاف إلى عمره، وربما لا تكفي هذه الأعمار لإنجاز هذه المهمة، ومن هنا اتَّسعت هذه الأداة العجيبة المعجزة لتكون وِعَاءً للوحي الإلهي، وخطابًا تلقَّاه الأنبياء والرسل بدءًا من آدم وانتهاءً بمحمدٍ - صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين-، وكانت الوسيلة التي مكَّنتهم من التواصل مع عالم الغيب من جانب، وعالم الإنسان من جانبٍ آخر، وكانت الكلمة- في كل ذلك- هي مفتاح السِّر وحجر الزاوية في معرفة الإنسان بكل قضاياه الكبرى: الإلهيةِ والكونيةِ والإنسانية.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] والمتأمِّل في موقع الكلمة من الخِطاب القرآني يدرك أنها نوعان أو صنفان: كلمةٌ طيِّبة، وكلمة خبيثةٌ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

نعم يا فرسان الكلمة وحملةَ الأقلام! إنَّ الكلمة سلاحٌ ذو حدَّين، وإنَّها لأخطر الأسلحة في بناء المجتمعات وتقويضها على السَّواء.

ورحم اللَّه أبا الطَّيب المتنبِّي إذ يقول:

جراحات السِّنان لها التئامٌ   ولا يلتام ما جرح اللسان

وللكلمةِ في فلسفة الإسلام شأنٌ لا يقلُّ خطرًا عن الفعل نفسه، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(١).

وأنا لا أرمي في كلماتي هذه إلى تخويفكم -أيُّها السَّادة والسَّيدات!- ولا صدِّكم عن مهنتِكم الشَّريفة، ولكن أردتُّ فقط أن أُشير إلى خطر الكلمة وأثرها الكبير في واقع الناس، وعلى علاقاتهم العامة والخاصة، سواءٌ كانت الكلمة مسموعةً أو مقروءةً، وأيًّا كانت وسائل إدراكها وتحصيل معناها.

واليوم -أيُّها الإخوة الفضلاء- وبعد تَفجُّر الثورة المعرفية والرقمية وثورة الاتِّصالات، تدخل الكلمة مستوى من الخطر أشدَّ وأعمق في صناعة الأفكار والآراء والرؤى، وتوجيه الأفعال وتوظيفها على مستوى الأفراد والمجتمعات، وبدا للنَّاس أن بطَل الحلَبة هو الحرف المكتوب والملفوظ،

(١) أخرجه بهذا اللَّفظ البخاريُّ (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأنَّه يُمكن أن يفجِّر -في أحدث تجلِّيَّاته الإلكترونية- ثورةً اجتماعيَّةً واقتصاديَّةً وسياسيَّةً، بل إنَّ العولَمة التي تفرض نفسَها على البشريَّة كلها ليست في حقيقتِها إلَّا مظهرًا أو أثرًا من آثار ثورة المعرفة والاتصال، والآن.. تنشغلُ العقول الكبيرة في العالم بهذه الثقافة الجديدة: ثقافةِ الأرقام والحروف والكشفِ عن أسرارِها وتوظيفاتها، لا على النحو القديم الغامض الذي اتخذت فيه طلاسم وتمائم، ولا على النحو التأمليِّ الفلسفيِّ الذي أنطق فيلسوف الإغريق «فيثاغورس» وهتف من أعماقه بأن العالم عدد ونغم، بل على نحوٍ جديدٍ حوَّل حياتنا المعاصرة إلى أرقامٍ جامدةٍ تبتعد عن دفء الإنسانيَّة وجمالها بقدر ما تقتربُ مِن جفاف الرموز وهندسة الأشكال.

ولعلَّكم أنتم- رجال الإعلام- أعرَف بهذه الدوائر الإلكترونية الجديدة، وأعلم بها من غيركم من المثقفين والمتخصِّصين في المجالات المعرفيَّة الأخرى، فقد عرفتم الصحافة الرقمية واستخدمتُم أساليب الاتِّصال الحديثة سواءٌ في الحصول على الخبر أم في نشرِهِ أو ترويجه.

وأنا -أيها الإخوة والأخوات- لست إعلاميًّا ولا دارسًا للإعلام، وإن كنت أتعامل مع الإعلام والإعلاميين في بعض الأحوال، وفي ظروفٍ محدودةٍ جدًّا، ومن هنا فليس في جَعْبَتي الكثيرُ من الحلول التي يُمكن أن تُقدَّم إليكُم أو تحل المشكلة في رسالتِكم الشَّديدة الخطر على المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، وفي هذه المرحلة التي انتشرت فيها شبكات الإعلام وقنوات البثِّ المباشر ومواقع الأنباء والأخبار ونوافذ المعرفة والمعلومات، وأَصبح الأطفال والشَّباب والكهول يتلقَّون ما تبثُّه هذه القنوات على مَدار السَّاعة، وأَصبحنا جميعًا ودون استثناء أسرى هذه المنصَّات الإعلاميَّة، مِنَّا مَن يكتفي بما كان مِنها محليًّا على اضطرابه وتناقضه أحيانًا، ومِنَّا مَن يستهويه السَّفرُ بعقلِه وشعورِه إلى ما وراء البحار

والقِفار، ويُصبح ويُمسي بجسدِه في عالمٍ، وبعقلِه ومشاعرِه في عالمٍ آخر.

ومن جانبي أُبادر -أيُّها الأساتذة الأفاضل- بالإقرار بالاعتراف بفضلِ هذه الثَّورة الإعلاميَّة، وبصماتِها البَيضاء على جوانبَ كثيرةٍ من حياةِ الإنسان المعاصِر في الشَّرق والغَرب، ولا يتَّسِع الوقت لو رُحت أعدِّدُ مجالاتِ التَّحول الحضاري والثَّقافي والماديِّ التي تعيشُها الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة في ظل هذه الثورة الإعلامية، وذلك على تفاوتٍ واختلافٍ بين أقطارِ هذه الشعوبِ وأوطانها.

ولكنِّي لا أستطيع أن أُخادِع نفسي وألتفَّ على الحقيقة وأزعم أن هذه الثورة الإعلامية كانت كلها خَيْرًا وبركةً على مجالاتِنا الحيويَّة في التاريخ العربيِّ والإسلامي المعاصر، وأولها: مجال القِيَم الحضارية ذاتِها، تلكم التي تأسَّسَت عليها هويَّتنا العربيَّة الإسلاميَّة، ثُم مجال لُغتِنا العربيَّة التي كادت تتآكَلُ أمامَ سَيلِ المواد الفنيَّة والإعلامية، وتمكين اللُّغات الأجنبيَّة، وطوفان المفردات والأنماط السلوكيَّة والاستهلاكيَّة والثقافات الوافدة، ووقوف وسائل الإعلام بقوَّةٍ وراء هذا الطوفان الغريب.

كما أرى أنَّ هذا الوافِد في حَدِّ ذاتِه، ومجرَّدًا عن أيَّةِ مُلابسات أخرى، قد لا يكون كله شرًّا أو قَبيحًا، لكنه شَرٌّ وقبيحٌ حين يستبدُّ هذا الوافد بالساحة وينفرد باللعب على مسرحها، وحين تهتز لُغة الوطن الأم وتتدهور ويزدريها كثيرٌ مِن أهلِها ويتوارون منها خجلًا وحياءً، وأذكر في هذا المقام -أيُّهَا السَّادَة- بكلِّ أسًى أنَّ كثيرًا من المؤسَّسَاتِ العربيَّةِ التعليميَّةِ وغير التعليميَّة، تعقِدُ اجتماعاتها الدورية باللُّغة الإنجليزيَّة أو الفرنسيَّة، ومَنْ لا يعرف هذه اللُّغات من أعضاءِ الاجتماع يُترجَم له إلى العربيَّة، عِلمًا بأن جميع الحضور في الاجتماع عربٌ خُلَّص، ولا يوجد بينهم أجنبيٌّ واحدٌ، فهل هناك هوانٌ واغترابٌ للعربيَّة على أرضِها وتُرابِها وبين أبنائِها أشد وأقسى من هذا

الاغتراب؟ ومع كل ذلك فلستُ أرتابُ في أنَّ الثورةَ الإعلاميَّة التي نعيشها الآن قادرة بفضل جهودكُم على أن تُعيدَ الحياة إلى لُغتِنا العربيَّة، وأن ترجعها إلى شبابها الجميل الرقراق، فلم يَعُد معقولًا ولا مقبولًا أن تكون لُغة الصحافة والكتابة والتأليف والأدب في القرن الماضي أغنى وأثرى وأرقى من لغة اليوم في أروقة الجامعات وقاعات المحاضرات العلمية والأدبية المتخصصة.

ولعلِّي لا أعدو الحقيقة لو قُلْتُ: إن أية لغة أخرى -بما فيها الإنجليزية وأخواتها- لو واجهت عُشر ما واجهته اللُّغة العربيَّة من حملاتِ التشويه والهدم والازدراء والعَبَث، لتلاشَت واندثرت وأصبحت أثرًا من آثار المتاحف أو درسًا مِن دروس اللُّغات المنقرضة، أما اللُّغة العربية فقد قاومت وسَتظلُّ تقاوم عوامل الفناء التي تتربص بها بفضلٍ من القرآن الكريم الذي وعد اللَّه بحفظِه وحفظ لُغته من الزوال.

واسمحوا لي -أيُّها السَّادَة والسَّيِّدات!- أن أتقدَّم بنصيحتي إلى إخوتي الصحفيين والإعلاميين العرب بمراعاة حُرمَة اللُّغة العربيَّة في عُقْرِ دارِها، وهُم ليسوا بأقل من زملائهم من أبناء اللُّغات الأخرى في دفاعهم وحَميَّتهم للُغاتِهم، ونحن لا نُنكِر أنه كان للإعلام العربي مقروءًا ومسموعًا، الفضلُ الأكبر في تطوُّر اللُّغة العربيَّة، واكتسابِها قَدْرًا غير قليلٍ من المرونة والحيويَّة والمعاصرة.

ولكنَّ نظرةً واحدةً -مثلًا- إلى الإصدارات الأولى لجريدةٍ كالأهرامِ، أو مجلةٍ كالهلالِ أو غيرهما، وما كانت عليه العِبارة الصحفيَّة في أواخر القرن التاسع عشر، والقرن العشرين إلى السبعينيات منه، ثم إلى أساليب التعبير الصحفي اليومَ في مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، أقول: إنَّ نظرةً واحدةً تكفي لبيان الفرق الشاسع في الحيويَّةِ والمرونةِ والكفاءة التعبيريَّة، والشيء نفسه يُقال بالنسبة للإذاعة المسموعة -وخاصة في مصر- التي بدَأتْ في الثلاثينيّات، والمرئية التي بدأت في الستينيات من القرن الماضي، وما

أضافتاه إلى الأدب العربي من مسرحيَّاتٍ مرئيَّةٍ مثل «المسَلْسَلات»، ومن دورسٍ دينيَّةٍ صباحية، وكل أولئك ألوانٌ مِن الإبداع العلمي والفني بالغ التأثير في تطور اللُّغة وفي الوجدان الشعبي، وفي التطوُّرات السياسية.

فعَلَى الصحافة العربيَّة، وعَلَى الإذاعة المسموعة/ المرئية أنْ تُحافظ على تراث الأسلاف، وتحفظ حُرمَة لغة الضاد، وتتجنَّب العامِّيَّات الفقيرة الإمكانات والانتشار.

وأمرٌ آخر كان للإعلام العربي المعاصر أثرٌ بالغ السُّوء في سرعة انتشارِه بين الشباب وتأثرهم به في نمط التفكير وأسلوب الحوار، إنه الفوضى الفكريَّة، وطريقة الحوار الموجَّه منذ أوَّل حرفٍ فيه، للوصول في النهاية إلى نتيجةٍ مُعدَّةٍ سَلفًا.. والذين دَرسوا قواعد الحوار أو ضوابط الجدل أو ما يسمَّى في تراثنا بأدب البحث والمناظرة، يعانون- كثيرًا- من أجواءِ التِّيْه التي تغرق فيها هذه البرامج، وتتشوَّه فيها الحقائق، وتختلط الأوراق، ويضيع الطريق منذ بداية الحِوار من تحت أقدام المتحاورِين..

وسبب ذلك فيما أرى أن القناة الإعلاميَّة التي تنحو هذا المنحى ليست لديها قضيَّةٌ حقيقيَّةٌ علميَّةٌ أو سياسيَّةٌ أو دينيَّةٌ أو غيرها تريد أن تصل منها إلى نتيجةٍ ما عَبرَ حوارٍ مُنضبط، ولكن لَدَيها هدفٌ آخر يتنافى مع قواعِد الحِوار التي يعرفها الناسُ شرقًا وغربًا، هذا الهدف هو «صِدام المتحاورَيْن» وإثارتهما واستعداء كل منهما على الآخر، وبصورةٍ منكرة تخرج على كل الأعراف والتقاليد، وبحيث تنطبع صورة الحوار العربي في عيون المشاهدين في الشَّرق والغرب في هذا الشكل المتخلف الرديء، ويبدو أن هذه الصورةَ القبيحةَ هي الرسالةُ الأهمُّ التي تُعنى بعضُ القنوات أو المحطات الفضائيةُ بإرسالها للعالمِ كلِّه.

ورحِم اللَّه إعلامًا كان النَّاس يتعلَّمون مِنه آداب التعامل وقواعد

التجمُّل، ويتعلَّمون آدابَ الحديث من محطَّاتِه الإذاعيَّة، ورُغم الظروف الصعبة والقيود التي كانت تفرض على مصادر المعرفة آنذاك، فقد كانت النَّوافذُ الإعلاميةُ تقوم بدور الأستاذ والمعلم والمرَبِّي، وكانت الجماهيرُ بمختلفِ مراحلها العمريَّة تجلس منها مجلس التِّلميذ من الأستاذ، واليوم تتعلَّم الجماهير مِن بعض الفضائيات ثقافة رفع الصوت والتَّحَدُّث الجماعي الذي لا يسمع فيه المحاور محاوره، والعبارات الرديئة التي تُلقى بغير حساب، ولا اكتراث، وما هو أسوأ من ذلك وأردأ، وكل ذلك ينغرس في وجدان الصِّغار والكِبار، ويترسَّخ في أخيلتهم شيئًا فشيئًا حتى يصبح سلوكًا تلقائيًّا لا يرون فيه أنهم جاءوا شيئًا نُكرًا.

إنَّ هذا السُّلوك الهدَّام سببه غياب المِهنيَّة أو الحِرفيَّة وغياب ثقافة الإتقان، والقُدرة على المتابعة الدائمة لأحوال عالمنا العربي، وأحوال العالَم كله مِن حولنا، والتَّمييز بين ما يناسب وما لا يناسب، وإنتاج فكرٍ إعلاميٍّ موضوعي يتعامل مع الواقع الذي قد يكون مترديًا هنا أو هناك، لكنه في كل الأحوال إعلامٌ قادرٌ -لو شاء- أن يرتقيَ بهذا الواقعِ، ويسهم في انتشالِه من حالة التردي.

إنَّ الحِرفيَّة الإعلاميَّة -أيُّها الإخوة- هي التي رفعت أعلام الصَّحفيين، وصنعت الصحف والمجلَّات العالميَّة الشهيرة، إنها ثقافة الإتقان والتَّمكُّن التي تصنع الإعلام الموجِّه لا الموجَّه، والحال أن قيمة الإتقان هي قيمةٌ أصيلةٌ متجذرة في ثقافتنا العربيَّة والإسلاميَّة، يقولُ النبيُّ ﷺ: «**إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»(١) ويجب أن نعترفَ بأنَّ هذا كلَّه هو ما ينقص

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٨٩٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

إعلامنا نحن العرب في هذه المرحلة، وذلك برغم كل ما حقَّقناه من إنجازٍ ونهضةٍ وبناءٍ.

والأمر الأخيرُ الذي يقلقنا جميعًا في إعلامنا المعاصِر هو برامج فوضى الفتاوى الشاذَّة والجدال في الدِّين بغيرِ علمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منير، وهذه آفة كبرى لَبِسَت ثوب الدِّين ونزلت إلى الناس وحسِبوها علمًا لا علم غيره، وصادفت منهم قلبًا خاليًا وذهنًا فارغًا فتمكَّنت منهم، وبسببِ هذه البرامج انتقلت الخلافات التي كانت تعدُّ من سفساف الأمور وتوافهها، انتقلت إلى حياة الناس بتأثير الإعلام وانقلبت إلى دينٍ وشريعةٍ وإسلام، وأقامت حدودًا وحواجزَ بين مَن يطبِّقها فيكون مسلمًا ومن يُعرِض عنها فيكون خارجًا أو على الأقل فاسقًا وعاصيًا ومبتدعًا.. هذه التوافهُ من القضايا الفارغة تُخصَّص لها برامج إعلامية قد لا تكون الأكثر مشاهدةً، لكنها بكل تأكيد الأكثر تأثيرًا، لأنها ترتدي عباءة الدِّين وتتحدَّث باسمِه.. ناهيك عن عشرات القنوات التي تخصَّصَت في زرع الفِتْنَة بين المسلمين أنفسهم، وبذر بذور الشِّقَاق والصِّراع بين أبناء الدِّين الواحد، والقِبْلَة الواحدة، واستخدمت فيها أساطير قديمة عفى عليها الزمن وأصبحت في ذمة التاريخ، ووظِّفت للمساس بأصول الأُمَّة والإساءة إلى رموزها من أزواج النبي ﷺ وأصحابه الأطهار والأبرار.. وكلها تعمل من أجل حسابات لا تصب أبدًا في مصلحةِ الأُمَّةِ العربيَّةِ والإسلاميَّة.

إنَّ هذا التَّشويه الذي ينال من الإسلام وشريعته في الدَّاخلِ بتأثيرٍ من الجهلِ وعدم المعرفة والفَهْم الصَّحيح للدِّين وعلومِه هو قرينُ التَّشويه الذي ينال من هذا الدِّين الحنيف في الخارج بتأثيرٍ من الموقف العدائي الموروث في الثقافة الغربيَّة تجاه حضارة الإسلام والمسلمين.

وأرى واجِبًا على إخواني الإعلاميِّين من العرب والمسلمين وشُرفاء الإعلام والمثقَّفين في العالم كله، أن يعملوا على بيان الصورة الصحيحة

«للإسلام» واحترام صورة «الشخصيَّة العربيَّة» اللَّتين تتعرضان لتشويه نمطي كأنه مُبرمَج، على ألسنة إعلاميِّين وساسة، بل على ألسنة بعض رجال الدِّين في الغرب، وذلك رغم التوافق الدولي على عدم الإساءة إلى المقدَّسات والرموز الدِّينيَّة ودور العبادة؛ وينسى المسؤولون والإعلاميون هناك أن أحدًا من كلا الجانبين لن يفيد مِن هذه الحملات؛ بما تخلفه من حقدٍ وكراهية، وتثيره مِن إحن تاريخيَّة، تجاوزتها الإنسانيَّة، كما تنمُّ عن جهلٍ بدين الإسلامِ الحنيفِ وحضارةِ المسلمين وتاريخهم، وما تشنه بعض القوى الغربية فيما يسمى بحربِ الإرهابِ، وما يُرتكب فيها من عارٍ يَشين أية حضارة أو أمة؛ في جوانتانامو وأبو غريب وأمثالها في مناطق عِدة في العالم، إن هو إلا صبٌّ للزيتِ على النَّار.

إنَّني -في نهاية كلمتي أيها الإخوة!- أدعو إلى ممارسةِ حريَّةِ الكلمة وحرية التعبيرِ في كل رأيٍ وفكرٍ وإبداع، لكني أدعو في الوقت نفسه إلى ضرورة التَّقيُّد بمراعاة تقاليد ثقافتِنا وثوابت مجتمعاتنا في أمانة الكلمة وعِفَّة اللِّسان وحُسن النوايا، وعدم المساس بالآخرين، وليكن دستورنا قولَه ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»(١).

والعِرض بمفهومه الأعمِّ ينطبق على معنى السُّمعة واحترام الذات والحفاظ على الكرامة الشَّخصية، فالخصوصيَّة الفرديَّة أو الأُسريَّة أمرٌ مُقدَّسٌ وواجبُ الاحترام دينًا وعرفًا وهو ما تتبناه الآن المنظَّمات الدولية لحقوق الإنسان.

شكرًا لحُسن استماعكم . . وأعتذرُ إن كنت قد أطلتُ على حضراتكم.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إغاثة الملهوف
من أمارات الأخوَّة في الإسلام(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمد للَّه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبِه.

وبعد:

السَّلام عليكُم ورَحمةُ اللَّه وبرَكاتُه

فأُرحِّبُ بحَضَراتِكُم في هذا الجَمْعِ المُبارَكِ، وبخاصَّةٍ ضيوفَنا الأعزَّاءَ الكِرامَ في مِصرَ، وفي رِحابِ الأزهرِ الشريفِ الذي يَرعَى المجلسَ الإسلاميَّ العالميَّ للدعوةِ والإغاثةِ، ولا يَدَّخِرُ وُسعًا في أنْ يُقدِّمَ كُلَّ ما يستطيعُ من دعمٍ معنويٍّ وماديٍّ لهذا المجلسِ؛ وذلك لأهميَّةِ الهدفِ المُقدَّس الذي تَدورُ حولَه أعمالُ المجلسِ وأنشطتُه.

وبَدَهيٌّ أنَّ هذا الهدفَ هو تقديمُ النُّصرةِ والعَوْنِ لمَن يَستَغيثُ بنا من المُضطرِّين أو المُحتاجِين. ورائدُنا في هذا العملِ الإنسانيِّ الجليلِ هو سيِّدُنا ومَولانا محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّه ﷺ، رائدُ العملِ الإغاثيِّ في تاريخ البشريَّةِ والإنسانيَّةِ جمعاءَ، كيف لا وقد ذَكرَت له زوجُه السيدةُ خديجةُ رضي الله عنها أوصافًا محدَّدة حينما قال لها: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ رضي الله عنها: «كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ

(*) ألقيت هذه الكلمة في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر: «المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة»، المنعقد بفندق «فيرمونت» بالقاهرة، خلال الفترة من: ١٨، ١٩ من صفر، سنة: ١٤٣٦هـ، الموافق: ١٠، ١١ من ديسمبر، سنة: ٢٠١٤م.

الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[(١)]، وهذه الأوصاف التي عدَّدَتها السيدةُ خديجةُ ﵂ كلُّها تدورُ حولَ الإغاثةِ بمَفهومِها الأخصِّ وبمَفهُومِها الأعمِّ أيضًا. ولا عجَبَ فإنَّ «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ»[(٢)] كما قِيلَ قديمًا.

ولعلَّنا نُلاحظ في سِياقِ هذا الحديثِ الشريفِ الذي رواه البخاريُّ ﵁ أنَّ أعمالَ الإغاثةِ التي وُصِفَ بها رسولُ اللَّه ﷺ وألزَمَ بها نفسَه، كانت سَجِيَّةً وطبعًا في أخلاقِه الشريفةِ قبلَ أن تكونَ أمرًا إلهيًّا؛ لأنَّ الإسلامَ لم يكن قد ظهَرَ بعدُ أو تنزَّلت أوامرُه بهذا الشأنِ حيث وصَفَته زوجُه بهذه الأوصافِ.

ثم ما لبثَتْ أنْ أصبحتْ هذه الأوصافُ مبادئَ خُلُقيَّةً رفيعةً، وسُلوكًا إسلاميًّا أصيلًا تقتَضِيه الأخوَّةُ الصادقةُ عندَ المسلِمين بينَهم وبينَ أنفُسِهم، وبينَهم وبينَ غيرِهم، وسُرعانَ ما قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ» «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[(٣)]، وقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ

---

(١) جزء من حديث بدء الوحي الطَّويل، وقد أخرجه البخاريُّ (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.

(٢) رُوي هذا الحديث من عدَّة طُرُق عن رسول اللَّه ﷺ، منها:
حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي اللَّه عنه، وقد أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» -كما في «بغية الباحث» (٣٠٢)-.
وحديث أبي أمامة ﵁، أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٨٠١٤).
وحديث أمِّ سلمة ﵂، أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٦٠٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»[١].

وكذلك الحديث الذي يَجمَعُ بين الإغاثةِ من ناحيةٍ وهدايةِ الإنسانِ من ناحيةٍ أُخرى في قولِه ﷺ لأُمَّتِه: «وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ، وَتَهْدُوا الضَّالَّ»[٢]؛ ممَّا يتبيَّن معه أنَّ إغاثةَ الملهوفِ تَتَجاوَزُ أحيانًا الإعاناتِ الماديَّةَ أو تَمكِينَ المُحتاجِين من بعضِ حُقوقِهم - إلى مَعنًى أكبرَ وأشملَ، تَتَحقَّقُ به حمايةُ الدِّينِ من العَبَثِ بأحكامِه وقَواعدِه، وهذا ما يُلقِي على عَواتِقِنا الآنَ واجبَ تَصحيحِ المَفاهِيمِ التي حُرِّفَت عن مَواضِعِها في شريعةِ الإسلامِ وأحكامِه، وكانت من أقوى الأسبابِ التي جَرَّتْ على المسلمينَ وعلى العرَبِ بوجهٍ خاصٍّ وَيْلاتِ الحروبِ وكوارثَ القتلِ والدماءِ والخرابِ، وذلك مثلُ تحريفِ مفهومِ الخلافةِ والجهادِ ومفهومِ الكفرِ والإيمانِ والجرأةِ على التكفيرِ والحاكميَّةِ الجاهليَّةِ، والولاءِ والبراءِ وغيرِها. وليسَ صُدفةً أن يَجمَعَ عُنوانُ هذا المجلسِ بين «الإغاثة» وبين «الدعوة»، ولعلَّ هذا كان مقصودًا في أصلِ التسميةِ.

إذن أيُّها -الإخوة الكرام- علينا أن نَستَعِدَّ لهذا العِبءِ الثقيلِ، وهذا الواجبِ الشرعيِّ الذي أراه مُضيَّقًا وليس مُوسَّعًا، وأن نَبذُلَ قُصارَى جُهدِنا في تقديمِ المَعوناتِ الماديَّةِ للمُضطهَدِين والمَظلُومين، والمُهجَّرين والنازِحين، والأرامل واليتامى، جَنْبًا إلى جَنْبٍ مع العملِ العِلميِّ الدعويِّ المُنظَّمِ والمُمَنهَجِ؛ للتصدِّي لصُوَرِ التزييفِ والغِشِّ التي يُصوَّر بها دِينُنا الحنيفُ لتَنفيرِ الناسِ منه.

وكما حدَث في لقاءِ الأمسِ فإنَّ الوضعَ المَأساويَّ الذي تَعيشُه الأمَّةُ الآن يُحتِّمُ علينا تشكيلَ مجموعةٍ من أعضاءِ هذا المجلسِ المُوقَّر للتحرُّكِ في اتِّجاهِ

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٣) من حديث أبي قتادة الأنصاريِّ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١٧) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

مُصالحةٍ حقيقيَّةٍ بين أطرافِ النِّزاعِ في عالَمِنا العرَبيِّ والإسلاميِّ. أو على الأقلِّ إطفاء الحرائقِ المُشتعِلة بين أبناءِ الدِّين الواحِد والأُمَّةِ الواحدةِ، حتَّى لو اقتَضَى الأمرُ السفرَ والاجتماعَ بالأُمَراءِ والمُلوكِ والمُفتِين والمَراجِعِ، بل وبالمُتطرِّفين أنفُسِهم، إن كان في هِدايتِهم أملٌ ورَجاءٌ. وقد لَقِيتُ تشجيعًا من الأمانةِ العامَّةِ -بالأمسِ- وبخاصَّةٍ من أخي د/ عبد اللَّه المصلح - رئيس لجنة التعليم بالمجلس، الذي كان يَحْدِسُ بهذه الأمنية وبالأمل نفسِه قبلَ أن نلتَقِيَ، ونرجو أنْ يُصلِحَ اللَّهُ به وبصَحبِه بينَ الطوائفِ المُتَحارِبة والمُتَقاتِلة، وأن يُسدِّدَ خُطاهم، ويُحقِّقَ بصِدقِ نَواياهُم الأمنَ الذي افتَقَدَه المسلمون طويلاً في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ على حَدٍّ سَواء، وهذا عَمَلٌ ثقيلٌ وصعبٌ ودقيقٌ، وواجبٌ وضرورةٌ أيضًا، لكن ليس منه بُدٌّ ولا عنه مَحِيصٌ.

أيُّها الإخوةُ..

لستُم في حاجةٍ إلى أنْ أُعدِّدَ عليكُم البلادَ الإسلاميَّةَ المَنكوبةَ، والتي هي في أَمَسِّ الحاجةِ إلى إغاثتِكم، ولا أنْ أُذكِّرَ نفسي وأُذكِّرَكم بمسؤوليَّةٍ عُظمى سوف نُسألُ عنها أمامَ اللَّه تعالى. ولستُم في حاجةٍ -أيضًا- إلى أنْ أذكُرَ لكم مصائبَ العربِ والمسلمين التي حاقت بهم بسببٍ من الإرهابِ والغُلوِّ والتطرُّفِ، ولكن أُذكِّر بأنَّه ليس أمامَنا إلا العملُ الطويلُ والشاقُّ من أجلِ إغاثةِ الضُّعَفاءِ والمُستَضعَفِين من بَراثِن الظُّلم والظَّلَمةِ والطُّغاة والمُتكبِّرين.

وفَّقَنا اللَّهُ وإيَّاكم لِمَا يُحِبُّ ويَرضى.

والسَّلام عليكُم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

الرِّياضة
وأثرها في نشر السَّلام العالمي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الجمع العظيم..

أُحيِّيكُم جميعًا في هذا المُلتَقى التَّاريخي الجامع بتحيَّة الإسلام؛ وهي:

السَّلامُ عليكم

ورِسالَتي إلى كلِّ المُحتَفلين بهذا الحدَث العالَمي هي نفسُ الرِّسالة التي حملَها الإسلام إلى الناس جميعًا منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان، مهما اختلَف بهم الزَّمان أو المكان..

وفي هذه الرِّسالة يُقرِّرُ الإسلامُ أنَّ النَّاس كلَّهم سواسيةٌ كأسنان المشط، لا يَتميَّزُ إنسانٌ على إنسانٍ إلَّا بالعمَل الصَّالح الذي يَعودُ بالنَّفع على الفرد والمُجتمَع، والنَّاسُ جميعًا أبناءُ أبٍ واحد وأمٍّ واحدة، «كلُّهم لآدَمَ، وآدَمُ من تُرابٍ»[1]، والنَّاسُ إمَّا أخٌ لك في الدِّين، أو نظيرٌ لك في الإنسانيَّة، ومن هنا؛ حرَّمَ الإسلامُ الظُّلمَ بين النَّاس، ونهاهم أن يَظلِم بعضُهم بعضًا؛ سواء وقعَ الظُّلمُ بين الأفراد أم بين الدُّوَلِ.

(*) ألقيت هذه الكلمة كمشاركة في افتتاح مونديال البرازيل ٢٠١٤م، إثر تلقيه دعوة من رئيس البرازيل ديلما روسيف، لإلقاء كلمة عن السلام وضرورة نبذ التعصب والعنف، ٤ من شعبان، سنة: ١٤٣٥هـ، الموافق: ٢ من يونيو، سنة: ٢٠١٤م.

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٥١١٦) والتِّرمذيُّ (٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﵁، بنحوه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن صحيح».

هذا، وحضارةُ الإسلام هي حضارةُ تعارُفٍ وتَواصلٍ، تَمدُّ يدَها للحضارات الأخرى، وتَتبادَلُ معها المنافع والمصالح، وقد كان الإسلامُ أوَّل مَن سعى إلى العالَميَّة بتَنوُّع ثقافاته وتَعدُّدها.

والأزهرُ الشَّريفُ الذي يُمثِّلُ المرجعيَّة الدِّينيَّة لمليار ونصف المليار من المسلمين، يُناديكم بضرورةِ نشرِ السَّلام والمَحبَّة والعَدلِ بين النَّاس جميعًا، في الشَّرق والغرب؛ وذلك بأن يَفهَم الغربُ حضارةَ الإسلام على حقيقتِها، وأن يَفهَمَ المسلمون مَدنيَّةَ الغرب على حقيقتِها أيضًا، وأنَّ الشَّرق والغرب إذا تفاهما زال ما بينَهما من سوء ظنٍّ وحَلَّ السَّلام محلَّ الخصام.

أيُّها النَّاس..

اجعَلوا من هذا الحدَث الرِّياضي العالَمي مناسبةً لنَشرِ روح السَّلام والمُساواة بين النَّاس، وبَثِّ مشاعر المحبَّة والأُخوَّة، والقضاء على نوازع الظُّلمِ والشَّرِّ، والتَّمييز بين البشر، وفرصةً لمُساعَدة الضُّعفاء، والفُقراء، والمرضى، والمحرومين، وهذه هي القِيَمُ التي تَحتاجُها مُجتمعاتُنا الآن، وتُزكِّيها الرُّوحُ الرِّياضيَّةُ، ولن يَجدها النَّاسُ إلَّا في هَدْي الرِّسالات الإلهية والأديان السَّماوية.

وكما بَدأتُ كلمتي لكم بتحيَّةِ السَّلام، أختَتِمُها بالسَّلام والرَّحمة والبَرَكة؛ فالسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاته.

❊ ❊ ❊

مصر
والجندية في الإسلام(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسول اللَّه وعلى آله وصحبِهِ ومَن اهتدى بهُداه.

- إخوتي وأبنائي قادة وضبَّاط وجنود القوَّات المسلَّحة.

السَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛

أبدأ كلمتي بتهنئتي لحَضراتِكم جميعًا بالمولدِ النبويِّ الشريفِ الذي لا نزالُ نعيشُ في نُورِه وبركَتِه وهَديِه الكريم، مُتمنِّيًا لكم وللسيِّد الرئيس/ عبد الفتَّاح السيسي وشعبِ مصرَ العظيمِ، المزيدَ من الأمنِ والأمانِ والاستقرارِ والازدهارِ.

وإنَّه لمن دَواعِي سَعادتِي وسُروري البالغِ أن أكونَ اليومَ معكم وفي صُحبتكم، أتعرَّفُ عليكم، وأستمدُّ من إخلاصِكم وصُمودِكم وبُطولاتِكم الكثيرَ ممَّا نحتاجُه نحن المدنيِّين في هذه الأيامِ ونتطلع إليه؛ من انضباطٍ في العملِ، وإخلاصٍ للوطن، وفداءٍ وتضحياتٍ بالغالي قبلَ الرَّخيصِ، من أجل أن تبقى مصرُ مرفوعةَ الهامةِ، عاليةَ الرأسِ، عظيمةَ القَدرِ والشَّأنِ بينَ الأُمَمِ والشُّعوبِ.

ومن دَواعي سُروري كذلك أن تَعلَموا أنَّ ظُهوري بينكم اليومَ -مُتَحدِّثًا

(*) كلمة ألقيت في الندوة التثقيفية للقوات المسلحة، في مسرح الجلاء بالقوات المسلحة، في: ٢٤ من ربيع الأول سنة ١٤٣٦هـ، الموافق: ١٥ من يناير سنة ٢٠١٥م.

ومستمعًا- هو أولُ ظهورٍ لي خارج مُؤسَّسة الأزهر الشريف، منذُ تولَّيتُ مسؤوليةَ المشيخةِ.. قبلَ خمس سنواتٍ تقريبًا.. لم يَحدُث طُوال هذه الفترةِ أن ذهبتُ لأتحدَّثَ في اجتماعٍ حاشدٍ في أيَّةِ مُؤسسةٍ أو وزارةٍ أو جامعةٍ، أو نادٍ خارج مؤسسةِ الأزهر على كثرة الدعوات وتكرار الرَّجاءات، ولمَّا جاءتني الدعوةُ من السيِّد القائد العام، وجدتُ نفسي أمامَ واجبٍ يمتزجُ فيه نِداءُ الدِّين ونِداءُ الوطن والأخلاق، لا يسعني معه إلَّا تلبيةُ هذه الدعوةِ الكريمةِ الغاليةِ، والاستجابة لها دون تَردُّدٍ أو إبطاءٍ، فشُكرًا للسيدِ الفريق أول، وشكرًا لكم جميعًا على إتاحة هذه الفُرصة لأسعَدَ بالتحدُّثِ إليكم والاستماعِ منكم.

واسمَحُوا لي حضراتكم أن أُحدِّثَكم أوَّلًا عن شهادةِ النبيِّ ﷺ لجُندِ مصرَ، وللجُنديَّةِ المِصريَّةِ، وهي شَهادةٌ تُمثِّلُ وِسامًا خالدًا على صدر كلِّ مَن أسعَدَه الحظُّ بالانخِراطِ في صُفوفِ القُوَّاتِ المُسَلَّحةِ المصريِّةِ، أيًّا كان موقعُه، وكائنةً ما كانت رُتبتُه ودرجتُه، لقد امتَدحَكم النبيُّ ﷺ وأثنى عليكم من وراءِ حُجُبِ الغيب، وشَهِدَ لكم من بينِ سائر جُيوشِ الدُّنيا كُلِّها.. فقال: «**تكُونُ فِتْنَةٌ، أَسْلَمُ النَّاسِ فِيهَا الجُنْدُ الغَرْبِيُّ**» أو قال: «**خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا الجُنْدُ الغَرْبِيُّ**»، وكان ﷺ يَقصِدُ بالجند الغَرْبيِّ جندَ مصر، كما بيَّنَه شُرَّاح الحديث، وكما صرَّح به راوي الحديثِ نفسُه، وهو الصحابيُّ الجليلُ «عَمْرُو بْنُ الحَمِقِ» الذي هاجرَ إلى مصرَ بعدَ الفتحِ الإسلاميِّ واستَقرَّ بها؛ رجاءَ أن يكونَ واحدًا من جُندِها الذين وصَفَهم الحديثُ بأنهم أسلَمُ الناس وخيرُ الناس، يقولُ هذا الصحابيُّ الجليلُ: «فلذلك قدمتُ عليكم مصرَ» أي: من أجل الالتحاق بالجُندِ المصريِّين قدمت مصر وأقَمتُ بها.

نعم هذه شهادةٌ من رسولِ اللَّه ﷺ لجيش مصرَ بأنه الجيشُ الذي يأتي في المرتبةِ الأولى في الخيريَّة، وفي الثَّباتِ على الحق حين تَظهَرُ الفِتَنُ،

ويَتلَجلجُ الباطلُ، وتضطربُ الأمورُ، وتَفسُدُ السياساتُ، وقد أثبَتَ التاريخُ أنَّ الجيش المصريَّ قديمًا وحديثًا كان أهلًا لثقةِ النبيِّ ﷺ فيه، وتجسيدًا لشهادته له بالخير وبالثبات على الحق، وهذا ما سجَّلته وقائعُ التاريخ من أنَّ الجيشَ المصريَّ قديمًا هو الذي حرَّر القدسَ من الجيش الصليبيِّ، وأنَّ المغولَ الذين أبادوا الدولَ، ودمَّروا الحضاراتِ شرقًا وغربًا كانت نهايتُهم التي لم تَقُم لهم بعدَها قائمةٌ على أيدي الجيش المصري، وفي التاريخِ الحديثِ وفي حربِ العاشر من رمضان من عام **١٩٧٣**م، رَدَّ جيشُ مصرَ الكيانَ الصهيونيَّ على أعقابِه وهزَمَه هزيمةً نكراءَ، لَم يَجرُؤ بعدها أن يتحرش بجيش مصرَ ولا بالمصريِّين..

وبالأمسِ القريبِ كنتُم أيُّها الأبطالُ الأشدَّاء طوقَ نجاةٍ لمصرَ وشعبِها، حين تَآمَر عليها الطُّغاةُ والبُغاةُ والمُجرِمون، وأرادوا بها وبالعربِ شرًّا مُستطيرًا، ودبَّروا لها المُؤامَرات بليلٍ، وكادت هذه الفِتنَةُ العَمياءُ وما أعقَبَها من عُنفٍ وفوضى وإرهابٍ أَسْود - تهدمُ بناءَ الوطنِ، وتلفُّ بظَلامِها الدامس البلادَ والعبادَ، لولا يقظَتُكم، ويقظةُ قياداتِكم الحكيمةِ، ومن ورائِها يَقظةُ الإرادةِ الشعبيَّة وترصُّدها للمخططاتِ التي سَهِر على تدبيرِها كُهَّانُ الاستعمارِ الجديدِ، وأنفقوا مِليارات الدولارات من أجل إسقاطِ مصرَ وضربِها في مقتلٍ. وهنا وفي هذه الفِتنةِ الجديدةِ كان جُندُ مصرَ الغربيُّ كما وصَفَه النبيُّ ﷺ قبلَ أربعة عشر قرنًا من الزمان: «أسلَمَ الناس وخيرَ الناس».. وما أحسَنَ ما سطَّرَه الإمامُ السيوطي في شرحِه لهذا الحديثِ في نصٍّ بديعٍ يقولُ فيه: «فهذه منزلةٌ لمصرَ في صدر المِلَّةِ، أي: [صدر الإسلام] فقد استَمرَّت «مصر» مُعافاةً مِن الفِتَن، لَم يعتَرِها ما اعترى غيرَها من الأقطارِ، وما زالت معدنَ العلمِ والدِّين، ثم صارت في آخِر الأمر دارَ الخلافة، ومَحَطَّ الرِّحالِ، ولا بلد الآن في سائرِ الأقطارِ، بعد مكة

والمدينة، يَظهَرُ فيها من شعائر الدِّين ما هو ظاهرٌ في مصر»[(١)].

وإذا كان النبي ﷺ، والذي لا ينطقُ عن الهوى، قد شَهِدَ لجُندِ مصرَ في هذا الحديث الصحيح بأنَّهم خيرُ الناس وأسلَمُهم، فإنَّه شَهِدَ لشعبِ مصرَ بأنه شعبٌ يَقِظ مُنتبِهٌ لمكائدِ أعدائِه إلى أن يَرِثَ اللّه الأرضَ ومَن عليها، و«أنهم في رِباطٍ إلى يوم القيامة».. وأوصى بالمصريِّين خيرًا: مسلمين وأقباطًا، وأمَرَ أصحابَه بالإحسانِ إليهم، كما ورد في الحديث الصحيح. وهذه وصيةٌ من مُعجزاته ﷺ؛ لأنَّ فتحَ مصر كان غيبًا من الغُيوبِ حين حدَّثَ أصحابَه عن مصرَ والمصريين وأوصاهم بها وبشعبِها خيرًا وإحسانًا، ومعلومٌ أنَّ الصحابةَ فتَحُوا مصرَ في عهدِ عُمرَ رضي الله عنه، أي بعدَ وفاتِه ﷺ بأحد عشر عامًا.

إنَّ مصرنا هذه -كما تعلمون حضراتُكم وتعلمُ الدُّنيا بأسْرِها- هي بلدٌ عريقٌ، وشعبُها شعبٌ أصيلٌ، له تاريخٌ ضاربٌ في جذور الأزمان والآبادِ، عرَكَ التاريخَ، وعركَتْه الأحداث، وصمَد للغُزاة والطُّغاة، وقبَرَهم في تُرابه، وأغرقهم في مِياه نيلِه، وكم تحطَّمت على صُخوره العاتيةِ من مُؤامرات حاكَتها يدُ الغدر والخيانة والتربُّص، ومصرُ ليس بلدًا صنعته الأطماع في ثروات الآخَرين، وسرقة مُقدَّراتهم، وإنما هي بلدٌ صنعَه التاريخُ وصاغَتْه القيمُ الدِّينيَّةُ والفلسفاتُ الإنسانيَّةُ، ولشعبِها الأبيِّ حضارةٌ سبَقت حضارات العالَم كله، حضارة عمرُها سبعةُ آلاف عام أو تزيد، ولم يُسَجِّل التَّاريخ حتى هذه اللحظة حضارةً قبلَ حضارة المصريين عرَفت العلمَ والقراءةَ والكتابةَ والهندسةَ والحسابَ والكيمياءَ وفنونَ القِتَال واختراعَ الأسلحةِ وأدواتِ الحروب.

(١) «الديباج على مسلم»: ٤/ ٥١٤، نقلًا عن: الجند الغربي الجيش المصري، للدكتور عمر محمد عبد العزيز، دار جوامع الكلم ٢٠١٣م، ص٣١ (بتصرف).

إنَّنا لنَذكُرُ أبطالَ مصر الأشِدَّاء! بالإجلالِ والإكبارِ؛ شُهَداءَ قُوَّاتنا المُسَلَّحة الذين قَضَوْا في ميادينِ الشَّرفِ والكرامةِ والجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ والدِّفاعِ عن الوطنِ، وكفى الشهداءَ تكريمًا ورفعةً وتعظيمًا ما خصَّهُم به ربُّهم من عُليَا المنازلِ في الجِنان؛ وما أعدَّه لهم من نعيمٍ مقيمٍ: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وأيضًا ما ذكَرَه النبيُّ ﷺ في شأنِهم بقوله: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ**». وقوله: «**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّه أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**» والأحاديثُ في فضلِ الشهادةِ والاستشهادِ كثيرةٌ يضيقُ عن ذِكرِها المقامُ..

وأودُّ أن أُهنِّئَ الإخوةَ المسيحيِّين بعيدِ الميلاد، وهنا أُذكِّرُ بتَزامُنِ ميلادَيْ «نبيِّ الرحمةِ محمدٍ ونبيِّ المحبَّةِ عيسى-عليهما الصلاةُ والسلامُ» ولعله بِشارةُ خيرٍ للدنيا كلِّها وللمصريِّين بأنَّ عامَنا الجديدَ هذا سيكونُ عامَ رحمةٍ ومحبَّةٍ وخيرٍ وبركةٍ على مصرَ وشعبِها -إن شاء اللَّه-.

وأختمُ كلمتي بالتأكيدِ على أنَّ الأزهر يقفُ إلى جوارِكم في معركةِ حفظِ الوطنِ والبِنَاءِ، ومعركةِ التصدِّي للإرهاب، وأظنُّكم تَتَّفِقُونَ معي في أنَّ مواجهةَ التَطرُّفِ والغلوِّ والعُنفِ بِسلاحِ الكلمةِ والفكرِ والرأيِ لا تقلُّ خَطَرًا عن مُواجَهتِه في مَيادين القِتَالِ وساحاتِ المَعارِك.

شكرًا لحسن استماعكم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛؛؛

❊ ❊ ❊

الجيش المصري .. الجند الغربي(*)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إنَّني حين أتحدَّثُ عن جيشِ مصرَ فإنَّني أتحدَّثُ في الوقتِ نفسِه عن عَراقةٍ عسكريَّةٍ وبُطولاتٍ قِتاليَّةٍ مُوغِلة في تاريخِ الإنسانِ وفي تاريخِ الإسلامِ على وَجْهِ الخُصوص، وقَبْلَ أنْ أشهَدَ أنا وغيري نِداءَ الجيشِ البَطَلِ تَشرَّفَ هذا الجيشُ العظيمُ بشهادةِ نبيِّ الإسلامِ سيِّدِنا محمدٍ -عليه السلامُ- حِينَ وَصَفَ جُنودَه بأنَّهم خيرُ أجنادِ الأرضِ، وحينَ سَمَّاهُم بـ «الجُندِ الغربيِّ» وقال عنهم: «تكونُ فتنةٌ أسلَمُ الناسِ فيها الجُندُ الغربيُّ»، أو قال: «خيرُ الناسِ فيها الجُنْدُ الغربيُّ»(١).

والجندُ الغَربيُّ -كما بَيَّنَه شُرَّاحُ الحديثِ-هو «جندُ مصرَ»، اعتمادًا على راوي الحديثِ نفسِه وهو (عمرو بن الحَمِقِ) هاجَرَ إلى مصرَ وماتَ فيها، رجاءَ أنْ يَكُونَ من هذا الجُنْدِ الغربيِّ الذي مَدَحَه النبيُّ -ﷺ-.

هذا الحديثُ من وجهةِ نَظري مُعجِزةٌ من مُعجِزاتِ النُّبوَّةِ المُحمَّدِيَّةِ؛ لأنَّه يتحدَّثُ عن فتنةٍ تُلِمُّ بالعرَبِ والمسلِمين، ثم يَتحدَّثُ عن جيشٍ واحدٍ يَسلَمُ في هذه الفتنةِ هو الجُندُ الغربيُّ، وهو جيشُ مصر.

وانظُروا -أيُّها السَّادةُ!- إلى ما حدَث مُؤخَّرًا للجُيوش العربيَّةِ من فتنةٍ عبَثَتْ بها واخترقَتْها وفكَّكتها، وقسَّمَتْها إلى فُرَقاءَ مُتناحِرين، وألويَّةٍ يَفتِكُ

(*) ملخص الكلمة التي ألقاها الإمام الأكبر في إدارة الشئون المعنوية، بالقوات المسلحة المصرية بالقاهرة.

(١) أخرجه البزَّار (٢٣١١) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٨٧٤٠) والحاكم: ٤/ ٤٤٨، من حديث عمرو بن الحَمِق رضي الله عنه، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد».

بعضُها ببعضٍ، بعد أنْ كانَ كلُّ جيشٍ منها يَقِفُ تحتَ لواءٍ واحدٍ، ويَصطَفُّ خلفَ قائدٍ واحدٍ، وتجمَعُه كلمةٌ واحدةٌ.

حدَث ذلك أوَّلَ ما حدَث من قَبْلُ في جيشِ العِراقِ، ولا تزالُ الفتنةُ تَعمَلُ عمَلَها الخبيثَ فيه حتى الآن. . وحدَث ذلك في جيشِ سوريا، وجيشِ ليبيا واليمَن. . وكان مُخطَّطًا لهذه الفتنة أن تُكمِلَ الحلقةَ ليَسقُطَ أكبرُ الجيوشِ العربيَّةِ في المنطقةِ، وهو جيشُ مصرَ العظيم. . إلا أنَّه وكما تنبَّأَ له النبيُّ ﷺ، وبوحيٍ من اللَّه تعالى، سَلِمَ من هذه الفتنةِ، وخرَج منها سَلِيمًا مُعافًى، مُحبِطًا كلَّ المخطَّطات التي أُنفِقَ عليها من الجُهْدِ والسَّهَرِ والمالِ ما لا يَتَخيَّلُه متخيِّلٌ.

١- نعم، يُذكَرُ لجيشِ مصرَ أنَّه امتَنَعَ على الاختِراقِ الخارجيِّ، وظلَّ صامِدًا بوَحدتِه وإيمانِه أمامَ هذه الفتنةِ التي حاوَلت العبثَ به بشتَّى الطُّرُقِ، وقد استعصى على الاستِدراجِ إلى المَصِير البائسِ الذي استُدرِجت إليه جُيوشٌ عَرِيقةٌ من حولِنا. كما وقف ضد مَشرُوعِ التقسيمِ والتَّجزِئةِ للعالم العربي، وهو أكبَرُ مشروعٍ استعماريٍّ منذُ مشروعِ «سايكس بيكو» عام ١٩١٦م من القرن الماضي.

٢- ويُذكَر لهذا الجيشِ أنَّه حَقَنَ دماءَ الشعبِ المصريِّ، وحمَى ثورتَه ممَّا ينزلق إليه الكثيرُ من الثوراتِ؛ من إراقةٍ للدِّماءِ، وحروب أهلية، وتدميرٍ لكِيانِ الدولةِ وتخريبِها.

وممَّا يجبُ أن يُقال هنا: إنَّ هذا الصُّمودَ التاريخيَّ كان وراءَه جنودٌ أوفِياءُ كالأُسُود الكاسرةِ، قُوَّةً وشجاعةً وإقدامًا، وقادةٌ مخلصون ساهِرون على حِراسةِ هذا الوطَنِ العزيزِ، وحِفْظِ وَحدتِه وسلامةِ شَعبِه وأراضِيه، ومن وراءِ كُلِّ ذلك شعبٌ مصريٌّ تضربُ جُذورُه في تاريخِ الحضاراتِ إلى أبعَدَ

من ٧٠٠٠ عام مرفوع الرأس دائمًا لا يعرفُ إلَّا العِزَّةَ والكرامةَ، ولا يُضمِرُ إلا المحبَّةَ والأمنَ والسلامَ.

* * *

وعلينا ألا ننسى أنَّ جُنودَ مصرَ الذين حَمَوْا ثَوْراتِها هم أبناءُ وأحفادُ الجيوشِ المصريَّةِ التي ردَّت المغولَ على أعقابِهم في معركةِ «عين جالوت»، وحرَّرت القُدس الشريفَ من جيشِ الفرنجة (الصليبيِّ)، ودحرت الكيانَ الصهيونيَّ وأخرَجَته من أرضِ سيناءَ، وهزَمَته هزيمةً نكراءَ في **١٩٧٣**م.

حمى اللَّهُ جيشَنا البَطَلَ الحُرَّ الصَّامدَ، ورَحِمَ الشُّهَدَاءَ من أبنائِه الأبرارِ في مُستَقَرِّ الرَّحمةِ، وأسكَنَهُم الفردوسَ الأعلى مع الأنبياءِ والصِّدِّيقين والشُّهَداءِ والصَّالحِين.

واللَّه ولي التوفيق

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

نعمة المياه في الثقافة الإسلامية(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسول اللَّه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

الحفلُ الكريم!

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

بالأصالةِ عن نفسي، ونيابةً عن علماء الأزهر وطلابِه: جامعًا وجامِعَةً، أُرحِّبُ بحضراتكم جميعًا في مِصْرَ العزيزة، مِصْرَ النِّيل، مِصْرَ الحضارة، مِصْرَ الأزْهَر والمسَاجِدِ والكنائِسِ والأهْرَامَات.

وأشْكُرُ معالي الوزير أ.د/ محمد عبد العاطي، لدعْوَتي للمشاركةِ في هذا المؤتمر الكبير، وهي دعوةٌ كريمةٌ سُررتُ بها، وسَارَعْتُ باستجابتِها، وتمنَّيتُ لو اكتملتْ سعادتي بإلقاءِ هذه الكلمة بين أيديكم، لولا ارتباطات سابقة، ليس لي بتعديلها أو الاعتِذارِ عنها حَوْلٌ ولا طَوْلٌ.

السَّيِّداتُ والسَّادة!

إذا كانت العلومُ -نظريَّةً وعمليَّة- تستَمدُّ ترتيبها وأهميتها في لوحة الشَّرف من أهمية موضوعاتها التي تدورُ عليها مسائلُ هذه العلوم، والقضايا

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في المؤتمر الرابع لوزراء المياه بمنظمة التعاون الإسلامي، في: ٥ من صفر الخير سنة ١٤٤٠هـ، الموافق: ١٤ من أكتوبر سنة ٢٠١٨م.

التي ينتهي إليها البحثُ إثباتًا أو نفيًا - فإنَّ المؤتمرات الدوليَّة هي أيضًا تكتسبُ خطرَها من خطرِ موضوعاتِها ونقاشاتِها وقراراتِها.

ولا أعرفُ -اليَوْم- موضوعًا بلغَ من تأثيره وخطرِه على حياة الشُّعُوبِ ما بلغ موضوع «المياه» في حياتِنا المعاصرةِ، بعدما نَشِبتْ أظفارُه في كل مجالات السياسةِ والاقتصادِ والعلاقات الدوليَّة، وما خلَّفته من أزماتٍ وصِراعاتٍ تبعثُ الحروب بين الشُّعُوب، وتتربَّصُ بها هَيْمَنةً وإفقَارًا وإذلالًا.

ومن هُنا فإنَّ مؤتمركم اليَوْم هو -بلا رَيْب- مؤتمرٌ بالغُ الخطَر؛ لأنه يبحث عن وسيلةٍ جادَّة لحلِّ التحدِّيات الإقليميَّة والدوليَّة، والتي تبدو اليوم وكأنَّها «أزمةُ الأزمات»، أو عُقْدةُ العُقَد في المفاوضاتِ الدوليَّة، وفي سبيلِ نهضة الأمَّة العربيَّةِ والإسلاميَّة، واستِعادة قوَّتها واللَّحاقِ بقطارِ التنمية والتقدُّم والرَّخاء.. وذلك رُغم ما يؤكِّدهُ الخُبراء من أنَّ «أزمة المياه في الشَّرق الأوسط، والأقطار الأخرى ليست أزمة كَميَّة بقدرِ ما هي أزمةُ سوءِ توزيع»[1]، مِمَّا يعني أن هذه القضية باتت تُستخدَمُ -اليوم- كورقة ضغطٍ في صناعة أزمة الشَّرق الأوسط..

السَّيِّداتُ والسَّادَة!

ما أظنُّ أني بمستطيعٍ أنْ أُضيفَ إلى مؤتمركم في هذا الموضوعِ شيئًا يُذْكَر، فأنا بثقافتي الإسلاميَّة وتخصُّصِي الدِّراسي بعيدٌ، بل غريبٌ على موضوع «المياه» وما يتعلَّقُ به من دراساتٍ وأبحاثٍ علميَّةٍ ونظريَّةٍ، وتخصصاتٍ هندسيَّةٍ وكهربيَّةٍ وميكانيكيَّة.. ولكني -على ذلك- مُواطنٌ يتأثَّرُ بمشكلاتِ وطنِه ومجتمعِه وإقليمِه، ويحاولُ أن يفهمَها في إطارِ الواقع

(١) «الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي» لمحمد بن عبد العزيز بن عبد الله: ٢/ ٦٠، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية ١٩٩٦م.

وما يحدثُ على الأرض، وينظرُ إليها ضمن طابور المشكلات المعقَّدة التي يختنقُ بها عالمنا المعاصر، كمشكلاتِ البيئة، ومشكلات نُدرة المياه، وارتفاع الحرارة، وأزمة التصحُّر، وظاهرة تآكل الأراضي الخِصبة، وتحدِّي الانفجار السُّكَّاني، وقِلَّة الغِذاء.. إلخ هذه المشكلات التي إن تُرِك حَلُّها لـ«استراتيجياتٍ» غريبةٍ، لا تعرفُ العدْل ولا تفهمُ إلَّا لُغةَ القُوَّة وقَعْقَعة السِّلاح، فإنَّها -لا محالة- ستعودُ بإنسانِ القرنِ الواحدِ والعشرين إلى قرونٍ تُشبهُ قرون الظَّلام، وحياةٍ مثل حياةِ الكهوف والمغارات..

ومع ذلك فقد تجدُ كلمتي هذه صَدًى في هذا المؤتمر الكبير لو أفْلَحَتْ في لفتِ الأنظارِ إلى حقيقةِ أنَّنا -نحنُ الشَّرقيِّين- نمتلكُ ثقافةً دينيَّةً راقية فيما يتعلَّقُ بالماءِ وحُرمتِه وقُدسيتِه، وأنَّ هذه الثقافةَ أمدَّتنا بها كُتبنا المقدَّسة على مدى قرونٍ غابرة، تَعلَّمنا منها أنَّ الماءَ أصلُ الحياة، وحَفِظْنا من قرآننا الكريم قولَه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وأنَّ لفظَ الماء تكرَّر في أكثرَ من ستين موضعًا في القرآن الكريم، وفي كثيرٍ منها يرتبطُ الماء بمفهوم الحياة على الأرض، وفي بعضِها يرتبطُ الماء بالطَّهارةِ الشَّرعيَّة التي هي شرط صِحَّة العبادات: وضوءًا واغتسالًا، وأنَّ النبيَّ ﷺ كان يصف الماء علاجًا لحالاتِ التوتُّر العَصَبيِّ، وكان يقول: «إِذَا غضِبْت فتوضَّأ»[(١)].

ويُشير إلى جلال «الماء» وعِظَم شأنه أن القرآن عوَّل عليه كثيرًا في جدله مع الوثنيِّين، ودعوة المشركين إلى الإيمانِ باللَّه تعالى، واتخذ منه بُرهانًا يأتي في مُقدِّمة البراهين الكبرى للاستدلال على وجود اللَّه تعالى:

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) من حديث عطيَّة السَّعديِّ رضي الله عنه، بلفظ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ».

- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

- بل يرتفعُ الماءُ هَيْبَةً وجلالًا في ضوءِ ما يقوله اللَّه تعالى في شأنِ عرشِه، وأنه حين خلق العرشَ خلق الماءَ ليكون العرش عليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وفي صَحيحِ الإمامُ البُخاريِّ[١]: أنَّ وفدًا من اليمنِ أتَوْا النبيَّ ﷺ فقالوا: «جِئناكَ لنتفقَّهَ في الدِّين، ولنسألكَ عن أوَّلِ هذا الأمْرِ [أي: عن بداية الخلْق]، فقال النبيُّ ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَه، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**».

ويطولُ بنا المقام -أيُّها الحفلُ الكريم!- لو ذهَبنا نُحصي الحِكَمَ والمقاصِدَ الدِّينيَّة والإنسانيَّة التي تُثيرها كلمةُ «الماء» في أكثر من ستينَ سياقًا من سياقاتِ القُرآن الكريم.. وفي أحاديثَ كثيرةٍ من سُنَّة النبي ﷺ، ويكفي -حرصًا على وقتكم- أن نَذكُرَ منها مثالًا واحدًا يَدلُّنا على تفرُّد عُنصرِ الماء من بين سائر العناصر الطبيعية الأخرى بحضوره القوي في قلبِ قِسم العبادات، من كتب التفسير والحديث والفقه، وهو: بابُ الصلاةِ، الذي يشتمل على صلاة الاستسقاء، وهي صلاةٌ يُستمطَر بها الماءُ في أوقات القَحْط والجَدْب، ولها أحكامٌ خاصَّةٌ ومناسك معينة تتفرَّد بها عن باقي الصلوات..

وثمةَ حُكمان شرعيان يتعلَّقان بالماء أراهما من أمَسِّ الموضوعاتِ بما تدورُ عليه مناقشاتكم في هذا المؤتمر الدولي الإسلامي الكبير:

الحُكْمُ الأوَّل: أنَّ فلسفةَ الإسلامِ في هذا الموضوع تدورُ على محورٍ ثابتٍ غير قابلٍ للتأويلِ أو التشكيكِ، ذلكم هو أنَّ مِلْكيَّة الموارد الضروريَّة

(١) من حديث عمران بن حُصين رضي الله عنهما (٣١٩١).

لحياةِ النَّاس هي مِلْكيَّةٌ عامَّة، ولا يصحُّ بحالٍ من الأحوال، وتحتَ أي ظرفٍ من الظُّروفِ، أن تُترك الموارد الضَّروريَّةُ مِلْكًا لفردٍ أو أفرادٍ أو دولةٍ، تتفرَّدُ بالتصرُّفِ فيها دونَ سائر الدُّول التي تشتركُ في هذا المورد العام أو ذاك.

ويأتي «الماء» بمفهومه الشامل الذي يبدأُ من الجُرعة الصغيرة، وينتهي بالأنهار والبحار - يأتي في مُقدِّمة الموارد الضروريَّة التي تنصُّ شريعة الإسلام على وجوبِ أن تكون ملكيتُها ملكيةً جماعيةً مشتركة، ومَنْعِ أن يستبدَّ بها فردٌ أو أناسٌ، أو دولٌ دون دولٍ أخرى؛ لأن هذا المنع أو الحَجْر أو التضييق على الآخرين إنما هو سَلْبٌ لحقٍّ من حقوقِ اللَّه تعالى، وتصرفٌ من المانعِ فيما لا يَمْلِك، وفقهاءُ الإسلام وأئمته على اختلافِ عصورهم يُطْبِقُون على هذا الحُكم، ويستندون في إجماعهم هذا إلى وصيَّة النبي ﷺ التي تنصُّ على حقِّ النَّاس في أن يشتركوا في: الماء، والمرعَى، والنار، وإلى توعُّدِ اللَّه تعالى لمانع الماء بأن يَحرمه يوم القيامة من فضلِه ورحمتِه، وهو عذابٌ ما بعدهُ عذاب، يقولُ النبيُّ ﷺ: «النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاث: المَاءِ وَالْكَلَأ وَالنَّارِ»[(١)]. ويقول في حديث آخر يرويه الإمامُ البُخاريُّ[(٢)]: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**»، منهم: «**رَجُلٌ منعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ**».

ونُلاحِظ في هذا الحديثِ الشَّريفِ أنه ربطَ الحُكمَ بعلَّتِه المعقولة، ونصَّ عليه مع بيان سببه، وهو أنَّ اللَّهَ تعالى لمَّا جعل الماء هو أصل الحياةِ والأحياء -على اختلافِ أنواعها- خَصَّ نفسه -سُبحانه!- بتفرُّدِه بملكيته،

(١) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٩٤٥) من حديث أبي خِداش، عن النَّبيِّ ﷺ. وقال أبو داود: «وأبو خِداش لم يُدرك النَّبيَّ ﷺ».

(٢) في «صحيحه» (٢٣٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبإنزالِه من السَّماءِ إلى الأرضِ، وجَعْلِه حَقًّا مُشْتَرَكًا بين عبادِه؛ وأنَّ أحدًا من عبادِه لم يَصنع منه قطرةً واحدةً حتى تكون له شُبهةُ تملُّكٍ تُخوِّله حقَّ تصرُّفِ المالكِ في مِلْكِه، يَمْنحه من يَشاء ويَصرفه عمَّن يَشاء، والوعيدُ الواردُ في الحديث ليس خاصًّا برجلٍ يمنع الماء، بل يعمُّ الرجل والرجال والهيئة والجماعة والدولة والدول؛ لأن العِلَّة التي استَوجَبَت الوعيد -وهي منع الماء- مُتحقِّقةٌ في هؤلاء الظالمين المعتَدين، ومعلومٌ أنَّ الحُكمَ يدور مع العِلَّةِ وجودًا وعدمًا كما يقولُ علماءُ الأصولِ.

أمَّا الحُكمُ الثاني، الذي أُنهي به كلمتي، فهو أنَّ الإسلامَ وهو بِصَدَدِ تشريعاتٍ ترتبطُ بالمصالحِ العامَّةِ للعِبَادِ - يتحسَّبُ لها ويضبطها بأحكامٍ تحميها من تضييعها، أو العبثِ بها، أو الإسرافِ في استعمالِها، أو أيِّ تصرفٍ يُؤدِّي إلى نُضُوبها أو قِلَّةِ كفايتِها، وهو ما يُعَبَّر عنه اليومَ بكلمةِ «التَّرشيد»، والاقتِصادِ في استخدامِ المياه..

ويَلفت النَّظَر هُنا أنَّ شريعةَ الإسلام نَهَتْ عن الإسرافِ، بحُسبانِه رذيلةً من الرذائلِ، نهيًا عامًّا يشملُ الإسراف في كل شيء، إلَّا أنها ركَّزَت على مسألةِ «الترشيد في استخدام الماء» بشكلٍ خاصٍّ، ووضعت لها ضوابطَ شرعيَّةً تدخلُ جُزءًا في أحكامِ الوضوء وأحكام الغُسل، ودونكم كُتُبَ الفقهِ في مختلف مستوياتِها، طالعوها في باب الوضوء وأحكام الغُسل وغيرهما لتجدوا أنَّ الفقهاءَ بعد أن يذكروا فرائضَ الوضوءِ وفرائض الغُسل وسُنَنَهما يذكرون مندوباتِهما، والمندوبُ فعلٌ يَطلبه الشَّارع ويثيبُ عليه، وإن كان لا يُعاقِبُ على تَرْكِه، والفعلُ المطلوب هنا هو: تقليلُ استعمال الماء في الوضوءِ والغُسل، و «بلا حَدٍّ في التقليل»، كما يَنُصُّ الفقهاء، ويقولون: إنَّ المطلوب الشَّرعي في هذا الأمر هو: «أنْ يكونَ الماء المستعمل، الذي

يجعله المتوضِّئ على العضو قليلًا، وليس بلازمٍ أن يتقاطر عن العضوِ المغسولِ، بل يكفي مجرَّدُ مُلامسة الماء للعضو»[١].

ولا يُقالُ: إن هذا الحكمَ لا يردع المسرفَ في استعمالِ الماءِ في العباداتِ؛ لأنا نقول: إنه حكمٌ مختصٌّ بتقليلِ الماءِ بلا حَدٍّ، أما التجاوز بالكثرة فيردعه النَّهيُ العامُّ عن الإسرافِ في استعمالِ الماءِ في العباداتِ، حتَّى لو كان المسلمُ يتوضأُ على نَهْرٍ من الأنهار.. وقد ورد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: «**مَا هَذَا السَّرَفُ**»؟ قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ يَا رَسُول اللَّه؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ**»[٢].

الحضُور الكَريم!

لَوْ قارنَّا بين هذه التَّشريعاتِ الإسلاميَّةِ المتعلِّقةِ بالماءِ حِفْظًا وترشيدًا وبين سلوكِ المسلمينَ في عباداتِهم التي تدخلُ المياهُ شَرْطًا في صِحَّتِها، فسوفَ يَرُوعُنا فاقِدُ المياهِ المسكوبةِ في المجاري، في هذه المرحلة البالغة الحساسية والتي بلغت مبلغَ الأزمةِ: سِياسيًّا واقتِصَاديًّا، الأمرُ الذي يجبُ معه وجوبًا شَرعيًّا أن تكونَ له الأولويَّةُ القُصْوَى على موائد المختصِّين من المسؤولين والخبراءِ في معالجةِ هذه الأزمةِ.. وما أظنُّ الصورَ والرَّسَائلَ التي تبثُّها شاشات الإعلام بكافيةٍ في تثقيفِ المسلمين وتوعيتهم بهذا الموضوعِ الخطيرِ، ولا الوعظَ والإرشادَ الذي يتأثَّر به المصلُّون ثم يَنسَوْنه على أبوابِ المساجدِ وهم خارجون..

وقد يكون من المفيدِ فيما أتمنَّى في هذا الأمر تصنيع الصَّنابيرِ التي لا تَسْمَحُ إلَّا بالقليلِ، وبكميَّةٍ إِثْرَ أُخرى، والتزام وزارات الأوقاف في عالمنا

(١) راجع «الشرح الكبير» للشيخ أحمد الدَّردير بحاشية الدسوقي: ١/ ٧٧ (مندوبات الوضوء).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهما.

العربيِّ والإسلاميِّ بتزويدِ المساجدِ بها، بل التزام المسؤولين باستخدامِها في دواوين العَمَل الرَّسميَّة والمنشآتِ العامَّةِ والحكوميَّة، على غِرَارِ ما نَراهُ في مطاراتِ أوروبا ومُعظَم مُنشآتها العامَّةِ والخاصَّةِ، رغم أنَّ مواردهم المائيَّة هُناك لا تُعاني ما تُعانيه مواردُنا هُنا من مُشكلاتِ النُّدْرةِ والتَّصَحُّرِ والجدْب..

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم وعُذرًا للإطالةِ.

والسَّلامُ عَليْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.

❊ ❊ ❊

الأخوة الإنسانية..
وأزمة العالَم المعاصر(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحفل الكَـريم! السَّلَامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه. . وبعد:

فَأبْدأُ كَلِمَتي بتوجيهِ الشُّكر الجزيل لدولةِ الإمارات العَرَبيَّة المُتَّحِدَة: قِيادَةً وشَعْبًا؛ لاسْتِضَافةِ هذا الحَدَثِ التَّاريخيِّ، الذي يجمعُ قادَةَ الأديان وعُلماءَها، ورجال الكنائس، ورجال السياسةِ والفِكْر والأدبِ والإعلام. . هذه الكوكبةُ العالميَّة التي تجتمعُ اليومَ على أرضِ «أبو ظبي» الطيِّبة، لِيَشْهَدُوا مع العالمِ كُلِّه إطلاقَ «وثيقةِ الأُخوَّةِ الإنسانيَّة»، وما تتضمَّنُه من دعوةٍ لِنَشْرِ ثقافة السَّلام والعَدَالَة واحْتِرام الغير والرفاهيةِ للبشريَّةِ جمعَاء، بديلًا من ثقافةِ الكراهية والظُّلم والعُنف والدِّماء، ولِتُطالبَ قادَة العالَم وصُنَّاع السياسات، ومَن بأيديهم مصائرُ الشُّعوبِ وموازينُ القُوى العسكريَّةِ والاقتصاديَّة - تُطالبهم بالتدخُّل الفوريِّ لوقفِ نزيف الدِّماء، وإزهاق الأرواح البريئة، ووضعِ نهايةٍ فوريَّةٍ لما تَشْهَدُه من صِراعاتٍ وفِتَنٍ وحُرُوبٍ عبثيَّة أوشَكَتْ أنْ تعودَ بِنا إلى تراجعٍ حَضَارِيٍّ بائس يُنْذِرُ بانْدِلاعِ حَرْبٍ عالميَّةٍ ثالثة.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في «اللِّقاء العالَمي للأُخـوَّةِ الإِنْسَـانيَّة» بدولة الإمارات العربية المتحدة، في: ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٤٤٠هـ، الموافق: ٣ مـن فبـراير سنة ٢٠١٩م.

الحفلُ الكريم!

إنَّنِي أنتمي إلى جيلٍ يُمكِنُ أنْ يُسَمَّى بجيلِ الحروب، بِكُلِّ ما تَحمِلُه هذه الكلمة من خوفٍ ورُعبٍ ومُعاناة، فلا زِلتُ أذكُر حديثَ النَّاس -عَقِبَ الحرْب العالميَّة الثَّانية- عن أهوالِ الحربِ وما خلَّفته من دمارٍ وخراب، ومَا كِدْتُ أبلُغُ العاشرةَ من عُمري حتى دَهَمَتْنَا حربُ العُدوان الثُّلاثي في أكتوبر ١٩٥٦م، ورأيتُ بعينيَّ قَصف الطَّائرات لمطارِ مدينتي مدينة الأقصر، وكيف عِشنا لياليَ في ظلامٍ دامس لا يَغمُضُ لنا فيها جَفْنٌ حتَّى الصَّباح، وكيف كنا نُهرَع إلى المغارات لنحتميَ بها في جُنح الظَّلام، ولا تزالُ الذَّاكِرَةُ تختزنُ من هذه الذِّكرياتِ الأليمة ما يُعيدُها جَذَعًا كأن لم يَمُرَّ عليها أكثرُ من ستينَ عامًا.. ولم يمضِ على هذه الحرب سنواتٌ عَشْر حتى اندلعت حرب ١٩٦٧م، وكانت أشدَّ وأقْسَى من سابقتِها، عِشناها بكل مآسيها، وعشنا بعدها سِتَّ سنوات فيما يُسمَّى باقتصادِ الحُرُوب، ولم نتنفَّسُ الصُّعداء إلَّا مع انتصار ٧٣ في حرب التحرير التي أعادت للعربِ جميعًا كرامتَهم، وبعثت فيهم مكامِنَ العِزَّةِ والإباء، والقُدرة على دَحْرِ الظُّلمِ وأهلِه، وكَسْرِ شَوْكَةِ العُدوانِ والمُعتَدِين.. وظنَّنا وقتَها أننا ودَّعنا عهد الحروب، وبدأنا عصرَ السَّلام والأمان والإنتاج.

لَكِنَّ الأمرَ سُرعانَ ما تبدَّل بعد ذلك حينَ واجهَتنا موجةٌ جديدة من حربٍ خبيثةٍ تُسمَّى «الإرهاب» بدأت في التسعينات، ثم استفحَلَ أمرُها بعد ذلك حتَّى أصبحت اليومَ تقضُّ مضاجع العالَم شرقًا وغربًا.

وكان الأمل أن تُطِلَّ علينا الألفيَّةُ الثالثة وقد انحسرت موجاتُ العنفِ والإرهاب وقتلِ الأبرياء من الرِّجالِ والنِّسَاءِ والأطفال، ولَكِنْ خابَ الأمل مَرَّةً ثالثة حين دَهَمَتْنا حادثة تفجيرِ بُرجَيِ التِّجارة في نيويورك في الحادي عشر

من سبتمبر من مطلع القرن الحادي والعشرين، والتي دفعَ الإسلام والمسلمون ثمنها غاليًا، وأُخِذَ فيها مليار ونصف المليار مسلم بجريرة أفراد لا يزيدُ عددهم على عددِ أصابع اليَدَيْن، حيث استُغِلَّت هذه الحادثة استغلالًا سَلبيًّا في إغراء «الإعلام» الدولي بإظهارِ الإسلامِ في صورةِ الدِّينِ المتعطِّشِ لسَفْكِ الدِّمَاء، وتصوير المسلمينَ في صورةِ بَرابِرةٍ مُتوحِّشِين، يشكلون خطرًا داهمًا على الحضاراتِ والمجتمعاتِ المتحضِّرة، وقد نجحَ هذا الإعلام في بعثِ مشاعر الكَراهية والخوف في نفوسِ الغربيِّين من الإسلام والمسلمين، وسيطرت عليهم حالةٌ من الرُّعبِ ليس من الإرهابيِّين فقط، بل من كُلِّ ما هو إسلاميٌّ جُملةً وتفصيلًا . .

السَّيِّداتُ والسَّادَة!

إنَّ «وثيقةَ الأُخوَّة» التي نحتفلُ بإطلاقِها اليَوْمَ من هذه الأرضِ الطَّيِّبة وُلِدَت على مائدةٍ كريمةٍ كنتُ فيها ضيفًا على أخي وصديقي العزيز فرنسيس بمنزلِهِ العامر، حين أَلقى بها أحد الشَّباب الحاضرين على هذه المائدةِ المباركة، ولَقيَتْ ترحيبًا واستِحْسَانًا كريمًا من قداسته، ودَعمًا وتأييدًا مِنِّي، وذلك بعد حواراتٍ عِدَّة تأمَّلنا فيها أوضاعَ العالَم وأحواله، ومآسي القتلى والفُقَراءِ والبُؤساء والأرامل واليتامى والمظلومين والخائفين، والفارِّين من ديارِهم وأوطانِهم وأهليهم، وما الذي يُمكن أن تُقدِّمه الأديان الإلهيَّة كطوقِ نجاةٍ لهؤلاءِ التُّعساء، وما أدهشني هو أنَّ همومَ قداستِه وهمومي كانت مُتطابقةً أشدَّ التَّطابُق وأتمَّه وأكملَه، وأن كلًّا مِنَّا استشعرَ حُرْمَة المسؤوليَّة التي سيُحاسبُنا اللَّه عليها يوم القيامة، وكان صديقي العزيز رحيمًا يتألَّم لمآسي الناس كلِّ النَّاس، بلا تفرقةٍ ولا تمييزٍ ولا تحفُّظ.

وكان أبرز ما تسالمنا عليه هو:

أنَّ الأديانَ الإلهيَّة بريئةٌ كُلَّ البراءَة من الحرَكَات والجماعات المسَلَّحة التي تقتُل الناس باسم الدين، كائنًا ما كان دينُها أو عقيدتُها أو فكرُها، أو ضحاياها، أو الأرضُ التي تُمارِسُ عليها جرائمَها المنكرة.. فهؤلاءِ قَتَلَة وسفَّاكونَ للدِّماءِ، ومُعْتَدُونَ على اللَّه ورسالاته.. وعلى المسؤولين شرقًا وغربًا أن يقوموا بواجبهم في تعقُّبِ هؤلاء المُعتدين والتَّصَدِّي لهم بكلِّ قوَّة؛ لحماية أرواح الناس وعقائدهم ودورِ عباداتِهم، وحمايتِهِم من جرائمِهِم.

كما تسالمنا على أنَّ الأديان قد أجمعتْ على تحريم الدِّماء، وأنَّ اللَّهَ حرَّم قتلَ النَّفْس في جميع رسالاته الإلهيَّة: صرخَ بذلك موسى عليه السلام في الوصايا العشر على جبل حوريب بسيناء وقال: «لَا تَقْتُلْ! لَا تَزْنِ! لَا تَسْرِقْ!»[(١)]، ثم صدع به عيسى عليه السلام من فوق جبل من جبال الجليل، بالقربِ من كفر ناحوم بفلسطين، «في كَنزِهِ الأخلاقي النَّفيس» المُسَمَّى بـ«بموعظة الجبل»، وقد أكَّدَ السيد المسيح ما جاء به موسى، وزادَ عليه في قوله: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لَا تَقْتُلْ؛ فإنَّ مَنْ يقتل يَسْتَوْجب حُكْم القَضَاء، أمَّا أنا فأقولُ لكُم: مَنْ غضب على أخيهِ استوجَب حكم القضاء... ومن قال له: يا جاهل استوجَب نار جَهَنَّم»[(٢)]، وجاء محمد ﷺ وأعلنَ للناسِ من فوق جبلِ عرفات في آخر خطبة له تُسمَّى خطبة الوداع، أعلنَ ما أعلنه أخواه من قبل، وزاد عليه وقال: «أيُّها النَّاسُ، إنِّي -واللَّهِ- ما أدري لعلِّي لا ألقَاكُم بعدَ يَومِي هذا، بمكاني هذا، فَرَحِمَ اللَّه امرءًا سمع مقالتي اليوم فوعاها... أيُّها النَّاسُ، إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليْكُم حرامٌ، كحُرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، وستلقَونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم... أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ». وكان يقول: «مَنْ فرَّق بين

(١) سفر الخروج (الفصل ٢٠).
(٢) مَتَّى ٥: ٢١-٢٥.

والدةٍ وَوَلَدِها فرّق اللَّهُ بينَه وبين أحبَّتِه يوم القيامة. . ومَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدَةٍ، فإنَّ الملائِكَةَ تلْعَنُهُ، وإنْ كانَ أخاهُ لأبيهِ وأُمِّهِ»[١].

هذا إلى عشرات الآيات القُرآنية التي تحرِّمُ قتل النَّفس، وتُعلن أنَّ مَن قتلَ نفسًا واحدة فكأنما قتلَ النَّاس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا.

وتلاحظون حضراتكم وحدة الخطاب الإلهي ووحدة معناه، بل وحدة المنصَّات التي خطب عليها هؤلاء الأنبياء الكِرام، وهي: جبل الطُّور بسيناء في مِصر، وجبلٍ من جبال فلسطين، وجبل عرفات بمكَّة في جزيرة العرب.

وإذن فليس صحيحًا ما يُقالُ من أن الأديان هي بريدُ الحروبِ وسببها الرئيس، وأن التاريخ شاهد على ذلك، وغير ذلك من المفتريات والمبررات التي يطرحها المضلِّلون لتبرر ثورةَ الحضارة المعاصرة على الدِّين وأخلاقِه، وإبعادِه عن التدخل في شؤون المجتمعات، وقد سَرَتْ هذه الفِريَة -سَرَيان النَّار في الهشيم- في وعي الناس والشباب، وبخاصةٍ في الغرب، وكانت من وراء انتشارِ دعوات الإلحاد والفلسفاتِ الماديَّة ومذاهب الفوضى والعدميَّة والحريةِ بلا سقف، وإحلال العلم التجريبي محلَّ «الدِّين»، ورغم ذلك، وبعد مرورِ أكثرَ من ثلاثةِ قرونٍ على الثورةِ على اللَّهِ وعلى الأديانِ الإلهيَّة، جاءت المحصلةُ كارثيةً بكل المقاييس، تمثَّلت في مأساوية الإنسان المعاصر التي لا ينكرها إلَّا مكابر.

والحقُّ الذي يجبُ أن ندفعَ به هذه الفرية هو أن أوَّل أسباب أزمة العالَم المُعاصر اليوم إنما يعودُ إلى غياب الضمير الإنساني، وغياب الأخلاق الدِّينيَّة، وتَحكُّم النَّزعاتِ والشَّهواتِ الماديَّة والإلحاديَّة والفلسفاتِ العقيمةِ

(١) رواه الترمذي وحسَّنه من حديث أبي أيُّوب الأنصاريِّ ﷺ وقال: العملُ على هذا عند أهل العلم من أصحابِ النبي ﷺ. (ح١٥٦٦).

البائِسَة التي أَلَّهت الإنسان وخاطبت غرائزه وشهواته، وسَخِرَتْ من اللَّه ومن المؤمنين بِه، واستَهْزَأت بالقِيَمِ العُليَا المتسامية التي هي الضَّابطُ الأوحَد لكبحِ جماح الإنسان وترويض «الذِّئب» المستكنِّ بين جَوانِحِه.

أمَّا الحروب التي انطلقت باسم «الأديان»، وقتلت الناس تحت لافتاتها فإنَّ الأديانَ لا تُسأل عنها، وإنما تُسأل عنها السِّياسَات الطَّائشة التي دأبت على استغلال بعضِ رجال الأديان وتوريطهم في أغراضٍ لا يعرفها الدِّين ولا يحترمُها، ونحن نقرُّ بأن هناك من رجال الأديانِ مَن تأوَّل نصوصها المقدَّسة تأويلًا فاسدًا، لكنَّا نقرُّ أيضًا بأنَّ قراءةَ الدِّين قراءةً أمينةً نظيفةً لا تَسْمَحُ أبدًا لهؤلاء الضَّالين المُضلِّين بالانتساب الصَّحيح إلى أيِّ دينٍ إلهيٍّ، ولا تُبرِّرُ لهم خيانةَ أمانتهم في تبليغِه للناسِ كما أنزله اللَّه.

على أن هذا الانحراف الموظَّف في فَهْمِ النُّصُوصِ الدِّينيَّة ليسَ قاصِرًا على نُصُوص الأدْيان واستغلالها في العدوانِ على النَّاس، بل كثيرًا ما حدث في أسواق السياسة، حين قُرئت نصوصُ المواثيق الدولية المتكفِّلةِ بحفظِ السَّلام العالميِّ قراءة خاصَّة برَّرت شنَّ الحروب على دولٍ آمنة، وتدميرَها على رؤوسِ شعوبِها، ولا مانعَ بعدَ أن تقضيَ هذه السياساتُ شهواتها العدوانيَّة البشعة.. لا مانع من الاعتذار للثَّكالى واليتامَى والأرامِل بأنَّها أخطأت الحساب والتَّقدير. والأمثلةُ على ذلك واضحةٌ وضوح الشَّمس في رابعة النهار.

من أجلِ ذلك نادينا في هذه الوثيقة «بوقفِ استخدام الأديان، والمذاهب، في تأجيجِ الكراهيةِ والعُنف والتعصُّب الأعمى، والكفِّ عن استخدام اسم اللَّه لتبريرِ أعمال القَتْل والتشريد والإرهاب والبَطْش، وذكَّرنا العالَم كُلَّه بأَنَّ اللَّهَ لم يخلق الناس ليُقْتَلوا أو يُعذَّبوا أو يُضيَّق عليهِم في

حياتِهم ومعاشهِم. . واللَّهُ -عزَّ وجلَّ- في غِنًى عمَّن يدعو إليه بإزهاقِ الأرواح أو يُرهب الآخرين باسمه».

الحفلُ الكريم!

إنني على يقين أن هذه المبادرات الضَّروريَّة والتحرُّكات الطيِّبةَ نحو تحقيقِ الأُخوَّةِ الإنسانيَّة في منطقتِنا العربيَّة سوف تؤدِّي ثمارَها، وقد بدأت -بحمدِ اللَّه- بقوَّةٍ في مِصْرَ المحروسَة، حيث افتُتِحَ قبل عدةِ أيَّام أوَّل وأكبر مسجد وكنيسة متجاورين في العاصمة الإدارية الجديدة، وفي خطوةٍ تاريخيَّةٍ نحو تعزيز التسامح وترسيخ الأخوَّة بين الأديان، وبمبادرةٍ رائدة من السيِّد الرَّئيس/ عبد الفتَّاح السيسي - رئيس جمهورية مصر العربية.

وتَبْقى لي كلمة أُوجِّهُها لإخوتي المسلمين في الشَّرق، وهي أن تستمروا في احتضانِ إخوتكم من المواطنينَ المسيحيِّينَ في كلِّ مكان؛ فهم شُركاؤنا في الوطن، وإخوتنا الذين يُذكِّرنا قرآننا الكريم بأنَّهم أقربُ النَّاسِ مَودَّةً إلينا، ويعلِّلُ هذه المودة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، فالمسيحيونَ -كُلُّ المسيحيِّين- قلوبهم مملوءَةٌ خيرًا ورأفةً ورحمة، واللَّهُ تعالى هو الذي جعلَ في قلوبِهم هذه الخِصَال الحمِيدَة. . وهذا ما يسجِّلُه القرآن في قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

ويجبُ علينا -نحنُ المسلمين- ألَّا ننسى أنَّ المسيحيَّةَ احتضنت الإسلام حينَ كان دينًا وليدًا، وحَمَتْه من طُغيان الوثنيَّةِ والشِّرك، التي كانت تتربص به وتتطلَّعُ إلى اغتيالِه في مَهْدِه، وذلك حين أمرَ النبيُّ ﷺ المُستضعفينَ من أصحابِه -وهم أكثرُ تابعيه- حين اشتدَّ عليهم أذى قريش وقال لهم: «اذهبوا

إلى الحبَشَة؛ فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظلمُ أحَدٌ في جِوَارِه»(١)، وقد استقبلَهُم هذا الملك المسيحي في دولته المسيحيَّة، وأكرمهم وحماهم من قُريش، ثم أعادَهُم إلى المدينةِ المنورة بعد أنْ اشتدَّ عودُ الإسلام واستوى على سُوقِه.

وكلمة أخرى لإخوتي المسيحيِّين في الشرق: أنتم جزءٌ من هذه الأُمَّة، وأنتم مواطنون، ولستم أقليَّة، وأرجوكم أن تتخلَّصوا من ثقافةِ مُصْطَلح الأقليَّةِ الكريه، فأنتُم مواطنون كاملو الحُقُوقَ والواجبات، واعلموا أن وحدَتنا هي الصَّخْرةُ الوحيدة التي تتحطَّمُ عليها المؤامرات التي لا تُفرِّقُ بين مسيحيٍّ ومسلمٍ إذا جَدَّ الجدُّ وحان قطف الثَّمار.

وكلمتي للمواطنين المسلمين في الغرب أنِ اندمجوا في مجتمعاتِكم اندماجًا إيجابيًّا، تحافظونَ فيهِ على هُويَّتِكم الدِّينيَّة كما تحافظونَ على احترامِ قوانينِ هذه المجتمعات، واعلموا أنَّ أمنَ هذه المجتمعات مسؤوليَّةٌ شرعيَّةٌ، وأمانةٌ دينيَّةٌ في رقابكم تُسألون عنها أمام اللَّه تعالى، وإن صدرَ من القوانين ما يفرضُ عليكم مخالفةَ شريعتِكُم فالجَؤُوا إلى الطُّرق القانونيَّة؛ فإنها كفيلةٌ بردِّ الحقوقِ إليكم وحماية حُريتكم.

كما أقول لشبابِ العالَم في الغرب والشرق: إن المستقبلَ يبتسمُ لكم، وعليكم أن تتسلَّحوا بالأخلاقِ وبالعلم والمعرفة، وأن تجعلوا من هذه الوثيقة دستورَ مبادئَ لحياتكم، اجعلوا منها ضمانًا لمستقبلٍ خالٍ من الصِّراع والآلام، اجعلوا منها ميثاقًا بانيًا للخير هادمًا للشر، اجعلوا منها نهايةً للكراهية.. عَلِّمُوا أبناءكم هذه الوثيقة؛ فهي امتدادٌ لوثيقة المدينة المنوَّرة، ولموعظة الجبل، وهي حارسةٌ للمشتركاتِ الإنسانيَّة والمبادئ الأخلاقيَّة..

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/٣٠١، من حديث أمِّ سلمة ﵂.

وسوف أعمَلُ مع أخي قداسة البابا فيما تبقَّى لنا من العُمرِ، ومع كلِّ الرموز الدِّينيَّة من أجلِ حِماية المجتمعات واستقرارِها، وهُنا يجبُ أنْ أُشيدَ بملتقى تحالُف الأديان لأمن المجتمعات الذي انعقد هنا في «أبو ظبي» في نوفمبر الماضي، وحظي بدعمٍ من الأزهر الشَّريف ومن الفاتيكان، وحضره عددٌ من قادةِ الأديان للقيامِ بمسؤوليتهم من أجل حماية كرامة الطفلِ.

وختامًا: أتوجَّهُ بالشُّكْرِ الجزيل للأخِ الكريم صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد، على رعايتِه لهذه المبادرةِ التاريخيَّةِ، واحتضانِه «وثيقة الأخوَّةِ الإنسانيَّة» التي نرجو أن يكونَ لها ما بعدها من إقرارِ السَّلام بين الشعوب، وإيقاظِ مشاعِر المحبَّة والاحتِرام المتبادَل بين الشَّرقِ والغربِ والشَّمالِ والجنوب.

كما أُقدِّم الشُّكر لسموِّ الشيخ عبد اللَّه بن زايد ولكلِّ الشَّباب المتميِّز الذي سهرَ على ترتيبِ هذا اللِّقاء وتنظيمِه وإخراجِه بهذه الصُّورة المشرِّفة.

وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أُسجِّلُ شُكري لجنديين مجهولين كانا وراء إعداد «وثيقة الأخوَّة الإنسانيَّة» من بدايتِها حتى ظهورِها اليوم في هذا الحدَث العالَميِّ، وهما: ابناي العزيزان القاضي/ محمد عبد السلام - المستشار السَّابق لشيخ الأزهر، والأب/ يوأنَّس لحظي جَيِّد - السكرتيرُ الشَّخصي لقداسةِ البابا فرنسيس، فلهما ولكلِّ مَن أسْهَم في إنجاحِ هذا اللِّقاء خالصُ الشُّكرِ والتَّقديرِ والاحتِرام.

أشكركم على حُسْنِ استماعكم.

وسَلامُ اللَّهِ عَلَـيْكُم ورَحْمَـتُه وبَرَكَاتُه

رسالة الإمام الأكبر
للعالم بشأن وباء كورونا(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاتُه

تعلمون أنَّ عالمَنا اليوم يعيشُ في رعب كبير وكرب شديد، نتيجةَ الانتشارِ المُتسارِعِ لوباءِ كورونا المستجدِّ، والذي تسبَّب في إصابةِ مئات الآلاف ووفاة الآلاف من البشر، وأَرْبَكَ سَيْرَ الحياةِ الطبيعيَّة بعدَما قطع وصالها في كل أنحاء العالم.

وفي ظل هذه الظروف القاسية وجب علينا: دُوَلًا وشُعوبًا وأفرادًا ومؤسساتٍ وهيئات، أن يتحمل كلٌّ منَّا مسؤوليته في القيام بدورِه في مكافحة هذا الوباءِ وكبح جماحِه، وحمايةِ الإنسانيَّة من أخطارِه.

ووجب كذلك أن نذكر بكلِّ الفخرِ والاعتزازِ والتقدير، التضحياتِ الهائلة التي يبذلُها الأطبَّاء والمُمرِّضون وكل العاملين في المجالِ الصحيِّ، هؤلاء الذي يخاطرون بأرواحهم وأنفسهم؛ من أجل التصدي لهذا المتربص بالإنسانية كلها.

وهذه الجهودُ العظيمةُ التي يبذلها المسؤولون لمحاصرة الفيروس لَتَبعَثُ الأملَ في قدرتنا على دَحر هذا الوباءِ والتخلُّص منه، غير أنَّ نجاحَنا في هذه

(*) كلمة موجهة للعالم بأسره حول فيروس كورونا الذي عم البلاد، ألقاها فضيلة الإمام الأكبر عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، والمنصات الإلكترونية، في: ٢٩ / ٣/ ٢٠٢٠م.

المعركةِ يتوقَّف بالدرجةِ الأولى على تصميمنا على الاستمرار في تحمل المسؤوليَّةِ في عزم لا يلينُ، وبصرامةٍ لا تعرف الفتورَ ولا التراخي، وإنَّني ومن مسؤوليَّتي في الأزهر الشريف، وانطلاقًا من القاعدة الشرعية: «درءُ المفاسدِ مُقدَّمٌ على جلبِ المصالح»، والقاعدة الأخرى: «يُزال الضررُ الأكبرُ بالضرر الأصغرِ»، انطلاقًا من كل ذلك، أُؤكِّدُ أنَّ الالتزام بالتعاليمِ الصحيَّةِ والتنظيميَّة التي تُصدرها الجهات الرسمية المختصة، والتي من بينها الاعتناءُ بالنظافةِ الشخصيَّة، والتقيد بعادة التباعُدِ الاجتماعي، والالتزامُ بالبقاءِ في البيوت، وتعليقُ صلوات الجمعة والجماعات قليلةً كانت أو كثيرة، مع الالتزام بأداء الصلاة في أوقاتها في المنازلِ دون تجمع، كلُّ هذه التعاليم وغيرها -سواءٌ في مصر أو في أيَّة دولةٍ أخرى تقام فيها الصلاة- ضروراتٌ شرعيَّةٌ، وامتثالها حتمٌ واجبٌ يأثم تاركه؛ والخروج عليها خروج على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومما يحرم شرعًا في هذه الظروف، اختلاق الشائعات وترويجها وبلبلة الناس وترويعُهم وإفقادهم الثقةَ في الإجراءاتِ التي تتخذها الدولة لحمايةِ الوطن والمواطنينَ.

هذا، ورسالتي إلى إخوتِنا من المصابين بفيروس «كورونا» في مصرَ وفي كلِّ أنحاء العالم، أنَّنا معكم بقُلوبِنا ودُعائِنا، وأنَّنا نصلِّي للَّه - عز وجل - ونتوجه إليه بالدعاء، أن يَمُنَّ على الجميع بالشفاءِ العاجل، وأن يَرحَمَ كلَّ مَن فارقوا الحياةَ بسببِ هذا المرضِ، وأن يُلهِمَ أهليهم وذَوِيهم الصبرَ والسلوان.

ولا يفوتني هنا أن أُعبِّر عن تضامن الأزهر الشريف مع كل الدولِ والشعوبِ التي تُكافِحُ تفشِّي هذا الوباء وانتشاره، وأؤكِّدُ أنَّ تقديم يدِ العونِ

والمساعدةِ من القادرين إلى كلِّ المُتضرِّرين والمنكوبين في أية بقعةٍ من بقاع الأرض، لهو واجبٌ شرعي وإنساني، بل تطبيقٌ عمليٌّ للأخوَّةِ الإنسانيَّةِ، التي تضعها هذه الأزمةُ على محك اختبار حقيقي، يكشف عن مدى صدقنا والتزامِنا بمَبادِئها السامية.

ونصيحتي في كشف هذه الغمة أن نأخُذَ بالأسباب الوقائيَّة والأساليبِ الطبيةِ والعلميةِ التي أمرَنا بها الشرعُ بالتزامِها والتقيدِ بها، وأن نُكثرَ من الصدقاتِ، وأن يلجأ المؤمنونَ باللَّه إلى ربهم بالصلاةِ وبالدعاءِ بأن يُفرِّجَ اللَّه هذا الكربَ، ويكشفَ عن عبادِه هذه الغمةَ، وأن يُلهِمَ العلماء والباحثين، وأن يُعجِّلَ على أيديهم اكتشافَ العلاجِ من هذا الفيروس الخطيرِ، فهو سبحانه وتعالى وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

اللَّهم لا تُسلِّطْ علينا بذنوبِنا مَن لا يخافُكَ ولا يرحمُنا يا أرحمَ الراحمينَ، اللَّهم يا حنَّانُ يا منانُ، يا قديمَ الإحسانِ، يا رحمنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما، يا أرحمَ الراحمين، ويا ظهرَ اللاجئين، ويا جارَ المستجيرينَ، يا أمانَ الخائفينَ، يا غياث المستغيثينَ، يا كاشفَ الضر، ويا دافعَ البلوى، نسألُكَ أن تكشِفَ عنا من البلاءِ ما نعلمُ وما لا نعلمُ، وما أنتَ به أعلمُ، إنك أنت الأعزُّ الأكرمُ.

وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبِهِ وسلَّم

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

بيان

بمناسبة تنمُّر بعض الناس على المصاب بداء كورونا(*)

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد بن عبد اللَّه ﷺ.. سَيِّد الخلق أجمعين.. وبعدُ:

فقد تابعنا جميعًا ما انتشر في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي من مظاهر التنمُّر والسُّخرية تُجاه مصابي فيروس كورونا المستجد وضحاياه، وهو أمرٌ جدُّ خطير، وغيرُ مُتوقَّع.

هذا الوباءُ الذي ابتَلَى اللَّه به البشريَّةَ في مَشارقِ الأرضِ ومغاربها يَتطلَّبُ منَّا جميعًا أن نَتكاتَفَ لمواجهتِه والقضاء عليه، فليس هناك إنسانٌ في عِصمةٍ من هذه الجائحة؛ وعليه فلا يجوزُ أبدًا أن يَتَنمَّرَ إنسانٌ أو يَسخَرَ من إنسانٍ آخَر أُصيب بهذا الوباء أو مات به، بل عليه أن يدعوَ لأخيه الإنسانِ ويَتضامَنَ معه ولا يسخر منه بكلمةٍ أو نظرةٍ أو أي فعلٍ أو قولٍ يُؤذي المصابَ أو أهلَه.

لقد ساءني وأحزنني كثيرًا، كما أساءَ وأحزنَ جموعَ المصريِّين، أنْ نرى بعضَ أبناءِ وطنِنا يَرفُضون استلامَ جُثَثِ ذَويهم، أو دفنَ مَن ماتوا بالفيروس في مَقابرِهم، وهو أمرٌ مُحرَّمٌ شرعًا ومُجرَّمٌ أخلاقيًّا وإنسانيًّا، إنَّ على هؤلاء المسيئين أن يَعلَمُوا بل يتعلَّموا أنَّ للموتِ مهابةً وجلالاً، يجبُ أن يَستَحضِرها كلُّ إنسان حين يَطرُقُ سمعَه حديثٌ عن الموت، أو كلَّما رأى جنازةَ ميتٍ، وأن يتذكَّر أنَّه صائرٌ لا محالةَ إلى ما صارت إليه، وأن يعلم -إن كان لا يعلم- أنَّ شريعة الإسلام تُطالب المسلمين بالإسراع في تجهيز الميِّت

(*) بيان ألقاه الإمام الأكبر في يوم الأحد: ١٢/ ٤/ ٢٠٢٠م.

والتعجيل بدفنِه، وأنَّ من إكرام الميت دفنه والدُّعاء له والتَّرحُّم عليه، مع الالتزام الصَّارم بما تُصدره الهيئاتُ الصحيَّة والجهاتُ المختصَّة بشأن مَن يُتَوفَّون في ظروفٍ استثنائيَّةٍ مثل ظروف الوباء الذي يضربُ البلادَ والعبادَ في هذه الأيام.

إنَّ التجمهرَ في وجهِ جنازةِ الميِّت، ورفضَ دفنِه في مقبرةِ بلدِه ومسقطِ رأسِه هو انتهاكٌ صريحٌ وغيرُ آدميٍّ لحرماتِ الموتى التي تَعارَف عليها كلُّ الناس شرقًا وغربًا، مُؤمنين وغيرَ مؤمنين.

وإنَّ من أسوأ الأخلاقِ وأحطِّها منزلةً استغلالَ «الموت» وجثثِ الموتى، والمتاجرةَ بها في سُوقِ «المصالحِ» الهابطة، التي يَلعَنُ اللَّهُ المتاجرين بها، وتَلعَنُهم الملائكةُ، ويَلعَنُهم كلُّ مؤمنٍ يُخلِص دِينَه للَّه تعالى، ولا يَرهَنُ ضميرَه وعقلَه للعابثين بالأديانِ والأوطانِ.

وإنَّني إذ أتحدَّثُ إليكم في هذه الأوقاتِ الصَّعبةِ في تاريخِ الإنسانيَّة، فإنَّني أثقُ في وعيِ المصريِّين وحِكمتِهم وحِرصِهم على التوحُّد والتكاتُف، والوقوفِ صَفًّا واحدًا لعُبورِ هذه الأزمةِ -بإذنِه تعالى- في سلامٍ وأمانٍ، وأقولُ للجميعِ: المُصابُ بهذا الوباءِ هو جُزْءٌ مِنَّا ونحنُ منه، والمتضرِّرُ بسببِه واجبٌ علينا دَعمُه ومُعاونتُه، ولكلِّ مُتَوفًّى في هذه الأيامِ ولأهلِه علينا كلُّ الحقوقِ الشرعيَّةِ والاجتماعيَّةِ، والمصريُّون كلُّهم نسيجٌ واحدٌ يَنتَمُون إلى ترابٍ واحدٍ.

نسأل اللَّه العفوَ والعافيةَ، واللُّطفَ فيما جَرَتْ به المقاديرُ، والسَّلامةَ لكلِّ مُصابٍ، والمغفرةَ لمن قَضَوْا نَحْبَهم، ونسألُه سبحانه أن يَربِطَ على قُلوبِ أهلِهم وذَوِيهم، وأن يرفعَ البلاءَ عن البلاد والعباد أجمعين.. يا ربَّ العالمين.

القضية الفلسطينية

القضية الفلسطينية... وواجبات الأمَّة المنسية(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ للَّه رب العالمين، والعاقبةُ للمتَّقين، ولا عدوان إلَّا على الظَّالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتَم المرسلين وإخوانه النبيين ورجال الحق في كل حين.

أيُّها الإخوةُ الكرام..

إنَّ قضيَّة فلسطين هي أول قضايا العرب والمسلمين في التَّاريخ المُعاصر، كانت كذلك -خلالَ القرن المُنصرم.. والآن أيضًا -وقد مضى الثُّلُث الأوَّل من القرن الخامس عشر الهجري- هي قضيَّة فلسطين، وفي القلب منها قضيَّةُ القُدس الشَّريف، فهي لُبُّ اللُّباب في الصِّراع التَّاريخي المُحتَدِم، الذي لا يَتوقَّف، ولن يَستردَّ عالَمُنا استقرارَه الذي هدَّدَه البُغاة المُعتَدون إلَّا بردِّ المظالم، وحفظ الحُقوق، وقيام ميزان العدل، وسقوط منطق الغاب، وسياسة الأمر الواقع.

أيُّها الإخوة..

اليومَ ونحن نَستقبل إخوانَنا المَقدسيِّين في القاهرة الثَّائرة، في هذا المُلتقى لأوَّل مرَّةٍ -أوَدُّ أن نَتَّجِهَ بالاهتمام المُشترَك مباشرةً إلى:

١-دراسةِ احتياجات المُواطن المَقدِسيِّ الأساسية من إخواننا الفلسطينيين؛ بدءًا من حاجات المَعيشة، والصِّحة، والانتقال، والعمل،

(*) كلمة ألقيت في: المؤتمر العام لنصرة القدس، في: ٢٣ من ربيع أول سنة ١٤٣٣هـ، الموافق: ١٥ من فبراير سنة ٢٠١٢م.

والحرفة لكلِّ عرَب القُدس، إلى حاجات النَّاشئ الصَّغير منهم في الكُتَّاب، والكَرَّاس، والمدرسة، مرورًا بحاجات الشَّباب في نوادٍ رياضيَّة، والشُّيوخ الكبار في رعاية خاصَّة، ومؤسَّسات اجتماعية، بما يُوفِّرُ مُتطلَّبات العَيْش الكريم، وحاجاته الأساسية والتَّحسينية.

٢-وأن ندرُس ملامحَ الخِطَّة التَّهويدية العُنصرية، التي تَستهدف ابتلاعَ المدينة كلِّها، ومَحْوَ سِماتها العربيَّة، ورموزها الحضارية، ومؤسَّساتها التَّاريخيَّة، وحقوق أهلِها القانونيَّة، في تَبجُّحٍ، وإصرار وتواصل، يُعينُهم عليها حلفاؤهم الذين يلعبون بالنار، ويَتجاهلون منطق التَّاريخ، وأن نَشرَعَ في وضع خِطَّتنا البَديلة لحماية المدينة المقدَّسة، في استراتيجيَّة واقعيَّة جديدة مُمنهجة، نتعلَّم فيها من أخطائنا وتقصيرنا، ونَستخدم ما بأيدينا من إمكانات، وهي ليست بالقليلة، ونَتيقَّظُ لحِيَل الخُصوم ومَقولاتهم التي يُروِّجونها، حتى على شعوبِنا.

وفي هذا الصَّدد أؤكِّدُ موقفَ الأزهر الشَّريف من المدينة المُقدَّسة؛ فهي كلُّها؛ قديمةً كانت أو جديدة، شرقيَّة أو غربيَّة، مُسلمة ومسيحية، في نظَرنا ونظَر القانون الدَّولي أرضٌ مُحتَلَّةٌ، يَجري عليها قواعد القانون الدَّولي وأعرافه المَرعيَّة، وليس القِسمُ القديمُ فحسب الذي يُحاصَر الآن، وتُقتَطَعُ أجزاؤه، وتُنتَقصُ أطرافُه، وتُهدَّد مُقدَّساتُه في مسجدنا الأقصى، ومولد السَّيِّد المسيح -عليه السلام-.

ولا يَحسبنَّ الخصوم أنَّنا نَسينا حقوقنا، أو تَنازلنا عنها دون مُقابل؛ فهم إن حَسِبوا ذلك واهِمون.

٣-وأقولُ أخيرًا لكم ولمن يسمعوننا الآن: إنَّ تاريخًا جديدًا يَتشكَّل في المنطقة، ورياحًا جديدة تَهبُّ عليها، وما رسَمته خرائط العدوان، لِما

أَسموه كذبًا وزورًا وبهتانًا: الشَّرق الأوسط الجديد، تَتحكَّمُ فيه قوى الصُّهيونيَّة العُنصرية، ومطامع السِّياسات الاستعمارية، لتَستكملَ استِنزاف مواردِنا، وتُهدِّدَ مُستقبَل أُمَّتنا، وتَبنيَ صروحَها على أنقاضنا..

هذا الذي ترسُمه خرائطُ العدوان قد اهتزَّ -على أقل تقدير- في مَهبِّ هذه الرِّياح الجديدة، ولن يَلبث -إن شاء اللَّه- أن تَهوِي به الرِّيحُ في مكان سَحيق.

وأَثِقُ أنَّ إخوانَنا الفلسطينيِّين، والمَقادسة منهم بوجهٍ خاصٍّ، وهم من أذكى الشُّعوب العربيَّة، وأكثَرِها ثقافة -يَتنَسَّمون النسمات الجديدة، التي هبَّت على منطقتِنا، وداعَبت خواطرَ شبابنا، واللَّه غالبٌ على أمره، ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يَعلمون.

والسَّلام عليكُم ورحمة اللَّه

* * *

مؤتمرُ الأزهرِ العالَميُّ لنُصرةِ القدسِ(*)

بِسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا ومولانا رسولِ اللَّهِ، وعلى آلِه وصَحبِه ومَن سارَ على دَربِه.

الحضـورُ الكـريمُ..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه..

وأهلًا ومرحبًا بحضَراتِكُم في بلدِكم مِصرَ، وفي رِحابِ الأزهرِ الشَّريفِ، ونشكُرُكُم على تفضُّلِكم بالحضورِ والمشاركةِ في هذا المؤتمرِ الدَّوليِّ العامِّ، مؤتمرِ: «نُصْرَةِ القُدْسِ الشَّريفِ»، والمسجدِ الأقصى، أُولَى القِبْلَتينِ وثالِثِ الحرمَينِ، ومَسْرَى رَسُولِ اللَّهِ مُحمَّدٍ ﷺ.. هذا المؤتمرُ الَّذي ينعقِدُ تحتَ رعايةٍ كريمةٍ مَشْكُورَة من السَّيِّد الرئيس/ عبد الفتَّاح السيسي رئيس جمهوريَّة مصر العربيَّة، والَّذي يَرعى -مع مِصرَ وشعبِها- قضيَّةَ فِلَسطينَ المظلومة إقليميًّا ودوليًّا، وبخاصَّةٍ ما آلَت إليه -مُؤخَّرًا- من تعقيداتِ السِّياسَاتِ الجائِرةِ والقراراتِ غيرِ المسؤولةِ، فلسيادَتِه ولكلِّ القادَةِ المسؤولين العرب والمسلمين، ولكلِّ شُرفاءِ العالَمِ المهمومينَ بفِلَسطينَ وشعبِها وبُمقدَّساتِها وأرضِها خالِصُ الدُّعاءِ بالتَّوفيقِ والسَّدادِ والقُوَّةِ والعزم والصَّلابةِ الَّتي لا تَلينُ إلَّا للحقِّ والعدلِ وإنصافِ المُستضعفين، وتحيَّةً للسَّيِّد

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر الأزهر العالمي لنصرة القدس، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ٣٠ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق: ١٧ يناير ٢٠١٨م.

الرَّئيس/ محمود عبَّاس، رئيس السُّلْطَة الفِلَسطينيَّة؛ نُحيِّيه، ونشُدُّ على يَدَيه، وندعوه إلى مُواصلةِ الصُّمودِ والثَّباتِ.

السَّيِّداتُ والسَّادَةُ..

مُنْذُ أبريلَ عام: ١٩٤٨م من القرنِ الماضي والأزهرُ الشَّريف يَعْقِدُ المؤتمراتِ تِلْوَ المؤتمراتِ عن فِلَسطينَ وعن المسجِدِ الأقصى والمقدَّساتِ المسيحيَّةِ في القُدْسِ، وقد تتابعَت هذه المؤتمراتُ حتَّى بلَغتْ أحدَ عشَرَ مؤتمرًا ما بين عام: ١٩٤٨م و١٩٨٨م من القرنِ الماضي، وحضرَها أساطينُ العُلماءِ والمفكِّرين المسلمين والمسيحيِّين مِن أفريقيا وآسيا وأوروبا، وقُدِّمَتْ فيها أبحاثٌ غايةٌ في الدِّقَّةِ والعُمقِ والاستِقْصَاءِ، وبنَفَسِ المهمُومِ الَّذي لَمْ يَتبقَّ لَهُ إلَّا نَفَثاتٌ تُشْبِهُ نَفَثاتِ المصدُورِ الَّذي فقدَ الدَّواءَ، واسْتَعصَى عليه الدَّاء.

وكانت هذه المؤتمراتُ في كُلِّ مَرَّةٍ تُعبِّرُ عن رَفضِ العُدوانِ الصُّهيونيِّ على مُقدَّسَاتِ المسلمينَ والمسيحيِّينَ واحتِلالِ المسجِدِ الأقصى وحَرقِه وانتهاكِ حُرُماتِه بالحَفريَّاتِ والأنفاقِ والمذابحِ في سَاحاتِه، واغتِصَابِ الآثارِ المسيحيَّةِ وتدميرِها، مِن كنائِسَ وأدْيرَةٍ ومآوٍ ومقابِرَ في القُدْسِ، وطَبَريةَ ويافا وغيرِها[(١)].

واليَوْمَ يَدْعُو الأزهَرُ للمُؤتمرِ الثَّانيَ عَشَرَ بعد ثلاثينَ عامًا من آخِرِ مُؤتمرٍ انعقَدَ بشأنِ القضيَّةِ الفِلَسطينيَّةِ والمقدَّساتِ الإسلاميَّةِ والمسيحيَّة.. ومُؤتمرُنا اليَوْمَ -رُغمَ ثَرائِه الهائِلِ بهذه العُقُولِ النيِّرَةِ والضَّمائِرِ اليَقِظَةِ مِن الشَّرْقِ ومِن الغَرب- قد لا يُتوقَّعُ منه أنْ يُضيفَ جديدًا إلى ما قيلَ وكُتِبَ مِن قَبلُ في «قضيَّتِنا»، وفيما يتعلَّقُ بأبعادِها العِلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ والسِّياسيَّةِ، لكن حَسْبُ هذا المؤتمرِ أنَّه يَدُقُّ -مِن جديدٍ- ناقوسَ الخطَرِ، ويُشْعِلُ مَا عَسَاهُ قد

---

(١) انظر: مقال الأنبا جريجوريوس، في كتاب الهلال الذهبي: ١٩٧٧م.

خَبا وخمَدَ من شُعلَةِ العَزمِ وأُوارِ التَّصميم، وما استقرَّ عليه أمرُ العربِ والمسلمينَ والمسيحيِّين وعُقلاءِ الدُّنيا وشُرَفائِها -مِن ضرورةِ التَّصدِّي للعبثِ الصُّهيونيِّ الهمَجيِّ في القرنِ الواحِد والعشرين، والَّذي تَدْعَمُه سياساتٌ دَوليَّةٌ، تَرتعِدُ فرائصُها إنْ هي فكَّرَت في الخروجِ قِيدَ أُنمُلَةٍ عمَّا يرسُمُه لها هذا الكِيانُ الصُّهيونيُّ والسِّياساتُ المُتصهينةُ.

والَّذي أعتقدُه اعتقادًا جازمًا، هو أنَّ كُلَّ احتلالٍ إلى زوالٍ إنْ عاجلًا أو آجلًا، وأنَّه إنْ بدا اليومَ وكأنَّه أمرٌ مستحيلٌ، إلَّا أنَّ الأيامَ دُوَلٌ، وعاقبةُ الغاصِبِ معروفةٌ، ونهايةُ الظَّالمِ وإنْ طالَ انتظارُها مَعْلُومَةٌ ومؤكَّدةٌ..

واسألوا حَمَلاتِ الفِرنْجَةِ -الَّتي يُسمِّيها الغربُ بالصَّليبيَّةِ- اسألوا هذه الحَمَلاتِ، والَّتي طابَ لها المُقامُ في فِلَسطينَ مائتَي عامٍ..

واسألوا الدُّوَلَ التي طالما تباهَت بأنَّ الشَّمْسَ لا تغرُبُ عن مُستعمَراتِها..

واسألوا الاستعمارَ الأوروبيَّ وهو يحمِلُ عصاه ويرحَلُ عنِ المغربِ والجزائرِ وتُونُسَ ومِصرَ والشَّامِ والعِراقِ والهِندِ وإندونيسيا والصُّومالِ..

اسألوا جَنُوبَ أفريقيا ونظامَ التَّمييزِ العُنصريِّ وما آلَ إليه على يَدِ شَعْبٍ موحَّدٍ حُرٍّ أبيٍّ..

اسألوا كلَّ هؤلاء لِتَعلموا -من جديدٍ- أنَّ الزَّوالَ هو مصيرُ المُعتدِينَ، وأنَّ كُلَّ قُوَّةٍ مُتسلِّطةٍ -فيما يقولُ ابنُ خلدون- محكومٌ عليها بالانحِطَاطِ، طال الوقتُ أو قَصُر، وقد صدقَ شاعرُنا العربيُّ وهو يترنَّم بأفاعيل الليالي والأيام:

واللَّيالي -كما عَهِدتَ- حُبالى ... مُثقَلاتٌ يَلِدْنَ كلَّ عَجيبِ

هذه حقيقةٌ كونيَّةٌ وسُنَّةٌ إلهيَّةٌ، والشَّكُّ فيها «زِرَايَةٌ بالعِلْمِ، وزِرَايَةٌ بالعَقلِ، وزِرَايَةٌ بأمانةِ التَّفكير»[(١)].

---

(١) عبارةٌ مُقتبَسةٌ من عباراتِ الأستاذِ العقَّادِ رحمه اللّه من كتابِه: «إبراهيم أبو الأنبياء»، =

إلَّا أنَّ الحكمة الإلهية قد أبت إلا أن تكون هذه الحقيقة مقرونة بحقيقةٍ أُخرى تَسبِقُها وتُعِدُّ لِولادتِها؛ وأَعني بها امتلاكَ القُوَّةِ التي تُرعِبُ العُدوانَ، وتَكْسِرُ أنفَه، وتُرغِمُهُ على أنْ يُعيدَ حِسَابَاتِه، ويُفكِّرَ ألفَ مرَّةٍ قبل أن يُمارِسَ عَربدَتَهُ وطُغيانَهُ واستهتارَهُ واستبدادَه.

نقولُ هذا ونؤكِّدُ في الوقتِ نفسِه أنَّنا -عَلِمَ اللَّهُ- لسنا دعاة حروب وصراعات، بل دُعاةَ سلامٍ بامتيازٍ، وكيف لا! وقد نهانا نبيُّنا الكريمَ -صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه- أن نتمنَّى لقاءَ العدوِّ، وأمرَنا أن نسألَ اللَّهَ العافيةَ، والسَّلامَ الَّذي ندعو إليه -أيها السادة والسيدات- هو السَّلامُ المشروطُ بالعدلِ والاحترامِ، وانتزاعِ الحقوقِ الَّتي لا تقبَلُ البيعَ ولا المُساومةَ ولا الشِّراءَ، سلامٌ لا يَعْرِفُ الذِّلَّةَ ولا الخُنُوعَ، ولا المِسَاسَ بذرَّةٍ واحدةٍ من تُرابِ الأوطانِ والمُقدَّساتِ.. سلامٌ تصنعُهُ قُوَّةُ العِلْمِ والتَّعليمِ والاقتصادِ الراشد، والتَّحكُّمِ في الأسواقِ، والتَّسليحِ الَّذي يُمَكِّنُ أصحابَهُ من ردِّ الصَّاعِ صاعَينِ، ومِن بَتْرِ أيَّة يَدٍ تُحاولُ المِساسَ بالأرض والشعب.

وإذا كان قد كُتِبَ علينا في عصرِنا هذا أن يعيشَ بيننا عدُوٌّ دخيلٌ لا يَفهَمُ إلَّا لُغةَ القُوَّةِ؛ فمِنَ العَارِ أن نُخاطبَهُ بلغةٍ أُخرى لا يَفهمُها ولا يحترمُها، وأن نَبقى حولَه ضُعفاءَ مُستكِينين مُتخاذِلينَ، وفي أَيدينا -لو شِئنا- كُلُّ عواملِ القُوَّةِ ومصادِرِها المادِّيَّةِ والبشَريَّةِ.

وأنا مِمَّن يؤمِنُ بأنَّ الكِيانَ الصهيونيَّ لَيْسَ هو الَّذي ألحَقَ بنا الهزيمةَ في ٤٨ أو ٦٧ أو غيرِهما من الحُرُوبِ والمُناوَشاتِ، وإنَّما نَحْنُ الَّذين صَنَعْنا هَزيمَتَنا بأيدينا، وبخطأِ حساباتِنا وقِصَرِ أنظارِنا في تقديرِ الأخطارِ، وتعامُلِنا بالهَزلِ في مواطنِ الجِدِّ.

= ضمن «موسوعة العقَّاد الإسلاميَّة»: ١/ ١٤، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠١٥م.

وما كان لأمَّةٍ موزَّعةِ الانتماءِ، مُمزَّقةِ الهُويَّةِ والهَوى؛ أنْ تُواجِهَ كِيانًا يُقاتِلُ تحتَ عقيدةٍ راسِخةٍ، وتحتَ رايةٍ واحِدَةٍ، فضلًا عن أنْ تُسْقِطَ رايةَ العدو، وتكْسِرَ شوكتَه، وصدَقَ اللَّهُ العظيمُ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

الحضُورُ الكريم:

إنَّني على وَعيٍ تامٍّ بأنَّ كَلِمَاتي هذه قد لا تتمخَّضُ عن جديدٍ يُذْكَرُ، وأنَّها ما زالت تَدْفُقُ من رَحِمِ الآلامِ والأوجاعِ، وأنَّ تأثيرَها لا يَعْدُو تأثيرَ ما قَرَعَ أسماعَنا عبرَ سَبعينَ عامًا، من خُطبِ أعلامِ السِّياسةِ والعِلْمِ والفِكرِ والإعلامِ، دونَ أنْ يُغيِّرَ واقِعًا أو يُوقِفَ شهوَةً مسعورةً في القَضمِ والابتلاعِ، أو يُعَبِّرَ عن دِمَاءٍ سُكِبَت وتضحياتٍ ومعاناةٍ وآلامٍ في السُّجُونِ والمُعتَقَلاتِ، تَعرَّضَ لها شباب فِلَسطين بل ونساؤها وأطفالُها، في مقاومةٍ صَامِدَةٍ لا تَلِينُ، وصَبْرٍ لا ينفَدُ، وعزيمةٍ لا ضعفَ فيها ولا وَهنَ.

نعم! قد يُقالُ مِثلُ ذلكَ في كلمتي هذه أو عن مؤتمرِنا هذا، ولكن ما أظنُّكُم تختلفُونَ معي في أنَّ مؤتمرَ اليومِ يختلفُ كثيرًا عمَّا سبقَه مِن المؤتمراتِ؛ لأنَّه يَنعَقِدُ في ظُروفٍ ومُلابَساتٍ تُشبِهُ السُّحُبَ الدَّاكنةَ الَّتي تُنذِرُ بالسُّيولِ الجارفةِ؛ فقد بدأَ العدُّ التَّنازُليُّ لتقسيمِ المِنطقةِ وتفتيتِها وتجزئتِها، وتنصيبِ الكِيانِ الصُّهيونيِّ شُرَطيًّا على المِنطقةِ بأسْرِها، تأتمرُ بأمرِه، ولا تَرى إلَّا ما يَراهُ هو، أو يُريها هو إيَّاه، وما على المِنطقةِ إلَّا السَّمْعُ والطَّاعةُ، وإنَّ نظرةً على ما يُدَبَّرُ لهذا الوطنِ العريضِ الطَّويلِ على شواطئِ الأطلسيِّ، ومداخِلِ البحرِ الأحمرِ وشواطئِ شرقِ المتوسِّطِ، وامتداداتِها في اليَمَنِ والعِراقِ وسُوريا -لجديرةٌ بالتَّنبيهِ إلى أنَّ الأمرَ جَلَلٌ، وأنَّ تَردادَ الخُطَبِ واجترارَ الشِّعَاراتِ لم يعُدْ يُناسِبُ حجمَ المكرِ الَّذي يُمكَرُ بنا، وأنَّنا

لو واجهناهُ بما اعتَدنا مواجهتَهُ به منذُ سبعةِ عقودٍ فَلَسوفَ تَلعَنُنا الأجيالُ القادمةُ، ولسوفَ يخجَلُ أحفادُنا مِن أن نكونَ آباءَهُم وأجدادَهُم، وإذا كان لي من أمَلٍ أنتظرُ تحقيقَهُ من لقائِنا هذا فهو أن يتمخَّضَ هذا المؤتمرُ عن نتائجَ عمليَّةٍ غيرِ تقليديَّةٍ، تُستَثمَرُ فيها الطَّاقاتُ، وتُنظَّمُ الجُهُودُ مهما صغُرَت أو بَدَت غيرَ ذاتِ شأنٍ. . وأوَّلُ ذلكم وأهمُّهُ هو: إعادةُ الوعي بالقضيَّةِ الفلسطينيَّةِ عامَّةً، وبالقُدسِ خاصَّةً؛ فالحقيقةُ المُرَّةُ هي أنَّ المقرَّراتِ الدِّراسيَّةَ في مناهجِنا التعليميَّةِ والتَّربويَّةِ في كُلِّ مراحِلِ التعليمِ عاجزةٌ عن تكوينِ أيِّ قَدْرٍ مِنَ الوعيِ بهذه القضيَّةِ في أذهانِ ملايين الملايين من تلاميذِ العربِ والمسلمين وشبابِهم، فلا يُوجَدُ مُقرَّرٌ واحِدٌ يُخصَّصُ للتَّعريفِ بخطرِ القضيَّةِ، وإلقاءِ الضَّوءِ على تاريخِها وحاضِرِها وتأثيرِها في مستقبلِ شبابِنا الَّذي سيتسلَّمُ رايةَ الدِّفاعِ عن فِلَسطين، وهو لا يَكادُ يَعرِفُ عنها شيئًا ذا بالٍ، وذلك بالمقارنةِ بشبابِ المُستَوطَناتِ الَّذي تتعهَّدُه منذُ طفولتِه مناهجُ تربويَّةٌ ومُقرَّراتٌ مدرسيَّةٌ، وأناشيدُ وصلواتٌ وترانيم تُشَكِّلُ وُجدانَه العِدائيَّ. . وتُغذِّيه بالعُنصريَّةِ، وكراهيةِ كُلِّ ما هو عربيٌّ ومُسْلِمٌ. . وهذا الَّذي نفتقدُه في مناهجِ التَّعليمِ نفتقدُه أيضًا في وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ، في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ؛ فالحديثُ عن فِلَسطين وعنِ القدسِ رُغمَ عشَراتِ الفضائيَّاتِ العربيَّةِ -بل الإسلاميَّةِ والدِّينيَّةِ- لا يكادُ يتجاوزُ خبرًا مِن الأخبارِ العارِضةِ، أو تقريرًا رتيبًا من تقاريرِ المراسلينَ، ولا يلبثُ أثرُه أن يَذهَبَ بانقضاءِ الخبرِ وذَهابِ المذيعِ إلى خبرٍ آخَرَ.

وثاني المقترَحاتِ هو: أنَّ القرارَ الجائرَ للرئيسِ الأمريكيِّ والَّذي رفضَهُ أكثرُ مِن ثمانٍ وعشرين ومائةِ دولةٍ، وأنكرَته كُلُّ شعوبِ الأرضِ المُحبَّةِ للسَّلامِ، يجبُ أن يُقابَلَ بتفكيرٍ عربيٍّ وإسلاميٍّ جديدٍ وجادٍّ، يتمحورُ حولَ

تأكيدِ عُروبةِ القُدسِ، وحُرمةِ المقدَّسَاتِ الإسلاميَّةِ والمسيحيَّةِ، وتبَعيَّتِها لأصحابِها، وأن يرقَى ذلك إلى أن يُصبحَ ثقافةً محلِّيَّةً وعالميَّةً تحتشدُ لها طاقاتُ الإعلامِ العربيِّ والإسلاميِّ، وما أكثَرَه، وهو الميدانُ الَّذي هُزِمنا فيه ونجَحَ عدوُّنا في تسخيرِه لقضيَّتِه.

وعلينا ألَّا نتردَّدَ أو نخجَلَ من التَّعامُلِ مع قضيَّةِ القُدسِ مِن منظورٍ دينيٍّ: إسلاميٍّ أو مسيحيٍّ.

ومن أعجَبِ العجبِ أن يُهمَّشَ البُعدُ الدِّينيُّ في مُقارباتِنا للقضيَّةِ الفِلَسطينيَّةِ، بينما كلُّ أوراقِ الكِيانِ الصُّهيونيِّ هي أوراقٌ دينيَّةٌ خالِصَةٌ لا يُدارُونها، ولا يحسَبُونها سَوءاتٍ يتوارَون منها، وماذا في يَدِ هذا الكِيانِ من مُبرِّراتٍ في اغتصابِ أرضٍ تُنكِرُه -وتُنكِرُ آباءَه وأجدادَه- غيرُ التهوُّسِ بنُصُوصٍ وأساطيرَ تَبعَثُ على العُدوانِ، وتُشَجِّعُه على استباحةِ دماءِ النَّاسِ وأعراضِهم وأموالِهم؟! بل ماذا في يدِ الصُّهيونيَّةِ المسيحيَّةِ الحديثةِ الَّتي تقفُ وراءَ هذا الكِيانِ وتَدعَمُه وتؤمِّنُ له كلَّ ما يحلُمُ به غير تفسيراتٍ دينيَّةٍ زائفةٍ مغشوشةٍ يرفضُها آباءُ الكنيسةِ وأحبارُها ورُهبانُها وعلماءُ اللَّاهُوتِ المسيحيِّ، ويُنكرونَها أشدَّ الإنكارِ؟!

السَّيِّداتُ والسَّادةُ..

لديَّ مقترحٌ أشرُفُ بطرحِه بين أيديكُم؛ لِتَرَوا رأيَكم فيه، وهو أن يُخصَّصَ هذا العامُ؛ عام: ٢٠١٨م ليكونَ عامًا للقُدسِ الشَّريفِ: تَعْرِيفًا به، ودعمًا مادِّيًّا ومعنويًّا للمَقدِسيِّين، ونشاطًا ثقافيًّا وإعلاميًّا مُتواصِلًا، تتعهَّدُه المنظَّماتُ الرَّسميَّةُ؛ كجامعةِ الدُّوَلِ العربيَّةِ، ومُنظَّمةِ التَّعاوُنِ الإسلاميِّ، والمؤسَّسَاتِ الدِّينيةِ، والجامعاتِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، ومُنظَّماتِ المجتمعِ المدنيِّ، وغيرِها.

وخِتَامُ كَلِمَتي نداءٌ للأمَّةِ كلِّها أن تتنبَّهَ نُخَبُها إلى أنَّها أُمَّةٌ مُستهدَفةٌ -وفي مكرٍ شديدٍ- في دِينِها وهُوِيَّتِها ومناهِجِها التَّعليميَّةِ والتَّربويَّةِ، ووَحدةِ شُعُوبِها وعَيشِها المشترَكِ، وليس أمامَها إلَّا أن تعتمدَ على سَواعدِها، وأن تستعيدَ ثِقَتَها في اللَّهِ وفي أنفُسِها وفي قُدُراتِها، وألَّا تركَنَ إلى وُعودِ الظَّلَمةِ القابعينَ وراءَ البحارِ ممَّن قَلَبوا لنا ظَهرَ المِجَنِّ، وتَجاوَزُوا كلَّ الخُطُوطِ الحمراءِ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وأخيرًا: أُصحِّحُ ما قُلتُه مِن قبلُ، وهو خطابي وترحيبي للسَّيِّد الرئيس/ محمود عباس، رئيس دولة فِلَسطين الحبيبةِ.

شُكرًا لِحُسنِ استماعكم

والسَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *

مع
أعلام الإسلام

سلطان العارفين:

أبو يزيد البِسطامي (*)

(١٨٨-٢٦١هـ/ ٨٠٤ - ٨٧٥م)

هو طَيفُور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي، وكُنيته أبو يزيد، ومشهورٌ بأبي يزيد البِسطامي -نسبة إلى «بِسطام»: بلدة من بلاد خراسان مما يلي جهة العراق- وبعض المصادر تنسبه باسم: طَيفور بن عيسى بن سَرُوشان، وتَذكُر أن جدَّه «سَرُوشان» كان مجوسيًّا ثم أسلم وحسُن إسلامه، و«طَيفُور»: اسمٌ لطائرٍ صغيرٍ، وقد انتشرت هذه التسمية في قبيلة أبي يزيد وفيما جاورها من القبائل تيمُّنًا باسمه، وكان الناس - فيما يقال: «يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركًا واستسعادًا».

تصمت المصادر عن بيان تاريخ ميلاده، وإن كان بعضها يتحدَّث بتفصيلٍ قليل عن مكان ولادته: فقد ولدته أمه في حيٍّ من أحياء المجوس، يسمَّى: «محلَّة مُوبَذَان»، ثم انتقلت به بعد ذلك إلى بعض أحياء المسلمين، وهو «محلة بويذان»، وكان في هذه المحلة مسجد صغير يختلف إليه أبو يزيد، ويفضله على المسجد الجامع رغم تجاور المسجدَين؛ تحاشيًا للأعراب الجالسين حول المسجد الجامع، وكانوا يقفون احترامًا له، فكان هذا يثقل على نفسه ويشق عليها، ولم يلبث أبو يزيد أن وسَّع في المسجد الصغير وبنى صومعة إلى جواره تردَّد عليها أولًا ثم سكنها بعد ذلك، وهي الصومعة التي

(*) هذه الترجمة كان الإمام الأكبر قد شارك بها في: «موسوعة أعلام الفكر الإسلامي» بإشراف الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، أيام توليه وزارة الأوقاف، وطبع في «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية» سلسلة «الموسوعات الإسلامية المتخصصة» سنة: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

نُسبت إليه فيما بعد، ويذكر المؤرخون أن البيت الذي ولد فيه البسطامي تهيَّبه الناس فلم يسكنوا فيه بعد وفاته؛ وإنما حوَّلوه إلى مسجد يصلون فيه(١).

ولأبي يزيد أخوان: آدم وعلي، وأُختان لا نعرف اسمَيهما، وكان شديد البرِّ بأمِّه، وقد قيل له مرَّة: بم بلغت ما بلغتَ؟ فقال: أنتم تقولون ما تقولون، وإنَّما أرى ذلك من رضاء الأمِّ؛ وكانت أمُّه زاهدة عابدة شديدة الستر والحياء، غريبة في النساء بخوفها ورجائها.

تَصِفُه كُتب التراجم بأنه: سلطان العارفين، وأحد كبار مشايخ القوم: زهدًا وعبادة وعرفانًا وأحوالًا. وتقول بعض المصادر: إنه «نادرة زمانه حالًا وأنفاسًا وورعًا وزهدًا واتقاء وإيناسًا»، ويضيف السُّلَمي أنه رَوَى الحديث، وساق له حديثًا بإسناده إلى أبي سعيد الخدري(٢).

توفي أبو يزيد سنة ٢٦١هـ أو ٢٦٤هـ، ويقال: إنه «توفي سنة أربع وثلاثين ومئتين عن ثلاث وسبعين سنة».

لا تمدنا المصادر بقَدْر كافٍ من المعلومات يسمح بتكوين صورة تاريخية دقيقة لنشأته العلمية وتطورها، ولكن يمكن من تسقُّط الروايات وتتبُّعها أن نتبين أنه كان سنيًّا على مذهب الأحناف، وأنه درس علم التوحيدِ على يد صديقه أبي علي السِّندي، وأنه لم يترك تراثًا مدوَّنًا من الكتب أو الرسائل أو غيرهما، لكنه ترك تراثًا شفهيًّا في صورة مرويات.

ويُعَدُّ نص كتاب: «**النُّور من كلمات أبي يزيد طَيفور**» لأبي الفضل محمد ابن علي السَّهلكي (٣٧٩- ٤٧٦هـ) أَوْفَى المصادر وأجمعها لحياة أبي يزيد وتاريخه العلمي والصوفي؛ ففي هذا الكتاب ما يزيد على خمس مئة رواية من كلام أبي يزيد حفظها السَّهلكي ونقلها عن طائفة من الشيوخ الذين

(١) «النور من كلمات أبي يزيد طيفور»: ٤٧-٤٨.
(٢) طبقات الصوفية: ٦٨.

اضطلعوا بنقل تراث أبي يزيد نقلًا شفهيًّا وقال عنهم: «هؤلاء كلهم رواة أبي يزيد-رحمهم اللَّه»[١]، وقد جرى السَّهلكي في توثيق هذه المرويات على عادة القدماء من ذكر السَّند قبل ذكر النص، على غرار ما هو معروف عند علماء الحديث في فن الرواية، وقد حقق نص الكتاب ونشره الدكتور عبد الرحمن بدوي (ت. ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) بعنوان: «**شطحات الصوفية**»[٢].

ومن هذه المرويات يتبين أن أبا يزيد تتلمذ وخدم ثلاثة عشر وثلاث مئة شيخ وأستاذ، من بينهم الإمام جعفرُ بن محمدٍ الصادقُ (ت. ١٤٨هـ)[٣]، وأنه مارس مهنة السقيِ للإمام جعفر عامَين كاملَين، ولذلك سمي: «طَيفور السَّقَّاء»، ويذكر السَّهلكي أن الإمام جعفر قال له: «أرى فيك أثر جدي»، وأمره بأن يعود إلى منزله ويدعو الخلق إلى اللَّه تعالى: «فرجع ولم يسكن قلبُه»[٤].

ولأبي يزيد تلاميذ ومريدون كثيرون، يأتي في مقدمتهم: أبو موسى الدَّيبلي الذي نقل معظم أخباره ومروياته.

(١) «النور من كلمات أبي يزيد طيفور»: ٨٢.

(٢) صدر الجزء الأول منه في مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة: ١٩٤٩م، سلسلة: دراسات إسلامية (٩).

وقد انتقد هلموت ريتر (H. Ritter) طبعة عبد الرحمن بدوي هذه ووصفها بأنها طبعة غير موفقة (دائرة المعارف الإسلامية، مادة: «أبو يزيد»).

(٣) ينكر المستشرق الفرنسي ماسينيون Massignon (ت. ١٩٦٢م) قصة تلمذة أبي يزيد على يدي الإمام جعفر انطلاقًا من أن الإمام جعفر متوفى سنة ١٤٨هـ وأن أبا يزيد لم يولد قبل سنة ١٦١هـ، ويرجح أنه تتلمذ على أحد الأئمة بعد جعفر الصادق (انظر مقال روجيه دي لادريير Roger Deladrière أبو يزيد البسطامي ومأثوراته الروحية -بالفرنسية- والمنشور في مجلة أرابيكا Arabica، مجلد ١٤، ١٩٦٧م: ٨٠ «هامش١»).

(٤) «النور من كلمات أبي يزيد طيفور »: ٦٣.

يُصنَّف أبو يزيد ضِمن الشَّخصيات الصوفية الغامضة، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه كان يتخذ من أسلوب «الشطح» أداة للتعبير عن أذواقه ومواجيده الروحية، فكثيرًا ما كان يرسل عباراته في صورة «شطحات» معقدة تُشكِل على السامع وتستغلق عليه، ولا تستقيم على قواعد العقائد كما جاءت بها ظواهر القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة.

والشَّطح - كما يعرفه الصوفية - هو: «عبارة مستغربةٌ في وصف وَجْدٍ فاضَ بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته»[(١)]، وفيما يقول الجُرجانيُّ، هو: «كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب... فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهي»[(٢)].

وأكثر الصوفية يقبلونه ويعذرونَ أصحابه للأحوال الروحية القوية التي تصاحب أرباب الشطح، من شدة الوجد ومشاهدة العارفِ، مع قصور اللغة عن الوفاء بترجمة هذه المشاهدات، ومع هاتين الصعوبتَين تضطرب العبارة وتشكل على أفهام السامعين؛ ولذلك يرى كثيرٌ من الصوفية أنه لا يحق لأحد أن ينكر على أحد من أصحاب الشطح إذا كان معروفًا بالصلاح والتَّقوى والعلم، وقُصارى الأمر عند من لم يفهم إشارات هؤلاء أن يكل أمرهم إلى اللَّه[(٣)].

وعبارات الشطح وإن ظهرت -على استحياء- قبل أبي يزيد في بعض مأثورات إبراهيم بن أدهم (ت. ١٦٢هـ) ورابعة العدوية (ت. ١٨١هـ)؛ فإنها في مرويات أبي يزيد قد اكتملت لها أبعادها، واستقرَّ معناها، وأصبحت لغة ثابتة في التعبير عن مواجيد العارف وأذواقه، ويعد أبو يزيد أوَّل من توسَّع في اللُّجوء إلى الشَّطحات لشرح الأذواق العِرفانيَّة، وقد شغلت أقواله وغرائبه

---

(١) اللُّمَع: ٤٥٣.
(٢) التعريفات: مادة «شطح».
(٣) اللُّمَع: ٤٥٤.

كثيرًا من شيوخ التَّصوُّف الذين جاؤوا من بعده، مما حمل الجُنَيد -شيخ الطائفة- على أن يتناول بعضًا منها بالشرح والتأويلِ.

وقد نقل صاحب اللُّمَع جزءًا من شرح الجنيد لشطحات أبي يزيد(١) ودفاعه عنه، ومناظرته لبعض الشيوخ الرافضين لكلام أبي يزيد، ومنهم من كان يكفره مثل: محمد بن أحمد بن سالم البصري.

ومن مأثورات أبي يزيد ومروياته التي أوغرتْ عليه صدور العلماء وأنكرها بعض الصوفية أيضًا، قوله:

- كفر أهل الهمَّة أسلم من إيمان أهل المنة.
- سبحاني.
- ما النار؟ لأستندَنَّ إليها غدًا، وأقول: اجعلني لأهلها فداء.
- ما الجنة؟ لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا.
- ما المحدِّثون؟ إن خاطبهم رجل عن رجل، فقد خاطبنا القلب عن الرب.
- وقال في اليهود مخاطبًا اللَّه عز وجل: هبهم لي، ما هؤلاء حتى تعذبهم؟!

مراجع للاستزادة:

* أبو نصر عبد اللَّه بن عليٍّ السرَّاجُ الطوسي (ت. ٣٧٨هـ) **اللُّمَع**، بعناية: شيخ الأزهر عبد الحليم محمود (ت. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وطه عبد الباقي سرور (ت. ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) دار الكتب الحديثة- القاهرة، ومكتبة المثنى- بغداد: ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

* أبو عبد الرحمن محمد بن الحُسَين السُّلمي (ت. ٤١٢هـ) **طبقات الصوفية**، تحقيق: نور الدِّين شريبة (ت. ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، جماعة الأزهر للنشر والتأليف- القاهرة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م: ٦٧.

* أبو نُعيم أحمد بن عبد اللَّه الأصبهاني (ت. ٤٣٠هـ) **حِلية الأولياء وطبقات**

---

(١) انظر: السابق نفسه: ٤٥٩-٤٧٧.

الأصفياء، مكتبة الخانجي، ومطبعة السعادة- القاهرة ١٣٥١- ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٢- ١٩٣٨م: ١٠/ ٣٣.

❊ شمس الدِّين محمد بن أحمد الذهبي (ت. ٧٤٨هـ) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت وتونُس ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م: ٦/ ٣٤٥.

❊ المستشرق الألماني كارل بروكلمان Carl Prockelmann (ت. ١٩٥٦م) **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبد الحليم النَّجار (ت. ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) وآخَرين؛ جامعة الدُّوَل العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعُلوم- تونُس، ودار المعارف- القاهرة ١٣٧٩- ١٣٨١، ١٣٩٣- ١٣٩٥هـ/ ١٩٦٠- ١٩٦٢، ١٩٧٣- ١٩٧٥م: ٤/ ٦٢.

❊ دائرة المعارف الإسلامية The Encyclopaedia of Islam (الطبعة الثانية): ١/ ١٦٢ (مادة أبو يزيد Abü YazÏd للمستشرق الألماني هلموت ريتر).

❊ أبو غيث خير الدِّين بن محمود الزِّركلي (ت. ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الخامسة عشر ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م: ٣/ ٢٣٥.

❊ Meddeb, Abdelwahab (m. 1436 A. H/2014 A. C) Les Dits de Bistami = Shatahat, Arthème Fayard- Paris:1989.

❊ فؤاد سزگين Fuat Sezgin (ت. ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م) **تاريخ التراث العربي**، ترجمة: محمود فهمي حجازي (ت. ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م) وآخَرين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض ١٤٠٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣، ١٩٨٤م (المجلَّدات: ١، ٢، ٨، ٩، والمجلَّد الخاصُّ بمجموعات المخطوطات العربية في مكتبات العالم)، وعبد اللَّه عبد اللَّه حجازي وآخَرين، جامعة الملك سعود- الرياض ١٤٠٦- ١٤٣٠هـ/ ١٩٨٦- ٢٠٠٩م: ١ (الجزء الرابع- العقائد والتصوف)/ ١٢٥.

❊ Deladrière, Roger/ Abü YazÏd al-Bistami et son enseignement spiritual, ARABICA, T.XIV, annee 1967:76-89

الإمامُ محمَّد عبده ..متكلِّمًا(*)

الأستاذُ الإمامُ «أعظمُ من أنجبته القريَّةُ، ونهَضَ برسالةِ الأزهرِ في عصرِه، عبقريُّ الإصلاحِ والهدايةِ: محمَّد عبده، قدَّس اللَّه رُوحَه، وأعانَنا على التَّعريفِ بفضلِه، والتَّعريفِ بواجبِنا من بعده»[١].

هكذا بدأَ الأستاذُ العقَّادُ كتابَه القيِّمَ عن الإمامِ محمَّد عبده، عبقريِّ الإصلاحِ والتَّعليمِ، وكذلك نبدَأُ ورقتَنا باقتباسِ هذه الكلمةِ، اقتداءً، بل تلمذةً على تراثِ عملاقٍ يكتُبُ عن عملاقٍ، وعقلٍ يؤرِّخُ لعقلٍ، وفيلسوفٍ يترجمُ لفيلسوفٍ.

واليومَ يُذكَرُ للأزهرِ الشَّريفِ: شيخِه وعلمائِه وأساتذتِه فضلُ السَّبقِ إلى الاحتفالِ بمرورِ مائةِ عامٍ على وفاةِ الأستاذِ الإمامِ، ومَن أَولَى من الأزهرِ بالتَّعريفِ بهذا الرَّائدِ الأزهريِّ الذي سبَقَ عصرَه، وكان نُقطةَ تحوُّلٍ فارقة في تاريخِ الفكرِ الإسلاميِّ بوجهٍ خاصٍّ، والثَّقافةِ العربيَّةِ في كُلِّ أرجاءِ الشَّرقِ بوجهٍ عامٍّ.

إنَّ هذا الإمامَ العظيمَ قد خرَجَت من تحتِ عباءتِه كُلُّ التَّيَّاراتِ الفِكريَّةِ المعاصرةِ: النَّصِّيَّةِ، والعقليَّةِ، والتَّحرُّريَّةِ المعتدلةِ، وتتلمذَ في مدرستِه الجامعةِ روَّادُ هذه الاتجاهاتِ، من أمثالِ: رشيد رضا ومدرستُه، والمراغيُّ

(*) هذا البحث ألقاه الإمام الأكبر أيام كان رئيسًا لجامعة الأزهر بمناسبة احتفالية الأزهر على مرور مئة عام على رحيل الأستاذ الإمام محمد عبده، وكان ذلك في الفترة من: ٢١ - ٢٢ من جمادى الثانية: ١٤٢٦هـ/ الموافق: ٢٧- ٢٨ من يوليو: ٢٠٠٥م.

(١) العقاد، الإمام محمد عبده: ١٥، ضمن الأعمال الكاملة (مجلد ١٧)، بيروت ١٩٨٠.

وتلاميذُه، ومصطفى عبد الرَّازق ومدرستُه، والعقَّادُ ومدرستُه، بل كُلُّ روَّادِ النَّهضةِ العربيَّةِ ممن كانوا يؤمنون بضرورةِ الجمعِ بين القديمِ والحديثِ أو الأصالةِ والمعاصرةِ، في عقلانيَّةٍ هادئةٍ وتوازنٍ محسوبٍ، وانتماءٍ معلنٍ إلى الجذورِ، يعتصمون به كطَوقِ نجاةٍ واقٍ من هلاكِ الارتِهانِ ودمارِ التَّبعيَّةِ والاستلابِ.

وتطمَحُ هذه الورقةُ إلى الإسهامِ في تجليةِ جانبٍ من جوانبِ عظمةِ الإمامِ، وهو جانبُ علمِ الكلامِ أو الجانبُ العقليُّ في تراثِه، ومحاوراتِه، ومناظراته . . وهو -فيما أرى- جانبٌ بعيدُ الغورِ في أطواءِ هذه العقليَّةِ الفذَّةِ، التي تترامى أطرافُها أمامَ الباحثِ، كما تترامى شُطآنُ البحارِ وآفاقُ الفضاءِ.

وإنَّ من المستحيلِ على ورقةٍ كهذه، محدودةِ المساحةِ والهدفِ، رسمَ صورةٍ - ولو في إجمالٍ شديدٍ- عن الجانبِ العقليِّ في تُراثِ الإمامِ.

ولكن ستبلغُ هذه الورقةُ هدفَها إن استطاعَت أن تضعَ يدي القارئِ على أبرزِ قسماتِ هذا الجانبِ، وأظهرِ ملامِحِه.

وأرجو ألا يكونَ من بابِ المصادرةِ على المطلوبِ المبادرةُ بالقولِ بأنَّ الفلسفةَ العقليَّةَ عند الأستاذِ الإمامِ هي -تحديدًا- فلسفةُ العقلِ، وقيمتُه وقدرُه في دينِ الإسلامِ، وأنَّ هذا الدينَ القيِّمَ هو الذي أمدَّ هذا الفيلسوفَ الذَّكيَّ بأمضى سلاحٍ، نازلَ به خصومَه من المسلِمينَ المقلِّدينَ، ومن الغربيِّينَ النَّاقدينَ على سواء.

وقد كان للشَّيخِ في هذا المجالِ مناظراتٌ عقليَّةٌ، من أدقِّ وأهمِّ ما عرَفَه تاريخُ الحوارِ بين المسلِمينَ وغيرِهم، وهو الآن من أحوجِ ما يحتاجُه القارئُ المسلمُ في أيامِنا هذه.

وكثير مما فاضَت به قريحةُ هذا العبقريِّ كان يكتبه وكأنَّه يكتُبُ عن الدَّعاوَى التي تبثُّها -الآن- قنواتُ الفضاءِ، وصفحاتُ الجرائدِ والكتُبُ والمجلَّاتُ، وتنهالُ على عقليَّةِ المُسلمِ ووعيِهِ، من شرقٍ وغربٍ، ومن شمالٍ وجنوبٍ . . حتَّى لكأنَّ القضايا هي القضايا، والدَّعاوى هي الدَّعاوى!!

وفي الصفحاتِ التَّاليةِ تحاولُ هذه الورقةُ بيانَ شيء من جانبِ هذه العقليَّةِ الإبداعيَّةِ، وذلك في مجالينِ مُحدَّدينِ، هما: مجالُ علمِ الكلامِ ممثَّلًا في «رسالةِ التَّوحيدِ»، ومجالُ المناظراتِ، ممثَّلًا في ردِّ الشَّيخِ على خصومِ الإسلامِ.

رسالةُ التَّوحيدِ تمثِّلُ فلسفةَ الإمامِ الكلاميَّة:

وتُعدُّ «رسالةُ التَّوحيد» للإمامِ محمَّد عبده النَّصَّ الوحيدَ الموثَّقَ، الذي يُبحثُ فيه عن فلسفةِ الإمامِ الكلاميَّةِ، ورؤيتِه الجديدةِ ومدى تقيده بعلمِ الكلامِ التَّقليديِّ أو تأثُّرِه به، وإلى أيِّ مدًى كان هذا التقيد أو التَّأثُّرُ، وهل كانت رسالةُ التَّوحيدِ تَجديدًا لعلمِ الكَلامِ أو تَجريدًا وتَهذيبًا لهذا العِلمِ . . . إلخ هذه الأسئلةِ التي تَطرَحُ نفسَها وتُواجِهُ الباحِثَ بصورةٍ أو بأُخرى.

ونقولُ: إنَّ رسالةَ التَّوحيدِ هي النَّصُّ الكلاميُّ الوحيدُ في تراثِ الشَّيخِ؛ لأنَّه يَعتزُّ بها أُسلوبًا وصياغةً، وتبويبًا وترتيبًا، وسيرًا من المقدِّماتِ إلى المطالبِ، ومنهجًا لا يُعوِّلُ فيه إلا على صحَّة الدَّليلِ، وقد نبَّهنا الإمامُ في مقدِّمةِ رسالةِ التَّوحيدِ إلى أنَّ هذه الرِّسالةَ تجيءُ «على خلافِ ما عُهِدَ من هيئةِ التَّأليفِ حتى في طريقةِ الاستِدلالِ» وهذا ما نفهمُه من وصفه لرسالتِه بأنَّها: «أمالي مختلفة . . . في أسلوبٍ لا يَصعُبُ تناولُه، وإن لم يُعهَد تداولُه: تمهيدُ مقدِّماتٍ، وسيرٌ منها إلى المطالبِ، من غيرِ نظرٍ إلَّا إلى صحَّةِ الدَّليلِ، وإن جاء في التَّعبيرِ على خلافِ ما عُهِدَ من هيئةِ التَّأليفِ، راميًا إلى الخلافِ من

مكانٍ بعيدٍ، حتى قد لا يُدركُه إلا الرَّجلُ الرَّشيدُ»[١].

وكما قال الإمامُ فإنَّ رسالةَ التَّوحيدِ هي في الأصلِ دروسٌ أُلقِيَت على الطُّلابِ في إحدى مدارسِ بيروت، في صورةِ إملاءاتٍ يُقيِّدُونها في دفاترهم، غيرَ أنَّ الشَّيخَ لم يكُن ليحتَفِظَ لِنفسِه بشيءٍ مدوَّنٍ من هذه الإملاءاتِ، ولذلك لما غادَرَ بيروتَ إلى القاهرة سنةَ ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م) نسِيَ الشيخُ ما أملاه ولم يعُد يَذكُرُ منه شيئًا، فقد تَرَكَ وظيفةَ التَّعليم، وانشَغَلَ بمهامَّ أُخرى صَرَفته عن التَّفكيرِ فيما أملاه في هذا العلمِ، ثُمَّ عاودَه الحنينُ إلى الاشتغالِ بهذا العلمِ مرَّةً أخرى، لأنَّه -كما يقولُ-: «رُكنُ العلمِ الشَّديدُ»[٢]، فطلَبَ من أخيه «حمودة بك عبده» -الذي كان ما يزال تلميذًا في المدرسة السلطانيَّةِ ببيروت في ذلك العهد- أن يرسلَ إليه نسخةً مما أملاه في هذا الفنِّ، ولما قرأها ووجدها قريبةً من المستوى الذي يطمَحُ إليه، أعمَلَ فيها قَلَمَ التَّصحيحِ والتَّهذيبِ من بسطٍ في بعضِ العباراتِ وتوضيحٍ لما يَغمُضُ من مقدِّماتٍ، وحذفٍ لما رآه فضلةً من القضايا والمسائلِ الكلاميَّةِ، ثُمَّ نَشَرَها بعد ذلك.

ونحن لا نَعلَمُ -على وجهِ الدِّقَّةِ- السَّنَةَ التي انتهى فيها من تحريرِ رسالةِ التَّوحيدِ في صيغتِها النِّهائيَّةِ، وإن كنَّا نَعلَمُ أنَّها كُتِبَت أو أُعِيدَت كتابتُها بعد عودةِ الإمامِ من بيروتَ إلى القاهرةِ؛ أي بعدَ سنة ١٣٠٦هـ بأعوامٍ غيرِ قليلةٍ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ هذه الرِّسالةَ طُبِعَت في حياة الأستاذِ الإمام، وصدَرَت عن المطبعةِ الأميريَّةِ سنةَ ١٣١٥هـ، وهي الطَّبعةُ التي نبَّهَ عليها الأستاذُ محمود أبو ريَّةَ في نهايةِ ما أسماه «الطبعة الثَّانية لرسالةِ التَّوحيد»! وقال: «إنَّنا حافَظنا في نشرِ هذه

(١) رسالة التوحيد، ضمن الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده تحقيق وتقديم، د. محمد عمارة، المجلد الثالث ص ٣٧١، ط دار الشروق، القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٢.

الرِّسالةِ على النَّصِّ الأصليِّ لها كما بدأَ في الطَّبعةِ الأولى التي صدَرَت عن المطبعةِ الأميريَّةِ في سنة ١٣١٥هـ . . . بغيرِ أن نَنقُصَ منها حرفًا»[١].

ويؤيِّدُ هذا التَّاريخَ تقريظُ الشَّيخِ سعيد الخوري الشرتوني الكاثوليكي -لرسالة التَّوحيد- في كتابٍ بَعَثَ به إلى الإمامِ يقولُ فيه: «. . . وردتني هديتُكم التي كشفتُم بها عارَ العَصرِ، وجلبتُم له بها الفخرَ، وهي مؤلَّفُكم الفَريدُ في علم التَّوحيدِ . . . إلخ»، وتاريخ هذا الخطاب هو: ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦هـ[٢].

وأيضًا تقريظٌ آخَرُ للشَّيخِ سَليم بوحاجب من تونس بعَثَ به إلى الإمام بتاريخ: ٧ شوال ١٣١٧هـ، يقولُ فيه: «فقد وصلني . . . ما أتحفتُمونا به، بل سائر الأُمَّةِ، وهو تلك الرِّسالةُ الغرَّاءُ المهمَّةُ، التي هي الملاكُ الوحيدُ، للحصول بسهولةٍ على ما يَلزمُ استحضارُه من علم التَّوحيدِ. . .»[٣]، ويبدو أنَّ الرِّسالةَ طُبِعَت في حياة الإمامِ مرَّتينِ مرَّةً في سنة ١٣١٥هـ، والأخرى سنة ١٣١٧هـ، ويقوِّي هذا الزَّعمَ أنَّ الدكتور محمَّد عمارة في تحقيقِه القيِّمِ للأعمالِ الكاملةِ للإمام محمد عبده يَذكُرُ رسالةَ التَّوحيدِ كمُصنَّفٍ من مصنَّفات الفترةِ الأخيرةِ في حياة الإمامِ، والتي بدأت من ١٨٩٩ وحتى وفاتِه عامَ ١٩٠٥م[٤]، وهو ما يوافقُ سنةَ ١٣١٥هـ.

وبذلك يثبُتُ على وجهِ اليَقينِ أنَّ «رسالةَ التَّوحيدِ» طُبِعَت لأوَّلِ مرَّةٍ سنةَ

(١) رسالة التوحيد، تأليف الأستاذ الإمام محمد عبده ص ١٨٩، ط دار المعارف، مصر.

(٢) انظر رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١: ٧٨١، دار الفضيلة - القاهرة، ٢٠٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ٧٨٤.

(٤) د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة، ١: ٣٤، ٣٥. (٢) عباس محمود العقاد: عبقري الإصلاح والتعليم: الإمام محمد عبده، ص ٢٢٢ (سنوات في تاريخ الأستاذ الإمام) دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١.

١٣١٥هـ وذلك قبلَ وفاةِ الإمامِ بسبعِ سنواتٍ على الأقلِّ.

وأيًّا ما كان الأمرُ؛ فإنَّ رسالةَ التَّوحيدِ هي النَّصُّ الوَحيدُ الذي يستَطيعُ الباحثُ -من خلالِه- التَّعرُّفَ على أبرزِ القسماتِ الكلاميَّةِ في فكرِ هذا الشَّيخِ العِملاقِ، والذي شغَلَ بعبقريَّتِه وتأمُّلاتِه -التي لم تُخطئ- في ضميرِ المُستقبلِ كُلَّ نُخَبِ الفِكرِ والثَّقافةِ التي جاءت بعدَه، على مختلفِ مشاربِها وأذواقِها بل وعقائدِها.

تجديدُ الإمامِ لعلمِ الكلامِ:

يرى كثيرٌ من الباحثين في تاريخِ الأستاذِ الإمامِ أنَّ تجلِّياتِ عبقريَّتِه الكلاميَّةِ قد استقلَّت بها رسالةُ التَّوحيدِ، وأنَّ الباحثَ عن تَجديدِ الإمامِ في هذا الحقلِ عليه أن يولِّيَ وجهَه شطرَ ما سطَّرَه في هذه الرِّسالةِ.. وقد تأيَّدَ هذا الاتِّجاهُ بعد ما استطاعَ المنهجُ النَّقديُّ الدَّاخليُّ للنُّصوصِ زعزعةَ الثِّقةِ في نسبةِ نصِّ التَّعليقاتِ ونصِّ رسالةِ الوارداتِ إلى الأستاذ الإمام.. وكم كُنَّا نتمنَّى أن تثبُتَ نسبةُ هذين النَّصَّينِ -البالغين غايةَ الدِّقَّةِ والعمق- إلى الإمام، فإنَّ فيهما أنظارًا كلاميَّةً وفلسفيَّةً تقِفُ قُبالةَ أنظارِ الإيجي والعلَّامةِ الدَّوَّانيِّ والشَّيخِ الرَّئيسِ ابن سينا وابنِ عربي قامةً بقامةٍ ورأسًا برأسٍ: قبولًا ورفضًا وتعديلًا وتوجيهًا.. وفي هذا المستوى فإنَّ الأستاذَ الإمامَ يستحقُّ - لو لم يشكَّك في نسبةِ الكتابينِ إليه - أن ينتزِعَ لقبَ: «حكيم الشَّرق» أو «فيلسوف الشَّرق» من أستاذِه، دونَ أدنى منازعةٍ ولا مغالبةٍ.

ورسالةُ التوحيدِ ليست هي المجلى الوحيدَ، ولا الأتمَّ للتعرُّفِ على مظاهر التجديدِ في هذه الرِّسالة عندَ الشَّيخِ محمَّد عبده، وذلك إذا ما قارنَّا عملَه في هذه الرِّسالة لمناظرتِه التي ردَّ فيها على الوزير الفرنسيِّ هانوتو ونُشرَت تحت عنوانِ: «الإسلامُ والمسلمون والاستعمارُ» أو مناظرتِه التي ردَّ فيها على فرح أنطون صاحبِ مجلَّةِ «الجامعة» بعنوانِ: «الاضطهادُ في

النَّصرانيةِ والإسلامِ»(١) . . ففي هاتينِ المناظرتين تتجلَّى عبقريةُ الإمامِ في الردِّ على خصومِه، وبما يعكِسُ تضلُّعَه من علوم: الفلسفةِ والتَّوحيدِ والمنطقِ أولًا، ثمَّ من علوم: التَّاريخِ والأديانِ والاجتماع ثانيًا . . وبحيث يمكِنُ القولُ بأنَّ «رسالة التَّوحيد» بكلِّ ما تتضمَّنُ من نظرةٍ تجديديةٍ لم تكُن في حَميَّة هذه المناظراتِ إلَّا «مادَّةً» وظَّفَها الإمامُ بكلِّ اقتدارٍ في الدفاع عن الإسلامِ: عقيدة ونظامًا، وبصورةٍ مكَّنته من انتزاع إعجابِ القرَّاءِ المسلمين والمسيحيين أنفسِهم، وذلك برغم الوشيجةِ القويةِ التي تربطُهم بكلٍّ من هانوتو وأنطون.

ونكتفي في هذا المقامِ بما جاء في رسالة «جاد أفندي عيد» -أحدِ أدباءِ المسيحيين- إلى «عبد القادر بك القباني» صاحبِ جريدةِ «ثمرات الفنون» من حديثٍ عن ردِّ الإمامِ على هانوتو، يقولُ فيه: «ولم يكُن لردِّ الإمام الوقعُ العظيمُ في نفوسِ المسلمين فقط، بل إنَّ كثيرين من أفاضلِ النَّصارى قد أجلُّوه كثيرًا، وأحلُّوه محلًّا كريمًا، ولا أُبالغُ إذا قلتُ لسعادتكم: إنَّني قرأتُه أكثرَ من عشرين مرَّةً»(٢).

إنَّ عبقريَّةَ التجديدِ عند الإمامِ تبدو للمتأمِّلِ في «رسالة التوحيد» كما تبدو له في مناظراتِه الفلسفيَّةِ الشهيرةِ لمفكِّري أوروبَّا وعلمائها، وإن كانت المناظراتُ -فيما أرى- هي المجلى الأتمَّ الذي يظهرُ فيه استخدامُ الإمامِ لعلم الكلام وعلومِ النَّظر استخدامًا أعمقَ وأدقَّ.

ولعلَّ من المفيد في توضيحِ هذه المسألةِ أن نَعرِضَ لصورِ هذا التَّجديد في «رسالة التوحيدِ» ثم في الأصولِ العقليةِ التي استنَدَ إليها الإمامُ في منازلةِ

(١) لمزيد من المعلومات عن ردود الإمام على هانوتو وأنطون . . انظر د . محمد عمارة: الأعمال الكاملة، ٣: ٢١٧- ٢٥١، ٢٥٩ - ٣٦٨، انظر أيضًا رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، جـ ١ (القسم الثاني) ص ٧٩٩- ٨١٦، جـ٢: ٤٠٠- ٤٦٨.

(٢) رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، جـ ١ (القسم الثاني) ص ٨٠٣.

الخصومِ ومناظرتِهم، وكلُّ ذلك في إطار ما تسمَحُ به حدودُ هذه الورقةِ.

التجديدُ في رسالة التَّوحيد:

تبدأُ رسالةُ التوحيد بمقدِّماتٍ عرَضَ فيها الإمامُ لتعريف علمِ التوحيد، وسببِ تسميتِه بعلم الكلام، ثمَّ انتقلَ مباشرةً إلى طرحِ قضايا لا يطرَحُها المتكلِّمون عادةً في مقدِّماتِ مصنَّفاتِهم، ورغمَ أنَّ هذه القضايا لم يطرَحْها الإمامُ بصورة مرتَّبةٍ ومنظَّمةٍ -كما توقَّعنا من عنوانه السابق: «مقدِّمات»- فإنَّ بإمكاننا أن نخلُصَ إلى أنَّ أهمَّ هذه القضايا هي هذه التفرقةُ بينَ منهجِ القرآنِ الكريم في بيان العقيدةِ ومنهجِ الأديان السابقةِ، وفي هذا المقامِ يقرِّرُ الإمامُ أنَّ علمَ التوحيد -بمعنى علم تقريرِ العقائد وإثباتِ ما جاءت به النبوَّاتُ- علمٌ مشتركٌ بين المسلمين والأممِ السابقة على الإسلام، والفرقُ أنَّ القائمين على أمر الأديانِ السابقةِ لم يَحفِلوا بالدَّلائل العقليةِ ولا الدَّلائل الكونيةِ المحسوسةِ في بيان العقائدِ، وإنَّما كانت دعواتُهم لعقائدهم في وادٍ، ومنازعُ العقولِ في العلم في وادٍ آخرَ، بل ربما جاءت دعواتُهم على النَّقيض من أوليَّاتِ العقلِ وضرورياتِه: «وكثيرًا ما صرَّحَ الدِّينُ على لسان رؤسائِه أنه عدوُّ العقلِ: نتائجِه ومقدِّماتِه، فكان جُلُّ ما في علوم الكلام تأويلًا وتفسيرًا وإدهاشًا بالمعجزات أو إلهاءً بالخيالات، يعلَمُ ذلك مَن له إلمامٌ بأحوال الأممِ قبلَ البعثة»[١].

وفي مقابل هذا النَّهجِ يضَعُ الإمامُ النَّهجَ الجديدَ الذي جاء مع القرآنِ الكريمِ في بيان الدِّينِ، ومَعقِدُ الجِدَّةِ في هذا النَّهجِ أنه مستمرُّ الدَّلالةِ، متواصِلُ البرهنةِ، سواءٌ بالنسبة لمن عاشَ في عصر نزولِ القرآنِ أو لمن جاء بعده على اختلاف الزَّمانِ والمكانِ.. ومن طبيعة هذا النَّهجِ أنه لا يَحفِلُ -

(١) «رسالة التوحيد»: ٣٧٤ (ضمن المجموعة الكاملة).

في الاستدلال على نبوَّةِ محمَّد ﷺ- بما عُهِدَ من استدلالاتٍ على النبوَّات السابقةِ، ولا يُعوِّلُ كثيرًا على الخوارق الحسِّيَّةِ التي يتبدَّدُ أثَرُها من نفوس المؤمنين إذا ما طالَ عليهم الأمَدُ.

وهنا يُبرزُ الإمامُ إعجازَ القرآنِ الكريمِ - في بلاغته وفصاحته وتحدِّيه للبلغاء والعظماء- كبرهانٍ على صدق النُّبوَّة، وأنَّه -رغمَ إعجازه- لم يطلُب الانقيادَ الأعمى لما يقرِّره، بل عوَّلَ على الدَّعوى والبرهانِ في مجادلة المخالفين ونقضِ دعاواهم وحفْزِ الفكرِ ولفتِ أنظارِ العقولِ إلى نظام الكونِ وما فيه من إحكامٍ وإتقانٍ، حتى، وهو يقُصُّ علينا أنباءَ السابقين وأحوالَهم، يقرِّرُ أنَّ للخليقةِ سنَّةً لا مجالَ فيها لتغيير ولا تبديل . . وهكذا «تآخى العقلُ والدِّينُ لأول مرة في كتاب مقدَّسٍ، على لسان نبيٍّ مرسَلٍ، بتصريحٍ لا يقبلُ التأويلَ، وتقرَّرَ بين المسلمين كافَّةً -إلا من لا ثقةَ بعقله ولا بدينه- أنَّ من قضايا الدِّينِ ما لا يمكِنُ للعقل الاعتقادُ به إلَّا من طريق العقلِ، كالعلم بوجودِ اللَّه، وبقدرته على إرسال الرُّسلِ، وعلمِه بما يوحي بهم إليه»[(١)] .

وهذا الذي يقرره الإمامُ من رفعة مقامِ العقل في دين الإسلامِ، وحجِّيَّتِه المطلقةِ في ابتناء قاعدةِ الإيمان باللَّه تعالى- ليس جديدًا في متون علم الكلام، وقد ألمحَ الشيخُ إلى ذلك في نصِّه السابق، فقد تقرَّرَ من قبلُ عند الجويني والغزالي والدَّوَّاني والإيجي والتفتازاني، وقبلَ هؤلاء: عند المعتزلة عن آخرهم - أنَّ العلمَ بحدوث العالَم ووجوبِ الصانع ووجوبِ قدرتِه وعلمه وإرادته، كلُّ ذلك لا يثبُتُ إلَّا عن طريق العقلِ، وأنَّ هذه العلومَ إذا لم تثبُت أولًا فمن المستحيل أن يثبُتَ شرعٌ قبلَها أو معها؛ إذ مَبْنَى ثبوتِ الشرع برُمَّتِه قائمٌ على خبر اللَّه تعالى، أو ما يسمَّى بالكلام النفسي، وعليه

(١) السابق: ٣٧٤، ٣٧٥.

فإنَّ كلَّ الأصول التي تسبِقُ الكلامَ النفسيَّ مثلَ وجودِ اللَّه تعالى وقدرتِه وعلمِه وإرادته- يستحيلُ إثباتُها بالكلام الإلهي.

يقولُ الإمامُ الغزاليُّ: «أما المعلومُ بدليل العقل دونَ الشرعِ فهو حدوثُ العالَمِ ووجوبُ المحدِثِ وقدرتِه وعلمِه وإرادتِه؛ فإنَّ كلَّ ذلك ما لم يثبُت لم يثبُت الشرعُ، إذ الشرعُ يُبنى على الكلام، فإن لم يثبُت كلامُ النَّفس لم يثبُت الشَّرعُ، فكلُّ ما يتقدَّمُ في الرُّتبة على كلام النفسِ يستحيلُ إثباتُه بكلام النَّفس»(١).

ويقولُ في موضع سابق، في مَعْرض الاستدلال على صفة الكلام: «ومَن أرادَ إثباتَ الكلامِ بالإجماع أو بقول الرسولِ فقد سامَ نفسَه خطَّةَ خسفٍ»(٢).

ويُستخلصُ من نصوص المتكلِّمين في هذا الأصل أنَّ الاستدلالَ على وجود اللَّهِ تعالى وعلى كثير من صفاته كالقدرة والعلم والإرادة والكلام، ليس لثبوتِه من طريقٍ غيرِ طريق العقلِ، وأنَّ شيئًا من ذلك لا يمكِنُ أن يثبُتَ من طريق الشرعِ؛ لأنه لو ثبَتَ بالشرع فهذا يعني أنَّ مصدرَ ثبوتِه هو الكتبُ الإلهيةُ أو أقوالُ الأنبياءِ، ويلزَمُ على ذلك أن يكونَ المؤمنُ قد صدَّقَ بكلام اللَّه قبلَ أن يصدِّقَ بوجود اللَّه؛ لأنَّ التصديقَ بوجود اللَّه من طريق القرآنِ أو الحديثِ -مثلًا- يستلزِمُ بالضرورة سبقَ الإيمانِ بالقرآن والحديث على الإيمان باللَّه، مع أنَّه يلزَمُه التصديقُ باللَّه أولًا ليستقيمَ له التصديقُ بكلام اللَّه بعدَ ذلك، وهكذا لو ابتُنيَ أصلُ الإيمان باللَّه على الشرع؛ فإنَّ فكرةَ الدَّورِ الباطلِ تصبحُ علَّةً قادحةً في صحَّة الدَّليل، ويصبحُ ثبوتُ الوجودِ الإلهيِّ متوقِّفًا على ثبوت الشرع، بينما ثبوتُ الشرعِ متوقِّفٌ هو بدَوره على ثبوت الوجود الإلهيِّ، وقِسْ على ذلك كلَّ الصِّفات التي تسبِقُ صفةَ الكلامِ بالمعنى النفسيِّ.

(١) «الاقتصاد في الاعتقاد»: ١٧٦، مكتبة الجندي، مصر ١٩٧٢.
(٢) السابق: ١٠٢.

ولذلك أجمعَ المسلمون كافَّةً، إلا مَن لا ثقةَ بدينه وعقله، كما يقولُ الإمامُ محمد عبده، على أنَّ إثباتَ الوجودِ الواجبِ، وصفاتِه الكماليةِ غيرِ السمعية، لا يتأتى إلا من قِبل دليل العقل، نظرًا لأن ثبوت الشرع ليس له من طريق إلا طريقَ العقلِ، ومَن رامَ إثباتَه بالإجماع أو بقول الرَّسول فقد رامَ محالًا كما قال الغزاليُّ؛ لأنَّ الإجماعَ نفسَه لا يثبُتُ إلا بعد ثبوتِ قولِ الرسولِ، إذ هو مستنِدٌ إليه ومبنيٌّ عليه.

إذا أضَفْنا إلى التأصيل السابقِ ما ألمحَ إليه الإمامُ محمد عبده -في إشارة سريعة- من أنَّ العقلَ إذا كان هو الأساسَ الذي يُبتنَى عليه أصلُ الألوهيةِ، فمن المنطقي أن يقدَّمَ العقلُ ويُؤولَ النَّقلُ في كلِّ مسألة يبدو فيها ظاهرُ النَّصِّ متعارضًا مع العقل.. وهذه القاعدةُ أشبهُ بفرع يُبتنَى على التأصيل السابق، وهو أصلُ الألوهيةِ والنبوَّةِ، إذ العقلُ بعدما ثبَتَت له هذه المنزلةُ الكبرى في تأسيس العقيدة، وبعدما أصبح قاضيًا في أخطر الأصولِ وأعظمها شأنًا في الإسلام- فبالضرورة تثبُتُ له هذه المنزلةُ في كلِّ حُكمٍ من أحكام الخطابِ الشرعيِّ، وعلى أيِّ مستوى من مستوياته، وبحيث تطَّرِدُ له الأولويةُ في التوجيه والترجيح، فإذا بدا أنَّ النصَّ لا يجري مع العقل في مضمار واحدٍ فإنَّ أولويةَ الترجيحِ تكونُ حينئذٍ لمنطق العقلِ وأحكامِه، ثم يؤوَّلُ النصُّ ويفسَّرُ بما يتَّفِقُ والعقلَ في نهاية الأمر.. فإن لم يمكِن التأويلُ بقيَ النصُّ في منزلة متعالية فوقَ العقلِ وفوق أحكامِه وقضاياه، وحينئذٍ يفوَّضُ العلمُ فيه إلى اللَّه تعالى.. على أنَّ علوَّ النصِّ فوقَ العقلِ -في أمثلة نادرة- لا يعني بحال أنَّ هذه الأمثلةَ تضادُّ العقلَ أو تصطدمُ مع أولياته وثوابته، فهذه المفارقةُ مرفوضةٌ شكلًا وموضوعًا في دين الإسلام، وسواءٌ في ذلك النصوصُ التي تؤصِّلُ العقيدةَ، أم النصوصُ التي تؤصِّلُ الشريعةَ وأحكامَها في العبادات

والمعاملات والأخلاق، والإجماعُ منعقِدٌ -كما يقولُ الإمامُ-: «على أنَّ الدِّينَ إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكِنُ أن يأتيَ بما يستحيلُ ضدَّ العقلِ»(١).

ومرَّةً أخرى لا نجدُ جديدًا فيما ذهبَ إليه الإمامُ من تقرير القاعدة العامَّةِ، قاعدةِ تقديمِ العقلِ وتأويلِ النصِّ، فقد أُشبعَ الكلامُ فيها -من قديم- تأصيلًا وتدليلًا ودفاعًا، ومن أبرز المنافِحين عنها الإمامُ الكبيرُ فخرُ الدِّينِ الرازيُّ، الذي اكتمَلَت على يديه هذه القاعدةُ وأخَذَت في كتبه الكلامية وغير الكلامية صورتَها النِّهائيةَ، وصارت في مناظراته: «القانونَ» الذي يحكمُ أمرَ العلاقةِ بين العقلِ والنصِّ في المتشابهاتِ ومشكِلِ القرآنِ والحديثِ، وكثيرًا ما جعلَها في بعض كتبه عنوانًا على أحد الفصول، فمثلًا يعنونُ الفصلَ الثانيَ والثلاثين من كتاب: «**أساس التقديس في علم الكلام**» بقوله: «في أنَّ البراهينَ العقليةَ إذا صارت معارضةً بالظواهر النَّقلية فكيف يكونُ الحالُ فيها؟»(٢).

وفي هذا الفصل يبيِّنُ الرازيُّ أنَّ دلائلَ العقولِ إذا دلَّت على ثبوت شيء وأشعرَت ظواهرُ الأدلَّةِ النقليةِ بنقيض ذلك، فإنَّ العلاقةَ بينهما لا تخرجُ عن أحوال أربعةٍ: إمَّا تصديق ما يثبِتُه العقلُ ويثبِتُه الشرعُ معًا، وهذا أمرٌ محالٌ، لأنَّه تصديقٌ باجتماع نقيضينِ، وكذلك تكذيبُ الأمرين معًا، لما فيه من ارتفاع النَّقيضينِ، وهو محالٌ كذلك .. فبَدائهُ العقولِ تقضي بأنَّ النقيضين لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا.

(١) رسالة التوحيد: ٣٧٥ .. ومن الأمثلة على ذلك إنكارُ موسى عليه السلام لما فعلَه العبدُ الصالحُ من خرقٍ للسفينة وقتلِ الغلامِ وإقامةِ الجدارِ، فقد بدا كلُّ ذلك في حكم العقل مذمومًا ومرفوضًا عند العقلاء، ولكن حين كُشفت له حقائقُ هذه الظواهرِ بانَ له وجهُ الحُسنِ فيها، وأنَّ ما ظنَّه من قبلُ قبيحًا فهو بسبب اختلاف منزلتينِ وتفاوتِ مرتبتينِ.

(٢) ط الحلبي ١٩٣٥، ص ١٧٢، ١٧٣.

ثم يبقى احتمالانِ لا ثالثَ لهما: أوَّلُهما: تصديقُ النَّقلِ وتكذيبُ العقلِ، وتحت هذا الاحتمالِ مشكلاتٌ كبرى تكرُّ بالنَّقض والبطلانِ على العقل والشرع جميعًا؛ ذلك أنَّ صحَّةَ الظواهرِ النَّقليةِ تتوقَّفُ معرفتُها أولًا على ثبوت أصولٍ لا مفرَّ منها، وهي ثبوتُ الصانعِ وصفاتِه، وبخاصَّة صفةَ الكلامِ، وكيفيةَ دلالةِ المعجزةِ على صدق الرسول الذي أُخذَت عنه هذه الظواهرُ، وكلُّ هذه الأصولِ موقوفةٌ على الدلائل العقلية كما عرَفنا من قبلُ، فلو كُذِّبَ العقلُ وأُجريَ النصُّ على ظاهره فهذا طعنٌ في العقل وقدحٌ في أحكامه وقضاياه، ويلزَمُ ذلك -ضرورةً- أنني ارتضيتُ طريقًا مطعونًا عليه في إثبات وجود اللَّه وصفاته وتصديقي بكتبه ورسله، على أنَّ اتِّهامَ العقلِ في حال دلالته المتعارضةِ مع ظاهر النصِّ يفتحُ الأبوابَ على مصاريعها لاتهامِه في دلالتِه على التصديق باللَّه وبكتبِه ورسله؛ لأنه إذ أمكنَ تكذيبُه في حال فإنَّ تكذيبَه في أحوال أخرى أمرٌ واردٌ، وإذًا فما الذي يضمَنُ لي أنَّ تصديقي باللَّه وكتبِه ورسله كان صحيحًا إذا كان الطريقُ الذي أوصلني إليه غيرَ موثوقٍ فيه؟! وهنا يقولُ الرازيُّ: «إنَّ القدحَ في العقل لتصحيحِ النقل يُفضي إلى القدحِ في العقل والنَّقل معًا»[(١)].

فلم يبقَ إذًا إلا الاحتمالُ الأخيرُ وهو العملُ بمقتضى الدلائل العقليةِ القاطعةِ مع تأويل النُّصوص المتعارضة في ظواهرها مع هذه الدلائل، أو تفويضِ العلمِ فيها للَّه تعالى، وهذا الوجهُ هو ما يطلِقُ عليه الرازيُّ «القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهاتِ»[(٢)].

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٢.

(٢) السابق: ١٧٣. هذا القانونُ حملَ ابنَ تيميةَ على تصنيف كتاب كبير بعنوان: «**بيانُ موافقةِ صريح المعقول لتصحيح المنقول**»، وتصدَّى فيه لإبطال قاعدةِ التأويلِ التي استقرَّت قبلَه في التراث العقلي بقرون عدَّة.. على أنَّ محاولتَه في كتابه هذا لم تنتهِ إلى نتيجةٍ تنقضُ هذا القانونَ من الأساس؛ فلم يصرِّح ابنُ تيميةَ رغمَ نقدِه العنيف للرازي بالقول بتقديم ظاهرِ =

ولعلَّني لا أُجاوزُ طَورَ المعقولِ لو ذهبتُ إلى القول بأن مفتاحَ فلسفةِ الإمامِ محمد عبده يكمُنُ في هذين الأصلين العقليَّين اللَّذين وقعَ عليهما الإمامُ في تراث المسلمين العقليِّ، ووجَدَ فيهما ما يُترجمُ عن شخصيَّتِه العقلانية التي لا تنتمي إلى مذهب كلاميٍّ بعينه، ولا إلى مدرسة فلسفيَّة بعينِها، كما أنَّها لا تنطلقُ من مسلَّمات مذهبيةٍ ولا من أصولٍ موضوعةٍ وضعًا، ما إن يبدأُ منها حتى تسيطرَ عليه وتُجَمِّدَ رُؤاه في أنساق وأُطر مذهبِه، ولعلَّ شخصيَّتَه العقليةَ في تحرُّرها وانفتاحها على كلِّ المذاهب والمدارس تُذكِّرُنا بشخصيَّته الإنسانيةِ التي عالجَها المفكِّرُ العملاقُ: العقَّادُ، تحتَ عنوان: «شخصيَّةٌ ولا شخصيَّة» وقال فيما قاله عنها: «كأنَّنا نحسُّ بعد التوسُّع في المعرفة بشخصيَّته أنَّها شخصيةٌ ولا شخصية، أو أنَّ أعمالَه الخاصَّةَ هي أعمالُه العامَّةُ. . . فكلُّ

= النصِّ على دليل العقلِ في حالة التعارضِ، وما كان له أن يقولَ ذلك أو يقبلَه بحال . . لكنه حاولَ أن يزيلَ إمكانَ التعارضِ -أصلًا- بين العقلِ الصريحِ والنَّقلِ الصحيحِ، فطعَنَ في التأويل كما عرَضَه الرازيُّ، وتناولَ بالنَّقد المقدِّماتِ الثلاثَ التي هي: ثبوتُ التعارضِ بينهما، وانحصارُ القسمةِ في الأقسام الأربعة، وبطلانُ الأقسامِ الثلاثةِ الأولى، وانتهى إلى أنَّ هذه المقدِّماتِ باطلةٌ، وأنَّ الشرعَ الصحيحَ أمرٌ قطعيٌّ، وبقطعيَّته لا يتأتَّى له أن يَعرِضَ العقلَ الصريحَ . . والكتابُ كلُّه بأجزائه التسعة ردٌّ لعبارة الرازي السابقة، والتي قسَّمَ فيها الأمرَ إلى الاحتمالات الأربعة . . وقد طمحَ ابنُ تيميةَ في كتابه هذا إلى إزالة أيِّ تعارضٍ بين العقلِ والنَّقلِ، وعرضَ من منظوره هذا كلَّ الخلافياتِ الكلاميةِ التي يثورُ حولها الجدلُ بينَ مدرسةِ العقليين المؤوِّلين بقيادة الرازيِّ وبين مدرسةِ النصِّيِّين، لكن يمكِنُ القولُ بأنه رغم ما بذلَه ابنُ تيميةَ من حجاج دقيق وعميق فإنَّ أمرَ اعتلاءِ النصِّ -في بعض الأحيان- على طاقات العقلِ ظلَّ كما هو حقيقةً ثابتةً استعصَت على كل محاولاتِ دَرءِ التعارضِ بينهما . . ولعلَّ انطلاقَ ابنِ تيميةَ من منظور الموافقةِ والمطابقة هو الذي أوقعَه فيما أخذَه عليه خصومُه من مؤاخذات، وبخاصَّة: مؤاخذةَ التجسيم والتشبيهِ؛ لأنَّ الذي يُلغي المجازَ في القرآن، ولا يفوِّضُ في المتشابهات، ثم يُجري النصوصَ المتشابهةَ على ظواهرها لا يسَعُه إلا قبولُ ظواهرِ النصوصِ بكلِّ ما توهِمُ به هذه الظواهرُ من تشبيه وتجسيم ترفضُه دلائلُ العقلِ الصريحِ.

ما فيها من بواعث الأنانيةِ والأَثَرةِ فهو فيها جنبًا لجنب إلى بواعث الإنسانيةِ والإيثارِ»[(١)].

وما يقولُه العقَّادُ عن شخصيةِ الإمامِ الإنسانيةِ يقالُ مثلُه عن شخصيته الفكريَّةِ، وبحيث يمكِنُ وصفُه بأنه فيلسوفٌ أو متكلِّمٌ مستقلٌّ وغيرُ مستقلٍّ في الآن نفسِه، فهو مستقلٌّ حين يطالعُنا بهذا النسيج التجديدي الذي لم ينسِج فيه على منوال سابقٍ، وهو غيرُ مستقلٍّ حين نُمعِنُ النظرَ في خيوط هذا النسيج فنرى فيها طائفةً غيرَ قليلةٍ تضرِبُ في جذور التراث، وإن ظلَّ الباحثُ المتأمِّلُ دهشًا أمامَ عبقريةِ التوظيفِ، أو إعادةِ الإنتاجِ - إن صحَّ مثلُ هذا التعبيرِ!

إنَّ المنطلقَ العقليَّ الذي يستعلِنُ في كتابات الإمام الكلاميةِ والفلسفيَّةِ، والتي قعَّدَ فيها منذ البداية ابتناءَ الأصولِ الكبرى في الإسلام على الدَّليل العقلي؛ كالوجود الإلهي والصِّفات وتصديق الرُّسل، وتقديم أدلَّةِ العقولِ على ظواهر النصوص المتعارضة - ظلَّ يشكِّلُ الخلفيةَ العقليةَ والإيمانيةَ التي كان يتَّكئُ عليه الشيخُ الفيلسوفُ في أغلب أنظاره ورُؤاه عن الإسلام اعتقادًا ودفاعًا.

وفيما يتعلَّقُ برسالة التوحيد فإنَّه يصعبُ على الباحث -بعد قراءتها- أن يقِفَ بالإمام تحت لافتةِ مذهبٍ كلاميٍّ محدَّدٍ، أشعريٍّ أو معتزليٍّ أو سلفيٍّ... إلخ، وأغلبُ الظنِّ أنه لم يكن يفكِّرُ في أن يختَطَّ لنفسه إنشاءَ مذهبٍ جديدٍ، أو نصرةَ مذهبٍ قديم، مصداقُ ذلك هذه الخيوطُ ذاتُ الألوان المختلفة -والمتباعدة أيضًا- والتي استطاعَ أن ينسجَ منها لوحةً غايةً في الإبداع والاتِّساق، مع أنك لو أخذتَ كلَّ خيطٍ فيها على حِدَةٍ ورجعتَ به إلى موطنه الأصلي فإنك قد تقبلُه، وقد تنكرُه أشدَّ الإنكارِ؛ فمثلًا يجري الإمامُ مع الفلاسفة في طريقتهم على الاستدلال على الواجب بالممكن، ويترسَّمُ

---

(١) عباس العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم: الإمام محمد عبده، ٢١٦، ٢١٧.

خطاهم في قاعدة: «اقتضاءُ وجودِ الممكِنِ لوجود الواجب اقتضاءً ضروريًّا»، متنكِّبًا طريقَ المتكلِّمين في إثبات الصَّانع، وهو طريقُ: «الحدوث»، لكن سرعانَ ما يفارقُ الفلاسفةَ في منتصف الطريق، لينضَمَّ إلى المتكلِّمين في القول بأنَّ القدرةَ الإلهيةَ أوجَدَت العالَمَ من عدم، بما يعني أنه يقولُ مع المتكلِّمين بحدوث العالَم، لكنه في الوقت نفسِه لا يكفِّرُ القائلين بقِدَم العالَم.

وحين يعرِضُ لصفةِ القُدرةِ والإرادة والاختيار يفسِّرُها بمقولات المتكلِّمين[١] ويُثبِتُ للَّه تعالى الاختيارَ في الفعلِ، ويَنفي عنه لوازمَ مذهبِ الفلاسفة التي تتأدَّى إلى الاضطرارِ في أفعالِه تعالى، فليس «من أفعالِه ولا من تصرُّفه في خَلقِه ما يصدرُ عنه بالعِليَّةِ المحضةِ والاستلزام الوجوديِّ بدون شُعورٍ ولا إرادةٍ، وليس من مصالحِ الكون ما يلزَمُه مراعاتُه لزومَ تكليفٍ . . . تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا»[٢].

وعنده -كما عند الفلاسفة- أنَّ الكمالَ في الكون إنما هو أثرُ الوجودِ الواجب الذي هو أكملُ الوجوداتِ وأرفعُها، إلا أنه يلتقي مرةً أُخرى

(١) وعبارةُ الإمامِ في هذا الموضع هي: «فيكونُ (العالَمُ حادثًا)، إذِ الحادثُ ما سُبقَ وجودُه بالعدمِ، فكلُّ ممكنٍ حادثٌ إن وُجدَ»، «رسالة التوحيد»: ٣٨٥، وهذه قد لا يُفهمُ منها الحدوثُ الزمانيُّ الذي يَعنيه المتكلِّمون، وربما فُهِمَ منه الحدوثُ الذاتيُّ، كما يقولُ الفلاسفةُ، لكنَّا وجَدنا للإمام نصًّا صريحًا في موضوع آخرَ يقولُ فيه: «وهذا الحدوثُ الثابتُ لجميع أجزاء العالَم أو أجناسه وأنواعِه نريدُ منه الحدوثَ الزمانيَّ وهو المسبوقُ بعدمٍ». (انظر «العقيدة المحمديَّة» للإمام محمَّد عبده ص ٧٧، تحقيق ودراسة د. فتحي أحمد عبد الرازق ط. مصر للخدمات العلمية ٢٠٠٣). وهذا النصُّ الأخيرُ لا يدعُ مجالًا للارتياب في أنَّ مقصودَ الإمام مِن الحادث هو الحادثُ بالذَّاتِ وبالزمانِ . . ويجدرُ التنويهُ بأنَّ هذه العقيدة فرغَ الإمامُ من تأليفها سنةَ ١٢٩٤هـ وتمَّ نشرُها -كما يقولُ هو في نهاية العقيدةِ- في سادس ربيع الأول سنةَ ١٢٩٩هـ؛ أي: قبل تأليفه «رسالة التوحيد».

(٢) «رسالة التوحيد»: ٣٩١.

بمذهبِ الأشاعرةِ في أنَّ أفعالَ اللَّه تعالى لا تُعلَّلُ بالأغراض، وهي في الوقتِ ذاتِه منزَّهةٌ عن العبثِ ويَستحيلُ أن تخلوَ من الأغراضِ، وإن كان تفسيرُه لاستحالة التعليلِ بالأغراض يختلفُ عن تفسيرِ الأشاعرةِ(١).

ويذهبُ الإمامُ في قضيةِ صفةِ «الكلام الإلهي» مذهبَ الأشاعرةِ، فيُثبِتُ قِدَمَ الكلامِ النفسيِّ وحدوثَ الكلامِ المسموعِ المركَّبِ من الحروفِ والمقروءِ بالأصواتِ؛ وهو مذهبٌ مُتوازنٌ يتبنَّاه الإمامُ ليقِفَ به موقفًا وسطًا بين تفريطِ المعتزلةِ في قولِهم بحدوثِ صفة الكلام مُطلَقًا، وإفراطِ الحشويَّةِ في قولِهم بقِدَمِ الكلام الإلهيِّ: النفسيِّ والمسموعِ.

ويَرى الإمامُ أنَّ أصحابَ المذهبِ الأخيرِ لم يكونوا مؤهَّلينَ للحديثِ في مثلِ هذه القضايا، وأنَّ الذي يقولُ «بقِدَمِ القرآن المقروءِ أشنعُ حالًا وأضلُّ اعتقادًا من كلِّ ملَّةٍ جاء القرآنُ نفسُه بتضليلِها والدعوة إلى مخالفتِها»(٢).

ويعتذرُ لموقف الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ بأنه لم يكنْ أبدًا دفاعًا عن القولِ بقِدَمِ الكلامِ المسموعِ، وإنما كان تأدُّبًا وتأثُّمًا من وصفِ القرآن بصفة الحدوثِ، يقولُ الشيخُ محمد عبده: «أمَّا ما نُقلَ إلينا من ذلك الخلافِ الذي فرَّقَ الأمةَ وأحدَثَ فيها الأحداثَ، خصوصًا في أوائلِ القرنِ الثالث منَ الهجرةِ، وإباءِ بعض الأئمةِ أنَّ ينطِقَ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فقد كان منشؤُه مجرَّدَ التحرُّجِ والمبالغة في التأدُّب من بعضِهم، وإلَّا فيَجِلُّ مقامٌ مثلُ مقام الإمام ابنِ حنبلٍ عن أن يعتقِدَ أنَّ القرآنَ المقروءَ قديمٌ وهو يتلُوه كلَّ ليلةٍ بلسانِه ويُكيِّفُه بصوتِه»(٣).

وفيما يتعلَّقُ بالبحثِ الشهير في مسألة الصفاتِ عامَّةً، ونسبتِها إلى الذاتِ، وهل هي عَيْنُهُ، أو غير، أو لا هذا ولا ذاك؟ يختارُ الإمامُ الرأيَ

---

(١) المصدر نفسه: ٣٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه.

القائلَ بأنَّ البحثَ في هذه المسألة بحثٌ عقيمٌ ولا يفيدُ شيئًا، اللَّهمَّ إلَّا الانعكاساتِ السلبيةَ على نقاء العقيدةِ ووَحدة الأُمَّةِ.

وموقفُ الإمامِ هذا ليس بجديدٍ، إنما الجديدُ تحليلُه الفلسفيُّ الذي يضعُه بين يدَيْ هذا الموقفِ، وهو تحليلٌ يتناولُ فيه تحديدَ «الغايةِ» التي ينتهي إليه كمالُ العقلِ الإنسانيِّ في معارفِه ومداركِه، وعند الإمامِ أنَّ هذه الغايةَ هي معرفةُ «العوارض» في الحسِّيَّاتِ والوجدانيات والعقليات، ثم التأدِّي منها إلى «معرفةِ مناشئِها وتحصيلِ كلِّياتٍ لأنواعها، والإحاطةِ ببعض القواعدِ لعروضِ ما يعرِضُ لها، أما الوصولُ إلى كُنهِ حقيقةٍ ما فممَّا لا تبلَغُه قوَّتُه»[(١)].

ويضربُ الإمامُ مثلًا لذلك بظاهرة الضَّوء الذي هو أجلى المحسوساتِ وأبينُها، ورغمَ أنه قد صار أخيرًا عَلَمًا على عِلم خاصٍّ مستقلٍّ له قضاياه ومسائلُه إلَّا أنَّ عالِمًا واحدًا من علماء الضَّوءِ لم يستطعْ أن يفهمَ ما هو الضوءُ، «ولا أن يَكتنِهَ معنى الإضاءةِ نفسَه، وإنما يعرفُ من ذلك ما يعرفُه كلُّ بصيرٍ له عينانِ»[(٢)].

ويقولُ الإمامُ: إنَّ اللَّهَ تعالى لم يعلِّقْ معارفَ العقلِ وحاجاتِ الناسِ على معرفةِ كُنهِ الأُمور ولا حقائقِها، وإنما أناطَ كلَّ ذلك بمعرفة العوارضِ والخواص.

وهذه النَّظرةُ -التي تذكِّرُنا بفلسفة «كانْت» في تفرقتِه الشهيرة بين الشيء في ذاتِه وظواهر الشيء- يطبِّقُها الإمامُ أيضًا على أنموذج آخرَ غيرِ محسوسٍ، هو أنموذجُ إدراكِنا للنفسِ، تلك التي يتعالى معرفةُ «كُنهِها» على كلِّ وسائلِ الإدراك العقليِّ، ويرى الإمامُ أنَّ محاولاتِ الفلاسفة والمتكلِّمين في هذه المسألةِ لم تُسفِر عن قضيةٍ واحدةٍ يقينيةٍ، وظلَّ الاحتمالُ مُتساويًا

(١) المصدر نفسه: ٣٩٥.
(٢) المصدر نفسه.

وواردًا في جوهريةِ النفسِ وعرضيتِها، وهل هي قبل الجسمِ أو بعدَه؟ وهل هي حالَّةٌ فيه أو مجرَّدةٌ عنه؟ وهل هي قديمةٌ أو حادثةٌ؟ وهل هي نفسٌ واحدةٌ كليَّةٌ أو نفوسٌ جزئيةٌ . . . إلخ ما هو معروفٌ من خلافيَّات هذا البابِ.

ويخلُصُ الإمامُ من كلِّ ذلك إلى هدفِه الأساسيِّ، وهو أنَّ البحثَ في ذاتِ اللَّه تعالى لمعرفةِ هل صفاتُه عينُ ذاتِه، أو غيرُ ذاتِه، أو لا عينٌ ولا غيرٌ؟ - أكثرُ تعذُّرًا وأشدُ استحالةً من معرفة كُنهِ الضوءِ وحقيقةِ النفسِ. والعلمُ اللازمُ في مثل هذه القضايا المتعاليةِ هو العلمُ بأنَّ للَّه تعالى صفاتٍ اتَّصفَ بها، أخبرَنا بها الصادقُ المعصومُ.

أما البحثُ فيما وراءَ ذلك فهو طلبٌ للاكتناهِ من جهةٍ، وهو ممتنعٌ على العقلِ البشريِّ، وتطاولٌ إلى ما لا تبلُغُه القوةُ البشريةُ من جهةٍ أُخرى، وهو عبثٌ ومهلكةٌ: عبثٌ؛ لأنه سعيٌ إلى ما لا يُدرَكُ، ومهلكةٌ؛ لأنه يؤدِّي إلى الخبطِ في الاعتقادِ.

ويطولُ بنا المقامُ لو رُحنا نستعرضُ مسائلَ علمِ الكلامِ في هذه الرسالةِ، بحثًا عن مظاهرِ التجديدِ، سواءٌ في تأصيلِها أو في تنظيرِها، ولكن يمكِنُ القولُ -إجمالًا- إنَّ مظاهر التجديدِ في هذه الرسالةِ تتجلَّى في توجُّهاتٍ ثلاثة في فلسفة الإمام:

الأولُ: التحرُّرُ من التمذهبِ بمذهبٍ كلاميٍّ معينٍ، أو الانحباسِ داخلَ أسوارِ مدرسةٍ بعينِها من مدارسِ علم الكلامِ. وبهذه الحرِّيةِ -المنضبطةِ بمنطقِ العقلِ والنَّقلِ- استطاع الإمامُ أن ينظرَ إلى المذاهب الكلاميةِ نظرةً فوقيةً، أو نظرةً من خارجِها مكَّنَته من نقدِها نقدًا بنَّاءً، يعمِّقُها تارةً، ويصوِّبُ اتجاهاتِها تارةً أُخرى، وقد رأينا كيف يبدأُ الإمام فيلسوفًا، ثم ينتهي أشعريًّا أو معتزليًّا، أو العكس، وكلُّ ذلك في المسألة الواحدة، أو القضية الواحدة.

الثاني: المرجعيةُ العقليةُ والمرجعيةُ النَّصِّيةُ التي كان يصدُرُ عنهما الإمامُ في أنظارِه وآرائه الكلامية والفلسفية، وقد رأينا أنَّه كيف كان شديدَ الاعتدادِ

بمرجعيةِ العقلِ، لكن كان يعرِفُ أنَّ للعقلِ حدودَه التي لا يستطيعُ أن يتخطَّاها بحالٍ من الأحوالِ - وهو بذلك يقفُ موقفًا جامعًا لكلِّ محاسنِ النصيِّين والعقليِّين ومُتجاوِزًا في الوقت نفسِه لكلِّ التَّمحُّلاتِ التي قد يختنِقُ بها الباحثُ -أحيانًا- وهو يقرأُ في هاتين المدرستَين.

الثالثُ: التجديدُ في التحليلِ وفي البرهنةِ على ما يراه صوابًا، وبما يلامِسُ فلسفاتِ عصرِه ومعارفَها، وهذا المنْحى قد مكَّنَ الإمامَ من تصوير عالمية الإسلام تصويرًا حيًّا، وكيف أنَّ شريعتَه مؤهَّلةٌ -بصورةٍ دائمةٍ- لمواكبةِ متغيِّراتِ الأحداثِ ومستجدَّاتِ التطوُّر.

ويستطيعُ الباحثُ أن يقرأَ الكثيرَ في كتابات الإمام ممَّا يكشِفُ عن قدرةِ الإسلام الخلَّاقةِ على البناء المستمرِّ المتجدِّدِ، والاحتفاظِ في الوقتِ نفسِه بالمصادر والأصول والثَّوابت.

التجديدُ في المناظراتِ:

احتفظَ لنا تراثُ الإمام محمدِ عبده بمناظرتَين تعكسانِ عبقريةً متفردةً متمكِّنةً من قواعدِ علم البحثِ والمناظرة في التراثِ العقليِّ للإسلام، ومطَّلِعةً على علوم التاريخِ والاجتماع والفلسفاتِ القديمة والحديثةِ، وهاتانِ المناظرتان هما في الأصلِ ردودٌ على مقالٍ كتبَه «مسيو هانوتو» وزيرُ خارجية فرنسا، وهو مقالٌ استعماريٌّ في الدَّرجة الأُولى، دعا فيه المسلمين إلى ضرورةِ الفصل بين الدِّين والدولةِ، وبخاصَّةٍ في شمال أفريقيا، حيث المستعمراتُ الفرنسيةُ، وحيث المقاومةُ الإسلاميةُ لحكومة فرنسا المسيحيةِ التي تَستعمِرُ بلادَهم، وقد فطنَ «هانوتو» إلى أنَّ هذه المقاومةَ الصُّلبةَ ترتكِزُ أولَ ما ترتكزُ على المبدأ المتقرِّرِ في أصولِ الإسلام وتاريخِه وحضارته، مِن أنه دينٌ ودنيا، وأنَّ الجانبَ السياسيَّ فيه لا ينفصلُ عن الجانبِ الدينيِّ بحال،

ومن هُنا دعا في مقاله هذا إلى ضرورةِ أن يقومَ المسلمون بعمليةِ فصلٍ حاسمٍ بين السياسةِ وبين الدِّينِ، حتى يتمكَّنوا من التعاونِ مع الحكومات الفرنسيةِ، والانفتاحِ على حضارةِ أوروبا، وحتى يضعوا أقدامَهم على بداية طريق التقدُّمِ والتحضر، وهو يباركُ الخطواتِ التي اتَّخذَها بلدٌ مثلُ «تونسَ» واستطاعَ أن يُضعِفَ بها الروابطَ التي تربطه بمكَّةَ وبالصلاةِ وبالدين بشكلٍ عامٍّ.

ولكن يُبرزُ «هانوتو» دعوةَ المسلمين إلى ترك المقاومةِ وإلى الاستكانةِ والخضوعِ للغرب المسيحيِّ، ويدعمُ نظرتَه هذه بدعاوى ملفَّقةٍ مثل دعوى «الآرية»، التي تذكِّرُنا بدعوى صدامِ الحضارات الآن، والتي تقارنُ بين التمدُّنِ الآريِّ والتمدن الساميِّ، وتنتهي إلى أنَّ الأولَ قفزَ بشعوبِه إلى قمةِ المدنيةِ والمساواةِ والتحضُّرِ، بينما كان الثاني مصدرَ قهرٍ وتخلُّفٍ للشعوب الساميةِ، وكذلك دعوى أنَّ التوحيدَ والتنزيهَ في الإسلامِ يباعِدُ بين اللَّه والمسلمِ، بينما يقرِّبُ التشبيهُ والتجسيدُ بين اليسوعِ والمؤمنين به.

وأخيرًا قارَنَ «هانوتو» بين الإسلامِ والمسيحية في مسألة القضاءِ والقدر، وزعم أنَّ الإسلامَ بجبريَّتِه «يحطُّ الإنسانَ إلى حضيضِ الضعفِ»، بينما ترفَعُه المسيحيةُ بمذهبها في الإرادة الحرَّة والاختيار إلى «ذِروة القوَّةِ».

ولا نستطيعُ بطبيعةِ الحال أن نستقصيَ كلَّ ردودِ الأستاذ الإمامِ على دعاوي «هانوتو» ودعاوي غيرِه في كتابه: «**الرَّدُّ على هانوتو**»، و«**الردُّ على فرح أنطون**»، فهذان الكتابانِ جديرانِ ببحثٍ مستقلٍّ يَستقصي وجوهَ القوَّةِ والعمقِ والتجديدِ في مناظراتِ الإمامِ، ونكتفي بأن نشيرَ في عجالة إلى ما يلي:

لم يُعْنَ الأستاذُ الإمامُ كثيرًا في ردودِه بالمسيحية كعقيدةٍ، ولم يشأْ أن يجادِلَ في أصولِ العقيدة المسيحية، كالتثليثِ والتجسُّدِ والصلبِ والفداءِ،

وإنما وجَّهَ اهتمامَه إلى كشفِ ضحالةِ معلوماتِ «هانوتو» في علومِ التاريخ والفلسفةِ ومقارنة الأديانِ، وبيَّن أنه ليس واحدًا من الكُتَّابِ، ولا من أهل النَّظرِ.

والدَّارسونَ لعلم أدبِ البحث والمناظرةِ يُدركون أنَّ الأستاذَ الإمامَ في ردودِه هذه يستخدمُ «المعارضةَ» التي لا تتعلَّقُ بمناقشةِ مقدِّماتِ الدَّليلِ وإنَّما تُعارِضه بإثباتِ نقيضِ «الدَّعوةِ»، أو المساوي لنقيضِها؛ إذ مِنَ المعلومِ أنَّ «إثباتَ» أحدِ النَّقيضَيْنِ يستلزِمُ ضرورةَ «نفي» الآخرِ.

وفي هذا السِّياقِ عارضَ الإمامُ دعوى الآرية وتفضيلَها على السامية بأنَّ «الهندَ» هي منشأُ الآريَّةِ ومنبتُ غرسِها، وأنَّ أديانَها قضَت بتقسيم الناس إلى طبقات، ومن هذه الطبقات مَن قضى عليهم دينُهم بالانحطاط في العقل والخلق والصِّناعة، ولا يُباحُ له أن يرتقيَ إلى طبقة ما فوقه إلى انقضاء العالم، وهو الجمهورُ الأغلبُ منهم[(١)].

فهل يقولُ هانوتو إنَّ هذا الانحطاطَ في الدِّين الآري الهندي جاءه من المدنيَّة السامية؟! كيف والتمدُّنُ السامي لم يعرف التمدُّنَ البرهميَّ إلَّا في زمان متأخِّر جدًّا؟! وهذا معلومٌ لكلِّ مَن له أدنى معرفةٍ بجغرافيا البلاد الهندية؟!

وإذا كانت الآريَّةُ هي مبعثَ الفضائلِ والمساواةِ والتسامحِ فما هذه الفظائعُ «التي انتفخَ بها بطنُ التاريخِ الأوروبيِّ الآريِّ»؟! وكيف تفسَّرُ الهمجيةُ الآريةُ التي عاشتها أوروبَّا ردحًا طويلًا من الزمن؟! أليس ذلك دليلًا على «أنَّ العلمَ والمدنيَّةَ لم ينبُعا من مَعينها، وإنما جاءاها بمخالطة الأمم

(١) محمد عبده، الرد على هانوتو: الإسلام والمسلمون والاستعمار (ضمن الأعمال الكاملة): ٣/ ٢٢١.

السامية، كما يعلَمُه المطَّلِعُ على تاريخ اليونان الأقدمينَ»[١].

وهنا يذكِّرُ الأستاذُ الإمامُ وزيرَ الخارجيةِ الفرنسيَّ بأنَّ أولَ شرارةٍ اقتبسَها التمدُّنُ الآريُّ في أوروبا جاءتها من شعلة الحضارة الإسلامية «التي كان يسطَعُ ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورَها» والتي حاولَ الكهنوتُ المسيحيُّ إطفاءَها قرونًا عدَّةً فلم يستطع .. ويذكِّرُ الإمامُ «أنَّ الناظرَ في التاريخ (الأوروبي) تحمَرُّ عيناه من مناظر الدِّماءِ المتجسِّدةِ على جليد الأزمان، ذلك بما سفكه أهلُ ذلك الدِّينِ المتَّحدِ بالمدنية الآرية ليقاوموا دُعاةَ تلك المدنيَّةِ ويُخمدوا نارَها»[٢].

ثالثًا: أين نجِدُ في الإنجيل هذا الإصحاحَ أو الآيةَ التي تَحُضُّ المسيحيين على المغالبة والغلبة وطلب التفوُّق في التمدُّن والتحضُّر؟! إنَّ الإنجيلَ الموجودَ والمقرَّرَ بين أيدينا يأمرُ «أهلَه بالانسلاخ عن الدُّنيا والزَّهادة فيها، ويوجِبُ عليهم إذا سلَبَهم السالبُ قميصًا أن يُعطوه الرداءَ أيضًا، وإذا ضرَبَهم الضارِبُ على خدِّهم الأيمنِ أن يُديروا له خدَّهم الأيسرَ، ويقصُّ عليهم أنَّ دخولَ الجَمل في سَمِّ الخياط أيسرُ من دخول الغنيِّ ملكوتَ السماوات....، والعيانُ يدلُّنا على أنَّ شيئًا من ذلك لم يكن، فإنَّ هذه المدنيَّةَ (الآرية) إنما هي مدنيَّةُ المُلكِ والسُّلطانِ، مدنيَّةُ الذَّهبِ والفضَّةِ، مدنيَّةُ الفخفخةِ والبهرجِ، مدنيَّةُ الختلِ والنِّفاقِ، وحاكمُها الأعلى هو «الجنيه» عند قومٍ، و«الليرا» عند قومٍ آخرين، ولا دخلَ للإنجيل في شيء من ذلك»[٣].

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٢، ٢٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٤.

ثم يقرِّرُ الإمامُ حقيقةً يصِفُها بأنها بدهيةٌ يعرفُها صبيانُ المكاتبِ، ويجهلُها هذا الوزيرُ الشهيرُ . . هذه البدهيةُ هي أنَّ دينَ «التوحيد» ليس دينًا ساميًّا؛ بل هو دينٌ عبرانيٌّ خالصٌ، بشَّرَ به إبراهيمُ -عليه السلام- وأبناؤه من بعده، وحتى عيسى عليه السلام فإنه ينتسِبُ إلى العبرانيِّين من جهة أمِّه -عليها السلام، وكذلك أصحابُه وأنصارُه الأوَّلون . . «أما بقيَّةُ الساميِّين من عرب وفينيقيِّين وآراميِّين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدَّس فقد كانوا وثنيِّين مشبِّهين ولم يخالفوا في ذلك بني عمِّهم أو أعداءَهم الآريين»[(١)] .

ويختتِمُ الإمامُ نقدَه للمسألة الآريَّة بعبارة رائعة، وإن كانت موجعة لـهانوتو وتلاميذه، قال فيها: «وقبلَ إلقاءِ القلم أذكِّرُ الذين يتفانَون في إجلال مثلِ هذا الوزيرِ . . . أني إن صغَّرتُ شأنَ «هانوتو» في معارفه التاريخية، فذلك لأنه صغيرٌ فيها حقيقةً، وكثيرٌ من قومه يعرِفُ ذلك عنه؛ لأنه لا أميرَ في العِلم إلا العلمُ والسلامُ»[(٢)] .

وصلى اللَّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٤.

الأُستاذُ الأكبر الشَّيخ محمود شَلتُوت
«إِمامَةٌ في العِلْمِ، وعَبقَرِيَّةٌ في التَّجديدِ»(١)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

ليس من شكٍّ في أنَّ هذه الكلمة المحدودةِ زمنًا ومساحة لا يُمكن أن تَرسِمَ معالِمَ شخصيَّةٍ كُبرى في قامةِ الأُستاذ الإمام الشَّيخ شلتوت، وأنَّ قُصارى ما تَطمحُ إليه كلمةٌ كهذه هو: العِرفانُ بالجَميل من جامعة الأزهر لإمامٍ من أئمَّتِها تفخرُ به، وتَضعُه في قائمةِ الشَّرفِ العُليا، وثالثَ ثلاثة؛ مع الأستاذ الإمام: محمد عبده، والأستاذ الإمام: المراغي.

ورُغمَ اختلافِ الأزمان والحوادث والتقلُّبات السِّياسية والاجتماعية التي اختلفَت على حيوات هؤلاء الأئمَّة الثلاثة؛ لا يعييك أن تَجد خيطًا واحدًا مُتَّصلًا، تشابَهت عليه أقدارُ هؤلاء الشُّيوخ واجتهاداتهم، وتلاقَت من حولِه رسالاتُهم في تجديد الدِّين وتجديد الأزهر الشَّريف.

وإذا كان الأستاذُ الإمام محمَّد عبده قد ثبَت له فضلُ الرِّيادة والارتياد، وكان الأستاذُ المراغيُّ امتدادًا للإمام وتجذيرًا لإصلاحاته المتعدِّدة؛ فإنَّ الأستاذ الشَّيخ شلتوت كان رجلَ المرحلَة الصَّعبة الخطرة، التي مرَّ بها الأزهر في عهده، ووصلَ فيها إلى ما يُشبه مفترق طريقين: طريقَ الموت والهَلاك، وطريقَ الحياة والبقاء والصُّعود.

(١) كلمة ألقيت في الاحتفالية التي عقدتها مشيخة الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية لتكريم الإمام المصلح المجدد محمود شلتوت وجهوده في الإصلاح والتجديد، في يوم الخميس ١٨ ربيع الثاني: ١٤٢٩هـ/ الموافق: ٢٤ أبريل: ٢٠٠٨م.

بل إنَّ دورَ الأستاذ الإمام محمود شلتوت لَيَبْدو أكثر خطرًا وأشد حرجًا من دور الإمامين: محمد عبده والمراغي؛ إذا أخذنا في الاعتبار أن هذين الإمامين كانا يَبذُلان الجُهد والعَرق والمشقَّة في رعايةِ الأزهر وإصلاحِه، والأزهرُ ثابتٌ قائم مستقرٌّ شامخ، يَملأُ السَّمع والبصر، ويَنفردُ بالمرجعيَّة محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا.

بل كان الأزهرُ آنذاك الرَّافدَ العلميَّ الأساسَ حتى للمؤسَّسات العِلميَّة الأُخرى في مصر.

واسأَلوا دارَ العُلوم؛ مَن فكَّرَ في إنشائها؟ أليس هو الإمام محمَّد عبده الأزهري؟! واسأَلوا مدرسةَ القضاء الشَّرعيِّ؛ مَن كان يَرْفِدُها ويَمدُّها بالأساتذة وبالطُّلَّاب؟ أليسَ هو الأزهر الشَّريف؟! بل اسأَلوا الجامعةَ المصرية عن دور طه حسين، ومصطفى عبد الرَّازق، وعلي عبد الرازق، وأمين الخولي، وغيرهم من الأزهريين، الذين نهضَت على أكتافِهم مسيرةُ العِلم والتَّعليم في مصر؟!

بل كان الأزهرُ نفسُه مركزَ ثِقَلٍ لا تُخطِئُه العَينُ في التَّقلُّبات السِّياسيَّة والفِكرية في عصر الإمامين: محمَّد عبده، والمراغي، ولم تكن إصلاحاتُ هذين الإمامين بالأمر الهَيِّن ولا الميسور في ذلكم الوقت، بل كانت كفاحًا وجهادًا شاقًّا ضدَّ العَقبات والصُّعوبات التي كانت تَقفُ في وجه مسيرةِ الإصلاح، إلَّا أنَّ هذا الكفاح كان من أجل إصلاح مؤسَّسةٍ لا من أجلِ بقاء مؤسَّسة..

ولكن فَرْقٌ بين أن تُكافحَ من أجل الإصلاح والتَّقويم، وبين أن تُكافح من أجل الوجود والبقاء؛ فالهدفُ في الحالة الأولى ثابتٌ وواضح، بينما هو في الحالة الثانية مُترنِّح ومضطَّربٌ. وقد تَرضى وأنت تُكافح من أجل الوجود والبقاء بما تأباه وتَرفُضه حين تكافحُ من أجل الإصلاح والتَّطور.

وإذا وَضعنا في الحُسبان أنَّ فضيلةَ الإمام الشيخ شلتوت تقلَّدَ منصب شيخ الأزهر في: ١٣ أكتوبر: ١٩٥٨م، وأنَّ التَّوازنات السياسية والأيدولوجية التي

أحاطَت بمصر بعد ذلك مباشرة شكَّلَت رياحًا عاتية كادَت تَقتلعُ الأزهر من الجذور وتُلقي به في زوايا النِّسيان إلى الأبَد؛ أدركنا كم كان دورُ هذا الشَّيخ، الذي جاءت به الأقدارُ لحماية الأزهر، بالغ الدِّقَّة والخُطورة في آنٍ واحد.

والذي يُتابع تاريخَ الأزهر في عهدِ هذا الشَّيخ العظيم في بداية السِّتينيات يُدرِكُ أنَّ الشَّيخ كان يُقاتل في أكثر من جبهة:

- جبهةِ الحفاظ على الأزهرِ وثقافتِه في وجه المَدِّ الشيوعيِّ بكلِّ مَدارِسه وفلسفاته ونظريَّاته، والتي أرادت أو أُريد لها أن تَنزل إلى الأرض وإلى الواقع لتُمارِسَ تطبيقاتها وتغييراتها للنَّاس والمُجتمع والتاريخ، وهي فلسفاتٌ كانت تُعلِنُ في وضوح عداءَها للدِّين باعتباره أَفيون الشُّعوب.

هذا فضلًا عن المؤامرة التي أفرَزَها المَدُّ الشيوعيُّ، وأثَّرَت كثيرًا في تَحجيم رسالة الأزهر، وقَصرِها على شؤون العباداتِ فقط، أما الجوانب الاجتماعيَّة فقد وكَّلَت بها مؤسَّسات علمانية مؤقَّتة، رَيثَما يَتعوَّدُ الناس على نمطِ الفصل بين الدِّين والدُّنيا، وبين العبادةِ والحياةِ الاجتماعيَّةِ.

- وجبهةٌ ثانية كان على الشَّيخ شلتوت أن يُجاهِدَ فيها؛ هي جبهةُ الاحتفاظ بالأزهر في وجه مُحاولاتٍ ظنَّت أنَّها تَستطيعُ أن تسحَب البساط من تحت الأزهر والأزهريين لتَضَعَها تحت منابر مُستحدَثة تُخاطب المسلمين بحُسبانها المتحدِّث الرَّسمي عن الإسلام بديلًا عن الأزهرِ.

وخُيِّل للقائمين على أمرِ هذه المنابر أنَّهم قادرون على تحقيق هذه الأحلام الوَرديَّةِ، غيرَ مُدركين الفرقَ الهائل بين مؤسسة علمية عريقة، صنعها التاريخ ولا يزال يصنعها منذ أكثر من ألف عامٍ، وبين مَبانٍ صنَعَتها الأموالُ على مدى عقودٍ تُعَدُّ على أصابع اليَد الواحدة.

وثَمَّة مؤامرة استعمارية من نوعٍ آخر واجَهَها الشَّيخ، كانت تَطمَحُ إلى إبعاد الشُّعوب الأسيويَّة والأفريقية الإسلامية عن القُدوم إلى القاهرة والاتِّصال بالأزهر والدِّراسة في أروِقته وجامعته، وصَرْفِهم إلى مراكز أخرى.

ثمَّ مؤامرة ثالثة تَبشيرية، أرادَت طَرْدَ الأزهر من القارَّة الأفريقية، ليَخلُوَ لها الجوَّ في احتِضان هذه القارَّة الثَّريَّة، وجَرِّها إلى مؤسَّسات دينيَّة كُبرى في الغربِ.

وكان الشَّيخُ الإمام -رحمَه اللَّهُ- يَعيشُ هذا الهَمَّ ليلَ نهارَ، وكان شعاره الَّذي يُردِّده : إن لم يَكسب الأزهرُ أرضًا جديدةً في أفريقيا وآسيا فليُحافِظ على ما لَهُ في نفوس المُسلمين هُنا وهناك.

وواضحٌ من هذه العبارة التي تَعكسُ من الأَسى والشَّجى أضعافَ ما تَعكسُ من الأمَل والرَّجاء -كم كان الجوُّ الذي عمل فيه الأستاذُ الإمام خانقًا ومُربِكًا.

وُلِد فضيلةُ الإمام الأكبر، الشَّيخ محمود شلتوت في: **٢٣** أبريل، سنة: **١٨٩٣**م، ببلدة منية بنى منصور، مركز إيتاي البارود، والتحَق بمعهد الإسكندرية سنةَ: **١٩٠٦**م، ثمَّ نالَ شهادة العالميَّة النِّظامية عام: **١٩١٨**م، وكان تَرتيبُه الأوَّلُ على زُمَلائه، وقد عَمِلَ مُدرِّسًا بمعهد الإسكندرية، ثمَّ نُقِلَ بعد ذلك لفقهه وعِلمِه الغزير إلى التَّدريس في القسم العالي بالأزهر، ثم مُدرِّسًا للفقه الإسلامي بأقسام التَّخصُّص بالأزهر، ثم فُصِلَ من الأزهر في: **١٧**سبتمبر: **١٩٣١**م بسبب آرائه الإصلاحيَّة، واشتغلَ بالمُحاماة إلى أن أُعيدَ إلى الأزهر، وعُيِّنَ وكيلًا لكلِّيَّة الشَّريعةِ، وظَلَّ في منصبِه إلى أن صدرَ القرارُ الجمهوري باختيارِه شيخًا للأزهرِ في: **١٣** أكتوبر، سنةَ: **١٩٥٨**م، وكانت وفاةُ هذا الشَّيخ الجليل والإمام المُجدِّد في ديسمبر، من عام: **١٩٦٣**م، في ليلةِ الإسراء والمعراج، من عام: **١٣٨٣**هـ.

أيها السادة العلماء..

إنَّ شخصيَّة الشيخ شلتوت شخصيَّةٌ بالغةُ الخصوبة والثَّراء، وقد يَصعُبُ على باحثٍ واحد ارتيادَ آفاق هذه الشَّخصية وتَجلِيَة أبعادها؛ فهو فقيهٌ، وهو

مصلحٌ، ومجدِّد، وهو إمامٌ راسخُ القَدمين في المعقول والمنقول، وهو بصيرٌ بمُشكِلات الأُمَّة والتَّحدِّيات التي تُواجِهُها، ثمَّ هو يَعيشُ عصرَه، ويُقيِّمُه على هدي من تُراث شريعة الإسلام، يُكافِحُ الجُمود كما يُكافِحُ الانفِلات، ويَراهُما من أشدِّ الأمراض والعِلَلِ التي تَفتِكُ بحيويَّة الإسلام وقُدرَتِه على مُواكَبة التَّطوُّرِ ومُلاحقَةِ التَّغيُّر.

وقد مكَّنَته ملَكةُ الاجتهاد التي اكتسبَها من مدرسة الإمام المراغى والإمام محمَّد عبده من الدِّفاع عن الإسلام في الدَّاخل والخارج، وبخاصَّة في المؤتمرات الدَّولية الكُبرى التي شارَك فيها الإمامُ؛ مثل: مؤتمر لاهاي، الَّذي عُقِدَ سنة: **١٩٣٧**م، وكان موضوعُه: «القانونُ المقارَن»، وقدَّمَ فيه بحثًا رائعًا عن المسؤولية المدنية والمسؤولية الجنائية، وكشَفَ عن نوعٍ من المسؤوليَّات لا تزال تجهله القوانين الغربيَّة، بينما هو مَسطورٌ بدقَّةٍ وتَفصيل في كتُب الفقه، وقد لَقِيَت الشَّريعةُ في مؤتمر لاهاى اعترافًا وتقديرًا بالِغَين بسبب هذا البَحث.

والمُتأمِّلُ في اجتهادات الإمام لا يعييه أن يَكتَشِفَ قوَّةَ ملَكَتِه الفقهيَّةِ والأُصوليَّة في مُختَلَفِ المذاهب والمدارس، فهو لا يَتوقَّفُ عند المذاهب الأربعة المعروفة، بل يَتخطَّاها إلى مذاهب أخرى؛ كالإمامية والزيدية وغيرهما، باحثًا عن الحقِّ، ومتقيدًا بالدَّليل الذي لا يرضى به بديلًا.

وقد رفضَ الشَّيخ شلتوت الجمودَ المذهبيَّ، وهدمَ قاعدةَ وجوب التَّمذهُب بأحد المذاهب الأربعة في كلامٍ طويل دَقيق يَضيقُ عنه هذا المقامُ.

وقد طالَعَنا الإمامُ بفتاواه المُتجدِّدةً حولَ قضايا حيَّة شغلَت المجتمع آنذاك، ولا تزالُ تشغله حتى يومنا هذا..

- مثل: تَنظيم النَّسل الذي قال بجوازه للسَّيِّدات اللاتي يُسرِعُ إليهنَّ الحَملُ، ولذوي الأمراض الوراثيَّة، بل ولمَن تَضعُف قُواهم عن مواجهة المسؤوليَّات.

- ومثل: موضوع ختان الإناث؛ الذي قال عنه: إنَّ حُكمَ الشرعِ فيه لا يَخضَعُ لنصٍّ منقول، وإنَّما يَخضع في الذَّكر والأُنثى لقاعدةٍ شرعيَّةٍ عامَّةٍ؛ هي: أنَّ إيلامَ الحيِّ لا يَجوز شرعًا إلا لمصالح تعود عليه، وتَربو على الألَم الذي يَلحَقُه، وقد انتهى إلى أنَّ ختان الإناث ليس لدينا ما يدعو إليه وإلى تَحتُّمه، لا شرعًا، ولا خُلُقًا، ولا طِبًّا.

- وثمَّةَ أمران يَتجلَّى فيهما اجتهادُ الشَّيخ الإمام، وأرى فيهما أُنموذجًا رائعًا للتَّجديد الذي يَكشفُ عن ثراء التُّراث وعقلانيَّته، كما يَكشفُ عن عبقريَّة الشَّيخ في فَنِّ توظيف التُّراث عبرَ الاجتهاد، في مواجهة المُشكلات العصرية المتغيِّرة:

الأمرُ الأوَّلُ: هو طريقُ ثُبوتِ العقيدة في الإسلام، والذي انحازَ فيه الإمامُ بقوَّة إلى أنَّ الدَّليل العقليَّ الذي تعلم مُقدِّماتُه، وهو انتهى إلى الحِسِّ أو الضَّرورة، هو الأصلُ الَّذي تُبْنى عليه العقائد في الإسلام، وأنَّ الدَّليل النَّقلي الَّذي يُفيدُ اليقين في هذا المجال يُشترَطُ فيه أن يكون قطعيَّ الورودِ، قطعيَّ الدَّلالة؛ بمعنى: أن يكون نصًّا ثبَت بالتَّواتُرِ، وأن يكون نصًّا مُحكمًا، لا يَقبَلُ التَّأويل، ولا يَحتملُه بحالٍ.

وبنى على ذلك أنَّ كلَّ المسائل العلميَّة التي لم تَرِد بطريقٍ قطعيٍّ، أو وَرَدَت عن طريقٍ قطعيٍّ، ولكن لابَسَها احتمالٌ في الدَّلالةِ، فاختَلَف فيها العُلماء -ليسَت من العقائدِ التي يُكلِّفُنا بها الدِّينُ، والتي تُعتَبَرُ حَدًّا فاصلًا بين الذين يُؤمنون والذين لا يُؤمِنون.

وبهذا التَّأصيل الذي انتزَعه الإمامُ الأكبر الشيخ شلتوت من التُّراث؛ استطاعَ أن يَضرِبَ في مَقتَلٍ كلَّ التَّيَّارات التي تَحرِصُ على التَّفرقة بين المسلمين، وتُصنِّفُهم إلى مسلمين وغير مسلمين، وليس في أيديهم من دليلٍ على شرعيَّةِ هذه الفتنة إلا طائفة من أحاديثِ الآحاد، وهي بطبيعَتِها ليست قطعيَّة الورود، ولا قطعيَّة الدَّلالة.

الأمرُ الثَّاني: موقفُ الإسلام من غيرِ المُسلمين، ومتى يكون غيرُ المسلم كافرًا عند اللَّه يَستَحِقُّ الخُلود في جهنَّم.

وكثيرًا ما كنتُ أُفكِّرُ في هذا الأمر حين كنت أنظُر إلى جماهير النَّاس والطُّلاب في جامعات الغرب وشوارعِه ومطاعِمه ومَتاجرِه، وكنتُ أسأَلُ نفسي: كيف نحكُم على هؤلاء الذَّاهلين الغافلين بالكُفر وهم لا يَعلَمون شيئًا عن الإسلام؟! وإذا عَلِموا عنه شيئًا فهو الصُّورة السَّلبيَّة الشَّائهة التي لا يَعرِفون غيرَها، ثمَّ إنَّ حياتَهم لا تَترُكُ لهم وقتًا للتَّأمُّل والتَّفكير والبَحث عن العقائد المُنجية، وقد شغلني هذا التَّفكيرُ كثيرًا..

إلى أن وجدتُ الإجابةَ في كتابِ: «**الإسلام: عقيدة وشريعة**» للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، وهو يَتحدَّثُ عن الحَدِّ الفاصلِ بين الإسلامِ والكُفرِ، وجدتُه يقولُ: «أمَّا الحُكمُ بكفرِه -أي الشَّخصِ- عند اللَّه؛ فهو يَتوقَّفُ على أن يكونَ إنكارُه لتلك العقائدِ، أو لشَيءٍ منها بعد أن بلَغتْه على وجهِها الصَّحيح، واقتنَع بها فيما بينَه وبين نفسِه، ولكنَّه أبى أن يعتنقها ويشهد بها عنادًا واستكبارًا، أو طمعًا في مال زائل أو جاه زائف، أو خوفًا من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظلَّ يَنظُرُ ويُفكِّرُ طلَبًا للحقِّ حتى أدركَه الموتُ في أثناءِ نظره؛ فإنَّه لا يكونُ كافرًا يَستحقُّ الخُلودَ في النارِ عند اللَّه».

ثمَّ يَختِمُ هذه النَّظرات الثَّاقبة بقولِه: «ومن هُنا؛ كانت الشُّعوبُ النَّائية التي لم تَصِل إليها عقيدةُ الإسلام، أو وصلَت إليها بصورةٍ سيِّئة مُنفِّرة، أو لم يَفقَهوا حُجَّتَه مع اجتهادِهم في بَحْثِها -بمَنجاةٍ من العقاب الأُخرويِّ للكافرين، ولا يُطلَقُ عليهم اسمُ الكُفر»[(١)].

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، الطبعة الثامنة عشرة، ٢٠٠١م: ١٩.

وأغلَبُ الظَّنِّ أنَّ فضيلةَ الإمام الأكبر كان يَستلْهِمُ بعبقريَّتِه الفَذَّة روحَ التُّراث ومقاصِده؛ فقد وجدنا بعض إشاراتٍ في كتُب الكلام والأصول مَكَّنَت الشَّيخَ من بناء هذا الرَّأي، والذي يَشهَدُ للإسلام بالموضوعيَّة والإنصاف لغيرِ المُسلمين.

ولعلَّ هذا ما أشارَ إليه الآمديُّ(١) بقولِه: «وإنْ شرَعَ المُكلَّف فيما كُلِّفَ به - من النَّظَرِ في معرفةِ اللَّه تعالى - من غيرِ تأخيرٍ، لكن اخترَمَتْهُ المَنيَّةُ قبلَ انقضاءِ الزَّمان الذي يَتَّسِعُ للنَّظَرِ المُؤدِّي إلى المَعْرِفَةِ فحُكمُه حُكمُ مَن ماتَ صَبيًّا».

أيُّها السَّادةُ..

هذا مثالٌ من عشَرات الأمثلة على عبقريَّةِ الإمام محمود شلتوت، واجتهاده، وحُجيَّتِه في المنقول والمعقول، والتي تحتاجُ إلى دراساتٍ عديدةٍ لتَجلِّيها، وبخاصَّة ما يَزخَرُ به كتابُه الخالد: «**الإسلام: عقيدة وشريعة**»، والَّذي طُبعَ تسعًا وعشرين مرَّة، وأتمنَّى لو أنَّ هذا الكتابَ أصبحَ مُقرَّرًا إجباريًا على كلِّ طلَّابِ جامعة الأزهر، كما أتمنَّى لو أنَّه يُترجَمُ إلى كلِّ اللُّغات الحَيَّة التي تَتحدَّثُها شعوبُ العالَم المعاصرِ.

وفي ختامِ كلمة الجامعة، أتقدَّمُ بخالص الشُّكر والتَّقديرِ والعِرفان بالجَميل لفضيلة الإمام الأكبر أ. د/ محمَّد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، على لفَتاته الكريمة، وعلى هذا الوَفاء الكَبير لإخوانه من شيوخ الأزهر السَّابقين.

ونسألُ اللَّهَ تعالى أن يُمتِّعَه بطولِ البقاء، وبمَزيدِ الصِّحَّةِ والعافيةِ.

وشكرًا للسَّادة القائمين على إعداد هذا المُؤتمرِ.

وشكرًا لحُسْنِ استِماعِكُم.

والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُه

(١) في: «أبكار الأفكار في أصول الدين»: ١، ١٧١.

عن
الطفولة وحقوقها

الطفولة في الإسلام
رعاية وكرامة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحضـور الكـريم!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

ومرحبًا بكم في هذا الاحتفال الكريم بتَدشين إصداراتِ عُلماء الدِّين عن المنظورِ الإسلاميِّ والمسيحيِّ لحماية الأطفال من العنف والممارسات الضَّارة. . ومِمَّا يُسْعِد الأزهر الشَّريف أن يَصْدر هذا الكتاب عن المركز الدولي الإسلامي للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر، هذا المركز العالمي الذي يعتزُّ به الأزهر الشريف، جامعًا وجامعة؛ لما لنشاطاتِه الأكاديميَّة والميدانيَّة على المستوى المحليِّ والإقليميِّ والدوليِّ، من حُضورٍ مَلحوظٍ وأثر ملموس على أرض الواقع، وذلك بفضلِ قيادةِ رئيس هذا المركز: العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ جمال أبو السرور، وفضل إنجازاته في داخل مصر وخارجها لحماية الطِّفل والمرأة، من أجل أمومة آمنة، وطفولة سعيدة.

السَّادة الحُضور!

لا أُبالغ لو قلت إنَّ شريعة الإسلام لها تاريخٌ عريقٌ في موضوع الطِّفل

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر: «حِمَايَة الأطْفَال من العُنفِ والمُمَارسَات الضَّارَّة» مركز الأزهر للمؤتمرات، في: ٢ من شعبان سنة ١٤٣٧هـ، الموافق: ٩ من مايو سنة ٢٠١٦م.

وحمايتِه، وذلك منذ أكثر من أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزمان، ولا تزال أحكامها في هذا المجال، رغم قِدمها، تمثل إشعاعًا علميًّا وتربويًّا حديثًا لا نظير له في أي نظام اجتماعي آخر، وهذه ليست مجرَّد دعوى نرسلها عاريةً عن الأدلَّة والشَّواهد، وإنما هي دعوى يثبتها الكتاب الذي نُدشِّنه -اليوم- بين أيديكم وتؤكِّدها كتابات أقلام متميِّزة من أساتذة الأزهر وعلمائِه، سواءٌ في علومِ الشَّريعةِ أو علوم الطِّبِّ.

ولا يتَّسِع الوقتُ الآن لرسم «الصُّورة» المُثلى أو الإطار المِثاليِّ، والقابل دومًا للتَّطبيقِ الواقعيِّ، والذي عالَجت فيه الشَّريعة الإسلاميَّة حقوق الطفل.. ونكتفي بالإشارة إلى أنَّه إطار زاخِر بأحكامٍ شرعية، وقوانينَ حاسمةٍ، أفردتها كتب الفقه الإسلامي لحماية الطِّفل، وصاغتْها صياغة وسطيَّة، وأعدتها إعدادًا لائقًا برسالته التي خُلِق من أجلها، وهي: خلافة اللَّه في الأرض وتعميرُها وإصلاح فسادها.

وأَغلبُ الظَّنِّ -عندي- أنَّه لا يوجدُ نظامٌ فلسفيٌّ أو اجتماعيٌّ فطِنَ للأهميَّةِ القُصوى للطِّفل في حياة المجتمعات واستقامتها في الفكر والسُّلوك، بمِثل ما فطِنَ له نظامُ الإسلام، فالإسلام هو الذي مَنحَ الطِّفلَ حُقوقًا وهو لايزالُ في عالم الذَّرِّ، قبل أن يتخلَّق في رَحِمِ أمِّه، بل قبل أن يتزوَّج أبوه بأمِّه، وأتذكَّر هنا ما حفظناه عن شيوخنا، ونحن طلاب في القِسمِ الثَّانوي الأزهري، مِنْ أنَّ أوَّل حقٍّ من حُقوق الابن على أبيه أن يختار أمه من وسط لا يُعيَّر به الطفل بين أترابه، وأن يختار له اسمًا لا يتعرض بسببه إلى السُّخرية أو الاستهزاء من الأطفال.. وأنَّ الأبَ الذي يُخالف هذا التَّشريع ويعرِّض ابنه، الذي لا يزال احتمالًا مخبوءًا في عالم الغيب، إلى الألم النَّفسي أو التَّوحُّد أو الانطواء، بسببِ اسمِه أو بسببِ أمِّه -هو أبٌ آثِمٌ في شريعةِ الإسلام.. وهذا ما يُفسِّر لنا تدخُّل النَّبي ﷺ بنفسه لتَعديل أسماءِ

الأَطفال وتغييرِها إذا كانت هذه الأسماء تستدعي -ولو من بعيد- إيحاءات تؤذي مَشاعر الأطفال وتعرضهم للغمز واللمز.

وقد أحاط النبي ﷺ هذا الموضوع بإرشادات حاسمة، ولم يتركه لاستحسان الأب أو العائلة، بل ربطه بغايات دينية، ومسؤوليات أخروية، فقال فيما رواه أبو داود(١): «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ».

وتروي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ كان يغير الاسم القبيح، وقد كان لعمر رضي الله عنه ابنة يقال لها: عاصية، فسمَّاها رسول اللَّه ﷺ: «جميلة»، وغيَّر اسم حرب إلى سِلْم، والمضطجع إلى المنبعث، وبني مغوية إلى بني رِشدة..

وفيما يتعلق بحياة الطفل قبل خروجه إلى الدنيا، ومنذ لحظة تكونه في رحم أمه تطالعنا أحكام شرعية غاية في الدِّقة والعُمق، تُرافق هذا الجنين طوال فترة مكثه حملًا في بطن أمه، وترتب له حقوقًا يأتي في مُقَدِّمتها حق رعايته، وحرمةُ الاعتداء على حياته بأي نوع من أنواع الاعتداء أو الأذى، وحقوقٌ أخرى كالميراث وغيره.

ومما يتعلق بحق الحياة أيضًا، أن الطفل لو جاء نتيجة حمل غير شرعي فإنه يؤخِّر عن أمه تنفيذَ العقوبة التي نصَّت عليها الأديان، ويوقفها حتى يولد، وتتمَّ مدةُ رضاعه ويكتملَ فطامُه، ويجري مجرى حماية الطفل وهو جنين في بطن أمه، ما نعلمه من تشريع رخصة الإفطار للأم الحامل وللمرضع في رمضان حرصًا على غذاء جنينها غذاءً مكتملًا منتظمًا، وذلك إذا كان الصوم يضره أو يُضعفه، بل تذهب الشريعة في احترام حقِّ الطفل في حياة آمنة، أنه لو وُلِد من أب مسلم وأم مسيحية أو يهودية فإن شريعة الإسلام تقضي

(١) (ح٤٩٤٨) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه.

للأم الكتابية بحضانة الطفل دون الأب المسلم أو أسرته. وهذا هو مشهور مذهب الإمام مالك، وهو مذهب الحنفية أيضًا، الذين يقررون في فقههم قاعدة أن: «أهل الذِّمَّة في الحَضانة بمنزِلة أهلِ الإسلام، لأنَّ هذا الحقَّ إنما يثبتُ للصَّغير وأنه لا يختلف باختلاف الدِّين»، وذلك لقوله ﷺ: «**من فرَّق بين والدةٍ وولدها فرَّق اللَّه بينه وبين أحبَّته يوم القيامة**». رواه الترمذي وحسَّنه[(١)] وقال: العملُ على هذا عند أهل العلم من أصحابِ النبي ﷺ.

ولا تتوقف أحكام الشريعة عند ولادة الطفل بل تصاحبه رضاعًا وفطامًا ويفاعة ورشدًا، كل ذلك في مساواة تامة بين الولد والبنت في المعاملة والاهتمام والمحبة والحنو والحنان، وفي عدالةٍ مطلقة في توزيع مشاعر الأبوين بالسوية على الأبناء، يقول أنس رضي اللَّه عنه: «كان رجل جالسًا عند النبي ﷺ فجاءه ولدٌ له فأخذه وأجلسه في حجره، وجاءت ابنة له فأخذها فأجلسها، فقال النبي ﷺ: **فهلَّا عدلت بينهما**»[(٢)]. أي: هلَّا وضعتها في حجرك مثل ما وضعت أخاها!، وقد قبَّل النبي ﷺ مرة حفيده الحسن بن عليّ، وعنده صحابي، اسمه الأقرع بن حابس، فقال هذا الصحابي للنبي ﷺ: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحدًا منهم، فنظر إليه رسول اللَّه ﷺ ثم قال: «**إنه مَن لا يَرحَم لا يُرحم!**»[(٣)].

ويطول بنا المقام -أيها السادة!- لو رحنا نتعرف على خطر قضية «الطفل» في الإسلام، أو نستعرض بعضًا مما زخرت به كتب الفقه والشريعة من أحكام وتوجيهات ووصايا وتحذيرات تتعلَّق بالطفل: جنينًا، ووليدًا ورضيعًا وفطيمًا، ونشأة، وتربية وتعليمًا.. إلى أن يصبح أهلًا للمسؤولية: الشرعية والتكليفية.

(١) من حديث أبي أيُّوب الأنصاريِّ رضي الله عنه (ح١٥٦٦).
(٢) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١١٠٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا وإنَّ الأزهر الشَّريف في رسالتِهِ التَّنويريَّة للنَّاس، ومنهجه الوسطي الذي يحرص على تعليمه لطلابه منذ أكثر من ألف عام -ليرحب اليوم بكل ما جاء في هذا الكتاب من دفاع عن حقوق الأطفال وحمايتهم من العنف بكل أشكاله وأنواعه مثل زواج الأطفال، والزواج القسري، وختان الإناث، وعمل الأطفال، واغتصابهم، وغياب المظلة الأُسرية، وأطفال الشوارع، والعنف الأُسَري ضِد الأطفال، وعنف المدارس والمؤسَّسات التَّربويَّة والملاجئ الخيريَّة، واستغلال الأطفال في النِّزاعات المُسلَّحة والاتِّجار بالأطفال، والعنف الإعلامي ووسائل الاتِّصال الحَديثة ضدَّ الأطفال.

ولعلَّ من توضيح الواضِحات أن نَلفِتَ النَّظر إلى أنَّ حقوقَ الطِّفل في المنظور الغربيِّ قد منحت الأطفال بعضًا من الحُقوق لا يُقِرُّها المنظورُ الإسلاميُّ، ومن هنا وَجَبَ -فيما يرى الأزهر- أن يُحدَّد مفهومُ حُقوقِ الإنسانِ بشكلٍ عامٍّ، وحقوقِ الأطفال والمرأة بشكلٍ خاصٍّ -في إطار ثوابتِ الشَّريعة الإسلامية إذا طولب من البلدان العربية والإسلامية أن توقع على الاتِّفاقيَّات الدوليَّة للمرأة والطفل. وهذا أمر هامٌّ وجِدٌّ خطير ليس فقط من أجل احترام الخصوصيات الدينية والحضارية للأمم والشعوب، وإنما لأجل الحفاظ على الوحدة الداخليَّة للأنظمة الاجتماعيَّة لهذه الشُّعوب، وأيضًا لأجل تَحقيق تبادلٍ حضاريٍّ متكافئٍ ومُنسَجِمٍ بين الشَّرق والغَرب.

وأخيرًا كنت أتطلَّعُ إلى أن يَشمَلَ هذا الكتاب (المرجع)[١] للأسرة، أن يُبيِّن للأب والأم وللأسرة أن قدومَ الطفل إذا كان سببًا في سعادةٍ غامرةٍ للأبَوين ولأهليهما، فلا ينبغي أن تتحوَّل هذه السَّعادة إلى مَصدرٍ للإرهاقِ

(١) هذا الكتاب نشره المركز الدولي للدراسات والبحوث السكانية التابع لجامعة الأزهر الشريف، وعنوانه: «المنظور الإسلامي لحماية الطفل من العنف والممارسات الضارة».

الماديِّ للأبَوين بسببِ تكاليفِ بعضِ الاحتفالات التي جعلها الشرعُ من قبيل الأمور المستحبة أو المباحة، واستحسنها للقادرين عليها دون غيرهم، وذلك حتى لا يؤخذَ الأمر المباح أو المستحب مأخذَ الأمر الواجب أو المسنون، وتكون النتيجة وقوع الفقراء في محظور التكليف بما لا يطاق وهو ممنوع شرعًا.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم.

والسَّلام عَليكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.

* * *

مستقبل أطفالنا
في مرآة التكنولوجيا الحديثة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحَفْلُ الكَريم!

السَّلامُ عَلَيْكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.. وبعد،

فيُسعدني كثيرًا أن ألتقيَ بحضراتِكم للعام الثاني على التَّوالي للتباحثِ حولَ قضيةٍ من أخطَرِ القضايا التي تُقْلِقُ بالَ كُلِّ بيتٍ وكلِّ أُسرةٍ في الشَّرقِ والغربِ على السَّواءِ، ألَا وهي قضيَّةُ «أطفالنا» ومستقبلِهم الغامضِ المضطربِ في مرآةِ التكنولوجيا الحديثةِ، والعالَم الرَّقميِّ الجديدِ، وذلك بعدَ ما باتَ واضحًا لممثِّلي الأدْيَانِ ولكلِّ ذي قلبٍ وضميرٍ أنَّ هذا التطورَ «الرَّقميَّ» قد سَرقَ من هذه الكِياناتِ البشريَّةِ الضعيفةِ، براءتَها وأحلامَها وحقوقَها في طفولةٍ تتمتَّعُ بالحبِّ الطبيعيِّ، والدِّفءِ الإنسانيِّ، والحنان الأُسري، وفي ظِلِّ قوانينَ أخلاقيَّةٍ دوليَّةٍ صارمةٍ تحفظُ هذا الحقَّ وتُعاقبُ على الخروجِ عليه أشدَّ العقاب.

وأحسبُ أنَّ هذا المؤتمرَ وأمثالَه من المؤتمراتِ التي تَتَّخذُ من قضيَّةِ مُستقبلِ الطفولةِ المحفوفِ بالمخاطرِ هَمًّا مُتواصِلًا، هذه المؤتمراتُ لم تَعُدْ -اليومَ- تَرَفًا، ولا مجرَّدَ واجبٍ تُغني فيه كلماتٌ تُلقَى في اجتماعٍ هنا وهناك

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر قِمَّة الأديان تحت عنوان: «تعزيز كرامة الطفل في العالم الرقمي» الذي أقيم بالمقر الرئيسي للأكاديمية البابوية بالفاتيكان/ روما. إيطاليا، في: ١٨من ربيع أول سنة ١٤٤١هـ، الموافق: ١٥من نوفمبر سنة ٢٠١٩م.

ثم ينتهي الأمرُ، بل أصبَحَ أمرًا يُلقِي على كَواهِلِ المؤمنينَ باللَّهِ، وكَواهِلِ سائرِ العُقلاءِ من المفكِّرينَ والسِّياسيين، وأصحابِ القراراتِ السِّياسيَّةِ الدوليَّةِ المؤثِّرة، يُلقِي عليهم جميعًا واجبَ الإسراعِ بالتَّصَدِّي والمواجهةِ، وأمانةِ البحثِ الجادِّ عن مخرجٍ من هذه الأخطارِ المحدِقةِ بأطفالِ اليوم وشبابِ المستقبلِ وفُرسانِه، وحتى لا نُضِيفَ إلى مَآسِينا الحضاريَّةِ مأساةً جديدةً تُصِيبُ الإنسانيَّةَ في مَقْتَلٍ، ونستنسخُ بها صورةً مُتطوِّرةً من صورِ تجارةِ الرَّقيقِ، نستعيدُها في هذه البَراعِمِ البَريئةِ التي أوْشَكَت أنْ تتَحوَّلَ إلى «أَرِقَّاء» في أيدي الَّذين لا يُؤمنونَ إلَّا بالأرضِ وبالمادَّةِ وحدَها، وبما ينشأُ في ظلالِها من علاقاتِ الإنتاجِ، وفلسفاتِ السُّوقِ وقوانين العَرضِ والطَّلَبِ، وأخلاق الغرائزِ الهابطةِ والمنفَلِتةِ من كُلِّ قيودِ الفِطَرةِ المسْتَقيمة.

الحَفْلُ الكَريم!

إنَّ حقوقَ الطفلِ في شريعةِ الإسلامِ كدينٍ من الأديان متنوِّعةٌ ومحميَّةٌ بعُقوباتٍ شَرعيَّةٍ رادِعة، هذه الحقوقُ تُمثِّلُ مَقصِدًا مُقدَّسًا من مقاصدِ الإسلامِ بل ومقاصدِ جميعِ الأديانِ، وتعتبر مُبرِّرًا من مُبرِّرات الشرائع الإلهيَّة.

فحُقوقُ الطفلِ في الإسلامِ تبدأُ منذُ تخلُّقِه جَنِينًا في بطنِ أُمِّه، وتصاحبُه حتى نهاية مرحلةِ الطفولةِ، وقد تعدَّدَتْ هذه الحقوقُ في الإسلام حتى صارَ من بينِها حقُّ الطفلِ على أبيه في أن يختارَ له اسمًا حَسَنًا لا يُعرِّضُه لسُخريةِ الأطفالِ واستهزائِهم به، وحتى لا يضطرُّه الاسمُ النشازُ إلى الانطواءِ والتوحُّدِ والعدوانيَّةِ، وكان نبيُّ الإسلامِ يتدخَّلُ بنفسِه لتغييرِ أسماءِ الأطفالِ المسكونةِ بإيحاءاتٍ تُؤذي مشاعرَ الأطفالِ، ويستبدلُ بها أسماءً أُخرى مشرقةً جميلةً..

ويُقدِّمُ «الإسلامُ» الأُمَّ المسيحيَّةَ أو اليهوديَّةَ في حضانةِ طفلِها على الأبِ المسلمِ في حالةِ الانفِصالِ والطَّلاقِ. نعم تقضي شريعةُ الإسلامِ للأُم المسيحيَّةِ أو اليهوديَّة بحقِّ حضانةِ طفلِها دونَ الأبِ المسلمِ؛ مراعاةً لمصلحة الطفل، ولأنَّ هذا النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].. وليست عباراتي المقتضبةُ عن حقوقِ الطفلِ في الإسلام هي ما حملتني -أيتها السيداتُ والسادةُ!- على الوُقوفِ مُتَحدِّثًا أمامَكم، ولكن ما حمَلَني وجشَّمَني عناءَ السَّفرِ للتحدُّثِ إليكُم والإنصاتِ إلى كلماتِكُم مخاوفُ مُرْعِبَةٌ، أَشْعُر بها، ويَشعُر بها معي كلُّ مهمومٍ بهذه القضيَّةِ الإنسانيَّةِ، حين نُلاحِظُ أطفالَنا اليومَ، وقد صاروا عبيدًا فاقِدِي الحرِّيَّةِ والأهليَّةِ أمامَ جهازٍ صغيرٍ لا يُفارق أناملَ أيدِيهم البريئةِ، يَنامون به، ويَستيقظون على أضوائِه الزرقاءِ، ويَخلُدون إلى عالمِه الزَّائفِ المقطوعِ الصِّلَةِ بواقِعِهم الذي يعيشون فيه: يأكلون ويشربون ويتنفَّسون، ثم سرعانَ ما يهربون منه إلى عالمِهم الآخَرِ..

وقد لاحظتُ بنفسي بوادرَ اضطرابٍ شديدٍ في تفكيرِ الأطفالِ من حولي مِمَّن لم يَبلُغوا سِنَّ الثامنة عشرة، تُنذِرُ بحالةٍ أشبَه بهُوَّةٍ عميقةٍ بين الأطفالِ من ناحيةٍ وآبائِهم وأُمَّهاتِهم وذويهم من ناحيةٍ أخرى، سواءٌ في التَّفكيرِ أو في التَّصور، بل حتى في الأُسسِ المنطقيَّةِ الحاكمةِ لعمليَّةِ التفكيرِ، والتي كانت إلى عهدٍ قريبٍ محلَّ إجماعِ الأُسرةِ والصِّغارِ والكبارِ، كما لاحَظتُ ميلَ الأطفالِ إلى «العُزْلَةِ» و«التَّوحُّدِ» و«اللَّامُبالاة»، و«الكسل والخمُول»، وبوادر العُنفِ والعداءِ المكتومِ، وغير ذلك مِمَّا يُنْذِرُ بأمراضٍ نفسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ تَتربَّصُ بهذه الورودِ التي لم تَتَفتَّحْ أكمامُها بعدُ.

(١) رواه الترمذي من حديث أبي أيُّوب الأنصاريِّ ﷺ (ح١٥٦٦).

ولقد شَغَلَتْ هذه المخاطرُ حَيِّزًا كبيرًا من تفكيري، وتفكيرِ أخي وصديقي قداسةِ البابا فرانسيس، بابا الكنيسة الكاثوليكيَّة، حين كُنَّا نعمَلُ سويًّا على إعدادِ وثيقةِ الأخوَّةِ الإنسانيَّةِ، وهو ما دفَعَنا إلى طرحِ هذه المشكلةِ ضِمنَ المبادئِ الأساسيَّةِ الواردةِ بهذه الوثيقةِ التاريخيَّةِ، والتي تنصُّ على: «أنَّ حُقوقَ الأطفالِ الأساسيَّةَ في التنشئةِ الأُسَريَّةِ، والتغذيةِ والتعليمِ والرعايةِ، واجبٌ على الأسرةِ والمجتمعِ، وينبغي أن تُوفَّرَ وأن يُدافَعَ عنها، وألَّا يُحرَمَ منها أيُّ طفلٍ في أيِّ مكانٍ، وأن تُدانَ أيَّةُ مُمارسةٍ تَنالُ من كَرامتِهم أو تُخِلُّ بحُقُوقِهم، وكذلك ضَرورةُ الانتباهِ إلى ما يَتعرَّضُون له من مَخاطِرَ -خاصَّةً في البيئةِ الرقميَّةِ- وتجريمِ المُتاجَرةِ بطفولتهم البريئةِ، أو انتهاكها بأيَّةِ صُورةٍ من الصُّوَرِ».

أيُّها السَّادة!

لا يُخامرني أدنَى شك في أنَّ هذه الثورةَ التقنيةَ الرقميةَ لن تتوقَّفَ عن تطورٍ يختلطُ فيه النافعُ بالضَّار، والمصلحةُ بالمفسدة، ما دامت هذه الثورةُ تتطوَّرُ في غيبةٍ من حراسةِ الأديانِ والأخلاق الإلهيَّة - ومن هنا فإنَّ البحثَ عن حلٍّ لهذا الإشكال لا يكونُ بمجابهةِ هذه الثورةِ، وإنَّما يكونُ بالبحثِ الجادِّ عن إمكان العودةِ إلى كيفيَّةِ الرَّبطِ بين التقدُّمِ العلميِّ وبين الدِّين بحُسبانِه حارسًا أمينًا على الأخلاقِ الإنسانيَّةِ. شريطةَ أن نَأخُذَ الدِّينَ من الكُتُبِ المقدَّسةِ ومن تعاليمِ الأنبياءِ وسُلوكهم وتصرُّفاتهم.

هذا وإنَّ الانفصامَ الذي حدث بين مسارِ العلمِ ومسارِ الدِّينِ لهو -في رأيي- مأساةُ الإنسانِ المعاصرِ الذي يَتقدَّمُ في مجالِ علومِه وتقنيَّاتِه بقدرِ ما يتقهقرُ ويتراجعُ في مجالِ الأخلاقِ والآدابِ والفضائلِ، بل إنَّ هذا السِّباقَ المطردَ بين التقدُّمِ العلميِّ والتقهقر الخُلُقي هو السبب الأوحد وراءَ كوارثِ الإنسانِ الحديثِ وعِلَلِه المستعصية على العلاج. . فمن السهلِ جِدًّا أن تجدَ

الآنَ ربطًا منطقيًّا بين التطورِ العلميِّ المذهلِ في مجالِ الأسلحةِ الفتَّاكة مثلًا، وبين الحروبِ المأساويةِ اللاإنسانيةِ في بلادِنا ومنطقتِنا العربيَّةِ والإسلاميَّة، بل من السهلِ أن تجدَ علاقةً بين وَفْرةِ اقتصادِ السِّلاحِ وبينَ الإرهابِ، وتنظيماته وجماعاته التي استقطبت الأطفالَ إلى مُعسكراتِها وجنَّدتهم في التدريبِ والانخراطِ في صُفوفِ القتال. . وها هي تقاريرُ الأُمَمِ المتحدة تُشيرُ إلى أنَّ ما يقرب من ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف طفل) انضمُّوا لجماعة بوكو حرام الإرهابيَّة، وأنَّ ثلاثَ مئةِ طفلٍ انضمُّوا إلى تنظيمِ داعش، وأنَّ كثيرًا من هؤلاء الأطفال دُرِّبوا على الهجومِ على عائلاتهم وذويهم، إظهارًا لولائِهم الأعمَى والمُطْلَقِ لقادةِ تلك التنظيمات، ولا يزالُ استِقطابُ هؤلاء الضحايا الأبرياء يَجري على قَدَمٍ وساقٍ من خلالِ شبكاتِ التَّواصُل الاجتماعي، والألعاب الرقميَّة ومواقِع إلكترونيَّة تعملُ على غَسْلِ أدمغتهم وحشوها بصورِ العُنفِ والإجرامِ والتفكيرِ العدوانيِّ، وقد استطاعَ تنظيمُ داعش أن يجنِّدَ أعدادًا هائلةً من الأطفالِ والشَّباب والفتيات عبر هذه الوسائل، ويحوِّلهم إلى جنودٍ يقتلونَ فريقًا من النَّاسِ ويذبحون فريقًا آخر.

وكارثةٌ أخرى من كوارث البيئة الإلكترونيَّة تُكشِّرُ عن أنيابِها اليوم، وهي تمكينُ وحوشِ الجرائم الجنسيَّة من سُهولةِ الانقضاضِ على ضحاياهم من الأطفالِ وتشجيعهم على الالتحاقِ بهم، وقُدرتهم على إخفاءِ هُويَّاتهم، وإنشاء هويَّاتٍ مُزيفةٍ تجعلُ من مُلاحقتهم قضائيًّا ضربًا من المستحيلِ، مِمَّا يضعُ خصوصيَّةَ الأُسَرِ وكرامةَ أطفالها في مَهَبِّ الريحِ، ومِمَّا حَمَل مُنظَّمة اليونيسيف في تقريرِها عن «الأطفال في العالم الإلكترونيّ عام ٢٠١٧م» أن تُصرِّحَ بأنَّه «لا يوجدُ طفلٌ بمأمنٍ من المخاطرِ على شبكة الإنترنت، وأنَّ الأطفالَ الأكثرَ عُرضةً هم الأطفالُ الأكثَرُ استِخدامًا لهذه الشبكة»، ولا يَخفى على حضراتكم أنَّ الكثيرَ من جرائم ابتزاز الأطفالِ جِنسيًّا تحدُثُ في

دولٍ أوروبيَّة، ودولٍ مُتقدِّمة تكنولوجيًّا، يُسيء أطفالُها استخدامَ التقنيات الرقميَّة بسببِ غيابِ المراقبة.

السَّادَةُ الحضور!

ما أظنُّني في حاجةٍ إلى التأكيدِ على الجانبِ الإيجابيِّ للتكنولوجيا الرَّقميَّة، ذلكم الجانبُ الذي قدَّمَ للإنسانيَّةِ خدماتٍ كُبرى ومصالحَ هائلةً، وكثيرٌ منها يتمُّ إنجازُه في جزءٍ صغيرٍ من الزَّمن يُشبه لمحَ البَصَر، وبعضُها تتلاشى فيه آمادُ الزمان وتَنطَوِي فيه أبعادُ المكان، بما يُشْبِهُ المعجزةَ، وبعضُها يختصرُ العالَم اختصارًا في مساحةٍ لا تتجاوزُ بضعةَ سنتيمترات، وأهمُّها في نظري هي ما تُقدِّمه التكنولوجيا الرقميَّةُ من توفيرِ فُرَصِ التعلُّم للأطفالِ المحرومين من هذه النعمةِ بسببِ ما ابتُلِيت به بلادُهم من صراعاتٍ وحروبٍ وفقرٍ ومجاعاتٍ وهجراتٍ قسريةٍ.

ومن جانبي لا أملُّ من توجيهِ الشُّكر للمُنظَّماتِ والمبادراتِ الحكوميَّةِ والأهليَّةِ التي وظَّفَت الوسائطَ الإليكترونيةَ في إنقاذِ هؤلاء الأطفالِ من براثنِ الجهْلِ والأميَّةِ في القرنِ الواحدِ والعشرين.

السَّيِّداتُ والسَّادة!

الكلامُ عن كرامةِ الطفل في العالمِ الرَّقمي كلامٌ متشعِّبٌ، والحديثُ فيهِ حديثٌ تختلطُ فيه مشاعر الإعجاب بمشاعر الإحباط، بل بمشاعرِ القَلَقِ والتوتُّرِ أيضًا.. وقديمًا كان التقدُّم العلميُّ يَصبُّ في مصلحةٍ خالصةٍ للإنسانيَّةِ جمعاء، لأنَّه كان يتقدَّم في حمايةِ حارسٍ أمينٍ من القِيَمِ الخُلُقيَّة.. واليومَ كلُّ تقدُّمٍ علميٍّ هو سلاحٌ ذو حَدَّين، يَصعُبُ فيه فرزُ الأفضلِ لتطبيقِه، واستبعادُ الأسوأ لتَجَنُّبِه.. ومَرَّةً أخرى هذه هي المشكلةُ، وعلينا أن نختار.

وأنا لا أدَّعي أنَّني أحمِلُ في جُعْبَتي علاجًا لهذه العِلَّةِ الحضاريَّةِ، فَوقْفُ

آلة التقدُّم العلمي مستحيلٌ، والعودةُ بالماردِ إلى القُمْقُمِ مَرَّةً أُخرى خيالٌ بائسٌ، وما يتبقَّى لنا نحن المتضرِّرين من سلبياتِ هذا التطورِ المحتومِ، سواء كُنَّا مؤمنين باللَّه أو غير مُؤمنين، مِمَّن لا يزالُ للأخلاقِ الإنسانيَّةِ مكانٌ في قلوبِهم وضمائِرهِم - ما يتبقَّى لنا هو:

أَوَّلًا: عودةُ مسؤوليَّة الأُسرة عن الطفل، ومراقبتُها للأطفالِ، وحَقُّها في التوجيهِ والتأديبِ والتهذيبِ، وألَّا يُعَدَّ شيءٌ من ذلك ضربًا من ضروب العُنف تمارسه الأُسْرَة ضِدَّ الطفل، فحمايةُ الطفل من الأوبئة والأمراض الخُلُقيَّة أوجَبُ وألزَمُ بكثيرٍ من دعاوى حق الطفل في حُرِّيَّاتٍ لا محدودة تُقدِّمُه لُقمةً سائغةً لأمراض أعنفَ وأشدَّ فتكًا.

وثانيًا: التذكيرُ الدَّائم الذي لا يَمَلّ ولا ينقطع بالآثار التدميريَّة لثورة التكنولوجيا الرقميَّة، ومواصلةُ طرح هذه القضايا على طاولاتِ النقاش في المؤسسات الدِّينيَّةِ أوَّلًا، ثم في مؤسَّسات التعليم. وفي البرامجِ والمقرَّراتِ التعليميَّة وبخاصةٍ في مراحلِها الأولى، وكذلك في المنظَّماتِ الحكوميَّة والأهليَّة وفي مُقدِّمتِها: مُنظمةُ الأُمَم المتحدة واليونيسكو، وغيرُها.. وأن تكون لكرامةِ الطفل أولويَّةٌ وأهميَّةٌ قُصوى في الاتفاقياتِ الدوليَّةِ الخاصَّةِ بالطفلِ، وذلك كُلُّه أَمَلًا في تكوينِ وعيٍّ إنسانيٍّ دوليٍّ يُمثِّلُ «مانعةَ صواعق» تحمي الأطفالَ من الاحتراقِ بلهيبِها.

وأختم كلمتي بعقدةٍ أخيرةٍ تَتمثَّلُ في الأثرِ السَّلْبيِّ لعولمةِ اتفاقيات الطفل، وإلغاء الفروق، وكلِّ صورِ التمييز بين الرَّجُلِ والمرأة، فمثلًا بعضُ بنودِ هذه الاتفاقيات المتعلِّقة بحقوقِ الطفل صِيغَت في جَوٍّ حضاريٍّ مختلفٍ كثيرًا أو قليلًا عن جوٍّ حضاريٍّ آخَر، ومن «هنا وجَبَ -فيما أرى- أن تُراعَى في صياغةِ حقوقِ الطفل ثوابتُ الثقافات الأُخرى وبخاصَّةٍ: الثقافات

الشرقيَّة، التي تحفلُ بالأديانِ، وتنزلُها منزلةً عُليا من الاحترامِ والتقديسِ منذُ آلافِ السِّنين»، ولذلك أدعو إلى «مُؤتمرٍ» يناقشُ هذه القضيَّة، ويأخذُ في الاعتبار مبدأَ احترام الحضارات، وهو المبدأُ الوحيد الذي يُحقِّق ما نصبُوا إليه جميعًا من تبادلٍ حضاريٍّ متكافئ ومُنسجمٍ بين الشَّرقِ والغرب.

أشكُرُ حضراتكُم جميعًا لِحُسْنِ استِماعكُم، وأتوجَّهُ بجزيلِ الشُّكرِ لكلِّ مَن أسهَمَ في تنظيم هذا المؤتمر الهام، الذي يمثلُ همًّا رئيسًا يجبُ أن يشتغلَ به كل الباحثينَ عن مستقبلٍ أفضلَ لعالَمِنا.

شُكْرًا لكُم.. والسَّلام عَليكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.

* * *

طلائع الكتب

طليعةُ كتاب «التَّجلِّيات الرُّوحيَّة في الإسلام»(١)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

قد تتفق معي -أيها القارئ المدقِّق في هذا السِّفر الثمين- أن الكتابة في التصوف عامةً، وفي التصوف الإسلامي بخاصةٍ، ليست سهلةً ولا ميسورةً، وأنَّ الحكم له أو عليه أمر بالغُ الصعوبةِ؛ إذا ما أُريدَ لهذا الحكم أن يجيء ثمرةً لنظرٍ دقيقٍ في تراث التصوف من ناحية، وفي مقاصدِ الأديانِ وآفاقِها المتعاليةِ من ناحيةٍ أخرى. وما لم يتأهل الباحثُ للسير في هذين الحقلينِ على هدًى من نور العقلِ ونورِ القلب معًا، فإن نتائجَ بحثِه لا تنجُو منَ القلقِ والاضطرابِ إن لم نَقلْ من التَّضاربِ والتناقض، ولعلَّ السببَ في ذلك أن التجربةَ الصوفيةَ في جوهرها تجربةٌ ذاتيةٌ، متفردةٌ، غيرُ قابلةٍ للتكرارِ أو الاشتراكِ، وأنَّ اللغةَ على اتساعها كثيرًا ما تعجزُ عن الإفصاحِ بمكنونات هذِه التجاربِ وأسرارِها المعقدة، ومن أئمةِ التصوف أنفسِهم مَن لفتوا إلى هذا الملَحظِ، وهم يتحدثونَ عن صعوبةِ «تعريف التصوف»، وقرَّروا أنَّه لا مطمعَ في تحديدِ معناه تحديدًا جامعًا مانعًا؛ لتبدُّلِ أحوالِ الصوفي، وتغيُّرِ إرادتِه، وتعدُّدِ أذواقِه ومواجيده، وأنَّ غايةَ ما يُقالُ في هذا الباب إنَّما هو إشاراتٌ وعباراتٌ تُومئُ من بعيدٍ إلى معنى يقعُ خلفَ العباراتِ والإشاراتِ:

---

(١) كتبت هذه الطليعة لكتاب: «التجليات الروحية في الإسلام: نصوص صوفية عبر التاريخ» دراسة وإعداد وتقديم: جوزيبي سكاتولين، وأستاذ التصوف وبالمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما. وقد طبع الكتاب في الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة: ٢٠٠٨م.

عباراتُهم شتَّى، وحسنُك واحد   وكلٌّ إلى ذلك الجمالِ يُشيرُ

وإذا أضفتَ إلى سعة الذوقِ الصوفي ضِيقَ اللغة عن وصفِه وشرحِه أدركتَ «عسر اللغة الصوفية» وبخاصَّةٍ تلك التي تتعلَّق بشوارقِ «الحب الإلهي» . . عند المولَّهينَ من أهل اللَّه، وعَلِمتَ أن ما يصدُرُ عنهم أحيانًا من عباراتٍ «قلقة» أو «متوترة» بمقاييسِ الشَّرعِ إنَّما مردُّها إلى أحوالٍ تملِكُهم، وليسَ إلى ضلالاتٍ يقترفونَها عن وعيٍ وقصدٍ . . وهذا هو شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمَه اللَّه، وهو عمدةُ ناقدي الصوفيَّة والتصوف، وملهمُهم الأكبرُ على مدى قرونٍ عدةٍ، لم يَسعْه إلا أن يلتمسَ العذرَ لأربابِ الأحوالِ، وقد اعترفَ- في شيء غير قليلٍ منَ الإنصافِ وحُسنِ القصد- أن مقامَ «السُّكر» في الحبِّ الإلهيِّ أرفعُ منزلةً من مقام «الصَّحو» وقال- وهو يتحدث من التصوف والصوفية:

«ومن هؤلاءِ مَنْ يقوَى عليه الوارِدُ حتَّى يصير مجنونًا . . ومن هؤلاءِ عقلاءُ المجانينِ الذين يُعدون في النسَّاكِ وقد يُسمَّون : المولَّهين. . . فهذه الأحوالُ الَّتي يقترنُ بها الغَشيُ أو الموتُ أو الجنونُ أو السُّكرُ أو الفناءُ، حتى لا يَشعُرَ بنفسِه ونحوِ ذلك، إذا كانت أسبابُها مشروعةً وصاحبُها صادقًا عاجزًا عن دَفعِها كان محمودًا على ما فَعلَه مِنَ الخيرِ، وما نالَه من الإيمانِ، معذورًا فيما عَجزَ عنه وأصابَه بغير اختيارِه، وهم أكملُ ممَّنْ لم يبلغ منزلتَهم لنقصِ إيمانِهم وقسوةِ قلوبِهم ونحوِ ذلك منَ الأسبابِ التي تتضمَّنُ تركَ ما يُحبُّه اللَّهُ أو فِعلَ ما يكرهُه اللَّه. ولكن مَن لم يَزُل عقلُه مع أنه قد حصل له من الإيمانِ ما حصلَ لهم أو مثلُه أو أكملَ منه فهو أفضلُ منهم، وهذه حالُ الصحابة ﭬ، وهو حالُ نبيِّنا ﷺ، فإنه أُسريَ به إلى السماءِ وأراه اللَّهُ ما أراه، وأصبحَ كبائتٍ لم يتغيَّرْ عليه حالُه، فحالُه أفضلُ من حالِ موسى ﷺ

الذي خَرَّ صَعِقًا لما تجلَّى ربُّه للجبلِ، وحالُ موسى حالٌ جليلةٌ عليَّة فاضلة، لكنَّ حالَ محمد ﷺ أكملُ وأعلا وأفضلُ»[(١)].

وهذا الكتابُ الجليل الذي نقدِّمُ له يَعرِضُ في أمانةٍ علميةٍ دقيقةٍ مظاهرَ التجليَّاتِ الروحيَّةِ في الإسلامِ، ويتحدَّث عن التصوفِ الإسلاميِّ نشأةً وتطورًا وازدهارًا وعرضًا لبعضِ المفاهيم والقضايا الإنسانية، وذلك من خلالِ نصوصِ شيوخِ التصوفِ أنفسِهم، وأخذًا من كتبِهم وأقوالِهم، بدءًا مِنَ القرنِ الأول وانتهاءً بالقرن السابع الهجريين.

والكتاب في هذه الخطةِ العلميَّةِ الجادَّة سِجلٌّ حافلٌ لأقوالِ الصوفيَّةِ المسلمينَ في هذه الفترةِ التاريخيَّة الطويلة، ومنجمٌ مملوءٌ بمأثوراتِ كبارِ الشيوخِ والعارفين باللَّه تعالى؛ وقد جمعَ هذا الكتاب دررًا غواليَ من عيون قصائد الحبِّ الإلهيِّ وأسرارِه، واحتشدَ فيه من أقوالِ الصوفيَّةِ قدرٌ كبيرٌ قلَّ أن يجتمع في سفرٍ آخر قبل هذا الكتاب.

ومما يزيدُ القارئ اعتزازًا وتقديرًا لهذا المصنَّفِ الخصب الثري أنَّ جامعَه أ.د جوزيف سكاتولين عالمٌ كبيرٌ جليلُ القدرِ في ميدانِ التصوفِ الإسلاميِّ، وقد قضى شطرًا طويلًا من عمره المباركِ المديدِ غارقًا في تحصيلِ عُلومِ القومِ ومعايشتِها ودراستِها وتدريسِها، وهو أستاذ التصوفِ الإسلامي بالمعهد البابوي للدراساتِ الإسلاميَّة والعربية بمدينة روما، وأحدُ كبار المغرِّدينَ في دَوحةِ الشاعر الصوفيِّ المصريِّ سلطان العاشقين: ابن الفارض، وله أيادٍ بيضاءَ في تحقيقِ ديوانِه وإخراجِه لأوَّل مرةٍ في نشرة علميَّةٍ نقديَّةٍ، وذلك رغمَ عسرِ اللغةِ الشعريَّةِ في قصائدِ سلطان العاشقين، ورغم الغموضِ الشديد في مفرداتِه العذبةِ والقويَّة في الآنِ نفسِه، وقد

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١١/١٢، ١٣. مطابع الرياض، ١٣٨١هـ.

استطاع أ.د سكاتولين -وهو الغريبُ عن العربيَّةِ- أن يغوصَ في لغةِ ابن الفارضِ، ويستخلصَ لنا ديوانَه في نشرةٍ علميَّةٍ نادرةٍ . . فله منا -أهلَ اللغةِ العربية- الثَّناءُ العاطرُ والشكرُ الجزيلُ، وللأستاذ / أحمد حسن أنور الثناء الجميلُ على ما قدَّمَ في هذا الكتاب القيِّمِ.

* * *

طَليعةُ
«التفسير الواضح»(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وبعدُ:

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هو مُعجِزةُ الإسلامِ الكُبرى التي أَنزَلها اللَّه على قَلبِ رسولِه محمَّدٍ ﷺ وبَلَّغه للنَّاسِ، وكانت طريقًا للإيمانِ باللَّهِ ورسولِه سارَ عليها المسلمونَ قديمًا، ولا يزالونَ يَسِيرونَ عليها ويَستضِيئون بنُورِها حتى يومِ النَّاسِ هذا، ولا يَعرِفُ النَّاسُ مُعجزةً إلهيَّةً مِن مُعجزاتِ الأنبياءِ والمرسَلين السابقينَ على نبيِّ الإسلامِ -بَقِيَتْ وستَبقَى حيَّةً خالدةً رغمَ تقلُّبِ الأيامِ وتبدُّلِ الزمانِ والمكانِ- غيرَ المُعجِزةِ التي تُسمَّى «القرآن الكريم».

ويحدِّثُنا التاريخُ المكتوبُ أنَّ مُعجزاتِ الأنبياءِ السَّابقينَ كانت محدودةَ الزَّمانِ ومحصورةَ المكانِ، وجاءت كلها في صورة مُعجزاتٍ حسِّيَّةٍ ذات دَلالاتٍ عقليَّةٍ لدَعوةِ قومٍ مخصوصينَ، في مكانٍ مُحدَّدٍ وزمنٍ مُعيَّنٍ، فلا غرو، والحال كذلك، أن ينتهي أثرُها بانتهاءِ الجِيلِ المكلَّفِ بهذه الرِّسالةِ، وبرَحِيلِ النَّبيِّ الذي ظَهرَت على يدَيْه هذه المُعجزةُ أو تلك، ومِن هُنا كانت رِسالاتُ الأنبياءِ السَّابقينَ الذين أَظهَروا هذا النوعَ مِن المُعجزاتِ رِسالاتٍ

(*) طليعة كتاب التفسير الواضح، للدكتور محمد محمود حجازي، وقد كتبت في: ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٧هـ، الموافق: ٢٨ من أغسطس ٢٠١٦م.

مقصورةً على أقوامٍ مخصوصِينَ، وفي فتراتٍ زمنيَّةٍ محدودةٍ لا تتعدَّاهُم إلى غيرِهم، ولا يُكلَّفُ بالإيمانِ بها جِيرانُهُم مِن الأمصارِ التي لا تخاطِبُها هذه الرِّسالةُ، ولا الأجيال التي تأتي مِن بعدِ هؤلاءِ المخاطَبين بالرِّسالةِ، ولم يتأتَّ لهم معاصرة الرسول ولا مشاهدةَ معجزته.

والقرآنُ الكريمُ يُرسِّخُ في ذِهنِ الناظرِ فيه هذا المعنَى؛ وهو يَربِطُ ربطًا صريحًا بينَ النبيِّ وقومِه وبيئتِه في دَلالةٍ صريحةٍ أيضًا على أنَّ هذه الرِّسالاتِ لم تكن عامَّةً ولم تكن مُطلَقةً في المكانِ، ولا عابرةً للأزمانِ، وذلكَ في مِثلِ قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

والآياتُ كثيرةٌ ومُتكرِّرَةٌ في الدَّلالةِ على أنَّ كُلًّا مِن موسى وعيسى عليهما السلام قد أُرسِلا إلى بني إسرائيلَ خاصَّةً، وحتى رسالةُ نوحٍ عليه السلام كانت هي الأخرى إلى قومِ هذا النبيِّ الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] مما يدُلُّ دَلالةً قاطعةً على أنَّ المُعجزاتِ السابقةَ على مُعجزةِ القُرآنِ الكريمِ كانت مُوجَّهةً إلى مُعالجةِ انحرافاتٍ عَقَدِيَّةٍ وأمراضٍ أخلاقيَّةٍ واجتماعيَّةٍ كانت تُصيبُ مجتمعاتٍ وشعوبًا أُرسِلَ إليها الكثيرُ مِن الأنبياءِ والعديدُ من المرسلينَ، ولهذا جاءتِ المعجزاتُ السابقةُ مُعجزاتٍ ماديَّةً، أو لنَقُلْ: مُشاهَدةً بحواسِّ الإنسانِ الظَّاهرةِ، ومِن شأنِ هذه المعجزاتِ أن يَذهبَ أثرُها بذَهابِ الجيلِ الذي شاهدَها وأَبصرَها، وكانت حُجَّةً عليه في الإيمانِ بمَن ظَهَرتْ على أيديهم هذه المعجزاتُ. ولأنَّه مِن حَقِّ الأجيالِ اللَّاحقةِ أن تقولَ: إنَّنا لم نَرَ هذه المُعجزاتِ، ولم نُشاهِدْها، ومِن ثَمَّ فلا تَلزَمُنا دَلالاتُها على هذا النَّبيِّ أو ذاكَ. وحينئذٍ تبطُلُ إقامةُ الحُجَّةِ على المكلَّفين إذا انصَرَفوا عن الإيمانِ باللَّه تعالى وكُتُبه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وقالوا: إنَّنا لم نَرَ رسولًا ولا رسالةً ولا مُعجزةً.

ودَورُ المُعجزاتِ هو إزاحةُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ العقليَّةِ التي تَحُولُ بين المكلَّفِ والتَّصديقِ بالنَّبيِّ الذي أظهَرَ هذه المُعجزةَ، بحيثُ يكونُ عَدَمُ الإيمانِ به مع هذا الوُضوحِ جُحُودًا وتَنكُّرًا للحقِّ الصَّريحِ، ورَفضًا لحقيقةِ الإيمانِ باللَّهِ سبحانه وتعالى.

ومِن هنا كانتِ الشُّعوبُ والأقوامُ الذين لم تُرسَلْ إليهم الرُّسُلُ أو الأنبياءُ ناجِينَ رغمَ عَدَمِ إيمانِهِم، وهؤلاءِ يُسمَّونَ: «أهلَ الفَتْرةِ»، أي الذين جاءوا في الفَترَاتِ الزمانيَّةِ التي تَفصِلُ بين رسالةٍ انتهى زَمَنُها، ورسالةٍ أخرى جديدةٍ مُتغايرةٍ زمانًا ومكانًا، وهذا ما يُؤصِّلُه القُرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأيضًا في قولِه تعالى مُخاطِبًا نبيَّه ﷺ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]. ومَعاذَ اللَّهِ ومَعاذَ حِكمتِه البالغةِ وعَدلِه المُطلَقِ أن يُعذِّبَ إنسانًا لم تَقُمْ عليه حُجَّةٌ بإرسالِ رسولٍ وإظهارِ مُعجزةٍ تُؤيِّدُه وتُصدِّقُه.

وإذا تقرَّرَ في العقلِ -وفي التاريخِ أيضًا- أنَّ الرِّسالاتِ السابقةَ على الإسلامِ كانت رِسالاتٍ مُؤقَّتةً في الزمانِ والمكانِ، فمِن غيرِ المعقولِ أن يَحرِمَ اللَّهُ باقيَ الشعوبِ والأُممِ الإنسانيَّةِ مِن هَدْيِه ولُطفِه، ويترُكَهُم يَهيمونَ على وُجوهِهم دُونَ هادٍ يَهديهم إلى نُورِ السماءِ وطريقِ الحقِّ ومعرفةِ الخيرِ والشرِّ والحَسَنِ والقبيحِ، وأصبحَ مِن مُقتضى الحِكمةِ الإلهيَّةِ إرسالُ رسولٍ يأتي برسالةٍ عامَّةٍ غيرِ مَحصورةٍ في أقوامٍ مُعيَّنينَ، ولا محدودةٍ بفترةٍ من الفَترَاتِ، يُنقِذُها مِن الجهلِ والضلالِ والانحرافِ؛ وهذه هي رسالةُ الإسلامِ التي جاءت عامَّةً للناسِ كلِّهم، لا تتقيَّدُ بزمانٍ دُونَ زمانٍ، ولا مكانٍ دُونَ آخَرَ، ولا بقَومٍ دُونَ قَومٍ آخَرينَ.

لذلك كان أخَصُّ ما تميزَتْ به رسالةُ الإسلامِ هو أنها رسالةٌ خاتمةٌ، ومَعنَى خاتميَّتِها أنَّها الرسالةُ الأخيرةُ للإنسانيَّةِ، والبلاغُ الإلهيُّ الذي لا

بَلاغَ بعدَه للعالَم، والوحيُ السماويُّ الذي لا وحيَ يعقُبُه، بعد أن انقطَعَتْ صِلةُ السماءِ بالأرضِ برَحِيلِ نبيِّ الإسلامِ عن هذه الدُّنيا.

ويُمكِنُ القولُ بأنَّ عُمومَ رسالةِ الإسلامِ وخاتميَّتَها هما وجهانِ لعُملةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ العُمومَ يَقتضي استغراقَ الزَّمانِ والمكانِ، وإلَّا لم يَصِحَّ إطلاقُ وصفِ العُمومِ، وكذلكَ الخاتميَّةُ تقتضي ثباتَ هذه الرسالةِ، واستمرارَها في الزَّمانِ، واستحالةَ انقطاعِها لتَخلُفَها رسالةٌ أخرى جديدةٌ تَنسَخُها، وإلَّا لمَا صحَّ إطلاقُ وَصفِ الخاتميَّةِ عليها، فكلٌّ مِن هذَيْنِ الوَصفينِ يطلُبُ الآخَرَ ويَقتضِيه، وقد صدَّقَ التَّاريخُ هاتينِ الحقيقتينِ، فلم يكن الإسلامُ نداءً خاصًّا بأمَّةٍ دون أمَّةٍ، ولا مُؤقَّتًا بزَمَنٍ معيَّنٍ تنسَخُه بعدَها رسالةٌ جديدةٌ.

وانظُرْ كيف مَضَى على ظُهورِ الإسلامِ قُرابةُ خمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِن الزَّمانِ لم يَسمَعِ النَّاسُ فيها أنَّ نبيًّا ظهرَ في مكانٍ ما على وجهِ الأرضِ، واتَّبعَتْه أمَّةٌ أو قومٌ، ونزلَ عليه وَحيٌ يُبَلِّغُه إلى النَّاسِ ويتَّخِذُون منه دِينًا يَقِفُ على قدَمَيه إلى جِوارِ الأديانِ السَّماويَّةِ الثَّلاثةِ، أو يُعَدُّ دِينًا رابعًا يَذْكُرُه النَّاسُ مع هذه الأديانِ الكُبرى.

وإذا ثَبَتَ أنَّ الإسلامَ رسالةٌ عامَّةٌ وخاتمةٌ؛ ثَبَتَ أيضًا أن تكونَ مُعجزتُه التي يُظهِرُها اللَّهُ على يدَيْ رسولِه مُعجزةً مُتجانسةً مع بقاءِ هذه الرسالةِ واستمرارِها، وإذا كان طبيعةُ المُعجزاتِ الحسيةِ السابقةِ على مُعجزةِ الإسلامِ لم يتوفَّرْ لها عُنصرُ البقاءِ والدوامِ، بعدما تلاشَتْ بتلاشي مُشاهِديها، وفَقَدتْ تأثيرَها في الأجيالِ اللاحقةِ؛ لَزِمَ -إذًا- أن تجيءَ مُعجزةُ الإسلامِ مِن نوعٍ آخَرَ يتَّصِفُ بالدوامِ والحضورِ والخلودِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهذا كله لا يَتوافَرُ إلا في المَعاني العقليَّةِ التي تُدرَكُ -فقط- بالعَقلِ الذي هو أَعدَلُ الأَشياءِ قِسمةً بينَ النَّاسِ.

مِن هُنا كانت مُعجزةُ الإسلامِ الكبرى التي يَتوافَرُ لها شرطُ الاستمرارِ

والبقاءِ وإقامةِ الحُجَّةِ على كلِّ مَن يُمعِنُ النظرَ فيها ويتأمَّلُها - هي القرآنَ الكريمَ الذي هو مُعجزةٌ عقليةٌ عابرةٌ لحدودِ الزمانِ والمكانِ، ومِن ثَمَّ كانَ القرآنُ حُجَّةَ اللَّهِ على خَلْقِه، والنورَ الذي يُمثِّلُ اللُّطفَ الإلهيَّ بالإنسانيَّةِ التائهةِ، والتي ظَلَّت رَدَحًا من الزَّمانِ هائمةً في دَياجيرِ الظلامِ والضلالِ، لا تَهتدي إلى الحقِّ، ولا تُبصِرُ الحقيقةَ بين أخلاطٍ ومُتناقِضاتٍ من العقائدِ والعوائدِ والأخلاقِ، لا يَصِحُّ أحدُها إلَّا ريثَما يُبطِلُه الآخَرُ ويُفنِّدُه ويأتي عليه مِن الجُذورِ.

فالإنسانيَّةُ مثلًا -مِن غيرِ القرآنِ- لم تكن لتعرِفَ عن الأنبياءِ والرُّسلِ الكثيرَ مما يليقُ بطُهْرِهم ونقائِهم وعِصْمتِهم عما يَرتكِسُ فيه عامَّةُ الناسِ مِن أوحالِ الشِّركِ، ويَقترِفُونه مِن آثامٍ ومَعاصٍ وذُنوبٍ؛ بل كانت الإنسانيَّةُ ستَجهَلُ -وإلى الأبد- كثيرًا مِن عالمِ الغيبِ ومِن أُمورِ البعثِ مِن حسابٍ وعِقابٍ وجَنَّةٍ ونارٍ، دَعْ عنك أمشاجًا مُختلِطاتٍ مِن مواريثَ مختلفةٍ اختَلَطَ فيها الحقُّ بالباطلِ، والصوابُ بالخطأِ، مَسَّتِ العقائدَ والعباداتِ والتشريعَ مَسًّا مُباشِرًا، ولولا نُزولُ القُرآنِ الكريمِ لَغابَ عن الناسِ كثيرٌ مِن تصحيحِ هذه الأخلاطِ، ومن بيان الحقائقِ التي تتوقَّفُ عليها المعرفةُ الحَقَّةُ باللَّهِ وبالإنسانِ والكونِ والحياةِ.

وهذا القرآنُ الكريمُ -الذي نقدِّمُ لأحدِ تفاسيرِه بهذه الكلمةِ المُوجَزةِ- هو شَرَفُ هذه الأمَّةِ، بل هو مَصدَرُ قوَّتِها وعِزَّتِها، والتاريخُ يُثبِتُ أنَّ هذه الأمَّةَ حِينَ كانت تُصِيخُ السمعَ إلى نِداءاتِ القُرآنِ وتُطبِّقُ ما اشتمل عليه مِن توجيهاتٍ إلهيَّةٍ، علا قدرها وارتفع شأنها وبَلَغتْ مِن الحضارةِ والتقدُّمِ العِلميِّ والأخلاقيِّ درجةً زاحَمَتْ فيها بمَنكِبَيْها حضاراتٍ عالميَّةً كانت تتفرَّدُ بقيادةِ العالمِ آنَذاكَ، بل استَطاعَ المُسلِمون أن يُزيحوا هذه الحضاراتِ شرقًا وغَربًا في أقلَّ مِن ثمانينَ عامًا مِن آخرِ آيَةٍ نزلَتْ مِن هذا القُرآنِ الكريمِ ليَملَئوا

الأرضَ نُورًا وعدلًا وعِلمًا، وليُبدِّدوا ظُلماتِ القرونِ الوُسطَى في قلبِ أوروبا وأفريقيَا وآسْيَا.

هذا ويُمكِنُ القَولُ -قولًا مُؤكَّدًا- بأنَّ الحضارةَ الحديثةَ مَدِينةٌ في تقدُّمِها العِلميِّ لهذا القرآنِ الكريمِ. وعلى مَن يَتشكَّكُ في هذه القضيَّةِ التي تَبدُو غَريبةً على أسماعِ الكثيرِ مِن المسلمينَ حتى مِن المسلمينَ أنفسِهم - أن يَتأمَّلَ هذا الكم المُتراكِمَ مِنَ الكُتُبِ الغربيَّةِ التي تخصَّصَتْ في دِراسةِ بيانِ فضلِ الإسلامِ في إنقاذِ أُوروبا مِن مَصيرٍ بائسٍ مُؤكَّدٍ، وما فَتَحه أمامَها مِن أبوابِ العِلمِ والرُّقِيِّ والتمَدُّنِ عَبرَ مَنافِذَ ثقافيَّةٍ كُبرى كصِقِلِّيَّةَ وقُرْطُبةَ وطُلَيْطِلَةَ، وغيرِها مِن مراكزِ التنويرِ الإسلاميِّ الرفيعِ. وقد كانت قوَّةُ الدفعِ الإسلاميِّ تُجاهَ العِلمِ والفلسفةِ والأخلاقِ والفُنونِ المُتعالِيةِ - مَثارَ إعجابِ كثيرٍ مِن الأُوروبيِّينَ ممن رَصَدُوا ظاهرةَ الفُتوحاتِ الإسلاميَّةِ في أُوروبا، ودَرَسُوها في تجرُّدٍ ومَوضوعِيَّةٍ وإنصافٍ يَستوجِبُ الثناءَ والشُّكرَ.

هذا؛ ويَتبقَّى لنا في هذه الطَّليعةِ المُتواضِعةِ لكتابِ «التفسيرُ الواضِحُ» كلمةٌ مُختصَرةٌ -بل شديدةُ الاختصارِ- لا تزالُ تتعلَّقُ بذاكِرتي المُشتَّتةِ، سَمِعتُها مِن شُيوخي في عِلمِ التفسيرِ، وتلقَّيْتُها منهم في كليةِ أصولِ الدِّينِ في سِتِّينيَّاتِ القرنِ الماضي، وأذكُرُ منهم البحرَ العلَّامةَ الأستاذَ الشيخَ أحمد السيِّد الكُومي، والعلَّامةَ عبدَ الغني عوض الراجحي، والعلَّامةَ محمد محمد السَّماحي، رحمهم اللَّهُ ورَضِي عنهم، وجزاهم عنِّي وعن جِيلي خيرَ الجزاءِ.

وهذه الكلمةُ تتعلَّقُ بأمرَيْنِ قد يَحتاجُ إليهما الشَّادي في علمِ التفسيرِ مِن طُلَّابِ العلمِ والمُشتغِلينَ بالإمامةِ والوعظِ والإرشادِ، وأَعني بهما: التعريفَ بكلمةِ «القرآنِ»، وإلقاءَ الضوءِ على مَصدرِه، وهو الوحيُ الإلهيُّ.

ما هو القرآنُ؟

«القرآنُ هوَ كلامُ اللَّهِ تعالى المُنَزَّلُ على محمَّدٍ ﷺ المتعبَّدُ بتلاوتِهِ»[(١)]، وهذا التعريفُ يَضَعُنَا أمامَ حقائقَ ثلاثٍ، يَهدِفُ إليها التعريفُ لبيانِ مفهومِ القرآنِ، ولِتمييزِه عن كُلِّ ما عداهُ:

الحقيقةُ الأولى: هي أنَّ القرآنَ «كلامُ اللَّهِ» وليسَ مِن كلامِ المخلوقاتِ التي يتأتَّى مِنها الكلامُ وتُوصَفُ بِهِ، مِثلُ الإنسانِ والجنِّ والملائكةِ، ويَعْنِي هذا -بالضرورةِ- أنَّ القرآنَ ليسَ مِن كلامِ محمَّدٍ ﷺ، ولا ممَّا يدخلُ تحتَ إمكاناتِه اللُّغَويَّةِ وقدراتِهِ البشريَّةِ، وهذه الحقيقةُ يشتركُ فيها القرآنُ مع التوراةِ والإنجيلِ والكتبِ السماويَّةِ السابقةِ، مِن حيث إن كلًّا منها كلامُ اللَّهِ تعالى وليسَ كلامًا للبشرِ.

الحقيقةُ الثانية: أنَّ القرآنَ مُختَصٌّ بالكلامِ الإلهيِّ المُنَزَّلِ على قلبِ نبيِّ الإسلامِ محمَّدٍ ﷺ، وبهذا الاختصاصِ يفترقُ القرآنُ عن التوراةِ والإنجيلِ والكتبِ الإلهيَّةِ التي أنزلها اللَّه تعالى على الأنبياءِ السابقِينَ.

الحقيقةُ الثالثة: أنَّ «القرآنَ» لِكَونِه كلامًا إلهيًّا، يُمَثِّلُ عبادةً مِن العباداتِ المطلوبةِ مِن المسلمِينَ، مثلَ تلاوتِهِ أو الاستماعِ إليهِ أو قراءتِهِ في الصلاةِ التي هي عمادُ الدِّينِ في الإسلامِ، كما يتميز بخاصيةِ التعبُّدِ، أي: يتعبد به المؤمنون ويتقربون به إلى ربهم.. وبخاصيةِ «التعبُّدِ» هذه ينفصل القرآن ويتميز عن الحديثِ القدسيِّ والحديثِ النبويِّ؛ فإنَّ كلًّا منهما لا يُسمَّى قرآنًا، ولا يأخذُ حُكمَه، ولا تصحُّ الصلاةُ بأيٍّ منهما[(٢)].

---

(١) «النبأ العظيم» لمحمد عبد اللَّه دراز: ٤٣، انظر: «الإحكام في أصول الأحكام» لأبي الحسن الآمدي: ١/١٥٩، «البحر المحيط للزركشي»: ٢/١٧٨.

(٢) انظر: «النبأ العظيم» لمحمد عبد اللَّه دراز: ٤٤.

وإذًا فالقرآنُ، لفظًا ومعنًى، كلامٌ إلهيٌّ خالصٌ، وهو مُختَلِفٌ عنْ كلامِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ، والذي يُسمَّى في تراثِ الإسلامِ بالأحاديث، سواءٌ مِنها ما كان أحاديثَ نبويةً، وهي ما كان لفظُها ومعناها مِن عندِ النبيِّ أو أحاديثَ قدسيةً وهي التي يكونُ معناها إلهامًا مِن اللَّه يُلْقَى في قلبِ النبيِّ، أمَّا عبارتُها فهي مِن كلامِ النبيِّ ﷺ وألفاظِه.

وتفسيرُ القرآنِ لا يُسَمَّى قرآنًا، وكذلكَ ترجمتُهُ، ولا يجوزُ الاعتمادُ عليها في استنباطِ أحكامِ التشريعِ.

ويُجْمِعُ المسلمونَ على اختلافِ مذاهبِهم، وعبرَ ما يزيدُ على أربعةَ عشرَ قرنًا، على أنَّ ما بينَ دَفَّتي المصحف هوَ القرآنُ، وهو كلامُ اللَّهِ لم يَزِدْ ولم يَنْقُصْ حرفًا واحدًا عن القرآنِ الذي بلَّغَهُ محمَّدٌ ﷺ، وكُتبَ أمَامَهُ، وبتوجيهٍ دقيقٍ صارمٍ مِنه إلى الكُتَّابِ الذينَ سُمُّوا في ذلكَ الوقتِ «كَتَبَةُ الوَحي»، وأسماؤهُم وتواريخُهم مذكورةٌ على وجهِ التفصيلِ في كُتُبِ السُّنةِ النبويةِ والسيرةِ والتاريخِ.

وتَبْلُغُ آياتُ القرآنِ «ستةَ آلافٍ ومئتين وسِتًّا وثلاثِينَ آيةً»[(١)]، «منها خمسمائة آيةٍ فقط تتعلَّقُ بالأحكامِ التشريعيَّةِ»[(٢)] والباقي يتعلَّقُ بالتوحيدِ والأخلاقِ، والآدابِ والمواعظ، والقصصِ والتاريخِ، ونقدِ العقائدِ الوثنيةِ والمُحَرَّفَةِ، وموضوعاتٍ أخرى يَصْعُبُ حصرُهَا.

وقد توزَّعَتْ آياتُ القرآن على أربعَ عشرةَ ومئةِ سورةٍ تبدأُ في المصحفِ بسورةِ الحمد، وتنتهي بسورة الناس. وتتفاوتُ سورُ القرآنِ مِن حيثُ الطولُ والقِصَرُ تفاوتًا كبيرًا، وأصغرُ سورةٍ منه ما اشتملت على ثلاثِ آياتٍ فقط،

---

(١) وهذا العَدُّ على وَفْقِ عَدِّ أهلِ الكُوفةِ، انظر: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي ١/ ٥٥٩.
(٢) انظر: «المستصفى» للغزالي: ٢/ ٣٨٣ ط الرسالة.

مثلَ سورةِ الكوثر، وسورة النصر، وأكبر سُوَرِه ما اشتمل على سِتٍّ وثمانين ومئتي آيةٍ، وهي سورةُ البقرةِ.

ويُجمِعُ عُلماءُ المسلمِينَ على أنَّ ترتيبَ الآياتِ في سورِ القرآنِ كان بتوقيفٍ مِن النبيِّ ﷺ، بِمعنى أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُحدِّدُ مكانَ الآيةِ أو الآياتِ التي تَنْزِلُ عليهِ ويأمرُ كَتَبَةَ الوحيِ بأن يضعُوها في مكانِ كذا مِن سورةِ كذا. ويقتضي ذلكَ أن تكونَ أماكنُ الآياتِ وترتيبُها أمرًا إلهيًّا، وبحيثُ يمكنُ القولُ بأنَّ القرآنَ وحيٌ إلهيٌّ في ألفاظهِ ومعانيهِ وترتيبِ آياتهِ ووضعِها في مواضِعِها المتواترَةِ في المصحفِ[١].

مصدرُ القرآنِ:

ولا يختلفُ الناسُ في أنَّ القرآنَ هو الكتابُ الذي جاءَ بِه محمَّدٌ ﷺ في القرنِ السادسِ الميلاديِّ في جزيرةِ العربِ، وبَلَّغَهُ للناسِ في ذلكَ الوقتِ داخلَ جزيرةِ العربِ وخارجَها على السواءِ، وهذه القضيةُ محلُّ اتفاقٍ بينَ المسلمِينَ وغيرِ المسلمِينَ، لأنَّها ثبتتْ لدى الجميعِ بطريقِ التواترِ، وهو الطريقُ الذي تَثْبُتُ به كلُّ حوادثِ التاريخِ، والرسالاتِ الإلهيَّةِ والشخصياتِ الكونيةِ الكبرى، مثلَ وجودِ موسى وعيسى عليهما السلامُ، وبوذا، وكونفيشوسَ، والإسكندرِ الأكبرِ، وتواريخِ الدولِ والممالكِ وغيرِ ذلك، فمثلُ هذه الأحداثِ ليس لدينا دليلٌ على صدقِ ثُبوتِها إلَّا دليلُ التواترِ الذي هو رواياتُ المئاتِ والآلافِ والملايينَ، وإجماعُهُم في كلِّ الأزمنةِ والأمكنةِ على صِحَّةِ وقوعِها، ورغم ذلك فإن كثيرًا من غيرِ المسلمِينَ، رغمَ اعترافِهم بشخصيَّةِ محمَّدٍ ﷺ وأنَّه جاءَ بكتابٍ اسمُه القرآنُ، يَتشكَّكونَ في

(١) انظر: «البرهان في تناسب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير (١٨٢)، و«البرهان في علوم القرآن» للزركشي: ١/ ٢٥٦، «الإتقان» للسيوطي: (٢/ ٣٩٤).

مصدرِه، وأنَّه ليس كما يقولُ المسلمون «كلامُ اللَّهِ» سَمِعَه محمَّدٌ ﷺ بأذنيهِ وتَلَقَّاهُ لفظًا ومعنًى مِن الوحي، ثمَّ بَلَّغَه للناسِ كما تَلقَّاه ووَعَاهُ، وهنا قد يسألُ هؤلاء المتشككون: ما الدليلُ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ؟ ولِم لا يكونُ مِن تأليفِ محمَّدٍ ﷺ واختراعِه؟

وهذا التشكِيكُ في مصدرِ القرآنِ قديمٌ وحديثٌ، وقد أجابَ عنه القرآنُ نفسُه إجاباتٍ حاسمةً ومتنوِّعةً، نَقرأُها في نصوصِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، على أنَّ النظرَ التحليليَّ لتاريخِ محمَّدٍ ﷺ وحياتِه قبلَ البَعثَةِ وبعدَها، وفي ضوءِ ملابساتِها الاجتماعيةِ والثقافيةِ لا يَسمَحُ -عقلًا- بالشكِّ لحظةً واحدةً في أنَّ مصدرَ القرآنِ هو اللَّهُ تعالى، فمثلًا لو فرضنا أنَّ محمَّدًا ﷺ لَم يكنْ نبيًّا يُوحى إليه، بل كان زعيمًا أو مصلحًا اجتماعيًّا أو حتَّى فليسوفًا، أليسَ مِن مَصلَحتِهِ حينئذٍ أن يَنْسُبَ «القرآنَ» بفصاحتِهِ وبلاغتِهِ وبرامجِهِ الثوريَّةِ لنفسِهِ؛ ليزدادَ بذلك قوةً وسيطرةً؟!

وكيف فاتَه أن يعتزَّ ويَتِيهَ بأنَّه صاحبُ هذا النصِّ المدهشِ الذي تحدَّى به فصحاءَ العربِ جميعًا وعيَّرَهم بعجزِهم عن الإتيانِ بمثله؟! ونحنُ نعلمُ أنَّ مِن الأدباءِ والمفكرِينَ مَن يعتدي على آثارِ الآخرين، ويَنسُبُها لنفسِه، لكنَّا لا نعلمُ أنَّ أحدًا مِن الشعراءِ أو مِن الأدباءِ تبرَّأ مِن قصيدةٍ رائعةٍ قالها، أو نصٍّ بليغٍ دقيقٍ كتَبه ونسَبَه إلى غيرِه، مع حاجتِه القُصوى إلى هذا الذي يَنسُبُه إلى غيرِه، ويزدادُ الأمرُ قوَّةً حينَ يتلو محمَّدٌ ﷺ مِن القرآنِ ما يُذَكِّرُ المكذبِينَ بأنَّهم يعرفُون محمَّدًا طَوالَ أربعِينَ عامًا قبلَ أن يَطْلُعَ عليهم بهذا القرآنِ، وأنَّه كان رجلًا أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ، ولَم يكنْ يتميَّزُ عن المكذبِينَ بعلمٍ ولا ثقافةٍ، فكيفَ فاجَأهُم بهذه النصوصِ يتلُوها عليهم فتقرَعَ مسامِعَهم ويتحدَّاهم أن يأتوا بِمثلها ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ

وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ثمَّ لا يكتفي بمجرَّدِ التحدِّي، وإنَّما يُسَجِّلُ عليهم عجزَهم وهزيمَتَهم في معركةِ التحدِّي(١).

كما يَتَصَدَّى القرآنُ لهؤلاء الذين يَزعُمون أنَّ محمَّدًا ﷺ اقتبسَ القرآنَ مِن علماءِ أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والمسيحيِّينَ المتفرِّقينَ الموجودِينَ في شبهِ جزيرةِ العربِ في خيبرَ ويثربَ ونجرانَ، لافتًا الأذهان إلى أنَّ لغةَ التوراةِ والإنجيلِ -في ذلك الوقتِ- لغةٌ أعجميةٌ بينما لغةُ القرآنِ في أعلى درجاتِ لغةِ العربِ مِن حيثُ الفصاحةُ والبلاغةُ، فكيفَ كان القرآنُ العربيُّ مزيجًا وأخلاطًا مِن نصوصٍ غيرِ عربيةٍ؟! ولو أنَّ محمَّدًا كان يَعلَمُ العبريَّةَ أو اليونانيَّةَ لكانَ لمثلِ هذا الزَّعمِ شيءٌ مِن الوجاهةِ، ولكنَّهُ أميٌّ لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ في لغتِهِ الأمِّ، فَضلًا عن القراءةِ والكتابةِ في لغةٍ أعجميةٍ لم يعرفْها هو ولا قومُه في مكةَ وما حولها ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. ومِن المسَلَّمِ به في تاريخ الكتابِ المقدَّسِ أنَّه لم تُعرَف له ترجمةٌ عربيةٌ قبلَ القرنِ الثامن الميلاديِّ، وأنَّ المجتمعَ المكيَّ كان يجهلُ هذه الكتبَ في عصرِ البَعْثَةِ المحمَّديَّةِ، وأنَّ ترجماتِها أخذت في الظهورِ بعدَ وفاةِ محمَّدٍ ﷺ بقرنٍ كاملٍ على الأقلِّ.

ثمَّ إنَّ هناك فروقًا جذريَّةً بلغتْ حدَّ التضادِّ في البناءِ العَقَدِيِّ، بينَ القرآنِ وبينَ الكتابِ المقدسِ في عهديه القديمِ والجديدِ، وبخاصةٍ قضيةَ التوحيدِ وقضيةَ التشبيهِ والتنزيهِ وقضيةَ النبوَّةِ وأخبارَ الأنبياءِ وقَصَصَهم، والذي يقرأُ القرآنَ ويتدبَّرُه لا يرتابُ لحظةً في أنَّ عقيدَةَ الإلهِ في القرآنِ لا يمكِنُ أن تكونَ صدًى أو انعكاسًا صحيحًا لعقيدةِ الإلهِ كما يقرؤها الناسُ في الكتابِ

(١) انظر الدراسة المعمقة لهذا الموضوع في: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ٦٥ وما بعدها.

المقدَّسِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وهناك دلائلُ عديدةٌ في القرآنِ نفسِهِ تشهدُ بأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ لمحمَّدٍ دخلٌ فيهِ لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ، منها: أنَّ القرآنَ يشتملُ على آياتٍ عديدَةٍ فيها لومٌ وتقريعٌ للنبيِّ ﷺ، وفيها عتابٌ ثمَّ عفوٌ مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس].

فلو كان القرآنُ مِن كلامِ محمَّدٍ فكيفَ يُسجِّلُ على نفسِهِ هذه المخالفاتِ؟ ولو أنَّ القرآنَ كان شيئًا تجيشُ به مشاعرُ محمَّدٍ فلماذا لم يَكْتُمْ عن الناسِ هذه المشاعرَ التي تُوجِّه النقدَ لعملِهِ وخُطَّتِهِ في دعوةِ الناسِ إلى الدِّينِ الذي جاءهم به؟! أَلَمْ يكنْ كِتْمَانُ مثلِ هذا النقدِ هو الأليقَ والأنسبَ بكلِّ حكيمٍ أو مُصلحٍ أو عبقريٍّ يسعى للنجاحِ في إقناعِ الآخرينَ بما يقولُ؟! ولو أنَّ محمَّدًا كَتَمَ هذا النقدَ الذاتيَّ لما اكتشفَه أحدٌ، ولكنَّه لا يستطيعُ، لأنَّ دورَه لا يَتَعَدَّى دورَ المُبلِّغِ الأمينِ لكلِّ ما يسمعُه مِن الوَحيِ، والقرآنُ يقولُ عنه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، أي: إنَّه لا يُخْفِي بعضَ الوحيِ ويُظهِرُ بعضَه.

ومنها حادثَةُ الإفكِ التي افترَاها المنافقونَ، ومسَّتْ عِرْضَ النبيِّ ﷺ وأهلِهِ وأحزَنَته ﷺ، واختنقَ بِها النبيُّ والمسلمونَ شهرًا كاملًا، وكانوا يتطلَّعُونَ إلى البراءةِ الإلهيَّة للسيدةِ عائِشةَ ﵂، وظلَّ النبيُّ صامتًا، ولم يزد

على قولِهِ: «إني لا أَعْلَمُ عنها إِلَّا خَيْرًا»[(١)]. وظلَّ الأمرُ كذلك حتَّى نزلت سورةُ النورِ لِتُبَرِّئَ هذه السيدةَ الطاهرةَ، وتلعنَ أصحابَ هذه المؤامرةِ، وتتوعَّدَهم بالخزيِ في الدنيا والآخرةِ.

والسؤالُ: لو أنَّ محمَّدًا هو مؤلِّفُ القرآنِ فكيفَ صَبَرَ شهرًا كاملًا على كارثةٍ خيَّمَتْ على نَفْسِهِ وأهلِه وأسرتِه بظلالٍ كئيبةٍ قاتمةٍ، وكانَ في إمكانِه - لو كان يؤلِّفُ القرآنَ - أن يُنهِيَ هذه المأساةَ بما يشاءُ، ومِن اللحظاتِ الأولى؟! ولكنَّه نبيٌّ لا يَتَقَوَّلُ على اللَّهِ ولا يَكذِبُ على الناسِ، والقرآنُ يُقَرِّرُ هذه الحقيقةَ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، وقد تَنَبَّهَ الملكُ المسيحيُّ «هِرَقْلُ» عظيمُ الرومِ حينَ وَفَدَ عليه دحيةُ الكلبيُّ بكتابٍ مِن النبيِّ محمَّدٍ ﷺ يدعوه فيهِ إلى الإسلامِ، فسألَ هِرَقْلُ أبا سفيانَ - ولم يَكُن قد أسلمَ آنذاك - أسئلةً عديدةً وكان ممَّا سألَهُ عنه: هل كنتم تتَّهمُونَه بالكذبِ قبلَ أن يقولَ ما قالَ؟ فقالَ أبو سفيانَ: لا، فقال هِرَقْلُ: «قد عَرَفْتُ أنَّه لم يكن لِيَدَعَ الكذبَ على الناسِ، ثمَّ يذهبَ فيكذبَ على اللَّهِ»[(٢)].

ومنها: أنَّ القرآنَ مملوءٌ بأخبارِ الأنبياءِ السابقِينَ، وأخبارِ أقوامِهم، فلقد وَرَدَ ذِكْرُ موسى عليهِ السلامُ في القرآنِ ١٣٦ مرةً، وتكرَّرت قصتُه في خمسٍ وثلاثينَ سورةً، ووردَ ذكرُ إبراهيمَ ونوحٍ وهودٍ ولوطٍ ويوسفَ ويعقوبَ وعيسى.. إلخ. وقصَّ مِن أخبارِهم وأنبائهم ما يستحيلُ أن يقصه إلَّا الماهرون بتاريخِ الرسلِ والأنبياءِ مِن علماءِ بني إسرائيلَ، فإذا جاءَ رجلٌ أميٌّ يعرفُ الناسُ أنَّه لا يقرأُ ولا يكتُبُ، ويعرفونَ عُزلَتَهُ التامَّةَ عن اليهودِ وعن المسيحيِّينَ، ثمَّ يُفاجئهم بهذه العلوم دونَ سابقةِ علمٍ ولا تَعَلُّمٍ ولا دراسةٍ ولا

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٢٩٤٠)، (٤٥٥٣) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

تلمذةٍ، فإنَّ العقلَ لا يَجِدُ مناصًا مِن التسليمِ بأنَّ ما يقولُه هذا الأميُّ مِن تفاصيلَ تاريخيةٍ ضاربةٍ في جذورِ الماضي السحيقِ، لا يمكنُ أن يكونَ مِن عندِ نفسِه، ولا مفرَّ له مِن الاعترافِ بأنَّ لهذا الكلامِ مصدرًا آخرَ يقعُ وراءَ كلِّ هذه الافتراضاتِ اللامعقولَةِ التي تحاولُ البحثَ عن مصدرٍ للقرآنِ خارجَ المصدرِ الإلهيِّ، وهو أمرٌ مستحيلٌ في منطقِ الأذهانِ، إذ مِن البدهيِّ أنَّ الأميَّة لا تُنتِجُ معرفةً والذهنُ الخالي عن العلومِ يستحيلُ عليه أن يُفَصِّلَ القولَ في طائفةٍ مِن حوادثِ التاريخِ الماضيةِ والمستقبلةِ، والتي حَفَلَ بها القرآنُ الكريمُ مِن أنباءِ الغيبِ، وقد لفتَ القرآنُ الأنظارَ إلى هذه الاستحالةِ العقليةِ في إشاراتٍ بليغةٍ يُعَقِّبُ بها على هذا القَصَصِ أو ذاك مِن أحاديثِ القرونِ الأولى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

وبعدُ:

فدُونَكَ أيُّها المتشوِّفُ لصُحبةِ القرآنِ الكريمِ ومَعرفةِ مَعانيه - هذا التفسيرَ الذي جادَتْ به قريحةُ عالمٍ جليلٍ مِن عُلماءِ الأزهرِ الشريفِ، قَضَى عُمُرَه في تسويدِه وتجويدِه، حتى جاء مُتفرِّدًا في موضوعِه ومَنهجِه، فقَرَّبَ مَأخذَه للعالمِ والمتعلِّمِ، إنَّه «التفسيرُ الواضحُ» الذي ألَّفه الأستاذُ الشيخُ الدكتورُ محمَّد محمود حجازي (ت: ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) رحمه اللَّه وأجزلَ له الأجرَ والمثوبَةَ، لِقاءَ ما قدَّمَ لطُلابِ العلمِ في «مادَّةِ التفسيرِ» التي هي عِمادُ عُلومِ أُصولِ الدِّينِ والشريعةِ والكلامِ والبلاغةِ واللغةِ والأدبِ..

ويقيني أنَّ القارئَ سوفَ يَهتدي إلى الكثيرِ مِن مَعالمِ التفسيرِ وعُلومِ القُرآنِ في هذا المؤلَّفِ القيِّمِ، وهو وإن لم يكُنْ في مَنزلةِ كُتُبِ التفسيرِ المبسوطةِ،

سواءٌ كُتبُ التفسيرِ بالمأثورِ أو بالرأيِ، إلَّا أنَّه يُمثِّلُ المرحلةَ الوُسطَى بينَ هذه الموسوعاتِ وبينَ المختصَراتِ، كـ«تفسيرِ الجلالَيْن» وبعضِ التفاسيرِ الحديثةِ والمعاصرةِ التي تُكتَبُ على هامشِ القرآنِ الكريمِ.

وهذه -فيما أظُنُّ- ميزةٌ تُغري بقراءتِه ومُصاحبتِه في يُسرٍ وسُهولةٍ، حتى للمُثقَّفِ العادي الذي يُريدُ أن يَقعَ على مَطلوبِه في تفسيرِ آيةٍ وتوضيحِ مَعناها، ممن لم يَتمرَّسْ بأساليبِ القُدماءِ في تفاسيرِهم للقُرآنِ، ويَسبُرْ أغوارَ كلامِهم، ويُدرِكْ مَقاصدَ إشاراتِهم وتنبيهاتِهم.

وسَيرَى الجالسُ في مأدُبةِ هذا التفسيرِ أنه تفسيرٌ قَطَفَ مِن كلِّ بُستانٍ زهرةً - كما يَقولونَ.

ولقد جعلنا بينَ يدَيْ هذا التفسيرِ النفيسِ مُقدِّمةً حافلةً، كَشَفَتْ عن ترجمةِ المُؤلِّفِ رحمه اللَّه، وجوانبَ مِن حياتِه وشيوخِه ومؤلَّفاته، ودارت في شطرٍ منها حولَ جهودِ العلماءِ الأزهريِّينَ في العصرِ الحديثِ في خِدمةِ تفسيرِ كلامِ اللَّه عزَّ وتقدَّسَ، وهي وإن لم تَستقصِ كلَّ أعمالِهم، إلا أنها تَكشِفُ في غيرِ لبسٍ عمَّا ناله التفسيرُ مِن العنايةِ المُخلِصةِ من علماءِ الأزهرِ وشيوخِه.

واللَّهُ مِن وراءِ القصدِ، وهو الهادي إلى سواءِ السبيلِ، وصلَّى اللَّه على سيِّدِنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم.

* * *

طليعة كتاب
«التصوف والميستيسزم: دراسة اصطلاحية»(*)

بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ

هذا كتابٌ أعرفُ مؤلِّفَه منذُ عام: ١٩٧٦م، حين كان طالبًا بكلِّيَّة أصولِ الدِّين بالقاهرة، وكنت مُدرِّسًا حديثَ التَّخرج من مرحلة الدُّكتوراه في قسم العقيدة والفلسفة، وقد أُسنِد إليَّ وقتَها تدريس بعض المواد الفلسفية في السَّنة الرابعة، وكان مؤلِّف هذا الكتاب أحَدَ طُلَّاب هذه الفرقة، وقد استرعى انتباهي شدَّةُ يَقظته لما أقول، وإتقانُه للغة العربية الفُصحى، وقُدرتُه على التَّحدُّث بها في طلاقة غيرِ معهودة في كثير من الطُّلاب الوافدين، بل كثيرٍ من الطُّلاب العرب والمصريين، الذين كانت تَغلِبُهم الفُصحى فيَخلطون بينها وبين العامية.

ولم تَمضِ أيَّامٌ بعد ذلك حتى سافرت في مهمَّة علميَّة إلى باريس، استغرقت قريبًا من عام، انقطعَت فيها صِلَتي بطُلَّاب هذه الفرقة من المصريين والوافدين، ثمَّ عرَفتُ من زَميلنا الأستاذ الدكتور ضياء الدِّين الكردي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه كان يُشرِفُ على مؤلِّف هذا الكتاب في رسالته للدُّكتوراه عن: «الحب الإلهي في التَّصوف بين الإسلام والنصرانية»، وأنَّ صاحب الرسالة يَتميَّزُ بقُدرةٍ بَحثيَّة مُتعمِّقة باللُّغتين؛ العربية والإنجليزية.

ثم انقطعت بعد ذلك صلتي -على ضعفها- بالدُّكتور دين، ولم أتذكَّره

(*) هذا الكتاب هو لتلميذ الإمام الأكبر أ. د دين محمد ميرا، من سيريلانكا، وطبع الكتاب في دار الإمام الرازي للنشر والتوزيع، بالقاهرة، سنة: ٢٠١٦م.

سنين طوالًا، شأنُه في ذلك شأنُ كثيرٍ من الطُلَّاب الوافدين الذين كانوا يَلفتون أنظارَنا بنَباهَتِهم، وبما فُطِروا عليه من رغبةٍ في التَّعلُّم، ومن أدبٍ جَمٍّ في التَّلمَذة، وحرصٍ على مُتابعة المحاضرات، وخفضٍ للجناح أمامَ الأستاذ والمُعلِّم، ثم يَتخرَّجون بعد ذلك وتَنقطعُ أخبارُهم، وتُمحَى صُوَرُهم من الذَّاكرةِ والخَيال.

وحين تَقرَّرت إعارتي -على نفَقة مصر- إلى الجامعة العالمية الإسلامية في «باكستان»، وجدت الدكتور دين في مقدِّمة مَن استقبلوني في مطار إسلام آباد، وكان يَعملُ أستاذًا مساعدًا بكلية أصول الدِّين التي أُعِرت إليها، وعشت عامًا دراسيًّا عميدًا لهذه الكلية، خَبرتُه فيه عن قرب، واستمَعت إليه في المحاضرات العامَّة التي كان يُحاضر بها ارتجالًا بلُغة عربيَّة فُصحى، نَدرَ أن يَسْلَسَ قيادُها للسانٍ غير عربي بمثلِ هذه السُّهولة التي كُنا نَلمَسُها في أحاديث الدُّكتور دين.

والأمر نفسه لمسناه في محاضراته التي كان يُلقيها ارتجالًا أيضًا باللُّغة الإنجليزية، وكانت محلَّ تقديرٍ من الأساتذة الباكستانيين، الذين كان جلُّ مُحاضراتهم -إن لم يكن كلها- باللُّغة الإنجليزية، رغمَ معرفة كثيرٍ منهم باللُّغة العربية.

وقد جمعَ الدُّكتور دين إلى هاتَين المَيزَتين ميزَةً ثالثة، أدقَّ وأعمقَ؛ هي: إيمانُه الرَّاسخُ بقيمةِ التراث الروحي في الإسلام، وأهميَّته القُصوى في بناء الشَّخصية الإسلامية الصّلبة، التي تَستعصِي على الذَّوبان أو الانسحاق.

وقد بَنَى إيمانَه هذا على خبرة طويلة بتُراث التصوف الإسلامي المؤسَّس على الكتاب والسُّنَّة، والمرتبط ارتباطًا وثيقًا بأذواق أئمَّة التصوف الإسلامي وشيوخِه ومشاربهم وإلهاماتهم واصطلاحاتهم التي أودَعوها خلاصَة تَجارِبهم الذَّوقية وعبَّروا عنها بقَدرِ ما تَسَعُه الألفاظُ وتطيقُه العبارات.

وهذا الكتابُ الذي نقدم له بهذه الكلمة القصيرة خيرُ شاهدٍ على ما نقولُ؛ فهو دراسةٌ رائدة في حَقل «التَّصوُّف المقارَن»، لم تَقُم على مُجرَّد التَّقليد في الدِّفاع عن التَّصوُّف الإسلامي، أو اجترار ما كُتب في هذا الحقل على كَثرَته وتراكمه، وإنما جاءَ ثمرةَ دراسةٍ مقارنة بين مصطلح التَّصوف، بحُسبانه مصطلحًا مَصكوكًا باللُّغة العربية، ومُحمَّلًا بدلالات وتَجارب روحية، شديدة الارتباط بدينٍ له خصائصُه التي يَنفردُ بها عن غيره من الأديان الأخرى، وأنَّ هذا المُصطلَح يَفقدُ كثيرًا من مَخزونِه المعرفي إذا ما استُبدِلَ به مصطلَحٌ آخر مُغترِبٌ أشدَّ الاغتراب عن المصطلح الإسلامي: لغةً، ودلالةً، وأصولًا، وتَعاليم دينية مغايرة لتلك التي أنبتت مُصطلَح التصوف، وأنضَجته، واستقلَّت به عن مُصطلَحات قد تشتَبه به شكلًا، إلَّا أنها تُبايِنُه جوهرًا ومضمونًا.

وهذا هو الطَّرفُ الأوَّل من طرفَي المقارنة في هذه الدِّراسة، والذي بيَّن فيه المؤلِّفُ، في مُقارَبة غير تقليدية، العلاقةَ العُضوية التي لا تَنفَصِمُ بين التصوف وبين الإسلام؛ من حيثُ التَّعريف، والنَّشأة، واستقلال التَّصوف كعلم، والصُّوفيَّة كطائفةٍ من العُلماء والأولياء حبَسَت نفسَها على هذا العِلم؛ معرفةً، وتَطبيقًا، وتجربة، وعبَّرَت عن أذواقِه وإلهاماته وإشاراته وواردته، في لُغة مُشعَّة لم يَتوفَّر مثلُها لأيٍّ من العُلوم الإسلامية على كَثرَتها وتَنوُّعِها وتوزعها بين علوم العقل وعلوم النَّقل.

أمَّا الطَّرَفُ الثَّاني من طرَفي المُقارَنة؛ فهو مصطلحُ «المستيسزم»، الذي لَعِب دورًا سَلبيًّا في فَهم التَّصوف الإسلامي، حين خلَطَ الباحثون المُحدَثون بينه وبين «المستيسزم»، وخُيِّل إليهم أنَّ المُصطلَحين يَتشابهان مفهومًا ومصداقًا، إن لم نقل يَترادَفان على معنًى واحد، رغمَ اختلاف ما بينهما اختلافًا هائلاً؛ في الزَّمان، والمكان، والوَسَط الدِّيني، والبيئة الرُّوحيَّة.

وقد كانت لي تَجرِبةٌ شخصيَّة صعبةٌ عشتها وأنا أحاول تَحديد المُقابل العربيِّ للمُصطلَح الفرنسي «ésotérisme» ترجمة دقيقة؛ وذلك حين كنتُ أُترجِمُ كتابَ الدُّكتور عثمان يحيى رحمه الله «تصنيف وتاريخ مؤلفات ابن عربي» من الفرنسية إلى العربية، ولاحظتُ أنَّه كان يُسجِّلُ أوَّلًا العنوان العربي بالأحرف اللاتينية، ثمَّ يَذكر، بعد كل عنوان، الفنَّ الذي ينتمي إليه الكتابُ؛ من فقهٍ، أو تصوف، أو تفسير، أو حديث، أو شعر، أو غيرها مما هو معلومٌ من الفنون والعُلوم العقلية والنقلية، لكنَّه كثيرًا ما كان يَخرُج عن هذه القاعدة وهو يُصنِّفُ بعضَ العناوين تحت مصطلح: «ésotérisme»، وقد حاوَلتُ أن أجدَ لهذه الكلمة مقابلًا عربيًّا فلم أُفلِح، وذلك لأنِّي لم أُفلح قبلَ ذلك في تَحديد مفهوم الإيزوتيرزم ومعناه، وأذكرُ أنَّني راجعتُ معه -رحمه اللَّه- هذا الإشكالَ، واتَّفقنا على أن نُترجمَها بكلمةِ «عرفان»، باعتبارِها أحدَ المعاني التي قد يَنطبقُ عليها الإيزوتيرزم ولو من بعيدٍ.

ويَبدو أنَّ الذي حمَلَ مؤلِّف الكتاب الذي نقدِّم له على هذا الجهد الشَّاق في الكشف عن هويَّة كلٍّ من هذين المصطلحين، أو العِلمين؛ هو الافتتانُ غيرُ المُبرَّرِ بالميستيسزم لدى كثرةٍ من الباحثين المسلمين المعاصرين، ومن أساتذة الجامعات، ومن طلاب الدُّكتوراه، وسهولة التَّسوية بينَه وبين التَّصوف الإسلامي، والذُّهول عن الفروق الهائلة بين المصطلَحين، وذلك بدافعِ من التَّقليد غيرِ المستبصِر لمناهج الغربيِّين في دراسة التصوف الإسلامي، وحرصِهم على أن يَعودوا بهذا التَّصوف إلى أصولٍ مَسيحيَّةٍ، ويهودية، ويونانيَّة، وهندية. . .

ولعلَّ هذا الخلَل في الخَلط بين المُصطلحات قد حملَ كثيرًا من الغربيين المُدقِّقين -فيما يقولُ المؤلِّف- على رَفض هذا المصطلَح في دراساتهم عن التَّصوف الإسلامي، والحِرص على استخدام المصطلَح العربي «تصوف» مكتوبًا بالحروف اللَّاتينية.

إنَّ هذه الدِّراسة ليست تاريخًا للتصوُّف الإسلامي، ولا عرضًا لهذا العِلم المُترامي الأطراف، بل هي كشفٌ عن خطأٍ علميٍّ، شاع في العصر الحديث، وأدَّى إلى خلْطٍ ولَبْسٍ شديدين بين مفهوم التَّصوُّف الإسلامي ومفهوم المستيسزم.

وهذا هو بالضَّبط ما نحتاجُه في هذا العِلم الذي ظُلم كثيرًا في القديم والحديث؛ بسببٍ من اكتساحِ المُصطلَحات الغربية للمفاهيم الإسلامية الخالصة، والتي تَنبثقُ انبثاقًا مباشرًا من نصوص القُرآن الكريم، وإشاراته، ومن أصل الإحسان الثَّابت في السنَّة النَّبوية الشَّريفة، وأيضًا بسبب الغرام المحموم بإثبات علاقةِ التَّأثُّر والتَّأثير لأدنى سببٍ وأَوْهَى مُلابسة بين مصطلحين يَصعُب لزُّهما في قَرن بحال.

وكم أَوَدُّ لو أنَّ دراسات أخرى كهذه تُطبَّق على حقولٍ علميَّةٍ أخرى؛ مثل الفقه، وأصوله، وعلم الكلام، والفلسفة الإسلاميَّة، التي تُعاني هي الأخرى من الاضطراب والفوضى الدَّلالية في كتابات المستشرقين وتَحليلاتهم، وأبحاث مقلِّديهم من الغربيين والشرقيين أيضًا. . وذلك حتى تَسلَم ثقافَتُنا من هذا الاستِلاب الذي يَبلُغُ أحيانًا حَدَّ القرصَنةِ الفكرية، وحتى نَستردَّ لثقافتنا الإسلاميَّةِ معالِمَها الحقيقيَّة، وعراقتَها التي تَضعُها في مكانها اللَّائق بين ثقافات الأُمم والشُّعوبِ.

* * *

العلَّامة محمد أبو زهرة
وكتابه «نظرية الحرب في الإسلام»(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمدٍ رحمة اللَّه للعالَمين، وعلى آلِه وصَحبِه ومن اقتدى به وسار على نَهجِه.. وبعد؛

فإنَّ من الصَّعب -إن لم يكن من المستحيل- أن نُعرِّف في هذه السُّطور المحدودة بعَلَم شامخٍ من أعلام الإسلام في عصرِنا الحاضر، مثل أستاذنا الإمام محمد أبو زهرة رحمه اللَّه، ذلك الذي حلَّق في آفاق الثَّقافة الإسلامية، وغاصَ في أعماق بِحارِها، واستجلى غوامضها، وانكشف له كثير من أسرارها وخافياتها، حتى صار إمامًا في فُنونها وعلومها النقلية والعقلية، يشار إليه بالبنان من علماء عصره فضلًا عن تلاميذه ومريديه..

لقد كان الشيخ العلَّامة «أبو زهرة» رحمه اللَّه، حجة-بل بحرًا لا ساحل له- في الفقه، والتشريع، والمقارنات بين الشريعة والقوانين الحديثة، وكان أستاذًا مرموقًا في أصول الفقه، وفي السيرة، وفي مقارنة الأديان وعلم الجدل، ومؤرخًا متميزًا للأديان القديمة، والتيارات العقدية الحديثة، وله سلسلة ذهبية في تراجم أئمة الفقه المجتهدين في عصور الإسلام المختلفة كالأئمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، وابن حزم والإمام الصادق والإمام زيد وابن تيمية وغيرهم.

(*) هذه طليعة كان الإمام الأكبر قد كتبها للطبعة الفرنسية من كتاب «نظرية الحرب في الإسلام» وطبعت باللغة الفرنسية في مركز الترجمة بمشيخة الأزهر الشريف، في: ٢٤ من ربيع الآخر سنة ١٤٣٨هـ، الموافق: ٢٢ من يناير سنة ٢٠١٧م.

وقد سَعدتُ في حياتي الجامعيَّة في الأزهر الشَّريف بالتَّلمَذَة على يدَي هذا الشَّيخ الإمام المهيب عامَين دراسِيَّين، درَّس لنا فيهما مادَّتي: «**الأحوال الشَّخصية**» أو «**فقه الزواج والطلاق والرضاع والنسب والميراث والوصية**» ومادة «**أصول الفقه**». . ولا زلت محتفظًا بكتاب «الأحوال الشخصية» الذي كان مقررًا علينا حتى يومنا هذا، أعود إليه كلما مسَّت الحاجة إلى تتبع فقه المذاهب في مسألة من مسائل الأحوال الشخصية فأجد فيه ما يسعفني من الإجابة الميسرة والمعمقة.

وأذكر أن الشيخ كان مهيبَ الطلعة، أنيقَ المظهر مستنير الوجه، وكان يُلقي في قلوبنا مزيجًا غامضًا من مشاعر الهيبة والمحبة والإعجاب اللامحدود بتألقه العلمي، وتمكنه من علوم التراثِ، وقدرته على الاجتهاد المعاصر وعلى الجمع بين أكثر من تخصص علمي، وكان يذكِّرنا بأعلامنا الموسوعيين كابن سينا والغزالي وابن خلدون.

وكنا حين نطرح أسئلتنا نحسب لإجابته ألف حساب، وقد تعلَّمنا منه كيف نفكر جيدًا قبل أن نسألَ، وكيف أن القراءة المتأنية والاستماع الجيد يُوفِّران على طالب العِلم كثيرًا من تبعات السؤال الملقى على عواهنه.

وقد تميز هذا الإمام بمقدرة خارقة على التقريبِ بين أحكام الشريعة ونوازل العصر الجديدة، وكان أنموذجًا للإمام المجتهد الذي لا يتوقَّف نشاطه العقلي عند حدود فهم النصوص وتدريسها وتلقينها، بل كان يحرص على« تطوير» هذه النصوص بتفجيرِ ما بطَن فيها من قابليات متجددة وصالحة لمواكبة تغيرات الزمان والمكان، ويُعرف للشيخ أنه كانت له أنظار اجتهاديَّة بالغة الأهمية لم يكتشفها كثيرون ممَّن جاؤوا بعد عصره وكتبوا عنه. .

وأشير هنا إلى رأيه في مسألة «الرجم» فقد كان يرى أن الرجم كان معروفًا

عند اليهود وكان أمرًا مستقرًّا في شريعتهم، لكن القرآنَ أبطله بآية «الجلد» في سورة النورِ، وله استدلالات على رأيه هذا، وكان يرى أن رجمَ الزاني والزانية بالحجارة حتى الموت عملٌ لا يتسق مع الغاية التي بُعث لها نبي الإسلام وهو: «الرحمة العامة» للكون كله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(١).

❊ ❊ ❊

وهذا الكتاب عن «**نظرية الحرب في الإسلام**»، والذي نقدمه للقراء من غير المسلمين، أنموذج واضح يكشف عن قدرة هذا العلامة الكبير على رصد مركزية «الرحمة» في تشريعات هذا الدِّين الحنيف، حتى في الحرب مع الأعداء، وسوف يدرك القارئُ (المنصف) لهذا الكتاب كيف أن الإسلام لا يُبيح للمسلمين أن يحملوا أسلحتهم إلَّا في حالة الدفاع عن أنفسهم، وأنَّ الإسلامَ ليس دين سيف ولا قتل، كما يُشاعُ عنه ظلمًا وزورًا، وأنَّ الحرب في الإسلامِ لها أخلاقيَّات لا يَعرفها نظام آخر لا قديمًا ولا حديثًا، وأنها ليست مطلبًا ولا وسيلة للتوسع أو التسلط أو الهيمنةِ، وإنما هي في الإسلام ضرورةٌ واستثناءٌ وجهادٌ من أجل تأمين حقِّ الحياة، وحق حرية الاعتقاد.. إلى قضايا أخرى وشبهات عديدة سوف يبدِّدها قلم هذا المجتهد الكبير الذي افتقدَ الشرق الإسلامي بفقده منارة طالما سلَّطت الأضواء على سماحة هذا الدِّين ويسره ورحمته للناس أجمعينَ.

(١) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ﵁. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما». ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

رحم اللَّه شيخنا الكبير وشكر اللَّه للقارئ الكريم سعيه لتلقي العلم الصحيح، والبحث عن الحق من العلماء الذين يبلغون رسالات اللَّه ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا اللَّه.

❊ ❊ ❊

طليعةُ
«إحياء عُلومِ الدِّينِ» للإمام الغَزالي(*)

بِسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للّهِ رب العالَمين، وصلَّى اللّه وسلَّم وبارَك على سيِّدِنا رسولِ اللَّه، وعلى آله وصحبِه وسلَّم تَسليمًا كثيرًا.

وبعدُ:

فلقد طلَبت إليَّ دارُ المنهاج أن أكتُب كَلِمَةً تَفتَتِحُ بها الطَّبعةَ الثَّانية لكتابِ «**إحياء عُلُوم الدِّين**» لحُجَّة الإسلام، الإمام: أبي حامد الغزالي، رحمه اللَّهُ وجزاه عن الإسلام والمُسْلِمين خَيْرَ الجَزاء.

وقد تَرَدَّدتُ طويلًا في بادئ الأمر؛ لعِلمي بأنَّ الكِتَابة عن الإمام الغزالي في مقدِّمةٍ محدودةِ المساحة والكَلِمات هي محاولةٌ محكومٌ عليها بالإيجاز المُخِلِّ، والفَشَل الذَّريع، في الكَشف عن أيِّ جانبٍ من جوانب هذا البحر الذي لا ساحلَ له؛ سواء فيما يَتعلَّقُ بحياته، أو تَجاربِه الرُّوحيَّة، أو صَولاته العَقليَّة، أو مُناظراته العِلمية لأساطين الفلاسفة، والمُتكلِّمين والفُقَهاء، والأصوليِّين، وعُلَمَاء التَّصوُّف والأخلاق، وغيرهم من أئمَّة العِلم والمعرفة السَّابقين عليه، والمُعاصرين له.

ولمَّا لم يكن بُدٌّ من إجابة ما طُلِبَ إليَّ؛ فقد آثَرتُ أن أقولَ كلمةً متواضعةً، هي أشبَهُ بانطباعاتٍ عن مَيزَةٍ تَفرَّدَ بها كتابُ «**إحياء علوم الدِّين**» -الذي نُقدِّمُ

(*) هذه مُقدِّمةُ الطبعة الثانية من كتابِ «إحياء علوم الدين» الذي نشرته مشيخة الأزهر الشريف بالتعاون مع دار المنهاج بجدة بالمملكة العربية السعودية.

لطبعتِهِ الثَّانية- عن سائرِ الكُتب الفقهيَّة التي سبَقته، وجرَت معه في بيان أحكام العبادات في مضمارٍ واحد.

بل إنَّه ليَتفرَّدُ بهذه المَيزة عن كُتب الفقه الأخرى، التي ألَّفها الإمامُ الغزالي نفسُه؛ من مَبسوطٍ ووَسيطٍ ووَجيز.

إنَّ أوَّلَ ما يَتراءى من معالم «**إحياءِ عُلوم الدِّين**»: هو هذا المَعْلَمُ الذي يَتجلَّى في قُدرةِ الإمام الغزاليِّ على الدَّمجِ العَجيب، بين أحكام الفقه في رُبع العِبادات، وبين لطائفِ عِلم السُّلوك والأخلاق؛ وبحيثُ بَدى جَليًّا أنَّ أحكامَ الشَّريعة في العبادات ليست أحكامًا جامدةً أو جافَّة، وإنَّما هي في جوهرِها ذاتُ صلةٍ لا تَنفَصِمُ بدقائقَ وأسرارٍ خَفِيَت على الغالبيَّة العُظمى من عُلماء الفقه وأئمَّتِه وشيوخه، أو كانت ظاهرةً لهم لكنَّهم آثَروا أن يُجَرِّدوا أحكامَ الشَّرع من رُوحها الباطن، ويَعرِضوها بمَعزِلٍ عن أسرارها ومقاصدها، لتَخلُصَ لهم صياغاتُها في أسلوبٍ مُحكَمٍ وقوانين منضبطةٍ، تَتميَّزُ بالتَّركيزِ والتَّكثيف.

ولا يَنبغي أن نفهَم من كلمة الأسرار هُنا أنها العُلوم التي لا يُباحُ نَشرُها، أو التي يُضَنَّ بمعرفتها على غير أهلِها، وإلَّا لما اختار هذا الإمامُ أن يَصوغَها للكافَّة في عبارات مُشرِقة بمعانٍ يُدرِكُها العَالِمُ والمُتعلِّم على حدٍّ سواء.

والذي يَنبغي أن نفهمَه من كلمة أسرار العبادات؛ هو أنَّ للصَّلاة وسائرِ العبادات أبعادًا باطنةً، غيرَ أبعادِها الظَّاهرة التي تُعبِّرُ عنها الأحكام التَّكليفيَّة الخَمسةُ، التي هي: (الوجوبُ، والحُرمَةُ، والنَّدبُ، والكَراهَةُ، والإباحَةُ)، وأنَّ ثَمرةَ الصَّلاة في المُصلِّي وتأثيرَها في سُلوكه وأخلاقِه ليس أمرًا مَردُّه إلى الوفاء بالحُكم التَّكليفيِّ المُجرَّد، وإنَّما هو أمرٌ منوطٌ بأحكامٍ مُغايرة، تؤخَذُ من علمٍ آخرَ، هو فقه القُلوب..

انظُر إلى باب الصَّلاة من رُبع العبادات من كتابِ «**الإحياء**»، ودَقِّق النَّظرَ في طريقةِ عرضِ الإمام، وتَقسيمِه لموضوع هذا الباب؛ تَجده يَعرِضُ كلَّ ما يَتعلَّقُ بالصَّلاة من الأحكام الشَّرعيَّة المُتعلِّقة بأعمالِها الظَّاهرة؛ من فرائضَ، وسُنَنٍ، وفضائلَ، وغيرِ ذلك، ممَّا يَذكرُه الفُقهاء في باب الصَّلاةِ، ولكن رغمَ هذا التَّشابُه يَتفرَّدُ فقهُ الإمامِ الغزالي بأَمرين، لا تُخطِئهُما عينُ باحثٍ مُنصِف:

الأمرُ الأوَّلُ: أنَّ الإمامَ الغزاليَّ يَعرِضُ الأحكامَ الفقهيَّةَ من منظورٍ يَختلف أشدَّ الاختلاف عن منظور الفُقهاء، وبمَشرَبٍ ومَذاق، أو قُل: بنَفَس لا يُعرَفُ إلَّا لهذا الحكيم الإلهيِّ، ولنُظَرائِه ممَّن غرَّدَ معه في سِربِه.

فإذا كانت طريقةُ الفُقهاء، وعَرضُ الأحكامِ الشَّرعية في تَدوين كتُبهم الفقهيَّة تَعتَمِدُ على أُسلوبِ: وَجَبَ وحَرُمَ وسُنَّ ونُدِبَ وكُرِهَ وجاز، ولا شيء بعد ذلك؛ فإنَّ الإمام يَكتفي ببيان الضَّروري من هذه الأحكام، يُقرِّرُها في لغةٍ نَديَّةٍ، تَقتَحمُ القلوبَ والأفئدةَ قبلَ العُقولِ والأذهان.

ثمَّ هو لا يُطيلُ الشَّرحَ، والتَّعليلَ، والافتراضَ، والاعتراضَ، والرَّدَّ، وإنَّما يَقتصرُ على مُعالَجة القَدْرِ اللَّازمِ لتَأدية الصَّلاةِ على الوَجه الأكمَل.

والأمرُ الثَّاني الذي يمتاز به كتاب الإحياءِ عن كتب الفقه الأخرى: هو حِرصُ الإمامِ على أن يُخصِّصَ بابًا مُستقلًّا لبَيان أسرارِ الصَّلاة، أو شُروطِها الباطنة -على حَدِّ تعبيرِه؛ وهُنا يَضعُ الإمامُ أيدِيَنا على حقائقَ لم تكن لتَخطُرَ على بال الفُقهاء، أو لتَدخُلَ في حُسبانِهم في أحكام الصَّلاةِ وما إليها من أبواب العبادات..

وذلك مثل: اشتراط الخُشوع، وحُضور القَلب، والتَّفهُّم، والتَّعظيم، والهَيبَة، والرَّجاء، والحَياء.

وقد عرَض الإمامُ لشَرح هذه المعاني، وبيان أسبابها، ثمَّ أفاضَ في بيان ما يَنبغي «أن يَحضُر في كلِّ رُكنٍ من أركان الصَّلاةِ، لتكون صالحةً لزادِ الآخرة»[(١)].

وقد مُنحَ قُدرةً خارقةً على الغَوصِ في أحوال القَلْبِ، وأغوار النَّفس، وتَحليلِ ما يَعرِضُ لهما من عوارضَ لطيفةٍ؛ كالخَوف، والخُشوعِ، والتَّعظيم، وعوارض ذميمةٍ؛ كالغَفلَةِ، والنِّسيان، والشَّهَوات.

وهو إلى ذلك يُشخِّصُ العِلَّةَ، ويُحدِّدُ الدَّاءَ، ويَصِفُ العلاجَ والدَّواءَ، في عباراتٍ شديدةِ الإشراقِ لفظًا، عميقةِ الأغوار مَدْرَكًا، وبنَفَسٍ موصولٍ بعالَمٍ آخر وراء عالَم الكتب والبَحث.

والسَّلام عليكُم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

(١) «إحياء عُلوم الدِّين»، ١/ ٥٨٨-٦٤١، دار المنهاج، المملكة العربية السعودية: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

طليعة كتاب
«الأزهر في مواجهة الفكر الإرهابي»(١)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ النبيِّين، وعلى آلِه الطيِّبين الطاهرين، وأصحابِه البَرَرةِ الأكرَمين، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعدُ:

ففي خِضَمِّ أحداثِ العُنفِ المتلاحِقةِ، ومَوْجاتِ الغلو والتطرُّفِ التي أَلقَتْ بظِلالِها الكَثيفةِ على كثيرٍ مِن دُوَلِ العالمِ، لا سيما العالَمَينِ العربيِّ والإسلاميِّ؛ فهدَّدَتْ أَمْنَه، ونازَعَتْه سلامَتَه وعافيتَه - دَعَا الأزهرُ الشريفُ إلى مؤتمرٍ عالميٍّ حِواريٍّ تشاوُريٍّ يجتمعُ فيه العلماءُ والمفكِّرون، وكثيرٌ مِن قادةِ المذاهِبِ الدينيةِ، الإسلاميةِ والمسيحيةِ الشرقيةِ؛ لبحثِ هذه الظاهرةِ، والتعرُّفِ على دوافِعها وأسبابِها، والنظرِ في عواقِبها ومآلاتِها.

وقد تلقَّى كثيرٌ مِن الدوائرِ العلميَّةِ والسياسيةِ في الشرقِ والغربِ هذه الدعوةَ الكريمةَ بالتَّرْحابِ والقَبولِ، ولبَّى العلماءُ وزعماءُ المذاهبِ نداءَ الأزهرِ الشريفِ، فأقبَلوا إلى أرضِ الكِنَانةِ مِن كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، على اختلافِ عقائدِهم ومَشارِبِهم، وتنوُّعِ توجُّهاتِهم وانتماءاتهم، يَحْدُوهم

(١) والكتاب عبارة عن أعمال مؤتمر الأزهر العالمي لمواجهة التطرف والإرهاب، حررت هذه الطليعة في: ١٣ ربيع أول ١٤٣٦هـ، الموافق: ٤ يناير ٢٠١٥م. وطبع بالاشتراك بين مشيخة الأزهر الشريف ومجلس الحكماء المسلمين، القاهرة: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

الأملُ في تحقيقِ خطواتٍ جادَّةٍ على طريقِ التصدِّي لهذا الخطرِ الداهِم، بتحليلِ أسبابِه ومعرفةِ دوافعِه؛ للتشاوُرِ في هذا الأمرِ الجَلَلِ، كلٌّ يُدلي بدَلْوِه -من وِجهةِ نظرِه وعلى قَدْرِ طاقتِه- أملًا في سبيلِ الوُصولِ إلى حَلٍّ حاسِمٍ للأَزْمةِ التي يَمرُّ بها العالَمُ أَجْمَعُ.

وقد أَسْفَرَتْ هذه المُناقَشاتُ الحِواريَّةُ، والمشاوراتُ الفكريَّةُ: عن أوراقٍ بحثيةٍ احتوَتْ في طيَّاتِها تصحيحَ كثيرٍ من المفاهيمِ المغلوطة، وتوضيحَ بعضِ المقولاتِ المُلْتَبِسةِ التي يتَّخذُها أصحابُ الفكرِ المنحرفِ مطيَّةً في تَسْويغِ ما يقومونَ بِهِ من أعمالٍ إجراميَّةٍ بَشِعَة.

كما عالجَت هذهِ الأبحاثُ في مُجمَلِها وتفصيلِها قضايا التطرُّفِ والغُلوِّ والإرهاب، ورسَمَت الطريقَ واضِحًا أمامَ المؤسَّساتِ الدينيَّةِ والثقافيَّةِ لمواجهَةِ هذه الانحرافاتِ من خلالِ الفكرِ المُستقيمِ القائمِ على صحيحِ النَّقلِ وصريحِ العقل.

وكانَ من تمامِ العملِ أن تَخرُجَ هذه الأبحاثُ إلى النُّور، في مجلدٍ يليقُ بما تحويهِ من فكرٍ دقيق، ووسطيَّةٍ جامعَة، ورؤيةٍ معتدِلَة، ليستفيدَ منها الموافِقُ والمُخالِفُ على السَّواءِ. ولعلَّ هذه الأوراقَ تُسدي للمُجتمَعاتِ الإنسانيَّةِ معروفًا، يرُدُّ عنها لهيبَ الإرهابِ ونيرانَ الغُلوِّ والتَّطرُّف.

واللَّهُ تعالى مِن وراءِ القصدِ، والحمدُ للَّه أوَّلًا وآخِرًا.

❊ ❊ ❊

طَلِيعةُ كتاب
«الأزهر في مواجهة المفاهيم المغلوطة»(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ وبارَكَ على سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحبِه.

وبعدُ، فقد صَدَرَ الجزءُ الأوَّلُ مِن أبحاثِ «مؤتمرُ الأزهرِ العالَميُّ لمواجهةِ التَّطرُّفِ والإرهابِ» في طبعتينِ؛ ظهرَت أُولاهما سنةَ: ٢٠١٥م، وظهرتِ الثَّانيةُ سنةَ: ٢٠١٦م، وكان من المقرَّرِ أن يَصدُرَ هذا الجزءُ الثَّاني من أبحاثِ المؤتمرِ منذُ عامٍ تقريبًا، وخاصَّةً بعد أن نَفِدَت نُسَخُ الجزءِ الأوَّلِ في وقتٍ قصيرٍ.

وأظنُّ أنَّ الوقتَ لا يزالُ مُناسِبًا لصُدورِ هذا الجزءِ المتبقِّي مِن أبحاثِ المؤتمرِ، فلا تزالُ السَّاحةُ تَهتزُّ أرجاؤُها بأحداثِ الإرهابِ والقتلِ والتَّفجيرِ والتَّدميرِ، ولا زالت مَنطِقَتُنا غارقةً -إلى آذانِها- في لجُجِ اللَّامعقولِ واللَّاإنسانيِّ، وقد دَفَعَت -ولا تزالُ تَدفَعُ- مِن جرَّاءِ ذلك ثمنًا فادحًا مِن الأرواحِ والأموالِ والدِّماءِ والأشلاءِ ما أظنُّ أنها دَفَعَت مِثلَه مِن قبلُ في تاريخِها الحاضرِ والغابرِ.

وسوف يُسجِّلُ التَّاريخُ يومًا أنَّ العربَ والمسلمين في قَرنِ التَّحضُّرِ وحقوقِ الإنسانِ لم يكونوا جَدِيرينَ بِوراثةِ هذا الدِّينِ الَّذي اشتُقَّ اسمُه مِن

---

(١) والكتاب عبارة عن أعمال مؤتمر الأزهر العالمي لمواجهة التطرف والإرهاب، حررت هذه الطليعة في: ١٣ ربيع أول ١٤٣٦هـ، الموافق: ٤ يناير ٢٠١٥م. وطبع بالاشتراك بين مشيخة الأزهر الشريف ومجلس الحكماء المسلمين، القاهرة: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

معنى «السَّلام»، وبُعِثَ رسولُه لِيكونَ رحمةً للعالَمِينَ، وأنَّهم لم يَقِفُوا مرَّةً واحدةً لِيَستوعِبُوا ما يَتلُونه ليلَ نهارَ مِنَ الذِّكرِ الحكيم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] حتَّى صارتِ الحروبُ بينهم على المذهبِ والتَّمذهُبِ.

ولم يَعُدِ الإسلامُ عندَ المسلمين -اليومَ- مِثلَما كان عندَ أجدادِهم مِن قبلُ: مَصدرَ وَحدةٍ وقوَّةٍ، ومَبعَثَ عزَّةٍ ومَنَعةٍ، بل صارَ، على أيدي عصابةٍ جاهلةٍ مغرورةٍ، مَثارَ فتنةٍ عمياءَ، ومحنةٍ سوداءَ، اشتَبهَ أمرُها، ثمَّ ما لَبِثَت أنِ انبَهَمَت قَوادِمُها وخَوافيها على عُقلائهم وحُكمائهم قبلَ عامَّتِهم وبُسطائِهم.

انظُر إلى حضارةِ العراقِ كيف دمَّرَها العراقيُّون بأيديهم وبأسلحتِهم، وانظُر إلى الدِّماءِ العراقيَّةِ كيف سُفِكَت بأيدي أبناءِ دِينٍ واحدٍ ووطنٍ واحدٍ، وأروقةٍ واحدةٍ!! ولو أن هذه الدِّماءَ العربيَّةَ سُفِكَت بأيدٍ أجنبيَّةٍ لقد كان يَهُونُ الخَطبُ، ويُعرَفُ السَّببُ الذي يَبطُلُ معه العَجَبُ.

وانظُر مِثلَ ذلك في الكوارثِ والنَّكباتِ التي نَكَبَتِ الملايينَ من أبناءِ سوريا واليمنِ وليبيا.. ممن قُتِلوا وهُجِّروا وهامُوا بنسائِهم وأطفالِهم في الفَيافي والقِفَارِ، في حربٍ شديدةِ البأسِ، لم يكُن لهم فيها رأيٌ، ولا ناقةٌ ولا جملٌ.

وإذا رُحتَ تسألُ عن العلَّةِ المباشرةِ -أوِ السَّببِ القريبِ- الَّذي أَشعَلَ هذه النِّيرانَ في بلادِ العربِ بهذه الصُّورةِ الهمَجيَّةِ فإنَّك لا تَعدُو الصَّوابَ لو قُلتَ: إنها حربٌ ذاتُ عَلاقةٍ بالدِّينِ، أو حربٌ لَبِسَتْ قميصَ الدِّينِ، وإن تكُن في أسبابِها البعيدةِ ليست ممَّا يمُتُّ إلى الدِّينِ بأدنى صلةٍ أو سببٍ، فقدِ ارتبطَت -هناك- أشدَّ الارتباطِ بفَلَكِ المطامعِ الإقليميَّةِ، والتَّوسُّعاتِ الَّتي تَخدُمُ الأجندةَ الطائفيَّةَ، وتَأتمِرُ بأمرِ سياساتِ الهيمنةِ، ورسمِ الخرائطِ الجديدةِ، وتغييرِ الحدودِ، ومُخطَّطِ تفتيتِ الكِياناتِ العربيَّةِ الكبرى، وتشتيتِ جهودِها، وضعفِ قوَّتِها الاقتصاديَّةِ والعسكريَّةِ، ممَّا يَضمَنُ عَيشًا

آمنًا مستقرًا -أبديًا- لهذا الكِيانِ الاستعماريِّ الدَّائمِ الذي نَفَذَ إلى قلبِ العروبةِ واستقرَّ فيه.

وقد ظنَّ القائمون على هذا الكِيانِ أنَّ إضعافَ مَن حولَه مِن الجيرانِ سيكونُ مَصدَرَ قوَّتِه وأَمنِه وسلامِه، ونَسُوا -أو تَناسَوا- أنَّ حقائقَ التَّاريخِ والجغرافيا وطبائعَ الأمورِ تَأبى تَصوُّرَ سفينةٍ آمنةٍ مِن الغَرَقِ، والمَوجُ مِن حَولها عاتٍ ومُصْطَفِقٌ، وأنَّ السَّلامَ الَّذي يُحرَمُ منه الجيرانُ يُحرَمُ منه هذا الكِيانُ، طالَ الأمدُ أو قَصُرَ.

أمَّا السَّببُ المباشرُ الَّذي أَشعَلَ هذه الحربَ القاسيةَ -الَّتي عَرَفنا بدايتَها ولا ندري عَلامَ تَنطوي نهايتُها- فهو بَعثُ الخلافِ المذهبيِّ بين المسلمين أَنفُسِهم، وقد وَجَدَ النَّافخون على النَّارِ؛ مِن سماسرةِ الحروبِ وتُجَّارِ الأسلحةِ، في بَعثِ الخلافيَّاتِ بين السُّنَّةِ والشِّيعةِ مَسرَحًا جاهزًا لإطلاقِ الطَّائراتِ والصَّواريخِ على ثلاثِ دُوَلٍ تختزنُ فيما تَختزِنُه أَعرَقَ الحضاراتِ الإنسانيَّةِ والإسلاميَّةِ، والمتأمِّلُ في هُويَّةِ السِّلاحِ المُستخدَمِ في قتلِ أبناءِ هذه الدُّوَلِ ونسائِها وأطفالِها يَعرِفُ أنَّ الأطرافَ الَّتي تُديرُ هذه الحربَ وتُمسِكُ بخُيوطِ اللُّعبةِ تَقبَعُ وراءَ البحارِ، وأنَّ هذه الحربَ هي حربٌ بالوَكالةِ كما يُقالُ.

ومن الإنصافِ لأَنفُسِنا وللآخَرِينَ أيضًا أن نعترفَ بأنَّنا -نحن العربَ والمسلمين- هم أوَّلُ مَن يَتحمَّلُ المسؤوليَّةَ الدِّينيَّةَ والخُلُقيَّةَ عن هذه الحربِ الفوضويَّةِ والعَبَثيَّةِ، أمامَ اللَّهِ وأمامَ التَّاريخِ؛ فقدِ ابتَلَعنا الطُّعمَ المسمومَ، ولم نَتنبَّه للفخِّ الَّذي تَردَّت فيه الأمَّةُ، وعَلِقَت به أقدامُها، وبَقِيَت تُجاذِبُه وتُحاوِلُ الفِكاكَ منه دُونَ جَدوى.

ولا يَدري أحدٌ متى يُحسَمُ أمرُ هذه الحربِ، وإلى أين تَتَّجِهُ بالمنطقةِ، بعد التَّدميرِ الذي أَتى على كلِّ عامرٍ في شمالِها ووَسَطِها وجنوبِها وغربِها،

دَع عنك تكاليفَ إعادةِ الإعمارِ، وما يَعْقُبُ هذه التَّكاليفَ مِن شللٍ للاقتصادِ العربيِّ، ونقصٍ فادحٍ مِن مواردِ الخزائنِ العربيَّةِ ومُقوِّماتِها.

نعم، لم نَتنبَّه -نحن العربَ والمسلمين- إلى آفتَينِ قاتلتَينِ تُمسِكُ إحداهما بتَلابيبِ الأخرى، وتترتَّبُ عليها ترتيبًا منطقيًّا:

الأُولى: ما أشرتُ إليه؛ مِن قابليَّةِ التَّشرذُمِ والاختلافِ والانغلاقِ على المصالحِ القُطريَّةِ الجزئيَّةِ، وعدمِ الجِديَّةِ في التعامُلِ مع حُرمةِ الأوطانِ، وما تستوجبُه أهدافُها العُليا من بُعدِ نظرٍ، ومن تحمُّلٍ للمسؤوليَّةِ، ومن يَقَظةٍ واستشعارٍ «سابقٍ ومدروسٍ» للمخاطرِ الَّتي تَحيقُ بالجميعِ حينَ تُباحُ حُرُماتُ الأوطانِ؛ والأدهى مِن ذلك والأمرُّ: اصطحابُ التَّشرذُمِ والصِّراعِ حتَّى في الموطنِ الَّذي تُعَدُّ فيه الفُرقةُ ضَربًا من الاستهانةِ بالمسؤوليَّةِ التَّاريخيَّةِ عن هذه الأوطانِ، إن لم نَقُل: ضَربًا مِن «الخيانةِ» لأبنائِنا وأحفادِنا وأجيالِنا القادمةِ، وأَعني بهذا الموطنِ مَوطِنَ ضرورةِ الاصطفافِ وحتميَّةِ التَّوحُّدِ لمجابهةِ الموقفِ، والتَّوافُقِ على خُطَّةٍ واحدةٍ لملاقاةِ العدوِّ الذي دَخَلَ البلادَ وعاثَ فيها فَسادًا.

والآفةُ الثَّانيةُ: هي أنَّ هذه «الفُرقةَ» القُطْريَّةَ -إن صحَّ هذا الوصفُ- تقتضي بالضَّرورةِ تأصيلًا شرعيًّا أو «فقهًا» -استثنائيًّا- تَستجلِبُه كلُّ فِرقةٍ من تُراثِنا؛ ليكونَ سَنَدًا يُبرِّرُ هذا التَّوجُّهَ أو ذاكَ، وأمرٌ طبيعيٌّ أن يُستدعى مِن تُراثِنا البعيدِ -والقريبِ أيضًا- هذا النَّوعُ مِن فقهِ الجهادِ الاستثنائيِّ الَّذي ظَهَرَ في بيئةٍ مُعيَّنةٍ، لمعالجةِ ظروفٍ خاصَّةٍ، كان المسلمون فيها يُواجِهون عدوًّا مُستعمِرًا، وَطِئَت خَيلُه بلادَ الإسلام بالفعلِ، وأصبحَت مواجهتُه ودَحرُه وردُّه على أعقابِه فرضَ عينٍ على كلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ.

ففي مِثلِ هذه الظُّروفِ يُصبحُ مِن الطَّبيعيِّ والمنطقيِّ أن تَنشأَ أحكامٌ وفَتاوَى في بابِ الجهادِ والقتالِ، تتصدَّى لهذه الظُّروفِ الخاصَّةِ، وترتبطُ بها

وُجودًا وعَدَمًا، ولا تتعدَّى عَصرَها الَّذي استَوجَبَها واقتضاها إلى عصورٍ أخرى مُختلِفةٍ تَتَّسِمُ بالسِّلم والاستقرارِ، ومُعاهَداتُ السَّلامِ الدَّوليَّةِ تتطلَّبُ فقهَ الأمنِ، وتقضي بمُسالَمةِ الآخَرِ، وتطبيقِ القوانينِ الدَّوليَّةِ.

وليس من شريعةِ الإسلامِ -في كثيرٍ أو قليلٍ- ولا مِن العقلِ الَّذي احتفى به القرآنُ الكريمُ والسُّنَّةُ المطهَّرةُ احتفاءً قلَّ نظيرُه في أيِّ كتابٍ سماويٍّ أو غيرِ سماويٍّ -أن يَستورِدَ العربُ والمسلمون الآنَ لحَلِّ خلافاتِهم ونِزاعاتِهمُ البَيْنيَّةِ فقهَ جهادِ المغولِ والتتارِ والصَّليبيِّين في القديمِ، أو فقهَ مُقاومةِ الاستعمارِ الإنجليزيِّ في الهندِ وما جاوَرَها في العصرِ الحديثِ؛ فمِثلُ هذا الفقهِ لا مَحَلَّ له الآنَ، وإذا ذهَبَ المَحَلُّ ذَهَبَ الفقهُ المرتبطُ به، وإلَّا تَحوَّلَتِ المجتمعاتُ الإسلاميَّةُ إلى فوضى واضطرابٍ كما هو حادثٌ الآنَ.

والقاعدةُ الفقهيَّةُ الَّتي تَعلَّمناها في الأزهرِ تُقرِّرُ ارتباطَ الحُكم بمَحَلِّه وُجودًا وعدمًا، فإذا ذَهَبَ المَحَلُّ ذَهَبَ معه الحُكمُ ولا خلافَ، والمَحَلُّ الَّذي ذَهَبَ ولم يَعُد له وجودٌ الآنَ هو: مُواجهةُ عدوٍّ كافرٍ في العصورِ السَّابقةِ، جاء ليُبيدَ الإسلامَ والمسلمين، والحُكمُ الَّذي يجبُ أن يَذهَبَ معه هو القتالُ مِن أجلِ الدِّفاعِ عنِ العقيدةِ وعنِ الأرضِ والأوطانِ.

وهذه الأزمةُ في الفَهمِ، أو الخطأُ في المُقايَسةِ والتَّنظيرِ هي «الكارثةُ» المسؤولةُ عن الدِّماءِ «المسلمةِ» التي تُسفَكُ بالجملةِ، وبالعشَراتِ والمئاتِ كلَّ يومٍ، ورأسُ الدَّاءِ في هذه الكارثةِ: البحثُ عن غطاءٍ دِينيٍّ يُبرِّرُ تكفيرَ المُخالِفِ تمهيدًا لقتلِه بعدَ ذلك.

* * *

وهذه الأبحاثُ الَّتي أُقدِّمُ لها بهذه الكلماتِ، هي ذاتُ صلةٍ متينةٍ راسخةٍ بموضوعِ «الإرهابِ»، الَّذي هو آفةُ العصرِ ووَباؤُه، وسَرَطانُه المتمدِّدُ شرقًا

وغربًا، وهي تتعاملُ مع مفاهيمِه المغلوطةِ ومُفترَياتِه، الَّتي زيَّفَها المتطرِّفون والتَّكفيريُّون، ولطَّخُوا بها وجهَ الإسلامِ وتاريخَ المسلمين.

والأزهرُ إذ يَضَعُ هذا الخطرَ الَّذي التَصَقَ بالإسلامِ والمسلمينَ زُورًا وبُهتانًا على رأسِ أولويَّاتِه واهتماماتِه، سواءٌ بعقدِ المؤتمراتِ، أو بالزِّياراتِ المتكرِّرةِ لكُبرياتِ المؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ في أوروبَّا وغيرِها، أو بتعريفِ طلَّابِه في مرحلةِ ما قبلَ الجامعةِ بمقُولاتِ الجماعاتِ المسلَّحةِ الَّتي تَقتُلُ النَّاسَ باسمِ الإسلامِ، أو بالمرصدِ الإلكترونيِّ الَّذي يَتعقَّبُ الفكرَ الإرهابيَّ بالرَّصدِ والتَّحليلِ والرَّدِّ، بلُغاتٍ تِسعٍ مِنَ لُغاتِ العالَم، أو بقوافلِ السَّلامِ الَّتي يَشترِكُ الأزهرُ في تَسييرِها مع مجلسِ حُكماءِ المسلمين، أقولُ: إنَّ الأزهرَ الَّذي يَبذُلُ أَقصى ما يستطيعُ مِن أجلِ القيامِ بواجبِه في تفكيكِ الفكرِ الإرهابيِّ وكشفِ أَضاليلِه وأغاليطِه لا يرى أنَّ الانحرافَ الفكريَّ هو السَّببُ الأَوحَدُ، ولا الأوَّلُ في نشأةِ هذه الجماعاتِ المسلَّحةِ، أو تطوُّرِها المفاجئِ، أو المفارقةِ اللَّامعقولةِ بين إمكاناتِ هذه الجماعةِ، وبين ما وَصَلَت إليه في لَمحِ البصرِ مِن قُدُراتٍ عسكريَّةٍ وماليَّةٍ وقتاليَّةٍ هائلةٍ، مكَّنَتها مِن بَسطِ نُفوذِها على مساحاتٍ شاسعةٍ مِن بلادِ الرَّافدَينِ ومِن بلادِ الشَّامِ، وسوف تَظَلُّ هذه المُفارَقاتُ الغريبةُ لُغزًا ربَّما تَبُوحُ الأيَّامُ القريبةُ القادمةُ بِسِرِّهِ ومعرفةِ وَجهِه الخارجيِّ والدَّاخليِّ أيضًا.

* * *

القارئُ العزيزُ!

أَترُكُكَ مع أساتذةٍ مُتخصِّصينَ، ودراساتٍ بالغةِ العُمقِ والدِّقَّةِ؛ لِتُدرِكَ في النِّهايةِ تَهافُتَ الفِكرِ الإرهابيِّ وزَيفَ مَقُولاتِه، وكَذِبَ شُبُهاتِه، ولِتَكونَ على يقينٍ مِن أنَّ هذا الفِكرَ الدَّمَويَّ لا يَعرِفُه الإسلامُ، ويُنكِرُه المسلمون أشدَّ الإنكارِ.

طليعةُ كتاب

«دليل مَعلَمة المناهج الأزهريَّة»(*)

إنَّ نظرةً مُتعمِّقةً على تَنَوُّعِ الحُقولِ العِلميَّة، وتَوَزُّعِها على علوم العقلِ والنَّقلِ والذَّوقِ -لِتَدُلُّ على تَعدُّديَّةِ المنهجِ التَّعليميِّ الأزهريِّ، وأنَّه يَنفرِدُ بهذِهِ المَيزَةِ مِن بينِ سائرِ المناهجِ التَّعليميَّةِ الأخرى، الَّتي تُعنَى بشرحِ عُلومِ الإسلامِ؛ عقيدةً وفقهًا، تأصيلًا وتفريعًا.

هذا المنهجُ يُدرِّبُ الطَّالبَ الأزهريَّ -منذُ نُعومةِ أَظفارِه وحتَّى تَخرُّجِهِ في الكُلِّيَّاتِ الأزهريَّةِ بمُختلِفِ تَخصُّصاتِها- على استيعابِ فلسفةِ «الخلافِ ومشروعيَّتِهِ، وتقبُّلِ الرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ».

يَتدرَّبُ على ذلك -في سِنٍّ باكرةٍ- وهو يَدرُسُ مادَّةَ الفقهِ، بعدَ اختيارِه مذهبًا مِنَ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ، بكلِّ ما تزخَر به مِن تنوُّعٍ واختلافاتٍ في الفُروعِ تَذهَبُ -أحيانًا- مِنَ النَّقيضِ إلى النَّقيضِ، وبكلِّ ما يَتضمَّنُه المذهبُ الفقهيُّ الواحدُ مِن اختلافاتٍ بين أئمَّتِهِ وشُيوخِهِ.

ويستقرُّ في وَعيِ الطَّالبِ الأزهريِّ الصَّغيرِ -منذُ سِنِيِّهِ الأُولى في طلبِ العِلمِ بالأزهرِ- أنَّ هذه المذاهبَ على اختلافاتِها وثَرائِها وتَعَدُّدِها كلُّها صحيحٌ ومُعتمَدٌ، وكلُّها يُعبِّرُ عن رُوحِ الشَّريعةِ الَّتي تَتَّسِعُ لكلِّ هذه التَّيسيراتِ، وكلٌّ منها ناطقٌ بِاسمِ الشَّريعةِ، ومُتحدِّثٌ رَسميٌّ عنها، وأنَّ

(*) مقدِّمةٌ كُتبت لـ: «دليلِ مَعلَمةِ المناهجِ الأزهريَّةِ: قائمة بالكتب المعتمدة في الأزهر الشريف» من مطبوعات مجلس حكماء المسلمين، دار القدس العربي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

المذاهبَ الأربعةَ على قَدَمِ المُساواةِ في صِحَّةِ التَّعبُّدِ بها، والعَملِ بمُقتضى أَحكامِها في العِباداتِ والمُعامَلاتِ والأخلاقِ.

وبهذا المنهج يَتحصَّنُ الطَّالبُ الأزهريُّ ضدَّ دَعاوَى الانغلاقِ في مذهبٍ واحدٍ فقط، يَزعُمُ فقهاؤهُ وأساتذتُهُ أنَّه الأَولَى بالاتِّباعِ، وأنَّ أَحكامَهُ أَجدَرُ بالتَّطبيقِ مِن سائرِ المذاهبِ الأُخرى.

ويَتعلَّمُ الطالبُ في الأَزهرِ أنَّ مِثلَ هذه الدَّعاوَى الَّتي تَحجُرُ على الفِكرِ، وتَسجُنُ العقلَ وراءَ قُضبانِ مذهبٍ فقهيٍّ واحدٍ، وتَنتشِرُ على السَّاحةِ الإسلاميَّةِ في الآونةِ الأخيرةِ - هذه الدَّعاوَى هي دَعاوَى مُبتدَعةٌ لم تَعرِفها جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ مِن قَبلُ.

هكذا يُمارِسُ الأزهريُّ الصَّغيرُ هذا المنهجَ المُحمَّلَ بأبعادٍ تربويَّةٍ عمليَّةٍ مُعمَّقةٍ طَوالَ المرحلةِ الإعداديَّةِ والثَّانويَّةِ؛ حيثُ يَتوزَّعُ الطُّلَّابُ على مجموعاتٍ، يختارُ كلٌّ منها مذهبًا فقهيًّا مِنَ المذاهبِ الأربعةِ، يُلازِمُها طَوالَ سَنَواتٍ دراسيَّةٍ ستٍّ، وفي كُتُبٍ تُراثيَّةٍ أُعِدَّت بعِنايةٍ عِلميةٍ فائقةٍ، وذلك قَبلَ الالتحاقِ بالكُلِّيَّاتِ الَّتي تُؤهِّلُ المُتخرِّجَ في حُقولِ: أُصولِ الدِّينِ، أو الشَّريعةِ، أو اللُّغةِ العربيَّةِ.

ولا يَقتصِرُ هذا المنهجُ التَّعدُّدِيُّ في مَراحلِ ما قبلَ الجامعةِ على الجانبِ النَّظريِّ التَّعليميِّ فقط، بل يُمارِسُه الطُّلَّابُ عمليًّا في عباداتِهم وفي مَعاشِهِمُ اليوميِّ؛ فالطَّالبُ الشَّافعيُّ -مَثَلًا- حينَ يَقتدي في صلاتِهِ بإمامٍ مالكيٍّ يتقبَّلُ بعقلِهِ العِلميِّ ومَنهَجِهِ التَّعليميِّ التَّعدُّديِّ وتَدريبِهِ اليوميِّ -كلَّ الاختلافاتِ التي تَحدُثُ في الصَّلاةِ بين هذينِ المذهبَينِ، وأوَّلُها كَراهيَةُ البسملةِ في الصَّلاةِ الجهريَّةِ عندَ مالكٍ، ووجوبُها عندَ الشَّافعيِّ، رضيَ اللَّهُ عنهما، أو وُجوبُ مَسحِ جَميعِ الرَّأسِ عندَ مالكٍ في الوُضوءِ، والاكتفاءُ بمَسحِ شُعَيراتٍ

عندَ الشافعيِّ، ومسحُ رُبُعِ الرَّأسِ عندَ أبي حنيفةَ رضيَ اللَّهُ عنهم، وقل مثل ذلك في عشرات الأمثلة من الاختلافات المشهورة بين فقهاء المسلمين وأئمتهم.

ويَترسَّخُ هذا المنهجُ أيضًا في مُقرَّرِ العقيدةِ وعِلمِ الكلامِ ودراسةِ مذاهبِ المتكلِّمينَ؛ مِن معتزلةٍ وأشاعرةٍ وماتُريديَّةٍ وجهميَّةٍ وغيرِها، دراسةً عِلميَّةً موضوعيَّةً لا يُفرَضُ فيها مذهبٌ بعَينِه على الطَّالبِ يَعتنِقُهُ مُنذُ طفولتِهِ، ويُلَقَّنُهُ على أنَّهُ المذهبُ الوحيدُ المُتكفِّلُ ببيانِ عقيدةِ التَّوحيدِ، وأنَّ غيرَهُ مِنَ المذاهبِ الإسلاميَّةِ الأخرى الَّتي دَرَجَت عليها جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ خَمسةَ عَشَرَ قرنًا مِنَ الزَّمانِ مذاهبُ فاسدةٌ، وأنَّ الدَّاعِينَ إليها والمُتمذهِبينَ بها إمَّا فُسَّاقٌ ضالُّون، أو مُشرِكُون تُستباحُ دماؤُهم وأموالُهم وأعراضُهم.

وأَذكُرُ حينَ كنتُ طالبًا بقِسمِ العقيدةِ والفلسفةِ بكليةِ أصولِ الدِّينِ في أوائلِ النِّصفِ الثَّاني مِنَ القرنِ الماضي، كيف كان الجوُّ العلميُّ في ذلك الوقتِ أَرحَبَ صدرًا، وأَسمى غايةً ومَقصِدًا، بكثيرٍ ممَّا آلَ إليه الوضعُ الآنَ.

فقد كنَّا نَدرُسُ مذاهبَ علماءِ الكلامِ- مِن معتزلةٍ وأشاعرةٍ وماتُريديَّةٍ وغيرِها- دراسةً علميَّةً نقديَّةً حرَّةً، لا يُوجَّهُ فيها الطَّالبُ نحوَ مذهبٍ مُعيَّنٍ، ومِنَّا مَن كان يُدافِعُ عن مَقُولاتِ أهلِ الاعتزالِ، ومِنَّا مَن كان يُدافِعُ عن الأشاعرةِ، ومِنَّا مَن يَستحسِنُ نظريَّاتٍ مِن هنا، وأخرى مِن هناك.

وكان قِسمُ الفلسفةِ بقيادةِ الدكتور/ علي سامي النَّشَّار (ت. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) في جامعةِ الإسكندريَّةِ يُمثِّلُ المذهبَ الأشعريَّ؛ دراسةً، وتأصيلًا، وتحقيقًا للنُّصوصِ، وكذلك كان قِسمُ الفلسفةِ في كليةِ دارِ العلومِ بقيادةِ الدكتور/ محمود قاسم (ت. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) يُمثِّلُ مدرسةَ الاعتزالِ وابنِ رُشدٍ، وكان قِسمُ العقيدةِ والفلسفةِ برئاسةِ الدكتور/ عبد الحليم محمود

(ت. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) والدكتور سليمان دُنيا (ت. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) وغيرِهما في جامعةِ الأزهرِ يُمثِّلُ فلسفة المشائين والمتكلمين التَّصوُّفِ، وكلامَ علماءِ القلوبِ، ومواجيدَ أهلِ الذَّوقِ والعِرفانِ.

وكُنَّا نَشعُرُ في محاضرةِ «التَّصوُّفِ» ونحنُ نَدرُسُ «**رسالةَ الإمامِ القُشَيريِّ**»، وكتابَ «**المُنقذ مِنَ الضَّلالِ**» للإمامِ الغزاليِّ - بنَشوةٍ رُوحيَّةٍ عارمةٍ، نَخالُ معَها أحيانًا أنَّنا نَمشي فوقَ السَّحابِ.

ولا تزالُ أقوالُ شُيوخِنا الزَّاهدينَ ممَّن دَرَّسُوا لنا هذا العِلمَ -رَحِمَهمُ اللَّهُ- وشُخوصُهمُ المضيئةُ المُتعاليةُ على حُطامِ الدُّنيا وتعقيداتِها وعَقابيلِها - لا يَزالُ كلُّ ذلك محفورًا في وِجدانِ تلاميذِهم حتَّى هذه اللَّحظةِ.

وكثيرًا ما كانت محاضراتُ الشُّيوخِ في علمِ التصوُّفِ عزاءً وتسليةً للطَّالبِ الفقيرِ عن فقرِه وحاجتِه، وتدريبًا له على الاعتلاءِ على ما ليس ضروريًّا مِن مُتَعِ الحياةِ الدُّنيا ومطالبِها، كما كانت كابحًا لجُموحِ الطُّلَّابِ الَّذين يَملِكُون من أسبابِ الجِدةِ وقُوَّتِها ما يُغريهم بالزَّهوِ على زُملائِهم.

كانَ هؤلاءِ الشُّيوخُ مُتميِّزينَ حتَّى مِن بينِ زُملائِهم مِن شُيوخِ علومِ النَّقلِ والعقلِ، وكان لهم في قلوبِنا مكانٌ متميِّزٌ أيضًا، وقد ردَّدُوا على أسماعِنا من كلامِ أهلِ اللَّهِ ما صافحَته القلوبُ قبلَ العقولِ، وهو «كلامٌ» بدا لنا أنَّه مِن طَورٍ آخَرَ غيرِ طَورِ البحثِ والدَّرسِ والتَّحصيلِ، وأنَّهُ لا يُعرَفُ له نظيرٌ عند الآخَرينَ مِن جَهابذةِ المعقولِ والمنقولِ.

لقد توقَّفتُ قليلًا -وعن قَصدٍ- أمامَ هذا المَعلَمِ البارزِ مِن مَعالِمِ المنهجِ الأزهريِّ وأعني به معلَمَ امتزاجِ المشاربِ والأذواقِ؛ لأبيِّنَ للقارئِ أنَّ منهجَ «التَّكوينِ العِلميِّ الأزهريِّ» منهجٌ تمتزج فيه ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ العلومِ؛ هي: علومُ النَّصِّ، والعقلِ، والذَّوقِ.

ونَعني بالنصِّ هنا: القرآنَ الكريمَ، والسُّنَّةَ النَّبويَّةَ الصَّحيحةَ.

وبعُلومِ النَّصِّ: العلومَ الَّتي نَشأَت حولَ هذين المصدرَينِ الكريمينِ المقدَّسينِ؛ مِنَ التَّفسيرِ، وعلومِ القرآنِ، والحديثِ، وعلومِه، والفقهِ، وأُصولِه، وعلومِ السِّيرةِ، وكُلِّيَّاتِ العقيدةِ وكُبرَياتِ مَسائِلِها، وكلَّ عِلمٍ يكونُ النَّصُّ فيه هو «الموضوعَ» الَّذي تَدُورُ عليه مسائلُ هذا العِلمِ، ويستقلُّ الدَّليلُ النَّقليُّ فيه بإثباتِها والاحتجاجِ عليها.

ويُقصَدُ بعُلومِ العَقلِ: العلومُ التي يكونُ مأخَذُ البَرهنةِ فيها مِن بَدَهيَّاتِ العَقلِ وأَوَّلِيَّاتِه، أو مِن أدلَّةٍ نظريَّةٍ عَقليَّةٍ تَرتبِطُ في مَآلِها بأَوَّلِيَّاتِ العَقلِ بطريقٍ أو بآخَر من طُرقِ الاستدلالِ، وذلك مِثلُ عِلمِ أُصولِ الدِّينِ، وهو الَّذي يُسمَّى بعِلمِ الكلامِ أو عِلمِ التَّوحيدِ أو الفِقهِ الأكبرِ، ومِثلُ الفَلسفةِ الإسلاميَّةِ بمَدارسِها المُختلِفةِ، ومِثلُ المنطقِ اليونانيِّ بعدَ أن طوَّرَهُ المسلمون، وأضافوا إليه كثيرًا ممَّا كان يَنقُصُه في بيئَتِهِ الإغريقيَّةِ.

أمَّا علومُ الذَّوقِ: فالمقصودُ بها التَّصوُّفُ الإسلاميُّ بكلِّ مَشاربِهِ الذَّوقيَّةِ، وتَجارِبِهِ الرُّوحيَّةِ على اختلافِ وارداتِها وتَجلِّيَاتِها، ومَنهَجُهُ مُختلِفٌ عن منهجِ العلومِ الأخرى، ولعلمائِهِ كلامٌ طويلٌ في القلبِ كمَحَلٍّ للتَّجلِّيَاتِ وللإلقاءِ الإلهيِّ لا يَحتمِلُهُ هذا المختصرُ.

ويُضافُ إليه عِلمُ الأخلاقِ أو السُّلوكِ، وهو عِلمٌ شديدُ الارتباطِ بعِلمِ التَّصوُّفِ الذي يُقالُ في بعضِ تعريفاتِه: إنَّه عِلمُ الأَخلاقِ، وأنَّ مَن زادَ عليك خُلُقًا زادَ تَصَوُّفًا.

ويجبُ التَّنبيهُ إلى أنَّ علومَ النَّصِّ والعقلِ والذَّوقِ لا ينفصل بعضُها عن بعضٍ، وأنَّ النَّصَّ إذا كان هو مِحوَرَ العلومِ الشَّرعيَّةِ فَلَيسَ معنى ذلك أنَّه غائبٌ في علومِ العقلِ وعلومِ الذَّوقِ؛ فالاستدلالُ بالنَّصِّ لا يَخلُو منه علمٌ مِن

علومِ العقلِ والذَّوقِ، ويُشبِهُ أن يكونَ النَّصُّ في علومِ الشَّريعةِ -كما أَشَرنا- الموضوعَ أو المبدأَ الذي يَنطلِقُ منه النَّظَرُ والبحثُ والتَّأصيلُ والتَّفريعُ، بينما هو في عُلومِ العقلِ والذَّوقِ الغايةُ أو المُنتهَى الذي يَسجُدُ العقلُ على عَتَباتِهِ بعدَ رحلةٍ شاقَّةٍ مِنَ البحثِ والتَّفتيشِ، والتَّأمُّلِ المُرهِقِ.

أمَّا في علومِ الذَّوقِ؛ فالنَّصُّ فيها هو المبدأُ وهو المُنتهَى معًا، ولكن تختلفُ زاويةُ النَّظَرِ؛ فإذا كانتِ اللُّغةُ ومعانيها وأوعيتُها الضَّيِّقةُ، والعقلُ وإدراكاتُه المحدودةُ بحدودِ الزَّمانِ والمكانِ «حاكمًا» في التَّعامُلِ مع النصِّ المُقدَّسِ فهمًا واستنباطًا واستدلالًا؛ فإنَّ القلبَ ومَنطِقَهُ العابرَ فوقَ حدودِ الزَّمانِ والمكانِ، ووعاءَه يتَّسِعُ لِما لا يَتَّسِعُ له وعاءُ العقلِ، هذا القلبُ كانَ هو وسيلةَ المعرفةِ والتلقي عنِ اللَّهِ تعالى عندَ علماءِ الذَّوقِ، ومِن هنا أُطلِقَ عليهم: «علماءُ القلوبِ»، وكانت عُلومُهم أَقرَبَ إلى الإلهامِ والفَيضِ منها إلى العُلومِ المُدرَكةِ بالعقلِ والحِسِّ، وما إليهما مِن وسائلِ المعرفةِ ومصادرِها.

ومِمَّا تجدُرُ الإشارةُ إليه أنَّ تقسيماتِ عُلومِ الأزهرِ باعتبارِ جهةِ الاستدلالِ إلى: عُلومٍ نقليَّةٍ، وأُخرَى عقليَّةٍ، وثالثةٍ ذوقيَّةٍ تصوُّفيَّةٍ -ليسَتْ تقسيماتٍ حَدِّيَّةً، كما أَشَرْنا إلى ذلكَ؛ لأنَّ الاستنادَ إلى النصِّ أو الاستئناسَ به لا يخلُو منه عِلمٌ مِن العلومِ الإسلاميَّةِ: إمَّا تصريحًا أو تلميحًا، أو إشارةً مِن قريبٍ أو بعيدٍ، كما أنَّ منشأَ الاختلافِ بينَ هذه العلومِ ليسَ هو الاحتفال بالنصِّ أو استبعادَه، وإنَّما هو قُربُ المأخَذِ أو بُعدُه.. يتبيَّنُ ذلكَ مِن تَغلغُلِ آياتِ القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ النبويَّةِ في ثَنَايا أكبرِ موسوعةِ تصوُّفٍ عرَفها المسلمون بل عرَفَها العالَم قاطبةً، وهي «الفُتُوحاتُ المكيَّةُ» للشيخِ الأكبرِ مُحيي الدِّينِ ابنِ عربيٍّ، والتي يُطعَنُ عليها مِن كثيرٍ مِن العُلَماءِ القُدَامى ومُقلِّدِيهم من المُحْدَثينَ، وتُتَّهَمُ بأنَّها تَصدَحُ في وادٍ غيرِ وادِي الإسلامِ

وأهلِه، ففي هذه الموسوعةِ قلَّما يَخلُو بابٌ مِن أبوابِها البالغةِ ستِّينَ وخمسَمائةِ بابٍ، مِن استبطانِ آيةٍ أو حديثٍ؛ إمَّا مَبدأً ومُنطلَقًا، وإمَّا مَقصِدًا وغايةً.

هذه الأبعادُ الثلاثةُ -التي هي: النصُّ والعقلُ والذَّوقُ- تعانَقَتْ في مناهجِ الأزهرِ منذُ قديمِ الزمانِ، وتلاشَتْ بينها فواصِلُ الحدودِ المُصطَنَعةِ، وأصبَحَ كلٌّ منها يُغذِّي الآخَرَ ويَغتذِي منه، ووَقَرَ في نَفْسِ الطالبِ الأزهريِّ، طَوالَ مراحلِ تحصيلِه العِلمَ في الأزهرِ، أنَّ الاختلافاتِ الفقهيَّةَ والعَقَديَّةَ والذَّوقيَّةَ هي اختلافاتٌ مشروعةٌ، إن لم تكن مقصودةً:

- إمَّا للتيسيرِ ورَفعِ الحَرَجِ ودَفعِ الضَّرَرِ، ومُسايَرةِ اختلافاتِ الزمانِ والمكانِ والأحوالِ.

- وإمَّا لأنَّ شريعةَ الإسلامِ يتعذَّرُ أن تكونَ شريعةً صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ دُونَ أن تتصالَحَ في ظِلالِها مطالبُ العقولِ، وأشواقُ القُلوبِ، واستشرافُ الماوَرَائِيَّاتِ التي يَحتاجُ اليقينُ فيها إلى نصٍّ معصومٍ قد يَعتلي على مُستوَى إدراكِ العقلِ وتَصوُّراتِه، لكنَّه في كلِّ الأحوالِ لا يُناقِضُ قوانينَه ولا يَصطَدِمُ بأوَّليَّاتِه ولا بَدائِهِه، كما هو الحالُ في بابِ السَّمعيَّاتِ مِن كُتُبِ عِلمِ الكلامِ.

ولَسْنا نَدْري هل كانَ المنهجُ الأزهريُّ بهذا التَّوازُنِ العجيبِ مقصودًا مُنذُ القِدَمِ، أو أنَّه جاء انعكاسًا لتَجلِّيَاتِ القرآنِ الكريمِ التي تكشِفُ عن المَزْجِ العجيبِ في هذا المنهجِ الذي لا يُحقِّقُ في طبيعةِ الإنسانِ مَطلَبًا، ويُصادِرُ فيها على مَطلَبٍ آخَرَ؟

وأيًّا كانَ تفسيرُ هذا التَّكامُلِ في مناهجِ العلومِ في الأزهرِ؛ فإنَّ الذي لا رَيبَ فيه هو أنَّ هذه المناهجَ أسَّسَتْ ثقافةً فريدةً في نوعِها، هي ما يُمكِنُ أن نُسمِّيَها: ثقافةَ «الوَسَطِ» الذي هو عُنوانُ القِسطِ والعدلِ، وهُو عُنوانُ الإسلامِ

كدِينٍ تَحمِلُه أُمَّةٌ وَصفَها القرآنُ الكريمُ بقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأنتَ حيثُما بحثْتَ عن أخَصِّ خصائصِ «الإسلام»؛ فإنَّك لن تَجِدَ له خَصِيصةً أظهَرَ مِن خَصِيصةِ التوسُّطِ في كلِّ ما دَعَا إليه وطَلَبه مِن الناسِ؛ ففي مجالِ الاعتقادِ يُطالِعُك أولَ ما يُطالِعُك عقيدةُ «التوحيد» التي هي عقيدةٌ وَسَطٌ بينَ عقائدِ الإلحادِ وعقائدِ الشِّرْكِ، وفي مجالِ العملِ تُطالِعُك التكاليفُ الشرعيَّةُ بوَسَطيَّةٍ فاصلةٍ بينَ مَن يَخلَعُ رِبْقةَ هذه التكاليفِ، ويتحلَّلُ مِن قُيُودِها، وبينَ مَن يَهَبُ حياتَه كلَّها مِن أجْلِها ويَتشدَّدُ في اقتضائها، أو بعبارةٍ تُراثيَّةٍ: «بينَ البِطَالةِ والتَّرهُّبِ»[(١)]، وفي الأخلاقِ تُستَعلَنُ وَسَطيَّةُ الإسلامِ في كلِّ الفضائلِ والآدابِ التي دَعا إليها، والطَّاعاتِ التي نَدَبَ إليها العبادَ، سَواءٌ في الكمِّ أو الكيفِ.

ومِمَّا ينبغي أن يتوقَّفَ عندَه الباحثُ في طبيعةِ المناهجِ الأزهريَّةِ: أنَّ الأزهَرَ الشريفَ كانَ له دَوْرٌ شديدُ الخَطَرِ حِيالَ تُراثِ الأُمَّةِ، حِينَ تعرَّضَ هذا التُّراثُ للفناءِ والإبادةِ، فمِنَ المعلومِ تاريخًا أنَّ مركزَ الثِّقَلِ في تُراثِ المسلمينَ كانَ في بغدادَ، وفي بلادِ ما وراءَ النَّهرَيْنِ، وأنَّ زعيمَ المَغُولِ دمَّرَ بجيشِه الوَثَنيِّ تُراثَ المُسلمينَ في هذه البلادِ، ومَحاهُ مِن الوُجودِ عامَ (٦١٦هـ - ١٢٢٠م)، ثُمَّ جاءَ حَفِيدُه هُولاكو عامَ (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) فدمَّرَ بغدادَ برجالِها ونسائِها وأطفالِها ومدارسِها ومكتباتِها.

ولكَ أن تتساءَلَ: أينَ قُدِّرَ لهذا التراثِ أن يَنبعِثَ ويَتماسَكَ -مِن جديدٍ- ويستعيدَ دَوره في حمايةِ أمَّةٍ بحَجمِ أمَّةِ المسلمينَ؟

والإجابةُ التي لا يَعرِفُ التاريخُ إجابةً غيرَها: إنَّه الأزهرُ الشريفُ،

---

(١) انظر مثلًا: «التقرير والتحبير» لابن أمير حاج: ١/ ٩.

وأَرْوِقَتُه وعلماؤه، ولولاهُ لأصبحَتِ الأُمَّةُ بلا رأسٍ، وأصبَحَ اندماجُها في الحضاراتِ الأُخرَى، وانسِحاقُها في تُراثِها -أمرًا محتومًا تَفرِضُه عواملُ التطوُّرِ وحَرَكاتُ التاريخ.

وقد يَظُنُّ القارئُ أنِّي أُضَخِّمُ مِن دَورِ هذا المعهدِ العريقِ، أو أُثني على تاريخِه بما لا يستحِقُّه، وهُنا أُحيلُ هؤلاء الذين يَدُورُ بأذهانِهم مثل هذا الظنِّ إلى كلماتٍ صَدَرتْ مِن فيلسوفٍ مصريٍّ معاصرٍ معروفٍ بموسُوعيَّتِه وأُستاذيَّتِه المتألِّقةِ، وجَمْعِه بينَ ثقافتَي الشَّرقِ والغربِ، وعباراتِه البالغةِ الدِّقَّةِ فيما يكتُبُ وفيما يقولُ[(١)]، وذلكَ في حديثِه الذي يَقُولُ فيه:

«. . . جاءتِ الحَضارةُ الإسلاميَّةُ، وكلُّ مسلمٍ يَعرِفُ ما هي مصرُ بالنسبةِ للحضارةِ الإسلاميَّةِ، هي التي حَفِظَتِ التراثَ الإسلاميَّ كلَّه، ولولا ما عَمِلَه الأزهرُ في القرونِ: الثانيَ عَشَر، والثالثَ عَشَرَ، والرابعَ عَشَرَ، والخامسَ عَشَرَ، هذه القرونُ الأربعةُ، لَمَا كانَ هُنالك ما يُسَمَّى الآنَ بالتراثِ العربيِّ الإسلاميِّ، وكنَّا أينَ نَجِدُه والتَّتارُ أحرَقُوه من هُنا، وفي الأندلسِ ضَاعَ من هناك على أيدي الغُزاةِ، لكِنِ انكَبَّ الأزهرُ على التجميعِ قبلَ أن يَضِيعَ في الهواءِ، فجُمِّعَ. قرونُ تجميعٍ، ولكِنْ أيُّ تجميع؟ تجميعٌ فيه الإيجابيَّةُ، وفيه الإبداعُ، وفيه الهدفُ»[(٢)].

والدرسُ المستفادُ هُنا هو أنَّ الأزهرَ حِينَ حانَتْ له فُرصةُ التفرُّدِ بريادةِ التراثِ مِن جديدٍ لم يفرِّقْ في التراثِ بينَ نَهْجٍ يُبقِيه ويَسعَى في إحيائِه ونَشْرِه،

(١) هو الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود -رحمه اللَّه- أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، والذي تفتقده الساحة اليوم افتقادَ البدر في الليلة الظَّلْماء.

(٢) من كلام الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود، في أُمسية ثقافية لفاروق شُوشة، أذاعها التليفزيون المصري، الدقيقة: ٢٧-٢٨ من الحلقة المُسجَّلة:
https://www.youtube.com/watch?v=EXqxQ8hXd54

وآخَرَ يُعتِّمُ عليه ويَسعَى في تعريضِه لعواملِ البِلَى والهلاكِ، بل كان الأزهرُ في حمايةِ تُراثِ المسلمينَ أمينًا على أن يُبقِيَ التراثَ بكلِّ مدارسِه ومناهجِه.

وكان أمرًا مألوفًا في هذا المنهج أن تُدَرَّس المذاهبُ الأربعةُ على قَدَمِ المُساواةِ، مَعَ عُلومِ التفسيرِ والحديثِ والأُصولِ والكلامِ والمنطقِ والفلسفةِ والجَدَلِ، بل مَعَ العُلومِ الرياضيَّةِ، وعُلوم الفَلَكِ، والهيئةِ، والميقاتِ، والهندسةِ، والمِساحةِ[١]، «وكان الأزهرُ زَمَنَ الشيخِ العَطَّارِ يُمثِّلُ الموردَ الرئيسَ والمتجدِّدَ للمَدارسِ الحديثةِ التي أنشأها محمد علي، فكانت مدرسةُ الهندسةِ تُفضِّلُ طلبةَ الأزهرِ وتُميِّزُهم في المرتَّباتِ الشَّهريَّةِ عن غيرِهم. وكانَ محمد علي يَطلُبُ مِن الشيخِ العطَّارِ انتسابَ طلبةِ الأزهرِ وقَيْدَ أسمائِهم بالقصرِ العَيْنيِّ، ممَّا يَعني أنَّ النهضةَ العِلميَّةَ الحديثةَ في عهدِ محمد علي قامَتْ على أكتافِ طَلَبةِ الأزهرِ»[٢].

ولذلكَ لم يكُنِ استحداثُ كلِّيَّاتٍ للطبِّ والهندسةِ والصَّيدلةِ والزراعةِ وغيرِها في جامعةِ الأزهرِ منذُ عام: ١٩٦١م نهضةً جديدةً على الأزهرِ، لم يعرِفْها مِن قبلُ، بل كانت عودةً إلى ماضٍ قريبٍ، كانَ الأزهرُ فيه هو المصدرَ الأكبرَ للعلمِ والثقافةِ والقضاءِ والعُلومِ العسكريَّةِ، وغيرِها من العلومِ والمعارفِ والفنونِ اللازمةِ للمجتمعِ المدنيِّ في ذلكَ الوقتِ.

وبعدُ..

فإنَّ مناهجَ العلومِ الأزهريَّةِ هي التي شكَّلَتْ عُقولَ أبناءِ المسلمينَ تشكيلًا فريدًا مُتكامِلًا جامعًا بينَ علومِ العقلِ والنقلِ والذَّوْقِ جمعًا متوازنًا، يَعتمِدُ

(١) «مجتمع علماء الأزهر»، لعبد الجواد إسماعيل: ٣٩٨، ط. دار الكتب، القاهرة: ٢٠١٦م.

(٢) «تطور نظم التعليم في الأزهر» للحسين عليو، رسالة دكتوراه بقسم التاريخ، كلية اللغة العربية بأسيوط: (٥) (بتصرُّف).

طريقَ الحوارِ الهادئِ المتَّزِنِ، والمنضبطِ بضوابطِ آدابِ عِلمِ الجَدَلِ الذي اخترَعَه المسلمونَ ولم يُسبَقُوا إليه مِن قبلُ، وهو الذي اعتمَدَه علماءُ الأزهرِ في مسجدِهم المعمورِ ومعاهِدِهم الدِّينيَّةِ، والذي أثبَتَ التاريخُ عمقَ تأثيره في حياةِ المسلمِينَ: الرُّوحيَّةِ والفِكريَّةِ.

واللَّهُ مِن وراءِ القصدِ، وله الحمدُ أوَّلًا وآخِرًا

* * *

حوارات صحفية

حوار فضيلة الإمام الأكبر
مع مندوب صحيفة «الاتحاد» الإماراتية[١]

مقدمة السيد مندوب الصحيفة:

عندما أخذت طريقي إلى مشيخة الأزهر الشريف، في تلك البقعة التاريخية أعلى هضبة «الدرَّاسة» بقاهرة المعز، سيطر عليَّ تساؤل واحد وتَقدَّم على كل ما يدور في ذهني من تساؤلات: لو جاء مسلمٌ من أفريقيا أو أوروبا أو آسيا أو من أي مكان آخر، ووجد نفسه في حضْرةِ إمام قبلة الإسلام الفكرية ومنارته، في وقت تختلطُ فيه القِيم والمفاهيم والعقائد، وتتلبَّد سماء أيامِه بغيوم كثيرة، وحيث تموج فيها تيَّارات فكرية عاصفة، واتجاهاتٌ غارقة في الغلو والعنف والتطرف، وسط أحداث سياسية عالمية متلاحقة، وقضايا خلافية اختلطَت وتشابكت خيوطها، وتاهت مرجعيتها! .. فعن أيٍّ من كل هذا يمكن أن يبدأ أسئلته؟

تزاحمت التساؤُلات، وأنا أستحضِرُ قراءة التاريخ العريق لهذا الصرح الإسلاميِّ الكبير الذي حمل رسالةَ الإسلام السمح والاعتدال والوسطيَّةِ، وحيث يقف «الطيب»، صاحب الهامةِ والقامة والعِلم الرفيع، وأحد أبناء الأزهر الأفذاذ المشهود لهم بعلمه وفكره واستنارتِه.

«الطيب».. امتداد تاريخيٌّ لأئمة كبار تحملوا هذه المسؤولية على امتداد ١٠٤٢ عامًا، ليبقى الأزهر قلعةً حصينةً عبر العصور، ومنارةً علميَّةً عريقةً تحمل صحيح الإسلام وفكره السمح المستنير إلى أنحاء المعمورة كافة، بدءًا

(١) أجري في ١٩من شهر جمادى الآخرة: ١٤٣٤هـ/ الموافق: ٢٩من شهر أبريل: ٢٠١٣م.

بالإمام الخراشي، والنشرتي، والقليني، والشرقاوي، إلى المهدي العباسي، وسليم البشري، والنواوي، والمراغي، وشلتوت، ومأمون، والفحام، وبيصار، وجاد الحق، وطنطاوي، وما بينهم من أئمة الأزهر الشريف.

الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، اختارته الأمانة العامة لجائزة الشيخ زايد للكتاب، ليكون شخصية العام الثقافية **٢٠١٣**، تقديرًا لدوره وأثره الكبير في إشاعة روح التسامح، والمحبة ونبذ العنف، والاحتكام إلى العقل، والحفاظ على هوية المجتمعِ وتماسكِه، ووأدِ الفتنة في مهدها، فضلًا عن كونه شخصية تجمع بين الباحثِ والأستاذِ الأكاديميِّ المتخصص في الفلسفة التي درس أصولَها في فرنسا، وصاحب البحوثِ الجادة، والكتب العلمية المؤثرة، والترجمات الدقيقة، وإسهاماته العلمية البارزة في كثير من الجامعات العربية التي عمل أُستاذًا بها.

وتزامنًا مع الحدث الثقافي الأبرز، حملت «الاتحاد» باقةً من التساؤلات التي باتت تشغلُ الرأي العامَّ في الشارعين: العربيِّ والإسلاميِّ، والتقت فضيلتَه في هذا الحوارِ:

الاتحاد: استقبل العالمان العربيُّ والإسلاميُّ قرار جائزة الشيخ زايد للكتاب باختيار سعادة الدكتور أحمد الطيب شخصيةَ العام الثقافية للعام الحالي بترحاب بالغٍ.. كيف استقبلتم الاختيار.. وماذا يعني لكم في هذا التوقيت؟

الإمام الأكبر: استقبلتُ هذا الاختيار من زاوية أنه تقديرٌ للدور الريادي للأزهرِ، الذي هو مرجعية الأمة وملاذُها، والمعبِّر عن آمالها وآلامها، وحارس منظومتها الأخلاقيَّة وهويتها الإسلاميَّة، فالاختيار بالنسبة لي هو تقدير لكل هذه المعاني النبيلةِ في حياة الأمةِ.

الاتحاد: استطاع مركز الشيخ زايد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها

في جامعة الأزهر أن يحقق نجاحات ملموسة منذ إنشائه، كيف ترون هذا الدور؟ وما السبيل إلى الارتقاء بدوره في الحفاظ على اللغة العربية؟ وهل من تطلعات مستقبلية للنهوض برسالته داخل العالم العربي وخارجه؟

الإمام الأكبر: نعم مركز الشيخ زايد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، هو صورة من صور التعاون الإيجابي، والتلاحم الفعال بين الأزهر الشريف وكل من يعمل من أجل إحياء حضارة الإسلام: لغة وتشريعًا ومعرفة، وبخاصة هذا الراحل العظيم «الشيخ زايد» طيب اللَّه ثراه الذي ترك في أركانٍ كثيرةٍ مِن أركانِ العالَمِ أثرًا باقيًا وعملًا محمودًا. وفي اعتقادي أنها تجربة رائدة لها فوائدها في بناءِ الجسور الحية بين المسلمين أنفسهم. وبينهم وبين غيرهم في حالة تجاوز العوائق اللغوية.

الاتحاد: يموج العالمُ الإسلامي بتيارات فكريةٍ بعضُها فيه مغالاة وتطرفٌ، ويُعَول كثيرون على الأزهر الشريف للتصدي لمثل هذه التيارات.. هل هناك من أهدافٍ تسعون إلى تحقيقِها على هذَا الصعيدِ؟

الإمام الأكبر: الوسطية هي منهج الأزهر على امتداد تاريخه الطويل، والتطرف صناعة من إنتاج العدو لا يعرفها الأزهر، ولا تتوافق مع رؤية الإسلام للعالم، باعتباره ساحة للتعاون والتعارف وتبادل الأفكار والمنافع، وليس ساحةَ صراعٍ يقضي على مقدرات الشعوب، والأزهر بعلمائِه يتقدم الصفوفَ من أجل التصدي لتيارات العنف والتشدُّد والغُلُوِّ، وله جهوده الكبيرة من أجل تصحيح صورة الإسلام خارجيًّا، ودعم أنساقه العلمية والتعليمية داخليًّا، ومن هنا أنشأ الأزهر مركزًا للحوار، وأنشأ بيت العائلة، واستقبل في رحابه وفودًا من الشرق والغرب تسعى إلى فهم الإسلام، وتعتبر وسطية الإسلام هي المنهجَ القويم الذي تلتقي عليه الأخلاق المشتركة بين الأديان.

الاتحاد: كان ولا يزال الأزهر الشريف رمزًا للوسطيةِ الإسلاميةِ ونشر ثقافة التسامح والتعايش والحوار.. إلا أن هناك صعوبات ومعوقات قد

تعطِّل هذا الدور.. ما هي ملامح رؤيتكم في ترسيخ دور الأزهر الشريفِ.

الإمام الأكبر: تناولت جزءًا من السؤال في إجابتي الماضية، وأودُّ أن أقول: إن ثقافة التسامح والتعايش ليست مجرد شعار، بل تحوَّلت في الأزهر إلى عمل مؤسسي في مركز الحوار، وبيت العائلة، وانتهاج سياسة الباب المفتوح لكل المعنيين، فشعارنا في الأزهر الشريف: هو الانفتاح على العالم المتغير، واستيعاب الأصوات المتعددة، وطريقنا يبدأ بالفهم الصحيح وصولًا إلى التفاهم المأمول، المهم أن الأزهر يلقي بنفسه- الآن- في قلب حركة الإصلاح محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا، كما يشهد الجميع الآن.

الاتحاد: لم تسلم جهودكم الحثيثة لتحقيق استقلال الأزهر ككيان إسلامي ومنارة حضارية وفكرية على امتداد **١٠٤٢** سنة من بعض المعوقات، هل ما تحقق يرضي طموحكم؟ أم هُناك خطى جديدة في هذا الاتجاه؟

الإمام الأكبر: إنَّ حِرصنا على استقلال الأزهر قد ترجمناه عمليًّا في التعديلات الأخيرة لقانون الأزهر بوضوح، ومن ثمرات هذا التعديل أن عادت هيئة كبار العلماء إلى الساحة العلمية والوطنية، وأصبح الانتخاب الحرُّ هو الطريق الوحيد إلى اختيار شيخ الأزهر دعمًا لاستقلال الأزهر، الذي أصبح منصوصًا عليه صراحة في الدستور الجديد، لأول مرة في التاريخ الدستوري في مصر. والشيء نفسه بالنسبة لمفتي الجمهورية، حيث أصبح اختياره عن طريق الانتخاب من هيئة كبار العلماء، وتَمَّ اختياره بالفعل وَفْقًا لهذا الإجراء، وفي الطريق قوانين أخرى لتطوير التعليم الأزهري في المراحل الأولى بالمعاهد الدينية، وفي جامعة الأزهر العتيدة. وآمالنا لا تقف عند حَدٍّ، نعم، هناك معوِّقات مصدرها سوء فهم لدور الأزهر، وعدم الرغبة في انطلاقه، وقِلَّة الكوادر الكافية لأداء دوره الوطني والإقليمي والعالمي، ولكن عملية النهوض قد بدأت وهي ماضية في طريقها بإذن اللَّه.

الاتحاد: برزت في الآونة الأخيرة كثير من القضايا الخلافية بين الأزهر الشريف . . وجماعة الإخوان المسلمين بعد نجاحهم في الوصول إلى سدة الحكم في مصر . . ما هي أبرز تلك القضايا؟ وكيف تعاملتم معها؟

الإمام الأكبر: إن رموز الجماعة جاؤوا إلى الأزهر، واعترفوا بقيادته وريادته، وأبدوا استعدادًا طيبًا للعمل تحت مظلة الأزهر من أجل المصلحة العامة للوطن، وما قد يبدو في المشهد السياسي من تغاير بين رؤى الأزهر وبعض الرؤى التي يطرحها هذا الحزب أو ذاك، هو خلافٌ سببُه: أن الأزهر يقوم بدورٍ وطني شعبيٍّ على أساسٍ من شريعة الإسلام وتاريخ المسلمين، وليس على أساس سياسي أو حزبي.

الاتحاد: تتردد الآن أقاويل كثيرة عن «أخونة الأزهر»، ما صحة ذلك؟، وكيف يتصدى شيخ الجامع الأزهر لمثل هذه المحاولات، إن وجدت؟

الإمام الأكبر: الأزهر بطبيعة تكوينه، ومناهج تعليمه عَصِيٌّ على الذوبان في حزب أو جماعة أو فصيل، أو أي توجه آخر، والأزهر دائما في موقع القيادة وليس في موقف التبعية، وسيظل الأزهر كما هو حصن الوسطية الإسلامية، والمعبِّر عن الإسلام كما هو في حقيقتِه، في مواجهة كلِّ الانحرافات السياسية والفكرية التي قد تظهر عند هذا الفصيل أو ذاك، تلك مهمتُه الدينية والتاريخية والوطنية ولن يتخلى عنها أبدًا بأي حالٍ من الأحوالِ.

الاتحاد: أين مظلَّةُ الأزهر الشريف من فوضى الفتاوى الفضائية؟ ولماذا لا يطالب الأزهر بسنِّ قوانين تشريعية تضبط هذه الفوضَى؟

الإمام الأكبر: الإعلام الخاص خارج عن سيطرة الأزهر وعن سيطرة غيره في واقع الأمر، وقد يكون فيه توجه لا يستهدف مصلحة الدِّين ولا مصلحة الوطن، ولكن لا نستطيع أن نفرضَ وصاية على أحدٍ، وقناة الأزهر الفضائية- المتوقع ظهورها قريبًا إن شاء اللَّه- سوف تردُّ على كلِّ فتوى شاذة

حادت عن طريق الحق، وعلى كل مَن يمارس الفتوى عن غير علم، ولن ندخل في معارك جانبية إعلامية تستهلك الطاقة، وإنما سنقدِّم حُكْم الإسلام في إجاباتٍ عن كل سؤالٍ مطروحٍ، ونحن نؤمن بأن التعليمَ والتفهيمَ هما وسائل الوقايةِ الصحيحةِ.

الاتحاد: هناك من يفسر وسطية الأزهر الشريف حيال بعض القضايا والأحداث اليومية أنها «ضعف»، ما رأيكم في ذلك؟ وهل يقتصر دور مشيخة الأزهر على إصدار البيانات المفنِّدة فقط من استنكار وشجبٍ وإدانة؟

الإمام الأكبر: الوسطية منهج في الفكر والحياة وليست ضعفًا أبدًا، بل هي مظهر الثقة والقوة الحقيقية ولم يكن الأزهر يومًا ما مجرد متابع للأحداث بالشجب والإدانة، إنه يصوغ الفكر، ويبني المستقبل من خلال رؤى مدروسة، التقى على إعدادها علماء الأزهر وأهلُ الفكر من كل اتجاه، وفي هذا السياق الرفيع من التفكير جاءت وثائق الأزهر الخمس - بحمد اللَّه- التي تَقبَّلَها العالَمُ العربي والإسلامي بل العالَم الغربيُّ بكل تقدير وترحابٍ.

الاتحاد: يُعاني الخطاب الديني في العالم الإسلامي على امتداد عقود طويلة من العجز عن مواكبة الأحداث. ما السبيل إلى تطوير الخطاب الديني الإسلامي في مخاطبة الغرب وحوار الأديان والحضارات؟

الإمام الأكبر: نرى أن علاجَ الخطاب الديني وتطويرَه يحتاج إلى جهود ذاتية عدةٍ:

أ - جهود علمية في إعداد الدعاة المؤهلين لنشر دعوة الإسلام العالميةِ.

ب - وجهود تربوية في إعداد إعلاميين يعملون لصالح الإسلام، ولصالح أوطانهم المتعددة.

ج - بناء مؤسسات إعلامية مستقلة من منظور إسلامي، حتى لا تظل الساحة مقصورة على من يجهلون الثقافة الإسلامية، أو يقفون منها موقفًا سلبيًّا.

الاتحاد: تحظى عملية الترجمة من وإلى لغات الغرب باهتمام فضيلتكم، هل هناك من خطط وإستراتيجيات لتعظيم هذا التوجه في المستقبل القريب؟

الجواب: في ثلاثينيات القرن الماضي شَكَّلَ شيخ الأزهر لجنة لترجمة أهم الكتب التي تتحدث عن الإسلام، وتمت ترجمة العديد منها من خلال أزهريين كبار أمثال: الدكتور محمد يوسف موسى، وعبد الحليم النجار، ومحمد غلاب، وعبد الحليم محمود، وكانت الترجماتُ من الفرنسية والإنجليزية، وكانت تستهدف أيضًا الإيطالية والألمانية، ونحن الآن نحاول إعادةَ هذا النشاطِ الفكري في مجال الترجمةِ من خلال نخبة من أساتذةِ الأزهر يجيدونَ اللغات الأجنبية، وفي ترجماتٍ تتسم بالدقةِ، والتعليق على الأفكار التي تحتويها ومنها ما قد يكون مخالفا لحقائقِ الإسلامِ.

الاتحاد: هُناك من قام بتطبيق ما يسمى بالحدود في بعضِ القضايا بعيدًا عن جوهر الإسلام وروحه.. كيف ترون ذلك..؟ وما السبيل لضبط مثل هذه الفوضَى؟

الإمام الأكبر: تطبيق الحدود بواسطة الأفرادِ إثم كبير وجريمة عُظمى، ووليُّ الأمر ممثلًا في السلطة القضائية هو الجهة الوحيدة المنوط بها النظر في الأمور الجنائية والمدنية، والحدود جزء من النظام الجنائي الإسلامي، وليست هي كلَّ القانون الجنائي ولتطبيقها شروط حاسمة: اجتماعية وقانونية، قد لا تتوافر في بعض الظروف، والأمر فيها موكول إلى وليِّ الأمر، وإلى السلطة القضائية في جميع الأحوال والظروف.

الاتحاد: قضية الفتنة الطائفية، تلك النار التي لا تخمد، ولا ندري لمصلحة من تؤجج، كيف سعى الأزهر إلى حلِّ هذه المشكلة؟

الإمام الأكبر: كثير من قضايا الفتنة الطائفية مُفتَعَلَةٌ، ومضخمة إعلاميًّا، أو هي مشاكل مجتمعية لا علاقةَ لها بالدين، وقد تلعب فيها أحيانًا بعض

القوى الخارجية دورًا سلبيًّا، والأزهر والكنيسة معًا يبذلان جهدًا كبيرًا في جمع الشمل، ووأد الفتن في مهدها، وكشف ما يدبر لمصر وشعبِها، وعلى كل حال لدينا «بيت العائلة» وهو الآنَ مؤسَّسة قائمة تسعى إلى تَتبُّع العوامل التي تؤدِّي إلى الفتنة قبل حدوثها، ونشر ثقافة المواطنة الكاملة والمساواة التامة بين المصريين جميعًا.

وأملُنا كبير أن تحتفظ مصرُ بموقعها الرائد نموذجًا للوحدةِ الوطنيَّةِ والنسيج المجتمعي الواحدِ في العالم كلِّه.

في تساؤل «**الاتحاد**»: كيف يتصدى الأزهر الشريف عمليًّا - بموضوعية وصراحة - لكل محاولات التشيع والمد الشيعي في المنطقة والعالم الإسلامي بشكل عام.. ومزاعم «استرداد الإرث الشيعي» في مصرَ على وجه التحديد؟

جاءت إجابة **الإمام الأكبر** صريحة وواضحة وقاطعة: الأزهر لا يعادي أحدًا من أهل القِبلة، ولكننا ضد التمدُّدِ المذهبي الشيعي في العالم العربي بوجه عام، وفي مصر بوجه خاص، ونعتبر ذلك خروجًا على الوَحدَة في النسيج العقدي والفقهي الوطني، وعدوانًا على المذاهب السُّنِّيَّة التي هي مذاهبُ غالبية المسلمين في العالم.

ونقولها بصراحة ودون مجاملة أو مواربة: سنقف فكريًّا وعِلْميًّا ضدَّ أيَّة محاولة لاختراق الحزام السني في أي بلد عربي وإسلامي، ونعتبر ذلك لعبًا بالنار في منطقة متوترة، وبها الكثير من المشكلات، ومصر عبر التاريخ لم ولن تتحوَّل أبدًا إلى مجتمع شيعي، وكلُّ ما يقال عكس ذلك هو وَهمٌ يعيش في أذهان أصحابه؛ لأنه مناقضٌ لحقائق التاريخ، ومخالف للحقيقة والواقعِ.

***

حوار فضيلة الإمام الأكبر مع مندوب صحيفة «الخليج» الإماراتية(*)

تمهيد لمحرر الصحيفة:

رغم إيمان شيخ الأزهر، د. أحمد الطيب، بأهمية الحوار الديني والحضاري بين المؤسسات الإسلامية والمسيحية في العالم وصموده في مواجهة كل القوى التي ترى أن هذا الحوار استهلاك للوقت وإهدار للجهد والمال من دون فائدة تذكر على أرض الواقع، إلا أنه لا يتهاون مع إساءة إلى الإسلام تصدر من شخصية دينية، حتى ولو كان بابا الفاتيكان. ولذلك قرر الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب تجميد الحوار بين الأزهر وأكبر مؤسسة مسيحية في العالم ورهن استئناف هذا الحوار باعتذار واضح وعلني من البابا عما صدر منه تجاه القرآن وتجاه رسول الإسلام منذ أكثر من ست سنوات.

من هنا تفرض قضيَّة الحوار الديني بين المؤسسات الإسلامية والمسيحية وعلاقة الغرب وكتابه ومثقفيه بالإسلام نفسها على حوارنا مع شيخ الأزهر اليوم.

البعض يطالب الأزهر بفتح صفحة جديدة مع الفاتيكان وبدء حوار جادٍّ لمواجهة صور التعصب من الجانبين.. ما رأي شيخ الأزهر؟

الأزهر يفتح عقلَه وقلبه لكل من يريد حوارًا حقيقيًّا مع المسلمين لصالح الإنسان بصرف النظر عن عقيدتِه، فقد ربانا ديننا على التسامح والعفو والرحمة.. لكن الأمرَ مع بابا الفاتيكان يحتاجُ وقفةً، وقد استقبلتُ مؤخرًا

(*) نشر بتاريخ: ٢٠/٠٧/٢٠١٢م.

السفيرَ الإيطالي في القاهرة وسألني عن استئناف الحوار بين الأزهر والفاتيكان وقلت له: لا حوارَ مع الفاتيكان إلا بعد اعتذار بابا الفاتيكان عما صدرَ منه من إساءةٍ واضحةٍ للإسلام واستفزازٍ لمشاعر المسلمين في العالم كله، وهذا ليس موقفًا متشددًا من الفاتيكان والرجل الأولِ فيه، ولكن من يسيءُ لعقيدة سماوية استنادًا إلى مفاهيم خاطئة ومعلومات كاذبة متوارثةٍ فعليه أن يعتذر بصراحة ووضوح، وهذا لا يعني أننا نناصب الشعوب المسيحية الكاثوليكيَّة العداءَ، فعلاقتنا بالشعوب المسيحية في العالم جيدة، وأنا كشيخ للأزهر أستقبلُ شخصياتٍ مسيحيةً كاثوليكية مستنيرةً ومتسامحة من كل دول العالم، والأزهر الشريف الذي يمثل أكثر من مليار ونصف المليار مسلم من أهل السنة والجماعةِ في كل أنحاءِ المعمورة، ويُعدُّ الحصنَ الحصينَ لعقيدة الأمة وميراثها الحضاري - لن يتجاهلَ إساءة صارخة ومتعمدة من بابا الفاتيكان ويتحاور معه، ولن يتهاونَ مع من يتطاول على الإسلام.

الحوار المرفوضُ:

البعض يأخذ عليكم رفضكم لحضور مؤتمرات يشاركُ فيها حاخامات أو شخصيات يهودية ويعتبر ذلك من قبيل الهروبِ من المواجهة؟

الأزهر لا يخشى مواجهةَ أحدٍ، لكن ليس هناك ما يستدعي الدخولَ في حوار مع شخصياتٍ دينيَّةٍ صهيونية، خاصة في ظل إصرار الكيان الصهيوني على عدم الاعترافِ بحقوق العربِ واستمرار العدوانِ على المقدسات الإسلاميَّةِ في فلسطين، وأنا شخصيًّا لن أتحاورَ مع حاخامات قبل أن يستجيبَ الكيان الصهيوني لنداء السلامِ ويُعيدَ الحقوق المغتصبة إلى أصحابِها وتتحرر فلسطين.

البعض يقول: إنَّ اليهود والنصارى أهلُ كتاب، ولا شيء يفرِّقُ بينهما،

وبالتالي ينبغي ألا نفرقَ بينهما في قضية الحوار الديني، فماذا يقول شيخ الأزهر؟

لا . . هناك فارقٌ واضح لكلٍّ من تعاملَ مع الفريقين، فبين المسيحيةِ والإسلامِ منذ القديم مدٌّ وجزرٌ، وفي القرآن أن النصارى أقربُ إلى المسلمين، لأن منهم قسيسين ورهبانًا، ومريم هي أفضلُ نساء العالمين نصًّا في القرآن، أما بنو إسرائيل فيريدون فقط من الحوار استدراجَنا إلى التطبيع من دون أن يقدموا شيئًا حقيقيًّا للفلسطينيين، وهنا أودُّ أن أشير إلى أن الرسولَ الكريمَ ﷺ كان يتعامَلُ مع اليهود بدرجةٍ عاليةٍ من الودِّ والاحترامِ إلى حدِّ أنه كان يطلبُ من المسلم إذا تزوج يهودية ألا يجبرَها على تغيير دينها وأن يأخذها إلى المعبد كي تصليَ، وبين اليهود أعداد قليلة ممن يميلونَ إلى الإنصافِ يؤكدون ما أقول.

مقولات كاذبة:

ما زال الغربيون يعتقدونَ أن الإسلام دين دموي انتشر بحد السيف . . فكيف نتحاور مع المثقفين الغربيين وهم يرددون هذه المقولات الكاذبةَ؟

بالعكس . . هذا الكلام الكاذب هو الذي يَفرِضُ علينا أن نتحاور معهم، لكي نؤكِّد لهم بالحجة والبرهان أن الإسلام دين سلام وتعاون وإخاء إنساني، ولكي نؤكد لهم أيضًا أنه ليس صحيحًا أنَّ الحضارة الإسلامية فرضت نفسَها على العالم بحدِّ السيف، ولكي نبين بالحقائق التاريخية أن الإسلامَ انتشر في العالم لأنه دين الفطرة الذي خاطب عقولَ الناس وقلوبَهم، وساوى بين البشر ودعا إلى العدلِ، ولا يصلح السيف رمزًا للإسلام؛ لأن الإسلامَ رحمة وعدل، والمسلمُ لا يحمل سيفه عدواناً على الآخرين، وإنما يحملُه للدفاع عن الأرض والوطن والعقيدة، والإسلامُ

يحضُّ المسلم على أن يكون قويًّا ، قادرًا على الدفاع عن وطنه ودينه ونفسه ، لكنه لا يُحرضُه على العدوان على الآخرين .

فضيلة الإمام: إلى متى ستظلُّ علاقة الغرب بالإسلام متوترةً؟

هذا التوتر سببه الغرب وليس المسلمين . . فالإسلام لا يحمل عداء لأحد، والإسلام جعل الإيمان بالعقيدتين السماويتين السابقتين عليه جزءًا لا يتجزأ من عقيدة المسلم، فهناك صلةُ رحم دينية بين المسلم واليهودي والمسيحي . . هذا ما نؤمن به ونطبقه في تعاملاتنا مع المخالفين لنا في العقيدة من أهل الكتاب، ولو كان هناك خروجٌ على ذلك من البعض فهو مرفوض ومدان من جماعة المسلمين .

لكن -للأسف- روح العداء ما زالتْ تأتينا من الغرب، فمعظم مَن يدينون باليهودية والنصرانية لا يعترفون بالإسلام كعقيدةٍ سماوية ويتناقلون معلومات مغلوطة عنه ويتوارثون كراهيته من دون سبب واضحٍ، بل ومن دون معرفة حقيقية به .

لذلك نحن نطالبُ الغربيين بالتخلي عن روح العداء ومشاعر الكراهية المتوارثة للإسلام والمسلمين . . ونطالبهم بالتخلي عن السياسات العدوانية تجاه كل ما هو إسلامي . . كما نطالب المؤسسات الدينية الغربية بالكفِّ عن الإساءة للإسلام من خلال ترديد كلمات مستفزة وأوصاف لا تليقُ ومعلومات مغلوطة عن ديننا . . وكذلك نطالب منظمات التنصير الغربية بأن تكفَّ عن ممارسة نشاطها بين فقراء المسلمين واستغلالِ حاجاتهم إلى الطعام والشراب والدواء والكساء لتقدم لهم معه ما يصرفهم عن دينهم . . لا ينبغي أبدًا ربطُ المساعدات الإنسانية بالأفكار والمطالبِ الدينيةِ.

منطق التعالي

ومتى يحقق الحوار الديني مع الغرب ثمارَه المرجوَّة؟

يحدث هذا عندما يتوقَّف الغرب عن حواره مع الشرق الإسلامي بمنطق التعالي، ويتوقف عن تنصيرِ المسلمين وتحويلِهم عن دينهم دون سواهم من المذاهبِ والأديان الأخرَى.

بعض خصوم الإسلام يرددون أن الإسلام لا يرحب بالآخر الديني، ولا يعترف بالأديانِ السماوية السابقة .. هل لديكم تعليق؟

هذه اتهامات ظالمة لا يساندها نصٌّ واحد من نصوص الإسلام، والعقلاء والموضوعيونَ من الغربيين يدركون جيدًا أن حضارة الإسلام كانت وما زالت حضارة الأخوة الإنسانية والزمالة الدينية العالمية، وأنها لم تكن أبدًا مصدرَ شقاء للإنسانيَّة، فلم تضق ذرعًا بأخوة الأديان الأخرى، ولم يعرف عنها أنها وقفت منها يومًا موقف عداء معلن أو خفي، أو تجاوزت في نزاعاتها المسلحة مع غير المسلمين، كما فعل الغرب المسيحيُّ مع الإسلام والمسلمين، وكما يفعل الكيان الصهيوني العدواني الآن مع أصحاب الأرض التي اغتصبتها.

لا توجد مشكلة عند المسلمين في علاقاتهم الدينية أو السياسية أو الثقافية أو الاقتصادية مع غير المسلمين، وقد أرست الحضارة الإسلامية أروع صور التعايش السلمي مع المخالفين له في العقيدة، لكن المشكلةَ الحقيقيَّة تظل عند المخالفين لنا في العقيدة الذين يتعاملون مع الإسلام بروح العداء والكراهية ويحاولون دائما وضع هذا الدِّين الخاتم مع أتباعه في قفص اتهام جائر ظالم، لكي يظل المسلمون دائمًا في موقف الدفاع ورد الفعل وصد الهجوم وحتى يستنفدوا في ظل الرد على هذه الاتهامات الزائفة جهدهم وطاقتهم وأموالهم.

ثوابت استعمارية:

أعلنتم أكثر من مرة أن حوار الأديان لم يحقِّق أهدافه حتى الآن، وأن الحوار في العقائد جدل عقيم لأن أحدًا لن يغير فكر الآخر . . فلماذا نضيع الجهد والوقت في حوارات غير مفيدة؟

ليس مطلوبًا أن نتحاور في أمور العقيدة، ومؤتمرات الأديان وما يدور فيها من حوار لا تناقش أمور العقائد، لكننا نستطيع أن نتوافق على القيم الخيِّرةِ التي تجمع عليها كل الأديان، ولو أننا نجحنا في ذلك لكان كسبًا مهمًّا للجميع، ومع الأسف فإن الحوار الذي شاركتُ في عددٍ من جلساته التي عقدت في إيطاليا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة حوارٌ كسيحٌ لم يحقق للمسلمين كثيرًا، ولم يُسفِرْ عن أي تغيير حقيقي في مواقف الغرب سواء على مستوى القرار فيما يتعلَّق بمساندة الغرب للكيان الصهيوني على طول الخط ومساعدته على المماطلة في الالتزامِ بحقوق الشعب الفلسطيني، أو على المستوى المتعلق بضرورة احترام رموز الإسلام؛ كما نحترم نحن المسلمين رموز الأديان الأخرى، كما وَضَحَ في قضية الرسوم المسيئة للرسول الكريم ﷺ التي اعتبرُوها قضية حرية تعبير، برغم أنها لا تمت بصلة إلى حريَّة الرأي.

صحيحٌ أن الحوارات أسفرت عن بعض الود والتعاونِ، لكنها لم تغير شيئًا من واقع الحالِ؛ لأنَّ الغرب لا تزالُ تحكمُه بعضُ الثوابت ذات الأصول الاستعماريَّة التي يحاولونَ تطويرها شكلًا لتناسب القرن الحادي والعشرين، فهم لا يزالونَ يختلقونَ ويصطنعون بؤر التوترِ في مناطق العالمين العربيِّ والإسلامي لترويجِ صناعات السلاح لديهم ولا يبذلون جهدًا مخلصًا من أجلِ تسويةٍ عادلةٍ ومشرفة للقضية الفلسطينيةِ.

نموذج إبادة المسلمين

نشرتِ العديدُ من وسائل الإعلام الغربية والعربيَّة، مؤخرًا ما تم التدريبُ عليه في وزارة الدفاعِ الأمريكيَّةِ، ويحمل عنوان نموذج إبادة الأمة الإسلاميَّة لماذا جاء رد فعل الأزهر غاضبًا وانفعاليًّا على هذا الأمر الذي لا يحمِلُ جديدًا للمسلمينَ الذين يعرفونَ كيف يفكِّرُ الغرب وما هي مخططاته؟

رد فعل الأزهر كان غاضبًا، لكنه لم يكن انفعاليًّا، ونحن في الأزهرِ استنكرنا هذا التَّفكير العدائي إذا كان ما نشر صحيحًا، وقلنا إن الأزهرَ الشريفَ يترفع عن تلك المهاترات وعن الهبوطِ للرد على مثل هذه الدعواتِ المريضةِ التي أفرزتها الحضارة المتعالية والنرجسيَّةِ، ويرحب بالتعاونِ مع الغرب لتحقيق السلام العالمي.

وقد وجهت حديثًا هادئًا لكل الغربيين من أمريكيين وأوربيين وقلت لهم: إن المسلمين والعرب لن يكرهوكم ولن يحقدوا عليكم أبداً بل يرحبون بالتعاون معكم في سبيل تحقيق الكرامة الإنسانية والسلام العالمي واحترام الندية والمساواة، كما يأمر قرآننا وسنة نبينا ﷺ، رغم ما عرفنا خلال نصف القرن الماضي من انحياز بعض قادتكم ومعاداتهم لحضارتنا، ويتجاهل دورها في بناء الحضارة الإنسانية بما قدمت من علوم تُرجمت إلى لغاتكم وأسهمت في بناء نهضتكم.. كما طالبت المسلمين الذين ينتمون إلى أمة تحترم الأديان والمقدسات وتؤمن بالأخوة الإنسانية بأن يحافظوا على روح السماحة التي أوجبها اللَّه عليهم، ولا ينزلقوا إلى مبادلة الكراهية بالكراهية ولا الظلم بالظلم، وأن ينتبهُوا لهذه المكائد الغربية، ولتدبير أولئك الهمجيين لإزالة وجودنا وكياننا الإسلامي والعربي.. هذا ما قلناه ردًّا على ما نُشِرَ عن هذا السلوك والتفكير العدواني تجاه المسلمين.. فأين هو الانفعالُ إذنْ؟!

* * *

حوارٌ شامِلٌ
مع فضيلةِ الإمام الأكبر شيخ الأزهر(١)

١- ما الأسبابُ أو الظروف التي دفعَتْك للتفكير في وثيقةٍ للأزهرِ؟ حتى أصبحتِ الآن كائنًا حيًّا بين أيدينا؟

الأزهرُ مؤسسةٌ علميَّةٌ في المقام الأولِ، ولا يشتغلُ -طِوالَ تاريخِه- بالسياسةِ اليوميَّةِ أوِ الحزبيَّةِ أو الطائفيَّةِ، لكنَّه يتركُ بصماتِه عميقةً على المواقفِ الوطنيَّةِ والسياسيَّةِ التي ترتبطُ بمصائرِ الشعوبِ الإسلاميَّةِ ومستقبلِ الأمَّةِ، وأمرٌ معلومٌ أنَّ من علماء الأزهر مَن كانوا في مقدمةِ الشهداء والقادة خلالَ الجهاد ضدَّ الحملة الفرنسيَّة، وأثناء ثورة عرابي، وثورةِ ١٩١٩، لذلك لم يكن غريبًا، أن يتقدَّمَ الأزهر بعد ثورة ٢٥ يناير التي فتحَت صفحةً جديدةً في تاريخ مصرَ، المواطنين الأحرار من مختلفِ أطيافِ الجماعةِ المصريَّةِ لبناءِ موقفٍ وطنيٍّ توافقيٍّ يؤكِّدُ الثوابتَ الوطنيَّةَ المصريَّةَ، ويحفظُ مكاسبَ الشعب وحقوقَه، ويرسمُ العلاقةَ بين سلطاتِ الدولةِ وبين المواطنينَ دون تمييزٍ على أي أساسٍ آخرَ غير أساس المواطنةِ والثقافة المشتركةِ واللغةِ والتقاليد والأخلاقِ.

٢- وكيف كان تصوُّر فضيلتكم لهَا؟

لقد وُلدت الوثيقةُ فكرةً وطنيةً بحكمِ الدوافع السابقةِ، واستجابةً لدور الأزهرِ التاريخيِّ، وغَيرته على مصير الوطن، ولَقِيت بحمد اللَّه استجابةً واسعةً من المواطنينَ، ثم من المسؤولين والأطياف الثقافيَّةِ والسياسيَّة كافةً،

(١) حوار أجراه الإمام مع مجموعة من الصحفيين ووكالات الأنباء.

فصارت كما تفضَّلْتَ كائنًا حيًّا ؛ لأنها تؤكِّدُ مطالب المرحلةِ الثوريَّة التي تمرُّ بها مصرُ وترسُمُ معالم المستقبلِ في منطقَتنا التي تمثِّلُ فيها مصر قلبَ الدائرة. ومن ثمَّ فلم نجد أيَّة صعوبةٍ- برغم الحوار الطويل العميق - في التوافق عليها مع المثقفين وممثلي المجتمع المدني المصريِّ على اختلافِ انتماءاتهم الدينية والفكرية.

٣- كان لديكم تصوُّرٌ معيَّن في شكل اللجنة أو المجتمعين لوضعها؟

أمَّا التشكيل فقد حرصنا على تمثيلِ كل الأطيافِ الوطنيَّة من مثقفينَ ومفكرين، وفنانين وكتاب وإعلاميين وناشطين أهليينَ، مسلمين ومسيحيينَ، مع نخبةٍ من علماءِ الأزهر الشريفِ، وهم الذين وضعُوا الوثيقةَ وأعلنوا الالتزامَ بها، وبعدَ الاستجابة الشعبية الواسعةِ، والالتزام الرسمي أيضًا، صارت وثيقةً وطنيَّةً عامة بحمدِ اللَّه.

٤- ما رأيك فيما تُقابلُه وثيقةُ الأزهرِ الآن من نقدٍ؟

الوثيقة ليست قرآنًا ولا وحيًا إلهيا ملزمًا، هي عمل بشري جماعيٌّ، ولا يَسلمُ عملٌ من الأعمالِ البشرية من نقدٍ، ونحن نتلقاه بصدرٍ رَحْبٍ، وما لَقيتَه الوثيقةُ من ترحابٍ وتقديرٍ وإشادةٍ يربو كثيرًا على ما قيل عنها نقدًا أو معارضةً ورفضًا، ونحن نحترمُ النَّقدَ البنَّاءَ الجادَّ ونأخذُه في الاعتبارِ، ونحن نراجِعُ ما قيل عن الوثيقةِ.

٥- قيل إنَّ الوثيقةَ جاءت لدعمِ الأزهرِ وحمايةِ مصالحه أكثرَ من كونها رؤيةً لمستقبلِ العلاقةِ بين الدِّينِ والدولةِ . . ما رأيُك في ذلك؟

بل إنَّ الوثيقة جاءت- كما أسلفتُ- استجابةً لمتطلباتِ اللَّحظةِ التَّاريخيَّةِ ولدورِ الأزهرِ الوطنيِّ، وليسَتْ للأزهرِ مصالحُ أو أجنداتٌ حزبيَّةٌ أو مذهبية أو قُطريَّة حتى يقالَ: إنَّه يحرِصُ عليها، ولكنَّ المجتمعينَ أنفسَهم رأوْا أن ما

يُعينُ الأزهرَ على هذا الدورِ في خدمةِ مصرَ والعالمِ العربيِّ والإسلاميِّ، إنَّما يأتي من دعمِ استقلاليته وحريَّتِه في أداءِ هذا الدَّورِ دون معوِّقاتٍ، فوضَعُوا البندَ الأخيرَ من هذه الوَثيقةِ.

٦- أثارتِ الوثيقةُ جدلًا حولَ دعوةِ المثقفينَ العلمانيينَ لمناقشتِها وتعمُّدِ إقصاءِ التَّياراتِ الدِّينيَّةِ؟

كيف يَنعقِدُ اجتماعٌ وطني في رحابِ الأزهر ثم تُقصَى منه العناصرُ أو التياراتُ الدينيَّةُ، وكيف نَحرِصُ على التشاورِ والتَّوافقِ مع إخواننا المسيحيينَ ونقول بإقصاءِ التيارات الدينيةِ، ومن يطَّلعْ على وقائع الحوار المسجل والشَّفاف- والذي أُهديكَ نسخةً منه- يعلم أنَّ كل تيارات الفكر المصري- يمينية ويساريَّة- كانت ممثلةً بعُمقٍ، وأنَّ الحوارَ لم يكن هشًّا أو سطحيًّا، وربما كان سببُ هذا الانطباعِ أن بعضَ المشاركينَ الذين بادرُوا إلى الكتابةِ فيه قبل اكتماله كانُوا- في نظر قرائهم- يمثلونَ تيارًا من التَّياراتِ الممثلة في اللِّقاءِ.

٧- ما رأيُكَ في قولهم: تخلو الوثيقةُ من القرآن الكريمِ والحديث الشريفِ، بينما ذكرتِ الفَنَّ والحضارةَ؟

أعتقد أن المبادئَ والأصولَ التي تحويها الوثيقةُ هي تعاليمُ مقرَّرةٌ في الأديانِ الثلاثةِ التي نصَّت عليها الوثيقةُ، التي لم تخل في الوقتِ نفسِه من النَّصِّ على الشريعةِ الإسلاميَّة ومبادئِها، كحارسٍ للتوافقِ الوطنيِّ وحقوقِ سائر المواطنين من مختلفِ الأديان، ممَّن أقرُّوا الوثيقةَ والتزموا بمناصرتِها، والوثيقةُ ليست خطبةً في الوعظِ أو الإرشادِ، ولا هي مما يتعلَّقُ بالتفاصيلِ الجزئيةِ حتى يُتوقعَ فيها الاستشهادُ بالقرآن الكريم أو الحديثِ النبويِّ الشريفِ أو مواقفِ الصحابة والتابعين وسلفِ الأمة.

٨- وما رأي فضيلتِك فيما قيلَ عن خلوِّها من ذكر الدولةِ المدنيَّةِ رغم وجودِها في الصيغةِ الأوليَّةِ للوثيقةِ؟

لقد تقبل المجتمِعُونَ المنطقَ القائلَ بأن العبرةَ بالحقائقِ والمعاني لا بالألفاظِ والمباني، وبناءً عليه تبنَّوا صيغة «الدولة الوطنية الدستورية الديموقراطية الحديثة» التي تقومُ على الانتخابِ الحرِّ المباشرِ والفصلِ بين السلطاتِ الثلاثِ، فهل في كلمةِ «الدولة المدنية»- التي لم تَرِدْ في أدبيات الفكرِ السياسيِّ وليس لها معنًى محددٌ- ما يفوقُ هذا التحديدَ الذي ارتضاه المثقفون جميعًا؟ على أنَّ «الدولةَ الدينيَّة» التي يتخوَّفُ منها بعض القطاعاتِ في مجتمعِنا لا توجدُ في شريعةِ الإسلامِ لا نظرًا ولا تطبيقًا، ولا تتوافَقُ مع التجربةِ الحضاريَّةِ الوطنيَّةِ التي عاشَها الشعبُ المصريُّ بنسيجِه الوطنيِّ الموحَّدِ، وإنما هي كائنٌ غربيٌّ مشوَّهٌ نتجَ من تحكُّمِ بعضِ رجالِ الدينِ عندهم في السلطةِ واحتكارِهم إياها، فهل نستورِدُ مشكلةً غريبةً لا نعرفُها ثم نبحثُ لها عن حلٍّ؟!

٩- جاء في أخبار الأدبِ على لسان د. حازم حسن أنَّ الوثيقة مشروعٌ -لا وثيقة- من شأنِه تكبيلُ مشروعِ الدولةِ؟

من حقِّ الدكتور حازم حسن أن يقولَ ما يراه وما يعتقدُه، ومن حقِّنا أن نقولُ ما نعتقدُ، وقد وافقَتْنا عليه أكثريةٌ ساحقةٌ من الداخلِ والخارجِ، في أوروبا وآسيا وغيرِهما، ولعلَّ سيادتَه يعلمُ، أنَّ النصوصَ التي تضمَّنها دستور ١٩٢٣، كانت بموافقةِ -بل بمطالبةِ- إخوانِنا الأقباطِ من واضعي هذا الدستورِ بشأنِ الشريعةِ الإسلاميَّة، وأنها لم تقبل التَّجربة الليبيراليةَ التي عاشتها مصر قبل ثورة ١٩٥٢، والدولة التي تدعو لها الوثيقة: دولةٌ وطنيةٌ، دستوريَّةٌ، ديمقراطيةٌ، حديثةٌ، فما هو نوعُ الدولةِ التي يدعو لها سيادتُه، وهل يرى سيادتُه في مبادئِ الشريعةِ الإسلاميَّة -حين تكون مصدرًا للقانونِ- تكبيلًا لمصر؟! وما البديل إذن؟! هل هو مبادئُ القانون الغربيِّ أو الأمريكيِّ؟! ومَن سيوافقه عليه؟! أو سوف يعودُ إلى مبادئَ مصريَّةِ المنزعِ

والتوجُّه؟! وساعتئذٍ هل يستطيعُ سيادتُه أن يتجاهل البُعْد الحقيقيَّ في منازع المصريينَ وهو ميراث الدِّين بعقائدِه وشرائعِه وأخلاقِه؟!

١٠- كما قال إنَّه لم تكن وثيقةٌ ثقافية تدشن التقاربَ الفكريَّ بين الأزهرِ ومدرسةِ الليبراليَّةِ المصريةِ؟

فأمَّا حديثه عن التقاربِ بين الأزهرِ وثقافةِ الليبراليَّةِ المصريَّة، فليته حضر الحوارَ، أو ليته يَجِدُ الوقتَ للاستماعِ إليه مُسجَّلًا، ولسوفَ يَسمعُ بنفسِه رموزَ «الليبرالية المصريَّة» يقرِّرونَ أنَّهم شاركُوا في عديدٍ من الحواراتِ الوطنيَّةِ المتوازيةِ وما شَهدتْه من أحداثٍ وأجواءٍ غيرِ ليبراليَّةٍ ولا ديمقراطية ووجد في ملتقى الوثيقةِ الأزهريَّة الجوَّ الحرَّ الأخويَّ الذي يحترمُ الرَّأيَ والرأيَ الآخرَ، وأن المنتجَ النهائيَّ ثقافيٌّ مصريٌّ ديموقراطيٌّ بمعنى الكلمةِ.

١١- كما قيل عنها: إنها تطالبُ باستقلاليَّةِ جامعةِ الأزهرِ، معنى ذلك أنَّها تدخل في إطارِ تعليمٍ دينيٍّ، ويعني ذلك استقلاليَّةَ الجامعةِ عنِ التَّعليمِ العالِي؟

الحقُّ أن الفكرةَ وراء هذا التساؤلِ غيرُ واضحةٍ؛ فإن استقلالَ الجامعاتِ كلِّها ومنها جامعةُ الأزهرِ أمرٌ مقرَّر في الدستور المصريِّ، والأزهرُ ليس جامعةً فحسبُ، ولا مجرد مؤسسةٍ تعليميَّةٍ، بل هو مؤسسة تعليمية، تربوية، فكريَّةٌ ذاتُ رسالةٍ إسلاميَّةٍ، وهي المرجع النهائيُّ فيما يتصلُ بالشريعة والفكرِ الإسلاميِّ. يشهد بهذا شاهدُ التاريخ النَّاصع للأزهرِ الذي حَفِظَ لمصر لغتَها العربيَّةَ وضميرَها الثقافي والدينيَّ في أحلكِ الفتراتِ، كما يَشهدُ الدستور المصريُّ بذلك أيضًا.

١٢- كما قالوا أيضًا: إنَّ كلمة مدنيَّة لم تُذكر في أي موضعٍ، وأكدت الالتزامَ بالحرياتِ الأساسيَّة ولكن دون تعبيرِ الدولة المدنيَّةِ؟

أعتقدُ أنَّني أجبتُ عن هذا التساؤلِ الخاصِّ بخلوِّ الوثيقةِ من لفظة «الدَّولة المدنيَّة» وإن لم تَخلُ من المعنى الدقيقِ المحدَّد المؤكد للدولةِ التي نرجوها

جميعًا لوطننا: دولةٌ وطنيةٌ دستوريةٌ، ديمقراطيةٌ، حديثةٌ، ترعَى الحريات الأساسيَّةَ والحقوقَ المتساويةَ لجميعِ المواطنينَ دون تمييزٍ- فهل هناكَ عباراتٌ أصرح من هذا؟ وهل تستعبدنا الألفاظُ والمصطلحاتُ إلى هذا الحدِّ؟! إنَّنا تعلَّمنا من قواعد الحوارِ في الأزهرِ الشريفِ أنَّه لا مشاحةَ في الاصطلاحِ، وأنَّ المناقشة في المثالِ ليسَت من دأبِ الرجالِ.

١٣- اتهام آخر: أنَّ الوثيقةَ أكَّدتِ الالتزامَ بحقوقِ الإنسانِ والمرأةِ، ولكن دون تعريفِ هذه الحقوقِ؟

اهتمَّتِ الوثيقة لأسبابٍ لا تخفى على أيِّ مثقف أو مواطنٍ بالتأكيدِ على حقوق المرأةِ والطفلِ بوجهٍ خاصٍّ، أما تفصيلُ هذه الحقوق فلا يناسبُ وثيقةً وطنيةً عامةً، وإنما محلُّه مواد القانونِ التي ينبغي أن تلتزمَ الأصول المرعيَّة في المواثيقِ الوطنيَّةِ، وبخاصَّةٍ الدستور.

١٤- البعض (في أخبارِ اليومِ) هاجمَ الوثيقة بقولِه: «إنَّها تنزعُ صفةَ الإسلاميَّةِ العربيَّةِ من الدولةِ» وأنَّ مصر دولةً دينيَّةً تُقام فيها الصلاةُ للمسلمينُ وتُدَّقُ فيها الأجراسُ، ولا يمكنُ نزعُ هويَّتِها الدينِّيَةِ، وبهذه الوثيقةِ يدمِّرُ الأزهرُ نفسَه، وأنَّ الدَّولةَ الدينيةَ لا وجودَ لها في الأنظمةِ العربيَّةِ.

إن شعبَنا شعبٌ متديِّنٌ بمختلفِ انتماءاتِه إلى الأديانِ الكتابيَّة الثلاثةِ، فهو حقيقةٌ تاريخيَّةٌ واقعيَّة راهنةٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ نزعُ الواقع أو إنكارُه، لكننا نقرِّر بكل وضوحٍ أن الدولةَ الوطنيةَ الدستوريةَ الديمقراطيةَ الحديثةَ بما تتضمنُه من فَصلِ السلطاتِ ورعايةِ حقوقِ الإنسانِ دون تمييزٍ على أي أساسٍ غير المواطنةِ- هي دولةٌ إسلاميةٌ؛ لأنها تتَّفقُ مع مقاصدِ الشريعة ومبادئِها، وليسَ من اللَّائقِ المزايدةِ على الأزهرِ الشريفِ ولا على تاريخِه العريقِ الذي عبَّر فيه عن ضميرِ الأمة تعبيرًا أمينًا صادقًا، في غير زيفٍ ولا عبثٍ ولا متاجرة بالدِّين.

١٥- ما الفرقُ بينها وبين قانونِ الأزهرِ؟

قانونُ الأزهر يخصُّ هيئاتِه وأنظمتَه ورسالتَه، أما الوثيقةُ فلمِصر الحاضر والمستقبلِ، وقانون الأزهر، على كلِّ حالٍ، هو موضعُ نظرٍ إصلاحيٍّ قانوني لمزيدِ تفعيلِ دورِ الأزهرِ، وقد دَعتِ الوثيقةُ قبل ختامِها إلى مطالبَ وطنيةٍ تتعلَّق بهذا التفعيلِ؛ كقيامِ هيئةِ كبار العلماءِ، وانتخابِ شيخِ الأزهرِ، ومرجعيَّةِ الأزهر الفكريَّةِ والدينيَّةِ وهو ما دعوتُ إليه حتى قبلَ قيامِ ثورةِ الخامسِ والعشرينَ من يناير، وأحسبُ أنَّ هذه إجابةٌ مني على ما يتعلَّق بتفعيلِ دَورِ الأزهرِ، أمَّا فيما يخصُّ الخطابَ الدينيَّ فنحنُ نعملُ على ترسيخِ الفكرِ الإسلاميِّ الوسطيِّ، ونعتقدُ أنه هو رُوحُ المجتمعِ المصريِّ والأوفقُ بالفهمِ العلميِّ الصحيحِ لمذهبِ أهل السنةِ والجماعةِ، ونعتقِدُ أن المجتمعاتِ الإسلاميَّةَ تلتقي معنا، وما عساه يوجدُ لدى بعضِ الأفرادِ فسبيلُنا الدعوةُ الحرَّةُ والموعظةُ الحسنةُ.

١٦- هل الوثيقَةُ تمثِّلُ تفعيلًا لدورِ الأزهرِ؟

الوثيقةُ تضع أسسًا للخطابِ على مستوى استراتيجيٍّ- إن جازَ هذا التعبيرُ، أمَّا الخططُ التنفيذيةُ فسوف تواصِلُ إعدادَها للروحِ الوسطيَّةِ للمذهبِ السنيِّ، والفهم العلميِّ لأئمَّةِ أهل السنةِ، وسيطالع شعبُنا قريبًا في المساجدِ والمنتدياتِ ووسائلِ الإعلامِ فكر علماء الأزهرِ، وسوفَ يتم توجيهُ أجهزةِ الدعوةِ في هذا الإطارِ.

١٧- فيما يخصُّ الخطابَ الدينيَّ بعد ٢٥ يناير تغيَّرَ الخطابُ عند كلٍّ من الإخوانِ والسلفيينَ، حيث إنَّهم تكلموا عن فكرةِ الدولة المدنيَّةِ، فماذا عن شكلِ الخطابِ الدينيِّ للأزهرِ خاصةً، وأنَّ الوثيقةَ ليسَتْ خطابًا؟ وماذا تقولُ عن ميثاقِ بيت العائلةِ خاصَّةً بعد أن نَشرَتْ إحدى الصُّحفِ عن اعتذارِ البابا عن الحضورِ؟

بيتُ العائلة مؤسَّسةٌ وطنيَّة قائمةٌ على رعايةِ وحدةِ النسيجِ الوطنيِّ لشعبِنا، وتقاليده الراسخةِ في الإخاءِ والمودَّةِ، والتضامن الوطنيِّ في كل المواقفِ، وآخرُها تجليَّات هذه التقاليدِ التي بَهَرت العالم خلال ثورةِ يناير. وتلك المؤسسةُ يرأسُها شيخ الأزهر دورةً، ويرأسُها البابا في دورةٍ أخرى، ولها لائحةٌ مقررةٌ وُضعَتْ بالتوافق بين الأطراف جميعًا: الأزهرِ والكنيسةِ القبطيةِ الوطنيةِ الكبرى، وسائرِ الكنائس المسيحيَّةِ كاثوليكيةٍ، وإنجيلية. وتضمُّ ثلةً من العلماء الأزهريينَ ورجالِ الدِّين والمفكِّرين المصريين.. ويشعُرُ الجميعُ أن اشتراكَهم في حلِّ المشاكلِ فيما بينَهم أوفق بكثيرٍ من اللجوءِ إلى رجالِ السلطة التنفيذيَّة، وإذا كانت القوانينُ لا بدَّ منها لحماية الحقوق المتساويةِ، فإنَّ إشاعةَ ثقافة التسامحِ والتضامنِ والمساواةِ هو الضامنُ الحقيقيُّ لتفعيلِ النصوصِ والقوانينِ، ونحن نؤمنُ أنَّ الشريعةَ الإسلاميَّةَ حارسٌ للحقوق المتساويةِ، بل هذا هو جوهَرُ الأديان كلِّها.

١٨- وأخيرًا متى تمَّ تأميمُ مؤسسة الأزهرِ وتحولُه لمؤسسةٍ حكوميَّةٍ لخدمةِ أهدافِ استقرارِ النظام السياسيِّ وماذا تتمنَّى له الآنَ؟

الأزهرُ فوق أن يُؤمَّمَ، أو أن يُتخذَ أداةً لأي حكومةٍ أو نظامٍ، وأنا أقرِّرُ هذا بأعلى صوتِي ومِلء ضميرِي وفمي، ولئن مَرَّتْ عليه مراحلُ يتألَّقُ وجهُه الكريمُ ويعلو صوتُه النَّبيلُ، وأخرى تعوقُه العوائق وتضيقُ عليه القيودُ -كما يعلم الجميع- فذلك من شأنِ المؤسساتِ الإنسانيَّةِ دينيةً كانت أو غير دينيَّةٍ.

وإني لأقرِّرُ في ختامِ هذا الحوارِ: أنَّ مصرَ بحاجةٍ إلى أزهرٍ قويٍّ حرٍّ، وأنَّ الأزهرَ لم ولن يفرِّط في رسالتِه الوطنيَّةِ جنبًا إلى جنبٍ مع رسالتِه الإسلاميَّةِ، وسيتقدَّمُ الجميعَ في مواقف البذلِ والتضحيةِ، يَكْثُرُ علماؤُه عند

الفزعِ ويقلُّونَ عند الطمعِ، ولدينا بحمد اللَّه رؤيةٌ واضحةٌ لعلاجِ ما لحق بالأزهرِ جرَّاءَ بعض الأنظمةِ والقوانينِ، وسنعود بالخرِّيج الأزهريِّ إلى سَمْتِ العالِمِ الشرعيِّ الموسوعيِّ الذي عرفتْه مصر وتتوقُ إليه مع أخواتها في العالم الإسلاميِّ، وإذا صحَّ العزم وضَح السَّبيلُ وما توفيقي إلا باللَّه، وهو نعم المولى ونعمَ النصيرُ.

* * *

الباب الجامع

ازدواجيــة التعليم(*)

تعرضتْ قضيَّة ازدواجية التعليم لكثير من الالتباس أحيانًا، وسوء الفهم أحيانًا أخرى، حتَّى إن البعض قد فَهِمَ تعدُّدَ مسارات التعليم- وهو أمر محمود- على أنه يشكل «ازدواجية» في التعليم، وهذا الفهمُ قدِ اعتمد على أن هذا التعدد ينتهي بالضَّرورةِ إلى نوع من الصراعِ والانقسام، مع أنَّ التعدد يؤدِّي إلى الخصوبة والثَّراءِ والتنوع.

ثم إنَّ هذا التعدد موجودٌ بالفعل في مساراتِ التعليمِ المختلفة؛ متمثلًا في التَّعليمِ الخاص والأجنبي بجانب التعليم العام والتعليم الأزهري، ورغم ذلك التعدد لم يحدث صراع ولا انقسام.

وقد يظن البعضُ أنَّ وجودَ تعليم كالتعليم الأزهري إلى جوار التعليم العام يوحي بشيءٍ من الازدواجيَّةِ، مع أن وجودَ هذا النمط من التعليم يصبُّ في فكرةِ التعددية الخصبةِ والثريةِ التي تتمتع بها الشخصيَّةُ المصريَّةُ بشكل عامٍّ.

وبالإضافة إلى هذه الميزة؛ فإنَّ التعليم الأزهريَّ لا يمثل انفصاليةً عن التعليم العامِّ بقدر ما يمثِّلُ تداخلًا قد يصلُ لبعضِ الأحيان إلى حد التماثل، سواءٌ في مرحلة ما قبل التعليم الجامعي أو في مرحلة التعليم الجامعي؛ حيث تُدرسُ مناهج التعليم العام بالمعاهد الأزهريَّة بجانب مناهج التعليم الأزهري مادةً ومقررًا وكتابًا.

كما أنَّ جامعة الأزهر تشتملُ على نفس الكليات العمليَّة والتربوية والنظرية التي تشملها الجامعات المصرية.

(*) كتبت هذه الرسالة أثناء رئاسة فضيلة الإمام الأكبر لجامعة الأزهر.

ومن المعلوم للجميعِ أنَّ مؤسسةَ الأزهر كان لها دورها في إثراءِ ثقافة التعدُّدِ والتنوع، وما يزال الأزهرُ يؤدي هذا الدور بعلمائه ودُعاته ومعاهده وكلياته، وعلى نحو مؤثِّرٍ في عالم يموج بالتيارات والأيديولوجيَّاتِ المتباينةِ.

وإذن فإنَّ العبرة بالأهدافِ والمقاصدِ التي تتبناها مؤسَّسةُ التعليم وتوضِّحها رسالتها وتحققها برامجها وسياساتها والمناخ الذي يسودُها، بما يكفل التكوينَ المعرفيَّ والثقافيَّ لطلابها وبما ينفع أوطانهم والإنسانية جمعاءَ.

كما أنَّه يمكننا القولُ بكل تأكيدٍ أنَّ مسار التعليم الأزهريِّ يلبي احتياجاتٍ مجتمعيَّةً حقيقيةً داخل المجتمع المصريِّ، كما يُسهم إسهامًا فعَّالًا في تلبية هذا المطلبِ خارجَ مصرَ.

ونظرًا لما اكتسبه التعليمُ الأزهريُّ عبر التاريخِ من مكانة أكاديميَّةٍ في علوم الدِّين الإسلامي واللغة العربيةِ وما اتَّصفَ به من الوسطية وعدم الغلو وقبولِ التنوعِ والاختلاف فإن هذا المسار لو تخلَّى الآن عن دَوره فإنَّ كياناتٍ تعليمية أخرى ذات أجندات خاصة مستعدةٌ للظهور فوراً لملء هذا الفراغ. وخيرُ دليل على ذلك الفترة التي تأثَّرَ فيها الأزهر ببعضِ الظروفِ السياسية والتمويليَّةِ، مما أدَّى إلى اختطاف هذه الكيانات للشباب المسلمِ وظهور الجماعات المتطرفة في مصر، وهي ظاهرة شَهِدَها العالم وتأثَّرَ بها ودفع ضريبتها الإسلام والمسلمون.

هذا، ولا ينبغي أن نغفلَ أن الأزهر يُمثِّلُ المرجعية الدينيَّةَ الكبرى للإسلام في العالم، وهي مرجعية تتسم بالوسطيةِ والاعتدالِ؛ بحيث أصبحتِ القضايا الكبرى التي تُثارُ في جميع أنحاء العالم تنتظرُ من الأزهر أن تكونَ له رؤيته تجاهها، بل إن كثيرًا من الدوائر الثقافيَّةِ والجامعية الكبرى لينظر إلى الأزهر وجامعته باعتبارهما طوق النجاة وسطَ هذه الأحداث المتلاحقة والصراعات المتتالية.

كلمة في احتفال
«جائزة الشيخ زايــد بن سلطان آل نهيان للكتاب»(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمدُ للَّه الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الرُّسل والرسالات، وبعد:

فيَقتضيني واجبُ الوفاءِ أن أبدأَ كلمتي بتقديم جزيلِ الشُّكرِ وعاطرِ الثناء إلى سُموِّ الشيخ: خليفة بن زايد آل نهيان؛ رئيس الدَّولة، وإلى وليِّ عهدِه الأمين، سموِّ الشَّيخ: محمَّد بن زايد، ثمَّ إلى القائمين على أمرِ هذه الجائزة إيَّايَ -مشكورينَ- لنَيْلِ جائزة الشَّيخ زايد بن سلطان آل نهيان -رحمه اللَّه- لشخصيَّة العام.

وإنِّي إذ أقدِّم شكري هذا، لأَذكُر الرَّاحلَ العظيمَ، حَكيمَ العرب وفارسَها المِغوار، وباعثَ نهضةِ الإمارات العربيَّة المتَّحدة، ومُلهِمَها، سموَّ الشَّيخ: زايد بن سلطان آل نهيان -طَيَّبَ اللَّه ثَراه-، هذا البطل العربي، الذي ما تزالُ مآثرُه وأيادِيهِ البيضاء ممتدَّة في ربوع مصر؛ في القاهرة، والسويس، والسَّادس من أكتوبر، بل في جميع أنحاء العالَم، ناطقةً بفضلِه، شاهِدةً بنُبلِه وأريَحيَّتِه، ونُصرتِه للفقراء، وغَوثِه للمُعوزين، وحَسْبُه فضلًا وتخليدًا لعَمَلِه الصَّالح قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

(*) كلمة ألقيت بمناسبة تسلم فضيلة الإمام الأكبر «جائزة الشيخ زايـد بن سلطان آل نهيان للكتاب» بتـاريـخ: ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤٣٤هـ، الموافق: ٢٨ من أبريـل سنة ٢٠١٣م.

بل إنَّ آثار راحلنا امتدَّت للأزهر الشريف: تَقفُ إلى جِوارِه، وتَدعمُه، وتُشجِّعُه على أداء رسالةِ الإسلام العالَمية، وحسبُنا مركز الشيخ زايد لتعليم اللُّغة العربية لغير النَّاطقين بها بجامعة الأزهر الشريف، الذي أنشأَته مؤسَّسةُ الشيخ زايد الكريمة، والذي يَتعلَّم فيه آلاف الطُّلاب والطالبات، الوافدين والوافدات على الأزهر الشريف من أكثرَ من مئة دولة، بل حَسبُنا المشروعُ الضَّخم لإنشاءِ مبنًى حديثٍ لائقٍ بمكتبة الأزهر الشَّريف ومخطوطاتها ونوادِرها التي يعودُ تاريخُ بعضِها إلى أكثر من ألف عام.

هذا؛ وإنَّني لأعتزُّ بالجائزة، وقيمتِها الأدبيَّة العالَميَّة، وما ترمُز إليه بمُستَوياتها المختلفة، وتنوُّعاتها المتعدِّدة؛ من تكريمٍ للإبداع الفكريِّ، والمُبدِعِينَ، وللشباب الموهوبِينَ، ولسائر المشتغِلينَ بصناعة الفكر والثقافة والفُنون، وأعُدُّ ذلك من معالم يقَظَة دولة الإمارات، واعتزازها بثَمرات العُقول، ووَحي القلَم، وفيضِ الوجدان.

وأحسبُ -أيُّها السَّادَةُ الأُمَرَاء والعُلَماء- أنَّ هذا التَّقدير من الجائزة يشجِّعُنا جميعًا على المُضيِّ قُدُمًا على طريق الوسطيَّة، التي تجمعُ بين الأصالةِ والمعاصَرَةِ، والتّجديدِ المنضَبِطِ بالمعقول والمنقول، والتّمسُّك بمنهج التَّسامح والمحبَّة ونبذ العُنف ونشر السَّلام العالمي.

أُجدِّد الشُّكر لكُم جميعًا مرَّةً أُخرى، ولِلَجْنَةِ الجائزة الموقَّرة، وكلُّ عام وأنتم جميعًا بخير.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

كلمة
بمناسبة منح الأزهر الدكتوراه الفخرية
للملك عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود(*)

بسمِ اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصحبِه ومَن اهتدى بهداه.

صاحب السُّموِّ المَلكيِّ، الأمير/ سعود الفيصل، وزير خارجيَّة المملكة العربية السعوديَّة..

الحفل الكريم..

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبرَكاتُه

وبعدُ:

فأُرحِّبُ بكُم جميعًا، وأَهْلًا وسَهْلًا بكُم: حضورًا كريمًا، وضيوفًا أعزَّاء، كرامًا على مصر وعلى الأزهر الشَّريف.

وإنَّه ليومٌ سَعيد مبارك أن نستقبلَكم هنا في هذا الصَّرح الشَّامخ العريق، من صروح العلم والفكر والثقافة الإنسانية العالَمية، نستقبلُكم في رحاب الأزهر الشَّريف، المعهد العريق، الخالد على وجه الزَّمن، والذي مضى

(*) كلمة ألقاها فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب بمناسبة منح دكتوراه الأزهر الفخرية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لخادم الحرمين الشريفين الملك عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود، بقاعة الأزهر للمؤتمرات، يوم ١٣ ذي القعدة: ١٤٣٥هـ، ٨ سبتمبر: ٢٠١٤م.

عليه اليوم أكثرُ من ألفٍ وخمسين عامًا من عُمْرِ التاريخ، وهو يَضطلع بمهمَّة نشر العِلم النَّافع، والمعرفة المنضبطة بقواعد الوحي الإلهي والعقل السَّديد الراشد، ويقومُ على حراسة الإسلام وما يُشِعُّه هذا الدِّين الحَنيف على الإنسانيَّة جمعاء؛ من هَدْيٍ ورحمة وخير وسلام.

وإنَّ الأزهرَ الشَّريف الذي يَستقبلُكم اليوم أيُّها السَّادة -لَيَسُرُّه كلَّ السُّرور، ويُسعده غايةَ السَّعادة؛ أن يَجتمع رموزُه وكبار علمائه وأساتذته لتَكريم رجلٍ من رجالات العرب القلائل المعدودين، ومَعْلمٍ شامخ من معالم التَّاريخ العربي الحديث، وقائدٍ حكيم مُخضرَم، مُستوعبٍ للمخاطر التي تحدقُ بأمَّته من الداخل والخارج، ومُتيقظٍ للمؤامرات التي تُدبَّرُ لها بليل من قُوى البَغي والشَّرِّ؛ ذلكم هو: خادمُ الحرَمين الشَّريفين، الملك عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية، الذي لا يَتَّسعُ الوقتُ الآن لسَرْدِ ما قدَّمه جلالتُه من خدماتٍ عظمى للإنسانيَّة جمعاء، دون تفرِقة، ودون مراعاةٍ لأيَّةِ اعتبارات دينيَّة أو طائفيَّة أو مذهبية، وفي شتى مجالات الأمن، والاقتصاد، والتَّعليم، والصِّحَّة، والإسكان..

ونخصُّ منها بالذِّكر والتَّقدير: جهودَه المتواصلة في التَّصدِّي للإرهاب الأسود، الذي ابتُلِيَت به هذه الأُمَّةُ، بل ابتُليَ به العالَم بأسره..

هذا الإرهابُ الذي لا يَخجلُ أربابُه من ممارسة الذَّبح، والقَتل، وقَطع الرِّقابِ، وبثِّ الرُّعب والخوف، والتَّخلُّص من الآخرين وإبادتهم، في وَحشيَّة لم يَعرف التَّاريخ لها مثيلًا من قبل.

ومن المُؤلم أن تُرتَكبَ هذه الجرائمُ اللّاَإنسانيَّة تحتَ دعوى الخلافة، وإعادة الدَّولة الإسلاميَّة، وباسم الإسلام الذي هو دينُ الرَّحمة، ودينُ السَّلام بين العالمين أجمعين؛ عربِهم وعجَمِهم، مؤمِنهم وكافرِهم، إنسانهم وحيوانِهم ونباتِهم وجمادِهم.

ومن المُحزِن غايةَ الحزن أنَّ هؤلاء المُجرمين استطاعوا أن يُصدِّروا للعالَم صورةً شوهاء مُفزِعةً عن الإسلام والمسلمين، حتى قَرَأنا فيما نقرَأُ أنَّ من بين أسباب انتشار الإلحاد المُعاصر، واندِلاع الحقد الغربي الصُّهيونيِّ الجديد ضدَّ الإسلام والمسلمين -هذه المناظرَ المُرعبةَ التي تُبَثُّ باسم الإسلام، وهذه العمليَّاتِ الوحشيَّةَ اللَّاأخلاقيَّة التي تُنَفَّذُ مع صرخاتِ التَّكبير والتَّهليل..

ولو أنَّ أعداء المسلمين اجتمعوا جميعًا، ثمَّ راحوا يَستنفِذون كلَّ طاقاتهم لمَكيدة الإسلام، ما بلَغوا معشار ما بلَغته هذه الجماعاتُ الإرهابيَّة في كَيدِها للإسلام والمسلمين، وتشويه صورَتهم في مرآةِ الفكر الغربيِّ المعاصر.

وإنَّنا لا نَشُكُّ لحظةً في أنَّ هذه الجماعات الأصوليَّة الإرهابية ومَن وراءها، أيًا كان اسمُها أومُسمَّاها أو اللَّافتةَ التي يَرفعونَها، كلَّ هؤلاء إنَّما هم صنائع استعماريَّةٌ جديدة، تعمَل في خدمة الصُّهيونية العالَمية في نُسختِها الحديثة، وخِطَّتها لتَدمير الشَّرق، وتَمزيق المنطقة العربية.

وشاهدُنا على ذلك: هذا التَّلكُّؤ، وهذا التَّثاقلُ الأوروبي الأمريكي في التَّصدِّي لهذه التَّنظيمات الإرهابية، وذلك بالمقارنة بهُجوم الغرب وانقضاضه على دولةِ العراق عام: ٢٠٠٣م، وتَفكيك الجيش العراقي وتَسريحه في زمنٍ قياسي، وبأسباب مُلفَّقةٍ وتَعلَّات كاذبة، واعتذارات تُنبئُك بأنَّ القوم هناك لا يَفهمون من معنى الأَمْن والسَّلام وحقوقِ الإنسان إلَّا أمنَهم هُم، وسلامَهم هم، وحقوق الإنسان الأبيض، دون غيره من بقيَّة النَّاس.

ونحن هُنا لا نريد بطبيعة الحال الاسترسالَ في الحديث عن تناقضات الغرب، أو البَونِ الشَّاسع بين قولِه وفعله، ولكن نريد التذكير بأنَّ خادم

الحرمين الشريفين الذي نجتمع لتكريم جلالَته اليوم -كان يَملك رؤيةً استراتيجيةً دقيقة، استطاع من خلالها أن يَضع صُنَّاع القرار في الغرب أمامَ مسؤوليَّاتهم التَّاريخية؛ وذلك حين حذَّرهم منذُ بضعة أيَّام خلَت من أنَّ هذا الإرهاب الذي يَحسبونه محصورًا داخلَ بُلدان العرب سوفَ يطلُّ برأسه القبيح في أوروبا بعد شهر، وفي أمريكا بعد شهرين. .

وقد جاء هذا التَّحذيرُ السعوديُّ ليُؤَكِّدَ على تحذيرٍ مصري سابق أطلقه بدوره رئيسُ جمهورية مصر العربية، الرئيس عبد الفتاح السيسي، ووجَّه من خلاله أنظار العالم إلى أن المنطقة العربيَّة تَشْهَدُ الآن تدميرًا مُنظَّمًا؛ في سوريا، والعراق، وليبيا. .

وقد آتى هذا التَّحذيرُ العربي من قادة أكبر دولتين عربيتين؛ المملكة العربية السعودية، وجمهورية مصرالعربية -آتى أُكُلَه وثمارَه سريعًا؛ حيثُ حدثَ تَحوُّلٌ في موقف الغرب في التَّصدِّي لهذا الإرهاب السَّرَطاني، الذي تمدَّدَ في جزء من جسَد الأُمَّة العربية، وقرَّرت أوروبا وأمريكا؛ الاستجابة للتَّحذير السعودي و المصري، وإن جاء التَّحرُّك الغربي من رَحِم الضَّرورات الخاصَّة، والأغراض الشخصية، ولم يَجئ -للأسف الشَّديد- من رَحِم المبادئ الإنسانية، والأخلاق العامَّة.

أيُّها الحَفل الكريم. .

إنَّ المآثر التي أسداها خادمُ الحرَمين الشَّريفين لأُمَّته العربية؛ التي حمَل همومَها، ونذرَ حياتَه للذَّود عن حُرُماتها، وأَنِف أن يَقبل فيها الدَّنيَّة، وأبى أن يُتاجر بها في أسواق الاستعمار الجديد، أو يَقبل فيها مساومةً أو مُفاصَلة من أعداءٍ يَتربَّصون بها ويَكيدون لها، إنَّ هذه المآثر تَتجاوَز كثيرًا حدودَ هذه الورقة؛ مساحةً، وزمنًا. .

وإذا كان ما لا يُدرك كلُّه لا يُترَك كلُّه -كما يُقال-؛ فإننا نُشير هنا ولو من بعيدٍ إلى بعض هذه المآثر، التي تأتي في مُقدِّمتها:

- توسِعةُ الحرمين الشَّريفين، والتي تكلَّفَت خمسةً وعشرين مليار دولار، وزادت من طاقةِ استيعاب المسجد الحرام لمليونَي مُصَلٍّ، ومائةِ ألفِ طائفٍ في السَّاعة الواحدة، واستيعاب المسجد النَّبوي الشريف لمليونٍ وستمائة ألف مصل.

- وكذلك مركزُ الملك عبد العزيز للحوار الوَطنيِّ، الذي أنشأه خادم الحرمين في المملكة حين كان وليًّا للعَهد.

- وأيضًا مُبادرَةُ الحوار بين أتباع الأديان وبين الثَّقافات، والذي انعقَد في مدريد، عام: ٢٠٠٨م.

- ثمَّ مركز الملك عبد اللَّه للحوار بين أتباع الدِّيانات، والذي دُشِّن في العاصمة النِّمساويَّة فيينا في العام الماضي.

- وهذا الإسهامُ الكبير بمبلَغ مائتي مليون دولار في تَدشين مركز الأُمم المُتَّحدة لمكافحة الإرهاب، في عامي: ٢٠١١، ٢٠١٣م.

- والمُساعداتُ الإنسانية المالية الضَّخمة لإعمار غزة، ومُساعدة الشَّعب السُّوري، والشَّعب العراقي.

وقد كرَّم برنامجُ الغذاء العالمي جلالةَ الملك، بمَنْحِه جائزةَ البطل العالَمي عام **٢٠٠٩م**؛ تقديرًا لتبرُّعات جلالَته السَّخية لمكافحة الجوع في العالَم، وكلُّ هذا قليلٌ من كثير يَضيقُ عن ذكره وتَعداده المقام.

وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقولِ النَّبي ﷺ «**أنزِلوا النَّاس منازلَهم**»(١)، وقولِه: «**مَن لا يَشكُر النَّاسَ**

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لا يَشْكُر اللَّهَ»[(١)] . .

تتشرف مصرُ العربية، وأزهرُها الشَّريف بمَنح الشَّهادة العالَمية «دكتوراه الأزهر الفخرية» في العُلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، لخادم الحرمين الشريفين، الملك/ عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود، حفظَه اللَّه، ومتَّعه بمَوفور الصِّحَّة والعافية، وأبقاه ذخرًا وسندًا للإسلامِ وللعَرب والمُسلمين.

شكرًا لحُضوركم، وحُسن استماعِكم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والتِّرمذيُّ (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث صحيح».

كلمة
في زيارة الحديقة الأولمبيَّة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

في الإسلام تمتزج الروح بالبدن، ولا ينسى المسلم الحرص على القوة الخلقية وعلى القوة البدنية معا، فالنبي ﷺ يقول: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[(١)]. وقد وردت الأحاديث أيضا بما كان يقوم به النبي ﷺ وبخاصة في السفر من مسابقة أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها، وقد فازت هي في أولى المسابقات وهي فتاة خفيفة البدن، ثم فاز عليها مرة أخرى بعد أن أضافت إلى وزنها، وقال لها النبي ﷺ تلطفا: «**هذه بتلك**»[(٢)].

فامضوا أيها الشباب في تحصيل القوة والمهارة البدنية، ولكن لا تنسوا المنافسة والمسابقة نحو القوة الأخلاقية والروحية، فهذا التكامل هو طابع التوجيه الإسلامي للشباب، وفقكم اللَّه، وإني لسعيد بهذه الزيارة بوجه خاص، وأشكر السادة الذين وجهوا إليَّ الدعوة الكريمة من القائمين على الحديقة الأولمبية التي تمثل بيئة متميزة لترسيخ قيم التعايش المشترك والتنافس الشريف، والجمع بين قوة البدن وقوة الروح الإنسانية في الوقت

(*) كلمة ألقيت أثناء زيارة الحديقة الأولمبيَّة بميونيخ، ألمانيا، في: شعبان سنة ١٤٣٦هـ، الموافق: يونيو سنة ٢٠١٥م.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٧٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نفسه، وما أحوجنا إلى هذه القيم التي يحتاجها شبابنا في كل مكان، فشكرا لكم مرة أخرى.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛؛؛

* * *

كَلِمَةٌ إلى الشَّبابِ(*)

كلمةٌ إلى الشباب(١)

(١)

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وبارَكَ عليه، وعلى آلِه وصَحبِه.

السَّيِّدُ أ.د. جابر نصار رئيس جامعةِ القاهِرةُ..

السَّادةُ الأعزَّاءُ الأفاضلُ؛ رؤساءَ الجامعاتِ المِصريَّةِ وأساتذتَها وعلماءَها والعاملِين بها..

بناتي وأبنائي طالباتِ وطلَّابَ جامعةِ القاهرةِ والجامعاتِ المصريَّةِ..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعدُ:

فيُسعِدُني أن أُلبِّيَ دعوتَكم للحديثِ إليكم، والمحاضرةِ في جامعتِكم العريقةِ، جامعةِ القاهرةِ التي تخرَّجَ فيها كثيرٌ مِن رُوَّادِ النَّهضةِ المِصريَّةِ الحديثةِ في العِلمِ والأدبِ والثَّقافةِ، وحمَلَ أبناؤُها مشاعلَ العِلمِ والنُّورِ عقودًا طويلةً أضاءت مِصرَ وما حولَها مِن عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ.

كما يُسعِدُني أن أُزجِيَ الشُّكرَ الجزيلَ لكلِّ العاملين بهذه الجامعةِ مِنَ السَّادة

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقيت إلى الشَّبابِ في جامعة القاهرة، في ١٨ من صفر سنة: ١٤٣٧هـ/ ١ من ديسمبر سنة: ٢٠١٥م.

(١) كلمة ألقاها الإمام الأكبر في قاعة الاحتفالات الكبرى قبة جامعة القاهرة في يوم الثلاثاء ١٩ من صفر الخير: ١٤٣٧هـ/ ١ من ديسمبر: ٢٠١٥م.

النُّوَّابِ والعُمَداءِ وأعضاءِ هيئةِ التَّدريسِ والطُّلَّابِ والموظَّفِين والعُمَّال.

الحفلُ الكريمُ..

كم أنا سعيدٌ أنْ أُخاطِبَ بكَلِماتي هذه بناتي وأبنائي الشَّبابَ مِنَ الطَّالِباتِ والطُّلَّابِ، ولا أَتَوَجَّهُ بها إلى زُملائي أساتذةِ الجامِعَةِ، فقد تَكُونُ مِن بابِ تَكرارِ القَولِ عَلَى مسامِعِهم. ويَصدُقُ عليَّ -حينئذ- ما يَصدُقُ عَلَى حامِلِ التَّمرِ إلى هجَرَ، أو بائعِ الماءِ في حارَةِ السَّقائينَ.

وأُصارِحُكمُ القولَ بأنَّني ما إن بدأتُ أُفكِّرُ في موضوعٍ أُخاطِبُ به شبابَ الجامعاتِ في مصرَ، وأَمسُّ به مُشكِلاتِهم وهمومَهم وأَحلامَهم مَسًّا مباشرًا -حتَّى انفتَحَ أمامي مِن القضايا المختلِفةِ، والموضوعاتِ المُتبايِنةِ، ما لا يُمكِنُ لأيِّ مُحاضرٍ مهما بلغَت قُدراتُه البلاغيَّةُ على الاختصارِ والإيجازِ - أن يَتحدَّثَ عنها حديثًا يَطمَحُ إلى فصلِ الخطابِ فيها في محاضرةٍ واحدةٍ.

ولم أدرِ حينذاك؛ هل أَتحدَّثُ عنِ الشَّبابِ والوطنِ؟ أوِ الشَّبابِ وتَحمُّلِ المسؤوليَّةِ؟ أو حقوقِ الشَّبابِ على الكبارِ وعلى الدَّولةِ؟ أوِ الشَّبابِ والعِلمِ؟ أوِ الشَّبابِ والعملِ؟ أوِ الشَّبابِ والإيمانِ؟ أوِ الشَّبابِ والإلحادِ؟ أوِ الشَّبابِ والأخلاقِ؟ أوِ الشَّبابِ واللَّامُبالاةِ؟ إلى قضايا أُخرى يَضيقُ المَقامُ عن سَردِها، وكلُّها ممَّا ينبغي -بل ممَّا يَتعيَّنُ- أن نَتحدَّثَ فيه إلى الشَّبابِ حديثًا صريحًا مفتوحًا، بصوتٍ عالٍ، وتأصيلٍ حضاريٍّ أمينٍ، مُتقيِّدٍ بالواقعِ ومُشكِلاتِه، وباللَّحظةِ وضَرُوراتِها، وبمصرَ وما تَمُرُّ به مِن أزَماتٍ وتحدِّياتٍ.

وأمامَ هذه الحَيرةِ، وهذا الخليطِ المُتنافرِ مِن الموضوعاتِ - آثَرتُ أن أُوجِّهَ حديثي إليكم -أيُّها الشَّبابُ- عن قواعدَ عامَّةٍ وأُطُرٍ ثابتةٍ، أَظُنُّكم قادرينَ على أن تَملَؤوها بِهِمَمِكمُ الفَتيَّةِ، وطموحاتِكمُ الواعدةِ، وأفكارِكمُ البنَّاءةِ، وتَجارِبِكمُ الخِصبةِ الثَّريَّةِ، وغيرِ ذلك ممَّا ننتظرُه منكم، ونَتمنَّاهُ عليكم.

وقبل أن أَعرِضَ لهذا الإطارِ الذي اخترتُه لحديثي اللَّيلةَ، أُحِبُّ أن أُذكِّرَكم -أيُّها الشَّبابُ- بأنَّه لا ينبغي أبدًا أن تَذهلوا عن مِيراثِكمُ الحضاريِّ الَّذي تَتميَّزون به عن بقيَّةِ شبابِ العالَمِ، ولا أن تَتَناسَوا مَعدِنَكمُ النَّبيلَ الَّذي تَضربون بجُذورِه في قديمِ الأزمانِ والآبادِ، ولا تاريخَكمُ العريقَ الَّذي صَنَعَكم وصنعتموه، فأنتم -شبابَ مِصرَ!- مِن بينِ سائرِ شبابِ العالَمِ تُسنِدُون ظُهورَكم إلى حضاراتٍ أصيلةٍ متعاقِبَةٍ تَجري في دمائِكم وعُروقِكم؛ هي: حضارةُ قدماءِ المِصريِّين، والحضارةُ المسيحيَّةُ في مِصرَ، والحضارةُ الإسلاميَّةُ والعربيَّةُ.

وما أظنُّ أنَّ الأقدارَ قد جَمَعَت لشبابٍ غيرِكم مِثلَ هذا التَّنوُّعِ الحضاريِّ، ومِثلَ هذا الموروثِ الثَّريِّ المُمتَدِّ على طُولِ التَّاريخِ السَّحيقِ.

ستقولون: إنَّ الشَّبابَ في كلِّ أصقاعِ الدُّنيا له تاريخٌ وله حضاراتٌ قديمةٌ.. وأقولُ: صَدَقتُم.. ولكنَّ الفَرقَ الَّذي يجبُ أن نَتوقَّفَ عندَه ونَتأمَّلَهُ يَتضمَّنُ أمرَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ حضاراتِ الدُّنيا كلَّها هي حضاراتٌ أَحدثُ مِن حضارةِ المِصريِّين القدماءِ، وأنَّ حضارةَ المِصريِّينَ هي الأقدمُ، وبالأمسِ الأوَّلِ، زارَني في مكتبي رئيسُ كنائسِ الصِّينِ، وسألتُه عن أَعرَقِ الحضارتَينِ وأَقدمِهما: أهيَ حضارةُ الصِّينِ أم هيَ حضارةُ مِصرَ القديمةُ؟ فلم يَتردَّد في القولِ بأنَّ حضارةَ مِصرَ أقدمُ، ولم تأخُذني الهِزَّةُ الَّتي تأخُذُ كلَّ مِصريٍّ وهو يَطرَبُ لسماعِ مِثلِ هذا الكلامِ.. بل أَلَمَّ بي شيءٌ غيرُ قليلٍ مِنَ الانقباضِ، حين قارنتُ ما وَصَلَت إليه حضارةُ الصِّينِ الآنَ، وما وَصَلَت إليه حضارةُ مِصرَ الَّتي هي أَعرَقُ وأَقدَمُ.. وكان الأملُ المُرَجَّى أن يكونَ العكسُ هو الواقعُ ونَفْسُ الأمرِ، لو أنَّ الأمورَ سارَت في اتِّجاهِها الصَّحيحِ.

الفَرقُ الثَّاني: أنَّ الشَّبابَ في الحضاراتِ الأُخرى غيرُ مُتواصِلٍ معَ تُراثِه، بل هو مُتقاطِعٌ معَه ومتجاوزٌ لمَورُوثِه ومَخزُونِه، ومِن أينَ له هذا التَّواصُلُ وهو لا يَعرِفُ لغةَ تُراثِه، ولا يَتحدَّثُها، ولا يَرغَبُ في أن يَتعرَّفَ على ما يَختزِنُه هذا التُّراثُ أو ذاك مِن كنوزٍ في المِعرفةِ والدِّينِ والسُّلوكِ والأخلاقِ؟!

على أنَّ هذا البَترَ المُتعمَّدَ بينَ التُّراثِ والمُعاصَرةِ، كان سببًا في خَلقِ أجيالٍ حديثةٍ تَنتمي إلى تَغيُّراتِ الزَّمانِ وتَبدُّلاتِ المكانِ، بأعمقَ ممَّا تَنتمي إلى الأصلِ والجِذرِ وميراثِ التَّاريخِ، وما أنجَزَه الآباءُ والأجدادُ، وذلك بعدَ أن مَحَت هذه الأجيالُ مِن ذاكرتِها تُراثَ القُرونِ الوُسطَى بكلِّ كنوزِه العِلميَّةِ والمعرفيَّةِ، وبكلِّ آثارِه الَّتي لم تَعُد تُمثِّلُ شيئًا ذا بالٍ في خيالِهم وذاكرتِهم وتَصَرُّفاتِهم.

وإذا كان مِن الإنصافِ والعَدلِ أن تَعترِفَ الإنسانيَّةُ كلُّها -وأنْ نعتَرِفَ نحن معَها- بالجميلِ لحضارةِ الغربِ الحديثةِ مِن حيثُ المعرفةُ والفلسفةُ، والاختراعاتُ العِلميَّةُ، بل مِن حيثُ تحريرُ الإنسانِ مِن أغلالِ الطُّغيانِ والقَهرِ والظُّلمِ والفسادِ، ومِن حيثُ حقَّقَت في هذه المجالاتِ ما لم تُحقِّقْهُ الإنسانيَّةُ منذُ فَجرِ التَّاريخِ وحتَّى بدايةِ عصرِ النَّهضةِ الغربيَّةِ - إذا كان مِنَ الإنصافِ والعدلِ أن نقولَ ذلك عن الحضارةِ الغربيَّةِ، فمِن الحقِّ أن نُسجِّلَ عليها أنَّها خَلَّفَت -بالتَّوازي مع كلِّ ما تَقدَّمَ- ما يُشبِهُ «الأزمةَ» أوِ الفَوضَى، أو غَبَشَ الرُّؤيةِ بالنِّسبةِ لإنسانِ العصرِ الحديثِ.

ولا أُريدُ أن أَسترسِلَ هنا في بيانِ هذه الأزمةِ، أوِ الفوضى الَّتي هَدَمَت حُصونَ العالَمِ الإنسانيَّةَ والخُلُقيَّةَ، فيَكفي أن نَتلَفَّتَ حولَنا لِنُدرِكَ خطرَها الماثلَ على العالَمِ كلِّه، ولكن أُريدُ أن أَخلُصَ مِن كلِّ ذلك إلى التَّأكيدِ على ما بدأتُ به حديثي إليكم مِن أنَّكم -أيُّها الشَّبابُ- تَتواصَلون مع حضاراتٍ أصيلةٍ تَستَلهِمُ تُراثَها وتَتَّكِئُ عليه في كلِّ ما تُقدِّمُه للإنسانيَّةِ، وتُصحِّحُ به مَسيرتَها وهي في سَبْحِها الطَّويلِ نحوَ الأفضلِ والأنفعِ.

أيُّها الحفلُ الكريمُ. .

إنَّ الحضارةَ الإسلاميَّة الَّتي هي أَحدَثُ الحضاراتِ الشَّرقيَّةِ، وأَعمقُها أثرًا في نفوسِنا، تُشبِهُ المثلَّثَ المُتساوي الأضلاعِ؛ هذه الأضلاعُ هي الوحيُ الإلهيُّ، والعقلُ المُنضبِطُ بالوحيِ، والأخلاقُ.

أمَّا الوحيُ الإلهيُّ فإنَّه يُمثِّلُ في منظومةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ قُطبَ الرَّحى، ويَقَعُ منها مَوقِعَ القلبِ مِن جسدِ الإنسانِ، يُغذِّيه بالحياةِ، ويَرفِدُه بالصُّمودِ والبقاءِ؛ ونَعني بالوحي في هذه الحضارةِ نصوصَ القرآنِ الكريمِ، ونصوصَ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ المُوضِّحةِ لنصوصِ القرآنِ والمُشرِّعةِ للأحكامِ، والمُوجِّهةِ للسُّلوكِ والقِيَمِ والآدابِ.

ونحن نَعلَمُ أنَّه قد قُيِّضَ لنصوصِ القرآنِ أن تُحفَظَ في السُّطورِ وفي الصُّدورِ، ممَّا مكَّنَ لرُوحِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ أن تَظَلَّ صامدةً في معاركِ التَّطوُّرِ، وأن تَبقى على قَيدِ الحياةِ حتَّى يومِ النَّاسِ هذا، رَغمَ ما أصابها مِن تَراجُعٍ وتَقهقُرٍ، ورَغمَ ما يُوجَّهُ إليها مِن ضَرَباتٍ قاسيةٍ، مِنَ الدَّاخلِ ومِن الخارجِ على السَّواءِ، وكانت -دائمًا- كالجمرةِ المُتَّقِدةِ التي لا يَخبُو لها أُوارٌ، حتَّى في زمنِ التَّراجُعِ والنُّكوصِ، ولو أنَّ أمَّةً أُخرى تَعرَّضَت حضارتُها لِما تَعرَّضَت له حضارةُ المسلمين لتَلاشَت وأَصبحَت في ذمَّةِ التَّاريخِ منذُ قرونٍ عدَّةٍ.

ثمَّ يأتي العقلُ بكلِّ مَعانيهِ ولوازمِه مُرتبِطًا بالعِلمِ والمعرفةِ؛ لِيُمثِّلَ في هذه الحضارةِ الأساسَ الَّذي اتَّكأَت عليه نصوصُ الوحيِ الإلهيِّ قرآنًا وسُنَّةً، وعوَّلَ عليه القرآنُ الكريمُ تعويلًا كاملًا في خطابِ النَّاسِ، وتَكاليفِهم بشريعتِه وأحكامِه.

ومِنَ المعلومِ الَّذي لا نِزاعَ فيه أنَّ منزلةَ العقلِ الكبرى في القرآنِ الكريمِ مِن

الوُضوحِ والرُّسوخِ بحيث لا تَقبَلُ الجدلَ؛ «إذ تُثبِتُه تلاوةُ القرآنِ ثُبوتَ أرقامِ الحسابِ»[(١)]؛ فقد ورَدَت مادَّةُ العقلِ والفِكرِ والنَّظرِ -بمَعنى إعمالِ العقلِ في الدَّلائلِ والبراهينِ- أكثرَ من (١٢٠) مرَّةً في آياتِ القرآنِ الكريم، وبمُفرداتٍ مُتكرِّرةٍ لافتةٍ للانتباهِ، مِثلُ: «يعلمون»، و«يعقلون»، و«يتدبرون»، و«يتفكرون»، و«ينظرون»، و«يسمعون»، و«يفقهون»، وغير ذلك.

هذا، فضلًا عنِ التَّفرقةِ الحاسمةِ بين رُتبةِ العِلمِ بمعنى اليقينِ الَّذي هو الحقُّ، ورُتبةِ الظَّنِّ والشَّكِّ والارتيابِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٨، ٢٩].

أمَّا رُكنُ الأخلاقِ في الحضارةِ الإسلاميَّةِ فأكتفي في الحديثِ عنه بأمرَين:

الأمر الأول: أنَّ الأخلاقَ في الإسلامِ ثابتةٌ، لا تَتحرَّكُ ولا تَتطوَّرُ مع منطقِ الأغراضِ والمصالحِ، أو منطقِ القوَّةِ والتَّسلُّطِ، أو غيرِ ذلك ممَّا يَحكُمُ البِناءَ المعرفيَّ الخُلُقيَّ في حضاراتٍ أُخرى ويَسكُنُها حتَّى النُّخاعِ، إنَّ الأخلاقَ في الإسلامِ حاكِمَةٌ على المَصالحِ والأغراضِ والمنافعِ، تُصحِّحُها، وتُقَوِّمُ المُعوَجَّ مِنها وتكشِفُ ما لا يظهَرُ مِن آثارِها الضَّارَّةِ المؤذيَةِ.

ومِن هنا؛ كان مِنَ المُستحيلِ أن يأتيَ على المسلمين زمنٌ يُقْدِمون فيه على السَّطوِ على الآخَرِ، أو يُبرِّرون قتلَه، أو صِراعَه أو إخضاعَه لإرادةِ غيرِه مِن أجلِ السَّيطرَةِ على أراضيهِ وثَرواتِه ومُقَدَّراتِه والانتفاعِ بِها، فالقبيحُ في مِيزانِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ قبيحٌ إلى آخِرِ الزَّمانِ، والحَسَنُ كذلك حَسَنٌ إلى آخِرِ الزَّمانِ.

وإذا كانتِ الفلسفةُ الخُلُقيَّةُ في الإسلامِ لا تَعرِفُ نِسبيَّةَ القِيَمِ، فإنَّها -تأسيسًا على ذلك- لا تَعترِفُ بالمبدأِ «الميكيافيلي» الَّذي يُبرِّرُ: «الغايةَ

(١) عبارةٌ مقتبسةٌ من كلام الأستاذ عباس العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: ٣.

بالوسيلةِ»، ولا تُؤمِنُ بمبدأِ الكَيلِ بمِكيالَين في الحادثةِ الواحدةِ أوِ النَّوازِلِ المُتماثِلةِ، ولا غيرِ ذلك مِن القِيَمِ الرَّاقِصَةِ عَلَى أوتارِ المطامعِ والأغراضِ، والتي ارتبطَت بالعقلِ المُستبدِّ، وكانت سببًا مباشرًا في أزمةِ الإنسانِ المُعاصِرِ وآلامِه وعذاباتِه.

الأمر الثَّاني: هو أنَّ العبادةَ في الإسلامِ -وفي مقدِّمتِها الصَّلاةُ والصِّيامُ- لا تُغني عنِ الأخلاقِ، حتَّى وإن كَثُرَت وبلَغَت عَنانَ السَّماءِ، ذلكم أنَّ العباداتِ في الإسلامِ إذا لم تَستنِد إلى ركائزَ خُلُقيَّةٍ فإنَّها تُصبِحُ في مهبِّ الرِّيحِ:

قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ فلانةَ تصومُ النَّهارَ وتقومُ اللَّيلَ وتُؤذي جِيرانَها بلسانِها. فقالَ: «**لا خَيرَ فيها؛ هي في النَّارِ**». قيلَ: إنَّ فلانةَ تُصلِّي المكتوبةَ وتتصدَّقُ بالأثوارِ مِنَ الطَّعامِ -أي: بالقِطَعِ مِنَ الطَّعامِ- وليس لها شيءٌ غيرُه، ولا تُؤذي أحدًا. قال: «**هي في الجنَّةِ**»(١).

وقال في موضعٍ آخَرَ: «**ألا أُخبِرُكُم بأكمَلِكم إيمانًا؟ أحاسِنُكم أخلاقًا، الموطَّئون أكنافًا، الَّذين يَأْلَفُونَ ويُؤْلَفُونَ**»(٢).

كما قال أيضًا: «**إنَّ المؤمنَ يَأْلَفُ، ولا خيرَ فِيمَن لا يَألَفُ ولا يُؤلَفُ**»(٣).

بل قال: «**إنَّ العبدَ لَيَبلُغُ بحُسْنِ خُلُقِه عظيمَ دَرَجاتِ الآخرةِ، وشَرَفَ المنازِلِ، وإنَّهُ لَضعيفُ العبادةِ، وإنَّه لَيَبْلُغُ بسُوءِ خُلُقِه أسفلَ دَرْكٍ مِن جهنَّمَ وهو عابدٌ**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٧٥) والحاكم: ٤/ ١٦٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد».

(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت» (٢٥٣) والمروزيُّ في «تعظيم قَدر الصَّلاة» (٤٥٦) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (٩١٩٨) والحاكم: ١/ ٢٣، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين».

(٤) أخرَجَه ابنُ أبي الدُّنيا في «التَّواضع» (١٦٨) والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير»: ١/ ٢٦٠ (٧٥٤)، =

وعلى الَّذين يَظُنُّون -مِنَ الشَّبابِ- أنَّ الإسلامَ مُنحصِرٌ في المساجِدِ وفي الرُّسومِ والأشكالِ، وأنَّهم -فيما وراءَ ذلك- أحرارٌ في إطلاقِ ألسنتِهم بنقدِ زُملائِهم وتجريحِهم، أو من هؤلاء المنتفخين كبرا وغرورا وعلوا على خَلْقِ اللَّهِ -على هؤلاءِ أن يَتيقَّظُوا جيِّدًا لهذا التَّشريعِ النَّبويِّ في أمرِ العَلاقةِ بين الأخلاقِ والعبادةِ؛ حتَّى لا يُغامِرُوا بعبادتِهم، ويُلقُوا بها في مَهَبِّ الرِّيحِ، ويَصيروا إلى ما صارَت إليه هذه المرأةُ الَّتي أَلقى بها لسانُها في قَرارِ جهنَّمَ بعد ما أطاحَ بعبادتِها وتَنَسُّكِها وأَتَى عَلَيها مِنَ الجُذورِ.

أيُّها الشَّبابُ..

في أضواءِ هذه الأُطُرِ العامَّةِ التي عرَضتُها عليكم، يجبُ أن تَتحرَّكوا، وأن تُفكِّرُوا، وأن تَعْلَموا، وعليكم أن تُدرِكوا الحدودَ الفاصلةَ بين العقلِ المُستضيءِ بنُورِ الوحي الإلهيِّ ونصوصِه الصَّحيحةِ الثَّابتةِ، والعقلِ الجامحِ الَّذي يُدمِّرُ في طريقِه كلَّ شيءٍ، واعلموا أنَّ للعقلِ مجالًا، وللوحي مجالًا آخَرَ يتخطَّى مجالَ العَقلِ ويُجاوِزُه[(١)]، وأنَّ الخلطَ بينهما أوِ الاعتمادَ المُطلَقَ على أحدِهما في مَجالِ الآخَرِ لا يُؤدِّي إلَّا إلى الاضطرابِ والضَّلالِ، وأنَّ الجُموحَ العقليَّ أوِ الفكريَّ إنَّما يكونُ بسببِ سُقوطِ الحدودِ الفاصلةِ بين هذينِ المجالَينِ؛ حيثُ يَنفلِتُ العقلُ ويَجمَحُ إمَّا إلى الإلحادِ وإضلالِ النَّاسِ، وإمَّا إلى الانغلاقِ والانسحابِ وتكفيرِ النَّاسِ، وكلاهما مرضٌ نفسيٌّ وعاهةٌ فكريَّةٌ، وكلاهما ضلالٌ وتَخبُّطٌ في النَّظرِ والاستدلالِ، وما

= والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المُختارَة» (١٨١٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(١) أَلْفِتُ النَّظَرَ إلى الفرقِ بينَ الغُلُوِّ على قُدراتِ العَقلِ، وبينَ مصادَمَةِ العَقلِ ومعارضَةِ قوانينِه وأحكامِه.. وكُلُّ ما جاءَ به الإسلامُ مِن غَيبيَّاتٍ ممَّا يعلُو فوقَ حُدودِ العَقلِ، يقبلُه العقلُ ولا يرفُضُه، ويُصَدِّقُ به إنْ كانَ المُخبِرُ بالغيبيَّاتِ معصومًا مِنَ الخَطإِ ويستحيلُ عليه الكَذِبُ بدليلٍ مِن أَدِلَّةِ العَقلِ وحُجَّةٍ مِن حُجَجِه.

أَعظَمَ ما قرَّرَه أئمَّةُ عِلم الكلام في هذا الأمرِ، وما بيَّنُوه من الفروقِ الدَّقيقةِ بينَ الدَّليلِ العقليِّ والدَّليلِ النَّقليِّ ومجالاتِ كلٍّ منهما، وكيف أنَّ إبطالَ أحدِهما لحسابِ الآخَرِ يَكُرُّ بالنَّقضِ والإبطالِ على الدَّليلَينِ معًا!

وأمرٌ ثانٍ أَوَدُّ أن أُشيرَ إليه إشارةً سريعةً؛ هو: الولاءُ للوطنِ، وبخاصَّةٍ في هذا المُنعطَفِ الَّذي تَمُرُّ به مِصرُ والأمَّةُ العربيَّةُ كلُّها، والَّذي يجبُ علينا وعليكم -أيُّها الشَّبابُ في هذا المُنعَطَفِ- هو أن تكونوا على مُستوى المسؤوليَّةِ الَّتي تَقَعُ على عَواتقِكم، وأن تكونوا على ذُكرٍ دائمٍ لأمانةِ الوطنِ الَّتي ستَلقَون بها ربَّكم، وأنتم مسؤولون عنها لا مَحالةَ ولا مَفَرَّ ولا جِدالَ في ذلك، ثمَّ هي مسؤوليَّةٌ في هذه الحياةِ الدُّنيا، يُسجِّلُها التَّاريخُ وتَحفظُها الأيَّامُ، والتَّاريـخُ لا يَرحَمُ، كما يقولون..

فاحرصوا على أن تكونَ صحيفتُكمُ الوطنيَّةُ بيضاءَ نقيَّةً في سِجلَّاتِ التَّاريخِ، واحرصوا على أن تَذكُرَكُمُ الأجيالُ القادمةُ بالثَّناءِ والعِرفانِ بالجميلِ، كما نذكر نحن الآنَ شبابَ مِصرَ في القرنِ الماضي بالإعجابِ والتَّقديرِ؛ لصُمودِه في وجهِ الاستعمارِ، وإبطالِ خُطَطِ المتربِّصِينَ والمُفسدِينَ في أرضِ مِصرَ آنذاك؛ فَقِفُوا إلى جِوارِ مصلحةِ هذا البلدِ الَّذي نأكُلُ ونَشرَبُ مِن خيراتِه، ونَتعلَّمُ ونَسرَحُ ونَمرَحُ على ثَراهُ، ولا تكونوا مِن الَّذين يأخُذون مِن مِصرَ بأَيمانِهم ويَطعَنُونها مِنَ الخَلفِ بشمائِلِهم، فما هكذا الرِّجالُ، وما هكذا أهلُ المروءةِ والوفاءِ.

أيُّها الأبناءُ الأعزَّاءُ..

لا تَظُنُّوا أنَّني جئتُ لأذكِّرَكم بما يجبُ عليكم وما يَحسُنُ ويَجمُلُ بكم، وأنا في غفلةٍ مِن أمرِ مُشكلاتِكم ومُعاناتِكم وآلامِكم.. فرُغم أنِّي تَجاوزتُ مراحلَ الشَّبابِ وودَّعتُه راغمًا -كما يقولون- لم أنسَ أبدًا آلامَ جيلي أيَّامَ أن

كنتُ شابًّا، ولا مسؤوليَّاتِه عن أوضاعٍ فُرِضَت علينا فرضًا لم نُشارِكْ في صُنعِها، ولم يكُنْ لنا فيها ناقةٌ ولا جَمَلٌ.. كنَّا نَدفَعُ فواتيرَ الحسابِ لغيرِنا، ونَتحمَّلُ تَبِعاتِ خطأِ الآخَرِينَ.. وقد عَرَفنا الحروبَ، وما خلَّفَته مِن دمارٍ، وأزَماتٍ اقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ، وكان أَقساها على نفوسِنا انسدادَ بابِ العدالةِ الاجتماعيَّةِ والمساواةِ في وُجوهنا.

وأنتم وإن كنتم تعيشون مُشكلاتٍ شبيهةً بهذه المشكلاتِ، إلَّا أنَّ التَّخلُّصَ منها لن يَستعصيَ على حِكمتِكم وفِطنتِكم وصبرِكم، ما دامت لكم إرادةٌ صادقةٌ، وفكرٌ هادئٌ مُتَّزِنٌ، ورؤيةٌ صحيحةٌ للواقعِ والأحداثِ، وبَصَرٌ بما يُحاكُ للمنطقةِ ويُتربَّصُ بها مِن وراءِ البحارِ، وعليكم أن تُوطِّنوا أَنفسَكم على قراءةِ الواقعِ قراءةً رشيدةً وأنتم تَتصدَّرون لحلِّ هذه المشكلاتِ، ولا مَفَرَّ لكم من أن تُديروا ظهورَكم للحلولِ الَّتي لم تَعُد صالحةً لمواجهةِ التَّحوُّلاتِ والتَّحدِّياتِ المعاصرةِ؛ فالجريُ وراءَ الوظيفةِ الحكوميَّةِ والتَّشبُّثُ بها، وضياعُ زَهرةِ العمرِ في انتظارِها، والنُّفورُ مِنَ العملِ اليدويِّ، وعبادةُ الشَّكلِ والمظهرِ، والرُّكونُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحةِ، كلُّ هذه موروثاتٌ سلبيَّةٌ؛ إنْ لَم أَقُلْ: مُدَمِّرَةً ولا مَفَرَّ لكم مِنَ التَّخلِّي عنها إذا أَرَدتُم أنْ تدخُلوا بالمجتمعِ المصريِّ عَصرَ العملِ والإنتاجِ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ، والمساواةِ المنشودةِ.

وفي الوقتِ نفسِه وبالتَّوازي معَه أيضًا أقول: إنه يجبُ على المسؤولِينَ، كلِّ المسؤولينَ في الدَّولةِ، أن يُشاركوا الشَّبابَ في تَقشُّفِه وفي مُعاناتِه، وأن يُقاسِموه هومَه وآلامَه، بخُطَطٍ عمليَّةٍ، بعيدةٍ كلَّ البُعدِ عنِ الشِّعاراتِ الَّتي لا تقولُ شيئًا، والَّتي يَسخَرُ منها الشَّبابُ، ولا يَجِدُ فيها فائدةً ولا تغييرًا يمَسُّ حياتَهم أو يُغيِّرُ مِن واقعِهم.

وكم أَحلُمُ -بل كم أَتمنَّى- أن لو استَثمَرَ الأثرياءُ أموالَهم في التَّقليلِ مِن

مُعاناةِ الشَّبابِ، والأخذِ بأيديهم نحوَ نهضةٍ حقيقيَّةٍ يَلمَسُون آثارَها لَمسًا مباشرًا، وكم تساءلتُ في عِتابٍ -وارتيابٍ أيضًا-: لماذا لا يَستثمرُ القادرون أموالَهم في بِناءِ وَحَداتٍ سكنيَّةٍ بأجرةٍ قليلةٍ لتمكينِ الشَّبابِ الرَّقيقِ الحالِ مِنَ الاستقرارِ النَّفسيِّ ومِن بِناءِ أسرةٍ صغيرةٍ؟

ولماذا لا تَتغيَّرُ ثقافةُ المجتمعِ في مسألةِ تكاليفِ الزَّواجِ وتعقيداتِه ومظاهرِ التبذيرِ والسَّفَهِ الَّتي فاقَت كُلَّ حُدودِ العَقلِ والحِكمَةِ والمسؤوليَّةِ، والَّتي وَصَلَت إلى حدِّ التَّكليفِ بما لا يُطاقُ، وأينَ دَورُ الفقهاءِ والعلماءِ والدُّعاةِ بل أين دَورُ الإعلاميِّين والمثقَّفين والفنِّيِّين من تغييرِ هذه العاداتِ السَّيِّئةِ، الَّتي جاء الإسلامُ لِيُحطِّمَها ويَنقُضَها مِن الأساسِ؟ ألم يُيسِّرْ نبيُّ الإسلام ﷺ مِن أمرِ تكاليفِ الزَّواجِ حتَّى جعَلَ المهرَ «**كفًّا مِن سَوِيقٍ**»[1] أو «**خاتمًا مِن حديدٍ**»[2]؟

فأين كفُّ السَّويقِ وخاتَمُ الحديدِ مِن كفِّ الذَّهبِ وخاتَمِ الماسِ وغيرِهما، ممَّا تتباهى به الأُسَرُ الثَّريَّةُ، وتَستفِزُّ به مشاعرَ الفقراءِ وأحاسيسَ البسطاءِ؟ بل تَستفِزُّ به مشاعرَ المجتمعِ كلِّه، وتدفعُ ببعضِ الشَّبابِ إلى الانحرافِ والإصابةِ بالأمراضِ الخُلُقيَّةِ والنَّفسيَّةِ.

أيُّها الشَّبابُ..

أعرفُ أنَّكم تسألون عنِ الإرهابِ، وعن «داعش» وأخواتِها، وما أَظُنُّكم بغافلينَ عن حقيقةِ هذه التَّنظيماتِ المُسلَّحةِ، والظُّروفِ الَّتي وُلِدَت فيها،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٠) من حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَن أعْطَى في صَداقِ امرأةٍ مِلْءَ كَفَّيْهِ سَويقًا أو تَمرًا فقدِ استحَلَّ». والسَّويقُ: هو ما يُتَّخذ مِنَ الحِنطَةِ والشَّعيرِ. «لسان العرب»: ١٠/ ١٧٠.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥١٢١) ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال للرَّاغب في الزَّواج: «التمِسْ ولو خاتَمًا مِن حَديدٍ».

وكيف أنَّها وُلِدَت بأنيابٍ ومَخالِبَ وأظافرَ، وكيف أنَّها صُنِعَت صُنعًا لحاجةٍ في نفسِ يعقوبَ، ومعنًى في بطنِ الشَّاعرِ، وقد صارَ اللَّعِبُ الآنَ على المكشوفِ، وظهَرَ ما كان بالأمسِ مُستخفِيًا، ولعلَّكم أَصَختُمُ السَّمعَ إلى رؤساءِ الدُّوَلِ وهم يتبادلون التُّهَمَ حول شراءِ البترولِ مِن جماعاتِ الإرهابِ في بلادِنا العربيَّةِ، ولعلَّكم تتساءلون معي: هل القضاءُ على حاكمٍ، حتَّى لو كان ديكتاتورًا، يَتطلَّبُ إبادةَ دُوَلٍ وشعوبٍ، وقَتْلَ ثلاثةِ أرباعِ المليونِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ في بلدٍ واحدٍ وحربٍ واحدةٍ؟!

وإنِّي لَأترُكُ الإجابةَ الحَزينةَ لفِطنتِكُم ووَعيِكُم، فقد يكونُ جِيلُكم أَوعى بهذه الظُّروفِ وبمُلابساتِها مِن جِيلِنا الَّذي بدأَ يميلُ إلى الغروبِ.

أيُّها الأبناءُ الأعزَّاءُ..

في نهايةِ كلمتي هذه أَوَدُّ أن أُؤكِّدَ لحضراتِكم على أنَّ الأزهرَ الشَّريفَ يُسعِدُه كثيرًا أن يَفتَحَ أبوابَه لإسهاماتِكمُ الفِكريَّةِ، واقتراحاتِكمُ المُستنيرةِ، مِن أجلِ دَعمِ رسالتِه في نشرِ ثقافةِ السَّلامِ الاجتماعيِّ على المستوى الوطنيِّ والإقليميِّ والدَّوليِّ، ومِن أجْلِ تأكيدِ الأُخُوَّةِ الإنسانيَّةِ والزَّمالةِ العالَميَّةِ، ومن أجْلِ ترسيخِ المفاهيمِ الصَّحيحةِ للدِّينِ والشَّريعةِ في عقولِ النَّاشئةِ، لحمايتِهم مِنِ استقطابِ الفكرِ المُنحرِفِ ودَعَواتِ الغُلُوِّ والتَّطرُّفِ والقتلِ وحملِ السَّلاحِ في وَجهِ الآمنِينَ والمُسالِمينَ.

وأَتمنَّى لو تَدخُلون معَ علماءِ الأزهرِ وشبابِه في حِواراتٍ نَتعرَّفُ فيها عليكم وعلى مَشاكِلِكم، كما تَتعرَّفون على شبابِ الأزهرِ ومَشاكِلِه.

شكرًا لحُسنِ استماعِكُم، والسَّلامُ عَليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

❊ ❊ ❊

كَلِمةٌ إلى الشَّبابِ(*)

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

أرحِّبُ بكم جميعًا -أيُّها الشَّبابُ- على أرضِ مصرَ الطَّيِّبةِ، وفي رِحابِ الأزهرِ الشَّريفِ، وإنه لَيُسعِدُ الأزهرَ ويُسعدُني شخصيًّا أنْ أَرى أمامي شبابًا واعدًا مِن المسيحيِّين والمسلمينَ مِن الغربِ والشَّرقِ، تلاقَوا هنا في مشيخةِ الأزهرِ، لمناقشةِ أخطرِ قضيةٍ تَشغَلُ بالَ العالَمِ؛ ألا وهي قضيَّةُ السَّلامِ العالَميِّ، والتَّعايُشِ المُشتركِ بين الشَّرقِ والغربِ.

وإنَّ اجتماعَكم هنا -أيُّها الشَّبابُ- لهو ثمرةٌ طيِّبةٌ لجهودٍ مُشتركةٍ تمَّتْ قبلَ ذلك بين مركزِ الحوارِ بالأزهرِ والمؤسَّساتِ الكنسيَّة الكُبرى، وعلى رأسِها مجلسُ الكنائسِ العالميِّ، وأوَّلُ ما يؤكِّدُه الأزهرُ في رسالتِه للعالَمِ أجمعَ -عبرَ لقائِكمُ التَّاريخيِّ هذا- هو أنَّ الأديانَ السماويَّةَ وآخرُها الإسلامُ تؤكِّدُ تكريمَ الإنسانِ واحترامَه، وتُحرِّمُ سفكَ دماءِ الأبرياءِ أوِ العُدوانَ عليهم أو ترويعَهم، وأنَّ أيَّ انحرافٍ عن ذلك هو في ميزانِ الإسلامِ جريمةٌ كبرى، وإفسادٌ في الأرضِ، تأمُرُ شريعةُ الإسلامِ بالتَّصدِّي له، وحفظِ المجتمعِ مِن آثارِه المدمِّرةِ.

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت في ختامِ الملتقى الدَّولي الأوَّل للشَّباب المسيحيِّ المسلم، بمقرِّ مشيخةِ الأزهرِ الشَّريفِ، يوم: ١٧ من ذي القعدة سنة ١٤٣٧هـ/ ٢١ من أغسطس سنة ٢٠١٦م.

أيُّها الشَّبابُ. .

إنَّ عَلاقةَ النَّاسِ والشُّعوبِ بعضِها ببعضٍ في نصوصِ القرآنِ الواضحةِ، هي عَلاقةُ التَّعارُفِ والتَّعاونِ والتَّآخي، وتَبادُلِ المصالحِ والمنافعِ مِن أجلِ حياةِ الإنسانِ وإعمارِ الأرضِ، ولا مكانَ في فلسفةِ الإسلامِ الاجتماعيَّةِ لِعَلاقاتِ الصِّراعِ والهيمنةِ الاقتصاديَّةِ والثَّقافيَّةِ والعسكريَّةِ بين الأممِ والشُّعوبِ؛ لأنَّ مَنطِقَ القرآنِ يقومُ على تقريرِ حقيقةٍ ملموسةٍ مُشاهدَةٍ، هي أنَّ اللَّهَ خلقَ النَّاسَ مُختلِفينَ في عقائدِهم وأديَانِهم وألوانِهم ولغاتِهم، حتَّى في بصَماتِ أصابعِهم، وأنَّ مِن المستحيلِ أن يُحشَدَ النَّاسُ في عقيدةٍ واحدةٍ أو دينٍ واحدٍ أو ثقافةٍ واحدةٍ، وأنَّ أيَّةَ محاولةٍ من هذا القَبيلِ محكومٌ عليها بالفشلِ الذَّريعِ؛ لأنَّها تَسبَحُ ضدَّ إرادةِ اللَّهِ تعالى ومشيئتِه في خَلقِه.

والإسلامُ وإنْ كان خاتمَ الأديانِ السَّماويَّةِ، إلَّا أنَّه مُكَمِّلٌ لهذه الأَديانِ، ومُتمِّمٌ لرِسالاتِ اللَّهِ في الأرضِ، ومِن ثَمَّ يُؤمِنُ المُسلِمُ بالرِّسالاتِ التي أُنزِلَت مِن قَبْلُ على إبراهيمَ وموسَى وعيسى عليهمُ السَّلامُ، ويُصدِّق بصُحُفِ إبراهيمَ، وتوراةِ موسى، وإنجيلِ عيسى، كما يُصدِّقُ بالقرآنِ الكريمِ من غيرِ فرقٍ، ويوجِّهُ الإسلامُ أتباعَه إلى الانفتاحِ على أتباعِ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ إلى درجةِ الزَّواجِ والمصاهَرةِ، وعَلاقةِ البرِّ والمودَّةِ والرَّحمةِ، كما أَمرَهمُ الإسلام بذلك، ويقرِّرُ القرآنُ أنَّ اللَّهَ جعَلَ في قلوبِ أتباعِ عيسى عليه السَّلامُ رأفةً ورحمةً إلى يومِ القيامةِ.

والدَّعوةُ إلى اللَّهِ في دِينِ الإسلامِ محدَّدةٌ بأن تكونَ بطريقِ الحكمةِ والحوارِ الهادئِ الَّذي لا يَجرَحُ الآخَرَ ولا يُسيءُ إليه أو إلى عقيدتِه، ويَبرَأُ الإسلامُ مِن نشرِ عقيدتِه أو أيَّةِ عقيدةٍ أُخرَى بقوَّةِ السَّلاحِ أوِ الإكراهِ أوِ الضُّغوطِ أيًّا كان نوعُها، حتَّى لو كانت في شكلِ إغراءٍ بالمالِ أو الجاهِ أو

شراءِ الضمائر والعقولِ؛ لأنَّه -كما يُقرِّرُ القرآنُ-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، كما يُقرِّرُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ودَورُ نبيِّ الإسلامِ كما حدَّده له القرآنُ الكريمُ هو دَورُ المبلِّغِ والموضِّحِ لطريقِ اللَّهِ، وليس له أنْ يُسَيطِرَ على النَّاسِ، أو يُكرِهَهم، وإنَّما يَدعُهم للَّهِ بعدَ أنْ يُبيِّنَ لهم طريقَ الحقِّ وطَريقَ الضَّلالِ، قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشُّورى: ٤٨]، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغَاشِيَة: ٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونس: ٩٩].

والنَّاسُ بالنِّسبةِ للمسلمِ إمَّا أخٌ في الدِّينِ أو نظيرٌ في الإنسانيَّةِ، والمسلمُ فيما يُقرِّرُ نبيُّ الإسلامِ هو مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِن لسانِه ويدِه(١)، أي هو مَنْ يُسالِمُ النَّاسَ، ولا يُلحِقُ بهم أذًى؛ لا بلسانِه، ولا بيدِه، ويحرِّمُ الإسلامُ إلحاقَ الأذى بأبناءِ الأديانِ السَّماويَّةِ بوجهٍ خاصٍّ، لدرجةِ أنَّ المسلمَ الذي يُؤذي أهلَ الكتابِ يُخاصِمُه نبيُّ الإسلامِ يومَ القيامةِ(٢) ولا يَشَمُّ رائحةَ الجَنَّةِ(٣).

أيُّها الشَّبابُ المسلمُ، أيُّها الشَّبابُ المسيحيُّ..

ثقتي فيكم بعدَ اللَّهِ قويَّةٌ، وأملي كبيرٌ في براءةِ فِطرتِكم، وصفاءِ نفوسِكم ونقاءِ عقولِكم، وتحرُّرِكم مِن مواريثَ قديمةٍ، كبَّلَتْ كثيرًا مِن جيلنا ومنعَته مِن أنْ يؤدِّيَ واجبَه في نشرِ ثقافةِ السَّلامِ في العالمِ، فأنتم أقدرُ على ترسيخِ مبادئِ الأُخوَّةِ الإنسانيَّةِ، وإطفاءِ نيرانِ الحروبِ التي يَرُوحُ ضحيَّتَها كلَّ يومٍ آلافُ الآلافِ مِنَ البشرِ دونَ ذنبٍ أو جريمةٍ، ويدفعُ ثمنَها الباهظ فقراء

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٤٩٩٥) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٢) أخرج أبو داود (٣٠٥٢) عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».
(٣) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﵄.

الناس وبؤساؤهم ومرضاهم من الرجال والنساء والأطفال، وممن لا ناقة لهم ولا جمل في حروب لم يُؤخَذْ لهم رأي في إشعالها، وإنَّما فُرِضَتْ عليهم فرضًا، بقراراتٍ عبثيَّةٍ لا تعترِفُ بحَقِّ الحياةِ والمستضعفِين في الحياةِ على هذه الأرضِ.

أيها الشباب..

حاربوا الأفكارَ الهدَّامَةَ الدَّاعيةَ للصِّراعِ والعنفِ والكراهيةِ، وثقتي غيرُ محدودةٍ فيكم وفي حماسِكم الوثَّابِ ووَعيِكمُ المتألِّقِ، وأنتم مؤهلون لأن تكونوا سُفَراءَ سلامٍ ورحمةٍ وتعاونٍ بين الشُّعوبِ، وأن تكونَ قضيَّتُكمُ الأُولى هي كيفَ تصنعونَ عالَمًا جديدًا خاليًا من الدِّماءِ والفقرِ والمرضِ والجهلِ، والأزهرُ على استعدادٍ تامٍّ لأنْ يَدعَمَكم بكلِّ ما يَملِكُ من جُهدٍ وطاقةٍ، فهذه هي رسالتُه، وأنتم جميعًا أبناؤُه وسفراؤُه في حَملِ هذه الرِّسالةِ وتبليغِها.

❊ ❊ ❊

الطِّبُّ والأطبِّاء
في التراث العربي الإسلامي(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته..

أبدأ كلمتي بتهنئة كلية الطب بجامعة الأزهر وقادتها وأساتذتها والعاملين بها، في عيدها الذَّهبي الأوَّل وأهنِّئكم -أيُّها الأساتذةُ الأجلَّاء!- على إنجازاتكم العلميَّة وخدماتكم الطِّبية الإنسانيَّة التي قدَّمتموها ولازلتم تقدِّمونها للمِصريين وغيرِ المصريين، وبخاصَّة البُسطاء والفقراء من شعب مصر، ومنهم مَن لا يَملكون ثَمن العلاج، بل منهم مَن تعجَز جيوبُهم عن الوفاء بأُجرة المواصلات التي تَحملهم إلى مستشفيات الأزهر.

ومن الحقِّ والإنصاف والاعتراف بالفضل لأهله؛ أن أسجِّل أنَّني سعِدت أكثر من مرَّة، وأنا أسمع من المرضى الفقراء الذين شفاهم اللَّه على أيديكم، ثناء جميلًا عليكم لما لاقَوْه من اهتمام وحسنِ معاملة في مستشفياتِ الأزهر، سواءٌ على مستوى الخدمات الطبيَّة والعلاجيَّة، أو مستوى الخدمات الإداريَّة والمعاملة الإنسانيَّة.

وهذه «شهادةٌ» أسجِّلها في بداية كلمتي هذه؛ شكرًا لمهارتكم العلميَّة الممزوجة بإنسانيَّتكم وأخلاقكم المهنيَّة العالية، وثناءً عاطرًا على أريحيَّتكم

(*) كلمة ألقيت في احتفال كلية الطب، بجامعة الأزهر الشريف، باليوبيل الذهبي، المنعقد بقاعة الإمام محمد عبده، في: ٢٧ من رجب سنة ١٤٣٧هـ، الموافق: ٤ من مايو سنة ٢٠١٦م.

الكريمة في معاملة المرضى ورعايتهم في مستشفياتكم، رغم ما نعلمه جميعًا من قصور ونقص في بعض التَّجهيزات، وما يبذله الأساتذة ومساعدوهم من مجهود إضافي مرهق لتعويض هذا النَّقص، ولتفادي ما قد يترتَّب عليه من آثار تنعكسُ سلبًا على تقديم الخدمة الطبيَّة للمرضى كما ينبغي.

فهذا هو ما تُمليه عليكم مهنتكم التي هي ألصق المهن قاطبة بعالم الضَّمير وأمَّهات القِيَم والفضائل والأخلاق، وهذا ما نعرفه من وظيفة الطِّب في التَّاريخ القديم والحديث حتى كان الطِّب عند القدماء المصريين قاصِرًا على طبقة الكهَّان بحسبانهم الطَّبقة العليا في المجتمع، وأصحاب الحكم النافذ والكلمة المسموعة لدى أكبر الفراعنة، وقد ربط أبو الطب أبقراط بين محبَّة الطِّب ومحبَّة الإنسانيَّة، وجعل منهما وَجْهَين لعملةٍ واحدة، قال: «لا يكون طبيبًا من لا يحب الناس»، وقد روي عن الإمام الشافعي ﷺ قوله: «صنفان لا غنى عنهما للنَّاس: العلماءُ لأديانهم والأطبَّاء لأبدانهم، ويزيد فضل الطَّبيب بأن عنده أعزَّ شيء لدى الإنسان وهو الصِّحة، بل الحياة، وأنَّه مهما دفعنا لطبيب أتعابه فلا نزال ندينُ له بالكثير.

ومِن المؤسِف أنَّ هذا القول الجميل تحوَّل فيما بعدُ إلى تصوير كُلٍّ من المعلِّم والطَّبيب في صورة النَّاصح الذي لا يسدي نصحه إلا بمقابل.. وحفظنا في ذلك قول الشاعر:

إنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبِيبَ، كِلَاهُمَا لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا

لكن لا تزال مهنة الطب -رغم ذلك- تزداد شرفًا وعُلوًّا بفضل محوريَّتها في حياة الإنسان وجسمه وعقله، حتى قالوا: «إن الطبيب إذا دُعي لولادة امرأة يكون له الحق -في الأحوال العسرة- في الانتخاب بين حياة الطفل أو الأم، حسب ما يترآى لذمَّته وعلمه، فله أن يفضِّل إنقاذَ الأمِّ وإعدام الطِّفل،

كما أنَّ له أحيانًا حقَّ إجراءِ العكس، أي إنقاذ الطِّفل فقط إن كانت أمُّه في حالة يأس لا يُرجى لها من نجاة»[(١)].

والطَّبيب هو الذي يُعلن الحياة ويُعلن الموت، وهذه السُّلطة لا توجد في يد أحد سِوى الطَّبيب.

والذي يقرأ تُراث العرب المسلمين في مهنةِ الطِّب يدهش كثيرًا من هذه العناية الفائقةِ التي أحاطوا بها وظيفةَ الطَّبيب بحثًا وتأصيلًا وشُروطًا، وآدابًا وتحذيرًا، لا أكون مبالغًا لو قلت: إنَّني لم أعثر على مثلها وهم يتحدثون عن المِهَن الأخرى، كالخَطابة والقضاء وآداب العالم والمتعلم والفنون الأخرى، على كثرتِها وكثرةِ ما قالوه فيها وفي أصحابها، وكمثالٍ واحدٍ -أكتفي به لضيق الوقت- فإنَّ كتاب «أدب الطبيب» لإسحاق الرهاوي، الذي ألَّفه قبل ألف ومائة عام أفرد أبحاثًا مطوَّلة عن شرف صناعة الطِّب، وبيان شروطها بيانًا دقيقًا عجيبًا، ومن هذه الشُّروط ما يتعلق بالخَلْق ومنها ما يتعلق بالخُلق، وأنَّ من الشروط الخلْقيَّة للطَّبيب أن يكون حسَنَ الوجه، جيِّدَ الصِّحَّة، سليمَ الجسد، نظيفَ الثَّوب.. إلخ هذه الأوصاف الظاهرة، أمَّا ما يتعلَّق بالخُلق فحدِّث ولا حرج، فلقد أفاض علماؤنا في بيان شروط الطَّبيب الخُلقية، وفي مقدِّمتها: الرحمة بالمرضى وبخاصة الفقراء، والصبرُ على المريض، وحسنُ الاستماع له حتى آخر كلمة من كلامه، وقالوا: «مهما كان كلام المريض مطوّلًا فلا يخلو من فائدة، ورُبَّ لفظٍ واحدٍ سهَّل على الطَّبيب الوصولَ إلى معرفة حقيقة المرض وتَعيين الدَّواء المناسب» وقالوا: «يجب على الطَّبيب أن يَمُدَّ يد المساعدة للمرضى الفقراء، وإلَّا كان مهملًا في وظيفته غير جدير بمنزلتها السامية».

(١) «أدب الطبيب» لإسحاق بن على الرهاوي: ٢٥، مركز الملك فيصل، الرياض.

وإنِّي لأقترح عليكم أيها الأساتذة الأجلاءُ في هذا المقام أن تتعرَّفوا على الآثار التي يزخَر بها تُراثُنا في آداب مهنة الطِّبِّ ليُصاغ منها مقرر يُعنون بعنوان: أدب الطبيب، أو واجبات الطبيب، ويُدرَّس لأبنائِنا في كليَّات طبِّ الأزهر؛ ليعمِّق في وجدانِهم أهميَّة هذه القِيَم التي بدأت تتآكل وتضمحلُّ، وتتخطَّاها أنماطُ حياتِنا المعاصِرة، وأرجو ألا تستغربوا هذا الكلام وتقولوا: إنَّ الزَّمن غيرُ الزَّمن، فلقد لمستُ بنفسي أنَّ كثيرًا مما قرأتُه عن آدابِ الطَّبيب وجدته واقعًا متجسِّدًا في مستشفيات أوروبا، بل في مستشفيات الخليج، وبصورة أثارت تطلعي إلى أن ينعم مرضانا بمثل هذه المعاملة الإنسانيَّة الراقيَّة.

والأمل -بعد اللَّه تعالى- معقود عليكم جميعًا في أن تحققوا هذا الحلم في المستشفى التَّخصُّصي الجديد، وإنكم لقادرون على تَحقيقِه إن أردتم، وخلصت النَّوايا، وصدَقَت العزائم. واسمحوا لي أن أُصارِحكم قبل أن أنهي، بأنَّني بذَلت ولا زِلتُ أبذُل أقصى ما في طاقتي من أجل أن يُصبح هذا المستشفى أنموذجًا مشرِّفًا وصَرحًا متفرِّدًا، يُباهي به الأزهر وجامعته مستشفيات المنطقة، إلا أنَّه كنت أشعر أنَّني أسبح بمفردي ضِد تيَّارات عاتية.

وهذه ليست كلمة عِتاب بقدر ما هي نداء لحضراتكم ولكلِّ طبيبٍ أزهريٍّ أن يتحمَّل مسؤوليَّته في هذا الصَّرح الواعِد أمام اللَّهِ وأمام الضَّمير وأمامَ التَّاريخ.

وأرجو ألَّا يكون ندائي هذا صرخة سابِح تعِب من مغالبة الأمواج.

شُـــكرًا لكـــم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

كلمة شكر
لجامعة بولونيا بإيطاليا(*)

بســم اللَّه الرحمــن الرحيــم

الحفل الكريم!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛

وبعد:

لقد تلَّقيتُ دعوةَ جامعتِكُم العريقة -لتكريمي- بكلِّ إعزازٍ واحترامٍ؛ وكان لها في نفسي تقدير خاص دون سائر الدَّعَوات التي أتلقَّاها من مختلفِ الهيئات والمؤسَّسات الدِّينيَّة والسياسية والاجتماعية، فدعوتكم دعوةٌ جامعية علمية، وأنا رجل جامعي منذ سبعينيَّات القرن الماضي، أي منذ نصف قرن تقريبا، ولا يزال شعوري حتى هذه اللحظة دافقًا بأني خُلِقت للعلم والتَّعلُّم والتعليم، ورغم أن المقادير انتزعتني انتزاعًا من قاعات البحث والدرس والنقاش والمناظرة، إلَّا أنَّني دائم الحنين إلى هذا الفضاء المتعالي المقدَّس، المفعَم بعبير المعرفة والحكمة، وعندما تلقيت دعوتكم الكريمة سارعت إلى تلبيتها؛ لأنه يسعدني حقًّا ويمسُّ شِغاف قلبي أن ألتقي بكم أيها السادة العلماء والشباب الباحثون وطلاب العلم، في رحاب هذا الصرح العلمي العتيق، وأن أتنسم عطر البحث العلمي في أجوائكم، وأرى

(*) ألقيت هذه الكلمة في جامعة بولونيا بإيطاليا بمناسبة تكريم فضيلة الإمام الأكبر، في: ٥ صفر الخير سنة: ١٤٤٠هـ، الموافق: ١٥ أكتوبر سنة: ٢٠١٨م.

الشوق إلى المعرفة في عيونكم، حتى إني لأغبطكم -عَلِم اللَّه- لما أنتم فيه، ويزداد حنيني إلى أيام التبتل في محراب العلم، والتنقل في أروقة الجامعة، والتمتع بتذوق نص تراثي، أو باكتشاف فكرةٍ جديدة، أو بتوجيه باحثٍ شابٍّ إلى أقرَبِ الطرق إلى بغيته المنشودة.

يعرف شعوري هذا جيِّدًا مَن اتَّخذ مهنة التعليم رسالة حياة عن قصد واختيار، وهي رسالة الأنبياء من قبل، كما قال نبي الإسلام ﷺ: «إنَّما بُعِثتُ مُعلِّمًا»، ومَن ذاق حلاوة اكتشاف الحقيقة بعدَ عَناءِ البحث وطُول التأمل وصدق الطلب؛ وقد كان شيخنا محمد الغزالي -رحمه اللَّه- كثيرًا ما يردِّد: «سُئِلَ حكيم: ما السعادة؟ فقال: هي في حُجَّة تتبختر اتِّضاحًا، وشبهة تتضاءَل افتضاحًا».

ولا أكتُمكم سرًّا إذا ما قلت لكم: إن أسعد الأوقات عندي هي الجلوس الهادئ إلى صفحات كتابٍ، يُعبِّر ذلك بيتُ شاعرِ العربية أبي الطَّيِّب المتنبِّي -رحمه اللَّه-:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

إن المعرفة هي أعز ما يطلب، وهي أول واجب على العقلاء، وهي تراث الأنبياء، كما قال نبيُّ الإسلام: «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ»؛ وهي طريق المؤمن إلى الجنة، وقد أوجبها نبيُّ الإسلام على أتباعه رجالًا ونساء، وأمرهم بطلبه حتى لو كان العلم في أقصى الأرض، قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ».

أيها السادة الفضلاء:

فمنذُ ألف عام -بل تزيد- قامت في مصر -البلد الوحيد الذي يمتدُّ في فضاء القارَّتين العريقتين: آسيا وأفريقيا- منارةٌ سامقةٌ، تبعث بأضواء

المعرفة والعلم إلى أطراف العالَم كلِّه. . إنَّه الأزهر الشريف الذي بفضله أقفُ بينكُم اليوم، والذي أعُدُّ هذا التكريم المقدور والمشكور من جامعتكم -التي يقترب عمرها كثيرا من عمر الأزهر الشريف- هذا التكريم موجَّه في الحقيقة إلى الأزهر، وإلى كل من تخرَّج منه على مدى ألفيته من علماء وأساتذة وطلاب، حتى وإن كان تكريم جامعتكم في ظاهر الأمر موجَّهًا إلى أحد رجاله الخادمين للعلم والعلماء فيه.

ليس الأزهر أيها السادة -كما تعلمون- مجرَّد معهد عريق أو جامعة عالميَّة، ربّما كانت هي الأقدم في تاريخ الإنسانية من حيث تواصل عطائها دون توقف، منذ إنشائه حتى يوم الناس هذا، بل هو في جوهرِه منهج علمي، وخطابٌ فكريٌّ متمَيِّز، ورسالة سلام عالمي، طريقها الحوار والتفاهم.

فالأزهر الشريف يحملُ مسؤوليَّة الجانب العِلميِّ والدعويِّ من رسالة الإسلام، خاتمة الرسالات الإلهية إلى البشر كافَّة، رسالة السّلام العالمي والمساواة والعدالة والكرامة الإنسانيَّة، والتحرُّر من الآصار والقيود التي تُثقِل كاهلَ البَشَر، وتُؤمن بكلِّ ما أرسَلَ اللَّهُ من رسولٍ، وما أنزَلَ اللَّه من كتاب؛ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعلى مَدَى القُرون سلك الأزهر منهجًا مقارَنًا، يقوم على الفهم العميق للثقافة الإسلامية في أطوارها المختلفة، ومَنابع الثقافةِ الإنسانيَّةِ بوجهٍ عامٍّ، من الفلسفةِ الشرقيَّة والغربيَّة، والآدابِ القديمةِ والمعاصرةِ؛ ليُزوِّد -قَدْرَ الإمكانِ- طلَّابه بما يُعينُهم على فهم الماضي والحاضر، والقُدرة على استشراف المستقبل، والإسهام في الفكر المتجدِّد على منهجيَّة عِلمِيَّة ثابتة.

ولئن سألتُموني عن السِّمة المميِّزة للمنهجِ الأزهري في الدَّرس العلميِّ فلَأقولَنَّ: إنَّه منهجُ متكامل، يلبِّي مطالب المعرفة الدينية والدنيوية معًا، ومن هنا تجاوَرَتْ في رحاب جامعة الأزهر كليات الإلهيات والحِكمة القديمة والفلسفة الحديثة مع كليات العلوم التجريبية والطب والهندسة والزراعة وغيرها، وقد بلغ من عالَمِيَّته أنه يستقبل اليوم أكثر من خمسة وثلاثين ألف طالب وطالبة من أكثر من مئة دولة من أنحاء العالم، يطلبون العلم في رحابه في منهج معتدل، لا إفراط فيه ولا تفريط.

وإنِّي لأشعُرُ باعتزاز بالغ بالعلم حين دخلت محراب جامعتكم هذه في قلب أوروبا، مستشعرًا جلال الدور التاريخي الذي اضطلعت به جامعتكم ومثيلاتها في تعليم أهل هذه القارة، وقد أزعم أنني على إلمام بما قدمته هذه الصروح العلمية التاريخية عبر العصور من عطاء علمي وثقافي متنوع، فمَن منَّا لا يعرف -اليوم- جهود هذه المنطقة في خدمة الثقافة الإسلامية، ومَن منَّا لا يعرف أن أول طبعة للقرآن الكريم في الدنيا كلها خرجت من هذا الرحاب التي تمثل جامعتكم أحد أركانها الأصيلة، ففي عام: **١٥٣٧**م قامت عائلة باغانيني بطباعة المصحف، وقد احتفظ لنا دير الفرانسيسكان بالبندقية بنسخة فريدة وحيدة في العالم.

وهل لنا أن ننسى جهود الأمير ليون كايتاني صاحب المشاريع الطموحة ومنها كتابه الفريد: «حوليات الإسلام» وكذلك ميكال أماري وأبحاثه العميقة عن «صقلية» التي لازالت تحتفظ بقيمتها العلمية حتى يومنا هذا، كما لا ننسى إنْيَتْسيو جويدي ومحاضراته في الأدب العربي في الجامعة المصرية في **١٩٠٨-١٩٠٩**م، وكذلك ابنه ميكلنجلو جويدي، وجوزيبي جَبرِييلي ومساهماته في تاريخ العلوم عند العرب، وتدريس الطلبة المصريين

المبتعثين لدراسة الفنون في روما، وابنه فرانسيسكو جبرييلي الذي ترجم عيون الأدب العربي المعاصر إلى الإيطالية، وكارلو ألفونسو نللينو ومحاضراته أيضًا في الجامعة المصرية في مطلع القرن العشرين في الآداب العربية وتاريخ علم الفلك، وكان عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، وتطول القائمة لو رُحتُ أعدِّد لكم أسماء العلماء الإيطاليين الذين حرَصوا في القرن الماضي على إقامة جسور العلم بين هذا الثغر في جنوب أوروبا وبين مصر التي هي أول ثغر في شمال أفريقيا.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

❊ ❊ ❊

كلمة شكر
لجامعة أمير سونكلا بتايلاندا(*)

بسمِ اللّه الرَّحمن الرَّحيم

الحفل الكريم . .

السَّلام عليكم ورحمةُ اللّه وبركاتُه

يُسعدني ويُشرِّفني اليوم أن أتلقَّى هذا التَّكريم العزيز على نفسي من تايلاند؛ شعبًا وحكومةً ومَلِكًا، والذي يَتمثَّل في منحِي درجة الدُّكتوراه الفخرية في الدِّراسات الإسلاميَّة، من جامعة أمير سونكلا.

وإنِّي إذ أُعرِبُ عن سعادتي وشكري الجزيل لهذا التكريم الذي جاءني يَسعى من أقصى الشَّرق؛ فإنِّي أُؤكِّد على أنَّه ليس تكريمًا من مملكة تايلاند لشيخ الأزهر فقط، بل هو تكريمٌ لكلِّ الأزهريين في العالَم، بما فيهم الأزهريُّون التايلانديون، وهم يَبلغون الآن أكثرَ من ألفين وسبعمائة طالب وطالبة من تايلاند يَدرُسون الآن في الأزهر الشَّريف، فضلًا عن الآلاف الذين تَخرَّجوا في الأزهر الشَّريف بالفعل ويَعملون في تايلاند، علاوةً على استضافة ثمانين طالبة تايلاندية في المدينة الجامعية.

وتَحظى تايلاند من بين بُلدان جنوب شرق آسيا بالنَّصيب الأكبر من مِنَح الأزهر الدِّراسية؛ حيثُ يُخصِّصُ الأزهرُ لطلَّاب تايلاند: ٨٠ منحة سنويًّا.

(*) كلمة ألقيت أمام أعضاء جامعة أمير سونكلا، الذين حضورا إلى القاهرة لتقليد فضيلة الإمام الأكبر درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة أمير سونكلا - تايلاند، في: ١٨ من المحرم، سنة: ١٤٣٩هـ، الموافق: ٩ من أكتوبر، سنة: ٢٠١٧م.

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة التَّايلاندية الكريمة؛ أن أُعبِّر عن شكري لسفارة تايلاند بالقاهرة، وما تُقدِّمُه من تعاون وتَنسيق مُستمرٍّ مع الأزهر، لمُتابَعة طلَّاب وطالبات تايلاند، وحلِّ مُشكلاتهم، وتقديم كلِّ المقوِّمات التي تُساعد على تفرُّغ الطُّلَّاب والطَّالبات لتَحصيل دروسهم في مختلَف التَّخصُّصات.

ويُسعدني أن أعرض رغبةَ الأزهر في تنفيذ المزيد من بُروتوكولات التَّعاون العِلمي والثقافي بين جامعة الأزهر وجامعة أمير سونكلا، سواء في الدِّراسات الإسلامية، أو الدِّراسات التَّقنية، والعِلمية، والصَّيدلية، والزِّراعية، والبيئيَّةِ. . . والأزهرُ على استعدادٍ تام لتقديم العَون في كلِّ هذه المجالات.

مرَّةً أخرى؛ أشكرُكم شكرًا جزيلًا، على تفضُّلكم بالحُضور لتكريمي هنا في قلب الأزهر الشريف، وهذه أصالةٌ ليست بغريبةٍ على شعب يَجمع بين العَراقة والحداثة في دولةِ تايلاند العزيزة.

وإنِّي لأتطلَّع إلى زيارة بلدكم الكريم، والذي سعدتُ بزيارته أيَّام أن كنتُ رئيسًا لجامعة الأزهر، في القريب العاجل إن شاء اللَّه.

شكرًا مرَّة أخرى، وأهلًا ومرحبًا بكم في مصر الأزهر.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

كلمة على مائدة الغداء بقصر لامبث(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . . وبعد؛ ؛ ؛

يسعدني في افتتاح هذه المائدة الكريمة، التي تذكرني بالسورة الخامسة من القرآن الكريم سورة المائدة التي تدور حول المائدة التي اجتمع فيها السيد المسيح عليه السلام، بحوارييه -رضي اللَّه عنهم وأرضاهم- وأنزل اللَّه عليهم -بدعاء السيد المسيح- طعامًا من الجنة، هذا النبي الكريم الذي شُغِلَ بالمساكين في حاجاتهم المادية والروحية والذي أعلن أنَّه «ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان» واليوم، ومن وحي «المائدة»، نتذكر ما تعيشه ملايين الجوعى في العالم الذي تشغله صراعا ت تافهة، عن هؤلاء الإخوة في الإنسانية: نساءً وأطفالًا وشيوخًا لا يجدون ما يسد الرمق، ولا من يخفف آلامهم، وقد أوصانا سيدنا محمد ﷺ محذرًا بقوله: «**ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع**»(١)، فجيراننا الأقربون وكثير من إخواننا في أنحاء العالم يعانون من الفقر والحاجة، وقد يعانون مع ذلك من الحصار الذي يصادر المعونات الإنسانية، فلندعو اللَّه جميعًا متضرعين إليه أن يلهم الساسة وصنّاع القرار أن يلتفوا لقضايا الفقر والعوز والحرمان، وأن ينزلوها منزلتها اللائقة بها من اهتمام وجدية وضمير حيٍّ يقظ كما أشكر اللَّه على نعمه

(*) كلمة ألقيت على مائدة الغداء، بقصر لامبث، المقر الرسمي لكبير أساقفة كانتربري، لندن، يوم ٢٣ شعبان: ١٤٣٦/ ١٠ يونيو: ٢٠١٥م.

(١) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٢) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

السابغة، وعلى روح التواصل الأخوي التي أتاحت لنا هذا الطعام المشترك، بما يفرضه علينا من العمل الجاد المشترك، لتخليص إخواننا في العالم كله من الحاجة، ومن الأنانية وحب الذات، ونسيان الغير، وأن يهبنا جميعًا القدرة على خدمة الإنسانية كما أوصانا نبي الإسلام ﷺ «**وخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**»[1].

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛؛؛

❊ ❊ ❊

انتهى التصحيح في تمام الواحدة

من صباح الثلاثاء ٢ ربيع الآخر ١٤٤٢هـ

الموافق ١٧/ ١١/ ٢٠٢٠م بالمضيفة، بمشيخة الأزهر - القاهرة

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٥٧٨٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.
وله شاهد من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٣٦٤٦) وفي «المعجم الأوسط» (٦٠٢٦).